بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية
جامعة الملك عبد العزيز
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم التاريخ

دراسة سياسية وحضارية

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين

بنو عباد في اشبيلية

٤١٤ - ٤٨٤ هـ
١٠٢٣ - ١٠٩١ م

رسالة ماجستير

١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م

إعداد الطالب
يوسف أحمد حوالة

إشراف
دكتور: أحمد السيد دراج

(((بسم الله الرحمن الرحيم))

(مقدمة)

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ..

وبعد /

فقد كنت ومازلت ذا كلف شديد بالدراسات الاندلسية والشغف بها ، ومن وحى هذه الرغبة الذاتية جاء اختيارى لهذه الدراسات الاندلسية مجالا رحبا لرسالتى فى الماجستير . والدراسات الاندلسية مازالت ميدانا بكرا لم تستطع الدراسات التاريخية والادبية التى تمت حتى هذه اللحظة أن تستوعبه وتحتويه وتكشف عن أهم دقائقه وتفاصيله ، ذلك لأنّ الدراسات الاندلسية لم تبدأ على يد المستشرقين الا منذ منتصف القرن الثالث عشر الهجرى / التاسع عشر الميلادى ، كما أنها لم تبدأ على يد الكتاب والمؤرخين العرب مشارقة أو مغاربة الا فى مطلع القرن الرابع عشر الهجرى / العشرين الميلادى .

ومن المستشرقين الذين كان لهم دور ملحوظ فى الكشف عن خبايا الروائع الاندلسية المؤرخ الهولندى راينهرت دوزى ، وخليان ريبرا ، وفرانسسكوا كوديره ، وآسين بلاجيوس ، وجاينجوس ، ثم المستشرق الفرنسي ليفى بروفنسال الذى كان ذا حظ عظيم فى اكتشاف كثير من المخطوطات الاندلسية القيمة ، ثم معاصريه من أمثال رامون منندث بيدال وأمبروس هويسى ميرانده ، وأميليو غرسيه غومس وآنخل جنثالث بالنثيا وغيرهم .

وقد دفعت هذه الجهود العلمية كثيرا من الباحثين العرب المشتغلين بالادب والتاريخ مشارقة بدرجة أوسع ومغاربة على نطاق أقل الى الاهتمام بالدراسات الاندلسية وغوص ميدانها الرحب . وكان ذلك ابتداء من مطلع القرن الرابع عشر الهجرى / العشرين الميلادى أمثال أحمد زكى ، وشكيب أرسلان ، وعبد الحميد العبادى ، ثم جاء جيل آخر من المشارقة ليدفع بالدراسات الاندلسية شوطا بعيدا . ومن هؤلاء حسين مؤنس ، أحمد مختار العبادى السيد محمود عبد العزيز سالم ، حسن أحمد محمود ، عبد العزيز الاهوانى ، لطفى عبد البديع ، محمود على مكى وغيرهم ، وكان لجهود محمد عبد الله عنان التى قام ومازال يواصلها دورا كبيرا فى تقدم الدراسات الاندلسية والكشف عن مكنوناتها .

ومع هذا فيتراءى لى بحكم ماتوافر لى من خبرة متواضعة فى هذا المجال أن الدراسات الاندلسية بشقيها التاريخى والحضارى مازالت بحاجة الى البحث والتنقيب والدراسة والتحليل . ويتراءى لى ايضا أن هناك صفحات من التاريخ الاندلسى لم تنشر بعد بفعل الظروف الدقيقة التى عاشتها المصنفات الاندلسية ، وخاصة بعد اجلاء المسلمين عن أسبانيا ، ومحاكم التفتيش وطمس آثارهم .

وبوحى من هذا المفهوم ، وتحقيقا لرغبة ذاتية محضة عنّ لى أن اشارك فى مسيرة الداراسات الاندلسية التى نشطت فى النصف الثانى من القرن العشرين نشاطا كبيرا ومؤثرا

علنى قد أتمكن من نشر صفحة مطوية ، أو تصحيح فكرة ، أو مفهوم خاطئ ... الى غير ذلك.
ولقد اجتزءت من ذلك السجل ، وذلك التاريخ الاسلامى المشرق فى أحيان ، والقاتم فى أحايين أخرى موضوعا جملته عنوانا لرسالتى فى الماجستير هو : بنو عباد فى اشبيلية دراسة سياسية وحضارية (٤١٤ـ٤٨٤هـ/١٠٢٣ـ١٠٩١م) .

ولقد كان هذا الاختيار فى واقع الامر نابعا عن رغبة دفينة فى النفس تطمح الى تحسس الاسباب التى أدت الى زوال الوجود الاسلامى فى الاندلس من جهة ، وتطمح فى الوقت نفسه الى الغوص بعيدا فى تلمس الاسهامات الحضارية التى أهداها الاجداد بالاندلس لمسيرة البشرية العلمية والحضارية ارتواءا من معين من المجد التالد أولا ، وحفزا للهمم والعقول الاسلامية والعربية ثانيا .

ولعلى أزعم أن هذا الموضوع الذى انتقيته من التاريخ الاندلسى ذو أهمية بالغة فى فهم الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية فى الاندلس . فدولة بنى عباد ظهرت فى التاريخ الاندلسى بعد انتشار وحدة الدولة الاموية وبعد سقوط الخلافة لابل فى سنوات احتضارها الاخيرة . بل يمكن أن نقرر أنها كانت هى وغيرها من ممالك الطوائف الأخرى نتيجة مباشرة لذلك السقوط ، كما كانت دولة بنى عباد هى وغيرها من ممالك الطوائف سببا أساسيا فى تصدع الوجود الاسلامى فى الاندلس كلية . وكان ظهور تلك الممالك وما مارسته من ثم من سياسة ، وما ارتكبته من أخطاء استراتيجية فادحة ايذانا بضياع الاندلس. ذلك لأن القرن الخامس الهجرى /الحادى عشر الميلادى كان مسرحا لمنعطف تاريخى بارز ومهم فى تاريخ اسبانيا الاسلامية والنصرانية على السواء . اذ شهدت أسبانيا الاسلامية فى هذا القرن انهيار الخلافة الاموية ومن ثم تصدع وحدتها وما تلا ذلك من تفتت وتمزق سياسى شهدت فيه الاندلس نشوء حكم دويلات المدن أو ممالك الطوائف كما سماها معظم المؤرخين أو دول الفرق (١) والتى بلغ تعدادها أزيد من بضع وعشرين دولة ، وقد مارست هذه الدول سياسة اقليمية ضيقة الأفق ودخلت فى منازعات ضد بعضها البعض وكادت هذه الممارسات الخاطئة أن تعجل فى انهاء الوجود الاسلامى لو لم يقيض الله للأندلس قوة فتية مدت فى عمر الوجود الاسلامى أربعة قرون أخرى ، أعنى بذلك المرابطين . وفى نفس الوقت شهد ذلك القرن صحوة أسبانية نصرانية انتقلت بأسبانيا المسيحية من مرحلة الدفاع الى مرحلة الهجوم . ونمت وترعرعت خلال سنوات ذلك القرن خمس دول نصرانية ، استقرت أحوالها فى الأغلب الأعم واستغلظ عودها وانتهجت مستغلة الأوضاع الحرجة للمسلمين آنذاك ، سياسة تهدف الى انتزاع أراضى الآباء والأجداد كما كانوا يصرحون دائما . هذه السياسة هى التى عرفت تاريخيا بحركة الاسترداد الاسبانية . ولقد اضطلعت مملكة قشتالة الأسبانية آنذاك بالدور الرئيسى فيها ،

---

(١) : وردت هذه التسمية على لسان ابن الكردبوس فى كتابه الاكتفاء ، ص ٧٨ .

وكان لملوكها ابتداء من عهد الملك فردناند الأول الدور الأساسي في تلك السياسة ، اذ كان فردناند هو أول من بلور حركة الاسترداد وأعطاها الشكل الذى سارت عليه وقتذاك ، كما سيتضح لنا فى ثنايا الرسالة .

وفى ظل هذه الاوضاع فى اسبانيا الاسلامية والنصرانية معا واجهت الكثير من المصاعب، اذ لا يمكن فصل تاريخ دولة بنى عباد عن تاريخ ممالك الطوائف الاخرى . وكيف يمكن أن يحدث ذلك وهم القوة السياسية الكبيرة المؤثرة فى التاريخ الاندلسى فى القرن الخامس الهجرى بحكم ما توافر لهذه الدولة من مقومات قوية ؟؟ اذ أنه ليس خفيا أن نؤكد بأن مملكة بنى عباد كانت وقتها قطب رحى ممالك الطوائف وواسطة عقدها . وكانت معظم احداث الاندلس وقتذاك قد ارتبطت بهذه الدولة قليلا أو كثيرا وكان بنو عباد القوة السياسية المؤثرة سلبا وايجابا فى مجريات الأمور السياسية والادبية أيضا فى الاندلس فى تلك الفترة موضوع بحثنا .

ومن هنا كان لابد لى لمعرفة تاريخ بنى عباد ، ومن ثم التحدث عنه من الالمام بتاريخ الممالك الاسلامية والنصرانية معا . ذلك أن تسلسل الاحداث ومقتضيات الاشياء تدفع الى معرفة القوى السياسية الاخرى التى كانت تموج بها أرض اسبانيا بشقيها المسلمة والمسيحية آنذاك .

ولعل من المسلمات التاريخية التى كثيرا ما تصدق فى كل زمان ومكان أن نجد فى مقابل الانحلال والتمزق السياسى الذى تشهده منطقة ما نجد فى المقابل تطورا وازدهارا حضاريا مميزا . فالقرن الخامس الهجرى بقدر ما يعتبر قرن تدهور وانحلال وتمزق سياسى بقدر ما كان نقطة مضيئة فى تاريخ التمدن والحضارة الاندلسية . اذ شهدت الاندلس أدبا رفيعا وتمدنا ثقافيا وعلميا كبيرا ، كما شهدت الحياة الاجتماعية والمعاشية ترفا حضاريا راقيا .

ذلك شيئ مسلم به ، فالشرق الاسلامى شهد ما يماثل هذا الوضع فى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى .

بقى أن أشير الى أن هذه الدراسة المتخصصة عن بنى عباد لم تكن الاولى من نوعها ، فقد سبقنى الى الولوج فى هذا الموضوع بعض من الباحثين المحدثين . وكان منهم من انصب اهتمامه على الحياة السياسية للدولة كعبد السلام الطود ، وكان هناك من انصرف اهتمامه الى النواحى الاقتصادية والاجتماعية فى دولة بنى عباد كمحمد بركات البيلى الذى أعد رسالته للماجستير بهذا العنوان ، وكصلاح خالص الذى كتب مؤلفا بهذا العنوان ، وهناك من تناول شخصية ملك من ملوك بنى عباد ، وهو المعتمد بالذات فتناولوا بالحديث شخصيته بدرجة أساسية وركزوا على الجانب الادبى فيها ومن هؤلاء صلاح خالص نفسه وعلى أدهم ، وعبدالوهاب عزام ، ورضا الحبيب السويسى ، وأحمد أحمد بدوى ، وحامد عبدالمجيد ، وأما دراستى هذه فتتناول التاريخ السياسى لدولة بنى عباد منذ كانت حلما راود مؤسسها القاضى أبى القاسم محمد بن عباد حتى سقوطها بيد المرابطين أخيرا ، فضلا عن

أبرز مظاهر التطور الحضارى بها ومعنى أننى تابعت الاحداث السياسية لهذه الدولة طوال مدة حكمها التى ناهزت بضعا وسبعين سنة برؤية جديدة وطرح جديد بحكم ما زخرت به الدراسات الاندلسية أخيرا أى فى الثلث الأخير من القرن الميلادى الحالى . اذ شهدت الدراسات الاندلسية حديثا نشاطا تاريخيا وأدبيا مهما واضطلع بعض الباحثين من العرب والاجانب بكشف الستار عن كثير من المصادر النفيسة وأخرجوها اخراجا منهجيا دقيقا أتاح الفرصة للكشف عن مزيد من تفاصيل الحياة السياسية والحضارية فى الاندلس فى القرن الخامس الهجرى مثل كتاب ابن حيان : المقتبس وكتاب ابن الكردبوس : الاكتفاء . وكتاب ابن الابار : الحلة السيراء الذى حققه حسين مؤنس أخيرا تحقيقا تاريخيا وأدبيا . ثم المصدر المعاصر والمهم جدا وهو مذكرات الملك عبدالله بن زيرى ملك غرناطة احدى دول الطوائف آنذاك والذى عثر عليها المستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال كما شهد القرن العشرين الميلادى اهتماما ملحوظا من جانب المؤرخين العرب المشارقة والمغاربة . فظهرت مصنفات جديدة ساعدت الباحثين كثيرا فى فهم الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى الاندلس كما سيتضح بعد قليل .

ومن هنا أحسب أنى قد شاكلت الصواب . كما أحسب أنى قد استطعت رسم صورة تكاد تكون موضوعية للحياة السياسية فى الاندلس فى القرن الخامس الهجرى على وجه التخصص فى الالماع بشئ من أهم مظاهر التطور الحضارى فى اشبيلية خاصة وفى الاندلس عامة كما يرمى الى ذلك عنوان رسالتنا .

وفيما يتعلق بخطة الموضوع بدا لى أن تكون على النحو التالى :

تمهيد و خمسة أبواب . ثم الملاحق . فقد رأيت اقتضاءا لمنهجية البحث العلمى أن يسبق حديثى عن دولة بنى عباد باشبيلية تمهيد تاريخى يوضح الظروف التى نشأت فى ظلها مملكة بنى عباد . ولذلك فقد عنونت التمهيد بالعنوان التالى : حالة الأندلس بعد سقوط الدولة الاموية . وقسمته الى فقرتين هما الفقرة الأولى بعنوان : سقوط الدولة الأموية وعرضنا فى هذه الفقرة الاحداث والحقائق التاريخية التى شهدتها الاندلس منذ قيام دولة بنى أمية بصورة مقتضبة وتوسعنا فى الحديث عن الاحداث التاريخية التى شهدتها الأندلس منذ وفاة الخليفة الحكم المستنصر وتولى ابنه الخليفة هشام السلطة من بعده وما تلا بعد ذلك من وقائع أدت الى قيام دولة بنى عامر التى أسسها المنصور بن أبى عامر أحد رجالات الدولة البارزين فى قلب الخلافة الاموية ثم انتهاء الدولة العامرية وبداية الفتنة التى عرفت اصطلاحا بالفتنة البربرية وما تبع ذلك من ظهور خلفاء ضعاف فى الدولة الأموية ثم ظهور دولة بنى حمود التى أسسها على بن حمود أحد رجالات الدولة الأموية آنذاك فى قلب الخلافة الأموية ثم سقوط الدولة أخيرا عام ٤٢٢ هـ ثم عقبنا بعد

بتحليل الأسباب المباشرة وغير المباشرة لسقوط الدولة وعرضنا فى ثنايا ذلك لنشوء ممالك النصارى .

أما الفقرة الثانية من التمهيد فقد عنوناها بالعنوان التالى : قيام ممالك الطوائف وأشهرها . تحدثنا فيها عن كل دولة فى اقتضاب من حيث موقعها ومؤسسها ونهايتها ، وعقبنا من بعد بنبذة وافية عن العناصر التى كونت هذه الممالك والظروف التى هيأت لها ذلك .

أما الباب الأول فقد اخترنا له العنوان التالى : قيام دولة بنى عباد وقد قسمناه الى أربع فقرات ، الفقرة الاولى : أصل بنى عباد . وبسطنا الحديث فى هذه الفقرة عن أصل بنى عباد والأقوال التى قيلت فى ذلك ثم مساكنهم وبداية ظهور أمرهم . والفقرة الثانية تحدثنا فيها عن الموقف السياسى فى الاندلس قبيل قيام دولة بنى عباد . وعرضنا للموقف السياسى فى أقاليم الأندلس وعاصمة الخلافة قرطبة بالذات ، والموقف مع خلفاء بنى حمود . ثم رسمنا صورة للموقف السياسى فى ممالك النصارى . وفى الفقرة الثالثة وعنوانها: اشبيلية مسرحا للصراع بين بنى حمود وسكانها . تعرضنا فيها للأسباب والظروف التى هيأت للقاضى أبى القاسم محمد ابن اسماعيل بن عباد الاستبداد بالأمر فى اشبيلية بحكم منصبه القضائى العالى الذى جعله الشخصية الاشبيلية البارزة فى ذلك الوقت ، وتحدثنا عن مقومات تكوين الدولة التى ستنشأ على التو .

والفقرة الأخيرة من الباب الاول خصصناها للحديث عن دولة القاضى أبى القاسم محمد (٤١٤ـ٤٣٣هـ/ ١٠٢٤ـ١٠٤٢م) وفرعناها الى نقاط عدة مثل: تكوين مجلس الرئاسة الذى اضطلع بحكم اشبيلية بعد تخلصها من نفوذ بنى حمود ، ثم شرحنا أبعاد الموقف السياسى غداة استقلال اشبيلية فى الممالك الاسلامية والنصرانية معا ثم خطوات القاضى أبى القاسم فى الاستئثار شيئا فشيئا بالحكم لنفسه ، والخطوات التى قام بها الى أن استطاع أن يؤسس دولة بنى عباد ويصبح حاكمها المطلق ثم تحدثنا عن سياسته الداخلية والخارجية حتى وفاته .

أما الباب الثانى فقد خصصناه لثانى ملوك دولة بنى عباد واخترنا عنوانه على النحو التالى: الدولة العبادية فى عهد المعتضد بالله . وقسمناه بدوره الى فقرات خمس :
الفقرة الاولى : تولى المعتضد السلطة بعد وفاة أبيه وآراء المؤرخين فيه ، حللنا فيها شخصية هذا الملك التى دمغت بكثير من صفات الذم والقدح . ثم تحدثنا فى الفقرة الثانية عن: الموقف السياسى فى اسبانيا الاسلامية والنصرانية غداة تولى المعتضد السلطة ، والفقرة الثالثة خصصناها للحديث عن سياسة المعتضد الخارجية فيما عنوناها ب : التوسع العسكرى على حساب امارات عربية غربية مجاورة لمملكة بنى عباد . ثم اقتضانا التسلسل المنطقى للأحداث أن نقطع حديثنا عن السياسة الخارجية ، فنورد فقرة عن حدث داخلى مهم

وقع فى الدولة وهو انشقاق اسماعيل بن المعتضد على أبيه وتمرده عليه وما أفضى ذلك من القضاء عليه ثم عدنا الى التحدث عن السياسة الخارجية للدولة ، فتعرضنا بالحديث عن التوسع العسكرى على حساب الامارات البربرية فى جنوب الاندلس ، وتحدثنا فى الفقرة ما قبل الاخيرة من الباب عن نشاط حركة الاسترداد المسيحى فى عهد المعتضد بالله ٠ وقد استفاض بنا الحديث فى هذه النقطة ، ورسمنا صورة نزعم أنها دقيقة للأوضاع ولنشاط تلك الحركة التى استهدفت انتزاع أراضى الاباء والاجداد كما كانوا يصرحون ومواقف كل مملكة من ممالك الطوائف الكبرى من تلك الحركة كمملكة سرقسطة أو طليطلة وبطليوس وأشبيلية وغيرها من الممالك الأخرى ٠

وقد ختمنا الباب بفقرة خصصناها لحياة المعتمد العائلية والشخصية ثم وفاته واستأثرنا ثالث ملوك هذه الدولة بالباب الثالث وأطلقنا عليه العنوان التالى : الدولة العبادية فى عهد المعتمد بالله ، وقسمناه الى خمس فقرات ، تحدثنا فى الفقرة الأولى منه عن تولى المعتمد السلطة بعد وفاة أبيه وأقوال المؤرخين فيه التى حملت طابع المدح والثناء دونما موضوعية فى كثير من الاحيان ، ثم تعرضنا للموقف السياسى فى اسبانيا الاسلامية والنصرانية غداة تولى المعتمد السلطة ، ثم تحدثنا عن السياسة الخارجية للمعتمد وظهور أمر الوزير محمد بن عمار الاشبيلى والدور الذى اضطلع به فى تلك السياسة وبعد ذلك أسهبنا فى فقرة مستقلة عن خروج الوزير ابن عمار على المعتمد وما جرى بعد ذلك من احداث أدت فى النهاية الى مقتله على يد المعتمد نفسه ، وخصصنا الفقرة الاخيرة من الباب عن الحياة العائلية والسمات المميزة لشخصية المعتمد بكل ما لها وما عليها ٠

أما الباب الرابع فقد عنونته بالعنوان التالى : تطور الاوضاع السياسية فى الاندلس ونهاية دولة بنى عباد ٠ وأحسب أنى قد بذلت جهدا شاقا فى هذا الباب ، بل أستطيع أن أقرر بأنه لب الرسالة ومركز الثقل فيها ٠ وقد قسمته الى أربع فقرات : الفقرة الاولى : تحدثت فيها عن اشتداد نشاط حركة الاسترداد المسيحى الذى قابل فى الممالك الاسلامية ضعفا وتمزقا وحروبا أهلية أتاحت لتلك الحركة أن تقوى وتشتد ثم ما أدى ذلك الى احداث خطيرة أهمها سقوط طليطلة ، وتحول حركة الاسترداد من حركة أسبانية محلية الى حركة صليبية نصرانية بعد تدخل البابوية وبعض الامارات الأوربية ٠

وفى الفقرة الثانية تحدثت عن تدهور العلاقات السياسية بين الفونسو بن فرديناند ملك قشتالة الذى اضطلع بالدور الرئيسى بالاضافة الى الشخصية القشتالية الأخرى وهو السيد القمبيطور ٠ ثم بسطنا الحديث عن ردود فعل سقوط طليطلة عاصمة

مملكة بنى هود وواسطة عقد ممالك الطوائف فى الاندلس وفى العالم الاسلامى وما أدى ذلك من خطوات سياسية مهمة ونعني بها قضية التفكير بالاستعانة بالمرابطين القوة الفتية التى بسطت سيطرتها على المغرب الاقصى والاوسط ، والجهود الشعبية والرسمية التى تمت بشأن ذلك وجهود المعتمد بالذات ، وما قيل حول هذا الموضوع . ثم تعرضنا بالحديث عن اقتناع المرابطين بضرورة التدخل فى الاندلس ومن ثم جوازهم الى الاندلس ليساعدوا ملوك الطوائف ضد النصارى . وتحدثنا فى فقرة خاصة عن تسارع الاحداث فى الاندلس ، وما أدى ذلك الى اللقاء المباشر بين النصارى والمسلمين فى موقعة الزلاقة ، وأسهبنا كثيرا فى النهاية فى الحديث عن الظروف والاسباب التى جعلت المرابطين يقررون خلع ملوك الطوائف جملة بما فيهم المعتمد بن عباد ، وما تم بعد ذلك فعلا من خطوات لتحقيق هذا الهدف .

أما الباب الخامس فقد خصصناه برمته للجانب الحضارى فى الدولة العبادية واخترنا عنوانه على النحو التالى : أهم مظاهر التطور الحضارى فى اشبيلية فى عهد بنى عباد . أما الفقرات فقد نسقناها على النحو التالى : الفقرة الاولى خصصناها للحديث عن نظم الحكم وفرعناها الى نقاط عدة مثل نظام الحكم الرئاسى ، وهو النظام الذى استحدثته بعض ممالك الطوائف فى نظم الحكم ثم نظام التفويض الخلافى الذى ميز الحياة السياسية فى اشبيلية عن مثيلاتها فى ممالك الطوائف الاخرى ، وهو النظام الذى زعم العباديون أنهم يمثلون به الخلافة الأموية والخليفة هشام المؤيد بالذات . وفى هذه الفقرة أيضا شيئ يسير عن بعض نظم الحكم فى اشبيلية كالنظم الادارية والنظام المالى ، والنظام القضائى ثم عن الجيش والبحرية الاشبيلية .

والفقرة الثانية من الباب الخامس فرعناها الى فرعين : أهم مظاهر الحياة الاجتماعية لدى العامة ، وأهم مظاهر الحياة الاجتماعية لدى الخاصة وذلك داخل عنوان هذه الفقرة وهو : الحياة الاجتماعية . أما الفقرة الثالثة فقد تحدثنا فيها عن الحياة الاقتصادية فى الدولة ، وعرضنا فى هذه الفقرة للحديث عن أهم النشاط الاقتصادى كالتجارة والزراعة ثم ألممنا بشيئ من الحديث عن النقود العبادية .

والفقرة الرابعة من الباب الخامس كانت عن الحياة العلمية والادبية فى الدولة العبادية ، وبسطنا الحديث فيها عن المجالات العلمية والادبية فى الدولة بحكم أن الحركة العلمية والادبية هى أهم مظاهر التطور الحضارى فى اشبيلية على عهد بنى عباد .
والفقرة الأخيرة من الباب خصصناها لأهم مظاهر العمران فى الدولة .

بحث فى أهم مصادر ومراجع الرسالة

لعلى لا أضيف جديدا اذا ما قلت بأن أول مصدر تاريخى مهم لكل باحث فى الدراسات الاندلسية هو تاريخ ابن حيان المعروف : بالمقتبس من انباء اهل الاندلس. ومع ذلك فان هذا السجل التاريخى العظيم بقطعه الخمس التى عثر عليها تباعا ، وتولى نشرها وتحقيقها غير واحد من المؤرخين والباحثين العرب والاجانب ليس له صلة ببحثنا من قريب او بعيد اللهم الا نتفا بسيطا للغاية فى القطعة الخامسة المتعلقة بعصر الحكم المستنصر والد الخليفة هشام المؤيد والتى حققها ونشرها عبد الرحمن على الحجى . ذلك لان الكتاب بقطعه الخمس عبارة عن مدونة تاريخية على نظام الحوليات ويتناول الفترة من بداية الفتح العربى حتى بداية الدولة العامرية فى أواخر القرن الرابع الهجرى .

على أننا قد أفدنا جل الافادة من نقولات المؤرخين القدامى الذين حفظوا فى كتبهم ذلك الاثر النفيس الذى كتبه ابن حيان عن سقوط الدولة العامرية وظهور الفتنة وقيام ممالك الطوائف ، أعنى بذلك كتاب : المتين الذى فقد للأسف ، بيد أنه من حسن الحظ أن المؤرخين القدامى نقلوا لنا فى كتبهم مادة مهمة جدا من هذا الكتاب وهى التى تتعلق بعصر الطوائف ، وذلك فى كتب ابن بسام ، وابن عذارى ، وابن الخطيب ، وابن الابار ، كما أن هناك كتبا اخرى غير المتين ، منها الدولة العامرية ، والبطشة الكبرى .

أما عن اهتمامات المؤرخ ابن حيان وطريقته فى الكتابة ، ووزنه العلمى وأمانته العلمية فقد كفانا مؤنتها محمود على مكى فى مقدمته الطويلة الرصينة الدقيقة . غير أن مايجب أن أوكده أن ابن حيان (ت ٤٦٩ هـ) يعتبر أعظم مؤرخ اندلس أنجبته الاندلس ، لابل يعتبر من المؤرخين الأفذاذ القلائل فى التاريخ الاسلامى كله قديما وحديثا ، وهو بحق شيخ مؤرخى الاندلس بدون منازع كما أشار الى ذلك معظم المؤرخين القدامى والمحدثين ، كما يكفى أن نشير أخيرا الى أنه بالنسبة لكتاب المتين موضوع بحثنا قد عاصر الاحداث معاصرة دقيقة يوما بعد يوم حتى وفاته بثقة المؤرخ وأمانته .

أما المصدر التاريخى الآخر الذى صاحبنا فى معظم أجزاء الرسالة فهو كتاب البيان المغرب فى أخبار الاندلس والمغرب لابن عذارى المراكشى (ت ٦٩٥ هـ) وكتاب ابن عذارى عبارة عن تاريخ عام للمغرب والاندلس من الفتح العربى حتى عصر بنى (مرين) حكام المغرب فى أعقاب سقوط الدولة الموحدية . ويقع فى ثلاثة

أجزاء ، حقق الجزءان الاول والثانى منهما ونشرهما كلا من ج ـ س كولان وليفى بروفنسال وانفرد بروفنسال بتحقيق الجزء الثالث ، وقام احسان عباس اخيرا بتحقيق قطعة من كتاب البيان المغرب وتتعلق بعصر المرابطين ونشرها مع تعليقات موجزة عام ١٩٦٠ م .

ومن حق النزاهة التاريخية علينا أن نشير الى أنى قد استفدت استفادة عظيمة من هذا الكتاب وكان رفيقى الدائم فى معظم أبواب الرسالة بحكم ما توفر فيه من المادة التاريخية الغزيرة التى جمعها المؤرخ من الكتب التى كانت موجودة فى عصره ، والتى فقدت بعد ذلك . ومن هنا جاءت قيمة كتاب البيان المغرب . ومن أمثلة الكتب التى نقل منها : المتين لابن حيان والمقباس لابن الوراق ، وكتاب نظم الجمان لابن القطان . وابن عذارى مؤرخ ناقل وليس ناقدا ، وقد سار فى كتابه على نظام الحوليات وقد أوقعه ذلك فى عدة أخطاء تاريخية .

ويعيب كتابه أنه لم يكن يوضح نهاية نقولاته ، فتختلط تلك النقولات بكلامه هو ذاته ، وعلاوة على ذلك كان ينتزى على المادة العلمية التى ينقلها عن بعض المؤرخين بالحذف والاضافة ابتغاءا للاختصار . ولم تكن له تعليقات خاصة وآراء شخصية الا فيما ندر .

بيد أنه رغم كل شيئ فهو كتاب مهم للغاية بالمادة النفيسة التى جمعها المؤرخ فيه . أما المصدر الثالث الذى أفدنا منه جل الافادة ، فهو كتاب : الحلة السيراء لابن الابار القضاعى . وابن الابار (ت٦٥٨ هـ) مؤرخ اندلسى عاش فى مدينة بلنسية فى عصر الموحدين . وكتابه الحلة السيراء يعتبر من أحسن كتبه على الاطلاق ، ويعتبر ولا سيما فى جزئه الثانى ذو أهمية كبيرة اذ هو رصد موجز فى بعض الأحيان وموسع مفصل فى أحايين أخرى لسير وحياة أمراء ووزراء وعلماء كان لهم شأن فى تاريخ الفترة التى يدور حولها بحثى . وهى فترة ملوك الطوائف وبالأخص مملكة بنى عباد والكتاب نسخة مطبوعة عن مخطوط وحيد وجده حسين مؤنس فى مكتبة الاسكوريال تحت رقم ١٦٥٤ مكتوبة بخط مغربى . وقد حققه فى جزئين منفصلين . والتحقيق ذاته تحفة تاريخية وأدبية وجغرافية رائعة استفدنا منها أعظم استفادة . وكان جهده فى مقابلة الأسماء العربية للمدن والقرى الاندلسية بالأسماء الاسبانية قديما وحديثا ، كان جهده فى ذلك شائقا لاتفيه عبارات المدح والثناء ، فجزاه الله خيرا .

أما عن المؤلف فبغض النظر عن حياته السياسية التي عاشها على مدار نصف قرن بين العزة القعساء مرة ، وبين مرارة السجن وذل القيد مرات أخرى . وبغض النظر عن سلوكه الشخصي الذي أفضى الى مقتله طعنا بالرماح عام ٦٥٨ هـ على يد حاكم افريقية أبي عبدالله محمد بن أبي زكريا الحفصي . نقول بغض النظر عن ذلك، فان الكتاب مهم للغاية في بحثنا لم نستغن عنه اطلاقا في معظم أجزاء الرسالة . فقد قسّم المؤلف كتابه الى ستة قرون ،وانضوى تحت كل قرن أشهر رجالات الاندلس والمغرب وأفريقية من خلفاء ووزراء وقواد وعلماء . وزاد من قيمة الكتاب أنه خلا — وهو شيء نادر في ذلك الوقت — من السجع المتكلف الرخيص . فكان أسلوبه مشرقا قويا رصينا ، فهو أقرب للكتب التاريخية الواقعية التي تعطى المترجم له حقه في غير ما إطالة ولا إسفاف أو تكلف . على أنه يلاحظ أن هذا الاسلوب قد تغير عندما بدأ يتحدث عن سلاطين بني حفص الذين استوطن دولتهم في افريقية ، ثم مات على أيديهم كما ذكرنا .

وأخيرا لا يسعنا اذا ما شئنا معرفة وزن المؤلف العلمي الا أن نشير الى أنه يعتبر بحق كاتبا ومؤرخا واسع الاطلاع بتاريخ المسلمين العلمي والادبي ، وأنه كان ذا نظرة استشراقية للمستقبل ، كما كان ناقدا تاريخيا ينقل بعقل متزن ، وقلم يقظ ، رصين في حكمه (١) . وكل هذه المميزات علت به في نظر الأدباء والمؤرخين الذين تلوا عصره . ونظر اليه الكتاب المحدثين الآن بنفس النظرة .

وأخيرا فقد كان للمؤرخ كتب أخرى مثل التكملة لكتاب الصلة ، وكتاب أعتاب الكتاب وغيرهما .

أما المصدر الرابع حسب الأهمية لبحثي فهو كتاب الذخيرة لابن بسام (ت ٥٤٢ هـ) . وقد أطلق ابن بسام على كتابه ذلك : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة . وهو كتاب أدبي في المقام الأول . وقد ألفه المؤلف للتأكيد على أن الاندلس لا تخلو من

---

(١) : أنظر مثلا : الحلة السيراء ، ج ٢ ، ص ١٤٨ .

رجال رفعوا رايات الأدب والثقافة ، واحتلوا مكانهم المخصص والمناسب في الادب العربي كله ، وهو كتاب يضاهي به المؤلف كتاب الثعالبي : يتيمة الدهر ، ويسير على منهجه ويترسم خطاه . والكتاب ينقسم الى أربعة أقسام تتناول فيه بالحديث الحياة الادبية في أقاليم الاندلس الثلاثة : الشرق والغرب والوسط . ثم قسم يتعلق بالطارئين على الاندلس ومن هاجر اليها من العراق والشام . وهو كتاب أدبي كما ذكرنا أساسا الا أنه يعمد في بعض المرات التي تتداخل فيها الاحداث الادبية بالتاريخية الى طرح الاحداث التاريخية باستفاضة في كثير من الأحيان .

أما من حيث منهجه فانه فيما يتعلق بالوقائع التاريخية يسير سيرا تاريخيا زمنيا منطقيا ، أما عن اسلوبه في الكتاب ، فيميل الى استخدام السجع بكثرة مملة وتصنع ملحوظ مع ولعه بالغريب والمهجوج من الكلمات . وأما عن أمانته العلمية فهو يعتبر في الحقيقة أديبا وليس مؤرخا ولذلك فان فيما يختص بالاحداث التي شهدها القرن الخامس الهجري . نراه يعتمد على كتب ابن حيان وبالذات كتابه المتين اعتمادا كليا ، ثم يضيف ملاحظاته وتسجيلاته التي تلت وفاة ابن حيان حتى وفاته هو أي ابن بسام .

ويعتبر ابن بسام كاتبا أديبا بمعنى الكلمة ، وهو موسوعة أدبية تلتقط كل شيء وترصده في ذاكرة قوية أفرزت ثقافة أدبية واسعة تناقلتها ذخيرته الثمينة . وتظهر شخصيته وثقافته الواسعة في كل أجزاء كتابه فهو لا ينقل نقلا حرفيا عندما يتحدث عن كاتب أو أديب ، بل ينقل نقطة أو عبارة أو كلمة من حديث هذا الاديب ثم يقف فجأة ويسرد أحداثا ومواقفا مشابهة استخدمت فيها هذه الكلمات من قبل أدباء آخرين . ولا يمر عليه بيت من الشعر دون أن يشرحه ويترجم لصاحبه . ونراه في أحيان كثيرة يخرج من القناة التي كان يصب فيها حديثه الى قنوات أخرى تعود هي الأخرى الى قنوات أخرى تابعة .

على أن هذا لا يشتت ذهن القارئ ويجمح به بل يعيده ابن بسام الى الحديث الاصلى في لطف ورقة (١) .

والمصدر الخامس حسب أهميته لبحثنا هو مذكرات الامير عبدالله بن زيرى ، أو كتاب التبيان . وأهمية الكتاب جاء من كونه عبارة عن مشاهدات واسهامات وملاحظات ورصد وتسجيلات تكاد تكون يومية لسير الحوادث التى شهدتها الاندلس فى القرن الخامس الهجرى . وأهمية الكتاب فوق هذا فى أن مؤلفه أحد ملوك الطوائف المهمين آنذاك . والذى مارس دورا مهما فى سير الحوادث آنذاك . وقد ألفه المؤلف بعد خلعه ونفيه عن ملكه وتوجهه الى مدينة أغمات القريبة من مراكش . وذلك فى عهد المرابطين وفى عهد يوسف بن تاشفين الذى قضى على استقلال ممالك الطوائف . وجاء هذا المصنف عبارة عن مذكرات كتبها المؤلف فى ساعات فراغه الكبير فى المنفى ، تطرق فيه الى معظم الحوادث التى دارت فى مملكته وغيرها من ممالك الطوائف حتى تدخل المرابطين ، فموقعة الزلاقة ، فالاحداث التى أعقبتها حتى قضاء يوسف على استقلال كل ممالك الطوائف .

هذه هى أهمية الكتاب ، أما المنهج ، أما الاسلوب ، أما الطريقة ، فالمؤلف لم يكن مطبوعا على أن يكون مؤرخا أو أديبا ولذلك جاء كتابه مفككا ليس فيه تركيب منطقى أو حتى ذوقى ، أما أسلوبه فركيك للغاية ، استخدم المؤلف فيه كثيرا من الكلمات العامية الاندلسية والبربرية .

أما عن أمانته العلمية ، فلم يترك المؤلف موطنا يتعلق بشخصه أو أسرته أو جماعته البربر دون أن يؤكد على وجهة نظره ونظرهم ، وان كان قد حاول فى كثير من الاحيان أن ينفى عن نفسه التحيز والأثرة .

---

(١) : انظر للدلالة على ذلك : القسم الثانى ـ المجلد الاول ، ص ١١٣ ـ ١٣٣ .

أما المصدر الرئيسي السادس لبحثنا هذا فهو كتاب الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية لمؤلف مجهول الاسم ، اعتنى بنشره وتصحيحه ى • س • علوش • مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية ، ويعتقد أن المؤلف عاش في القرن الثامن الهجري •

وهذا الكتاب ذو أهمية بالغة للبحث وخاصة فيما يتعلق بجواز يوسف بن تاشفين الى الاندلس • ولقد تناول المؤلف موضوع جواز يوسف المتكرر الى الاندلس في شيئ واسع ومفصل وتقصى كبير ثم تتبع ظهور الموحدين ، وقضاءهم على المرابطين • وقد استفدت جل الاستفادة منه في تتبع أخبار المرابطين في الأندلس • والكتاب لا غنى عنه لكل باحث عن شؤون المغرب والاندلس في عهدي المرابطين والموحدين ، رغم ما يفهم من عنوانه من أنه خاص بذكر مراكش واخبارها وتخطيطها ••• الخ •

واسلوب المؤلف سهل واضح لا غموض فيه ، يسير فيه المؤلف على طريقة التذييل أى الاحداث المترتبة على بعضها •

وقد اختلف في معرفة أو تحديد اسم مؤلفه ، فقيل ان مؤلفه أديب مالقي اسمه أبو عبدالله بن أبي المعالي بن السماك العامري • غير أنه ليس هناك دليل على ذلك • وقد ظهرت في تونس طبعة لهذا الكتاب نشرها سنة ١٩١٠ م البشير الفرتني تحمل خطأ اسم لسان الدين بن الخطيب كمؤلف لهذا الكتاب ، ثم صدر ضمن مطبوعات معهد الدراسات العليا المغربية بالرباط طبعة حديثة سنة ١٩٣٦ م ، وكان الناشر لها الاستاذ ى • س • علوش •

هذه هي أهم المصادر التي صاحبت بحثي هذا •

وهناك مصادر تاريخية أخرى مهمة لم تخل رسالتي من فائدتها ككتاب عبدالواحد المراكشي (ت ٦٤٧ هـ) وهو كتاب يتناول تاريخ دولة الموحدين ، ولكنه على سبيل الاستطراد قدم لكتابه بمقدمة موجزة في تاريخ المغرب والأندلس منذ الفتح العربي • والكتاب يعتبر رديفا بالنسبة للبحث بمعنى أنه ليس رئيسيا لبحثي ، ولكنه لا يمكن

الاستغناء عنه ، وهو فى أجزائه الأولى يهتم بالحديث عن الأندلس منذ الفتح حتى بداية دولة الموحدين . وفى هذا الجزء يبدو المؤلف ناقلا ملخصا دونما تحقيق وتمحيص الا فيما ندر ، وأسلوبه سهل واضح خلا من السجع المتكلف والعبارات الغامضة الغريبة . أما فيما يتعلق بالتأريخ لدولة الموحدين فقد أسهب المؤلف فى ذكر دولتهم انطلاقا من كونه شاهد عيان وكمتتبع للأحداث وذى صلة شخصية بأمراء الموحدين . وقد حقق الكتاب ونشره محمد سعيد العريان .

ومن المصادر التاريخية الرديفة الأخرى ، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب للمقرى (ت ١٠٤١ هـ - ١٦٣١ م) ، تحقيق محمد محى الدين عبدالحميد . وهو عبارة عن موسوعة تاريخية وأدبية واجتماعية للمجتمع الأندلسى منذ الفتح وحتى نهاية الوجود الاسلامى فى الاندلس . ولا يخلو من حادثة تاريخية مهمة ، أو نبذة جغرافية ، أو طرفة مستملحة ، أو قصة طريفة خالف فيه المؤلف ما رسمه لنفسه فى العنوان فجاء حديثه عن الوزير الاندلسى ابن الخطيب كشىء مجتزء من التاريخ الاندلسى ، أى بمعنى آخر جاء كفرع من فروع اهتماماته وليس اهتماما أصيلا كما رسم لنفسه . ولا يمكن البتة لأى باحث فى الدراسات الأندلسية من العودة اليه والنقل منه .

ومن المصادر الأخرى التى أنارت لنا الطريق فى بحثنا كتاب ابن الكردبوس (عاش فى أواخر القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى) : الاكتفاء فى أخبار الخلفاء . وقد حققه أحمد مختار العبادى ونشره فى مجلة معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد ، المجلد الثالث عشر ١٩٦٥/١٩٦٦م . وهو كتاب تاريخى نفيس ساير فيه المؤلف منهج المؤرخين القدامى فى التسلسل التاريخى الزمنى للأحداث ، فقد اهتم بالاحداث السياسية بالاندلس منذ الفتح العربى حتى عصر الموحدين . وهو كتاب لا غنى عنه لأى باحث فى الدراسات الاندلسية . وقد حققه كما ذكرنا أحمد مختار العبادى تحقيقا تاريخيا دقيقا . واستفدنا نحن من ذلك

التحقيق فى تحقيقنا للأعلام والمدن والقرى وغير ذلك كثيرا .

ومن المصادر المهمة فى التاريخ العام : كتاب مشرقى هو الكامل لابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ) ويكاد ابن الأثير يكون من قلائل المؤرخين المشارقة الذى اهتم بالاندلس وتاريخها . وليس خافيا أنه كان يسير على نظام الحوليات ، وكان يعرض فى كثير من السنوات الى الاحداث المهمة التى شهدتها الاندلس آنذاك . ويجب أن نلاحظ أنه كان ينقل مادته التاريخية نقلا حرفيا من كتب المغاربة والاندلسيين حسبما كان يصل الى سمعه من أخبار العدوتين .

وفيما يتعلق بكتب الأدب ، ففضلا عن كتاب ابن بسام السالف الذكر فقد أفدنا من كتابي : قلائد العقيان ، ومطمح الأنفس ومسرح التأنس للفتح ابن خاقان الاشبيلي (ت ٥٢٨ هـ أو ٥٢٩ هـ على الأرجح) . وهما مصنفان مهمان لرصد الحياة الادبية والعلمية والاجتماعية فى المجتمع الاندلسى ، ويمكن اعتبارهما من كتب التراجم والطبقات ترجم فيهما المؤلف لعديد من الرؤساء والوزراء والقضاة والقواد فى الأندلس . ويهتم المؤلف بصفة أساسية بايراد آثار مترجميه النثرية والشعرية فقط . ولذلك جاء الكتابان خلوا من الناحية التاريخية والتسجيلية لتسلسل الاحداث وتتبع المواقع . الا ما استطعنا استخلاصه من بعض الاشارات الخاطفة . والمصنفان كتبا بأسلوب لحمته السجع والجناس ، وسداه المدح والملق حتى الاغراق أو الحط حتى الاقذاع رصف فيهما المؤلف مكونات حفظه للغريب من الكلام رصفا .

ولا يمكن بأى حال من الاحوال مقارنة ابن خاقان بابن بسام الذى يعتبر ناقدا متينا ومحللا أدبيا لامعا .

ومن كتب التراجم والطبقات التى عدنا لها : جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الاندلس للحميدى (ت ٤٨٨ هـ) ، ثم كتاب بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الاندلس للضبى (ت ٥٩٩ هـ) . ثم كتاب الصلة لابن بشكوال (ت ٥٧٨ هـ) . وهى كتب تشكل حلقة فى سلسلة كتب

التراجم والطبقات التي أخذت طابعا يكاد يكون متشابها ابتداءا من كتاب أبي الوليد الفرضي (ت ٤٠٣ هـ) : تاريخ علماء الأندلس ، مرورا بالحميدي في جذوة المقتبس والضبي في بغية الملتمس ، وانتهاءا بكتاب التكملة لكتاب الصلة لابن الابار ، وكتاب الموصول والصلة لعبد الملك المراكشي (ت ٧٠٣ هـ) ، وكتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا للنباهي (عاش في القرن التاسع الهجري) .

وتحتوي هذه الكتب على معلومات مقتضبة لا بأس بها عن تراجم واسعة لرجالات الاندلس في شتى مناحي اهتماماتهم التي درجوا عليها ولا سيما الدينية منها .

أما كتب الجغرافية الاسلامية فقد اعتمدنا على كتب الجغرافيا الاندلسية المحضة ككتاب الحميري (ت أواخر القرن الثامن الهجري) : صفة جزيرة الاندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الاقطار ، نشر وتصحيح وتعليق أ . ليفي بروفنسال . وهو كتاب جغرافي تناول فيه المؤلف مدن وقرى الاندلس بالوصف والتعليق حسب الترتيب الابجدي ، على أنه من المهم أن نشير هنا الى أن استفادتنا من هذا الكتاب انما جاءت من المادة التاريخية التي احتواها وتضمنها ، ذلك لأن المؤلف عندما بلغ في حديثه لوصف مكان موقعة الزلاقة خالف منهجه في الحديث عن النواحي الجغرافية وقدم لنا مادة تاريخية غزيرة عن الاحداث التي سبقت وصاحبت وتلت موقعة الزلاقة . والمفيد حقا أنه قد نقل معلوماته الوافرة تلك عن كتب أصبحت في حكم المفقود . ومن هنا كان للمادة التاريخية التي أوردها أهميتها الفائقة .

ومن كتب الجغرافيا الاندلسية اعتمدنا على كتاب البكري (ت ٤٨٧ هـ) : المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك . وقد حققه عبد الرحمن علي الحجي . وأود أن أشير الى أن معظم تحقيقات المدن والقرى والانهار ، وكذلك بعض تحقيقات الاعلام انما استمديتها من التحقيقات التي حقق بها الباحثون المحدثون من أمثال حسين مؤنس ، وأحمد مختار العبادي ، وعبد الرحمن الحجي الكتب التي حققوها ونشروها سالفة الذكر .

xxxxxxxxxxxxxxxxx

أما المراجع العربية والمصرية فهى فى الواقع كثيرة أضاءت ولا شك الطريق أمام الباحثين لاسيما وانها قد جاءت معتمدة على مصادر ووثائق أندلسية ومغربية عثر عليها على فترات متتالية فى الثلاثين سنة الاخيرة من هذا القرن • ومن هنا جاءت معظم تلك المراجع دقيقة موضوعية وبمفهوم ورؤية شاملة غالبا • ولقد استفدت استفادة كبيرة من بعض تلك المراجع العربية والمصرية ، وكان اعتمادى على بعضها شيئا أساسيا فى توضيح ما أشكل وصعب العثور عليه فى المصادر القديمة ، أو فى الاستفادة مما كتب عن الممالك النصرانية فى أسبانيا وغيرها •

وتأتى موسوعة محمد عبدالله عنان (دولة الاسلام فى الاندلس) على رأس تلك المراجع العربية • ولا أكتم القارئ الحقيقة فى أن كتب محمد عبدالله عنان قد يسرت لى مهمة البحث • وكنت فى كثير من المواضع عالة عليه وخاصة فى كتابه : دول الطوائف • وهو كما يدل عليه عنوانه يختص بالحديث عن كل دولة من دول الطوائف أذ بث محمد عبدالله عنان فى كتابه هذا معلومات مهمة عن نشوء ممالك الطوائف ، ونشوء حركة الاسترداد ، وتحدث فى كتابه هذا عن التدخل المرابطى وموقعة الزلاقة ••• الخ • وكانت استفادتى من بقية مصنفاته الأخرى ككتاب : الخلافة الأموية والدولة العامرية ، وتراجم اسلامية ، ومواقف حاسمة ، والآثار الاندلسية الباقية وغيرها أقول كانت استفادتى من تلك الكتب لاحقة لكتاب دول الطوائف •

على أن مما يعيب كتب عنان هو أن المؤلف أخذ على نفسه كتابة تاريخ الاندلس منذ الفتح حتى زوال الوجود الاسلامى • ومن هنا اضطر فى مرات عديدة الى ضغط الوقائع والاحداث ضغطا أثر فيه البتر والاختصار • ولحقت موسوعته العيوب التى تصاحب كتب التاريخ العام عادة •

والمراجع الأخرى المهمة التى صاحبت بحثى وواكبته حتى النهاية مجموعة صلاح خالص المتخصصة فى استطلاع أحوال مملكة

بني عباد من الناحية الادبية والعلمية والتاريخية . فقد كتب صلاح خالص ثلاثة كتب هي : اشبيلية في القرن الخامس الهجري ، دراسة سياسية وحضارية لنشوء دولة بني عباد باشبيلية وتطور الحياة الادبية فيها ٤١٤ هـ - ٤٨٤ هـ . والكتاب الثاني بعنوان : محمد بن عمار الاندلسي ، حياته وشعره . والكتاب الثالث بعنوان : المعتمد بن عباد الاشبيلي ، دراسة ادبية وتاريخية .

وكلها كتب أفدت منها حقا ، وحتى وان كانت تركز على النواحي الادبية في الدولة ، الا أنني قد استطعت استخلاص العديد من النقاط . أما فيما يتعلق بالناحية الادبية ، فكان اعتمادي عليها رئيسيا . والحق أن المؤلف عالج الحياة الادبية في اشبيلية من خلال كتبه الثلاثة معالجة موضوعية أدبية شائقة على عكس معالجته للنواحي التاريخية التي جانبت في بعضها جادة الصواب . وقد أشرنا في تضاعيف الرسالة لتلك المآخذ . كما أن من الملاحظ أن المؤلف يبدي تعاطفا ملحوظا مع المعتمد بن عباد ويتغاضى عن سيئاته ، كما أشرنا في ثنايا الرسالة .

والمرجع المهم الرئيسي الآخر في بحثنا هو كتاب علي أدهم : المعتمد بن عباد . وهو كتاب صغير الحجم جم الفائدة ، الا أنه يصنف في قائمة الكتب الادبية . ومع هذا فقد خلصنا منه بنقاط عديدة لم يتح لنا العثور عليها في مظانها الأصلية .

وأفادنا كتاب خالد الصوفي : تاريخ العرب في أسبانيا (جمهورية بني جهور) في توضيح بعض الأحداث وان لم يفتنا أن نسجل ملاحظاتنا على بعض النقاط كما سيلاحظه القارئ في ثنايا الرسالة .

ومن المراجع المهمة التي اعتمدنا عليها في فهم أحداث الاندلس بعد تدخل المرابطين كتاب حسن محمود : قيام دولة المرابطين . وهو كما يدل عليه عنوانه مختص بقيام دولة المرابطين ، وقد شمل بالضرورة التدخل المرابطي في الاندلس وجواز يوسف المتكرر لها حتى اقصائه لملوك الطوائف جملة . وهو كتاب تاريخي مهم مدعم

بالمصادر الأصيلة ، والمراجع العربية والأوربية ذات الصلة بمادته العلمية ، وكانت استفادتنا من هذا الكتاب كبيرة فى شرح أبعاد التدخل المرابطى فى الاندلس وغير ذلك .

وأفدت من كتاب عبد الحق حموش : ابن تاشفين ، وخاصة فيما يتعلق بشرح الدوافع العسكرية التى حتمت على الفريقين المتقاتلين فى الاندلس آنذاك : المسلمين والنصارى اختيار بطحاء الزلاقة مكانا مناسبا للمعركة ، كما أفدت من تحليله العسكرى لقوات الفريقين المتقاتلين وخططهما الحربية فى القتال مما عزز شك وقر فى ذهنى من أن المؤلف ربما كان رجلا عسكريا .

وهناك مراجع أخرى تأتى فى المرتبة التالية من الاهمية بالنسبة لموضوع رسالتى ، وأهمها كتاب : أحمد مختار العبادى : فى تاريخ المغرب والاندلس ، وكتاب حسين مؤنس : شيوخ العصر ، وكتاب أحمد هيكل : الأدب الاندلسى من الفتح حتى سقوط الخلافة ، وكتاب مصطفى الشكعة : الادب الاندلسى موضوعاته وفنونه ، وكتاب محمد كرد على : الاسلام والحضارة العربية ، وكتاب احسان عباس: تاريخ الادب الاندلسى ، الى غير ذلك .

وأفدت كثيرا من الرسائل الجامعية التى أعدت لنيل درجة الماجستير فى فهم طبيعة تركيب المجتمع الاندلسى ، كرسالة عبادة كحيلة : المولدون فى التاريخ الاندلسى منذ الفتح العربى حتى نهاية عصر الامارة ، المقدمة الى كلية الاداب جامعة القاهرة سنة ١٩٧٨ م . كما استفدت من رسالة رجب محمد عبد الحليم : دولة بنى حمود فى مالقة بالاندلس ، وخاصة أنها رسالة تختص بشرح وقائع قيام الأسرة العلوية فى قلب الخلافة الأموية . وهذه الرسالة مقدمة الى كلية الاداب جامعة القاهرة سنة ١٩٧٦م . وأفدت أيضا من رسالة محمد بركات البيلى فى فهم الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى الدولة العبادية المقدمة الى كلية الاداب جامعة القاهرة سنة ١٩٧٨ م . وأخيرا استفدت من رسالة هشام سليم أبو رميلة : رسالة عن نظم الحكم فى الاندلس فى عصر الخلافة المقدمة

أيضا الى كلية الاداب جامعة القاهرة سنة ١٩٧٥ م .

أما بالنسبة للكتب المعربة فعلى رأسها كتب ليفى بروفنسال . وأهم هذه الكتب لبحثى : الاسلام فى المغرب والاندلس ، وقد أستفدت منه فيما يتعلق بقضية زايدة (ابنة المعتمد) التى تقول الروايات النصرانية أن المعتمد قدمها لالفونسو السادس ملك قشتالة ليساعده فى حربه ضد مناوئيه ، فقد توصل المستشرق الفرنسى الى خلاصة تاريخية منطقية تنفى نفيا قاطعا حدوث ذلك ، كما استفدت أيضا من كتاب ليفى بروفنسال هذا فيما يتعلق بسقوط طليطلة والتاريخ الصحيح لذلك السقوط .

وأفدت من كتاب راينهارت دوزى : ملوك الطوائف ، وهذا الكتاب هو الجزء الرابع المعرب والمترجم بقلم كامل كيلانى عن كتابه : تاريخ مسلمى أسبانيا SPANISH ISLAM . ويتعلق بأحوال معظم ممالك الطوائف . على أنه يجب ملاحظة أن هذا الكتاب فيه شيء من المغالطات والتفسيرات غير المقبولة كما أشرنا الى ذلك فى الرسالة .

ومن الكتب المعربة الأخرى التى أفادتنا فى فهم الحياة السياسية فى أسبانيا المسلمة والنصرانية معا كتاب يوسف أشباخ : تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ، تحقيق محمد عبدالله عنان .

أما بالنسبة للمراجع الأجنبية فقد استفدنا من كتاب :

— J. B. BURY, M.A., F.B.A. : THE CAMBRIDGE MEDIEVAL HISTORY. VOLUME VI, CAMBRIDGE 1929.

وكتاب :

— JAN READ : THE MOORS IN SPAIN AND PORTUGAL , LONDON. 1974 .

ومن الدوريات الأجنبية اعتمدنا على :

— ANGUS MACKAY AND MUHAMMAD BENABOUD : AL FONSO VI OF LEON AND CASTILE., AL IMBRATUR DHU -L- MILLATAYN ' in BHS, LVI, 1979, UNIVERSITY OF EDINBURGH .

— MUHAMMAD BENABOUD Y ANGUS MACKAY : THE AUTHENTICITY OF ALFONSO VI's LETTER TO YUSUF B. TASUFIN, in AL-ANDALUS, VOL, XLIII, 1978, FASC,I.

أما الدوريات العربية والمصرية ، فقد استفدت عظيم الاستفادة من البحث الذى نشره حسين مؤنس فى المجلة التاريخية المصرية ، القاهرة ، المجلد الثالث ، العدد الاول ، ١٩٥٠م ، بعنوان : السيد القمبيطور وعلاقته بالمسلمين ، واستطعت من خلال هذا المقال فهم طبيعة هذه الشخصية القشتالية النصرانية التى علت بها الأساطير والملاحم الاسبانية الى مرتبة القديسين رغم ما أثبته البحث العلمى من تفنيد لذلك الادعاء .

واستفدت أيضا من البحوث التى كتبت فى مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ، كالبحث الذى نشره حسين مؤنس أيضا بعنوان : سبع وثائق جديدة عن عصر المرابطين ، وكذلك البحث الذى كتبه محمود على مكى : وثائق تاريخية جديدة عن دولة المرابطين ، وذلك فى المجلدات : الثانى ، والسابع والثامن ، سنة ١٩٥٤ ، ١٩٥٩ ، ١٩٦٠م على التوالى .

كما استفدت أيضا من الابحاث التى كتبت فى مجلة تطوان المغربية مثل البحث الذى نشره احمد مختار العبادى بعنوان : دراسة حول كتاب الحلل الموشية ، وكذلك البحث الذى كتبه محمد الفاسى بعنوان : المؤرخان ابن أبى زرع وابن عبد الحليم . وذلك فى العدد الخامس ، سنة ١٩٦٠م .

كما استفدت من البحث الذى كتبه مصطفى القصرى فى مجلة مركز البحث العلمى المغربى بعنوان : الشعر فى خدمة الحقيقة والتاريخ ، العدد الاول ، السنة ١٩٣٤م . وغير ذلك .

بقى أخيرا أن أتقدم بالشكر الجزيل الخالص لأستاذى الدكتور أحمد السيد دراج ، الذى ما كنت لأضع قدمى فى مضمار الدراسات العليا المتخصصة لولا دعمه وتشجيعه وتأييده . ومن حق النزاهة والأمانة علىّ أن أشير الى أنه لم يأل جهدا فى مساعدتى ولم يبخل على بالمساعدة والملاحظة والمتابعة فيما عظم ودق وفيما كثر وقل . فله خاصة ولجميع من مدّ يد العون لى الشكر والثناء والعرفان بالجميل .

والله أسأل أن يوفقنا الى سواء السبيل .

* * * * *
* * *
*

((تمهيـــــــــــــــد))

حـالة الأندلـــس بعـــد ســقوط الدولـة الأمـــويـة

- سـقوط الدولـــة الأمـــــــويـة .
- قيـام ممـالك الطـــوائـف وأشهرها .

سقوط الدولة الأموية :-

تأسست الدولة الاموية فى الاندلس عام ١٣٨هـ / ٧٥٦ م عندما فرّ أحد أبناء الامويين من الشام ، وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان الى المغرب فالاندلس بعد سقوط الخلافة الاموية على يد العباسيين عام ١٣٢هـ/ ٧٥٠ م ، وقد ظل يحكمها حتى وفاته . ثم تعاقب على حكم هذه الدولة أو الامارة الاموية ابناؤه وأحفاده : هشام ، الحكم ، عبد الرحمن (الاوسط) ، ومحمد بن عبد الرحمن ، والمنذر بن محمد ، وعبد الله بن محمد حتى عام ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م .

ثم تولى الامارة عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن ابن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن (الداخل) . وذلك فى عام ٣٠٠هـ ثم أعلن الخلافة بعد ذلك فى عام ٣١٦هـ/ ٩٢٨م ، وتلقب بالناصر . وقد ظل يحكم الدولة الاموية حتى وفاته عام ٣٥٠هـ/ ٩٦١م بعد أن ارتقى بها الى درجة بلغت فيها الاندلس الأوج قوة وحضارة وازدهارا ، حتى لقد اطلق على عصره العصر الذهبى دلالة على ذلك التقدم (١) .

---

(١) : عن الدولة الاموية فى الاندلس منذ عهد عبد الرحمن الداخل وحتى عهد عبد الرحمن الناصر انظر ،
ابن حيان : قطعة من كتاب المقتبس من انباء اهل الاندلس ، تحقيق وتقديم وتعليق محمود علي مكى . ـــ ابن عذارى : البيان المغرب فى اخبار الاندلس والمغرب ، ٣ أجزاء ، ج ٢ كاملا تحقيق ج . س كولان ، و إ . ليفى بروفنسال . ـــ ابن الابار : الحلة السيراء ، جزءان تحقيق وتعليق حسين مؤنس ، ط ١ ، ج ١ ، ص ٣٥ ـ ٤٣ ، وص ١١٣ ـ ١٣١ ، وص ١٩٧ ـ ٢٠٠ . ـــ ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ٧ مجلدات ، المجلد الرابع ، القسم الاول ، ص ٢٥٢ ـ ٣١٢ . ـــ ابن الاثير : الكامل فى التاريخ تحقيق نخبة من العلماء ، ٩ أجزاء ، ج ٥ ـ ٩ ، فى صفحات متفرقة . ـــ المقرى : نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، ط ١ ، ج ١ ، ص ٣٠٦ ـ ٤٠٠ . ـــ محمد عبد الله عنان : دولة الاسلام فى الاندلس : من الفتح الى بداية عهد الناصر ، العصر الاول ـ القسم الاول ، ط ٤ ، ـــ والخلافة الاموية والدولة العامرية ، العصر الاول ـ القسم الثانى ، ط ٤ ، ص ٣٧٢ ـ ٣٨٢ .
وهناك مؤلفات اخرى تناولت نشأت وحياة الدولة الاموية ، وقد رأينا أن نكتفى بهذا القدر فقط .

وبعد وفاة الخليفة عبد الرحمن الناصر ، خلفه في الحكم ابنه وولى عهده الحكم المستنصر ، فقام بالأمر خير قيام حتى توفى عام ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م . ثم خلفه ابنه القاصر هشام الذى ولاه عهده قبل موته ، وهو لما يبلغ الحادية عشرة من عمره بعد ، وتلقب بالمؤيد بالله .

غير أن السلطة الفعلية اصبحت بيد محمد بن ابى عامر المعافرى . وهو رجل من عامة الناس كتب له ان يتصل بمحض الصدفة بالبلاط الأموى فى عهد الخليفة الحكم المستنصر . ثم قاده ذكاؤه وأطماعه وطموحاته الى تأليف القلوب حوله ، فلم يلبث كثيرا حتى سطع نجمه وعلا شأنه داخل القصر وخارجه . وقد غدا غداة وفاة الحكم ثانى أبرز شخصيتين قويتين فى الدولة الأموية بعد جعفر المصحفى . واستطاع بعد لأى أن يتخلص من خصومه ومنافسيه شيئا فشيئا حتى تمكن من الاستئثار بالسلطان كله داخل دولة الخليفة القاصر هشام المؤيد ، فاستبد بالأمر دونه مبقيا له على السلطة الاسمية فقط ، وقد تلقب بالمنصور بالله . واستمر يحكم الدولة حتى توفى عام ٣٩٢ هـ / ١٠٠٢ م بعد أن وضع نواة الدولة التى عرفت فى التاريخ الاندلسى بالدولة العامرية نسبة له ، فخلفه ابنه عبد الملك الذى قام بالأمر خير قيام حتى وفاته عام ٣٩٩ هـ / ١٠٠٨ م.(١)

---

(١) : عن الدولة الاموية فى الاندلس فى عهد الحكم المستنصر وابنه هشام ، ثم الدولة العامرية انظر :

- ابن حيان : قطعة من المقتبس فى انباء اهل الاندلس ، وتتناول السنوات الاخيرة من عصر الحكم المستنصر . نشر عبد الرحمن على الحجى . - ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٥٦ - آخر الكتاب ، وج ٣ ، ص ١ - ٣٧ . - ابن بسام : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، القسم الاول - المجلد الاول ، عنى بطبعه وتصحيحه ونشره لجنة من طلبة واساتذة جامعة القاهرة ، قدم له طه حسين . - ابن الابار : الحلة السيراء ، ج ١ ، ص ٢٠٠ - ٢٠٥ ، و ص ٢٦٨ - ٢٧٧ . - الحميدى : جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الاندلس ، قسمان ، القسم الاول ص ١٣ - ١٨ ، وص ٧٨ - ٧٩ . - عبد الواحد المراكشى : المعجب فى تلخيص اخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد العريان ، ص ٥٩ - ٨٥ - ابن الخطيب : أعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام (تاريخ اسبانيا الاسلامية) تحقيق وتعليق ا . ليفى بروفنسال ، ص ٤١ - ٨٣ . - المقرى : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٣٨٠ - ٤٠٠ . - وغير ذلك من المؤلفات الأخرى .

ونستطيع أن نحدد بداية سقوط الدولة الاموية وتفككها بالفترة التى خلف فيها عبد الرحمن بن المنصور بن أبى عامر أخاه الحاجب عبد الملك الملقب بالمظفر • فلم يك عبد الرحمن فى حقيقة الأمر رجل الموقف أو أهلا لتولى الحكم ، اذ افتتح حكمه باكراه الخليفة هشام على أن يوليه عهده ويسند له الخلافة من بعده • وهو أمر خطير لم يقدم عليه أخوه ولا أبوه من قبله ، الأمر الذى أثار عليه نفوس العامة والخاصة من بنى أمية الذين عظم لديهم أن يخرج ارثهم من بين أيديهم •

وقد تصادف أن تلاقى حقد بنى أمية مع حقد والدة أخيه عبد الملك التى وقر عندها انه قد سمم ابنها ، فلوحت لبنى أمية عن رغبتها فى الانتقام من عبد الرحمن ، فدلوها على محمد بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر • فعرضت عليه المساعدة اذا ما ثار على عبد الرحمن ، ولاقى هذا العرض هوى فى نفس محمد ليثأر لأبيه قتيل بنى عامر من جهة ، وليثأر لحق وتراث بنى أبيه المروانية من جهة ثانية الذى سلبهم اياه آل المنصور (١) • فعمل على الثورة بعد أن جمع حوله قلوب بنى أمية الموتورين ، كما جند الكثير من المرتزقة من البربر والصقالبة (٢) وعامة أهل قرطبة •

---

(١) : ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٤٧ • ـ ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الاول ـ المجلد الاول ، ص ٥٩ • ـ ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، ص ٩٣ ـ ٩٤ •

(٢) : عن الصقالبة أنظر فيما بعد ، ج ٣ ، ص ٤٨ •

واستطاع محمد بن هشام بعد خطوب كثيرة أن يستولى على قرطبة في نفس العام الذى تولى فيه عبد الرحمن الحكم ، وهو عام ٣٩٩ هـ ، مستغلا خروج عبد الرحمن الى جليقية غازيا (١) . وقد عمل فور دخوله القصر على استدعاء الخليفة المحجور عليه هشام وتقريعه لموافقته على اخراج الأمر من آل بيته الى ذلك الدعى ، ثم طلب منه خلع نفسه والاعتراف به هو خليفة . وغدا محمد بن هشام من يومها الخليفة الشرعى ، وتلقب بالمهدى (٢).

أما عبد الرحمن فما أن بلغته تلك الاخبار المزعجة حتى انفض من حوله الانصار ، ولم يصل الى أبواب قرطبة الا بعدد ضئيل جدا من الانصار والجند . وأخيرا قبض عليه وذبح ذبح النعاج ، وحمل رأسه الى المهدى .

وانتهى بذلك حكم آل بنى عامر الذى أقامه المنصور بالكد والجد ، والحيلة والجبروت (٣). وقد عمل المهدى بعد أن تخلص من العامريين على أن يرتب تمثيلية طريفة زعم فيها أن الخليفة المعزول هشام بن الحكم توفى ، وأثبت ذلك فى محضر رسمى عقد فى القصر (٤).

بيد أن الخليفة المهدى لم يكن رجل تلك المرحلة المناسب ، فهو وان استطاع أن يقضى على نفوذ بنى عامر بتلك السهولة ، الا أنه لم يكن يملك بعد هذا رؤية سياسية أو خطة مدروسة . فكل ما كان يملكه هو التصميم على القضاء على آل بنى عامر ، وعندما تمكن من ذلك تبين أنه لم يكن رجل تلك المرحلة الخطرة . واتضح ذلك بسرعة عندما بدأ يتخبط فى اخطاء سياسية متعددة : كعداوته المكشوفة للبربر الذين ساعدوه ، وخلعه لولى عهده سليمان بن هشام ، وتمثيلية موت الخليفة هشام ... الخ (٥).

---

(١) : جليقية منطقة فى الاندلس (تمتد من نهر دويره Duero جنوبا حتى الساحل الشمالى لشبه الجزيرة الايبيرية ، ومن الساحل الغربى لها حتى قشتاله Castile (Castilla
أنظر ، ابوعبيد البكرى : المسالك والممالك (جغرافية الاندلس واوربا) تحقيق عبد الرحمن على الحجى ، حاشية رقم ١ ص ٧١ .

(٢) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٥٩ - ٦٠ . — عبد الواحد المراكشى : المعجب ، ص ٨٦ - ٨٧ .

(٣) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٧١ - ٧٣ .

(٤) : ابن عذارى : نفس المصدر والجزء ، ص ٧٧ - ٧٨ .

(٥) : ابن عذارى : نفس المصدر والجزء ، ص ٧٥ - ٨٣ .

كل هذه الأمور جعلت النفوس تغلى حقدا عليه وتعمل على الثورة ضده ، فثار والد ولى العهد المخلوع سليمان ، الا أنه قتل هو وابنه وهزم البربر . وقام بعد ذلك ابن أخيه أى ابن أخ والد ولى العهد ، وهو سليمان بن الحكم بن سليمان بن الناصر ودعا لنفسه وتلقب بالمستعين . واستعان بالبربر الحاقدين على المهدى ، وبالنصارى . وسنتبين بعد ئذ خطورة الاستعانة بهذين المنصرين على الدولة الأموية ، بل وعلى الوجود الاسلامى فى الأندلس .

وكان من جراء ذلك أن وقعت معركة " قنتش " فى ربيع الأول ٤٠٠ هـ / نوفمبر ١٠٠٩ م . وقتل فيها من أهل قرطبة نحو عشرين ألف رجل ، ودخل سليمان على إثرها قرطبة بعدما فرّ منها المهدى الذى لحق بمدينة طليطلة التى كانت لا تزال تقع تحت طاعته . ومن هناك اتصل بالنصارى طالبا مساعدتهم ، وقادهم نحو قرطبة حيث دارت بينه وبين سليمان معركة " عقبة البقر " فى ١٦ شوال ٤٠٠ هـ / ٢ يونيو ١٠١٠ م . وهزم فيها سليمان وجنوده .(١)

وعاد المهدى ثانية لقرطبة لتتجدد بيعته ، غير أن البربر استطاعوا بعد ذلك بقليل خذلانه وهزيمته فى مكان يدعى " وادى آره " فانصرف مخذولا الى قرطبة . وأظهر هشام المؤيد مدعيا أنه قائم دونه ، ولكن الأمر قوبل بالازدراء والاستهجان من البربر وغيرهم . فلم تفده تلك اللعبة ، وما لبث أن قتل على يد واضح الفتى العامرى أحد فتيان الخليفة هشام فى ذى الحجة ٤٠٠ هـ / يوليه ١٠١٠ م .(٢)

---

(١) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٧٩ ـ ٩٥ .

(٢) : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ٩٥ ـ ١٠٠ .

وعادت الخلافة مرة أخرى لهشام الذى تجددت بيعته ، الا أن البربر وسليمان رفضوا هذا الأمر ، وادعى المستعين أنه أحق بالخلافة من هشام وحدثت وقتها خطوب كثيرة (١) من غداة مقتل المهدى حتى دخول المستعين قرطبة فى شوال سنة ٤٠٣هـ/مايو ١٠١٣ م منها : مقتل واضح الفتى المدبر الحقيقى لدولة هشام الثانية (٢) ، ومنها تنازل المؤيد عن كثير من الحصون لامير قشتالة سانشو غارسيا لقاء مساعدته له ضد البربر (٣)، ومنها المراسلات الفاشلة بين هشام وسليمان (٤) ... الخ .

وأخيرا دخل المستعين القصر واستدعى المؤيد هشام فأنبه على ما حدث منه ، وطلب اليه أن يخلع له نفسه ، ففعل ذلك وأقر له بالخلافة (وتلقب من اول وقته بالالقاب السلطانية) (٥) . وابتداءا من تلك اللحظة بدأت اسطورة هشام المؤيد كما سنرى لاحقا ، وقد بدأت هذه الاسطورة عندما اختلفت الآراء حول مصيره بعد دخول سليمان القصر ، فبعضها يقول أن سليمان قد أخفاه ، والبعض الآخر من تلك الروايات يقول بل فر من محبسه

---

(١) : انظر ، ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ١٠٠ ـ ١١٢ . ـ ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الاول ـ المجلد الاول ، ص٢٤ـ٢٥ . ـ ابن الخطيب : اعمال الاعلام ، ص ١١٦ ـ ١٢٧ . ـ المقرى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٧ .

(٢) : عبدالواحد المراكشى : المصدر السابق ، ص ٨٨ ـ ٩٩ . ـ الحميدى : المصدر السابق ، ص ١٨ ـ ١٩ .

(٣) : محمد عبدالله عنان : الخلافة الاموية والدولة العامرية ، القسم الثانى ، ص ٦٥١ .

(٤) انظر ، ابن عذارى : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ١٠٩ ـ ١١٠ .

(٥) : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ١١٣ ـ ١١٤ .

وتوجه نحو مدينة المرية (١) ، حيث عاش في فاقة وبؤس وخمول (٢) . وسنرى انه سيظهر بعد ذلك مرة اخرى كما زعم ابن عباد .

على ان سليمان بعد ان استتبت له الامور في قرطبة لم يفطن الى تفادى خطأ المهدى الذى عجز عن التوفيق بين عناصر الشعب المختلف الاجناس ، رغم محاباته للبربر وتوزيعه الاقاليم عليهم ، مما اثار حفيظة الصقالبة الذين ينتمون بالولاء والطاعة للعامريين ، اذ كان معظم رؤساؤهم من اتباع المنصور ابن ابى عامر وفتيانه ، فعمد هؤلاء الى تكوين امارات خاصة بهم يمارسون فيها سياستهم المستقلة (٣) وسنتبين بعدئذ الدور الذى قاموا به فى الاندلس .

كما ان سليمان لم يفطن ايضا الى خطورة اسناد حكم مقاطعات طنجة وآصيلا وسبته التابعة للدولة الاموية آنذاك ، الى اثنين من الادارسة العلويين الذين ينتسبون الى ادريس بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن على بن ابى طالب ، لم يفطن وهو الاموى الى خطورة اسناد بعض اعماله الى علوى طالبى ، وهو ما لامه عليه احد قادته البربر (٤) . وكانت النتيجة ان سقطت دولته على يد احدهما وهو على بن حمود الذى ولاه حكم مدينة سبته ، فقد رأى هذا بثاقب بصره ان الخلافة يمكن انتزاعها من يد الامويين وتسييرها لبنى عصبته العلويين

---

(١) : (المرية Almeria ميناء هام على ساحل البحر الابيض المتوسط فى جنوب شرق اسبانيا بناها الخليفة عبدالرحمن الناصر سنة ٣٤٤هـ/٩٥٥م وكانت فى العصر الوسيط احدى القواعد البحرية الهامة للاسطول الاسلامى) انظر ، ابن الكردبوس : الاكتفاء فى اخبار الخلفاء ، تحقيق احمد مختار العبادى ، منشورات مجلة معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد ، المجلد الثالث عشر ، سنة ١٩٦٥ــ١٩٦٦م ، ح ٣ ، ص ٨٩ .

(٢) : على ادهم : المعتمد بن عباد ، ص ٢٣ .

(٣) : على ادهم : المعتمد بن عباد ، ص ٢٢ــ٢٣

(٤) : انظر ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ١١٣ــ١١٤ .

(٥) : انظر فى هذا :
رجب عبدالحليم : دولة بنى حمود فى مالقة بالاندلس (رسالة ماجستير مقدمة لقسم التاريخ كلية الاداب جامعة القاهرة) ١٩٧٦م ، ص ٥٣ ــ ٥٤ .

بقليل من الحنكة والذكاء . فأدعى ان الخليفة هشام عهد اليه بولايـة عهده واخذ ثأره له من خالعه المستعين ، وتحين الفرص للوثوب على سليمان شاهرا هذا السلاح . والتقت كلمته مع خيران العامرى احد الصقالية من الفتيان العامريين البارزين الذى استقل بمدينة المرية ، ونسق جهوده مع على بن حمود ، وتبنى دعوته وخاض معه معركته ضد سليمان المستعين الذى قامت عليه ثورة اخرى بقيادة مجاهد العامرى احد الصقالبة البارزين ايضا ، والذى استقل بمدينة دانية (٢) وتبنى هناك دعوة احد الاشراف القرشيين في دانية ولقبه المعيطى ، ودعا له بالخلافة (٣) .

(١) — مكان الإشارة فوق «سليمان المستعين».

واستطاع على بن حمود ان يضيق الدائرة على سليمان ، وان يدخل قرطبة ظافرا . وقد حاول ان يلقى تهمة قتل سليمان على المستعين ، لكي يمهد الطريق نحو مطامعه . وعلى الرغم من ان سليمان واباه الحكم نفيا ذلك نفيا قاطعا ، الا ان عليا عجل بقتلهم (٤) .

---

(١) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ١١٤ — ١١٦ .
ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الاول — المجلد الاول ، ص ٢٤ — ٢٥ —
عبد الواحد المراكشي : المصدر السابق ، ص ٩٠ — ٩١ . — ابن الاثير
الكامل ، مجلد ٩ ، ص ٢٦٩ — ٢٧٠ .
(٢) : (دانية Denia) تقع على ساحل البحر الابيض المتوسط جنوبي بلنسية في شرقي اسبانيا ، وهي الان مركز اداري في مديرية لقنت Alicante واسمها العربي والاسباني مشتق من اسمها الروماني القديم دانيوم Danium ولقد لعبت دانية في العصر الاسلامي دورا هاما خصوصا بعد ان استقل بها القائد الصقلبي ، ابو الجيش مجاهد العامري الذي تسميه المصادر الاوربية (Mugeto)
انظر ، ابن الكردبوس : الاكتفاء في اخبار الخلفاء ، ح ٢ ، ص ٩٦
(٣) : ابن عذارى : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ١١٥ — ١١٦ .
(٤) : ابن عذارى : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ١١٤ — ١١٦ . —
ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الاول — المجلد الاول ، ص ٢٤ — ٢٥ .

وهكذا تولى على بن حمود الخلافة ، وهو العلوى فى قلب الخلافة الاموية . وقد امل أن تصفو الامور له ، الا أن خيران العامرى رفيقه فى الكفاح ضد المستعين خاب أمله عندما لم يجد الخليفة هشام حيا ، فسار الى ألمرية فى شرقى الاندلس ، ومن هناك تبنى أحد بنى أمية ودعا له هو وغيره من الاندلسيين ، وتلقب بالمرتضى . وهو عبدالرحمن ابن محمد بن عبدالله الناصر .

وتقابل هؤلاء مع البربر فى غرناطة قبل أن يتوجهوا الى ملاقاة على بن حمود . غير أنهم هزموا شر هزيمة وقتل المرتضى المذكور ، وتفرق شمل جيشه وانكسرت شوكة الاندلسيين ، وكان على بن حمود قد توفى قبل قليل من المعركة فى ذى القعدة ٤٠٨هـ/ مارس ١٠١٨م (١) .

خلافة القاسم بن حمود ونزاعه مع ابن اخيه يحى بن على :

وتولى الخلافة من بعده أخوه القاسم بن حمود الذى لم تصف له الأمور هو الاخر ، بسبب سياسته التفريقية بين عناصر جيشه . فثار عليه البربر وثار عليه ابن اخيه يحى بن على حاكم العدوة المغربية (٢) بمساعدة البربر . ولم يجد القاسم بدا من الفرار عن قرطبة الى اشبيلية فى ربيع الاخر سنة ٤١٢هـ/ اغسطس ١٠٢٢ م .

---

(١) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ١٢٠ ـ ١٢٧ . ـ عبدالواحد المراكشى : المصدر السابق ، ص ٩٨ . ـ الضبى : بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الاندلس ، ص ٢٧ .

(٢) : المقصود بها ثغر سبتة المطل على البحر المتوسط فى المغرب الاقصى .

ودخل يحى قرطبة فبايعه البربر والسودان فى صدر جمادى الاخرة من نفس العام ، وتلقب بالمعتلى . اما عمه القاسم فقد ذهب الى اشبيليه داعيا لنفسه بالخلافة ومنتظرا الفرصة السانحة للوثوب على ابن اخيه يحى . وقد وهبه يحى تلك الفرصة عندما اسهم بسوء سياسته مع السودان رجال عمه القاسم الموالين له ، ومع بربره الذين اهمل شأنهم ، فاختلفت عليه الحال ولم يجد مفرا هو الآخر من مغادرة قرطبة ، وعاد القاسم بسرعة الى قرطبة مرة اخرى فخطب له فى اواخر عام ٤١٣ هـ / ١٠٢٣ م .

غير انه لم يتمتع طويلا بخلافته الثانية ، فثار عليه اهل قرطبة واجمعوا على خلعه ، وحاصروه فى القصر مدة شهرين حتى هزم . وخرج مرة اخرى الى اشبيليه فسدت ابوابها فى وجهه بتدبير القاضى محمد بن اسماعيل ابن عباد . وقد كانوا قد احتفظوا بابنيه اى ابنى القاسم بن حمود رهينة لديهم .

وقد اقتنع القاسم اخيرا ان لا جدوى من حصاره للمدينة ، فوافق على رفع الحصار عنها بعدما تعهد الاشبيليون باخراج ابنيه له . وبالفعل تم ذلك وانصرف القاسم وجماعته عن المدينة (١) .

---

(١) : عن هذه الاحداث المتعلقة بخلافة القاسم ويحى الحمود يين يراجع :
ـ ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ١٣٥ ـ ١٣٩ . ـ ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الاول ـ المجلد الاول ، ص٧٨ـ٨٣ . و القسم الاول ـ المجلد الثانى ، عنى بطبعه وتصحيحه ونشره لجنة من اساتذة وطلبة جامعة القاهرة ، وقدم له عبدالوهاب عزام وعبدالحميد العبادى ، ص ١٣ ـ ١٤ . ـ ابن الخطيب : اعمال الاعلام ، ص١٣٠ـ١٣٤ . ـ عبدالواحد المراكشى : المصدر السابق ، ص ٩٩ـ١٠٠ . ـ المقرى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٠٧ ـ ٤٠٨ ، ج ٢ ، ص٢٩ـ٣١ . رجب عبدالحليم : دولة بنى حمود فى مالقة بالاندلس ، ص ٦١ـ٦٥ .

عودة الامر ثانية لبني امية :

اما بالنسبة لاهل قرطبة ، فقد قر رايهم على عودة الامر لبني امية مرة اخرى ، علهم يكونون اهلا لذلك . فتصدر لهذا الامر ثلاثة منهم ، ووقع الاتفاق في النهاية على تأمير عبدالرحمن بن هشام بن عبدالجبار شقيق المهدي المذكور سابقا ، وتلقب بالمستظهر .

وكان في الواقع شابا قويا سديد الرأى ، غير انه كان الرجل المناسب في غير الوقت المناسب ، فلم تتح له الفرصة لاظهار مواهبه . فثار عليه ابوعبدالرحمن محمد بن عبدالرحمن بن عبدالله بن الناصر ، وقتل عبدالرحمن المستظهر ولما يتجاوز سبعة واربعين يوما من حكمه بعد(١)

وتولى الخلافة بعده هذا الثائر ، وتلقب بالمستكفي(٢). الا ان امره انتهى بعد ذلك بالخلع والنفى ، ثم الاغتيال وذلك في عام ٤١٦هـ/١٠٢٥م(٣) .

---

(١) : عبدالواحد المراكشي : المصدر السابق ، ص١٠٥-١٠٦ .

ابن الابار : الحلة السيراء ، ج٢ ، ص١٢ .

(٢) : ارتبط اسمه ايضا باسم ابنته الاديبة ولادة ، صاحبة الشاعر الاندلسي المشهور الوزير ابن زيدون الذى صاغ فيها اجمل قصائده .

(٣) : عن المستظهر والمستكفي يراجع :

ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ١٤٠ - ١٤٣ . ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الاول - المجلد الاول ، ص ٣٧٩-٣٨٣ . عبدالواحد المراكشي : المصدر السابق ، ص١٠٧-١٠٨ . ابن سعيد المغربي : وشي الطرس في حلى جزيرة الاندلس ، جزءان ، وهذان الجزءان خاصان بالاندلس ضمن كتابه الاوفى المعنون بعنوان : المغرب في حلى المغرب ، تحقيق وتعليق شوقي ضيف ، ج١ ، ص ٥٤ - ٥٥ .

اما يحى بن على الحمودى فان اشياعه فى قرطبة تبنوا دعوته مرة اخرى فى نفس العام الذى خلع فيه المستكفى الاموى ، الا انه لم يدخل قرطبة ، بل اكتفى بتولية احد رجاله امرها . وبقى هو بمدينة "قرمونه"(١) ثم خلعت طاعته عن قرطبة ثانية فى العام التالى ، فتوجه الى مدينة مالقه التى كان يتولاها قبيل قيامه على عمه القاسم .

عودة الامر ثالثة لبنى امية ، ثم خلعهم نهائيا :-

ورأى اهل قرطبة ان يعطوا بنى امية الفرصة الاخيرة لاثبات وجودهم واستعادة عرشهم النافر . فاجمعوا اثر خلع يحى بن على فى عام ٤١٧هـ كما قلنا على رد الامر لهم . وتولى ذلك كبير قرطبة وشخصيتها النافذة ابو الحزم جهور بن محمد بن جهور الذى راسل غيره من الرؤساء المتنزين على الثغور والمدن فى ذلك . فتم رأيهم على تقديم ابى بكر بن هشام ابن محمد بن عبد الملك بن الناصر الذى كان يقيم عند آل قاسم الفهريين المتغلبين على حصن "البنت"(٢) . فبايعوه فى عام ٤١٨هـ/١٠٢٧م .

---

(١) : قرمونه : فى التقسيم الادارى الاندلسى كانت عبارة عن كورة كبيرة واسعة ، تضم عددا من المدن والحصون ، وقاعدتها تسمى بنفس الاسم اى قرمونه . واسمها لاتينى الاصل Carmo . وقد دخلت قرمونه فى حوزة المسلمين عام ٩٢ هـ / ٧١٢ م وسقطت بيد الاسبان نهائيا عام ٦٤٤ هـ / ١٢٤٧ م ، وهى الان Carmona . وهى مركز ادارى تابع لمديرية اشبيليه ، على بعد ٣٥ كيلومترا شمالى شرقى اشبيليه .

انظر ، ابن الابار : الحلة السيراء ، ج ٢ ، ح ٤ ، ص ١٨٣ .

(٢) : البنت او البُنت Alpuente ، كما ينقل شكيب ارسلان عن ياقوت الحموى (قال ياقوت : حصن " البنت " بالضم والواو والنون ساكنان ، والتاء فوقها نقطتان ، حصن بالاندلس ، وربما قالوا البنت) .

انظر ، شكيب ارسلان : الحلل السندسية فى الاخبار والآثار الاندلسية ، ٣ اجزاء الجزء الاول ح ٤ ، ص ١٨٠ .

وتلقب بالمعتد بالله ، واخذ يتأهب للوصول الى قرطبة حتى دخلها في عام ٤٢٠ هـ / ١٠٢٩ م ٠

على ان الخليفة الجديد لم يك علي مستوى ذلك التطلع الشعبي الكبير كما لم يمسك جديرا بعقد الآمال عليه طيلة مدة انتظاره التي بلغت عامين ، اذ تكشف عن شخصية ضعيفة متهالكة خيبت الآمال ٠ فقد تخبط في كثير من الاخطاء السياسية التي افقدته صفة رجل الدولة المطلوبة في تلك المرحلة العصيبة من تاريخ دولة بني امية ، مما جعل اهل الرأى والمشورة في قرطبة وعلى رأسهم ابن جهور يقطعون كل امل في صلاحية بني امية للامر ٠ فخلع في ذي الحجة ٤٢٢ هـ / نوفمبر ١٠٣١ م ٠ كما استقر رأى اهل قرطبة على خلع بني امية اجمعين ، وطرد المعتد من المدينة ، وتولية الامر للوزراء واهل الحل والعقد في قرطبة(١) ٠

اسباب سقوط الدولة الاموية :-

هكذا سقطت الدولة الاموية على هذه الصورة المؤسية المحزنة ٠ وقد رسم سقوطها اكثر من علامة استفهام كبيرة في مخيلة المؤرخين والمفكرين قديما وحديثا ، وعلى درجات متفاوتة في التحليل والتفسير والتعليل والاستنتاج ٠

ومما يؤسف له ان هذا السقوط المريع بما كان له من انعكاسات وابعاد خطيرة لم يلق من بعض المؤرخين القدامى تفسيرا وتحليلا دقيقين ، يكشف لنا الستار عن الاسباب المباشرة وغير المباشرة لسقوطها ٠

---

(١) : يراجع في انتهاء الدولة الاموية وانقطاعها :
- ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ١٤٥ - ٢٥٢ ٠
- عبدالواحد المراكشي : المصدر السابق ، ص ١٠٩ - ١١٠ ٠
- الضبي : المصدر السابق ، ص ٢٧ - ٢٨ ٠
- ابن الخطيب : اعمال الاعلام ، ص ١٣٨ - ١٣٩ ٠
- ابن خلدون : المصدر السابق ، مجلد ٤ ، ص ٣٢٩ - ٣٣٠ ٠

فقد اكتفوا بالاسباب الظاهرة المباشرة(١) والتي مهما بلغت من القوة فلن تستطيع ان تقضي على دولة بلغت اوج مجدها وعظمتها حتى عام ٣٩٩هـ/١٠٠٩م ، وهو العام الذي بدأت نذر السقوط تظهر تباعا فيه .

انه لامر مثير حقا ان تسقط دولة عاشت مجدها الذهبي في عهود : عبدالرحمن الناصر ، والحكم المستنصر ، والحاجب المنصور بن ابي عامر ، وولده عبدالملك المظفر . دولة أمّ بلاطاتها ملوك النصارى ورسل الدولة البيزنطية طلبا للمساعدة ضد منافسيهم ولتبادل العلاقات وتحسينها مع هذه الدولة المتعاظمة القوة(٢) . دولة غشي بلاطاتها العلماء والادباء رغبة في المجد والصيت الذائع الذي كانت تسبغه على كل من يؤمها . دولة استطاعت الحد من هجمات ممالك النصارى التي لم تنقطع ابدا ، بل وجعلت لفرط استقرار الامور فيها الجهاد ضد ممالك النصارى في عهد اولئك الحكام العظام شغلها الشاغل .

---

(١) : كجعلهم سبب قيام محمد بن هشام المهدي هو رغبة والدة عبدالملك المظفر الانتقام من ابن زوجها عبدالرحمن لشكها من انه قد قتل ابنها بالسم . وهو في رأينا سبب ظاهري لم يكن الا الوسيلة التي تذرع بها محمد بن هشام ، بل واستفاد منها للخروج على الدولة العامرية التي سلبت بني امية خلافتهم وارثهم المشروع .
انظر في هذا ابن عذاري : المصدر السابق والجزء ، ص٥٢ .

(٢) : عن العلاقات الدبلوماسية التي نشأت بين الدولة الاموية والممالك النصرانية في الاندلس واوربا انظر ، ليفي بروفنسال : الاسلام في المغرب والاندلس ، ترجمة السيد محمود عبدالعزيز سالم ، ومحمد صلاح الدين حلمي ، مراجعة لطفي عبدالبديع ، ص٩١ - ١١٨ . - احمد ابراهيم الشعراوي : الامويون امراء الاندلس الاول ، ص٣٢٤ - ٣٢٧ . - عبدالمنعم ماجد : العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، ص٧٢ - ٨٢ . - محمد عبدالله عنان : الخلافة الاموية والدولة العامرية ، ص٤٩٠ - ٤٩١ ، و ص٥٨٣ - ٥٨٤ .

ومهما يكن من امر فاننا نعتقد انه كان لسقوط هذه الدولة اسبابا مباشرة ، واخرى غير مباشرة ، نتناول شرحها على التو .

١ - ولعل اول ما نستطيع ايضاحه من تلك الاسباب المباشرة ، هو ما اقدم عليه الخليفة الحكم المستنصر عندما عهد بالخلافة من بعده الى ابنه القاصر هشام والبالغ من العمر احد عشر عاما كما مر بنا سابقا (١) . وقد كان هذا امرا خطيرا ، وسابقة خطيرة في بلاد الاندلس ، اذ لم يحدث ان تولى الحكم في عصر الولاة (٢) ثم الامارة ثم الخلافة صبي لما يتجاوز الحادية عشرة من عمره بعد كما حدث هنا . وكان من الممكن بعد ذلك وبسهولة التكهن بخطل رأي الحكم المستنصر وافتقاره الى الحنكة السياسية والحكمة . فكل المؤشرات كانت تؤكد ان الامور سوف لن تصفو لطفل قاصر تحيط به اطماع رجال دولته وفتيان قصره لاحتوائه وجعله دمية في ايديهم . وهذا ما حدث بالفعل بعد وفاة الحكم المستنصر ، اذ انقسم رجال الدولة الى جناحين ، جناح يدعو لخلع هشام وتولية عمه المغيرة الاكبر سنا للتأثير عليه ، والتطلع الى تولي المناصب الكبيرة في الدولة لقاء ايصاله الى الحكم وعلى رأس هؤلاء فتيان القصر من الصقالبه ، وجناح آخر يدعو الى تنفيذ رغبة الحكم المستنصر بتولية ابنه هشام الخلافة ، ومن ثم الاستفادة من هذا التعيين . وكانت الغلبة لهذا الجناح (٣) .

---

(١) : انظر قبل ، ص ٢٣

(٢) : المقصود بعصر الولاة هي الفترة التي تولى حكم الاندلس فيها امراء من العرب بالتعيين من خلفاء بني امية في دمشق حتى سقوط دولتهم عام ١٣٢ هـ . واول هؤلاء الولاة العرب هو عبد العزيز بن موسى بن نصير ، وآخرهم يوسف بن عبد الرحمن الفهري ، الذي قتله عبد الرحمن بن معاوية ابن هشام بن عبد الملك المعروف بالداخل . واسس في الاندلس امارة اموية مستقلة .

(٣) : محمد عبد الله عنان : الخلافة الاموية والدولة العامرية ، ص ٥١٧ - ٥١٨ .

ولقد قوبل اسناد الحكم المستنصر العهد لابنه هشام من بعده انتقاد المؤرخين والمفكرين قدامى ومحدثين على السواء (١). وكان نتيجة ذلك هو ما اصاب الخلافة على يد المنصور بن ابي عامر وابنائه من بعده، من استبداد بالامر وزوال هيبة الخلافة (عندما اعتدى " اى المنصور بن ابى عامر " على الصفة الشرعية للخلافة واضعف شعور رجالات الاندلس بالولاء لهما، ونصب لهم القدوة وضرب لهم مثلا شرودا فى الاعتداء عليها والاستخفاف بها (٢))

وكان من نتيجة ذلك ايضا ان فقد اهل الاندلس الثقة من يومها بالفقهاء والعلماء الذين انساقوا فى مسايرة الحكم المستنصر مدفوعين فى ذلك باغراض شتى (٣).

على ان اخطر ما ترتب على ذلك - علاوة على زوال هيبة الخلافة - هو ما حدث من اختلال فى نظام الحكم نفسه من فصل بين السلطتين السياسية والروحية. فالحقيقة ان الاندلس لم تشهد منذ فتحها فصلا بين السلطتين سواء اكان ذلك فى عصر الولاة، ام فى عصر الامارة، ام فى بداية عصر الخلافة وحتى ايام الخليفة الحكم المستنصر. كان الوالى ومن ثم الامير فالخليفة يقبض بكلتا يديه على السلطتين السياسية والروحية

---

(١): محمد عبدالله عنان: الخلافة الاموية والدولة العامرية، ص ٥١ (نقلا عن ابن حيان). - حسين مؤنس: شيوخ العصر فى الاندلس، ص ٧٤ - ٨٠. - على ادهم: المرجع السابق، ص ٢٣.

(٢): على ادهم: نفس المرجع السابق، ص ٢٣.

(٣): حسين مؤنس: نفس المرجع اعلاه، ص ٧٤، و ص ٧٦-٧٧.

وكان الناس ينظرون الى هذا بعين الرضا والقبول ، اذ لا فرق عند المسلمين بين السلطتين ابدا ، فالحاكم اميرا او خليفة هو فى نفس الوقت . الا ان عندما يجىء الحاجب المنصور فيغطى بكل ما اوتى من جبروت على الخليفة الشرعى الذى تعودت النفوس على اجلاله ، ويحجبه عن رعيته ويستأثر بالحكم لنفسه مبقيا على المظهر الشكلى للخلافة ، فان الناس ستصاب بصدمة نفسية .

فلم يكن المجتمع فى الاندلس يرتاح الا لخليفة قرشى اموى يحكم بنفسه ، ويخرج للناس ويقابلهم ويصلى بهم . وعلى هذا فاننا نستطيع تفسير شوق الناس الشديد الى رؤية الخليفة الشرعى المحتجب قسرا ، بل وتلفيقهم الشائعات المختلفة المبنية على الوهم والتضليل حول خليفتهم (١) .

ومن هنا ايضا نفهم خضوع الحاجب المنصور لهذا التطلع الشعبى الكبير عندما اظهر الخليفة هشام ، وخرج معه فى موكب هائل من قصره الى الزاهرة قصر الحاجب (٢) . بل ان هذا الموقف الشعبى ازاء الخليفة المحجور عليه جعل المنصور يتراجع عما طاف بمخيلته فى وقت من الاوقات عن الرغبة فى التسمى بالخلافة ، بل ويتراجع نهائيا عن ذلك بعد ان نصحه الفقهاء بالابقاء على الخلافة الاموية (٣) .

---

(١) : من الشائعات التى ترددت فى الاندلس ، ما صيغ على لسان الخليفة هشام نفسه من شعر يشرح فيه حاله مع حاجبيه ، ويقال انه ينسب للمعتمد العباسى :

اليس من العجائب ان مثلى .. يرى ما قل ممتنعا عليه

وتملك باسمه الدنيا جميعا .. وما من ذاك شىء فى يديه

انظر ، محمد عبدالله عنان : الدولة العامرية وسقوط الخلافة الاندلسية ، الجزء الثالث من كتاب دولة الاسلام فى الاندلس ط ١ ، ص ٥٠

(٢) : محمد عبدالله عنان : نفس المرجع ، ص ٦٧ .

(٣) : انظر ، ابن حزم : نقط العروس فى تواريخ الخلفاء ، مجلة كلية الآداب القاهرة ، المجلد الثالث عشر ، الجزء الثانى ، ديسمبر ١٩٥١م ، ص ٧٦ ـ ٧٧ .

وهذا هو الذى جعله يشدد فى وصيته لابنه عبد الملك على ان يراعى الخليفة ويحافظ على الخلافة وقدرها ، ولا يحاول الانفراد بالتدبير دونه ولو مظهريا (١)

وعلى هذا فاننا نستطيع القول بان اسناد الخليفة الحكم المستنصر ولاية العهد لابنه ،واستئثار المنصور بن ابي عامر وولده من بعده بالسلطة كان احد اسباب سقوط الدولة الاموية وزوال هيبتها ، اذ بزوال هيبة الخلافة زالت هيبة الدولة .

٢ — وثانى الاسباب المباشرة لسقوط الدولة هو اكراه عبد الرحمن بن المنصور الخليفة هشام على توليته عهده واسناد الخلافة له من بعده . وكان هذا الامر شيء بالغ الخطورة ، اذ هو الذى عجل بسقوط الدولة سراعا . وترتب عليه جميع النتائج بعد ذلك سواء ما حدث من وثوب محمد بن هشام المهدى وتولى الخلافة خلفاء ضعاف ، وقيام ممالك الطوائف .... الخ .

---

(١) : اوصى المنصور ابنه عبد الملك بوصية سياسية وعائلية جامعة . واهم ما ورد فيها هى وصيته له بمراعاة الخلافة والخليفة معا ، اذ يقول :
(.... وصاحب القصر قد علمت مذهبه ، وانه لا يأتيك من قبله شيء تكرهه ، والآفة ممن يتولاه ويتلمس الوثوب باسمه . فلا تنم عن هذه الطائفة جملة ولا ترفع عنها سوء الظن ، وعاجل بها من خفته على اقل بادرة ، مع قيامك بحق صاحب القصر على اتم وجه . فليس لك ولا لاوليائك شيء يقيكم الحنث فى يمين بيعته الا بما تقيمه لوليها من النفقة . واما الانفراد بالتدبير دونه مع ما بلوته من جهله وعجزه عنه ، فانى ارجو انى واياك منه فى سعة ما تمسكنا بالكتاب والسنة .)
كما جاء فى هذه الوصية ايضا (واياك ان تضع يدك فى يد مروانى ما طاوعتك بنانك فانى اعرف ذنبى اليهم) .
انظر ، ابن الخطيب : اعمال الاعلام ، ص ٨١ — ٨٢

فقد ادعى عبدالرحمن بن المنصور ان الخليفة هشام لم يجد افضل منه لتولى الخلافة من بعده (١) • وهو شيء خطير كما قلنا ، فحتى ذلك التاريخ لم يجرؤ احد من المتغلبين على الخلافة الاسلامية على الدعوة لنفسه بالخلافة • فلا البويهيون فعلوا ذلك ، ولا السلاجقة ايضا من بعدهم ، ولا اسرة بدر الجمالى التى كانت تمثل نفس الدور مع الخلافة الفاطمية التى كان قد ضعف امرها (٢) •

وقد حرك هذا الامر الشعور لدى بنى امية خاصة والمسلمين عامة فى الاندلس • فخروج الخلافة عن قريش ممثلة فى بنى امية يعتبر مخالفة لشروط الامامة ، ومناهضة لشعورهم الدينى نحو الخلافة الاموية • فليس الامر بتلك السهولة التى تصورها عبدالرحمن بن المنصور بقلة تبصره ورعونته عندما استغل ضعف الخليفة هشام ابشع استغلال • فقد جرّ بهذا التصرف الارعن على نفسه وعلى دولته من المصائب والمشكلات ما عجل بسقوطها •

ولقد كان فى امكاننا ان نتكهن بان الوضع كان سيستمر كما كان فى ايام المنصور وابنه عبدالملك مع الخليفة هشام ومن يأتى بعده تماما مثل وضع بنى العباس فى بغداد مع البويهيين والسلاجقة ، وان يصبح ذلك امرا مألوفا لو لم يقم عبدالرحمن بتلك الخطوة • اما ان يأتى هو فينسف كل الجسور مع بنى امية واتباعهم فى الاندلس ، فتلك الداهمة التى ليس بعدها داهمة •

---

(١) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٤٣ ومابعدها • ـــ
ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الاول ـ المجلد الاول ، ص ٨٤ ـ ٨٥ •

(٢) : من الواضح اننا نقصد فى هذه النقطة بالذات الاشارة الى اصرار المتغلبين على تلك الخلافات المذكورة على مراعاة هيبة الخلافة ، والمحافظة على سلطانها الروحى ، سواء اكانت عباسية او فاطمية •

واما ما فسر به الامر بعد ذلك من ان انتقال الخلافة من بنى امية الى بنى عامر انما هو انتقال لها من القيسية الى اليمنية ، فانه فى رأينا قد بولغ فيه كثيرا ، فالقضية تتصل بما اجمع عليه فقهاء السنة من ان الخلافة فى قريش (١)، وليست قضية قيسية ويمنية (٢).

ومرة اخرى نستطيع ان نؤكد ان ما حدث بعد ذلك من احداث سياسية انما هو نتيجة لهذا السبب سواء اكان ذلك قضية الانتقام التى تحدثنا عنها فيما يتعلق بوالدة عبد الملك المظفر ، او خروج محمد بن هشام على الدولة العامرية ، او الفتنة البربرية كما كان يطلق عليها ، او ما تبع ذلك من تولى خلفاء ضعاف ، ثم سقوط الدولة اخيرا وقيام ممالك الطوائف فى الاندلس .

الاسباب غير المباشرة لسقوط الدولة :-

اما الاسباب الاخرى التى اسهمت فى سقوط الدولة ، فقد كانت اسبابا غير منظورة اثرت ببطء فى هدم بناء الدولة منذ تكوين الدولة الاسلامية فى الاندلس ، واثرت ايضا فى تشكيل تحركات الاحداث التاريخية فى الاندلس بعد سقوط الخلافة الاموية ، وهو ما نحاول الان ايضاحه فى شيء من الايجاز .

---

(١) : من بين شروط الامامة التى انعقدت عليها كلمة الفقهاء ان يكون الخليفة قرشيا لما ورد فى ذلك من الاحاديث .
انظر فى ذلك ، حسن ابراهيم حسن وعلى ابراهيم حسن : النظم الاسلامية ، ص ٢٤ - ٢٥ .

(٢) : من القدامى الذين يرون هذا الرأى : ابن خلدون : المصدر السابق ، مجلد ٤ ، ص ٣٢٣ - ٣٢٤ .
ومن المحدثين احمد مختار العبادى : فى تاريخ المغرب والاندلس ، ص ٢٧٣ - ٢٧٤ .

كانت التركيبة أو البنية الاجتماعية للمجتمع عاملا رئيسيا في تصدع أركان الدولة . فالمجتمع الاندلسي كان مزيجا من عناصر عرقية ودينية شتى يسود علاقاتها التشاحن والتصادم أبدا ، فقوام المجتمع الاندلسي عناصر رئيسية خمسة (١) هي :-

- العرب : على اختلاف قبائلهما القيسية (المضرية) ، اليمنية .

- البربر : وهم الذين لم تنقطع هجرتهم منذ وطئت أقدام المسلمين بلاد الاندلس ، والذين ازدادت اعدادهم في الجيش على يد العامريين بصفة خاصة .

- المسالمة : وهم الذين اعتنقوا الاسلام (٢) ، وأصبح لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، وتسمى هذه العناصر المسلمة بالاضافة الى المسالمة ، بالمولدين . فأطلق على الاسبانيين الذين اعتنقوا الاسلام المسالمة ، وأطلق اسم المولدين على نسلهم . فنشأ هؤلاء في ظل الاسلام وتربوا بتربيته وقد أصبحوا كثرة كبيرة مهمة في الاندلس وقتها .

---

(١) : عن المجتمع الاندلسي وعناصره العرقية والدينية راجع :
احمد هيكل : في الادب الاندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة ، ط ٢ ، ص ٣١ - ٤٧ . - لطفي عبدالبديع : الاسلام في اسبانيا ، ص ١٧ - ٣٦ . - عبادة كحيلة : المولدون في التاريخ الاندلسي ، ص ٦ - ١٠٧ . - جودت الركابي : في الادب الاندلسي ، ص ٣٤ - ٤٢ . - صلاح خالص : اشبيلية في القرن الخامس الهجري " دراسة أدبية وتاريخية لنشوء دولة بني عباد في اشبيلية وتطور الحياة الادبية فيها ٤١٤/٤٦٤هـ " ، ص ٣١ - ٣٣ .

(٢) : عقد عبادة كحيلة في رسالته المذكورة سابقا فقرة واسعة حلل فيها مصطلح المولدين ، كما تطرق في الحديث الى معنى المسالمة أو الأسالمة .
انظر ، ص ١١٣ - ١٢٠ .

- المستعربون (موزاراب Mozarab) • وهم الاسبان الذين بقوا على دينهم المسيحي وكان لهم الحق في ممارسة شعائرهم والتقاضي فيما بينهم امام قضاة منهم ، وادارة شئونهم • وكان يطلق عليهم في الاندلس ايضا اسم العجم •

- الصقالبة : الذين بدأوا يتلمسون طريقهم نحو القوة منذ القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي •

- اليهود : ويكونون هم الاخرون قسما مهما من سكان المدن ، وكان لهم نشاطهم الاداري والتجاري في الاندلس •

تلك هي عناصر المجتمع الاندلسي الذي لم تكن تجمعه لا وحدة عرقية ، ولا وحدة دينية ، وتسيطر على فئاته التنافسات والخلافات • ومع هذا فقد كانت هذه العناصر المتناحرة تشكل في مجموعها ماعدا الطارئين كالبربر الذين استقدمهم المنصور بن ابي عامر الى الاندلس ما يمكن ان نطلق عليه المجتمع الاندلسي بكل خصائصه ومميزاته • ويلاحظ هنا ان هذا المجتمع لم يكن مجتمعا طبقيا عنصريا ينقسم الى ثلاث طبقات جنسية او اكثر ، بمعنى انه لم يكن هناك طبقة عربية ارستقراطية، ووسطى ، ودنيا ، وطبقة بربرية ومستعربة ومولدة بذلك الانقسام • بل يمكن ان نقول انه كان هناك طبقة اندلسية ارستقراطية ، واخرى وسطى ، وثالثة دنيا ، وان كان هذا لا يغفل مكانة العرب كعنصر اشاد صرح حضارة جعلت من قرطبة المركز الثاني للحضارة الاسلامية بعد بغداد (١) •

اما العرب فقد تناسوا عصبيتهم القبلية بين قيسية ويمنية ، لا لانها قد استلت من نفوسهم ، وانما اجلت ونحت ليحل محلها في المرتبة الاولى الخوف المشترك من المصير المشترك •

---

(١) : صلاح خالص : اشبيليه في القرن الخامس الهجري ، ص ٣٤-٣٥ •

بعد أن دأب أمراء ثم خلفاء بنى أمية ثم المنصور بن أبى عامر على اضعاف العصبية العربية بقسميها ، وتحجيم وجودها فى الجيش (1) ، ولذلك فقد انكفأت على نفسها ، ولم تعد تلك القوة المهيمنة التى كانت عليها فى عهد الولاة وبداية عهد بنى أمية ، ومالت - كأختها فى المشرق - الى الاهتمام بمصادر دخلها وتنويعها وتوزيعها لتتبلغ به للصرف على ملذاتها ورغباتها ، وأصبح وجودها فى بلاطات بنى أمية ذا بعد ترفيهى ، أو قل تشريفى كتولى الوزارة أو القضاء وغير ذلك ، وغدا نفوذهم أى العرب اقتصادى وثقافى بعد أن اضمحل نفوذهم السياسى ، ومن هذا المنطلق فرضوا أهميتهم على حياة المجتمع الاندلسى اليومية ، وخلدت كثير من الاسر العربية أسماءها فى حياة المجتمع الاندلسى ، وانصبت جهود هؤلاء العرب فى محاربة نفوذ الطارئين على البلاد كالبربر الذين استقدمهم المنصور باعداد كبيرة .

أما البربر وهم العنصر الثانى من عناصر المجتمع الاندلسى ، فقد كانوا يشكلون كثافة سكانية كبيرة جدا ، ولم تنقطع هجرتهم منذ الفتح وتدفقت اعدادهم من المغرب نحو الاندلس من القرن الاول وحتى نهاية القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى لأسباب عديدة منها : تشابه المناخ والأحوال الزراعية والجغرافية بين العدوتين المغربية والاندلسية ، ومنها اسباب أمنية انتهجها بعض امراء وخلفاء الدولة الاموية تهدف الى استقدام اعداد كبيرة منهم لمقاومة العناصر العربية وغيرها من المناوئين للدولة .

بيد أنه يجب أن نذكر بأن البربر الذين قدموا الى الاندلس ابان الفتح ما لبثوا أن اندمجوا مع غيرهم من العناصر الاخرى كالعرب والمسالمة وغيرهم . وشكلوا جميعا المجتمع الاندلسى او القومية الاندلسية بكل خصائصها ومميزاتها المعروفة فى كتب التاريخ والادب .

---

(1) : السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الاندلس من الفتح حتى نهاية الخلافة ، ص٢٦٦ - ٢٦٧ .

وفي عهد المنصور بن ابي عامر قدمت اعداد كبيرة من البربر الى الاندلس وكانت هذه العناصر الطارئة تثير استياء الاندلسيين بسبب سلوكها المعوج ، اذ كانوا كفرق مرتزقة لا يهمها الا مصالحها الخاصة لا تتورع عن نقل ولائها لمن يدفع لها اكثر . واتضح هذا الدور السيء لهم عندما بدأت الخلافة تتهاوى اذ ظهر مدى فسادهم وانعدام اي شعور بالصلاح لديهم ، حتى لقد سميت الفترة التي اعقبت سقوط الدولة بالفتنة البربرية (١) .

اما المولدون فعلى الرغم من انتمائهم الى الاسلام ، وعلى الرغم من انهم ولدوا في ظل الاسلام وتثقفوا بثقافته . الا انه ارضعوا في معظمهم الحقد والبغضاء للعرب منذ نشأتهم . وكانوا يفعلون ذلك للتعبير عن شعورهم بالغبن والاجحاف ، فقد كانوا يشعرون بانهم يتحملون وحدهم المغارم المتمثلة في الضرائب دون ان يكون لهم الحق في المغانم والمناصب الرئيسية التي كانت وقفا على فئات من المجتمع بعينها (٢) . ومن ثم فقد عمدوا الى الثورة على الدولة الاموية كلما امكنتهم الفرصة وسنح لهم السانح . وقد تسموا امعانا في الاعتداد باصولهم الاسبانية باسماء قوطية كابن القوطية ، وابن غارسيا ونحوهما (٣) . وكانوا يقومون منذ عهد الامير الحكم بن هشام المعروف بالربضي وحتى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر بثورات متعددة في معظم الاندلس ، وقد استطاع عبد الرحمن الناصر القضاء على خطرهم عندما

---

(١) :السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين واثارهم في الاندلس ، ص ٥٦٦ ـ ٥٧٠ .

(٢) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٧٦ .

(٣) : احمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والاندلس ، ص ٣٣٨ ـ ٣٣٩ .
وانظر كذلك عبادة كحيلة : المولدون في التاريخ الاندلسي منذ الفتح العربي حتى نهاية عصر الامارة . (رسالة ماجستير مقدمة لقسم التاريخ كلية الاداب جامعة القاهرة) ١٩٧٨ م ، ص ٩٥ ـ ٦٤ .

(٤) : احمد مختار العبادي : نفس المرجع اعلاه ، ص ٣٣٨ .

اخمد الثورة الكبرى التي قام بها عمر بن حفصون (١) احد زعماء المولدين الذى استقل بجماعته بالمرتفعات الجنوبية الاسبانية الممتدة بين مدينتي رنده غربا ، ومالقه شرقا ، وكانت قاعدتهم قلعة ببشتر (٢) .

ولم يخل المجتمع الاندلسى من مضايقات المستعربين او المستعربة فقد ظلت هذه الطائفة محافظة على مسيحيتها فلم يعترضها معترض ، وكانوا يمارسون شعائرهم الدينية بحرية ويتحاكمون فيما بينهم الى قضاة منهم ، ويدبرون شؤونهم بأنفسهم . الا أنه عزّ على هذه الفئة وخاصة رجال الدين والقساوسة انصراف ابناء جلدتهم الى الاهتمام باللغة العربية لغة الثقافة العالمية آنذاك ، وعزوفهم عن لغتهم اللاتينية لغة كتابهم المقدس (٣) ، فعملوا

---

(١) : عن عمر بن حفصون وثورته التي شغلت الفترة من امارة الامير الاموى المنذر بن محمد ، وحتى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر انظر ،
ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص١٠٤ ـ ١٩٧ على صفحات متفرقة .
ـ عبادة كحيلة : المولدون في التاريخ الاندلسى ، ص١٩٦ ـ ٢٥٠ .

(٢) : حصن ببشتر هو كما يقول ابن غالب الاندلسى ، في كتابه قطعة من كتاب فرحة الانفس ـ تحقيق لطفى عبد البديع (الحصن المنفرد بالامتناع والواحد في الحصانة والانقطاع ، صخرة صماء من جميع النواحي ، واذا توصل المتوصل الى اعلاه الفاه منفسحا ورحبا منبسطا) .
انظر ابن غالب الاندلسى : فرحة الانفس ، ص٢٦ .

(٣) : انظر في هذا كامل كيلانى : نظرات في تاريخ الادب الاندلسى ، ص٣٦ ـ ٤٠

جـاهدين على تعبئة الشعور القومى والدينى لديهم وحقنهم بالحقد والكراهيـة ، والانتقاص من الاسلام والاستخفاف بالرسول صلى الله عليه وسلم . وكانوا أى المستعربين عنصر شغب منذ عهد عبدالرحمن بن الحكم (الأوسط) وحتى بداية الفتنة (١) .

أما العنصر الرابع من عناصر المجتمع ، فهم الصقالبة الذين كتب عنهم الكثير قديما وحديثا ، وقد لعبوا دورا هاما فى حياة المجتمع الاندلسى السياسية والاجتماعية والثقافية .

---

(١) : احمد مختار العبادى : المرجع السابق ، ص ١٥٥ ـ ١٥٨ . ـ محمد عبدالله عنان : دولة الاسلام فى الاندلس من الفتح الى بداية عهد الناصر ، ص ٢٦٧ ـ ٢٧٣ .

وكذلك ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٩٧ ـ ٩٨ .

(٢) : الصقالبة شعب كتب عنهم الكثير قديما وحديثا ، وسنجتزء من كتاب : فى تاريخ المغرب والاندلس لاحمد مختار العبادى ما يعنينا فى شىء من الايجاز على معرفة ما تعنيه هذه الكلمة : الصقالبة (اطلق الجغرافيون العرب هذا الاسم على الشعوب السلافية سكان البلاد الممتدة من بحر قزوين شرقا الى البحر الادرياتى . وهى البلاد التى كانت تسمى فى العصور الوسطى باسم بلغاريا العظمى . ولقد دأبت بعض القبائل الجرمانية على سبى تلك الشعوب السلافية وبيع رجالها ونسائها الى عرب أسبانيا ، ولذا اطلق العرب عليهم اسم الصقالبة . ثم توسع العرب فى استعمال هذا الاسم فأطلقوه على ارقائهم الذين جلبوهم من اية أمة مسيحية . واستخدموهم فى القصر الخليفى ، ويذكر أن الصقالبة كانوا يجلبون أيضا من سواحل البحر الاسود ومن لمبارديه وكلابريا فى ايطاليا ، ومن قطالونيا وجليقية فى شمال اسبانيا كما يقول ابن حوقل فى كتابه : صورة الارض الذى ينقل عنه العبادى . وجاء اغلب هؤلاء الصقالبة اطفالا الى اسبانيا الاسلامية حيث ربوا تربية اسلامية ، ودربوا على اعمال القصر والحرس والجيش . واستطاع عدد كبير منهم أن يحتل مكانة عالية فى المجتمع القرطبى ، فصار منهم الأدباء والشعراء واصحاب المكتبات الكبيرة والضياع الواسعة .

ومارسوا دورا مماثلا للدور الذى لعبه الاتراك فى عهد الدولة العباسية فى عصرها الثانى ، ومماثل للدور الذى لعبته الانكشارية فى الدولة العثمانية ، بل جاءت الانكشارية على صورة ماثلت الى حد ما اسلوب حياة الصقالبة المميز داخل القصور سواء أكان ذلك من ناحية الاسلوب التربوى ، ام من ناحية الاسلوب العسكرى الذى خضع له اؤلئك الصقالبة فى قصور الدولة الاموية وخارجها • وقد تعاظم نفوذ هؤلاء الصقالبة في عهد عبدالرحمن الناصر ، ثم المنصور بن ابى عامر وابنه عبدالملك ، حتي لقد عرفوا بالعامريين •

وبجانب هذه العناصر كان اليهود يشكلون كما ذكرنا قسطا مهما من السكان ، اضطلعوا بالتجارة والمبادلات المالية فى معظم الاحيان •

هذا المجتمع بكل عناصره الرئيسية المكونة له كان من المستحيل توحيد صفوفه ، بل قل توحيد قلوب سكانه نحو شعور قومى موحد ، وذلك لان كل منهم كان يهتم اهتماما مباشرا بعصبيته الدينية والعرقية قبل اي شيئ آخر ، فاذا دهمه داهم انشغل فى الدفاع عن مصالحه الشخصية أولا ، ثم عصبيته الجنسية ثانيا •

على أن من المهم أن نشير هنا الى أنه بالرغم من ذلك التناحر السياسى ، الا أن هذه العناصر العرقية والدينية المكونة للمجتمع الاندلسى لم تتحرج عن الاخذ عن بعضها البعض فى باقى مناحى الحياة الثقافية والفكرية والعلمية والادبية •

= ويبدو أن بدء استخدام الصقالبة فى الاندلس كان منذ ايام الامير الحكم الربضى ، ثم اخذ عددهم يزداد بسرعة حتى بلغ على عهد الخليفة عبدالرحمن الناصر حوالى ٣٧٥٠ من الرجال ، ٦٥٠ من النساء • وهذه الارقام مختلف فى تقديرها ، ولكنها تدل عموما على وجود طبقة جديدة فى المجتمع الاندلسى مثل المماليك الاتراك فى المشرق الاسلامى •

ويرى بعض المؤرخين أن اعتماد الامويين فى الاندلس على هؤلاء الصقالبة فى الجيش والحكومة ، كان هدفه الحد من نفوذ الارستقراطية العربية فى الحكم واضعاف سيطرة الجند من العرب والبربر)) •

انظر ، ص ٢١١ – ٢١٣

كما كتب احمد مختار العبادى ايضا فى مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ، المجلد الثالث عشر ، ١٩٥٣م • بحثا مطولا عن الصقالبة فى اسبانيا وعلاقتهم بحركة الشعوبية • كما كتب سعيد عاشور فى كتابه : اوربا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٥٩٦ – ٦٠٢ بحثا عن السلاف أو الصقالبة وحركتهم التوسعية •

أما من القدامى فقد كتب ابو عبيد البكرى فى كتابه المذكور سابقا فقرة واسعة عن الصقالبة من ص ١٥٤ – ١٩١ •

٢ — ولعل ثانى الاسباب غير المباشرة لسقوط الدولة الاموية هو جغرافية اسبانيا وما لعبته من دور فى عدم استقرار البلاد تحت وحدة سياسية منذ ايام القوط الى الان دون مبالغة • فشبه جزيرة ايبريا تغلب عليها الطبيعة الجبلية الوعرة ، وحبتها العناية الالهية بأودية وهضاب وسلاسل جبلية منيعة ، واماكن نائية كانت ملاذا للثائرين والخارجين على النظام (١) • وانعكست هذه الطبيعة القاسية على الوضع السياسى فى شبه الجزيرة الايبيريه • فلم تستطع اية حكومة مركزية سواء أكان ذلك فى عهد ملوك القوط الاسبان ، أم فى عصر ولاة الاندلس أم فى عهد أمراء وخلفاء بنى أمية ومن خلفهم الى وقت قريب من العصور الحديثة • نقول لم تستطع تلك الحكومات أن تحقق وحدة سياسية تضم شبه الجزيرة كلها أو معظمها الا بالقوة المسلحة الشديدة ، وبفضل مميزات ذاتية فريدة لملوك أقوياء غير عاديين • فاذا ضعفت هذه الحكومة المركزية او تولى امرها ملوك ضعاف عادت عوامل التفكك الجغرافى تلعب دورها •

وهكذا فان التاريخ السياسى لاسبانيا القوطية ثم المسلمة فالنصرانية كان يتأثر دائما بهذا الواقع الجغرافى الطبيعى • فاذا تيسرت السلطة المركزية القوية فى يد اى حاكم مسلم او مسيحى ، استطاع أن يفرض الوحدة السياسية والعكس بالعكس • رأينا ذلك فى عهد الولاة ، وفى عهد عبد الرحمن الداخل وخلفائه : هشام ، الحكم ، عبد الرحمن الاوسط ، وفى عهد عبد الرحمن الناصر ، والمنصور بن ابى عامر ، وسانشو غارسيا الكبير ، وابنه فرديناند الاول ، والفونسو السادس ، والفونسو المحارب ، والفونسو السابع وغيرهم من الملوك الاقوياء الذين وحدوا معظم شبه الجزيره بقوتهم الشخصية والعسكرية •

٣ — وأخيرا فاننا لانستطيع أن نغفل سببا مهما غير مباشر كان له دور ليس فى سقوط الدولة الاموية فقط ، بل والدولة الاسلامية فى الاندلس كلية • هذا السبب هو : نمو ممالك الطوائف واشتداد حركة الاسترداد الاسبانية (Reconquista) التى بلغت ذروتها فى عهدى ملكي قشتاله وأرغونه فرديناند وايزابيلا ، عندما انتهى الوجود الاسلامى فى الاندلس عام ٨٩٢هـ/ ١٤٩٢ م •

---

(١) على أدهم : المرجع السابق ، ص ١٩ •

والحقيقة ان اسبانيا كانت من الامصار التى لم يكتمل افتتاحها • فقامت فيها بالتالى مقاومة نصرانية مسلحة ضد المسلمين منذ عهد الولاة وتطورت الى قيام ممالك النصارى •

فقد تكونت بذور هذه الممالك عندما عجز العرب المسلمون الفاتحون عن استكمال فتح اسبانيا كلها بفعل ظروف جغرافية قاسية وهى التى اشرنا اليها سابقا ، وبفعل ظروف سياسية وعرقية اخرى ساعدت كلها فى تكوين امارتين صغيرتين احداهما بقيادة القائد القوطى بلاجيوس أو بلاى عند المؤرخين المسلمين ، وهى التى قامت فى منطقة استوريش (استورية) فى ولاية جليقية القديمة فى شمال غرب شبه الجزيرة الايبيريه • وثانيهما هى امارة كانتا بريا فى شمال البلاد فى مقاطعة بسكونيه أو البشكنش قرب منطقة نبره (نافار) بقيادة قائد يدعى بتروس احد ابناء ملوك القوط القدامى • فقد اعتصم هذان القائدان بمقاطعتيهما بعد معركة (شريش) فى عام ٩٢ هـ / ٧١٠ م ، وكونا هاتين الامارتين مستغلين طبيعة المنطقة الجبلية ، وخلافات المسلمين ومنازعاتهم • ثم توحدت هاتان الامارتان فى مملكة واحدة هى مملكة جليقية او استوريش بعد زواج ابن الدوق بتروس من ابنة بلاجيوس •

ولا يهمنا فى هذا المجال ظروف تكوين ممالك النصارى الا بالقدر الذى يفيدنا فى القاء الضوء على ممالك النصارى فى بداية القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى • الذى رافق سقوط الدولة الاموية • فقد أطل هذا القرن على أربع ممالك نصرانية هى مملكة نبره (نافار) وعاصمتها مدينة بنبلونه ، وتمتد من بلاد البشكنش حتى حدود مملكة ليون أو جليقية او استوريش كما كان يطلق عليها ، وظهرت امارة نبرة كامارة مستقلة فى عهد الامير غارسيا ايجيز انجو اريستا • وقد غدت بعد ذلك ذات اهمية فائقة فى عهد احد احفاده سانشو غارسيا الملقب بالكبير الذى كان يعاصر سقوط الدولة الاموية •

ثم مملكة جليقية او اشتوريش او ليون وقد سبق أن مر بنا انها كانت تقوم فى المناطق الشمالية الغربية من اسبانيا • وقد استمر خلفاء بلاجيوس وبتروس يحكمونها حتى سقوطها نهائيا فى يد ملك قشتاله فرديناند ابن سانشو غارسيا الكبير ، وانتهى بذلك وجودها كدولة مستقلة حيث انضوت تحت حكم ملك قشتاله (١) •

---

(١) : عن مملكتي جليقية ونبره انظر ،
محمد عبدالله عنان : دولة الاسلام فى الاندلس ، من الفتح الى بداية عهد الناصر ، ص ٢٠٨ _ ٢١٢ ، ص ٢١٣ ، ص ٣٥٣ _ ٣٦١ • _ الخلافة الاموية والدولة العامرية ص ٤٠١ ، ص ٥٩٩ _ ٦١٠ •

أما المملكة الثالثة فهى مملكة قشتاله التى تكونت فى المناطق التى تعرف فى الجغرافيا الاسلامية بولاية انبه او البه ، والقلاع (١) ، وفى الجغرافيا الاسبانية كانت تندرج ضمن منطقة بردو ليا ، ثم سميت قشتاله بعد ذلك لكثرة الحصون فيها . ثم غدت بعد ذلك دولة مستقلة مارست دورا اساسيا فى حياة اسبانيا وحتى زوال الوجود الاسلامى بها ، وتمتد هذه المملكة شرقا حتى هضاب نبره (نافار) ، وغربا حتى مملكة ليون او جليقية ، وجنوبا حتى اريوخا ونهر دويره . وقد اسسها زعيم من زعمائها البشكنش وهو (فرنان كونثالث) فاستقل بها . ثم دخلت ضمن املاك سانشو غارسيا الكبير بالوراثة والمصاهرة ، فولى عليها ابنه فرديناند .

أما الامارة الرابعة فهى امارة برشلونة (قطالونيا) فى الشمال الشرقي من اسبانيا والتى خضعت لحكم اسرتين قوطيتين هما آل بوريل ، ثم آل برنجير المعاصرين ايضا لسقوط الدولة الاموية . ولم تظهر امارة ارغونه (أراجون) التى كانت تقوم فى منطقة شيزروا ، والتى ضمت لها منطقة سوبرابى القريبة منها الا عند وفاة سانشو غارسيا الكبير الذى عهد بحكمها الى ابنه راميرو ، ثم مالبثت بعد ذلك ان اصبحت اقوى الممالك النصرانية ، وذابت بينها وبين مملكة قشتاله مملكة نبره المستقله (٢) .

---

(١) : البه والقلاع علمان جغرافيان يستعملان عادة معا فى النصوص العربية .
أما البه Alava فهى الاقليم الواقع عند منابع نهر ابروه على الضفة اليمنى (الشمالية) للنهر ، واصل الاسم غير معروف . اما القلاع فيراد بها المنطقة التى تعرف اليوم بقشتاله القديمة (Castilla la Vieja) سماها العرب كذلك لكثرة قلاعها وقد يكون العرب ترجموا بذلك اسمها القديم (Castellae) .
والبه اليوم احدى المديريات الثلاث التى يتكون منها اقليم (Vascongadas) وقاعدتها سان سباستيان وسكاية (Vizcaya) وقاعدتها بالباو Bilbao و Alava وهى اكبرها مساحة وعاصمتها Vitoria .
انظر ابن الابار : الحلة السيراء ، ج ١ ح ٢ ، ص ١٣٥ ــ ١٣٦ .

(٢) : محمد عبدالله عنان : الخلافة الاموية والدولة العامرية ، ص ٥٩٠ ــ ٥٩٢ . ــ دول الطوائف ، ص ٣٧٧ ــ ٣٧٨ ، ص ٤٠٥ ــ ٤٠٦ ، ص ٤٠٩ ــ ٤١٠ .

هذه الممالك النصرانية مارست كل واحدة منها سياسة الاسترداد ، ولم تتوقف للحظة من التفكير في انهاء الوجود الاسلامي ، وساعدتها في ذلك الظروف الجغرافية ، كما واتتها ايضا فرص الخلافات والمنازعات بين المسلمين منذ الفتح وحتى نهاية الدولة الاسلامية في الاندلس . وازداد الامر خطورة عندما بدأ الثائرون على الدولة الاسلامية يطلبون مساعدة هذه الممالك ضد اخوانهم المسلمين ، فاستغل هولاء العرض ابشع استغلال حتى لقد باتت المساعدات الورقة الرابحة في ايديهم يلوحون بها بل يبتزون بها حكام المسلمين .

على ان اخطر ما في القضية هو طلب الخلافة الاموية في اثناء تولى خلفائها الضعاف السلطة ، المساعدة العسكرية من هذه الممالك النصرانية ضد بعضهم البعض . وهي سابقة خطيرة انجرفت فيها الخلافة وهوت معها كرامتها وهيبتها الى الحضيض . فلايجب ان نفاجأ اذا ما رأينا الخليفة سليمان المستعين يطلب مساعدة سانشو غارسيا امير قشتاله ضد ابن عمه الخليفة محمد المهدي (١) . ولا نعجب اذا ما رأينا المهدي يقوم بدوره بطلب مساعدة امير برشلونه الكونت رامون بوريل وأمير اورقله الكونت آرمينجو (٢) . وكل هذه المساعدات كانت مقابل ثمن باهظ هو التخلي عن كثير من الاراضي والحصون لأمراء هذه الامارات الاسبانية . بل رأينا للأسف الشديد الخليفة الشرعي هشام المؤيد يتهالك ويستجدى في طلب مساعدة سانشو غارسيا . وتأكد ما قلناه من أن امراء وملوك النصارى كانوا يلعبون بورقة المساعدة ليبتزوا بها من يدفع لهم اكثر او بمعنى آخر من يتنازل لهم عن الكثير من اراضيه وحصونه ، وفي نفس الوقت كرامته وعزته . فقد رأى سانشو غارسيا أن مصلحته تقتضي رفض طلب سليمان المستعين الذي رفض خلافة هشام المؤيد الثانية ، ومساعدة هشام الخليفة الشرعي لقاء تنازل ضخم عن عدد كبير من الاراضي والحصون (٣) .

وهكذا فقد اصبحت عملية الاستعانة بالنصارى خطة اساسية في سياسة ملوك الفتنة بعد ذلك . وهذا ما ادى في النهاية الى سقوط الدولة الاسلامية في الاندلس كلها .

وهكذا سقطت الدولة الاموية صريعة اخطائها السياسية الآنية ، وصريعة ظروفها وأوضاعها الاجتماعية والجغرافية والسياسية ايضا .

---

(١) : حدث ذلك عند لقاء سليمان المستعين مع المهدي في معركة قنتش المذكورة سابقا انظر محمد عبدالله عنان : الخلافة الاموية والدولة العامرية ، ص٦٤٦ .

(٢) : حدث ذلك عند لقاء المهدي مع المستعين في معركة عقبة البقر المذكورة سابقا .

(٣) : محمد عبدالله عنان : نفس المرجع السابق ، ص ٦٥٠ — ٦٥١ .

قيام ممالك الطوائف

أدى سقوط الدولة الاموية الى نتائج فورية مباشرة ، وهى افتراق كلمة الاندلس وتفرقها شيعا واحزابا ودولا . واستأثر كل من لمس فى نفسه القدرة والجرأة فى أحايين كثيرة ، والكفاءة والجدارة فى احيان قليلة بمنطقة من المناطق التى كان يعيش فيها او بالقرب منها . وتكونت من هولاء المنتزين دويلات المدن والتى عرفت بممالك الطوائف والتى بلغ تعدادها بضعا وعشرين دولة . ودامت مدة حكم هذه الدويلات بضعا وسبعين عاما ، وان كان بعضها قد استمر بعد ذلك حتى بداية الثلث الاول من القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى كدولة آل هود حكام سرقسطه . ونعرض الان فى ايجاز بالغ لكل دولة من هذه الدول او معظمها بالاحرى ، من حيث الموقع وتوسعها ونهايتها ، على أن نفصل بعد ذلك علاقات هذه الدول مع دولة بنى عباد موضوع بحثنا هنا .

ـ ١ ـ مملكة أشبيلية :ـ

لن نمضى طويلا فى الحديث عن مملكة اشبيلية وذلك لانها بداهة هى موضوع بحثنا هذا ، ولكن ما نستطيع ايجازه فى هذا المقام هو الاشارة الى ان هذه المملكة تكونت فى مدينة اشبيلية احدى الحاضرات الاندلسية الكبرى آنذاك . وقد تأسست على يد القاضى محمد بن اسماعيل بن محمد بن عباد احد ابرز البيوتات الاشبيلية العريقة وقتذاك . الذى ينتسب الى قبيلة لخم اليمنية المشهورة . وقد تأسست هذه المملكة فى اشبيلية عام ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م ، واستمرت حتى عام ٤٨٤ هـ / ١٠٩١م عندما سقطت على يد المرابطين كما سنعرف لاحقا . وقد شهدت هذه المملكة حكم ثلاثة ملوك من بنى عباد هم : القاضى ابوالقاسم محمد ابن اسماعيل مؤسس الدولة ، ثم ابنه المعتضد عباد الذى وسع رقعة الدولة ، ثم المعتمد بن المعتضد الذى بلغت الدولة فى عهده ذروة قوتها وحضارتها ورقيها ، الى أن سقطت على يد المرابطين كما سنرى بعد ان شاء الله .

٢ ـ مملكة قرطبة :ـ

الموقع : تقع هذه المدينة في الجزء الأوسط الجنوبي من الأندلس ، وتضم عاصمة الخلافة القديمة وما اليها من الأراضي المتوسطة .

مؤسسها : بعد الغاء الخلافة الأموية نهائيا عام ٤٢٢هـ/١٠٣١م ، قرّ رأى سراة قرطبة ووجهاءها على أن يعهدوا بحكمها الى الوزير أبي الحزم جهور بن محمد بن جهور الذي كان ينتسب الى بيت رئاسة ووزارة طوال عهود الدولة الأموية . وقد قاد الدولة بنظام رئاسي شبيه بمجلس الرئاسة المعاصر ، وان كانت السلطة العليا قد ظلت في يده ، واستمر يحكم الدولة حتى وفاته . ثم تولى ابنه أبو الوليد الحكم بعده .

نهايتها : سقطت هذه المملكة نهائيا في يد المعتمد بن عباد عام ٤٦٢هـ/١٠٧٠م وقد غدت من يومها جزءا من مملكة اشبيلية ، وذلك على أثر الانشقاق العائلي الذي مكن للعباديين هذه الفرصة (١) . وهو ما سنتناوله بالشرح والتفصيل في فقرة قادمة ان شاء الله .

٣ ـ مملكة سرقسطة :ـ

الموقع : كان يطلق عليها ايضا الثغر الأعلى (٢) ، وتضم هذه الولاية : سرقسطة وأعمالها (تطيلة ، ووشقة ، وبربشتر ، ولاردة ، وافراغه ، والطركونة ، وطرطوشة) (٣) .

---

(١) : يراجع في ظروف قيام دولة بني جهور وموقعها ومؤسسها وسقوطها المصادر والمراجع التالية :ـ ابن عذاري : المصدر السابق والجزء ، ص١٨٥ ـ ١٨٧ ، ص٢٠٩ ـ ٢١٠ ، ص٢٥٩ ـ ٢٦١ . ـ ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الاول ـ المجلد الثاني ، ص١١٤ ـ ١١٦ . ـ ابن خاقان : مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الاندلس ، ص١٦ ـ ١٧ . ـ ابن بشكوال : الصلة في تاريخ علماء الاندلس ، قسمان ، القسم الاول ، ص١٣١ . ـ ابن الابار : الحلة السيراء ، ج ٢ ، ص٣١ ـ ٣٣ . ـ ابن سعيد المغربي : وشي الطرس في حلى جزيرة الأندلس ، ج ١ ، ص٥٥ . ـ ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، ص١٢٧ ـ ١٥١ . ـ خالد الصوفي : تاريخ العرب في أسبانيا (جمهورية بني جهور) .

(٢) : عن الثغر الاعلى وغيره من الثغور أنظر فيما بعد ، ج ٢ ، ص ٣٧ .

(٣) : محمد عبدالله عنان : دول الطوائف ، ص ٢٦٥ .

أهميتها :- كانت مملكة سرقسطة اعظم ممالك الطوائف وأهمها ، اذ كانت تجاور ممالك النصارى الاسبانية الشمالية . وتقع بين برشلونه من الشرق ونبره من الشمال الغربي وقشتاله من الجنوب والغرب (١) .

مؤسسها :- شهدت هذه الممالك منذ بداية الفتنة حكم اسرتين عربيتين هما : بنو تجيب الذين كانوا يلونها من قبل المنصور بن ابى عامر ، ثم انتهت هذه الاسرة بمقتل منذر بن يحيى الذى ولاه سليمان المستعين أحد خلفاء الفتنة سرقسطة . ثم اسرة بنى هود الجذاميين الذين ينتسبون الى روح بن زنباع الجذامى أحد مستشارى الدولة الاموية فى المشرق . وقد تولى اول هولاء الجذاميين وهو سليمان بن هود حكم سرقسطة بعد فرار قاتل منذر ابن يحيى التجيبى عنها ، فضبتها أحسن ضبط حتى توفى .

نهايتها :- استمرت هذه الدولة منذ ذلك التاريخ حتى سقوطها نهائيا فى عام ٥٣٤ هـ / ١١٣٩ م (٢) .

٤ - مملكة بلنسية :-

الموقع :- تقع فى منطقة شرقى الاندلس وتتبعها مدينة شاطبة (٣) .

مؤسسها :- كان يلى هذه المدينة من قبل الدولة الاموية الوزير عبدالرحمن ابن يسار ، ثم ما لبث أن غلب عليها اثنان من الفتيان الصقالبة .

---

(١) : محمد عبدالله عنان : دول الطوائف ، ص ٢٦٤

(٢) : يراجع فى اخبار قيام دولة بنى هود فى سرقسطة وسقوطها والاحداث التى مرت بها : - ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ١٧٥ - ١٧٦ ، وص ١٧٨ - ١٧٩ ، وص ١٧٩ - ١٨٠ ، ص ٢٢١ - ٢٢٩ . - ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الاول - المجلد الثانى ، ص ١٥٢ - ١٥٣ ، ص ١٥٦ - ١٥٨ . - ابن الخطيب : الاحاطة فى اخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبدالله عنان ، ٣ مجلدات ، مجلد ٣ ، ص ٢٨١ - ٢٨٤ . واعمال الاعلام ، ص ١٧٠ - ١٧٦ ، وص ١٩٦ - ٢٠١ .

(٣) : مدينة شاطبة Jativa مأخوذ اسمها من الاسم الرومانى Saetabis ، وهى مدينة تقع فى شرقى اسبانيا من اعمال بلنسية على بعد ٥٦ كم فى الجنوب الغربى منها . وكانت دائما تتبع اداريا مدينة بلنسية .
انظر ، ابن الكردبوس : المصدر السابق ح ٣ ، ص ٩٦ - ٩٧ .

وهما مبارك ومظفر اللذين توليا أمرها ، ثم تولاها لبيب الصقلبي بعد مبارك .
وغدا ما سمى الفتيان العامريون وعلى رأسهم خيران ومجاهد في تقديم ابن مولاهم
عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن المنصور ، اسندوا اليه اى لعبدالعزيز امر المدينة
بعد ان ثار اهلها بلبيب الصقلبي ، وتلقب بالمؤتمن والمنصور .

نهايتها :-

استمر عبدالعزيز في حكم مدينة بلنسية حتى وفاته عام ٤٥٢ هـ/ ١٠٦٠ م ، فخلفه ابنه عبدالملك الى أن خلعه عنها المأمون بن ذى النون في عام ٤٥٧ هـ/ ١٠٦٤ م . وانتهى بذلك وجود تلك المملكة (١). وتولى حكمها فعليا نيابة عن المأمون ، آل عبدالعزيز من أعيانها ، ثم آل جحاف ، حتى سقطت في يد القمبيطور (٢) عام ٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤ م .

٥ - مملكة بطليوس :-

الموقع :-

تقع الى الشمال من مملكة اشبيلية ، وتمتد من غرب مملكة طليطلة عند مثلث نهر وادى يانة غربا حتى المحيط الاطلنطى ، وتشمل أراضي البرتغال الحالية كلها تقريبا حتى مدينة باجه في الجنوب . والعاصمة بطليوس تتوسط هذه الرقعة ، ويتبعها مدن هامة مثل : ماردة ، يابره ، أشبونه ، شنترين ، شنتره ، قلمورية ، بازو ، وغيرها (٣).

---

(١) : يراجع في اخبار دولة بلنسية المصادر التالية :- ابن عذاري : المصدر السابق والجزء ، ص١٥٨ - ١٦٧ ، وص٣٠٣ . - عبدالواحد المراكشي : المصدر السابق ، ص١٩ .- ابن سعيد المغربي : المصدر السابق ، ج١ ، ص٢٩٩ - ٣٠٠ . - ابن الخطيب : الاحاطة في اخبار غرناطة ، مجلد ٣ ، ص٢٩٢ - ٢٩٧ ، واعمال الاعلام ، ص١٦٣ - ١٦٦ ، وص٢٢٢ - ٢٢٦ . - ابن خلدون : المصدر السابق ، مجلد ٤ ص٣٤٨ .

(٢) : عن القمبيطور انظر بعد الباب الرابع ، ص ٣٠٢ - ٣٠٦

(٣) : محمد عبدالله عنان : دول الطوائف ، ص٨١ .

مؤسسها :-

كان يلي هذه المنطقة رجل يدعى سابور الفارسي العامري، أحد اتباع فائق الخادم مولى الخليفة الحكم المستنصر . وقد استقل بها سابور استقلالا تاما بعد انتثار سلك الخلافة ، وكان يساعده في حكم الدولة رجل يدعى ابو محمد عبدالله بن مسلمة المعروف بابن الافطس، وهو من اصل بربري من مكناسه بالمغرب . غير أن نفوذ ابن مسلمة ما لبث أن استطال حتى على سابور نفسه ، وعندما توفى سابور استبد بالامر دون ابنيه اللذين طردهما .

نهايتها :-

استمر ابن مسلمة هذا في حكم بطليوس وتلقب بالمنصور حتى توفى عام ٤٣٧ هـ / ١٠٤٥ م . فخلفه ابنه محمد بن عبدالله وتلقب بالمظفر ، وفي عهده بلغت الدولة أوج عظمتها . ثم توفى عام ٤٦٠ هـ / ١٠٦٨ م، فخلفه ابنه عمر الذى تلقب بالمتوكل والذى سقطت الدولة في عهده في ايدى المرابطين عام ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م (١) .

٦ - مملكة طليطلة :-

الموقع :-

تحتل مكانا استراتيجيا على مشارف الاندلس الشمالية وتعرف بالثغر الاوسط (٢) وتشمل رقعة كبيرة في قلب الاندلس، وتمتد شرقى بطليوس

---

(١) : يراجع في اخبار مملكة بطليوس المصادر التالية :
- ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٢١ - ٢٢٥ ، وص ٢٥٠ - ٣٠٢ تقريبا
ابن سعيد المغربى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٣٦ - ٤٣٧ . - ابن الخطيب : اعمال الاعلام ، ص ١٧٠ - ١٧٦ . - ابن خلدون : المصدر السابق ، مجلد ٤، ص ٣٥٠ - ٣٥٢ .

(٢) : الثغر وجمعها ثغور هو في الواقع اصطلاح اطلق على كل موضع قريب من ارض الاعداء فيقال له ثغر . وقد استعمل الاندلسيون هذا الاصطلاح للدلالة على حدودهم المجاورة للممالك النصرانية ، فكان هناك ثلاثة ثغور هي :
١- الثغر الاعلى : ويضم مدينة سرقسطة وأعمالها : تطيلة ولارده وطرشوشه ووشقه وغير ذلك . وهو يواجه امارة برشلونه ، ومملكة نبره (نافار) كذلك ، ويمثل هذا القطاع الان منطقة اراغون .
٢- الثغر الاوسط : ويضم مدينة طليطلة واعمالها : كمدينة سالم ووادى الحجارة وقونقه وغيرها . وهو يواجه مملكتى ليون وقشتاله .
٣- الثغر الادنى : ويشمل المنطقة التي تقع بين نهر دويره ، ونهر التاجه، ويضم مدن قورية ومارده وقلمورية وغيرها .
انظر ، ابو عبيد البكرى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٩٤ - ٩٥ .

من قورية وترجالة نحو الشمال الشرقي حتى قلعة ايوب ، وشنتمرية الشرق، وجنوب غربي مملكة بني هود في الثغر الاعلى • وتمتد شمالا فيما وراء نهر التاجه ، متاخمة لقشتاله القديمة ، وجنوبا حتى حدود مملكة قرطبة عند مدينتي المعدن والمدور ، وتتوسطها عاصمتها طليطلة • ومن أعمالها مدينة سالم، ووادي الحجارة وقونقة ، ووبذة ، واقليش، ومورة ، طلبيره ، ترجالة وغيرها •

مؤسسها :ـ

اسسها بني ذى النون البربر ، وهم من قبيلة هوارة على اختلاف نسبهم بين المؤرخين ولم يكنوا ذووى شأن ونباهة الا في دولة المنصور بن ابى عامر عندما بدأ نجمهم يسطع • وتولوا حكم (شنتبرية) (١) •

أما طليطلة فقد كان يليها القاضي ابوبكر بن يعيش الاسدي الذى استقل بها وكان يعاونه مجموعة من الرؤساء • ثم عزل وتولى مكانه عبدالرحمن بن متيوه ثم قام عليه اهل طليطلة ، وبعثوا لابن ذى النون حاكم (شنتبرية) فأرسل لهم ابنه اسماعيل بن عبدالرحمن •

نهايتها :ـ

استمر اسماعيل يحكم طليطلة حتى توفى ، فخلفه ابنه يحيى وتلقب بالمأمون • وقد بلغت الدولة في عهده أوج مجدها ، ثم توفى المأمون وخلفه اثر ذلك حفيده القادر الى أن سقطت طليطلة في عهده بيد الفونسو السادس ملك قشتاله عام ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥ م (٢) •

---

(١) : شنتبرية او (شنتبريه) Santaver بلده تقع الى شمال شرقي طليطلة • وكانت كورة كبيرة في ايام الامارة والخلافة الاموية بل كانت قاعدة هذه الكورة المسمية باسمها •

انظر ابن الابار : الحلة السيراء ، ج ٢ ، ح ٢ ، ص ١٠٩

(٢) : يراجع في اخبار دولة بني ذى النون المصادر والمراجع التالية :

ابن عذارى المصدر السابق والجزء ، ص ٣٥٢ ـ ٣٠٣ في صفحات متفرقة •ـ ابن سعيد المغربي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١١ ـ ١٣ •ـ ابن خلدون : المصدر السابق ، مجلد ٤ ، ص ١٤٧ ـ ١٤٨ •ـ ابن الاثير : المصدر السابق، مجلد ٩ ، ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩ •ـ محمد عبدالله عنان : دول الطوائف ، ص ٩٥ •

٧ — مملكة غرناطة :—

الموقع :— تقع فى الجنوب الشرقى من مملكة اشبيلية ، وتضم مدينة جيان ، وريه . وكان يطلق عليها ولاية البيرة .

مؤسسها :— عرفنا فيما سبق ان المنصور استقدم عددا كبيرا من البربر الى الاندلس وادخلهم فى جيشه . ومن هولاء البربر الذين استقدمهم المنصور عشيرة بربرية من قبيلة صنهاجه يعرفون ببنى زيرى . وعندما بدأ تفكك الدولة الاموية ، اقطع سليمان المستعين المذكور سابقا ، بنى زيرى الصنهاجين هولاء ولاية البيرة ، ثم . ما لبثوا ان استبدوا بحكمها تحت زعامة رجل منهم يدعى زاوى بن زيرى وخاض هولاء البربر احداث تلك الفتنة التى سميت باسمهم وعندما هزم الاندلسيون فى لقائهم مع البربر فى خلافة القاسم بن حمود كما مر بنا وقتل خليفتهم المرتضى المذكور ، آثر زاوى العودة الى افريقية بعدما رأى استحالة التوفيق بين البربر والاندلسيين ، غير أن اهل البيرة طلبوا منه البقاء ، فرفض فاتجهوا الى ابن اخيه حبوس بن ماكسن حيث تولى امرهم وقد ظل حبوس يحكمهم حتى عام ٤٢٨ هـ . وهو الذى مصرت فى عهده مدينة غرناطة ، ثم خلفه ابنه بماديس فى الحكم طويلا الى ان توفى ، فخلفه حفيده عبدالله ابن بلقين .

نهايتها :— استمر عبدالله بن بلقين يحكم غرناطة حتى قدوم المرابطين الى الاندلس ، حيث انزلوه هو واخوه تميم ملك مالقه من جملة ما انزلوا من ملوك الطوائف عن حكمهم (١)

---

(١) : يراجع فى اخبار دولة بنى زيرى المصادر التالية :
— عبدالله بن بلقين بن زيرى : التبيان او مذكرات الامير عبدالله آخر ملوك بنى زيرى بغرناطة ، تحقيق ونشر . ليفى بروفنسال ، ص ١ — ١٠٣ على صفحات متفرقة . — ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص١٢٨ ، و ص٢٢٢ — ٢٧٦
— ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الاول ، المجلد الاول ، ص ٤٠١ — ٤٠٣ .
— ابن سعيد المغربى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٠٦ — ١٠٨ . — مجهول : نبذ تأريخية جامعة فى اخبار البربر فى القرون الوسطى ، منتخبة من المجموع المسمى بكتاب مفاخر البربر ، اعتنى بنشرها وتصحيحها إ . ليفى بروفنسال ، ص ٤٣ . —
ابن الخطيب : الاحاطة فى اخبار غرناطة ، مجلد ٢ ص ٤٣١ — ٤٤٢ .

٨- مملكة مالقه والجزيرة الخضراء :-

الموقع :- تقع مالقه الى الجنوب من اسبانيا وتطل على البحر المتوسط ، وتقع فى احواز اشبيلية . اما مدينة الجزيرة الخضراء (١) فتقع على البحر المتوسط مقابل ثغر طنجة المغربى على البحر نفسه وقريبة من مدينة جبل طارق .

مؤسسها :- تقلص نفوذ دولة بنى حمود بعد خلع طاعتهم فى قرطبة كما مر بنا سابقا ، ثم تقلص نفوذها ايضا بعد مقتل يحيى بن على (٢) واقتصر فقط على مدينتى مالقه والجزيرة الخضراء ، بالاضافة الى مدينة سبته المغربية . وقد نشبت بين الاخوة من آل حمود وابناء العم كذلك الخلافات التى لم تنقطع ابدا حتى سقوط دولتهم .

نهايتها :- انتهت امارة مالقة على يد باديس الصنهاجى امير غرناطة فى عام ٤٢٩ هـ / ١٠٥٧ م . وانتهت امارة الجزيرة الخضراء على يد المعتضد ابن عباد عام ٤٤٦ هـ/ ١٠٥٤ م (٣) .

٩- مملكة مرسيه :-

الموقع :- تقع مدينة مرسية فى شرقى الاندلس ، وهى مدينة اسلامية بحتة بنيت حديثا بالقرب من مدينة تدمير التى كانت تنسب الى تدمير أو تيودمير

---

(١) : (تسمى اليوم Algeciras ، وهى ميناء فى اقصى جنوب اسبانيا بجوار جبل طارق ، وتسمى ايضا فى المراجع العربية بجزيرة ام حكيم ، وهى جارية لطارق بن زياد كان قد حملها معه عند غزوه لاسبانيا ، ثم تركها فى هذه البلده فنسبت اليها) .
انظر ، ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ح ٢ ، ص ٤٥ .

(٢) : انظر قبل ، ص ٣٠ - ٣٤

(٣) : يراجع فى اخبار الدولة الحمودية المصادر والمراجع التالية :
ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٢٠ - ٢٤٣ . - ابن خلدون : المصدر السابق ، مجلد ٤ ، ص ٢٣٠ - ٢٣٦ . - ابن الاثير : المصدر السابق ، مجلد ٩ ، ص ٢٧٩ - ٢٨٠ . - القلقشندى : صبح الاعشى فى صناعة الانشاء ، ج ٥ ، ص ٢٤٧ - ٢٤٨ . - محمد عبدالله عنان : دول الطوائف ، ص ١٧٤ . - رجب عبدالحليم : دولة بنى حمود فى مالقة بالاندلس ، ص ٧٠ - ١٠٠ .

حاكم هذه الناحية القوطى فى ايام فتح العرب لاسبانيا . وقد حول عبدالرحمن الداخل كورة تدمير الى كورة عادية ، وكانت قاعدتها بلدة اوريوله (١) وفى عام ٢١٦ هـ / ٨٣١ م اختطت فى عهد الامير عبدالرحمن بن الحكم (الاوسط) مدينة مرسيه ، ثم نقلت اليها القاعدة ، وسميت الكورة كلها بكورة مرسيه (٢) .

مؤسسها :-

توجه خيران العامرى احد الفتيان العامريين كما مر بنا الى شرقى الاندلس بعد نزاعه مع على بن حمود ، فاستولى على مدينة مرسية عام ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م ، وقد ولى عليها من قبله زهير العامرى احد رفاقه ، ولما حدثت الوحشة بين خيران العامرى ومحمد بن عبدالملك بن المنصور حاكم مرسيه بعد زهير أنزله عنها ، وعهد بها الى زميله زهير مرة اخرى . وعندما توفى خيران ، خلفه زهير على ألمرية ايضا بالاضافة الى مرسية ، ولكنه عهد بحكمها الى ابى بكر بن طاهر احد وجهائها نائبا عنه ، ثم لما توفى زهير خلفه عبدالعزيز ابن عبدالرحمن بن المنصور على ألمرية ، فأقر ابن طاهر على مرسية واكتفى بالسلطة الاسمية عليها .

نهايتها :-

استمر ابن طاهر يحكم مرسية مستقلا حتى توفى عام ٤٥٥هـ/١٠٦٣ م ، فخلفه عليها ابنه ابو عبدالرحمن بن طاهر ، واستمر يحكمها حتى تطلع محمد بن عمار وزير المعتمد بن عباد الى ضمها

---

(١) : (الكور مفردها كورة : مصطلح يطلق على الاقسام الادارية فى الاندلس (ربما اشبه باللواء ، او المديرية ، المحافظة) . وكان هذا التقسيم الادارى متبعا فى الاندلس عدا الثغور) .
انظر ، ابو عبيد البكرى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٠٤ .

(٢) : ابن الابار : الحلة السيراء ، ج ١ ، ح ١ ، ص ٦٢ . وج ٢ ، ح ٢ ، ص ١١٦ .

لبني عباد كما سيمر بنا ، فأنزل ابن طاهر عنها ، ولكن نائب ابن عمار فيها ما لبث أن غدر به واستقل بالمدينة حتى انزله عنها المرابطون عام ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م (١) .

-١٠- مملكة ألمرية :-

الموقع :- تقع في جنوب شرق اسبانيا . وكانت امارة المرية تضم مدينة جيان وبسطه واوريهله واوريوله ، وتحتل المنطقة الممتدة من ساحل اسبانيا الشرقي الجنوبي حتى وادي آش ، وحدود مملكة غرناطة ، وشمالا حتى بسطة وجيان (٢) .

مؤسسها :- عندما اظلم الافق بين الصقالبة والبربر بعد استيلاء سليمان المستعين على الخلافة ، وما حدث بعد ذلك من تولي علي بن حمود الخلافة ، توجه الفتيان العامريون الى شرقي الاندلس ، وتوجه خيران احد زعمائهم الى مدينة المرية فاستبد بها وأنزل واليها عنها . وعندما توفي عام ٤١٩ هـ / ١٠٢٨ م خلفه في حكمها نائبه زهير . واستمر يحكمها حتي عام ٤٢٩ هـ / ١٠٣٨ م عندما قتل على يد باديس بن حبوس امير غرناطة ، فعهد اهلها الى كبيرهم ابي بكر الرميمي الذي ضبطها . وراسل اهل ألمرية بعد ذلك عبدالعزيز بن ابي عامر ملك بلنسية ، فقدمها واستولى عليها ، ثم عين عليها صهره ابا الاحوص معن بن صمادح نائبا عنه . وقد استقل بها بعد ذلك استقلالا تاما عن ابن ابي عامر ، ثم لما توفي ، خلفه ابنه محمد بن معن وتلقب بالمعتصم .

---

(١) : يراجع في اخبار مملكة مرسيه المصادر التالية :
- ابن الابار : الحلة السيراء ، ج ٢ ، ص ١٢٣ - ١٢٤ ، وص ١٣٢-١٣٨ وص ١٤٠ - ١٤٨ . - ابن خاقان : قلائد العقيان في محاسن الاعيان ، قدم له ووضع فهارسه محمد العنابي ، ص ٦٨ - ٦٩ ، وص ٧٢ ، وص ١٠١ - ١٠٣ . - عبدالواحد المراكشي : المصدر السابق ، ص ١٨٠-١٨٢ .

(٢) : محمد عبدالله عنان : دول الطوائف ، ص ١٦١ .

نهايتها :- استمر محمد بن معن بن صمادح المعتصم الواثق يحكم ألمرية حتى قدوم المرابطين الذين انزلوا خلفاءه عنها عام ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م (١) .

-١١- مملكة دانية والجزائر :-

الموقع :- تقع مدينة دانية فى شرقى الاندلس كما ذكرنا وهى تقع فى شمال اللسان المثلث الممتد من ولاية القنت على البحر المتوسط ويتبعها الجزر الشرقية : ميورقه ، منورقه ، يابسه المعروفة بجزر البليار (٢) .

مؤسسها :- مجاهد العامرى احد الفتيان العامريين البارزين كما مر بنا ، والذى كان يتولى حكم الجزر الشرقية من قبل المنصور بن ابى عامر ، ثم استبد بحكمها واستقل بها استقلالا تاما . ومن اهم اعماله غزوته لجزيرة سردانيه وتغلبه على جزء كبير منها .

---

(١) : يراجع فى اخبار مملكة ألمرية المصادر التالية :-
- ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ١٦٦ - ١٦٨ .- ابن الابار : الحلة السيراء ، ج ٢ ، ص ٧٨ - ٨١ ، وص ٨٢ - ٨٤ .- ابن سعيد المغربى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٩٤ - ١٩٦ .- عبد الواحد المراكشى : المصدر السابق ، ص ١٢٧ .- ابن الخطيب : اعمال الاعلام ، ص ١٨٩ - ١٩٢ ، وص ٢١٠ - ٢١٧ .

(٢) : ميورقه Mallorca ، ومنورقه Menorca ، وجزيرة يابسة Ibiza تعرف بالجزائر الشرقية فى الجغرافيا الاندلسية (Balearic Islands) Islas Baleares ، وتقع فى شرقى اسبانيا فى البحر الابيض المتوسط ، وتتبع اسبانيا اليوم .
انظر ، ابو عبيد البكرى : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٦٦ .

نهايتها :- بعد خطوب كثيرة فى عهد مجاهد وابنه على الملقب باقبال الدولة ، سقطت دانية نهائيا فى يد المقتدر بن هود عام ٤٦٨ هـ / ١٠٧٦ م (١) .

****

تلك هى أهم ممالك الطوائف ، وهناك كثير غيرها نعرض لها عند الحديث عن علاقة بنى عباد بملوك الطوائف ، وهى امارات : شنتمرية الغرب ، ولبلة ، وولبه وجزيرة شلطيش ، وقرمونه ، ورنده ، و مورور ، وأركش وغيرها .

وفى الحقيقة أن هذه الممالك لم تتألف الا من تلك العناصر المتنازعة التى ذكرناها سابقا ، والتى أثرت فى حياة البلاد السياسية والاجتماعية والثقافية . هذه العناصر التى تكونت منها ممالك الطوائف هى : العرب ، البربر ، الصقالبة .

أما العرب أو الارستقراطية العربية بالاحرى ، فقد كان لبعضها من المكانة الاجتماعية والمالية ما هيأ لها الاستئثار بالزعامة والتفرد بالرئاسة كبنى جهور فى قرطبة . او كان للبعض الاخر علاوة على ذلك مكانة دينية مرموقة هيأ لها هى الاخرى التفرد بالرئاسة كبنى عباد باشبيلية ، فى حين كان للبعض الاخر مكانة عسكرية أو سياسية فى بعض النواحى ايام الدولة الاموية وخلال الفتنة فاستغلت سقوط الدولة وأعلنت استقلالها بما كانت تقيم فيه أو تحكمه من بلاد . ثم سعت فى توسيع رقعتها بعد ذلك كدولة بنى هود فى سرقسطة . وهناك من وجد نفسه بمحض الصدفة نائبا فى حكم مدينة

---

(١) : يراجع فى اخبار مملكة دانية المصادر التالية :-
- ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ١٥٣ - ١٥٨ . - الحميدى : المصدر السابق ، ص ٣٣١ ، وص ٣٥٢ - ٣٥٤ . - عبد الواحد المراكشى : المصدر السابق ، ص ١٢٣ . - ابن الخطيب : اعمال الاعلام ، ص ٢١٧ - ٢٢٢ . - ابن خلدون : المصدر السابق ، مجلد ٤ ، ص ٣٥٣ - ٣٥٦ .

أو ناحية كآل طاهر في مرسيه او نائبا لبعض اقربائه في ناحية من النواحي ، فابتهل الفرّة واستقل بتلك الناحية كبني صمادح في ألمرية الى غير أولئك من المنتزين على الثغور والمدن .

أما البربر فقد استقلوا بحكم النواحي التي ولاهم عليها المنصور بن ابى عامر . ثم الخليفة سليمان المستعين وفاءا لمساعدتهم له ، وفي نفس الوقت ابعادا لهم . فاستقلوا بتلك النواحي مبقين على السلطة الاسمية للدولة ، ومن هذه الامارات والممالك التي تأسست غرناطة ، مالقه ، الجزيرة الخضراء ، ورنده ، وقرمونه ، ومورور ، وأركش .

أما الصقالبة الذين بلغوا مبلغا عظيما من القوة ، فعندما شعروا برياح الانتزاء والاستقلال التي هبت في سماء البلاد بعد انتشار سلك الدولة ، وشعروا في نفس الوقت بأن دولة هشام الخليفة الشرعي الثانية لن يستقر لها قرار كما أسلفنا ، وأنهم بالتالي لن يستطيعوا تحقيق مآربهم . فقد فكروا بالانتزاء على ماتحت ايديهم من مقاطعات أو على ما يمكنهم الانتزاء عليه ، فاستقلوا بالجانب الشرقي من البلاد ، وكونوا تلك الممالك التي ذكرناها وهي : ألمرية ، ثم دانية . واستمر بعضها حتى قدوم المرابطين ، وذاب البعض الاخر أو انضوى تحت سلطة دويلة اخرى ناشئة كما حدث في مملكة ألمرية .

هذه الدويلات التي تأسست اختلفت الواحدة منها عن الاخرى قوة وضعفا ، واهمية وهوان شأن ، وثراءا وفقرا حسب شخصيات قادتها وموارد ها الطبيعية . وقد انفقت الدويلات القوية الغنية منها الكثير من موارد ها للتوسع وبسط السيطرة على الدويلات الاقل منها شأنا ، وأنفقت أيضا الكثير من الجهد والوقت والمال في حبك المؤامرات والفتن ضد بعضها البعض . وشاهدنا بكل أسف انقلاب الحليف على حليفه ، ومصادقة عدو الأمس دونما وازع من ضمير الا ضمير المصلحة البحتة .

على أن أخطر ما وقعت فيه دول الطوائف هو استمرارها في اتباع سياسة خلفاء الفتنة الهادفة الى الاستعانة بالنصارى ضد بعضهم البعض وتناسوا قضية الصراع بينهم وبين النصارى على الوجود الاسلامي في البلاد .

واهتموا بمشكلاتهم وخلافاتهم الشخصية فقط كما سيتضح لنا لاحقا (١).

بيد أنه على الرغم من هذا التفكك والانحلال السياسى للاندلس فى عصر ملوك الطوائف ، الا أنه يعتبر فى المقابل وكما سيتضح لنا لاحقا ايضا (٢) ، أزهى العصور الاسلامية فى الاندلس فى شتى مناحى الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية والعلمية والادبية . بمعنى أن الحضارة الاسلامية بلغت ذروتها وأوجها بفضل هولاء الملوك الذين تنافسوا للارتقاء بممالكهم ، والمباهاة بها أمام الممالك الاخرى .

---

(١) : انظر بعد الباب الرابع ، ص ٣٤٦ - ٣٥٠ .

(٢) : انظر بعد الباب الخامس ، ص ٣٩٨ - ٤٠٤

الباب الأول

((قيام دولة بني عباد))

- أصل بني عباد .
- الموقف السياسي في الاندلس قبل قيام دولة بني عباد .
- اشبيلية مسرحا للصراع بين بني حمود وسكانها .
- دولة القاضي أبي القاسم محمد (٤١٤ـ ٤٣٣هـ/١٠٢٤ـ١٠٤٢م) .

أصل بني عباد

ينتسب العباديون الى قبيلة لخم[١] اليمنية المشهورة التي فخرت وعزت بانتساب المناذرة ملوك الحيرة لها قبل الاسلام ، ثم فخرت وعزت بانتساب بني عباد اليها مرة اخرى • ويقول ابن الخطيب فيما ينقله عن ابن حيان مؤرخ تلك الفترة ومعاصرها في نفس الوقت (جاز الى الاندلس بعد الفتح رهط من لخم تفرقوا في اقطارها ، وانحاز منهم الى غربيها اخوان نعيم وعطاف • ونزل احدهما بقرية يومين[٢] ، وتناسل ولده بها مدة من الزمان ، ثم انتقلوا الى اشبيلية ، فنموا وتصدروا للوجاهة والنباهة في دولة الحكم المستنصر بالله ودولة ابنه هشام وحاجبه المنصور • وقد كان نشأ فيهم اصدر بيتهم ومؤسس مجدهم اسماعيل بن عباد ، فقدمه المنصور على خطة القضاء بها ، فاتصل استعماله الى زمن انقراض الامامة الاموية)[٣] •

---

(١) : ينتسب العباديون الى قبيلة لخم بن عدي (وهو بطن عظيم ينتسب الى لخم • واسمه مالك بن عدي بن الحارث بن مره بن ادد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان من القحطانية • كانت مساكنهم متفرقة واكثرها ما بين الرملة ومصر في الجفار ، ومنها في الجولان ، ومنها في حوران والبثنيه ومدينة نوى ، ومن بلادهم لفلسطين رفح وحدس بالشام ، وقد نزل قوم منهم بمنطقة بيت المقدس ، فدعيت باسمهم ، وتسميها العامة اليوم بيت لحم • ومنهم آل المنذر ملوك العراق ، وبنو عباد ملوك اشبيلية ، ومنهم بطون كثيرة بالديار المصرية) •
انظر ، عمر رضا كحاله : معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، المجلد ٣ ، ص ١٠١١ ـ ١٠١٢ •

(٢) : يومين : يقول حسين مؤنس ان دوزي صاحب كتاب تاريخ مسلمي اسبانيا حقق اسمها خلال تعليقاته على الترجمة اللاتينية للنص الذي يتناول يومين فقال ان يومين قرية كان العرب يسمونها Torconina ، غير الملك الفونسو اسمها الى مولينا Molina • وقد رجح دوزي أن الاسم مصحف وأن صحته هو Toriomina وهو بالعربية طوريومين أي جبل يومين •

وعلى أية حال فيومين قرية بقطر اشبيلية كانت اولية بني عباد منها ، وقد ضبطها حسين مؤنس على نحو مخالف لما ورد في المتن ، وقال ان رسمها يُومِين أضبط •

انظر ، ابن الابار : الحلة السيراء ، ج ٢ ، ح ١ ، ص ٣٥ ، وح ١ ، ص ٦٣ ، وح ٣ ، ص ٤٥٧ •

(٣) : اعمال الاعلام ، ص ١٥٢ •

على أن هناك من يقول ان عطافا هوابن نعيم وليس أخاه وأنه أول من دخل الاندلس في طالعة بلج بن بشر القشيرى ، وأنه (كان من اهل حمص من صقع الشام ، لخمى النسب صريحا وموضعه فى حمص العريش . والعريش فى آخر الجفار بين مصر والشام . ونزل بالاندلس بقرية يومين من اقليم طشانه (١) من ارض اشبيلية) (٢) .

وتسلسل نسب اسماعيل الذى اشار اليه ابن حيان هو :
اسماعيل بن محمد بن اسماعيل بن قريش بن عمرو بن اسلم بن عطاف ، على خلاف بين المؤرخين ايضا .

ولعل اول اشارة الى ظهور امر بنى عباد هى ما عدما تولى والد اسماعيل هذا : محمد بن اسماعيل بن قريش الصلاة بطشانه (٣) .

بيد أن انتشار صيتهم وبعد ذكرهم بدأ يظهر منذ أن تولى اسماعيل بن محمد هذا خطة القضاء للمنصور بن ابى عامر . وقد ظل القاضى اسماعيل محط الاعجاب والثناء طيلة مدة حكم المنصور وحتى سقوط الدولة الاموية . وكانت مكانته الدينية والاجتماعية تتزايد يوما بعد يوم ، فتولى بجانب خطة القضاء الامامة فى جامع قرطبة . وكان كما يقول ابن عذارى (آية من آيات الله علما ومعرفة وأدبا وحكمة ، فحمى مدينة اشبيلية من سطوة البرابر النازلين حولها بالتدبير الصحيح ، والرأى الرجيح ، والنظر فى الامور السلطانية الى أن أتاه أجله سنة أربع وعشرة وأربعمائة) (٤) .

---

(١) : طشانه هى Tocina فى مديرية اشبيلية حاليا .
انظر ، ابن الابار : الحلة السيراء ، ج ٢ ، ح ١ ، ص ٣٥ .
(٢) : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثانى ـ المجلد الاول ، ص ٦ ـ ٧ (نقلا عن ابى رافع الفضل بن على بن حزم صاحب كتاب الهادى الى معرفة النسب العبادى) .
(٣) : ابن خلدون : المصدر السابق ، مجلد ٤ ، ص ٣٣٦ ـ ٣٣٧ .
(٤) : المصدر السابق والجزء ، ص ١٩٤ .

أما ابن بسام وابن الابار فقد نقلا عن ابن حيان ما يتضمن الاشادة به والثناء عليه[(١)] . وان كنا لا نفهم تناقض ابن حيان عندما اشار الى أن اسماعيل (لم يجمع درهما قط من مال السلطان ولا من خدمة) ، في حين أنه قال قبل ذلك أن المنصور قد ولاه خطة القضاء واستعمله عليهما .

وتبقى اخيرا قضية انتساب بني عباد الى ملوك الحيرة ، فهي قضية اشار اليها ابن الابار عندما قال ((وقال غير ابي رافع[(٢)] : انهم من ولد النعمان بن المنذر بن ماء السماء . وبذلك كانوا يفخرون ويمدحون ، وهذا ابن اللبانه[(٣)] يقول :

من بني المنذرين هو انتساب ... زاد في فخره بنو عباد

فتية لم تلد سواها المعالي ... والمعالي قليلة الأولاد))[(٤)]

وليت ابن الابار كشف لنا عن المصدر الاخر الذي نقل عنه بجانب ما نقله عن ابي رافع ، لكفانا مؤونة هذه البلبلة . وان كانت ليست بالقضية المهمة في تكوين ونشأة دولة بني عباد ، غير أننا لا يمكن أن نمر عليها دون تعليق خاص ، وأن هناك من أنكرها . ويتراءى لنا أن راينهرت دوزي[(٥)] الذي انكرها ورأى أنها ضرب من الزعم يحتاج الى دليل لنفيه . فدوزي يعيب على هذا الانتساب افتقاره للدليل ، ولكن فاته هو نفسه أن يقيم الدليل على نفي ذلك .

---

(١) : الذخيرة ، القسم الثاني ـ المجلد الاول ، ص٧ . ـ الحلة السيراء ، ج ٢ ، ص٣٥ ـ ٣٦ .

(٢) : ابو رافع الفضل بن علي بن احمد بن حزم : هو كما يتضح هنا ابن المفكر والفقيه الاندلسي المشهور ابن حزم . وقد ألف عن بني عباد كتابا سماه : الهادي الى معرفة النسب العبادي ، وهو كتاب مفقود اعتمد عليه بعض المؤرخين القدامى .

(٣) : سنعرض له قادما ان شاء الله .

(٤) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٥ .

(٥) ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الاسلام ، ص٢٠ .
وهذا الكتاب اي ملوك الطوائف وضع عنوانه كامل كيلاني الذي ترجم جزءا من كتاب راينهرت دوزي المعروف بـ Spanish Islam ، وهذا الجزء الذي ترجمه كامل كيلاني يتضمن الجزء الرابع او القسم الرابع من كتاب دوزي هذا . ويقابل الفصول من ١ ـ ١٣ ، اي من ص ٥٩٥ ـ ٧١٢ من طبعة لندن عام ١٩٧٢ =

وعلى اية حال فهو يقول (ولكن فرع اسرة آل عباد الذى تسلسل منه آباؤهم لم يقطن – على ما يظهر – الحيرة بتاتا ، بل كانوا يقيمون اخيرا قرب العريش الواقعة على حدود مصر وسوريا فى ناحية حمص) (١)

ويخيل الينا ان هذا ليس هو الدليل المقنع. فمنذ متى كان استقرار جماعة ما فى مكان ما غير موطنهم او مكانهم الاصلى دليلا على عدم انتمائهم لذلك المكان او الوطن ؟؟ .

ومهما يكن من أمر فان عدم اشارة ابن حيان معاصر بنى عباد ومؤرخ الاندلس فى ذلك العصر الى قضية انتساب بنى عباد للمناذرة يلقى ظلالا من الشك ، نعم .... ولكن لا يرقى الى مستوى الانكار الكلى دونما دليل واضح مقنع .

= وسنعتمد منذ الان الى الاعتماد على ترجمة كامل الكيلانى لكتاب دوزى والمعنونه بملوك الطوائف كما أسلفنا .

(١) : ملوك الطوائف ، ص ٣٥ .

الموقف السياسى فى الاندلس قبيل قيام دولة بنى عباد

كانت اشبيلية بحكم موقعها فى غربى الاندلس وبسبب قربها من قرطبة عاصمة الخلافة تتأثر شديد التأثر بكل ما يحدث فى تلك المدينة التى كانت بحكم كونها العاصمة مركز الاستقطاب وملتقى التيارات السياسية السائدة آنذاك • ولقد زادت اهمية اشبيلية ايضا عندما اصبحت ملاذا لاطراف النزاع فى ذلك الوقت ، وهو ما هيأ لها بعدئذ ممارسة اكبر قدر فى حياة الاندلس السياسية والعسكرية والثقافية •

وعندما توفى الخليفة العلوى على بن حمود فى عام ٤٠٨ هـ / ١٠١٨ م ، خلفه نائبه على مدينة اشبيلية اخوه القاسم بن حمود بعد قليل من مقتله (١) • وقد استمر القاسم يحكم قرطبه حتى خلع لاول مرة فى سنة ٤١٢ هـ / ١٠٢٢ م • ومن ثم فقد اضحت الخلافة بعد ذلك نهبا لخلافات آل حمود وصراعاتهم ، اذ أنه عندما خلع القاسم تولى مكانه ابن اخيه يحيى الذى ثار عليه ، أما هو فقد توجه الى اشبيلية حيث دعى له فيها بالخلافة ، وظل هناك متحينا الفرصة للعودة الى قرطبة (٢) •

اما يحيى فقد تولى الخلافة اثر فرار عمه القاسم ، واستمرت خلافته سنة ونصف تقريبا ، حيث خلع بعدها • وعاد عمه القاسم مرة اخرى مسرعا ليلى الخلافة فى اواخر عام ٤١٣هـ/١٠٢٣م ، بعد ان ترك فى اشبيلية ولده القاسم واليا عليها مع اخيه وحامية من البربر بقيادة محمد بن زيرى بن دوناس اليفرنى ، وبعد ان ولّى على القضاء القاضى محمد بن اسماعيل بن عباد خلفا لابيه الذى نزل الماء فى عينيه •

غير أن دولته لم تطل طويلا ، فخلع بعد سبعة شهور من (٣) عودته تلك اى فى منتصف عام ٤١٤ هـ / ١٠٢٤ م ، فتوجه الى اشبيلية غير أن اهلها اغلقوا ابوابها فى وجهه ، ورضى أخيرا أن يرفع الحصار عنها شريطة اخراج ولديه له • وانقطعت بذلك دولة بنى حمود فى قرطبة ، الى أن أعيدت

---

(١) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ١٢٢ ــ ١٢٥ • ــ ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الاول ــ المجلد الاول ، ص ٨٢ ــ ٨٣ • ــ ابن الخطيب : اعمال الاعلام ، ص ١٢٩ ــ ١٣٠ •

(٢) : ابن عذارى : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ١٣١ ــ ١٣٢ •

(٣) : ابن عذارى : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ١٣٣ ــ ١٣٥ •

الخلافة ليحيى ثانية عام ٤١٦هـ/١٠٢٦م ، الى أن خلعت طاعته مرة أخرى في العام التالي مباشرة لتعاد الخلافة ثانية لبني أمية حتى خلعوا نهائيا في عام ٤٢٢ هـ / ١٠٣٣ م (١).

وهكذا فاننا لانستطيع في حقيقة الأمر أن نصف مقدار الشعور باليأس والخيبة في عاصمة الخلافة وما يجاورها من المدن الكبيرة كاشبيلية وغيرها . فهم منذ أن بدأت نذر الفتنة تطل في عهد عبد الرحمن ابن المنصور بن أبي عامر ، لم يهنئوا بالاستقرار والهدوء كلية ، فقد جربوا حكم الامويين بعد فترة تسلط ودكتاتورية في عهد العامريين أي في عهد المنصور وابنه عبد الملك وبداية حكم عبد الرحمن هذا ، فلم يجد ذلك فتيلا . وأسهم أولئك الخلفاء الضعاف في توسيع الهوة في أوضاع البلاد السياسية والاجتماعية ، وأسهم سليمان المستعين بصفة خاصة في عظم ذلك بتقريبه للبربر وافساح المجال لهم لتولي المقاطعات والتحكم في مصائر السكان . وعندما نقول البربر نعني بذلك بني حمود العلويين أيضا ، فلقد تبربروا - ان صح هذا التعبير - وأصبحت لغتهم وعاداتهم لا تختلف عن لغة البربر وحياتهم .

وبدا كما لو أن الفريقين المتنازعين : الاندلسيون والبربر دخلا معركة اثبات الوجود حتى النهاية ، وظهر رد فعل الاندلسيين على تولي علي بن حمود الخلافة سريعا ، عندما نادوا بالمرتضى المذكور سابقا خليفة ، وخاضوا به معركتهم الفاشلة ضد البربر ، أو عند طردهم للبربر وبني حمود في عهدي القاسم وابن أخيه يحيى .

---

(١) : ابن عذاري : المصدر السابق والجزء ، ص ١٤٣ ، و ص ١٤٥-١٤٦ .

ولم يجد فتيلا عودة الأمر لبني أمية كما ذكرنا ، كما أن خلافة بني حمود لم تستطع أن تستل من نفوس السكان الكراهية والحقد على البربر للاعتبارات التى ذكرناها سابقا ، كما أن قصر نظرة بني حمود السياسية وسوء تفكيرهم من جهة ، وقصر مدة حكمهم من جهة ثانية لم تسهم بطبيعة الحال فى بناء جدار الثقة بينهم وبين سكان العاصمة وما حولها . ونستطيع أن نلمس حقيقة اليأس الشديد ، وحقيقة الشعور بالقلق المقترن بالتفاؤل فى نفس الوقت عندما نرى أن اهل قرطبة وما يحيط بها يحاولون خلع بني حمود ، واعادة بني أمية ، ثم خلعهم ، واعادة بنى حمود ثانية ، ثم خلعهم أيضا ، ثم اعادة الامر لبنى أمية لآخر مرة . وكم كانت تحزنهم تلك المحاولات الفاشلة التى لم تسفر الا عن مزيد من القلاقل والتفكك والانحلال .

اشبيلية مسرحا للصراع بين بنى حمود وسكانها :

رأينا القاضى اسماعيل بن محمد بن اسماعيل يتولى خطة القضاء والامامة باشبيلية فى تلك الفترة المضطربة من تاريخ الاندلس . وكان القاضى فضلا عن مكانته الدينية تلك ، ذا مكانة مالية فى المدينة ، اذ كان يعهد بأراضيه الكبيرة الى فلاحى اشبيلية ليزرعوها له ثم يقاسمونه المحصول ، وهو ما يعرف بنظام المشاركة (١) . ومن الطبيعى أن يكون والحالة كذلك عين اعيان المدينة وكبير وجهائها ، وغدا ما عجز عن القيام بمهام القضاء لنزول الماء فى عينيه اقتصر على مشيخة البلد وتدبير الرأى (٢)

ويبدو لنا أن ذلك قد تم فى عام ٤١٣هـ أو منتصف عام ٤١٤هـ / ١٠٢٣م أثناء خلافة القاسم بن حمود الثانية ، اذ يذكر المؤرخون أن الخليفة القاسم عهد الى ابن القاضى اسماعيل : ابى القاسم محمد بتولى خطة القضاء ، ولم يكن هذا التقليد فى الحقيقة مستغربا أو مستكثرا . فقد كان لمحمد فضلا عن مكانة ابيه الدينية والمالية والاجتماعية ، رصيد من العلم والفقه والادب والمعرفة (٣) ما يجعل من تقليده أمرا متوقعا ، بل هو تحصيل حاصل . وبدأ من تلك اللحظة ارتباط قدر اشبيلية بآل عباد حتى عام ٤٨٤هـ / ١٠٩١م .

أشرنا فيما سبق الى معاناة قرطبة مع حكامها من العامريين فالأمويين فالحموديين لأكثر من مرة وتحملها هى كل تلك الظروف ، واشبيلية وغيرها من المدن بدرجة أقل . واذا كان لم يتح للأرستقراطية العربية ذات المكانة النافذة فى قرطبة أن تحزم رأيها وأمرها نهائيا الا فى عام ٤٢٢هـ / ١٠٣١م ، فان الارستقراطية الاشبيلية فعلت ذلك فى عام ٤١٤هـ الذى نستطيع أن نعتبره نقطة تحول مضيئة فى تاريخ اشبيلية وبنى عباد على السواء .

---

(١) : ابن الابار : الحلة السيراء ، ج ٢ ، ح ١ ، ص ٣٦ .
(٢) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ١٩٤ .
(٣) : الحميدى : المصدر السابق ، ص ٨٠ - ٨١ . - ابن بشكوال : المصدر السابق ، القسم الثانى ، ص ٥٢٣ . - النباهى : قضاة الاندلس المسمى بكتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ، ص ٩٤ .

وفي واقع الأمر فان مقومات الدولة او المملكة المستقلة ، بمعنى أدق وجدت في اشبيلية في تلك الفترة . فاشبيلية أولا ليست حلبة الصراع الرئيسية بين بني أمية وبني حمود ، كما أنها في الدرجة الثانية كانت تحت تدبير وادارة (قاضيها القديم الولاية ، وبطل الغرب قاطبة المتصل الرياسة في الجماعة والفتنة)(١) والذي استطاع ان يحكم سيطرته ونفوذه على اشبيلية منذ أن غادرها واليها القاسم بن حمود عام ٤٠٨ هـ / ١٠١٨ م ليتولى الخلافة في قرطبة بعد مقتل اخيه كما اشرنا .

ولم تذكر المصادر الاندلسية وغيرها من تولى حكم المدينة بعد خروج القاسم منها عام ٤٠٨ هـ / ١٠١٨ م ليتولى الخلافة في قرطبة حتى عام ٤١٢ هـ / ١٠٢٢ م ، وهي السنة التي خلع فيها القاسم لاول مرة ، وتوجهه الى اشبيلية ليدعو لنفسه فيها بالخلافة . غير أن هذه المصادر ذكرت بأن القاسم ولى عليها بعد عودته الى قرطبه ثانية عام ٤١٣ هـ / ١٠٢٣ م ابنه محمد ، ويساعده اخوه الحسن وحامية من البربر بقيادة محمد بن زيري .

واذا كانت المصادر لم تذكر من تولاها من عام ٤٠٨ هـ .
حتى عام ٤١٢ هـ / ١٠١٨ ـ ١٠٢٢ م ، فاننا نستطيع أن نخمن أن السلطة الفعلية على الاقل كانت في يد القاضي اسماعيل بن عباد الذي ضبطها احسن ضبط (وحمى مدينة اشبيلية من سطوة البربر النازلين حولها بالتدبير الصحيح والرأي الرجيح والنظر في الامور السلطانية الى أن اتاه أجله سنة أربع عشرة وأربعمائة)(٢)

واذا كان القاسم بن حمود قد ولى ابو القاسم بن القاضي اسماعيل القضاء في اشبيلية بعد موت أبيه ، فانه قد قدر له كفايته ومكانته ، وهي الامور التي مكنت له في النهاية من تأسيس دولته في وسط ذلك الكم الكبير من الزخم السياسي في الاندلس . ولقد رأى القاضي بنظرة السياسي المحنك أن سلطان

---

(١) : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثاني ـ المجلد الاول ، ص٧ (نقلا عن ابن حيان) .
(٢) : ابن عذاري : المصدر السابق والجزء ، ص ١٩٤ (نقلا عن ابن حيان) .

بني حمود لن يصمد امام الاعاصير الضاغطة آنذاك ، كما رأى أيضا توثب أهل عاصمة الخلافة للانقضاض على بني حمود المرة تلو المرة ، فشعر أن في ذلك فرصته السانحة .

واذا كان قد تعذر على والده الاستقلال باشبيلية في الفترة من عام ٤٠٨ هـ حتى ٤١٢ هـ / ١٠١٨ - ١٠٢٢ م وهي فترة خلافة القاسم الأولى ، فربما كان ذلك لاسباب شخصية ، او ربما لان الامر قد استقر بعض الشيئ للخليفة القاسم خلال تلك السنوات الاربع . نقول اذا كان ذلك لم يتم ، فان الوضع كان على عكس ذلك في عهد القاضي محمد . فبالاضافة الى الانشقاق الماثل في اسرة آل حمود بظهور يحيى بن على منافسا لعمه ومطالبا بالخلافة دونه ، فان خلال القاضي وصفاته تختلف عن صفات أبيه فلقد (كان القاضي كما وصف زاخر العباب ، متألق الشهاب ، أذكى من قاش وقلد ، وأدهى من اتهم وانجد ، يأخذ وكأنه يدع ، ويطير فيحسب أنه وقع)[(١)]. فمن الطبيعي أن يعمل القاضي على الاستقلال باشبيلية ، فهو لم يكن أقل المنتزين المتغلبين على المدن شأنا من جهة ، كما أن تعطيل ازدهار المدينة وانتهاك مواردها التي تذهب استعدادا للحرب والحصار ، لاتسمح بالتراخي والتغاضي من جهة ثانية . فلعل القاضي فكر أنه قد يستطيع أن يحقق لمدينته ما تصبو اليه من استقلال وازدهار وثراء يبز به مدينة قرطبة ، وهو ما استطاع تحقيقه فعلا هو وابنه المعتضد وحفيده المعتمد بعد ذلك .

القضاء على نفوذ بني حمود في المدينة :-

بعد أن سئم أهل قرطبة من حكم القاسم بن حمود عملوا على خلع طاعته ، واستطاعوا تحقيق ذلك في سنه ٤١٤ هـ / ١٠٢٤ م كما ذكرنا سابقا . ولذا فقد توجه القاسم الى اشبيلية للمرة الثانية علّه يستطيع من هناك معاودة الكرة كما فعل في المرة الأولى مطمئنا هذه المرة من أنه قد ترك ابنه واليا عليها تحت حماية البربر الذين تركهم هناك . وطلب من اهل المدينة أن يخلوا له ألف وخمسمائة دار ليقطنها هو ومؤيدوه من البربر .

---

(١) : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثاني - المجلد الاول ، ص ٩ - ١٠ (نقلا عن ابن حيان) .

وكان القاضي محمد قد دغدغ مشاعر قائد الحامية البربرية في المدينة محمد بن زيري ، عندما مناه بأن يكون له الامر فيها اذا ما ساعد أهلها على خلع طاعة القاسم وطرده هو وأولاده من المدينة • وكان القاضي في كل محاولاته هذه قد نسق جهوده مع اهل المدينة وخاصة ذووي الرأى والمشورة فيها • ولذلك فعندما ضمن الاشبيليون موقف قائد الحامية ، حاصروا محمد ابن القاسم وأخاه وجماعتهما من البربر في دار الامارة • ووقع القتل في صفوفهم ، ولم يستطع القاسم فعل اى شيئ سوى ضربه الحصار على المدينة ، وأخيرا اقتنع بأن يرفع حصاره عنهما مقابل أن يسلموا له أولاده وأموالهم ، فتم ذلك ، وتوجه القاسم وأولاده الى مدينة شريش(١) •

وهكذا استطاع الاشبيليون رفع نير الحموديين عن مدينتهم والاستقلال بها بفضل سياسة زعمائهم وعلى رأسهم القاضي محمد بن اسماعيل • ولسنا نرى في الحقيقة في مسألة استقلال القاضي بالمدينة أى أثر للخيانة التي أشار اليها المؤرخون القدامى كابن بسام مثلا الذي يقول (وكان القاسم بن حمود قد اصطنعه بعد مهلك ابيه اسماعيل ورد عليه ميراثه من قضاء بلده بعد بعده عنه مدة ، وحصل منه بمنزلة الثقة فخانه بخون الايام عند ادبارها ايثارا للحزم وطلبا للعافية)(٢) • فكونه قد ادرك مصلحة بلاده وأنه لا يمكن لها التمتع بالاستقرار والهدوء والازدهار ، طالما ظلت في حكم الحموديين المضطرب والمكروه في نفس الوقت • فان ذلك ليس دليل خيانة بل هو دليل ينم عن شعور وطني محمود • صحيح أننا لانستطيع أن نغفل المطامع الشخصية للقاضي ، الا أننا نستطيع أن نعتبر موقفه ضربا من الوطنية لعب ورقتها لتصب في قناته هو أخيرا ، واذا ما أخذنا في الاعتبار أن القاضي لم يكن يصدر في موقفه من فردية مطلقة ، اتضح لنا أن كل وصف يمكن أن يلصق بالقاضي الا الخيانة التي لاتخامر الا أذهان الحموديين فقط •

وسنرى بعدئذ أن القاضي ومن معه كانوا محقين في خلع طاعة الحموديين ليقودوا المدينة الى الطريق المشرق الذي خطه لها هو وعائلته من بعده •

---

(١) : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثاني ـ المجلد الاول ، ص١٦ ـ ١٧ • ـ رجب عبدالحليم : الرسالة السابقة ، ص ١٠٣ ـ ١٠٨ •

(٢) : ابن بسام : نفس المصدر السابق والقسم والمجلد اعلاه ، ص ٧ •

دولة القاضي أبي القاسم محمد ٤١٤ـ٤٣٣هـ/١٠٢٤ـ١٠٤٢م

مجلس الرئاسة في اشبيلية :ـ

تخلص الاشبيليون كما رأينا من القاسم وابنائه وجماعته بعد تلك المشقة التي عرضنا لها ، وبدأت المدينة تتحسس طريقها الى الهدوء والاستقرار. وكان لابد من وجود قيادة تدير شئون المدينة وتعيد لها ما أفسدته الحرب والحصار ، وكان أن عرض أهل المدينة على القاضي محمد بن اسماعيل كبير وجهائها وأغنى أغنيائها الذي كان يملك وحده ثلث أراضي اشبيلية وصاحب الفضل الأول في تخليص المدينة من بني حمود أن يتولى حكمها .

ولم يفاجأ القاضي في حقيقة الأمر بهذا المطلب البتة ، فقد كان ذلك شيئا طبيعيا . ولكن القاضي كسياسي محنك يتقن من أحابيل السياسة وألاعيبها الكثير أظهر التعفف والاباء ، غير أن القوم ألحوا في ذلك ، فوافق شريطة أن يشترك معه في حكم المدينة جماعة من أهل الرأي والمشورة والعلم ، وهولاء الرجال هم : الوزير أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي مؤدب هشام المؤيد وصاحب كتاب العين في النحو ، ومحمد بن يريم الالهاني ، وأبو الاصبغ عيسى بن حجاج الحضرمي ، وأبو محمد عبدالله بن علي الهوزني على خلاف بين المؤرخين في عددهم(١).

وتولى هذا المجلس حكم اشبيلية ، وكان القاضي يتولى كما يبدو لنا السلطة التنفيذية ، في حين كان أعضاء المجلس الآخرين يتولون معه السلطة التشريعية . ويقول صاحب الذيل المضاف الى البيان المغرب (فسار أمر أهل اشبيلية الى ثلاثة من أهلها أحدهم القاضي محمد بن عباد ، والثاني الفقيه ابو عبدالله الزبيدي ، والثالث الوزير ابو محمد عبدالله بن مريم ، فكانوا يحكمون في النهار في القصر ، وينفذون الكتب تحت ثلاثة خواتم،

---

(١) : ابن عذاري : المصدر السابق والجزء ، ص١٥٥ـ١٦٠ . (نقلا عن ابن حيان) .ـ مجهول : ذيل مضاف الى البيان المغرب ويتعلق بأخبار دول ملوك الطوائف بجزيرة الاندلس ، ص٣١٤ـ٣١٥ .ـ عبدالواحد المراكشي : المصدر السابق، ص١٤٨ـ١٤٩ .ـ ابن خلدون : المصدر السابق ، مجلد ٤، ص٣٧٧ .

وينصرفون اخر النهار) (١)

وكانت تلك تجربة فريدة فى حقيقة الامر فى بلاد الاندلس لم يعتد اهلها على مثلها . والواقع اننا لا نستطيع ان نصف هذا الشكل من الحكم وصفا دقيقا ، فلا نعلم هل يمكن وصفه بالنظام الرئاسى الديمقراطى أم أنه ام كان مجلس مشورة ينفرد فيه القاضى ابن عباد بالسلطة التنفيذية ؟ . نكاد نتبين انه اقرب الى هذا النوع من الحكم الذى يتولى فيه القاضى السلطة التنفيذية دون زملائه من الاعضاء فى المجلس ، ثم مالبث ان استبد بالامر وحده (٢) . كما لا نعلم التاريخ المحدد الذى تولى فيه هذا المجلس الرئاسى الجماعى حكم المدينة ؟؟ ولكننا نحدس انه قد تم عقب اخراج الحموديين عن المدينة ، كما اننا لا نعلم متى انتهت اعماله ايضا ؟؟ .

ويصعب علينا بالمناسبة قبول وجهة نظر دوزى ، ونشعر ازاءها بالتعجب من بساطة تفسيره لطلب اهل اشبيلية الى القاضى ان يتولى حكم المدينة . فهو يرى بأن (عامة اشبيلية) اتفقوا على ان يلقوا عبء مسئولية الحكم على القاضى وحده مستشعرين شعورا خفيا بدنو الساعة التى تصادر فيها ثروة القاضى الطائلة . وان القاضى ادرك الغاية التى رمى اليها (نبلاء اشبيلية واصحاب الرأى فيها) . ونلاحظ أنه قال قبل قليل (عامة اشبيلية) هم الذين طلبوا منه ذلك ، وان القاضى اظهر انه لا يستطيع ان يقبل هذا الامر الا اذا تولى معه الحكم هيئة شورية (٣) .

ونحن نستبعد هذا فالقاضى خرج من معركته ومعركة مدينته كأقوى مايكون ، اذ التفت حوله قلوب سكان المدينة لموقفه الوطنى ذلك . هذا من جهة ومن جهة اخرى لم تظهر بوادر حقد طبقى تسعى فيه طبقة العامة للانتقام من بنى عباد وغيرهم من الارسطقراطيين ، ومن جهة ثالثة نتساءل : ممن تصادر تلك الثروة الطائلة ؟؟ . ومع هذا فيجوز ان يكون دوزى قد قصد انه نظرا لما سبق

---

(١) : مجهول : ذيل مضاف الى البيان المغرب ، ص ٣١٤ ـ ٣١٥ .

(٢) : J.B. Bury, M.A.F.B.A: The CAMBRIDGE MEDIEVAL HISTORY, CAMBRIDGE- 1929 - VOLUME VI, P 393

(٣) : ملوك الطوائف ، ص ١٩ ، ص ٢٢ ـ ٢٥ .

أن ذكر عن ثراء القاضي محمد بن اسماعيل ، فمن المحتمل ان اهالي اشبيلية تطلعوا اليه لما يمثله من حيث المكانة والثراء ليتولى امورهم ، وينفق على شؤون المدينة في هذه الفترة المضطربة من امواله الخاصة حتى تستقر الاحوال في مدينتهم . وهذا ما لاحظه في الواقع J.B.Bury (١) عندما اشار الى انه بالنظر الى الثروة والجاه الذين كان يتمتع بهما القاضي ، فقد استطاع ان يحكم سيطرته على المدينة .

الموقف السياسي غداة الاستقـــلال :

لم يطرأ على الموقف السياسي في الاندلس غداة الاستقلال اي غداة استقلال اشبيلية تغيير كبير ، فالقوى السياسية التي كانت موجودة قبيل قيام دولة بني عباد كانت تمارس دورها ونفوذها فيما عدا القاسم بن حمود ، فقد طوته الاحداث تحت ابطي ابن اخيه ، وانتهى وجوده السياسي بالسجن لديه ثم قتله اخيرا . اما يحي نفسه فقد ارتد قبل خلع اهل قرطبة لعمه القاسم الى مدينة مالقة التي كان يتولاها عند وفاة ابيه بيد أنه اخذ يثير القلاقل والمضايقات من هناك .

اما قرطبة فقد اعاد اهلها الامر لبني امية ثانية . واما بقية القوى السياسية الاخرى ، فقد كانت لاتزال تواصل تحقيق تطلعاتها الاقليمية ومن هؤلاء بني الافطس اصحاب بطليوس الذين انتظم امرهم بمؤسس دولتهم عبد الله بن محمد بن الافطس المعروف بابن مسلمة ، اذ وطد دعائم مملكته بعد تخلصه من ابناء سابور المذكور سابقا ، فتلقب بالمنصور وعمل من ثم على توسيع رقعة دولته ، وغدا ابن الافطس خصما عنيدا قويا لرؤساء الجزء الغربي من الجزيرة .

اما القوة التي كنا قد آثرنا التحدث عنها حتى حينها (٢) فهي امارة قرمونة البربرية المجاورة لمملكة اشبيلية . وتقع هذه الامارة بين امارة قرطبة شرقا ، ومملكة اشبيلية غربا في منحنى الوادي الكبير (٣) او نهر الوادي الكبير (٤) . وتشمل بالاضافة الى قرمونة

---

(١) : Op. Cit, Vol VI, P 394 -

(٢) : انظر قبل التمهيد ، ص ٤٤

(٣) : محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ، ص ١٤٨

(٤) : الوادي الكبير او نهر الوادي الكبير : Guadalquivir
هو النهر الذي تطل عليه قرطبة واشبيلية ويصب في المحيط الاطلسي ، ويعرف ايضا بنهر قرطبة ، وكان يعرف بنهر بيطى ، وطوله الى المحيط ثلاثمائة وعشرة اميال .
انظر ، ابو عبيد البكري ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٨٥٠ ، ابن غالب الاندلسي المصدر السابق ، ص ٣٩

العاصمة مدينة استجه الواقعة شرقها (١) ، ومدينة أو حصن المدور الواقع فى غرب قرطبة على نهر الوادى الكبير • وقد اسس هذه الامارة الحاجب محمد بن عبد الله البرزالى زعيم بنى برزال الزناتيين ، فلقد قدم هؤلاء البربر الزناتيين من المغرب الى الاندلس فى عهد الخليفة الحكم • وقد تولى الحاجب محمد بن عبد الله هذا حكم قرمونة منذ ايام الخليفة هشام المؤيد وحتى وقوع الفتنة (٢) •

وعندما استأثر كل واحد من حكام الاقاليم والمغامرين بمقاطعاتهم ، استأثر هو الآخر بقصبة الحاجب البرزالى بالمدينة • وكان له دور كبير فى احداث تلك الفتن وحتى وفاته • وقد وصم ابن البرزالى بالانتهازية والوصولية وتزعزع الولاء بين القوى السياسية حسب المكان الذى تكمن فيه مصلحته الخاصة (٣) ، وسنتبين بعد الدور الذى مارسه فى تلك الأحداث •

ولا شك ان هذا الموقف السياسى الشائك يستلزم قدرا كبيرا من الدهاء والحنكة من القاضى ، وهو مانجح فيه فعلا •

تكوين الجيش الرسمى للدولة :

لسنا على يقين واضح متى بدأ القاضى يفكر فى تأسيس جيش لدولته الفتية الوليدة حديثا غير ان مقتضى الاشياء ومنطق الاحداث يجعلنا نعتقد ان اول خطوة يجب ان يصنعها القاضى لتثبيت سلطته هى : تكوين الجيش ولا سيما وان الظروف السياسى الدقيق انئذاك يدعو لذلك وبسرعة • ولذا فأننا نتفهم دواعى القاضى وهو يشكل جيشه غاضا النظر عن الفئات المتعددة التى تكون منها ذلك الجيش ، اذ يبدو ان الاهم امامه هو تكوين جيش — كضرورة ملحة — يدافع عن الدولة ، اما

---

(١) : (استجة Ecija واسمها القديم Astiggi ، وتقع على نهر شنيل وهى الان مركز ادارى فى محافظة اشبيلية)
انظر ابن الشباط التوزرى : وصف الاندلس قطعة من كتاب صلة السمط وسمة المرط ، وهى قطعة فى وصف الاندلس وصقلية ، تحقيق احمد مختار العبادى نشر فى مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ، المجلد الرابع عشر — ١٩٦٦ — ١٩٦٧ ، ج ٣ ، ص ١١٢ •

(٢) : يراجع فى اخبار دولة بنى برزال بقرمونه :
— مجهول : نبذ تاريخية جامعة فى اخبار البربر فى القرون الوسطى ، منتخبة من المجموع المسمى بكتاب مفاخر البربر ، ص ٤٤ — ابن الخطيب : اعمال الاعلام ، ص ٢٣٦ — ٢٣٨ •

(٣) : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثانى — المجلد الاول ، ص ١٢ (نقلا عن ابن حيان)

تلك الفئات فقد كانت خليطا من البربر والنصارى والعرب (١)

وعندما نقول ان القاضي هو الذى اسس الجيش فاننا لا نملك الدليل لمعرفة ماذا كان ذلك قد تم بمشاركة المجلس ؟؟ ام انه قد تم فى عهده بعد ان تخلص من اعضاء المجلس وانفرد بالرئاسة ؟؟

الاعتراف بالسلطة الاسمية للخليفة يحيى بن على بن حمود :ـــــ

ما من شك فى ان السنوات الاولى لاستقلال اشبيلية كانت حرجة ودقيقة تستوجب قدرا من الحيطة والحذر من القاضى محمد بن اسماعيل باعتباره رأس السلطة التنفيذية بالمدينة • فكل دواعى المخاطر كانت تحيط بالدولة الناشئة ، فقد كانت هناك حامية البربر بقيادة محمد بن زيرى الذى كان القاضى قد ناصبحكم المدينة كما ذكرنا سابقا ، وكان هناك الخليفة القاسم بن حمود الذى لم ينته خطره بعد • ثم خطر الخليفة يحيى بن على الماثل • ونعتقد ان القاضى لميلق كبير عناء بصدد التخلص من محمد بن زيرى فما لبث ان تخلص منه ، فخرج (وصفت اشبيلية من البرابرة) (٢)

اما المأزق الآخر فقد كان مع الخليفة المطرود القاسم بن حمود • فعندما رفع القاسم حصاره عن المدينة توجه الى مدينة قرمونة حيث كانت طاعته لاتزال قائمة مؤملا تنظيم صفوفه وجمع قواه لمعاودة الكرة ربما مع القرطبيين او الاشبيليين • بيد ان القاضى الذى يتقن من فن الاقناع والاغراء الكثير اوحى لحاكمها الحاجب محمد بن عبد الله البرزالى المذكور سابقا بأن يخلع طاعة القاسم ويستأثر بحكمها لنفسه • ووافق الحاجب اقتناعا منه بخطر القاسم على سلطته ، وطمعا فى الاستئثار بها وحده كما كان الامر قبل قدوم القاسم الى المدينة • ومازال البرزالى حتى اقنع الخليفة القاسم بالخروج الى مدينة شريش • (٣)

(١) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ١٩٤ ـ ١٩٥ •
وهذا هو ما جرى عليه العرف منذ الفتح وحتى عصر ملوك الطوائف عند تكوين الجيوش فى الاندلس

(٢) : هذا هو تعبير المورخين القدامى دائما •
انظر ابن بسام ، المصدر السابق ، القسم الاول ـ المجلد الثانى ، ص ١٦ ـ ١٧

(٣) : شريش هى قاعدة او عاصمة كورة شذونة ، وهى على مقربة من البحر ، ومدينة شذونة كانت تعرف بمدينة ابن السليم ايضا وشذونة مركز ادارى حاليا فى مديرية قادس (الاسبانية) على نحو ٤٠ ك • م الى شرقها •
انظر ابن الابار : الحلة السيراء ، ج ٢ ، ح ٤ ، ص ٣٣٣ ، ح ٢ ص ٢٩٧ •

ونستطيع أن نقدر فرحة القاضي وغبطته من زوال خطر القاسم اذا ما عرفنا بأن المسافة بين اشبيلية وقرمونة لاتزيد عن ثلاثين كيلو مترا فقط كما اشرنا ، واذا ما عرفنا ايضا بأنه ليس من السهل الاستخفاف بقوة القاسم العسكرية والعشوية ، فاذا كان القاسم قد قبل مرغما رفع حصاره عن اشبيلية ، فانه قد اقدم على ذلك لاسباب عائلية فقط ، اما الان فله حرية الحركة والتصرف مدعما من الحاجب البرزالي واليه على قرمونة . ولذا فقد كانت ضربة ناجحة من القاضي عندما استمال الحاجب البرزالي ودفعه للثورة على خليفته واخراجه من المدينة .

على أن مأزقه الخطير كان مع الخليفة يحيى بن علي الذى استطاع أن ينهض على عمه القاسم ويلقي به في السجن ، فقد غدا بعدها الزعيم السياسي للبربر ، والخليفة الشرعي الذى تحيط به صفوفهم في وجه الاندلسيين . فلقد توجه يحيى بعد خلع طاعته عن قرطبة لاول مرة عام ٤١٣ هـ / ١٠٢٢ م الى مدينة مالقه التي كان يتولى حكمها قبل قيامه على عمه ، فاستقر بها . وعندما ساء موقف القاسم بن حمود في قرطبة خلعت طاعته ثانية ، وتوجه منها الى اشبيلية فصد عنها ، ثم انتهى الامر باعتقاله لدى ابن اخيه يحيى ، واعاد اهل قرطبة الامر ثانية لبني امية كما ذكرنا سابقا (١) . ولكن طاعته خلعت في عام ٤١٦ هـ / ١٠٢٥ م وأعيدت طاعة يحيى بن علي الى قرطبة ثانية دون أن يدخلها ، ثم خلعت طاعته ثانية في عام ٤١٧ هـ / ١٠٢٦ م فتوجه الى قرمونة معتزما التوجه الى قاعدته مالقه .

ولقد ادرك القاضي مغبة نزول يحيى بجواره وتحالف الحاجب البرزالي المتقلب الولاء معه ، وخشي منهما على استقلال مدينته الهش . وقد ظهر ما خشي منه القاضي فعلا عندما ضربا حصارهما حول عاصمته ولم يكن أمام القاضي الا أن يساوم يحيى اذا لم تكن له القدرة على مواجهته . فاتفق رأيه ورأى اهل المدينة على أن يعترفوا بخلافة يحيى وسلطته الاسمية شريطة عدم دخول البربر الى المدينة . وقنع يحيى بذلك ، غير أنه

---

(١) : انظر قبل التمهيد ، ص ٣٢

اشترط أن يعطوه رهائن من أبناء النافذين في المدينة ضمانا لوفائهم بالشروط (فضنّ كل بولده ، وبادر القاضي فراهنه ابنه عباده فانفرد بالتدبير واستولى على الامور .)(١)

وهكذا فلم يتردد القاضي بالمغامرة بابنه ، واثبت أنه خير من يعرف من أين تؤكل الكتف . كما أن الخليفة يحيى قنع بهذا ورضي به فهو رهن عظيم . ومن الطبيعي أن يعظم قدر القاضي في نفوس أهل المدينة ، وأن يكبروا فيه وطنيته الفائقة ، ونستبعد أن يكون أهل اشبيلية قد عوضوا على يحيى تبعيتهم الاسمية خوفا من هجوم القاسم عليهم كما جاء في كتاب (اشبيلية في القرن الخامس الهجري)(٢) ، وذلك لأن يحيى كان في ذلك الوقت في مدينة مالقة ، وأن الاعتراف بسلطته في اشبيلية لم يتم الا في اثناء توليه الخلافة في قرطبة للمرة الثانية عام ٤١٦هـ / ١٠٢٥م، أو بعد خلع طاعته عنها التي تمت في عام ٤١٧ هـ / ١٠٢٦م . اذ يقول ابن بسام عن القاضي محمد (ولا سلم لأحد بعد لواءها الى أن استوسق الأمر ليحيى بن علي الحمودي حسبما تقدم ، فاضطر أهل اشبيلية الى الاذعان لطاعته والدخول فيما دخل فيه الناس من جماعته(٣)) .

وكيفما كان الأمر فان اشبيلية رضيت مؤقتا بسلطة الحموديين الاسمية على مضض .

التخلص من مجلس الرئاسة :-

يصعب علينا معرفة كم من الوقت والجهد احتاجهما القاضي لتثبيت سلطته منفردا . واذا كان قد استطاع أن يؤسس جيش المدينة ، ثم يعترف بالسلطة للخليفة يحيى فانه قد كان يصدر في ذلك عن موافقة جماعية لخطوته . أما الآن فقد صفا له الأمر وليس أسهل عليه من التخلص من نفوذ أعضاء هذا المجلس . ويبدو أن ذلك قد تم بصورة تدريجية ، وبمعنى آخر يبدو أنه قد بدأ بأقلهم شأنا حتى انتهى باخطرهم دون أن يلقى كبير عناء

---

(١) : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثاني - المجلد الاول ، ص١٠ - ١١ .

(٢) : صلاح خالص : (نقلا عن مخطوط أدباء مالقه لابن خميس) ، ص١١٤-١١٥ .

(٣) : ابن بسام : نفس المصدر السابق ، القسم الثاني - المجلد الاول ، ص١٠-١١ . رجب عبد الحليم : الرسالة السابقة ، ص١٠٨ - ١٠٩ .

(حتى انفرد بسابقته ومهد لدولته ، وأجمع اهل عمله على طاعته ، فدانوا له . وسلك سيرة أصحاب الممالك بالاندلس لاول وقته ، وقام بايقظ جد وأصح عزم ، واخترع في الرياسة وجوها تقدم فيها كثير منهم) (١).

ويأخذ عليه ابن حيان كما ينقل عنه المؤرخون هذه السياسة الانتهازية باسلوب يمتزج فيه الانتقاد بالاعجاب المبطن (٢). وقد شرع القاضي فور تفرده بالسلطة في تولية الوزارة لرجل من عامة الناس لم يذكر لنا المؤرخون عنه شيئا سوى أن اسمه حبيب . وسنعرض قادما لما يعنيه منصب الوزارة وما يمثله من أهمية . فتولى حبيب مساعدة القاضي - الملك في تدبير شؤون الدولة وتصريف أمورها ، ولم يسلم هو الآخر من ذم المؤرخين ومؤاخذاتهم (٣).

محاولة توسيع رقعة الدولة :-

صفت الأمور للقاضي الداهية وأصبح خالي البال من مضايقات الحموديين وازعاج مجلس الرئاسة . وزادت غبطته كثيرا عندما تحالف مع محمد بن عبدالله البرزالي حاكم قرمونة القريبة من اشبيلية كما اوضحنا . الامر الذي اعطاه حرية الحركة والتصرف ، ولم يكن هذا التحالف أو هذا التحول في موقف الحاجب مستغربا . فاذا كان متقلب الولاء فلانه قد خشي على ملكه المستقل من الخليفة يحيى بن علي الذي نزل عليه بقرمونة ، ويبدو أنه قد شعر بالراحة عندما غادر يحيى قرمونة الى مالقة قاعدته الاولى . ولذا فقد تحالف مع القاضي الذي كانت تجمعه واياه مصلحة واحدة هي ابعاد الحموديين عن مدينتيهما .

---

(١) : ابن الابار : الحلة السيراء ، ج ٢ ، ص٣٧ - ٣٨ .

(٢) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص١٩٦ - ١٩٧ . - ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثاني - المجلد الاول ، ص ٧ - ١١ .-
ابن الابار : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ٣٦ - ٣٨ .

(٣) : كابن بسام : المصدر السابق ، والقسم والمجلد اعلاه ، ص١٠ - ١١ .

ولذا فقد سعى القاضي من فبوره الى توسيع رقعة مملكته ،
وتوجه ببصره الى النواحي الغربية من الاندلس ، اذ كانت مملكته تعتبر من الناحية الجغرافية امتدادا لهذا الغرب . كما أن هذه المنطقة كانت تقع تحت حوزة امراء ضعاف ، ولذا فقد سعى الى احتلال مدينة باجة[1] التي كانت تتجاذبها الاهواء والاحن العرقية بين البربر والعرب ، فسارع الى ارسال الجيش لاحتلالها بقيادة ابنه اسماعيل الذي ولاه قيادة الجيش ومساعدة حليفه محمد بن عبدالله البرزالي . غير أن عبدالله بن محمد بن مسلمة المعروف بابن الافطس صاحب بطليوس والذي اشرنا سابقا الى أنه كان خصما عنيدا ونـدا قويا لأمراء الجانب الغربي من الجزيرة ، لم يشأ أن تقترب حدود القاضي ابن عباد منه لما يشكل ذلك من خطر على مملكته ، فسارع ومساعدة حاكم مدينة مردلة الى تكوين جيش بقيادة ابنه محمد - الملقب بالمظفر فيما بعد - ، وشقيق حاكم مردلة الى احتلال مدينة باجة ، وتم لهما ذلك بالفعل .

وعندما قدم اسماعيل وحليفه ضربا الحصار على المدينة ،
واشتبكا مع جيش ابن الافطس ، وتم لهما اخيرا تفريق شمل هذا الجيش والقبض على محمد بن المنصور بن الافطس ، وكذلك قبض على شقيق حاكم مردلة . وقد احتفظ الحاجب بابن الافطس أسيرا لديه في قرمونة ، ثم اطلق سراحه بعد عقد الهدنة بين القاضي وابن الافطس . أما شقيق حاكم مردلة فقد سيق الى اشبيلية حيث قتل هناك[2] . ويبدو أن هذه المعركة

---

(١) : باجه في البرتغال الحالية وتسمى اليوم : بيجا Beja وهي قاعدة مديرية ألينتيجو السفلى Baixo Alentejo ، وتقع على ١٤٠ كيلو مترا جنوب شرقي الاشبونة (لشبونة ، ليسبو) . وكانت في التقسيم الاداري الاندلسي كورة واسعة تشمل مديرية ألينتيجو السفلى الحالية في البرتغال ، وجزءا من مديريتي بطليوس وولبه Huelva في اسبانيا الحالية .
انظر ابن الابار : الحلة السيراء ، ج ١ ، ح ١ ، ص ٦٢ .

(٢) : ابن عذاري : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٠٢ . - ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثاني - المجلد الاول ، ص ١١ - ١٢ .

قد حصلت عام ٤٢١هـ / ١٠٣٠ م ، اذ يشير ابن بسام الى هذا عند حديثه عن اطلاق سراح ابن الافطس على يد الحاجب محمد بن عبدالله البرزالي (١) .

وقد استولى القاضي على مدينة باجة اخيرا عندما تنازل له عنها أميرها عميد الدولة محمد بن عيسى . وكان والده الحاجب عيسى يلي حكم مدينة شلب وباجة منذ الفتنة ، وعندما توفى عام ٤٣٢ هـ / ١٠٤١ م خلفه ابنه محمد هذا الذي تنازل كما قلنا للقاضي عن المدينة (٢) . ودخلت باجة في عداد مدن المملكة الاشبيلية بعد ذلك حيث ولد فيها المعتمد بالله حفيد القاضي في حياة جده عام ٤٣٢ هـ / ١٠٤١ م (٣) .

ولقد اعطت هذه الحملة نتائجها الفورية ، فقد علت مكانة القاضي وازدادت هيبته . وركن ابن الافطس الى الدعة والسكون مهيض الجناح واهن الطرف .

مغامرة الهجوم على مملكة ليون النصرانية (٤) :-

هدأ روع القاضي بعد عقد اتفاقية الهدنة مع ابن الافطس ، وكان قد ارتاح قبل ذلك بتحالفه مع الحاجب محمد بن عبدالله البرزالي أمير قرمونة واعترافه بالسلطة الاسمية للخليفة الحمودي يحيى بن علي . وغدا مطلق اليد في مواصلة البناء الداخلي لدولته ، ولسنا على يقين من معرفة خطوات البناء الداخلي التي تمت ، ولكننا نفاجأ في عام ٤٢٥هـ / ١٠٣٤م بمغامرة عسكرية موجهة لأراضي مملكة ليون النصرانية ، فقد فكر القاضي في مهاجمة مملكة ليون في ذلك العام . ويبدو أن ذلك قد حدث في عهد آخر ملوكها من نسل بلاجيوس وبيتروس القوط ، وهو الملك برمودو الثالث ابن الفونسو الخامس (٥) .

(١) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص٢٠٣ . - ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثاني - المجلد الاول ، ص١٢ - ١٣ .

(٢) : ابن عذارى : نفس المصدر السابق والجزء ، ص١٩٢ - ١٩٣ .

(٣) : محمد عبدالله عنان : دول الطوائف ، ص٥٩ . (نقلا عن ابن اللبانه وابن زيدون)

(٤) : انظر قبل التمهيد ، ص ١٥

(٥) : محمد عبدالله عنان : نفس المرجع أعلاه ، ص٣٧٤ - ٣٧٥ .

على ان هذه الحملة لم يكتب لها ان تحقق اغراض القاضى ،
فالطريق الى مملكة ليون لا بد ان يمر بأراضى مملكة بطليوس . ولم يخامر القاضى شك في ان ينقض ابن الافطس هدنته معه ، ولذلك فقد جهز جيشاً بقيادة ابنه اسماعيل وعبر به اراضى ابن الافطس الى تخوم مملكة ليون واوغل فيها .

ويبدو ان هذه الحملة كانت ذات هدف عسكري محدود هو المناوشه فقط واظهار مدى ما تحقق للقاضى ابن عباد من قوه فى مملكته الحديثة العهد .

غير أن ابن الافطس نكث بعهده مع القاضى ، وكمن لجيش ابنه اسماعيل بشعب ضيق ، ثم هاجمه . فوقع الاضطراب فى صفوف جيشه ، واضطر الى الفرار الى مدينة اشبونة المطلة على المحيط الاطلسي والتابعة لمملكة ابيه ، واوقع ابن الافطس ونصارى ليون القتل فى صفوف جيش اساعيل . ولكن اسماعيل استطاع ان ينجو بجلده.(١)

فهل فكر القاضى فى مواصلة سياسة المنصور ابن ابى عامر الرامية الى مهاجمة ممالك النصارى والانتقال بالدولة الاسلامية من خطة الدفاع الى الهجوم؟؟ . اذا افترضنا حسن الظن فأننا نقول ان شيئاً من هذا قد فكر فيه القاضى ، ومع هذا فأننا ننظر الى هذه المغامرة على انها تنطوى على قصر نظر سياسى . فأذا كان الغرض هو مهاجمة ممالك النصارى فهو تفكير ساذج ، فكيف يتسنى له ان يخاطر بجيشه المكون حديثاً الى ارض العدو البعيدة عنه والمتاخمة لحدود عدوه ملك بطليوس والذى لا تربطه به سوى هدنة مؤقته ؟؟ . وعلى افتراض انه استطاع ان يحتل بعضاً من اراضيها ، فهل كان يقدر على تأمين حمايتها بعدئذ ؟؟ . وخلاصة الامر ان هذه الغزوة كانت فاشلة ، وكان من الممكن توفير الجهد الكبير الذى تم فى اعدادها للبناء الداخلى . ومع هذا فربما كان القاضى يقصد بذلك مجرد الاشعار بقوته وللمناوشة فقط كما سبق ان وضحنا .

خلع طاعة الحموديين وظهور الخليفة هشام من جديد :-

خلع القاضى محمد بن اسماعيل طاعة الخليفة يحيى بن على الاسمية ولا نعرف على التحقيق متى وقع ذلك ؟؟ . ولكننا نخمن انه قد حدث في اواخر عام ٤٢٦هـ/ ١٠٣٥م بعد ان استطاع يحيى الاستيلاء على مدينة قرمونة من يد صاحبها محمد بن عبد الله البرزالى الذى فر الى اشبيلية مستجيراً بالقاضى .

---

(١) : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثانى - المجلد الاول ، ص ٢٤ - ٢٥ .

وفي بداية عام ٤٢٧هـ/١٠٣٥م ودفعا لمضايقات يحيى ابن حمود وأملا في زعزعة الخلافة الحمودية وضربها في جوهر مبرر تكوينها ووجودها ، ادعى القاضي محمد بن اسماعيل انه قد سقط لديه خبر هشام الخليفة المختفي الذى اختلف في موته . فاستقدم من قلعة رباح (١) رجلا يدعى خلف الحصرى يشبه هشام المؤيد تماما ، وكان يعمل في صنع الحصر والخيزران . فطلب منه التوجه معه الى اشبيلية في موقف مسرحي طريف للغاية (٢) ، ودعى له هناك بالخلافة . وتقول رواية أخرى انه استقدمه من قرية تابعة لاشبيلية ودعى الناس الى طاعته ، وانه هو الخليفة هشام بعينه ، وطلب من أهل اشبيلية أن يشكروا الله تعالى على ما أكرم به مدينتهم واستأثرها وحدها بفضيلة ظهور الخليفة الشرعي فيها . وأوقف شهودا على باب خلف الحصرى فشهدوا بأن الخليفة عهد بحجابة بابه الى اسماعيل بن القاضي محمد . وعلى أثر ذلك طلب القاضي من الرؤساء والامراء في الاندلس قبول دعوة الخليفة هشام والدخول في طاعته (٣) .

تلك هي خلاصة هذه القضية السياسية التى شغلت الفترة الزمنية الممتدة من عام ٤٢٧هـ حتى عام ٤٣١هـ/ ١٠٣٥ - ١٠٣٩م ، ونشأت عنها ذيول سياسية أخذت تتفاعل في نطاق الصراع بين القوى السياسية المتناحرة في الاندلس . وأدت الى مقتل الخليفة يحيى بن على ، ثم تكوين حلف بربرى صقلبى ضد القاضي ، ثم مهاجمة مملكة قرطبة ومقتل اسماعيل بن عباد قائد جيش اشبيلية .

---

(١) : قلعة رباح (من عمل جيان ، وهى بين قرطبة وطليطلة ، وهى مدينة حسنة ولها حصون حصينة ، وهى مدينة محدثة في ايام بنى امية) .
الحميرى : الروض المعطار تحقيق أ . لافي بروفنسال ، ص ١٦٣ .

(٢) : انظر ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ١٩٩ - ٢٠٠ (نقلا عن ابن القطان صاحب كتاب نظم الجمان المفقود) .

(٣) : ابن عذارى : نفس المصدر السابق والجزء ونفس الصفحات . - ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثانى - المجلد الاول ، ص ٩ - ١٠ .

وفى الحقيقة ان موضوع وفاة الخليفة هشام المتكررة من الموضوعات الغامضة فى التاريخ الاسلامى كله ، وهى قضية تركت معلقة تتجاذبها التفسيرات والتعليلات حتى الوقت الحاضر . ولقد رأينا فيما مر بنا أن ادعاء الخليفة محمد بن هشام المهدى بصدد وفاة هشام فى عام ٣٩٩هـ/١٠٠٨م هو محض اختلاق وتلفيق . وظهر ذلك واضحا عندما أعاد الخليفة هشام الى الظهور وادعى انه قائم دونه . وعندما قتل المهدى تولى الخلافة ثانية هشام المؤيد نفسه . وهو ما تأكد للجميع فى ذلك الوقت ، ومر بنا موقف سليمان المستعين بعد ما دخل قرطبة من الخليفة هشام وكيف طلب منه أن يخلع نفسه له ، وأوردنا الاقوال التى تناولت هذا الموضوع ، وأشرنا الى أن هناك من يقول ان سليمان المستعين أخفاه حينا ثم قتله ، وهناك من يقول بل فر من محبسه وقصد مدينة ألمرية وعاش هناك فى بؤس وخمول حتى توفى(١).

وعندما استطاع على بن حمود دخول قرطبة والقبض على سليمان المستعين بحجة أنه ولى عهد هشام وولى دمه أيضا ، لم يجد الخليفة حيا ، فدلوه على قبره فأخرجه منه ، وشهد امامه بأنه الخليفة هشام . وقد أوردنا نفى سليمان هو وأبوه أن هشاما قد قتل ، وانهما انكرا ذلك بشدة ، رغم أن عليا لم ير أثرا لسلاح فى جسد الرجل الذى أخرج من القبر فتوهم فيه الخنق ، ورأينا ايضا أن عليا عجل بقتلهم خوفا من تبلبل الافكار حول هشام ووجوده حيا ، لأن ذلك ليس من مصلحته بتاتا(٢).

ويبدو أن ابن الاثير يميل الى هذه الرواية ، فينفرد برواية تؤكد أن هشاما لم يقتل ، بل هو حى يرزق ، اذ يقول بأن عليا بن حمود وخيران العامرى عندما نبشا قبر الرجل المدفون على أنه الخليفة هشام ، أحضرا أحد فتيان المؤيد ، وعرضاه عليه . ففتشه هذا الفتى ، وفتش أسنانه ، لانه كان له سن سوداء كان يعرفها ذلك الفتى ، فأجمع هو وغيره على أنه المؤيد خوفا على أنفسهم من على بن حمود . فأخبرهما أى الفتى بأنه هو المؤيد نفسه . وكان ذلك الفتى يعلم أن المؤيد حى ، فأخذ على بن حمود سليمان فقتله(٣) . على أن هناك من يقول بأن سليمانا اعترف لعلى بن حمود بأن ابنه

---

(١) : انظر قبل ، ص التمهيد ، ص ٣٩

(٢) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ١١٧ ـ ١١٩ ، ص ١٢١ . ـ ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الاول ـ المجلد الاول ، ص ٢٨ ـ ٢٩ ، ص ٧٨ ـ ٧٩ . ـ ابن الخطيب : تاريخ المغرب العربى فى العصر الوسيط ، القسم الثالث من كتاب اعمال الاعلام ، ح ٢ ، ص ٢٠٦ .

(٣) : الكامل فى التاريخ ، مجلد ٩ ، ص ٢٧١ .

محمدا قد قتل هشام المؤيد فعلا (١) .

فمهما يكن فان من المحقق ان هشاما قد قتل على يد الخليفة سليمان المستعين ، فالمستعين له مصلحة في اخفاء المؤيد عن المسرح السياسي . ذلك أن وجوده سيشير أنصاره من الصقالبة والعرب ، ويدفعهم الى مناصرته ، لا لشيء الا لمقاومة البربر وكسر شوكتهم ، كما أن وجوده وهو الخليفة الشرعي الذي توالت عليه وعلى شخصه الرسمي الاهانات من العامريين ومحمد المهدي . نقول ان وجوده يؤثر على مركز سليمان و يجعله في نظر سكان الاندلس بمثابة مغتصب للعرش ، وقد رأى ما حدث عندما ترك المهدي الخليفة هشام حيا فقد اضطر بعدها بشيء يسير الى تكذيب نفسه . وكانت النتيجة ان قتل المهدي وأعيد هشام الى الخلافة ثانية . فنحن نميل الى القول بأن سليمان المستعين قد قتله تخلصا من تأثيره الروحي كخليفة شرعي ، أو على الأقل نصدق الشق الثاني من تلك الروايات التي تقول بأنه قد فر من محبسه وقصد مدينة ألمرية أو غيرها حيث عاش في بؤس وخمول حتى توفي .

× × × × × × × × × × × × × × × × × × ×

وكأنما كتب على هذا الخليفة أن يكون رمزا غامضا في حياته ومماته أيضا . فلقد عاش الفترة من عام ٣٦٦هـ ، وهو العام الذي تولى فيه الخلافة حتى عام ٣٩٩هـ/ ١٠٠٨م وهو العام الذي أجبره فيه عبد الرحمن ابن المنصور بتوليته عهده ، عاش رمزا يحيطه الغموض وتلفه التخرصات والاقاويل . ومن الطبيعي أن تلفق حوله وحول شخصيته المحتجبة قسرا تلك الشائعات . ولم يكن حظه مع بني عمومته بأحسن حال من العامريين ، فقد زادوا وضعه غموضا وتخرصا . ولذا فقد شاعت وذاعت حوله الروايات والاساطير ، فمن قائل انه قتل ، ومن قائل انه فر وتوجه الى الشرق وعاش فيه مدة من الزمن . ثم عاد الى الاندلس فأثر في قلوب الناس ، ومن روايات ينسجها نساء وخصيان في قصر الخلافة عنه ، وانه حي ، ومن قائل انه أخذ يعمل فترة من الزمن في قرطبة متخفيا . ثم رحل الى المشرق وحج وعمل هناك ليكسب قوته ، ثم عاد الى الاندلس ودخل مدينة ألمرية في ايام حاكمها زهير العامري . وذلك في عام ٤٢٦هـ فتخوف منه هذا فطرده ، الى قائل (ان زهير ذهب مذهبه في رجل سقاء شديد الشبه بهشام فسموه زمنا من سنة ٤٢٦هـ ، ثم طرده زهير) الى قائل آخر بأنه اختفى

---

(١) : ابن عذاري : المصدر السابق والجزء ، ص ١١٧ .

مدة في مدينة مالقة وقت خلافة علي ابن حمود ، ثم فر الي ألمرية فطرده زهير ، فتوجه الي قرية رباح التابعة لابن ذي النون ، الي ان استقدمه القاضي ابن عباد.(٢)

كل هذه الروايات علي الرغم من عدم الاعتداد بها الا أنها ترمز الي اهمية الخلافة في قلوب المعاصرين ، رغم أنها ممثلة في شخص هشام الرجل الضعيف والخليفة المغلوب علي أمره . ومع هذا فقد كانت هذه الاقاويل والشائعات مركبا مستباحا تلوكه الألسن وتلهج به القلوب . غير أن من الراجح أن شيئا من هذا لم يحدث . فهل يعقل أن يكون هناك أربعة أشخاص يشبهون هشاما تمام الشبه ، ويزعم في حالة كل واحد منهم أنه الخليفة هشام بعينه ثم يتضح أنه ليس هو ؟؟ فالمهدي أظهر رجلا يهوديا أو نصرانيا شبيها بهشام تماما ، وادعى أنه هو الخليفة ، وأنه قد مات ميتة طبيعية(٢) ، والفتى الذي كان يخدم عند هشام المؤيد كما تقول رواية ابن الاثير السابقة أكد لعلي بن حمود أن الرجل الذي نبش قبره هو هشام بعينه وذلك خوفا من علي كما يزعم(٣). وزهير العامري كما تقول رواية ابن الخطيب أظهر رجلا شديد الشبه بهشام فدعى له ثم طرده(٤) ، وأخيرا القاضي ابن عباد الذي جاء بخلف الحصري وكان هو الاخر شديد الشبه بهشام . فدعى له بالخلافة وأكد للجميع بأنه الخليفة هشام بعينه .

اننا نرجح بأن هشاما قد قتل علي يد سليمان المستعين ، أو أنه قد فر كما تقول الروايات وانتهى دوره تماما . وما زعمه ابن عباد وأظهره في صورة مسرحية طريفة لاتستحق أن يقف عندها الانسان طويلا . ولكن ما ينبغي أن نقف عنده طويلا هو عدد من الاسئلة المهمة التي تفرض نفسها فرضا منها : لماذا أظهر القاضي ابن عباد الدعوة للخليفة هشام المؤيد في ذلك الوقت بالذات ؟؟ . ولماذا انتظر طيلة تلك الفترة ابتداءا من قيام المملكة حتى ذلك العام أي عام ٤٢٧هـ/ ١٠٣٥م ؟؟ . وما هي الفائدة التي جناها القاضي من تلك الدعوة ؟؟ .

---

(١) : ابن عذاري : المصدر السابق والجزء ، ص ١٩٠ ، ص ١٩٧ـ١٩٨ .
(٢) : ابن عذاري : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ٧٧ ـ ٧٨ ، و ص ٨٣ ، وص ٨٩ ، و ص ١٠١ ، وص ١٠٥ .
(٣) : الكامل ، مجلد ٩ ، ص ٢٧٠ .
(٤) : اعمال الاعلام ، ص ١٥٣ ـ ١٥٤ .

ما من شك أن السبب الجوهرى الذى حدا بالقاضى الى اظهار دعوة الخليفة هشام هو رغبته فى دفع مضايقات يحيى بن على عنه ، وخاصة بعد أن استقر يحيى فى قرمونة القريبة جدا من اشبيلية . وما علله بعض المؤرخين القدامى لاسباب تلك الدعوة كان حقيقة لا مراء فيها (١) ، وان كنا نجد رواية لعبد الواحد المراكشى (٢) تعلل سبب دعوة ابن عباد تلك . وهى رواية لا يعتد بها ، بل انه يقول بأن الذى أظهر دعوة هشام هو المعتضد وليس والده القاضى محمد ابن اسماعيل (٣) .

ومهما يكن فان يحيى غدا فى ذلك الوقت زعيم البربر ، غير منازع ، والتفت حوله كلمتهم ضد الاندلسيين خاصة بعد ما صفا له الجو بعد أن قبض على عمه القاسم وسجنه واستتب الأمر له هو وأخوه ادريس فى جنوبى الاندلس .

أما لماذا انتظر ابن عباد طيلة تلك الفترة ؟ فلربما أن الظرف لم يكن يسمح له ، أو أنه لم يخطر له وقتذاك فكرة الدعوة لهشام المؤيد ، أو لأن الألسن لم تلهج بهشام وتتناقل شائعاته الا فى ذلك الوقت أى قبل عام ٤٢٧ هـ . وهو العام الذى أشرنا الى أن ابن عباد دعى فيه لهشام المؤيد .

---

(١) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ١٩٠ ، و ص ١٩٧ ـ ١٩٨ . ـ ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثانى ـ المجلد الاول ، ص ١٠ . ـ ابن الخطيب : اعمال الاعلام ، ص ١٥٣ ـ ١٥٤ . ـ مجهول : ذيل مضاف الى البيان المغرب ، ص ٣١٥ . ـ الضبى : المصدر السابق ، ص ٣٦ .

(٢) : المصدر السابق ، ص ١٥١ ـ ١٥٢ .

(٣) : يقول عبد الواحد المراكشى : ان المعتضد خاف من اضطراب الامور فى اشبيلية واضطراب أهلها عندما سمعوا بظهور خلفاء أمويين فى قرطبة . فاستقبحوا بقاءهم بغير خليفة ، وأنه قد بلغه أن اهل اشبيلية طلبوا من أولاد بنى أمية أن يقيموا أحدهم عندهم فادعى ما ادعاه .

أما ما جناه ابن عباد من تلك الدعوة فهو كثير حقا ،

فبادئ ذي بدء ستحرج هذه الدعوة الحموديين بالذات ، وستزعزع شرعية وجودهم كما قلنا ، فهم لم يتولوا الخلافة الا لأنهم أولياء عهد هشام وأولياء دمه أيضا . فاذا ظهر هشام حقيقة فان مبرر خلافاتهم يكون قد انتهى ، وهو نقض لكل دعواهم في الخلافة ، فهي فعلا ضربة ناجحة جدا من القاضي هزت كيان الحموديين . ولسنا نتفق مع خالد الصوفي فيما ذهب اليه عندما أشار الى أن القاضي ابن عباد عمل (على الدعوة لأحد الأمويين لاضعاف دعوة يحيى بن حمود في الخلافة)(١) . لسنا نتفق معه فقط من عدم دقته عندما لم يفرق بين تبني دعوة هشام بالذات ، وبين تبني دعوة أحد الامويين . فتبني دعوة أحد الأمويين لا يضير الخلافة الحمودية ، فلقد تبنى أهل قرطبة من قبل دعوة هشام المعتمد آخر خلفاء بني أمية ولم يضر ذلك الخلافة الحمودية . ولكن ما يهدد كيانها هو ظهور هشام نفسه صاحب الحق الشرعي من جديد الذي بلغ الحموديين الى ما بلغوا اليه بحجة أنهم ولاة عهده وطالبي ثأره . كما أننا بهذه المناسبة أيضا لانتفق مع خالد الصوفي عندما خمن بأنه (بعد موت هشام المزعوم لن يكون له وريث يحل محله ، ويكون أحق الناس بذلك حاجبه ، فيصبح ابن عباد خليفة مكانه وينقل الخلافة الى مركزها الاساسي قرطبة)(٢) .

لانتفق معه اذ هل انقطع نسل بني أمية حتى يحل محله ابن عباد ؟؟ . ذلك من جهة ، ومن جهة أخرى الا يتذكر القاضي دور عبد الرحمن بن المنصور القريب ؟؟ . نعتقد بأن خالد الصوفي لو انه قد استنتج بأن القاضي سيستغل وفاة هشام ، ويعلن نفسه أميرا على الاندلس لكان قد حالفه الصواب .

وبعد هذا نحن نتفق مع خالد الصوفي وغيره من أن القاضي كانت تحدوه آمال وأماني دفعته الى اظهار دعوة هشام وأهمها على الاطلاق

---

(١) : تاريخ العرب في اسبانيا أو جمهورية بني جهور ، ص ٧٠ .
(٢) : نفس المرجع ، ونفس الصفحة .

تأليب كتلة العرب والصقالبة ضد البربر والحموديين ، ودفع مكروه يحيى بالذات ، ثم رغبته في أن يكون صاحب النفوذ العريض في الاندلس كلها التي توخى أن تستجيب لدعوته ، وبالتالي تدفع عنه صفة التسلط والديكتاتورية وتجعله حاجبا للخليفة يأتمر بأمره وينفذ تعاليمه .(١)

موقف رؤساء وأمراء الاندلس من دعوة الخليفة هشام :-

تباينت مواقف رؤساء الاندلس حسب انتماءاتهم العرقية والسياسية من دعوة الخليفة هشام ، فمن الطبيعي أن يقبل هذه الدعوة الامراء العرب والامراء الصقالبة المجاورون لمملكة اشبيلية . كعبد العزيز ابن ابي عامر صاحب بلنسية ، ومجاهد العامرى صاحب دانية ، ومقاتل الصقلبي صاحب طرطوشه ، ومحمد بن عبدالله البرزالي أمير قرمونة المطرود والمستجير بالقاضي وغيرهم .(٢)

أما المعارضون فمن الطبيعي أن يكون أغلبهم من البربر وعلى رأسهم يحيى بن علي ، ثم حبوس بن ماكسن بن زيرى صاحب غرناطة على عكس ما يراه ابن خميس صاحب مخطوطة أدباء مالقة .(٣) أما ما يلفت النظر حقا فهو موقف زهير العامرى الصقلبي المؤيد لفريق البربر الذي يبدو أن معارضته نابعة ربما من عداء وحسد شخصي للقاضي .(٤)

أما بالنسبة للممالك الاخرى الكبيرة كمملكة سرقسطة وطليطلة وبطليوس فان المؤرخين القدامى لم يعنوا بايضاح موقفهم وان كنا

---

(١) : خالد الصوفي : المرجع السابق ص ٧٠ .- علي أدهم : المعتمد ابن عباد ، ص ٤٨ - ٥٠ .- صلاح خالص : اشبيلية في القرن الخامس الهجري ، ص ١٢١ - ١٢٢ .

(٢) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٩٠ .

(٣) : صلاح خالص : نفس المرجع ، ص ١٢٢ - ١٢٣ .

(٤) : ابن عذارى : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ١٩٠ - ١٩١ .

نلمس أن موقف ابن ذى النون صاحب طليطلة كان مائعا فلا ندرى ان كان قد قبلها أم لا ؟؟. أما ابن الافطس صاحب بطليوس فمن الطبيعى أن يعارض هذه الدعوة خاصة وأن العلاقات بينه وبين القاضى كانت سيئة للغاية منذ الغائه للهدنة وموقفه من غزو بلاد النصارى . أما موقف الرئيس ابو الحزم ابن جهور صاحب قرطبة فيحتاج الى وقفة معه . فعندما ظهرت هذه الدعوة وبدأت مضاعفاتها تتفاعل فى الجزء الجنوبى من الاندلس رأى ابن جهور فيها خطة ماكرة محكمة من القاضى لبسط سيطرته على الاندلس كلها ، ولذا فقد أنكرها فى قرارة نفسه ، بيد أنه أمام الحماس الشعبى الذى عم الاندلس كلها وقرطبة بصفة خاصة بقبول مسألة ظهور الخليفة هشام من جديد ، نظرا لما سبقها من شائعات وأقاويل لاكتها الألسن . رأى أن يقبل هذه الدعوة ، وفى نفس الوقت رآها مجدية لموقفه (لما رآه من دفع ابن حمود القاغر فاه على قرطبة)[1] ولذا فقد قبل هذه الدعوة وجدد البيعة لهشام بقرطبة وكتب خطاب البيعة له ، وأرسله الى الخليفة وحاجبه اسماعيل بن عباد باشبيلية . بل جرى احتفال رسمى فى جامع قرطبة بمناسبة الدعوة للخليفة الشرعى[2] .

غير أن ما حدث بعد ذلك بقليل ، أعنى به مقتل الخليفة يحيى بن على فى محرم عام ٤٢٧هـ / نوفمبر ١٠٣٥م ، والذى سنعرض له بعد هذه السطور بقليل ، جعل ابن جهور يتحلل من تلك الدعوة ويسب صاحبها ومن دعى له . وسنتبين بعد قليل رد فعل القاضى تجاه ابن جهور وما حدث بعد ذلك من أحداث .

---

(١) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص٢١٩ ، وص١٩٨ـ١٩٩ .
ـ ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثانى ـ المجلد الاول ، ص١٠ .

(٢) : صلاح خالص : اشبيلية فى القرن الخامس الهجرى ، ص١٢٢ . ـ
خالد الصوفى : المرجع السابق ، ص ٦٤ ـ ٦٥ .

مقتل الخليفة يحيى بن على الحمودى :-

نميل بادئ ذى بدء الى القول بأن طرد محمد بن عبدالله البرزالى عن قرمونة قد حدث قبل ٤٢٧ هـ ، وهو العام الذى دعا فيه القاضى لهشام كما ذكرنا . اذ يشير تسلسل الاحداث الى أن يحيى بن حمود قد استولى على مدينة قرمونة قبل ذلك العام ربما لكى يكون قريبا من اشبيلية وقرطبة ، ففر منها واليها محمد بن عبدالله البرزالى هذا الى اشبيلية مستجيرا بالقاضى .

ولا نعرف بالضبط متى حدث ذلك ؟؟. ولكن عندما اظهر القاضى دعوة هشام فى اواخر عام ٤٢٦ هـ أو فى أوائل محرم ٤٢٧ هـ/ نوفمبر ١٠٣٥ م قبل البرزالى دعوته . وكان ذلك شيئا طبيعيا على عكس ما ذهب اليه صلاح خالص من أن يحيى بن على استولى على قرمونة بعد اعتراف صاحبها بدعوة هشام (١) . ومما يؤكد ما ذهبنا اليه هو ما نقله ابن عذارى وابن بسام عن ابن حيان اذ قالا : (قال حيان بن خلف حكى لى الفتح البرزالى قال لما كان عيد أضحى سنة ست وعشرين وأربعمائة ، وانغمس يحيى فى شربه ولهوه ، سرت ومعى أحد من بنى عمى الى اللحاق باشبيلية للاجتماع بابن عمنا محمد بن عبدالله البرزالى ، والقاضى ابن عباد ، فوصلنا وأنبأناهما من خبر يحيى بن حمود ولهوه ، فرأيا ان يوجها اليه بجيش لقتاله ، فخرج اسماعيل بن عباد مع ابن عمنا فى المحرم من سنة سبع وعشرين وأربعمائة ، وهما فى بيعة هشام بن الحكم المنصوب عندها باشبيلية تلك الايام . فجئنا الى باب قرمونة بالجيش ...الخ) (٢) .

---

(١) : اشبيلية فى القرن الخامس الهجرى ، ص ١٢٣ .

(٢) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ١٨٦ ـ ١٨٧ . ـ ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الاول ـ المجلد الاول ، ص ٢٧١ ـ ٢٧٢ .

وقد تلاحقت الاحداث سراعا ، فقد جاء اسماعيل بجيشه مع البرزالي امير قرمونة المطرود وقتها ، واستطاعا بفضل الخدعة العسكرية القديمة الجديدة وهى طريقة الكمائن أن يقتلا يحيى بن على . وحمل رأسه الى القاضي فى اشبيلية ، وعاد محمد البرزالي الى مدينة قرمونة مرة ثانية (١).

تكوين الحلف البربري الصقلبي ضد القاضي :-

وفي شعبان من نفس عام ٤٢٧ هـ تكون حلف بربري صقلبي بقيادة حبوس بن ماكسن بن زيري الصنهاجي ، وعضوية كل من زهير الصقلبي حاكم ألمرية ، ومحمد بن عبد الله البرزالي الذى نقض بيعة هشام بعد استتباب الامر له في قرمونة . وشن هذا الحلف سلسلة من الغارات والحملات غير المجدية على أراضي القاضي ، وقد اعترف هؤلاء الرؤساء بخلافة ادريس بن على بن حمود شقيق يحيى الذى خلفه فى تولي الخلافة فى قاعدته مالقة (٢) على أن هذا الحلف لم يترك كبير أثر على مملكة اشبيلية كما ذكرنا .

نقض ابن جهور دعوة هشام المؤيد :-

أشرنا الى أن ابن جهور تحلل من بيعة هشام المزعوم بعد أن أزاح مقتل يحيى عن كاهله حملا ثقيلا . وبعد أن جاءت شهادات الشهود الذين ذهبوا من قرطبة للتثبت من هشام المزعوم تؤكد على أن ذلك المنصوب باشبيلية هو رجل دعي ، وليس هو المؤيد هشام على الاطلاق ، ولذلك فقد تبرأ منه ومن بيعته .

---

(١) : ابن عذاري : المصدر السابق والجزء ، ص ١٨٦ - ١٨٧ . - ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الاول - المجلد الاول ، ص ٢٧١ - ٢٧٢ . - رجب عبد الحليم : الرسالة السابقة ، ص ١٠٩ - ١١٥ .

(٢) : ابن عذاري : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ١٩٠ .

وعندما بعث اسماعيل بن عباد حاجب الخليفة هشام المزعوم برسله الى ابن جهور يدعوه الى طاعته على أن يبقيه على ما هو عليه من حكم قرطبة ، استغل ابن جهور ذلك فأعلن تبرأه من ذلك الرجل وسبه وسب من دعى له (١) . ومن الطبيعي أن يكون رد فعل القاضي عنيفا ، اذ كان يهمه قبل أي شيء آخر قبول قرطبة عاصمة الخلافة القديمة والمركز الروحي الذي تهفو اليه القلوب تلك الدعوة . ولذا فقد جهز جيشا بقيادة ابنه اسماعيل ومعه هشام المزعوم ليدخل به قرطبه ، وضرب اسماعيل حصاره حول المدينة وضايقها مضايقة شديدة . وقد حرك هذا الأمر شعور باديس بن حبوس الصنهاجي الذي تولى حكم غرناطة مكان أبيه حبوس ، فأرسل جيشا ضخما قابل به اسماعيل . وكان جيش اسماعيل يحوى عددا كبيرا من البربر الذين سرعان ما ظهر تضامنهم مع بني عصبتهم . وقد فتّ ذلك في عضد اسماعيل ، ولم يبق معه الا عدد يسير من عبيده وفتيانه ، ووقع السيف في صفوف جيشه وانتهت الموقعة بمقتل اسماعيل ابن عباد بعد أن كبا به فرسه داخل هوة ، وحمل رأسه الى باديس بن حبوس . وقد وقع هذا الخبر من القاضي موقع الصاعقة ، فولى ابنه الثاني أبا عمرو عباد حجابة باب الخليفة هشام (٢) .

---

(١) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ١٩٨ - ١٩٩ ، وص ٢٠٠ - ٢٠١ . - ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثاني - المجلد الاول ، ص ١٠ . - ابن خلدون : المصدر السابق ، مجلد ٤ ، ص ٣٤٣ .

(٢) : ابن عذارى : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

وهناك رواية أخرى لعبد الواحد المراكشي فيما يتعلق بمقتل اسماعيل تنص على أن مقتله كان نتيجة لتحالف زعماء البربر عليه ، وهم محمد بن عبد الله البرزالي ، وباديس بن حبوس ، وادريس بن على بن حمود ، وذلك بعد أن هاجم اسماعيل أراضي البرزالي (١) ، ولكن يبدو أن الرواية الاولى أصح وأصوب .

وفاة القاضي ابو القاسم محمد بن اسماعيل :-

وفي عام ٤٣٣ هـ / ١٠٤٢ م (٢) توفي القاضي محمد بن اسماعيل بعد أن وضع لبنات بناء الدولة . وكان بحق مؤسس المملكة العبادية وباني مجدها السياسي والعسكري والادبي أيضا . واذا كانت الظروف السياسية لم تسعفه بالالتفات الى بناء الدولة الحضاري ، فقد تولى ابنه المعتضد وحفيده المعتمد فعل ذلك . وقد ترك القاضي من بعده دولة راسخة الاستقلال قوية البنيان لا ينقصها الا المسحة الحضارية ، وهو ما وفره لها خلفاؤه بعد ذلك كما ذكرنا .

---

(١) : المصدر السابق ، ص ١١٣ - ١١٤ .

(٢) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٠٣ - ٢٠٤ ———
مجهول : ذيل مضاف الى البيان المغرب ، ص ١١٦ . ———
ابن الابار : الحلة السيراء ، ج ٢ ، ص ٣٨ . ——— ابن خلدون : المصدر السابق ، مجلد ٤ ، ص ٣٣٧ .

والغريب أن ابن عذارى ناقض نفسه ، فهو يقول في ص ٢٠٣ أن القاضي توفي عام ٤٣١ هـ ، بينما يقول في ص ٢٠٤ أنه توفي عام ٤٣٣ هـ . أما صاحب الذيل المضاف الى البيان المغرب فيقول أنه توفي عام ٤٣١ هـ أيضا . غير أن ابن الابار وابن عذارى نفسه وابن خلدون يتفقون على أنه توفي عام ٤٣٣ هـ .

الباب الثاني

الدولة العبادية في عهد المعتضد بالله

- تولي المعتضد السلطة بعد وفاة أبيه وآراء المؤرخين فيه .
- الموقف السياسي غداة تولي المعتضد السلطة .
- التوسع العسكري على حساب الامارات العربية الغربية المجاورة .
- انشقاق اسماعيل بن المعتضد وقضاء المعتضد عليه .
- توقف المعتضد عن الدعوة لهشام المؤيد الأموي المزعوم .
- التوسع العسكري على حساب امارات البربر في الجنوب .
- نشاط حركة الاسترداد المسيحي في عهد المعتضد بالله .
- حياة المعتضد الخاصة ووفاته .

تولي المعتضد السلطة بعد وفاة أبيه وآراء المؤرخين فيه

توفى القاضي أبو القاسم محمد بن اسماعيل عام ٤٣٣ هـ / ١٠٤٢ م كما ذكرنا سابقا ، فخلفه ابنه عباد الذى تولى حجابة باب الخليفة هشام المزعوم بعد مقتل اخيه اسماعيل فى عهد أبيه . وقد بدأت ولايته منذ اليوم الذى توفى فيه أبوه فى نهاية جمادى الاولى من نفس العام الذى ذكرناه . وكانت سنه لما تولى الحكم لا تتجاوز السادسة والعشرين بعد . وقد تلقب فى بادئ الامر بفخر الدولة ثم تلقب بالمعتضد بالله .

ولقد دمغت شخصيته بكثير من الأوصاف والنعوت . ولم يحظ ملك من ملوك الطوائف بمثل ما حظى به المعتضد من انتقادات المؤرخين ، واشاداتهم وثنائهم عليه فى نفس الوقت ، فمعظم هؤلاء المؤرخين كالوا للمعتضد من مر الذم والنقد مثلما كالوا له من حلو الاشادة والثناء . فهم من جهة يستفظعون قسوته وشدته وجبروته حتى لنكاد نشك فى انسانيته ، وهم من جهة أخرى يشيدون به ويثنون عليه لدرجة الاعجاب به . فيصفه ابن حيان فيما نقل عنه(١) (شهاب الفتنه صاحب الحوادث الفظيعة الشنيعة ، والوقائع المبيرة) ، ويذم سياسته فيقول (وجاء منها عبولات تذعر من سمع بها ، فضلا عن عاينها) .

على أن ابن حيان باحساس المؤرخ الموضوعى النزيه لا ينساق فى تصديق ما أشيع عن المعتضد . اذ يبدى شكه فى ذلك ما لم يقم عليه الدليل ، ثم يشخص الحالة بدقة ، فيقول عنه فيما ينقله ابن الابار (فلقد حمل عنه على مر الأيام فى باب فرط القسوة وتجاوز الحدود والابلاغ فى المثلة ، والاخذ بالظنة ، والاخفار للذمة حكايات شنيعة لم يبد فى أكثرها للعالم بصدقها دليل يقوم عليها . فالقول ينشاع فى ذكرها ، ومهما برئ من مغبتها ، فلم يبرأ من فظاظة السطوة وشدة القسوة وسوء الاتهام على الطاعة ، سجايا من جبلته لم يحاش فيهن ذوى رحم ، ولا غلبهن بحيلة(٢)) .

---

(١) : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثانى ـ المجلد الاول ، ص ١٦ .

(٢) : الحلة السيراء ، ج ٢ ، ص ٤١ .

والحجاري صاحب كتاب المسهب كما ينقل عنه صاحب كتاب فوات الوفيات يقول (١) (وهذا الرؤوف العطوف الدم في الاخلاق الألوف ، ما مات حتى قبض أرواح ندمائه وخواصه بيده ولم يكلهم الى غيره ولم يحوجهم الى أحد بعده . فجزى عنهم بما هو أهله . وقد عرف منه ذلك واشتهر . فصار الادباء يتحاشونه . ومن شنيع ما روى عنه أن غلاما دون البلوغ دخل عليه من غير استئذان ، فقطع رأسه . فسمع جارية تقول : والله القبر أحسن من سكنى هذا القصر فقال : والله لأبلغنك ما طلبتيه . فأمر بها فدفنت حية) .

وابن اللبانة المذكور سابقا وشاعر ابنه المعتمد فيما بعد يقول عنه فيما ينقله المقرى : (ولقد حكى عنه من أوصاف التجبر ما ينبغى أن تصان عنه الاسماع ولا يتعرض له بتصريح ولا الماع (٢))

---

(١) : ابن شاكر الكتبى ، ج ٢ ، ترجمة رقم ١٧٤ (كما ينقل عن الحجارى) .
والحجارى هو : ابو عبد الله محمد بن ابراهيم الحجارى . وهو أديب أندلسى عاش في القرن السادس الهجرى ، ووفد في عام ٥٣٠ هـ على عبد الملك بن سعيد صاحب قلعة بنى سعيد القريبة من غرناطة والتى كان يليها من قبل المرابطين . فأكرمه وقربه . ثم صنف له كتاب (المسهب في غرائب المغرب) . وقد أعجب ابن سعيد بهذا الكتاب كثيرا ، ثم عنّ له أن يضيف للكتاب ما أغفله الحجارى ، وأن يحذف ويختصر ما لم يوافق غرضه . وكان هذا الخاطر هو بداية ذلك الجهد الرائع الذى بذله ابناء ابن سعيد الذين تناولوا تصنيف المسهب بالاضافة والزيادة وراثة على مدى ١٥٠ عاما . وجاء آخر هؤلاء : وهو على بن موسى بن سعيد فوضع الشكل النهائى لذلك الكتاب بعنوان المغرب في حلى المغرب . وهو على ثلاثة أقسام ، يتعلق القسم الاول منه بمصر والثانى بالمغرب والثالث بالاندلس . وهذا القسم الاخير هو المعروف بكتاب وشى الطرس في حلى جزيرة الاندلس .
وللاطلاع على معلومات وافرة عن هذا الكتاب ومؤلفيه أنظر :
المغرب في حلى المغرب (وشى الطرس في حلى جزيرة الاندلس) ، ج ١ ، ص١ ــ ٩ .
(٢) : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٢٧٣ ــ ٢٧٤ .

أما ابن بسام فقد ذمّ المعتضد بقسوة بالغة عندما قال

(قطب رحى الفتنة ، ومنتهى غاية المحنة من رجل لم يثبت له من قائم ولا حصيد ، ولا سلم له قريب ولا بعيد ، جبار أبرم الأمر وهو متناقض ، وأسد فرس الطلى (١) وهو رابض ، مشهور تتحاماه الدهاة ولا تأمنه الكماة ، متعسف اهتدى ، ومنبّت قطع فما ابقى ، ثار والناس حرب وكل شيئ عليه الب فكفى أقرانه وهم غير واحد ، وضبط شأنه بين قائم وقاعد ، حتى طالت يده واتسع بلده وكثر عديده وعدده ، افتتح امره بمقتل وزير أبيه حبيب طعنه في ثغر الايام ملك بها كفه ، وجبار من جبابر الانام شرد بها من خلفه ، فاستمر يفرى ويخلق (٢) ، واخذ يجمع ويفرق ، له في كل ناحية ميدان وعلى كل رابية خوان (٣) ، حربه سم لا يبطئ وسهم لا يخطئ ، سلمه شر غير مأمون ومتاع الى ادنى حين) (٤) .

أما الحادثة التي استفظعها المؤرخون كثيرا — وحق لهم ذلك — فهي حادثة حديقة الرؤوس ، فقد وضع على باب قصره (حديقة لاتثمر الا رؤوسا ولا تنبت الا رئيسا ومرؤوسا ، فكان نظره اليها أشهى مقترحاته ، وفي التلفت اليها استعمل جل بكره وروحاته) (٥) .

---

(١) : الطّلى : الاعناق . ومفردها الطّل بالضم العنق .

انظر ، الفيروزآبادى : القاموس المحيط ، أربعة أجزاء ، ج ٤ ، ص ٨ .

(٢) : (هذا مثل معناه ينفذ ما يعزم عليه ، وهو من قول زهير " ابن ابى سلمى " :

ولا انت تفرى ما خلقت وبعـ ض القوم يخلق ثم لا يفرى)

انظر ، ابن بسام ، المصدر السابق ، القسم الثاني — المجلد الاول ، ج ٢ ، ص ١٥ .

(٣) : خوان (ككتاب ما يؤكل عليه الطعام) .

انظر ، الفيروزابادى : القاموس المحيط ، ج ٤ ، ص ٢٢٢ .

(٤) : المصدر السابق ، القسم الثاني — المجلد الاول ، ص ١٥ .

(٥) : المقرى : المصدر السابق ، المجلد ٥ ، ص ٢٧٣ — ٢٧٤ .

واضافة الى هذا الولاء الغريب فقد كان يحتفظ بخزانة أودع جوفها في قصره رؤوس اعدائه المناوئين له الذين استطاع قتلهم في صراعه معهم، وهم محمد بن عبدالله البرزالي ، وابن خزرون ، وابن نوح ، وابن ابي قرة وغيرهم — وسوف نعرض لظروف مقتل هؤلاء بالتفصيل بعد ان شاء الله عنه. وقد اضاف هذه الرؤوس الى رأس الخليفة يحيى بن علي الذي قتل في عهد ابيه القاضي . فقد استشعر لذة عظيمة عندما جمع رؤوس هؤلاء وأودعها تلك الخزانة في قصره (فخص رؤوسهم بالصون وبالغ في تطييبها وتنظيفها للثواء لا للكرامة ، وأودعها المصادن الحافظة لها . فبقيت عنده ثاوية تجيب سائلها اعتبارا) .(١)

وكان اذا ما أعوزته القسوة والبطش يستعين بالحيلة والخداع في تنفيذ مآربه وأهدافه ، وقد أورد عبدالواحد المراكشي قصتين تدلان على شديد دهائه وذكائه.(٢)

واذا كانت القصة الاولى ليست جديدة في عالم التصفية والاغتيال.(٣) فان القصة الاخرى تمت على صورة تحوي الجدّة والطرافة معا . فلقد أراد أن يبعث برسالة مهمة جدا لأحد جواسيسه في مدينة قرمونة . ولما كان يخاف أن تقع في يد أعدائه ، رأى أن يبعثها مع رجل بدوي من بادية اشبيلية. فدس الرسالة داخل ثوب وخاط عليه ، ثم كساه البدوي وأمره أن يذهب الى قرمونة وزوده بكومة من الحطب ، أكد عليه أن يبيعها لمن يشتريها منه بخمس دراهم فقط . وكان قد نسق ذلك مع تابع له في قرمونة . وعندما

---

(١) : ابن عذاري : المصدر السابق والجزء ، ص٢٠٥ — ٢٠٦ .

(٢) : المصدر السابق ، ص١٥٣ ، وص١٥٤ — ١٥٦ .

(٣) : هذه القصة تدور حول رجل من اهل اشبيلية فرّ الى مكة المكرمة بعدما صادر المعتضد أمواله . وظل هناك يدعو عليه . وحين بلغه ذلك أرسل له مع رجل أراد الحج نقودا مسمومه . وبالرغم من أن الرجل توجس خيفة من ذلك فقد تسلم النقود . وما لبث أن سرى السم في جسمه فمات . وتخلص من مناوئ آخر له كذلك بنفس الطريقة ، فعمل على قتله حتى تمكن من ذلك وحمل رأسه اليه من مكان منفاه . انظر ، المعجب ، ص١٥٣ .

جاء البدوى الى قرمونة ليبيع حطبه ، جاءه عين ابن عباد فاشترى منه حزمة الحطب بنفس المبلغ المتفق عليه . ثم أخذ البدوى الى منزله وهناك أشار عليه بخلع ثيابه للتهيؤ للنوم ، وعندما حصل عنده الثوب أخرج رسالة ابن عباد ووضع مكانها ردّه عليها بنفس الطريقة السابقة . وعند الصباح غادر البدوى قرمونة متجها الى اشبيلية . وقصد المعتضد من فوره وأبلغه ما حدث . فأمره بخلع ثيابه فأخرج منها الكتاب وعلم ما فيه، ثم خلع على البدوى ثيابا حسنة وصرفه بعد أن أوهمه بأن ذلك الخلع هو تكريما له . ويعلق عبد الواحد المراكشي على ذلك بقوله (وخرج من عنده فرحا يرى أنه قد خلع عليه ، ولم يعلم فيم ذهب ولا بما جاء.)(١)

على أنه حظى بكثير من الاشادة والثناء والاعجاب ،
فينقل ابن بسام عن ابن حيان وصفه له بالشهم صاحب الهمم العليةوالسطوة الابية(٢). وفي موضع آخر يشيد ابن حيان بسياسته فيقول فيما ينقله عنه ابن بسام ايضا(٣) (واتخذ الرجال الذادّة تنقاهم من كل فرقة ، فساس طبقاتهم ما بين ادرار الأعطية وضمان الزيادة على صدق الصّيال . والوفاء بالوعيد على النكول عن العدو . سياسة أعيت على أنداده من أملاك الاندلس ، فخرج منها رجالا مساعير حروب أباد بهم أقتاله(٤).)

ويعود ابن حيان فيما ينقله ابن بسام فيشيد بسياسته ويقول(٥) (ومن نادر أخباره المتناهية فى الغرابة أن نال بغيته وأهلك تلك الامم العاتية وأنه لغائب عن مشاهدتها مترفه عن مكابدتها مدبّر فوق أريكته ، منفذ لحيلها من جوف قصره ، ما مشى الى عدو أو مغلوب من

---

(١) : نفس المصدر ، ص ١٥٤ _ ١٥٦ .

(٢) : المصدر السابق ، القسم الثانى _ المجلد الاول ، ص ١٦ .

(٣) : نفس المصدر السابق والقسم والمجلد ، ص ١٧ .

(٤) : اقتاله ، جمع قتل بالكسر . وهو العدو المقاتل .
انظر ، الفيروزابادى : القاموس المحيط ، ج ٤ ، ص ٣٦ .

(٥) : المصدر السابق ، القسم الثانى _ المجلد الاول ، ص ١٧

من أقتاله غير مرة أو اثنتين ، ثم لزم عريسته (١) ، يدبر داخلها اموره . جرد نهاره للابرام والتدبير واخلص ليله لتملى السرور ، فلا يزال تدار عليه كؤوس الراح ويحيها عليها بقبض الارواح التى لأنابيبها (٢) من اعدائه) .

وينقل ابن بسام عن ابن حيان ايضا مزيدا من اعجابه به فيصفه ببساطة البنان أو البنيان ، وثقوب الذهن ، وحضور الخاطر (٣) . ولا يمل ابن حيان كما ينقل عنه ابن بسام كذلك من الاشادة والاعجاب بالمعتضد اذ يعود فيقول (فجمع هذه الخلال الظاهرة والباطنة الى جود كف باريها السحاب) (٤) .

وابن بسام على تحامله عليه لا ينكر عليه دهائه وذكائه فيقول عنه (ثار والناس حرب وكل شيء عليه الب فكفى اقرانه وهم غير واحد وضبط شأنهم بين قائم وقاعد حتى طالت يده واتسع بلده ، وكثر عديده وعدده) .

---

(١) : (العريسة : مأوى الأسد) .
انظر ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثاني ـ المجلد الاول ، ج ٤ ، ص ١٧

(٢) : هكذا وردت فى الذخيرة غير أن الاصح هو مانقله ابن عذارى فى كتابه المذكور سابقا ج ٣ ، ص ٢٠٥ : وهى كالاتى : ويحيا عليها بقبض الارواح التى لا تناسيه "كذا !!" من اعدائه .

(٣) : نفس المصدر السابق والقسم والمجلد ، ص ١٩ .

(٤) : نفس المصدر والقسم والمجلد ، ص ١٥ .

وينقل ابن عذارى عن ابن القطان (١) صاحب كتاب نظم الجمان ما يتضمن الاشادة به والثناء عليه (٢). وكذلك فعل الحميدى (٣) ، وعلى نفس النهج سار الضبى (٤). ومدحه ايضا الفتح ابن خاقان باسلوبه المتكلف المسجوع (٥).

وأخيرا نقول مع عبد الواحد المراكشى (وجملة أمر هذا الرجل أنه كان اوحد عصره شهامة وصراحة وشجاعة قلب وجدّة نفس. وكانوا يشبهونه بأبى جعفر المنصور من ملوك بنى العباس ، وكان قد استوى فى مخافته ومهابته القريب والبعيد.) (٦)

---

(١) : ابن القطان : هو ابو على او ابو محمد كما فى بعض الروايات الحسن أو الحسين بن على بن محمد بن عبد الملك بن يحيى الكتامى . ويعتبر ابوه من أكبر دعاة الموحدين وابرز رجال دولتهم. وقد اتصل ابن القطان الابن ببلاط الخليفة الموحدى المرتضى وعاش فى كنفه وألف له كتاب نظم الجمان الذى يعتبر من أهم المراجع التاريخية للمغرب والاندلس وان كان يعتبر تاريخا بلاطيا توجه فيه كثيرا الى الاشادة بالدولة الموحدية بالمغرب والاندلس . وعنوان هذا الكتاب بالكامل على الارجح هو : نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان على اختلاف فى الشطر الثانى من العنوان . وهذا الكتاب موسوعة ضخمة فى تاريخ المغرب والاندلس وقد استفاد منه كثير من مؤرخى المغرب والاندلس كابن عذارى وابن الخطيب وغيرهما . فقد تناول المؤلف فى هذا الكتاب كما يظن ، المغرب من الفتح حتى عصره اى فى اواخر ايام الدولة الموحدية فى الثلث الاخير من القرن السابع الهجرى . وقد نشر ليفى بروفنسال جزءا من هذا الكتاب وهى ست قطع منه فى مقال له (ست قطع مخطوطة من تاريخ مجهول لظهور الدولة الموحدية .) كما نشرت منه اجزاء ضمن نقول ابن عذارى عنه فى كتابه البيان المغرب . ثم عكف محمود على مكى على تحقيق الجزء السادس من هذه الموسوعة الضخمة التى تمكن معهد الدراسات الاسلامية بمدريد من الحصول عليها . وقد نشر هذا الجزء بتحقيقه وتولت نشره كلية الآداب والعلوم الانسانية ، جامعة محمد الخامس ، الرباط. للاطلاع على مزيد من المعلومات الوافرة عن الكتاب ومؤلفه أنظر :
ابن القطان : نظم الجمان ، تحقيق محمود على مكى ، المقدمة وبقية =

ويتراءى لنا بعد هذا كله أن قسوة المعتضد وشدته وطباعه السيئة التي وصفه بها المؤرخون لم تكن تنم عن طبع وسجية غريزية بقدر ما هي طباع مقصودة ومصطنعة ألزم بها نفسه وأخذها على فعل ذلك حتى يصل الى غاياته وأهدافه • فالانسان يميل طبعا وسجية الى الخير ولكنه قد يجنح الى الشر لارضاء نزوات او تحقيق اهداف شخصية • ويبدو أن هذا هو بعض واقع المعتضد بالله • وبالاضافة الى هذا يجب الا ننسى مدى تأثير روح العصر وخاصة في عصر ملوك الطوائف الذي تفككت فيه وحدة الاندلس وتعدّد فيه الملوك الذين كانوا يتنافسون ويتبارون في توسيع رقعة ممالكهم على حساب الممالك المجاورة • فروح العصر آنذاك كانت نادرا ما تلتزم بخلق أو مبادئ •

ولقد قضى المعتضد الفترة من توليه الحكم حتى وفاته وهو في صراعات سياسية وعسكرية ونفسية مضطربة • وكان بحق مالئ دنيا الاندلس وشاغل الناس فضلا عن الحكام • فمعظم أحداث الاندلس الاسلامية ارتبطت بشخصه قليلا أو كثيرا باعتبار أن مملكته أقوى ممالك الطوائف في ذلك الوقت وأبرزها وأفسحها مساحة وثراءا • ولذا فقد غدا المعتضد هاجسا مخيفا مرعبا لامراء الاندلس حتى لمن كان يدانيه همة وشجاعة واقداما وحكمة •

ـــ ١ الكتاب •

(٢) : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٨٤ ــ ٢٨٥ •

(٣) : المصدر السابق ، ص ٢٩٦ •

(٤) : بغية الملتمس ، ص ٣٩٥ ــ ٣٩٦ •

(٥) : مطمح الانفس ومسرح التأنس ، ص ١١ •

(٦) : المصدر السابق ، ص ١٥١ ــ ١٥٢ •

الموقف السياسي غداة تولى المعتضد السلطة

لم يكن هناك تغيير كبير في الموقف السياسي لممالك الطوائف غداة تولى المعتضد السلطة . فالقوى السياسية التى كانت موجودة فى عهد والده القاضي لم تتغير كثيرا . فمملكة قرطبة وبطليوس وسرقسطة وطليطلة وغرناطة وألمرية ومرسية وبلنسية ودانية والامارات الاخرى الصغيرة ، كانت كلها لاتزال تحت سيطرة من استبد بها ابان الفتنة او من خلفهم من المنتزين . أو كانت تقع تحت يدى أبنائهم الذين تولوا السلطة فى عهد القاضي محمد بن اسماعيل .

والتغيير الوحيد فى ميزان القوى هو ماصار اليه أمر الحموديين ، فعندما قتل يحيى بن علي عام ٤٢٧ هـ كما ذكرنا خلفه أخوه ادريس بن علي بن حمود . واستمر يحكم دولة الحموديين فى مالقة والجزيرة الخضراء ، وبايعه البربر فى ذلك الوقت حتى توفى عام ٤٣١هـ/١٠٤٠م .

وبوفاة ادريس بن علي نشب الانشقاق والصراع العائلى بين الحموديين . وفقدت دولتهم فى مالقة والجزيرة الخضراء وما حولهما وحدتها السياسية . واستمر النزاع بين أبناء ادريس ويحيى ابنى علي بن حمود طويلا . وتقلب على عرش الخلافة فى مالقة غير واحد منهم . والغريب فى الامر أن كل واحد من ابناء العمم هؤلاء ما أن كان يخلع حتى ينتقل الى موضع آخر من أحواز مالقة ويدعو لنفسه به(١) . أما الجزيرة الخضراء فقد وقعت بعد خطوب كثيرة تحت سلطة محمد بن القاسم بن حمود الذى دعا لنفسه هناك وتلقب بالمعتصم(٢) وعندما تولى المعتضد السلطة كانت هيبة الخلافة (الحمودية) ووقارها قد مرغت فى التراب ، فكان الوضع أشبه بالفضيحة كما يقول ابن حزم منه بنظام حكم شرعي . ويصف ابن حزم الامر فيقول (فضيحة لم يقع فى العالم الى يومنا مثلها أربعة رجال فى

---

(١) : عن بنى حمود فى مالقة انظر قبل ، التمهيد ص ٦١

(٢) : عن هذا الانشقاق العائلى انظر :
رجب عبد الحليم : الرسالة السابقة ، ص ٧٧ ــ ١٠٠ .

مسافة ثلاثة أيام في مثلها ، كلهم يتسمى بامرة أمير المؤمنين ، ويخطب لهم بها في زمن واحد وهم : خلف الحصرى باشبيلية على أنه هشام ابن الحكم ، ومحمد ابن القاسم بن حمود بالجزيرة ، ومحمد بن ادريس بن على بن حمود بمالقة ، وادريس بن يحيى بن على بن حمود ببشتر.(١)

وفي عام ٤٣٥ هـ / ١٠٤٤ م انقسمت الاندلس الى معسكرين ، معسكر ينادى بهشام المزعوم باشبيلية ، ويضم العرب وبعضا من البربر كاسحاق بن محمد بن عبد الله البرزالى وأبى نور بن أبى قرة صاحب رنده وتاكرنا . ومعسكر يضم البربر بزعامة باديس بن حبوس . وينادى بمحمد بن القاسم بن حمود على الارجح . وكان كل معسكر من هذين المعسكرين يناصب الاخر العداء والبغضاء . وبعد ذلك التاريخ بعام أى عام ٤٣٦ هـ اعترف المأمون بن ذى النون بدعوة هشام بعد أن استنكرها أبوه نكاية بسليمان بن هود صاحب سرقسطة مقابل مساعدة المعتضد له .(٢)

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

أما الموقف السياسى فى ممالك النصارى فى اسبانيا النصرانية فى الشمال ، فلم يكن بأحسن حالا من الممالك الاسلامية . فكما مر بنا سابقا استطاع سانشو غارسيا الثالث الملقب بالكبير والعظيم الذى حكم من عام ١٠٠٠ حتى عام ١٠٣٥ م أن يوحد ممالك النصارى تحت امرته . ولم يبق خارجا عن هذه المملكة التى تضم نبرة وأرغونة وقشتاله وليون وجليقية سوى امارة قطالونية (برشلونة) فى الشمال الشرقى من اسبانيا فقط .

على أنه ما أن طواه الموت حتى نشبت الخلافات بين أبنائه الاربعة ، وطحنت الخلافات العائلية ممالك النصارى ومزقت وحدتها . وذلك لأن سانشو العظيم هذا فرّق مملكته على أولاده الاربعة ، فعهد الى ابنه

---

(١) : نقط العروس فى تواريخ الخلفاء _ فصلة من مجلة كلية الآداب _ جامعة القاهرة ، المجلد الثالث عشر ، الجزء الثانى ، ص ٨٣ _ ٨٤ .

(٢) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٧٨ _ ٢٧٩ .

الأكبر فرناند و الأول ، فرديناند Fernando I أو فردلند. كما يعرف فى المصادر الاسلامية ايضا حكم قشتاله • واستطاع هو فى عام ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م أن يستولى على مملكة جليقية وليون بعد مقتل برمودو الثالث آخر ملوك القوط من نسل بلاجيوس وتروس • وأعطى ابنه الثانى غارسيا Garcia نبره • وأعطى ابنه الثالث راميرو الأول Ramiro I أرغونة • وأعطى ابنه الرابع جنزالو أو كنزالو ولاية سوبرابى وريا جرسيلا فى أواسط جبال البرتات •

وقد وقع الخلاف والشقاق بين الاخوة • واستمر حتى استطاع فرناندو السيطرة على ممالك اخوته • على أنه تنازل بعد ذلك عن مملكتى نبره وأرغونة لابني أخويه غارسيا وراميرو • وعادت الى اسبانيا النصرانية فى عهده بعض وحدتها (١) •

على أن المهم هنا هو أنه فى غداة تولى المعتضد السلطة كانت الشخصية القوية المؤثرة فى ممالك النصارى هو فرديناند الأول ملك قشتاله وجليقية وليون وغيرها • فهو الذى خاض مع المسلمين بدءا من العام الذى انتهى فيه بسحق الفتن الداخلية حرب الاسترداد الاسبانية المنظمة •

---

(١) : عن هذه الاحداث السياسية فى الممالك النصرانية أنظر :
- J.B. BURY, M.A., Op. Cit., P394 - 395
- Jan Read : The Moors in Spain and Portugal, London, 1974. P 101 - 102.
- محمد عبدالله عنان : دول الطوائف ، ص ٣٧٦ ـ ٣٨٢ •
- ابن الكردبوس : الاكتفاء فى اخبار الخلفاء ، ص ٦٩ ـ ٧١ مع الحواشى •

التوسع العسكري على حساب الامارات العربية الغربية المجاورة

لم يهنأ المعتضد براحة بال مذ ساقت اليه الاقدار الحكم بعد وفاة أبيه القاضي ، ففضلا عن الموقف السياسي في الاندلس كلها فان ما يتميز به من حدة نفس وجرأة وشجاعة واقدام اضافة الى شرخ صبا متأجج جعله لا يرضى أن يستبد بالامور في دولته وزير أبيه حبيب المذكور سابقا (١) . ومملكة بني عباد من ممالك الطوائف القلائل التي لم يتمتع بها وزير أو حاجب بسلطان حقيقي وصيت ومجد ذائعين . فكان بنو عباد يستبدون بالامر وحدهم ، وكان وزراؤهم وزراء تنفيذ وليسوا وزراء تفويض (٢) كما حدث في بعض الممالك الاخرى . وسنفتقد من الان فطالما أي ذكر لوزير من وزرائه ، وكلما يمر بنا اسم وزير من الوزراء في عهدي المعتضد وابنه المعتمد فهو لا يزيد عن كونه مستشارا في البلاط العبادي أو شخصا يعهد اليه فقط بمهام محدودة .

تخلص المعتضد من وزيره حبيب ، ثم تخلص من آخر نفوذ لزميلي أبيه في المجلس الرئاسي . فاضطهدهما وصادر أموالهما وتفرغ لتحقيق مشروعه الضخم . وكان في الحقيقة مشروعا ضخما يتوجب السير اليه بحذر شديد ، فالاندلس كانت تتنازعها كما ذكرنا دائما ثلاث قوى رئيسية هي العرب والبربر ثم الصقالبة . وكل قوى من هذه القوى كانت تناصب الاخرى العداء . وقد تملي الضرورة على مملكة أن تتحالف مع مملكة اخرى ضد مملكة ثالثة حتى وان كانت من غير عصبتها العنصرية . وكان الباعث في ذلك كله هو المصلحة الشخصية في المقام الاول ، والمعتضد كان يشعر بأن مملكته لا تحظى بالحب والمودة من ممالك الطوائف الاخرى . فالكل كان يخشى من مملكة بني عباد ومن خطورة رفعها شعار الدعوة للدخول في طاعة الخليفة هشام المزعوم ، حتى ولو كان ذلك اسميا . غير أن المعتضد ما كان بالذي يقنع بالسلطة الاسمية ابدا ، فرأى أن يوجّه اهتمامه للممالك العربية الصغيرة الواقعة الى الغرب من اشبيلية وان يكون توسيع مملكته على حسابها هي السياسة التي يتعين عليه اتباعها الان وقبل اي شيئ اخر ، حتى اذا ما تم ذلك وشعر بالقوة والثبات ، وجّه همّه الى الامارات البربرية الاخرى ليصفي معها الحساب .

---

(١) : انظر قبل الباب الاول ، ص ٨٧

(٢) : انظر بعد الباب الخامس ، ص ٣٥٦

ولسنا نزعم هنا بان المعتضد قد وضع لنفسه خطة دقيقة مرتبة منظمة للقضاء على الممالك العربية بالغرب • وانما نقول بانه قد وضع تصورا واضحا لنفسه فى وجوب القضاء عليها • وسنرى ان الصدف الحسنة كثيرا ماكانت تقف بجانبه •

الاستيلاء على امارة مردلة :

من هذه الامارات الصغيرة التى التهمها المعتضد امارة مردلة وسبق لنا ان راينا امير مردلة يمد يد العون والمساعدة لابن الافطس فى حربه ضد القاضى وابنه اسماعيل عندما اراد الاستيلاء على مدينة باجة • وكيف ان القاضى استطاع القبض على ابن الافطس وحليفه شقيق امير مردلة الذى قتل فيما بعد • على أن المعتضد لم يكن بحاجة الى التذرع بسبب ما لمهاجمة اى مملكة او امارة • ولذا فقد وجه جيوشه الى مهاجمة هذه الامارة وانتزاعها من يد صاحبها • وقد تم له ذلك فعلا عام ٤٣٦هـ / ١٠٤٥م • (١)

النزاع بين المعتضد وابن الافطس واستيلاء المعتضد على امارة لبلة :

نشب النزاع بين ملكى اشبيلية وبطليوس القويين حول قضية امير لبلة •

وامارة لبلة Niebla تقع الى الشمال من كورة اكشونبة (Ocsonoba) وتسمى لبلة الحمراء • وتقع ايضا الى الغرب من اشبيلية على بعد خمسين كيلو متر على الضفة الغربية للنهر الاحمر RioTinto • (٢) وقد آثرنا الحديث عنها هنا لارتباطها بالاحداث التى جرت فى هذا الوقت • وقد ثار بها فى ابان الفتنة ابو العباس احمد بن يحيى اليحصبى ثم اللبلى فى سنة اربعة عشر واربعمائة • وبايعه اهل تلك المنطقة • وعندما توفى خلفه فى الحكم على الارجح اخوه ابو عبد الله عز الدولة محمد ابن يحى اليحصبى عام ٤٣٣هـ / ١٠٤٢ وان كانت هناك رواية اخرى تقول انه ابنه وليس اخاه • وقد سما للمعتضد امل فى التغلب على لبلة • وبدأ يستعد لمهاجمتها • فسارع ابن يحى الى طلب معاونة المظفر ابن الافطس • (٣) ويبدو ان ذلك قد حدث عام ٤٣٧ هـ / ١٠٤٧م

(١) : ابن خلدون : المصدر السابق • مجلد ٤ • ص ٣٤٠ — ٣٤١ •
(٢) : ابن الابار : الحلة السيراء • ج ٢ • ح ٥ • ص ١٨٠ •
(٣) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء • ص ٢٠٩ — ٢١٠ • — ابن بسام : المصدر السابق • القسم الثانى — المجلد الاول • ص ٢٣ — ٢٤ • — مجهول : ذيل مضاف الى البيان المغرب • ص ٢٩٩ — ٣٠٠ •

او بعدها بقليل ، اذ توفى المنصور بن الافطس مؤسس دولة بنى الافطس فى ذلك العام ، وخلفه ابنه محمد بن عبد الله بن محمد بن مسلمة وتلقب بالمظفر (١) وقد لبى المظفر طلب يحيى ، غير ان المعتضد هاجم على عجل اراضى ابن الافطس نفسه فى حركة مباغتة لشغل باله عن حليفه . فضرب اراضيه واضر بها واوقع بها خسائر فادحة ، ولم تجد نداءات الرئيس ابو الوليد محمد بن جهور بن محمد الذى خلف اباه فى عام ٤٣٥هـ / ١٠٤٤م (٢)، لم تجد فتيلا نداءاته بضبط النفس مع المتحاربين (٣). ثم هاجم المعتضد مدينة لبلة بنفسه ، واشتبك مع جيش ابن الافطس . وكانت الغلبة له عليه ، غير انه هزم منه بعد ذلك فى اشتباك اخر . ولم تسفر تلك الاشتباكات عن شئ ذى قيمة (٤) .

وفى عام ٤٣٩هـ/١٠٤٨م تكون حلف من امراء البربر : باديس ابن حبوس صاحب غرناطة واسحاق بن محمد بن عبد الله البرزالى الذى خلف اباه الحاجب عام ٤٣٤هـ/١٠٤٣م. وسنتناول امارة قرمونة بالحديث بعد ان شاء الله ، ومن محمد بن نوح الدمرى صاحب امارة مورور ، وعبدون بن خزرون صاحب امارة اركش_ وسنعرض لهما بعد ايضاً _ . وبايع هؤلاء لمحمد بن القاسم بن حمود بالجزيرة الخضراء الذى تلقب بالمهدى ، وانضم اليهم المظفر بن الافطس . وكان هذا الحلف موجهاً فى المقام الاول ضد المعتضد بصفة خاصة . ويذكر بن عذارى ان هؤلاء جاءوا الى اراضى اشبيلية ، فعاثوا فى (نظر اشبيلية ، وانقطعت السبل جملة ، وكثر القتل والهرج والسلب ، وامسى الناس فى مثل عصر الجاهلية) ، ثم يضيف قائلا (ثم انصرفوا مع خليفتهم ، ولم يقض الله لهم ارباً ، فلم يكن بعد ذلك اجتماعاً ولا اتفاق) (٥) .

وفجأة حصل تحول فى موقف ابن يحيى امير لبلة . وتأكد ما سبق ان رددناه دائماً من ان ملوك الطوائف لم يكن يحكم تحالفاتهم وعداواتهم الا المصلحة الخاصة فقط . وقد يكون هذا هو منطق الحياة ، ولكن ليس على حساب المبادئ بداهة ولكننا نستطيع تفهم موقف ابن يحيى عندما رجع عن تحالفه مع ابن الافطس ، اذ رأى مصلحته الخاصة تقتضى ان يتحالف مع المعتضد ، يقول ابن عذارى عنه (ثم والى

(١) : ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٨٢ _ ١٨٣ .
(٢) : خالد الصوفى : المرجع السابق ، ص ٧٢ .
(٣) : ابن بسام المصدر السابق ، القسم الثانى المجلد الاول ، ص ٢٣ _ ٢٤ .
(٤) : نفس المصدر والقسم والمجلد ، ص ٢٤ _ ٢٥
(٥) : ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ٢٢٩ _ ٢٣٠ .

ابن يحيى المعتضد بعد ذلك لضرورة دعته)(١) ، ولا نحتاج الى كبير جهد لمعرفة هذه الضرورة . فالمعتضد الداهية كان اذا ما اعوزته القوة والبطش كما ذكرنا ، استعان بالمكر والخداع والدهاء ، فأقنع ابن يحيى بخطورة وضعه مع البربر . ويكفى ان يحذره من مغبة انتصار البربر حتى يجعله يترك حليفه ابن الافطس وبقية حلفائه البربر .

وهذا ما حدث بالضبط ، وبدهى ان يكون رد فعل المظفر بن الافطس عنيفا لهذا التنكر والتقلب . فكان ان وضع يده بادى ذى بدء على ما كان قد تركه عنده ابن يحيى من اموال . ولا نعرف متى تم ذلك التحول بالضبط ، غير ان المناوشات بين العدوين اللدودين المعتضد والمظفر كانت تدور رحاها بينهما آنذاك . فقد اشتد ضغط المعتضد عليه عام ٤٤٢ هـ / ١٠٥١ م فهاجم مملكته واراضيه وأوقع بها خسائر فادحة . ولم يستطع المظفر ان يفعل شيئا . ويفهم من سياق هذه الرواية أنه فقد زهرة فرسانه فى تلك الاشتباكات(٢). ورغم ان هذه الاشتباكات قد الحقت الكثير من الخسائر بالمظفر وانهكت قواه الا انه ابى ان يظهر بمظهر الضعيف او المهتم بما حدث . فبعث وهو فى عز محنته الى قرطبة رسولا (فورد قرطبة اثر هذه الوقائع عليه يلتمس شراء وصائف ملهيات يأنس بهن ، نافيا بذلك الشماتة عن نفسه ، ولم تكن له عادة بمثلها)(٣). واثار طلبه وهو الاديب البليغ الرصين(٤) اعجاب ودهشة المؤرخين ، وعزوا ذلك الى كبر نفس المظفر وقوة شكيمته(٥) .

---

(١) : المصدر السابق والجزء ، ص ٢١٠ ـ ٢١٢ (نقلا عن ابن حيان) .

(٢) : نفس المصدر السابق والجزء والصفحات .

(٣) : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثانى ـ المجلد الاول ، ص ٢٦

(٤) : كان المظفر بن الافطس اديبا مؤرخا عالما شاعرا لم يصرفه الحكم عن الاهتمام بالعلم والشعر والادب . ويكفى ان نشير الى عظم منزلته الادبيه انه الف كتاب (المظفرى) . وهو كتاب تاريخى جديد ، حلاه ووشاه كما يقول ابن عذارى (بالطرف المستملحة ، والنكت البديعة ، والغرائب الملوكية ، واللغات الغريبة . ويقع فى نحو ٥٠ مجلدا ، فتصرف يه تصرفا بديعا ، ولكبره لم يتمكن كل الناس من اكتسابه ، فانه لا يصلح الا للخزائن الملوكية .
انظر : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧ . ـ مصطفى الشكعه الادب الاندلسى ـ موضوعاته وفنونه ـ ص ٢ ، ص ١٠٣ .

(٥) : ابن بسام : نفس المصدر السابق ، القسم الثانى ـ المجلد الاول ، ص ٢٦ .

على ان الخلاف ما لبث ان نشب مرة اخرى بين الخصمين ،

فقد جهز المعتضد جيشاً بقيادة ابنه اسماعيل ووزيره الجديد ابن سلام ، وخرج هذا الجيش الى مدينة يابرة (١) . وجهز ابن الافطس جيشاً بقيادة ابنه وقيادة حليفه اسحاق بن محمد بن عبد الله البرزالي ،والتقى الفريقان عند يابرة . وقد انتهت هذه المعركة بهزيمة شنيعة لابن الافطس قتل فيها من جيشه حوالى ثلاثة آلاف ، وقتل ابن حليفه العز بن اسحاق ،وحز رأسه وحمل مع رأس لابن عم المظفر الى اشبيلية . وقد استطاع الرئيس ابن جهور أخيراً ان يصلح بين الخصمين اللدودين فى اوائل عام ٤٤٣هـ/١٠٥١م وما كاد المعتضد يعقد هذا الصلح مع المظفر حتى انقلب على حليفه ابن يحيى ،وأخذ يضايقه ويبدو أن ابن يحيى رأى ان من الصعب طلب مساعدة المظفر الذى سيرفض ذلك حتماً ،نكاية فيه وجزاءاً على خيانته له . وبدأ المعتضد يضيق الخناق على ابن يحيى فى لبلة واخيراً رأى ان لا مناص من مغادرة لبلة والتوجه الى قرطبة لاجئاً لدى ابن جهور ويجب ان نلاحظ هنا ان بنى جهور كانوا دائماً ملاذا للامراء المطرودين والمنفيين عن اماراتهم . وكان موقفاً طريفاً عندما شارك المعتضد بفرقة من جيشه لتشييع ابن يحيى الى قرطبة (٢). وعندما خرج ابن يحيى عن لبلة تولى حكمها من بعده ناصر الدولة ابى نصر فتح بن خلف بن محمد اليحصبى . وقد رأى هذا ان يكتفى شر المعتضد بدفع جزية سنوية له ، وان يعترف له بالسيادة الاسمية . ووافق المعتضد مؤقتاً ، ولكن ما كان هذا ليرضيه او يقنعه . فحاصره فيها وضيق عليه . وعاث فى اراضيه فساداً . ولم يعدم ابن يحيى روح الانفة والعزة فبادل المعتضد بغارات شديدة الى ان ضاق به الحال وعجز عن مقاومة المعتضد ، فخرج عنها والتجأ الى قرطبة ايضاً عام ٤٤٥هـ/١٠٥٣م، وسلم المدينة للمعتضد (٣).

الاستيلاء على امارة ولبة وشلطيش :ـ

تقع ولبة او انبة ، وشلطيش فى كورة اكشونبة Ocsonoba وكانت تشمل الركن الجنوبى الغربى من شبه الجزيرة مما يلى كورة اشبيلية غرباً .

---

(١) : (يابرة Evora بلدة فى جنوب البرتغال الحالية ،وهى عاصمة مديرية الميتيجو Almetejo على ١١٧ كيلو متراً بالسكة الحديدية من الاشبونة .
انظر ابن الابار : الحلة السيراء ، ج ٢ ،ح ٣ ، ص٩٧

(٢) : ابن بسام الصدر السابق ، القسم الاول ـ المجلد الاول ، ص ٣٦٢ . والقسم الثانى ـ المجلد الاول ، ص٢٦ .

(٣) : مجهول : الذيل المضاف الى البيان المغرب ، ص ٣٠١

وولبة Huelva وشلطيش Saltes داخلتان اليوم في زمام مديرية ولبة الحالية.(١) وهي من الامارات التي آثرنا الحديث عنها ايضا حتى حينه ، وقد استبد بها أحد وجهائها وهو محمد بن أيوب بن عمر ابان الفتنة ، ثم لما توفي خلفه على الارجح أبو زيد عبدالعزيز على عكس ما جاء في رواية ابن الابار (٢).

ولقد غدا سقوط لبلة في يد المعتضد هاجسا يخيف أمراء الامارات العربية الغربية . اذ أخذت كل واحدة منها تشعر بالخطر الحقيقي على كيانها وتحاول جاهدة التقرب من المعتضد والتودد اليه . وكان هذا حال أمير ولبة وشلطيش عبدالعزيز البكري ، فعندما رأى لبله تسقط في يد المعتضد بادر اليه يهنئه بما تهيأ له ، وذكّر المعتضد بما كان يجمع بين جديّهما من مودة وألفة . ثم اعترف له بالسيادة بل وتخلى له عن مدينة ولبه طائعا مختارا مقابل أن يبقيه على حكم جزيرة شلطيش ، ووافق المعتضد مبتهجا ، ولكن لأمد محدود فقط (٣).

أما البكري فقد توجه الى شلطيش وبقي فيها هناك ، وما عتم أن ضايقه المعتضد في عام ٤٤٣هـ / ١٠٥١م ، فنكث بعهده له وحاصره في جزيرته . ورأى البكري أن ينسحب بشرف طالما ليست له القدرة على مواجهة قوة المعتضد الكاسحة . ففاوضه على تسليمها له مقابل شروط ، فباعه سفنه بعشرة آلاف مثقال ذهب . وغادر البكري شلطيش متجها الى قرطبة لدى ابن جهور ، شأنه شأن ابن يحيى حاكم لبله السابق .

---

(١) : ابن الابار : الحلة السيراء ، ج ٢ ، ح ٤ ، ص ١٨٠ .
(٢) : روى ابن الابار نقلا عن غير ابن حيان — ولم يسمه — أن أبا زيد هو محمد بن ايوب ، وأنه والد عبدالعزيز ، غير أن رواية ابن حيان تبدو أصدق وأوضح . فأبو زيد هو عبدالعزيز وليس محمدا ، ومما يذكر أن أبا زيد هذا هو والد أبي عبيد البكري الجغرافي المشهور ، وصاحب كتاب المسالك والممالك .
أنظر ، الحلة السيراء ، ج ٢ ، ص ١٨٠ ، وص ١٨٣ — ١٨٥ .
(٣) : ابن عذاري : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٤٢ — ٢٤٣ .

رواية أخرى الى أشبيلية على أنها ضعيفة (١) . وأراد المعتضد مع هذا أن يقبض عليه وعلى أمواله ، وهو فى طريقه الى قرطبة . غير أن البكرى فطن الى ذلك ، فقدم على صاحب قرمونة محمد بن عبدالله البرزالى . والواقع أن هذه الرواية فيها خلط كبير ، فان محمد بن عبدالله كان قد قتل عام ٤٣٤هـ/ ١٠٤٣ م كما سنعرف بعد قليل . ويبدو أن ذلك قد حدث فى عهد ابنه اسحاق . وقد ساعده البرزالى بالفعل فى التوجه الى قرطبة سالما بأمواله ، ونجا من حبائل المعتضد (٢) .

الاستيلاء على امارة شنتمرية الغرب ((شنتبرية)) :-

قامت هذه الامارة فى منطقة شنتبرية ، وهى بالاسبانية وهى عبارة عن بلدة حصينة تقع فى شمال غرب قونقة وجنوبى شرقى مدينة وادى الحجارة بالقرب من منابع نهر التاجة . وهى قاعدة كورة شنتبرية فى التقسيم الادارى الاندلسى الواقعة بين منطقة قونقة واقليش حتى شرقى طليطلة . وتعرف بشنتمرية الغرب تمييزا لها عن شنتمرية الشرق أو شنتمرية بنى رزين ، أو سهلة بنى رزين . وتعرف شنتبرية اليوم بمدينة فارو فى البرتغال الحالية (٣) .

وهذه الامارة أيضا من الامارات الصغيرة التى استبد بحكمها ابان الفتنة أحد رؤسائها وهو سعيد بن هارون الذى تولى أمرها حتى عام ٤٣٣ هـ أو عام ٤٣٤ هـ/ ١٠٤٣ م على اختلاف بين المؤرخين . ثم توفى وخلفه ابنه محمد بن سعيد بن هارون وتلقب بالمعتصم (٤) .

---

(١) : ابن الابار : الحلة السيراء ، ج ٢ ، ص ١٨١ - ١٨٣ .

(٢) : ابن الابار : نفس المصدر والجزء ، ص ١٨٣ - ١٨٥ .

(٣) : محمد عبدالله عنان : دول الطوائف ، ص ٤٣ ، و ح ١ ، ص ٩٤ ، وح ١ ، ص ٢٥٣ .

(٤) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢١٥ . - مجهول : الذيل المضاف الى البيان المغرب ، ص ٢٩٨ - ٢٩٩ .

ورأى المعتضد أن يواصل جهوده نحو تحقيق هدفه بسرعة بالغة مستغلا هدنته مع ابن الافطس . وكما جاء استيلاؤه على لبله وولبة وشلطيش مفاجئا وسريعا - وان كان مكلفا - جاء استيلاؤه على شنتمرية الغرب بنفس الصورة أيضا . فقد ضيق المعتضد الخناق على المعتصم وأوقع بأراضيه خسائر شديدة ، فلما (رأى أنه لا يقاومه ولا له به طاقة ، خطب سلمه على أن يخلع له نفسه ، ويخرج بمن معه الى اشبيلية فقبل منه ، فتخلى له عن البلد فى سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة) .(١)

على أن ابن عذارى يشير الى أن ذلك قد حدث عام ٤٤٩هـ / ١٠٥٧م ، وهو أمر مستبعد كما يتراءى لنا . لانه أى ابن عذارى فى تناوله لاحداث هذا العام على نظام الحوليات الذى أخذ به وبغيره لم يشر الى هذا الحادث بتاتا . وحادث بمثل هذه الاهمية لا يمكن أن يحدث فى هذه الفترة دون أن يشير اليه .

الاستيلاء على امارة شلب :-

قوام هذه الامارة هى مدينة شلب Silves (وهى قاعدة كورة أكشونبه ، وهى مدينة بقبلى مدينة باجة) . وشلب الان مدينة صغيرة فى جنوب البرتغال تابعة لمديرية " الغرب Algarve ".(٢)

رأينا فى حديثنا عن عهد القاضى ابى القاسم محمد بن اسماعيل ، الحاجب عيسى يستبد بحكمها فى ابان الفتنة . وقد استمر الحاجب عيسى يحكم شلب ونواحيها حتى توفى عام ٤٣٣هـ/١٠٤٢م ، ورأينا كيف أن ابنه محمد بن عيسى يخلفه فى حكم هذه الامارة ، وقد رأينا أيضا أنه تنازل عن مدينة باجة للقاضى ابن عباد ، واكتفى محمد بن عيسى بحكم مدينة شلب حتى توفى عام ٤٤٠هـ / ١٠٤٨م .(٣)

---

(١) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢١٥ .

(٢) : أنظر الحميرى : المصدر السابق ، ص ١٠٦ . - وكذلك ابن الابار : الحلة السيراء ، ج ٢ ، ح ٢ ، ص ١٣١ .

(٣) : مجهول : الذيل المضاف الى البيان المغرب ، ص ٢٩٨ - ٢٩٩ .

وهنا حدث تغيير في البيت الحاكم . فعندما توفي عميد الدولة محمد بن عيسى في هذا العام ، اضطربت الأمور في المدينة ، فثار بها القاضي ابو الاصبغ عيسى بن محمد بن سعيد بن جميل بن سعيد المزيني ، وذلك في عام ٤٤٠هـ / ١٠٤٨ م . فبايعه أهلها وتلقب بالمظفر، وقد ساس البلاد أحسن سياسة . ورغم أنه قد هادن المعتضد وتودد اليه، وهو يرى أن الوقت وقته والمجد مجده ، فان المعتضد لم يقنع بهذا ، بل أخذ يشن عليه الغارات . وعندما رأى المظفر ذلك ، نازل المعتضد بكل قواه وبكل عزة وكرامة حتى قتل في عام ٤٤٥ هـ / ١٠٥٣ م . وخلفه ابنه محمد وتلقب بالناصر ثم توفي بعد خمس سنوات من حكمه ، فخلفه عيسى بن محمد وتلقب بالمظفر أيضا . وفي عهده سقطت دولته نهائيا في يد المعتضد بعد ان ضايقه وشدد عليه الحصار . ثم استطاع جنوده أن يدخلوا القصر ويقبضوا على المظفر ويقتلوه . واستولى المعتضد على المدينة عام ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م .(١)

ونحن لانوافق صاحب الذيل الذي نقلنا عنه ما جرى لأمراء شلب مع المعتضد فيما يتعلق بالسنوات . فاننا نستبعد ما ذهب اليه من تحديده لتأريخ سقوط المدينة في يد المعتضد . اذ نستبعد كثيرا ان يكون السقوط النهائي لشلب قد حدث في عام ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م ، وذلك لاننا سنرى بعد قليل في استعراضنا لانشقاق اسماعيل بن المعتضد وتمرده على ابيه الذي حدث في عام ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م على الارجح أن المعتضد قد استدعى ابنه الثاني محمد – الملقب بالمعتمد فيما بعد – من شلب التي كان واليا عليها(٢) . بل أن هناك اشارة صريحة الى أن محمد بن المعتمد كان واليا على شلب في عام ٤٤٥هـ / ١٠٥٣ م(٣) . وعلى أبعد احتمال نراه نعتقد

---

(١) : مجهول : الذيل المضاف الى البيان المغرب ، ص ٢٩٦ – ٢٩٨ .

(٢) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٤٤ .

(٣) : صلاح خالص : المعتمد ابن عباد الاشبيلي ، دراسة أدبية وتاريخية ، ط ١ ، ص ٢٤ – ٢٥ .

أن ولاية شلب قد تولاها محمد بن المعتضد قبل عام ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م ، أى قبل مقتل اخيه بقليل استنادا الى تلك الاراء والروايات التى أشرنا اليها .

وهكذا صفا الجو للمعتضد ، ولم يعد هناك من يخشى بأسه ويمثل آخر من يسبب له ازعاجا ، ولم يعد أمامه الا تصفية حسابه مع امارات البربر ، وغيرها من مناوئيه .

الاستيلاء على امارة بنى حمود بالجزيرة الخضراء :-

بعد أن استطاع المعتضد القضاء على استقلال الامارات العربية الغربية وضمها الى مملكته ، لم يعد أمامه الا الامارات البربرية التى كانت تتركز فى الجزء الجنوبى من بلاد الاندلس . وهذه الامارات هى : مالقة ، والجزيرة الخضراء ، التابعتان لبنى حمود العلويين ، وامارة قرمونة ، وامارة رندة ، وتاكرونا ، وامارة مورور ، وامارة آركش ، وأخيرا مملكة غرناطة . فرأى بعد تلك السلسلة من الانتصارات التى حققها على تلك الامارات أن يولى وجهه شطر الامارة الحمودية بالجزيرة الخضراء التى كنا قد تركناها(١) تستظل بخلافة محمد بن القاسم بن حمود الذى استقر فيها وتلقب بالمعتصم . فقد رأى المعتضد ولمسرحاسته السياسية النافذة أنها اضعف الامارات البربرية شأنا ، اذ توفى الخليفة محمد بن القاسم عام ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م ، فخلفه ابنه القاسم بن محمد بن القاسم الا أنه كان ضعيف الشخصية متهالكا . فشرع المعتضد يعد المدة للانقضاض عليه . وفى هذا الصدد جاء فى البيان المغرب(٢) ما نصه (ثم مد يده بعد الى القاسم بن حمود صاحب الجزيرة الخضراء " وذلك " أنه لما وجد هذا الفتى على نباهته وجلالة عمله ، أضعف أمراء البرابر شوكة صمد له وحصره) .

---

(١) : أنظر قبل [illegible] صـ ١١٢

(٢) : ابن عذارى ، ص ٢١٣ ، وص ٢٣١ .

كما جاء فى كتاب البيان المغرب ايضا ما نصه (فبدأ ابن عباد يتطلب العلات عليه حتى كاشفه بمعاملته ، وتبدى اليه بحربه ، وأطمعه فى الجزيرة قوته على ركوب البحر بما اجتمع عنده من الاساطير ، واكتمل اليه العدة بتلك البلاد التى افتتحها (١) . فأرسل عند ذلك جيشه نحو الجزيرة الخضراء برا وبحرا ، وأخرج على الجيش وزيره عبد الله بن سلام ، فحاصرها ورحل القاسم فى سفينه مع اهل بيته الى سبته ، وكان صاحبها سراجات البرغواطى ، وقيل اسمه سقوت . فاستولى ابن عباد على الخضراء فى سنة ست وأربعين وأربعمائه) (٢) .

وهكذا سقطت امارة بنى حمود بالجزيرة ، ولم يعد بالاندلس منهم سوى الموجودين بمدينة مالقة والذين سينتهى وجودهم السياسى ايضا كما سنرى بعد (٣) . وأخيرا كان من المنظور أن نستبقى سقوط الجزيرة الخضراء الى مكانها الملائم ، وهى الفقرة المعنونة بالتوسع العسكرى على حساب امارات البربر والجنوب . بيد أن التسلسل الزمنى للأحداث اضطرنا الى أن نتعرض الى ذكر ذلك عقب سقوط الامارات العربية المذكورة . ونزعم أننا قد شاكلنا الصواب ، فامارة بنى حمود - وان كانت بربرية اللسان والعادات - فهى عربية قرشية علوية ، ولا بأس من تصنيفها فى عداد الامارات العربية أيضا .

---

(١) : المقصود بها لبله ، وولبه وشلطيش .

(٢) : ابن عذارى ، ج ٣ ، ص ٢٣١ ، - رجب عبد الحليم : الرسالة السابقة ، ص ٩٧ - ١٠٠ .

(٣) : انظر بعد ، ص ١٤٦

انشقاق اسماعيل بن المعتضد وقضاء المعتضد عليه

في عام ٤٥٠ هـ/١٠٥٨ م على الارجح حدثت جفوة بين المعتضد وابنه اسماعيل ، وأفضت أخيرا الى قتل اسماعيل على يدى أبيه . وكان مبدؤ ذلك عندما فكر المعتضد بعد سلسلة الانتصارات التى أحرزها ضد امراء الامارات العربية الغربية المجاورة ، وبعد قضائه على استقلال امارة بنى حمود بالجزيرة الخضراء . فكر فى أن يهاجم مملكة قرطبة من نقطة ضعفها الامنى أى من مدينة الزاهرة التى تطل عليها . وطلب المعتضد من ولده التهيؤ للقيام بتلك الحملة العسكرية . غير أن اسماعيل أبدى اعتراضه على هذا الهجوم ، وعلل ذلك بأن هناك حلف بربرى يربط بين مملكتى قرطبة وغرناطة . وأن أية محاولة من المعتضد للتحرش بمملكة قرطبة تعنى اعتداءا على مملكة غرناطة مما يجعلها تبادر الى مساعدة حليفتها . وهو أمر بالغ الخطورة على موقف العباديين ، ويصعّب بالتالى مهمته ويشتت قواه .

ورغم منطقية هذا المحظور السياسى والعسكرى ، فقد رفض المعتضد اعتراض أو اقتراح ابنه . ورد عليه بغلظة وقسوة ، ورماه بالجبن والخور . وطلب منه أن يسارع الى تنفيذ تلك المهمة . ونقف قليلا هنا لنستجلى خلفيات ذلك الحادث المؤلم الذى أودى بحياة اسماعيل ، وكدر صفو سعادة المعتضد الفائقة وانتشاءه الثمل بانتصاراته على امارات لبله ، وولبه وشلطيش ، وشنتمرية الغرب ، والجزيرة الخضراء . وظلل نفسه وعهده بسحابة قاتمة كما ذكرنا .

ولا نكاد نستبين خلفيات واضحة قبل خروج اسماعيل ومقتله للنفور والاستياء من قبله على أبيه الا ما نقله لنا عبدالواحد المراكشى من أنه كانت تدور على الألسن اخبار واشاعات عن اسماعيل منها ضيقه من استطالة عمر والده ، وتمنيه موته السريع ، حتى يخلص اليه الامر . وكان المعتضد يتلقى تلك الاشاعات فكان يغض الطرف عنها ويتغافل عن ابنه تغافل الوالد(١) . تلك هى خلفيات تلك الموجة من النفور والاستياء الذين ابداهما اسماعيل .

---

(١) : المصدر السابق ، ص ١٥٢ ـ ١٥٣ .

ويخيل الينا ان هناك أسباباً أدت الى تدهور العلاقات بين الاب وابنه وولى عهده وقائد جيشه فأسماعيل ربما كان يبرم من عملية الاستنفار والمرابطة فلم يكن ليستقر فى مكان او يفتح حصناً او مدينة ما حتى كانت اوامر والده بالتحرك الى مكان آخر او حصار آخر تصدر اليه فى حركة لاهثة لا يستقر له قرار ولا يهدأ له بال . ويبدو ان التعب والاجهاد قد اضنياه ، وان الاشتباكات الدائبة قد هدت ركنه . ونحن لا نستبعد ان يكون اسماعيل قد حدث نفسه وطاف بمخيلته خلوص الامر اليه واستيلاؤه على اريكة الملك . كما اننا لا نستبعد ان تكون الحاشية المحيطة به قد زينت له الخروج على ابيه وانتهاز الفرصة للاقدام على ذلك . وقد يكون اسماعيل غير راض عن تصرفات والده ، فلربما استشعر خطل وخطر سياسة والده وتهوره فى استعداء مناوئيه من العرب . فالمعتضد بقضائه على تلك الامارات العربية ، قد اجج روح الانتقام والثورة فى نفوس العرب كما الب خصومه عليه . وقد يكون اسماعيل قد استهجن انقلاب ابيه على حلفائه ورأى ان جوانب المخاطرة فى سياسة ابيه تفوق فوائدها . فهل كان البربر حلفاء ابيه حتى ذلك الوقت ليطمئنوا بعدما حدث الى تحالفاتهم معه ؟؟ .

ومع اننا لم نطلع على تفاصيل السياسة الداخلية فى المملكة فاننا لا نستبعد ان يكون اسماعيل قد استهجن ما آلت اليه الاحوال الداخلية فى البلاد . فالمعتضد . كحاكم مستبد باطش لم يسمح بسماع اصوات معارضيه ، فقد كمم افواههم وبطش بهم . وقد يكون للوحشة بينه وبين ابيه اسباباً عائلية بحته لا نعرف كنهها .

وايا ما كان الامر فقد بدات نفس اسماعيل تتغير على ابيه ، فحصلت الجفوة بينهما وجاءت مسألة الهجوم على مملكة قرطبة كالقشة التى قصمت ظهر البعير فلا منطق الاحداث ولا العقلانية يسمحان للمعتضد تنفيذ اغراضة بسبب هذه المحاذير التى ذكرناها

وعندما اغلظ عليه ابوه بالقول واستجبن فكرته وخوره رأى اسماعيل ان لا تلاقى بينهما البتة . فبدأ يجهز الجيش للخروج الى قرطبة ، وكان من جملة رجال اسماعيل رجلا يدعى عبد الله البزليانى . وهو احد العرب الهاربين القادمين من مالقة بعد سقوطها فى يدى باديس بن حبوس ملك غرناطة ، ثم اتصل سببه ببلاط المعتضد ومال الى مصاحبة ولى العهد وقائد الجيش والاخلاص له . وكان البزليانى رجلا ذا اثرة ومطامع واهداف بعيدة . وكانت اقصى امنياته ان يصبح حاجباً (١) ، وقد رأى فى الفتور والجفوة بين المعتضد وابنه اسماعيل فرصته الذهبية لتحقيق مطامعه .

---

(١) : دوزى : ملوك الطوائف ، ص ١٤٢

خرج اسماعيل بجيشه وخاصته وعلى رأسهم البزلياني الى قرطبة .

ونسمح لانفسنا ان ننقل من كتاب ملوك الطوائف شرح ذلك . فقد رجع اسماعيل بعد يومين من خروجه الى اشبيلية مع خاصته البالغ عددهم ثلاثون فارساً تاركاً الجيش هناك مدعياً ان اوامر عاجلة جاءته من ابيه . فجاء على عجل الى قصر ابيه ، واستولى على ما قدر عليه من مال وكنوز ثم اخذ والدته واهله وخرج من اشبيلية في الوقت الذي كان والده يقبع في قصره على الضفة الاخرى لنهر الوادي الكبير . ولما تسرب الخبر الى المعتضد امر بغلق المنافذ والحدود والحصون امام ابنه . غير ان اسماعيل استطاع ان يصل الى قلعة القائد ابي ايوب والتمس من صاحبها الدخول ، ووافق صاحبها ان ينزل اسماعيل في حمايته شريطة ان يظل عند سفح الجبل الذي تطل عليه القلعة . ثم ادخله القلعة بعد ذلك وعامله معاملة تليق به وبعث لابيه يخبره بنزول ابنه عليه ، وطلب منه ان يصفح عنه ووافق المعتضد على ذلك ، وارسل الى صاحب القلعة يخبره انه قد عفى عن ابنه وصفح عنه وطلب من ابنه ان يعود الى اشبيلية ، فعاد اليها فعلا .[1]

وكان اول شيء فعله المعتضد هو قتله البزلياني ومن معه ، ثم جرد ابنه من كافة مناصبه ولكن دون ان يقطع عنه رزقاً او اعطيات ، واكتفى بتاديبه بالاعراض والهجران . وشعر اسماعيل بأن اباه قد استدرجه الى شرك منصوب ، ولذا فقد بدأ يجمع من حوله الانصار والمؤيدين له للتخلص من ابيه . ولم يجد وسيلة الى ذلك الا باغتياله ، واعد الخطة لذلك فعلا . وكانت هذه الخطة تقتضي ان يتسلق مع اصحابه قصر ابيه ويطرقوه ليلا ويهجموا من هناك على المعتضد ويقتالوه في فراشه .

بيد ان الامور جاءت بغير ما يشتهي اسماعيل . فلم يرع هو واصحابه الا ووالده واقفاً شاهراً سيفه ، فأذهلتهم المفاجأة ففروا من بين يديه وتطايحوا خائفين خائبين . الا انه قبض عليهم جميعاً . وفجر هذا العمل غضب المعتضد واججه ، فأمر بقتل رجال ابنه ، ونكل بهم وقتل ابنه اسماعيل بيده من شدة الغيظ ، واستصفى امواله[2]

---

(١) : دوزي ، ص ١٤٣ - ١٤٥ .

(٢) : ابن عذاري : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٤٧ - ٢٤٨ .

وقد انتاب المعتضد اثر ذلك حزن شديد ، وأسى مؤلم انعكس على نفسيته (١) . وينقل لنا ابن عذارى عن ابن بسام صورة لهذه الحالة وذلك من خلال الكتاب الذى بعثه المعتضد الى رؤساء الاندلس يشرح فيه ما حدث بالتفصيل . ويطلب منهم أن يعتبروا من ذلك (٢) .

وهكذا فقد ضحى المعتضد بابنه وولى عهده ، عندما أدرك أن ملكه مهدد ، وأن ابنه يتآمر عليه ، حتى يظفر بالملك من بعده كما وقر فى ذهنه (٣) .

---

(١) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥ ، (نقلا عن ابن بسام) .

(٢) : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ٢٤٥ ـ ٢٤٨ .

(٣) : والواقع أن هناك أمثلة عديدة فى التاريخ ، جعلت الأب لا يتردد أبدا فى أن يضحى بابنه اذا ما تآمر عليه وعلى عرشه ، ومن هذه الامثلة احمد بن طولون حاكم مصر عندما قتل ابنه العباس ، والمنصور بن ابى عامر الذى قتل ابنه عبدالله الذى حامت حوله الشكوك الى آخر ذلك .

توقف المعتضد عن الدعوة لهشام المؤيد الاموى المزعوم

تركنا الخليفة هشام المزعوم يحتلى اريكة الخلافة التى نصبه عليها (١) القاضى ابو القاسم محمد بن عباد فى اواخر عام ٤٢٦هـ او ٤٢٧ هـ/ ١٠٣٥م كما ذكرنا وقد ندر سماعنا لاخباره وانبائه ، او بمعنى ادق المتاجرة باسمه فيما عدا نتفا من الاخبار هنا وهناك

كانت مسألة اظهار الدعوة الهشامية ومن ثم قبولها عرضة للمتاجرة السياسية • فمعظم امراء وملوك الطوائف يعلم ان ذلك اختلاق وانه محض هراء وافتراء ومع هذا فنجد كثيراً من امراء الطوائف يعترف بتلك الدعوة للوصول الى غايته • والا فأى منطق يستجيز ويستسيغ الوثوق بأخبار موتاته المتكررة والغامضة ؟؟• حتى وفاته اخيرا على يدى المعتضد كانت غامضة ايضاً • ذلك ان المعتضد اعلن فى عام ٤٥١هـ/ ١٠٥٩م وفاة الخليفة هشام المؤيد ، وقطع بذلك الدعوة له • (٢) ونعجب لاننا لا نجد تفسيرا لهذا التوقيت ، فقد جاء خالياً من اى مضمون سياسى او عسكرى • صحيح ان المعتضد استطاع ان يثبت دعائم ملكه وان يوطد سلطانه سواء اكان ذلك على الصعيد الداخلى او الخارجى كما انه استطاع ان يرهب مناوئيه • ذلك كله صحيح ،ولكن الامر الذى قامت الدعوة من اجله لم يزل ولم ينتف وجوده بعد ،ونعنى به الوجود الحمودى • فمازالت هناك خلافة حمودية فى مالقة ،ولازال هناك من يدعو لها ويعترف بها ،كمملكة غرناطة وامارات قرمونة ورندة ومورور واركش ،وهى ممالك وامارات بربرية ترفع تلك الدعوة نكاية بالعرب بصفة خاصة •

ويخيل الينا بأن تصرف المعتضد ذلك كان خاطئاً • فهو لم يتخلص بعد من نفوذ بنى حمود البربر حتى يقطع تلك الدعوة التى قامت من اجل ارباك الحموديين وسحب البساط من تحت ارجلهم • فقطع تلك الدعوة فى ذلك الوقت سيضر بموقفه لا سيما وهو حامل لواءها ومتبنيها • ونحن لا نؤيد ما ذهب اليه على ادهم (٣) من ان المعتضد بعد ما شعر بأن ملكه قد اتسع ، وثبت له الامر فى كثير من الامارات التى فتحها ، رأى ان لا حاجة به الى الخليفة هشام الدعى • فاعلن وفاته • لا نرى ذلك للاسباب التى ذكرناها •

واذا اخذنا نقيم هذه المسألة فأننا نجد ان تاثيرها كان ضئيلا • ففيما عدا الهزة او الخضة التى احدثتها هذه الدعوة وما ترتب عليها من ارباك وخلط للاوراق لدى ملوك الطوائف عامة وبنى حمود خاصة وذلك فى عهد القاضى محمد • فأننا لم نلمس لها اى تأثير على الساحة السياسية فى عهد المعتضد فيما عدا ما حدث فى عام ٤٣٥هـ/١٠٤٣م

---

(١) : انظر قبل الباب الاول ، ص ٩١

(٢) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٤٩ •

(٣) : انظر المرجع السابق ،ص ٧٤

من انقسام سياسي لممالك الطوائف أدى الى وجود فريقين من ملوك الطوائف . فريق يدعو لهشام المؤيد المنصوب في اشبيلية ، وفريق آخر وعلى رأسه البربر يدعو لمحمد بن القاسم بن حمود العلوى كما ذكرنا سابقا (١) . وفيما عدا اعتراف يحيى بن ذى النون عام ٤٣٦هـ/١٠٤٤م بالدعوة لهشام نكاية بعدوه ابن هود صاحب سرقسطة (٢) .

ومع ضآلة هذا التأثير فان بقاء الدعوة لهشام كام أمرا مهما لبنى عباد ، يكسب تصرفاتهم الشرعية ويضفى عليها واقعا روحيا . فهى ان لم تلحق بهم الاذى والضرر فانها بالتأكيد قد نفعتهم وافادتهم .

ومن هنا نقول بأن قطع هذه الدعوة في ذلك الوقت الذى لم يصف فيه المعتضد حسابه مع أمراء البربر حاملي لواء الدعوة الحمودية ، كان خطأ سياسيا يدل على قصر نظر سياسي أو تعجلا لسير الأحداث .

ومهما يكن من أمر فقد أعلن المعتضد للملأ وفاة خليفتهم . وصرح بأنه قد توفى أثر علة أصيب بها . ولكنه ولمصلحة البلاد والمسلمين العليا لم يصرح وقتها بذلك . فان الظروف السياسية وقتها لم تكن ملائمة أو مناسبة للتصريح بذلك . والان بعد أن استتبت له الأمور ، وهدأت الاحوال رأى أن يعلن ذلك (٣) ، وبالفعل فقد (اتصلت الانباء بالاندلس بصموت منابره في جميع أعماله عن ذكر امامه هشام بن الحكم صاحب الرجعة (٤) الذى اتصل الدعاء له على منابره من عهد قيام والده الى آخر هذه السنة وهى سنة احدى وخمسين (٥)) وقد احتفى المعتضد بدفن جثة خليفته هشام احتفاءا مهيبا شارك فيه بنفسه ومشى راجلا في جنازته ، وخلع طيلسانه ومشى معه في تشييع الجنازة أرباب الدولة ورجالاتها وقد أرسل الى ملوك الطوائف وأمرائها ينعى الخليفة ، وطلب اليهم اختيار خليفة مكانه يبايعونه . فلم يفعل أو يفكر أحدا في ذلك بطبيعة الحال . ومن ثم فقد انتهز المعتضد ذلك وأعلن أن الخليفة الراحل قد عهد اليه أن يكون أميرا على الاندلس كلها من بعده (٦) .

---

(١) : انظر قبل الباب الأول ، ص ١١٣

(٢) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٢٠ ، ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩ .

(٣) : نفس المصدر والجزء ، ص ٢٤٩ .

(٤) : من الواضح أن ابن حيان كما ينقل عنه ابن بسام لا يقصد بالرجعة تلك التى يؤمن بها الشيعة عند عودة امامهم المنتظر . وانما يقصد بصاحب الرجعة الخليفة هشام الذى تكرر ظهوره ورجعاته للخلافة كما زعم .

(٥) : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثانى ، المجلد الاول ، ص ٢٧ ـ ٢٨ . (نقلا عن ابن حيان) .

(٦) : على أدهم : المرجع السابق ، ص ٤٧ ـ ٧٥ .

واذا كنا قد تعودنا من بعض المؤرخين القدامى الوقوع فى كثير من الاخطاء التاريخية الفادحة . فاننا لا يمكن أن نجد تفسيرا لأن ينساق أحد المحدثين فى نقل تلك الاخطاء دونما روية أو تثبت ، فابن خلكان يقول (ولم يزل الامر كذلك الى أن توفى المدعو هشاما ، فاستبد القاضى محمد بالأمر بعده ، وكان من اهل العلم والادب والمعرفة التامة بتدبير الدول ، ولم يزل ملكا مستقلا الى أن توفى ليلة الاحد لليلة بقيت من جمادى الاول سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة ، وقيل انه عاش الى قريب الخمسين والاربعمائة)(١) . وعبد الوهاب عزام يردد نفس ما قاله ابن خلكان من أنه عندما توفى هشام المزعوم استبد القاضى محمد بن اسماعيل بالملك(٢) .

ومن جانبنا نقول كيف يستبد القاضى محمد بن اسماعيل بالملك بعد وفاة هشام المزعوم ، وهو أى القاضى قد توفى قبل ذلك أى قبل وفاة هشام التى وقعت كما يقول المؤرخون عام ٤٥١هـ/١٠٥٩م ؟؟ . كيف يحدث هذا والقاضى قد توفى عام ٤٣٣هـ / ١٠٤١ م كما مرّ بنا سابقا وكما يقول ابن خلكان وعزام نفسهما ؟؟ . ومهما يكن فكم حجبنا تلك المقلة فى مسرحية اظهار دعوة هشام ثم وفاته التى نقلها ابن عذارى وابن بسام عن ابن حيان وغيره ، (صارت هذه الميتة لحامل هذا الاسم الميتة الثالثة ، وعساها تكون ان شاء الله الصادقة ، وكم قتل ، وكم مات ، ثم انتفض عنه التراب وقال بعضهم فيه :

ذاك الذى مات مرارا ودفن ... فانتفض الترب ومزق الكفن

فقد مات فى يد أول خالعيه وهو محمد بن هشام بن عبد الجبار ودفن علانية ، ثم نشر بيد واضح الفتى مولى محمد بن ابى عامر وملك مدة ، ثم مات مرة ثانية بيد خالعه الثانى سليمان بن حكم صاحب البرابره ودفنه خفية ثم أبرز صداه على بن حمود الحسنى المنتزى بذكره الطالب بثأره على الدولة ودفنه الدفنة التى خلناها حقيقة الى ان وقعت عليه هذه الميتة الثالثة(٣) .)

---

(١) : وفيات الاعيان ، مجلد ٥ ، ص ٢٢ ـ ٢٣ .

(٢) : المعتمد ابن عباد الملك الجواد الشجاع الشاعر المرزأ ، ط ٢ ، ص ٧ ـ ٨ .

(٣) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٤٩ (نقلا عن ابن حيان) .

وابن بسام بالذات ينقل عن ابن حيان كلاما هزليا مؤلما مفاده :
(فما نقول ونعتقد فى الفرق بين هذه الميتات المتواليات اذا كان مائتها واحدا . وليس الا السيوف عليها أدلة . غير اخلاص الدعاء لكلمة المسلمين فى الائتلاف لما فيه الصلاح .) (١)

وهكذا انتهت هذه المهزلة المسرحية التى جنى العباديون جناها فى عهد القاضى محمد بن اسماعيل بصفة أساسية وفى عهد المعتضد بالله بدرجة ثانية .

---

(١) : المصدر السابق ، القسم الثانى ـ المجلد الاول ، ص ٢٨ .

التوسع المسكرى على حساب امارات البربر فى الجنوب

قبل أن نشرع فى الحديث عن الاحداث التى وقعت بين المعتضد وامارات البربر ثم استيلاؤه عليها بعد ئذ يحسن بنا أن نلم فى ايجاز بجغرافية ونشأة بعض تلك الامارات التى لم نقم بعد بالحديث عنها ٠

امارة رندة وتاكرنا :

(رنده فى التقسيم الادارى الاندلسى تابعة لاقليم تاكرنا وتقع كلتاهما داخل كورة استجه[1] ، وهى مدينة Arunda الذى كانت تعرف به أيام الرومان والقوط ، وتقع على حافة خانق بسمية صاحب الروض المطار : طلويره ، وهو المعروف بجبال رنده Serrania de Ronda وتحت البلد يوجد الخانق المسمى باسم التاجه (el Tajo) عمقه ١٦٠ مترا ، يجرى فيه نهر وادى اللبن Guadalevin الذى يتصل بعد ذلك بوادى آره Guadairo ، ورنده مشهورة فى التاريخ الاندلسى جدا فعلى مقربة منها تقع ببشتر Bobastro بين قمم جبال رنده ، وهى اليوم تابعة لمديرية مالقة (الاسبانية) ٠

أما تاكرنا فمنطقة جبلية هى التى تسمى اليوم باسم جبال رنده ، ولفظ تاكرنا ، بربرى يوجد فى نواحى كبيرة من المغرب وفى صور مختلفة بعض الشيء أشهرها تكرونة فى تونس)[2]

وهذه الامارة كانت فى حوزة بنى يفرن الذين كانوا يعيشون فى المغرب وعندما قتل أميرهم على يد الخليفة الفاطمى المنصور ابن القائم بن عبيد الله بن المهدى ، لحق بنو يفرن بالاندلس واتصلوا هناك بخدمة المنصور بن ابى عامر ٠ وعندما قامت الفتنة استبدوا بأراضى رية وتاكرنا وقاعدتها رنده[3] ، وقد استقل بها ابو نور هلال بن أبى

---

(١) : انظر قبل الباب الاول ، ص ٨٢

(٢) : ابن الابار : الحلة السيراء ، ج ٢ ، ح ٣ ، ص ٢٤١ ــ ٢٤٢ ٠

(٣) : مجهول : نبذ تاريخية جامعة فى أخبار البربر فى القرون الوسطى ، ص ٤٥ ٠

قرة اليفرني أحد زعماء قبيلة بني يفرن تلك بهذه الاراضي وأسس بها امارة مستقلة . ويصعب علينا الاخذ بما جاء في رواية صاحب الذيل المضاف الى البيان المغرب من أن ذلك قد حدث في عام ست وأربعمائة (١) ، لانه قد قال بأنه بويع لأبي نور في تلك السنة التي توفي فيها ادريس ابن علي بن حموية وهي سنة ٤٠٦ هـ / ١٠١٥ م وهو أمر مرفوض ، فادريس توفي عام [illegible] هـ / ١٠٣٩ م كما نعلم (٢) .

وأيا ما كان الأمر فقد استبد بها هذا الثائر وأسس لنفسه ولقبيلته امارة مستقلة سقطت أخيرا على يد المعتضد .

امارة مورور :

في التقسيم الاداري الاندلسي كانت مورور كورة قاعدتها تحمل نفس الاسم ، وكانت تقع جنوبي الوادي الكبير بين كورتي قرطبة وتاكرنا ، وتقع بلدة مورور على سفح جبل يحمل نفس الاسم Sierra de Moron ولهذا فقد اشتهرت بحصانتها وهي اليوم مركز اداري في مدينة اشبيلية (الاسبانية) وتسمى : Moron (٣) . وقد استقل بها ابان الفتنة أحد رؤساء البربر من قبيلة زناتة من بني دمر احدى فخوذها . وقد قدم نوح بن ابي زيد الدمري الى الاندلس شأنه شأن غيره من البربر الذين قدموا في عهد المنصور ابن ابي عامر . وقد استمر يحكمها مستقلا في ابان الفتنة الى أن توفي فخلفه ابنه محمد عام ٤٣٣ هـ / ١٠٤١ م (٤) . وفي عهده غدت امارة مورور امارة كبيرة وقد اغتيل نوح بن ابي زيد في حادثة الحمام التي رتبها المعتضد ضده وضد أمراء البربر الاخرين ، وسنعرض بعد قليل لتلك الحادثة .

---

(١) : مجهول : ص ٣١٢ ـ ٣١٤ .

(٢) : ابن عذاري : المصدر السابق والجزء ، ص ١٩٢ .

(٣) : ابن الابار : الحلة السيراء ، ج ٢ ، ح ١ ، ص ٣٧١ .

(٤) : مجهول : الذيل المضاف الى البيان المغرب ، ص ٢٩٦ .

امـــارة أركـــش وشـــذونـه :

Arcos de la Frontera

اركـش هى التى تعـرف اليوم باسـم :
وهى مركـز ادارى فى مديرية قـادس (الاسـبانية) على نحـوى خمسـين كيلو مترا شـمالى شـرقى قادس (Cadiz) وقد اسـتقل بها ايضـا بنـو خـزرون من قبيلة يرنيـان الزناتيـة الذين قدمـوا شـأنهم شـأن غيرهم من ابنـاء عومتهـم الزناتيين الاخرين المذكورين قبـل • وقد اسـتقل احد رؤسـاء بنى خـزرون بكورة شذونـه ونزلوا بقاعدتهـا مدينـة قلشـانه[٢] فى مـبدأ الفتنـة ثم نـزلوا بأركـش ، وأسـس فيها محمـد بن خـزرون الخـزرى دويـلة بربريـة ، ولما توفـى عام ٤٢٠هـ/١٠٢٩م خلفـه ابنـه القائـم عماد الدولـة عبدون بن محمـد بن خـزرون ، وبايعتـه أركـش والاراضـى التابعـة لهـا كمدينـة شريـش وقلسـانه والجـزيرة[٣] • وهو الذى ذهـب اغتيـالا فى حادثـة الحمـام ايضـا •

× × × × × × × ×

وقد كانت علاقـة المعتضـد مع هـذه الامـارات الثـلاث
رنـده ، ومـورور ، وآركـش حسـنة على وجـه العمـوم • وكان المعتضد وهـو فى اشـد فـترات انشـغاله مع الامـارات العربيـة التى ذكرناهـا لا يستهين بوجود وقـوة هـذه الامـارات ، ولذا فقـد كان يتودد الى امرائهـا ويتقـرب اليهـم ويهـادنهم ويهاديهـم فى نفـس الوقـت ، كل ذلك دهـاء منه وخدعـة يستميـل بها قلوبـهم ويأمـن شـرهم • بل انه قام فى سـبيل ذلك بمغامـرة كادت أن تودى بحـياته عندمـا قام بزيـارة امارتـى رنـده ومـورور عام ٤٤٥هـ/١٠٥٣م • ومجمـل

---

(١) : ابن الابار : الحلة السيراء ، ج ٢ ، ح ٢ ، ص ٢٩٧ •

(٢) : قلشانه (بالسين والشين) كورة من كور شذونة ، وهى قريبة من مدينة شذونة (او مدينة ابن السليم كما كانت تعرف فى الجغرافية الاسلامية ايضا) •
انظر ، الحميرى : المصدر السابق ، ص ١٦٢ ـ ١٦٣ •

(٣) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٧١ ـ ٢٧٢ • ـ مجهول : الذيل المضاف الى البيان المغرب ، ص ٢٩٤ •

تلك الحادثة أنه ذهب لزيارة أمير مورور محمد بن نوح الدمرى منفردا الا من خادمين فقط • وقد فوجئ ابن نوح بهذه الزيارة ولكنه رحب بالمعتضد وأكرم وفادته • وقد استطاع المعتضد بعد هذه الزيارة الخاطفة أن يخرب ذمم بعض النافذين من وجهاء البربر وأن يستميلهم اليه • وبعد ذلك قام بزيارة مماثلة لابن أبى قره حليفه وصديقه الذى كانت تربطه واياه علاقات تحالف سياسى وصداقة شخصية دون زميليه أميرى مورور وأركش • وقد أكرم ابن أبى قرة وفادته أيضا واحتفى به كثيرا ولمس المعتضد بحسه السياسى المرهف مقدار الكم الكبير من التذمر والمقت والسخط فى صفوف عرب مدينة رنده على البربر • وعندما شعر المعتضد بشيئ من التعب والارهاق فى احدى حفلات التكريم التى أقيمت له ، رجا ابن ابى قرة أن يسمح له بأن يخلد الى الراحة • فهيأ له ابن ابى قرة الفراش • ولحسن حظ المعتضد أنه لم يستغرق بسرعة فى المنام ، مما أتاح له أن يستمع الى ما دار حوله من تآمر • فقد رأى رؤساء البربر التخلص منه بقتله وهو الصيد الثمين الذى سيق اليهم سوقا • ويبدو أنهم كادوا يقدمون على ذلك ، ولكن لحسن حظ المعتضد أيضا أن عارضهم أحد أمراء البيت الحاكم فى رنده وهو معاذ بن أبى قرة • فسفه آراءهم وعاب عليهم الغدر بضيفهم • كل هذا الهمس كان يدور والمعتضد يظهر التناوم ، وعندما لمس من القوم خضوعا لمنطق العقل والمبادئ الذين أشار بهما معاذ نهض من فراشه وأتى القوم فهبوا لاستقباله • فهش فى وجههم وبش ، وطلب أن يعطوه ورقة وقلما • فبدأ يكتب لهم أعطيات وأرزاقا وهدايا كى يقبضوها منه فى اشبيلية • ولم يشعر القوم أن المعتضد قد استمع الى كل ما دار من حديث •

وبدا كما لو أن المعتضد قد نسى الحادثة وكل ذلك خدعة منه وحتى يطمئن قلوبهم • ثم وهو فى أشد فترات انشغاله مع ابن يحيى أمير لبلة استغل حفل ختان أحد أولاده — وكانت تلك مناسبة اجتماعية تقام فيها الحفلات وتنحر فيها الذبائح — فأرسل الى أمراء رنده ، ومورور ، وأركش يدعوهم الى تلك الحفلة • ولبى هؤلاء دعوة القدر لهم ، وأتوه بكامل زينتهم وأبهتهم فى عدد كبير من فرسانهم • فأنزلهم فى أحد قصوره ، ثم دعاهم لمقابلته • وبدأ الحديث بينه وبينهم حسنا ، غير أ

مالبث أن تعكر صفو المجلس وبدأ المعتضد يقرعهم ويؤنبهم ويلومهم على تقصيرهم معه ضد أعدائه ، بل واستدعى عبيده فأذلوهم داخل مجلسه بالضرب ونتف اللحى ، ثم أمر بهم فسجنوا فى أماكن متفرقة لمدة طويلة .

على أنه ما لبث بعد ذلك أن أمر باخراجهم من سجنهم وأعاد اليهم كرامتهم وأموالهم وطيب نفوسهم ، بل أمر زيادة فى اكرامهم بأن يجهز لهم الحمام للاغتسال . وبالفعل ذهبوا الى الحمام . وفى نفس الوقت أمر المعتضد البنائين بأن يبنوا جدارا على باب الحمام ، فمات هؤلاء القوم اختناقا . ونجا من هذه الحادثة معاذ الشهم ، وكان المعتضد قد استبقاه دون غيره من امراء البربر . وقد تأثر معاذ بالمصير الذى سيق اليه اولئك الامراء ، ولكن المعتضد هون عليه الامر وطيب خاطره واستبقاه فى اشبيلية حتى وفاته . فعاش فى كنف المعتمد بعد ذلك (١).

وفى الحقيقة ان هذه الحادثة كانت تعد مغامرة وتهورا من المعتضد اكثر مما تعد سياسة وحنكة . فقد حدثت هذه الحادثة فى عام ٤٤٥هـ/١٠٥٣ م ، وكان فى تلك الفترة لم ينته بعد من نزاعه مع امير لبله . فالمغامرة باستعداء تلك الامارات الثلاث واستعداء حلفائهم الاخرين كبنى برزال فى قرمونة وباديس بن حبوس بغرناطة أمر يحمل طابع المغامرة . وسنلمس رد الفعل لدى البربر فورا .

الاستيلاء على امارة رندة :-

رأينا ابا نور هلال بن ابى قرة بن دوناس اليفرنى يتولى امارة رندة وتاكرنا ويؤسس بها امارة مستقلة . وكانت تربطه والمعتضد صداقة وطيدة وتحالف وثيق ، وعندما حدثت حادثة الحمام فى عام ٤٤٥هـ/١٠٥٣ م كما رأينا تضاربت الاخبار حوله ، فرواية تقول انه قضى مختنقا مع زميليه ابن نوح الدمرى ، وابن خزرون ، ورواية تقول ان المعتضد أطلق سراح

---

(١) : يراجع فى اخبار هذه الاحداث : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٧٠ - ٢٧١ . - ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثانى - المجلد الاول ، ص ٢٩ - ٣٠ . - على أدهم : المرجع السابق ، ص ٦٧ - ٧١ .

ابن ابى قرة لما كان يربطه واياه من أواصر الصداقة . أما أهل رندة فقد عينوا باديس بن ابى نور هلال حاكما عليهم، ويقول صاحب الذيل المضاف الى البيان المغرب انه قام اثناء توليه الامر بالكثير من المخازى وأنه كان فاسقا ماجنا ، ونسبت اليه جريمة فظيعة وهى اعتداؤه على زوجة أبيه وعمته . ولعلنا نأخذ برواية صاحب الذيل فيما يتعلق بقضية ابى نور لأننا لم نعثر على رواية أخرى تشير الى هذه الاحداث . فيذكر أن المعتضد أطلق سراح ابى نور هلال بن ابى قرة فى عام ٤٤٩هـ / ١٠٥٧ م. فسارع الى امارته وقبض على ولده باديس وضرب عنقه . على أن أبا نور هلال بن ابى قرة ما لبث أن مات فى نفس السنة . وخلفه فى الحكم ابنه الاخر ابى نصر فتوح فاستمر يحكم البلاد حكما حسنا حتى عام ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ م عندما فقد امارته. وخلاصة ذلك أن المعتضد ما عتم يحبك المؤمرات والدسائس على أبى نصر هذا حتى استطاع أحد اعوانه ويدعى ابو يعقوب (ولا نعرف أصله على وجه التحقيق وان كان يعتقد انه من العرب المتذمرين من البربر وحكمهم) أن يقوم مع جماعة من المساعدين برفع شعار الدعوة العبادية . فلم يرع ابو نصر الا والنداء بشعار المعتضد يصك الاسماع . فعظم عليه الامر ورأى أن يقتل نفسه انفة وعزة من ان يقع بيد المعتضد ورجاله . فألقى بنفسه من شرفة عالية فى قصره فوقع على صخرة فدقت عظامه وتكسرت ومات اثر ذلك.(١) واستتب الامر لابى يعقوب تابع المعتضد فى المدينة . وكان فرح المعتضد بسقوط امارة رنده عظيما حتى لقد نظم قصيدة لهج بها ، وألزم الناس باللهج بها لمدة طويلة.(٢)

الاستيلاء على امارة موروور :-

رأينا محمد بن نوح الدمرى يقضى اختناقا فى حادثة الحمام المذكورة ، وعندما بلغ الخبر الامارة بويع لابنه مناد بن محمد والملقب بعماد الدولة ، وقد توافد عليها الناس من المدن المجاورة لموروور فكثر جمعهم وساس

---

(١) : الذيل المضاف الى البيان المغرب ، ص٣١٢ ــ ٣١٤ .

(٢) : عن هذه القصيدة انظر :
ابن الابار : الحلة السيراء ، ج٢، ص٤٩ ، وج ١ من نفس الجزء، ص٥٠ ــ
صلاح خالص : محمد بن عمار الاندلسى ، ص٣٠ .

البلاد سياسة حسنة . ورأى المعتضد أنه لابد من التثنية بمورور . فبدأ بسياسته التقليدية القاضية بشن الغارات المركزة على اعدائه . فشن حملاته على اراضى ابن نوح الذى لم تكن له قناة . وكان كما يقول صاحب الذيل المذكور (شجا فى حلق المعتضد) . بيد أن المعتضد ضيق عليه وحاصره محاصرة شديدة . فاضطر ابن نوح الى التفاوض معه وعرض عليه أن يسلم اليه البلد مقابل تأمين سلامته والخروج الى اشبيلية . ووافق المعتضد مبتهجا، وغادر مناد بن محمد بن نوح امارته متوجها الى اشبيلية ، فأكرمه المعتضد واحتفى به احتفاءا بالغا .

وهكذا انضوت مورور ضمن مدن مملكة اشبيلية اخيرا . وكان ذلك فى عام ٤٥٨ هـ / ١٠٦٦ م .(١)

واذا كنا قد اعتمدنا فى شرح تفاصيل هذا السقوط على صاحب الذيل المذكور ، فاننا لانستطيع أن نوافقه فى كل مايورده . فهو يذكر أن دولة مناد بن محمد بن نوح الدمرى من يوم ولادته الى أن خلع ثلاثين عاما . فاذا كانت حادثة الحمام قد وقعت فى عام ٤٤٥هـ/ ١٠٥٣ م كما أشرنا(٢) ، واذا كان مناد قد تولى الحكم اثرها كما يذكر هو نفسه (بويع له بمورور يوم موت أبيه) فان مدة حكمه لاتزيد عن أربعة عشر عاما .

الاستيلاء على امارة قرمونة :-

كما قد تناولنا شيئا من الحديث عن امارة قرمونة من ناحية جغرافيتها وظروف تكوينها السياسى . ورأينا حاكمها الحاجب محمد بن عبدالله البرزالى يتولى امرها مذ حدثت الفتنة حتى عام ٤٣٤هـ/١٠٤٢م أى بعد وفاة القاضى محمد بن اسماعيل . وهنا تضاربت الاقوال ، فرواية تقول انه مات ميتة طبيعية فى هذا العام الذى ذكرناه ، ورواية اخرى تقول بل انه قتل(٣) . وهو ما نذهب اليه نحن . فابن عذارى فى وصفه لحديقة الرؤوس التى أشرنا اليها آنفا(٤) يقول

---

(١) : مجهول : الذيل المضاف الى البيان المغرب ، ص ٢٩٦ .
(٢) : انظر قبل ، ص ١٣٦ — ١٣٨
(٣) : من الذين يميلون الى الاخذ بتلك الرواية صاحب الذيل المضاف الى البيان المغرب ، ص٣١٢ . اما ابن عذارى فقد اخذ فى كتابه المذكور ص٢٠٦ بالرواية الاخرى ، وكذلك فعل ابن خلدون فى كتابه المذكور ايضا ، مجلد ٤ ، ص٣٤٠ ــ ٣٤١ .
(٤) : انظر قبل ، ص ١٠٧

بأنه كان من جملة تلك الرؤوس رأس محمد بن عبدالله البرزالي • وفي وصفنا لاحداث تلك الموقعة التي دارت بين المعتضد والمظفر بن الافطس أشرنا الى مقتل العز بن اسحاق بن محمد بن عبدالله البرزالي (١) ويقول ابن عذاري ايضا مشيرا الى هذا الحادث بأن رأس العز حمل الى اشبيلية ، وأضيف الى رأس جده محمد بن عبدالله البرزالي المختزن عنده (٢) •

ومع أن ابن خلدون يشير الى مقتل محمد بن عبدالله البرزالي في العام الذي ذكرناه وهو عام ٤٣٤ هـ ، الا أنه يخلط كثيرا في الاحداث والاسماء • فهو يقول في حديثه عن خلاف محمد بن عبدالله البرزالي مع المعتضد (فاتصلت الفتنة بينهم الى أن قتله ابنه اسماعيل ، خرج اليه في سرية فأغار على قرمونة ، وأكمن الكمائن ، فركب محمد البرزالي في أصحابه واستطرد له اسماعيل الى أن بلغ به الكمين ، فخرج عليه فقتلوه وذلك في سنة أربع وثلاثين) (٣) • ونحن نستبعد أن يكون اسماعيل بن المعتضد هو الذي قتل محمد بن عبدالله البرزالي ، وذلك لان المعتضد تولى السلطة في عام ٤٣٣هـ/ ١٠٤١م • وكان عمره اذ ذاك ستا وعشرين سنة كما مر بنا • ومعنى هذا أنه كان يبلغ وقت مقتل ابن البرزالي سبعة وعشرين عاما • واذا كان قد انجب اسماعيل وهو لما يتجاوز السادسة أو السابعة عشرة من عمره ، فان عمر ابنه اسماعيل وقت مقتل ابن البرزالي يكون عشرة أو احدى عشر سنه ، وهي سن لاتسمح لصاحبها بقيادة الجيوش واكمان الكمائن • واذا كان ابن خلدون يقصد اسماعيل بن القاضي محمد فان ذلك يعتبر خلطا أيضا • فاسماعيل قتل عام ٤٣١ هـ / ١٠٣٩م كما ذكرنا ، وأبوه القاضي توفي عام ٤٣٣هـ / ١٠٤١م (٤) •

---

(١) : انظر قبل ، ص ١١٩

(٢) : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٣٥ •

(٣) : المصدر السابق ، مجلد ٤ ، ص ٣٣٨ •

(٤) : انظر قبل الباب الاول ، ص ١٠١

وأيا ما كان الامر فان محمد بن عبدالله البرزالى قتل على يد المعتضد بن عباد فى عام ٤٣٤ هـ / ١٠٤٢م . وتولى حكم قرمونة بعده ابنه اسحاق بن محمد . ويقول صاحب الذيل المضاف الى البيان المغرب المذكور سابقا ، ان الذى تولى حكم قرمونة هو المستظهر عزيز بن محمد بن عبدالله البرزالى ، وان أخاه اسحاق بايع له[١] ، وابن عذارى يقول فى روايته لاحداث النزاع بين المعتضد والمظفر بن الافطس أن اسحاق هو ابن محمد بن عبدالله البرزالى[٢] ، على أنه يعود فيناقض نفسه مرة اخرى فيقول بأن الذى خلف أباه فى الحكم هو العز بن اسحاق بن محمد بن عبدالله[٣] . وفى الحقيقة انه لأمر محير فملا فكيف نستطيع تحديد من خلف محمد بن عبدالله البرزالى مع هذا التناقض فى اقوال مؤرخ واحد ؟؟ . ولكننا نميل الى اعتبار اسحاق هو ابن محمد ابن عبدالله البرزالى ، والى أن العز هو ابنه . وهو الذى قتل وأضيف رأسه الى رأس جده محمد بن عبدالله البرزالى . وذلك لانه عدا أن ابن عذارى أشار الى هذا كما ذكرنا ، فان ابن الخطيب يقول بالحرف الواحد (فكتب رئيسهم العزيز بن اسحاق بعد هلاك اسحاق)[٤] فمن المعقول أن اسحاق بعدما مات ابنه العز عين أخاه العزيز وليا لعهده ، ثم توفى اسحاق فخلفه ابنه العزيز . ويجوز أيضا انه قد حدث تحريف فى ذكر الاسماء ، فبدلا من أن يقول العزيز قال العز . ومهما يكن فقد رأى المعتضد أن يتخلص من مضايقات امارة قرمونة القريبة جدا من عاصمته . واذا كان قد تركها طيلة تلك الفترة فانه كان يخطط فى قرارة نفسه للاستيلاء عليها متى ما حانت الفرصة المناسبة .

ولذا فقد بدأ يضيق عليها اتباعا لسياسته التقليدية القائمة على انهاك قوى الخصم واحراق أراضيه والعيث فيها فسادا حتى

---

(١) : مجهول ، ص ٣١٢ .

(٢) : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٣٥ .

(٣) : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ٢٦٨ ــ ٢٦٩ ، وص ٢٨٣ .

(٤) : اعمال الاعلام ، ٢٣٧ .

يحكم قبضته على العاصمة نفسها . وطلب ابن اسحاق البرزالى مساعدة باديس بن حبوس ملك غرناطة وزعيم البربر قاطبة فى ذلك الوقت وعدو المعتضد الرئيسى . فلبى دعوته وخرج بجيشه لملاقاة جيش المعتضد بقيادة ابنه محمد - المعتمد والظافر فيما بعد - . وقد انتهى هذا اللقاء بهزيمة باديس هزيمة شنيعة وانتصار المعتضد انتصارا عظيما جعل الشاعر محمد ابن عمار الاندلسى (١) ينظم قصيدته الدالية التى يقول مطلعها :

ألا للمعالى ما تعيد وتبدى   وفى الله ماتخفيه هذا وماتبدى

وهى قصيدة مجيدة تفيض مدحا بالمعتضد وابنه ، كما تفيض بغضا وشماتة بالبربر وأمرائهم جدد فيها ابن عمار الشعور المتحكم بالعداء بين الاندلسيين والبربر (٢) . ويبدو أن جولة ثانية قد حدثت بين المعتضد وامير قرمونة ابن اسحاق البرزالى ضيق فيها المعتضد الخناق عليه كثيرا . وذلك فى عام ٤٥٩هـ/١٠٦٧م . فلما بلغ منه الغاية ولم يعد يقدر على تحمل مضايقاته وحصاره رأى أن يكتب الى يحيى بن اسماعيل بن ذى النون ملك طليطلة معتزما أن يتنازل له عن مدينة قرمونة وما حولها ، على أن يعطيه ابن ذى النون احد حصون مملكته ليخرج من جوار المعتضد ومضايقاته ويرتاح من ابن عباد . (فاتفقا على ذلك وخرج العز بن اسحاق " العزيز " عن قرمونة الى حصن المدور . وكان من جملة بلاد ابن ذى النون ، فأخلاه له ، وحصّل بقرمونة رجال ابن ذى النون .) (٣)

واذا لم يدرك الشيئ لدى المعتضد بالقوة والبطش فالدهاء كفيل به . والمعتضد فى هذا لا يحتاج الى الوسيلة . فقد قام بخدعة سياسية ذكية للغاية ازرى بها بعقلية ابن ذى النون . ولننظر الآن فى عجب لما حدث

---

(١) : الذى بدأ يتحسس طريقه نحو بلاط المعتضد والعباديين جميعا . وسنتبين بعد ئذ عظم الدور الذى لعبه فى البلاط العبادى وخاصة بلاط المعتمد .

(٢) : صلاح خالص : محمد بن عمار الاندلسى ، ص٤٠ ، و ص٤٢ - ٤٣ (نص القصيدة)

(٣) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص٢٦٨ - ٢٦٩ ، وص ٢٨٣ .

يقول ابن عذارى (ولما بلغ ذلك ابن عباد كتب الى ابن ذى النون في السر يقول له : ان قرمونة قريبة من بلدى وهى أليق بى لانها بعيدة عن بلادك فاصرفها الى وتكون يدى ويدك واحدة على مدينة قرطبة حتى تكون لك ، وكانت مدينة قرطبة امنية ابن ذى النون فأجابه ابن ذى النون فى ذلك وتوثق منه بالايمان وأخلى له قرمونة فرجعت لابن عباد فشحنها بالاطعمة وقواها بالرجال . وغدر ابن عباد بابن ذى النون ولم يف له بشيء ، فاغتاظ ابن ذى النون ووجه الى قرطبة عسكرا عظيما .) (١)

وسنتابع قصة هجوم ابن ذى النون على مملكة قرطبة فى حديثنا عن المعتمد والعلاقات بين مملكتى طليطلة وقرطبة . وما يهمنا هنا هو ماصار اليه أمر قرمونة وسقوطها لقمة مستساغة فى فم المعتضد الداهية .

الاستيلاء على امارة آركش وشذونه :-

لم يبق أمام المعتضد بعد قضائه على امارة رنده ومورور وقرمونة سوى امارة آركش . فكما أشرنا فان آركش وشذونه قد استقل بها ابان الفتنة بنى يرنيان الزناتيين . وقد ذكرنا آنذاك بأن محمد بن عدون بن خزرون الخزرى أسس فيها دويلة لاسرته وقبيلته ، وعندما توفى خلفه ابنه عدون بن محمد الذى مات مختنقا مع زميليه أميرى رندة ومورور (٢). وعندما بلغ الخبر آركش تولى حكم الامارة اخوه محمد . ولم يشأ المعتضد أن يجعل محمدا يهنأ براحة بال وهدوء خاطر ، فحاصره وضيق عليه ، بل واستحدث معه طريقة حربية للحصار وهى بناء حصن عسكرى قريب من عاصمته ووضع فيه الرجال والسلاح . وبذلك فقد وضعهم تحت رحمته . وضاق بنو خزرون ذرعا بهذا الحصار الرهيب فراسلوا باديس بن حبوس وفاوضوه على أن يخلو له آركش مقابل أعطائهم بلدا يسكنون فيه . وبالفعل حصل الاتفاق وجهز باديس جيشا ضخما لمساعدة ابن خزرون .

---

(١) : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ٢٨٣ .

(٢) : انظر قبل ، ص ١٣٨

على أن الاحداث لم تأت وفق ما يشتهي الحلفاء ،
فقد كمن المعتضد بجيشه لبني خزرون الخارجين عن المدينة على بعد عشرين ميلا عنها • فتعرض له وحصلت بين الفريقين موقعة انتهت بهزيمة جيش باديس وبني خزرون برئاسة زعيمهم محمد بن خزرون وقتل فيها قائد جيش باديس وابن خزرون ايضا (١) • (وملك ابن عباد قلعة آركش وسائر بلاد شذونة وخطب له فيها ، واتصل نظره الى اول بلاد شرق الاندلس ولم يزل أمره يعلو ودولته تزداد نموا وظهورا الى أن قطع دابر أمراء البرابره ، ولم يبق منهم سوى باديس بن حبوس •) (٢)

فشل المعتضد بالاحتفاظ بمدينة مالقة :-

كنا قد تركنا مدينة مالقة تحت خلافة بني حمود من أبناء يحيى وادريس ابني علي بن حمود ، وقلنا وقتها ان الحروب الاهلية بين ابناء العم قد طحنت البلاد وأدخلتها في دوامة من النزاع والقتال • وقد تولى حكمها قبل سقوطها في يد باديس بن حبوس ملك غرناطة محمد ابن ادريس بن يحيى بن علي بن حمود وتلقب بالمستعلي •

وكان باديس يرقب باهتمام بالغ تطور الاحداث والاوضاع في مالقة وعندما تولى الخلافة ادريس بن علي خلفا لأخيه يحيى اعترف باديس بسيادته وخلافته • وكذلك فعل مع من خلفه في الخلافة • غير أنه عندما احتدمت الخلافات والانشقاق العائلي في خلافة بني حمود بمالقة بدأ باديس يتدخل في مناوءة فريق ضد فريق اخر • وكان يرى نفسه أحق منهم بتمثيل البربر في الاندلس وانه أولى وأجدر برئاستهم •

وعندما تولى محمد بن ادريس بن يحيى الخلافة وتلقب بالمستعلي رفض البربر في العاصمة مبايعته • فقدم باديس مسرعا في عام ٤٤٩هـ/ ١٠٥٧ م ليضع حدا نهائيا لانفلات الامور بالخلافة • واستولى بسرعة

---

(١) : ابن عذاري : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٧١ - ٢٧٣ •

(٢) : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ٢٧٢ - ٢٧٣ •

على المدينة وضمها الى مملكته وغادرها أميرها طريدا . وانتهت بذلك دولة بني حمود بمالقة نهائيا [١].

ويعلل حفيد باديس عبدالله بن بلقين بن باديس بن زيرى [٢] أسباب استيلاء جده على المدينة بعدة أسباب من بينها أنه قد استولى على المدينة خوفا من أن تقع في يد غيره فيعمل على مضايقته وازعاجه ، ويقول أيضا ان باديس سارع الى بناء قلعة حصينة شحنها بالعتاد والسلاح تحسبا لأى طارئ يحدث له ولأسرته فيما لو أخرجوا من غرناطة [٣].

وبديهي أن ينظر المعتضد الى هذا الاستيلاء بعين الحسد والحسرة ، فلا يسره بطبيعة الحال أن تتزايد قوة عدوه وخصمه الرئيسي البربري لما في ذلك من خطر عليه . على أن تلاحق الاحداث وانشغاله بالحوادث الجسام التي مرت بدولته وعدم تهيؤ الظروف الملائمة من جهة أخرى لم تتح له توجيه جهوده الى مالقة والعمل على الاستيلاء عليها .

وواتته الفرصة الثمينة عندما بدأ تململ العرب فيها وتذمرهم من حكم البربر ، ومن الطبيعي أن تتجه انظارهم الى بني عصبتهم العرب واقوى ممالكهم واعظمهم ذكرا وهي مملكة بني عباد . ورغم أنهم كانوا يستفظعون أعمال المعتضد ويرهبون سطوته الا أنهم طمعوا في الاستعانة به ضد البربر [٤]. بل وراسلوه سرا بأن يبعث لهم جيشه للاستيلاء على المدينة واخراج البربر منها ، وتعهدوا بنصرته وتأييده . وبالفعل جهّز جيشا الى مالقة بقيادة ابنه محمد الذي غدا منذ مقتل أخيه اسماعيل

---

(١) : محمد عبدالله عنان : دول الطوائف ، ص١٣١ .

(٢) : عبدالله بن زيرى : التبيان ، ص٤٣ .

(٣) : نفس المصدر ، ص ٤٣ ـ ٤٤ .

(٤) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤ . ـ
ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثاني ـ المجلد الاول ، ص٣٩ .

وليا لعهد ابيه • وقد شاركه فى قيادة حملة مالقة أخاه جابر[١] •

حدث هذا فى عام ٤٥٨ هـ/١٠٥٦ م ولم يرع جيش باديس الا والجيش العبادى يحاصر المدينة • وفى الوقت نفسه ثار العرب بالبربر كما اتفقوا مع المعتضد • ولم يمض وقت قصير الا وقد استطاع الجيش العبادى بمساعدة اهل المدينة العرب أن يستولى عليها • وهكذا جاء استيلاؤه على مالقة أشبه بنزهة حربية عادية منها الى حرب حقيقية •

على أن محمدا بن المعتضد لم يستطع أن يحسم الموقف مع الحامية البربرية التى كانت موجودة هناك • صحيح انه قد استطاع ان يستولى على مالقة ، ولكن بقى عليه أن يجهز على الحامية التى اعتصمت بالقلعة وصمدت امام ضربات جيشه • ويظهر أنه قد استهان بأمرها بدلا من التحوط والحذر الذين نصحا له بهما كبار أهل مالقة ، بدلا من هذا ركن الى الانغماس فى اللذات الحسية والمعنوية ولم يقم بما يجب على أى قائد عسكرى فعله • فاذا كان لم يستطع القضاء على الحامية فى الحصن ، فانه لم يدرك مدى خطورة بقاء هذا الحصن خارجا عن سلطته ولذا فقد ترك للحامية الفرصة لتجميع قواها وطلب المعونة من باديس •

وجاء رسلهم باديس تستنهضه وتستنجد به ،فلم يخب لهم ظنا وبعث بجيشه الى مالقه واستطاع بجيشه وبمساعدة الحامية الموجودة بالحصن النيل من العباديين • وحصل السيف فى رقابهم ، ونجا محمد وجابر

---

(١) : يحمل حفيد باديس ، عبدالله بن بلقين بن باديس بن زيرى فى كتابه المذكور سابقا ، ص ٥٨ على أهل مالقه ويقول (وكان حصول ابن عباد عليها لمداخلة اهلها وميلهم اليه ، اختيارا له علينا على احسان المظفر رحمه الله " المقصود به باديس" وأنه وجدهم على أسوأ حاله • فأصلح من احوالهم كثيرا وحمل فقائها ومقرئيها على المطايا وأنزلهم على أفضل المراتب ، ما كان مشهورا عنه فى الاقطار ، اذ كانوا قبل فى حال قلة وعلى غير رتبه ، ثم كافؤه بما فعلوا) •

ومن الطبيعى جدا أن يمتدح ابن زيرى جده ويمجد صفاته الخيره ، وأن يضع الملامة على اهل مالقة ويتأسف على المعروف الذى أسداه جده لهم •

ابني المعتضد بجلديهما من موت محقق ، واعتصما بمدينة رنده في عدد قليل من الجيش (١) .

وأفاق محمد بن المعتضد من هول الفاجعة ، فكيف يشرح الامر لابيه وكيف يعرف رد فعله لفقد تلك المدينة المهمة وما حولها ؟ ؟ . وبدأ هذا الخاطر يلح عليه ويؤرقه . وبالفعل كان رد فعل أبيه عنيفا ، فقد فكر في اعتقاله وسجنه . ولكن محمدا استطاع أخيرا أن يستميل قلب ابيه عندما نظم قصيدة رائية مكونة من أكثر من أربعين بيتا ، فرفعها الى ابيه مستجديا عطفه ورضاه . ولقد تمكنت تلك القصيدة بالفعل من أن تؤثر في نفس المعتضد وتليّن قلبه على ابنه . فقد كان المعتضد كما يقول على أدهم (ممن يهزمهم الشعر) (٢) ، فدبج هذه القصيدة التي تفيض (شكوى وأسفا وحسرة وألما وهجاءا واعتذارا وفخرا ، وفيها فوق هذا وذاك فلسفة وآراء في الحياة والناس .) (٣)

ويقول مطلع هذه القصيدة (٤) :-

سكن فؤادك لاتذهب بك الفكر ماذا يعيد عليك البث والحذر

---

(١) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٧٣ - ٢٧٤ . - ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثاني - المجلد الاول ، ص ٣٩ .

(٢) : المرجع السابق ، ص ٨٤ .

(٣) : صلاح خالص : المعتمد ابن عباد الاشبيلي ، ص ٣٨ - ٣٩ .

(٤) : للاطلاع على هذه القصيدة يراجع :-

- ابن خاقان : قلائد العقيان ، ص ٢٠ - ٢١ . - ابن الابار : الحلة السيراء ، ج ٢ ، ص ٥٦ - ٥٨ . - صلاح خالص : المعتمد ابن عباد ، ص ٣٨ - ٤٦ . - رضا الحبيب السويسي : ديوان المعتمد ابن عباد ملك اشبيلية ، ط ١ ، ص ٩٩ - ١٠٤ .

نشاط حركة الاسترداد المسيحي في عهد المعتضد بالله

قبل أن نمضي سويا في تتبع نشاط حركة الاسترداد المسيحي في عهد المعتضد بالله ، يحسن بنا أن نشير الى أن حركة الاسترداد هذه قد عمت جميع ممالك الطوائف وعلى الأخص الكبرى منها • ولم تسلم من هذه الممالك أي مملكة ، حتى مملكة اشبيلية رغم أنها قد ثبتت أقدامها على حساب ممالك الطوائف المجاورة العربية والبربرية كما سبق أن رأينا ، الا أن مليكها رأى أنه لاطاقة له بالدخول في معارك حاسمة مع ممالك النصارى • ولذلك فقد اضطر أن يدفع الجزية للملك فرديناند ملك قشتاله اتقاءا لشره كما سنرى بعد قليل •

ولكي نلم بنشاط حركة الاسترداد في عهد المعتضد التي، شملت معظم ممالك الطوائف يحسن بنا أن نلقى اضواءا عن المناخين السياسي والعسكرى السائدين في ممالك الطوائف الكبيرة وفي ممالك النصارى وسياسة هؤلاء اي ملوك ممالك النصارى الحثيثة في المضي قدما في حركتهم الهادفة لاسترداد الاراضي الاسبانية شيئا فشيئا من يد المسلمين ، وهو الهدف الواضح الذى ظهر كسياسة رسمية محددة لملوك النصارى ابتداءا من عهد الملك فرديناند الاول(١)

وفي هذا المجال نحن مضطرون الى أن نعود الى التذكير بالوضع الداخلي في الممالك النصرانية فقد مرّ بنا أن الملك سانشو العظيم توفي عام ٤٢٩ هـ/ ١٠٣٥ م مخلفا أربعة أبناء قسم بينهم مملكته الواسعة التي ضمت معظم اسبانيا النصرانية ، ولم يكن يشذ عن ملكه سوى امارة برشلونة في الشمال الشرقي كما ذكرنا • وقد رايناه يعطي حكم نبره لابنه غارسيا ، ويعطي حكم قشتاله لابنه فرديناند الذى استطاع بجهوده وبفضل ظروف عائلية حتمتها الوراثة أن يضم الى أملاكه مملكة ليون وجليقية بعد أن انتزعها من يد آخر ملوك القوط الاسبان بعد عامين من وفاة أبيه سانشو العظيم ، ويعطي ابنه الثالث راميرو أرغونة ، ويعهد لابنه الرابع جنزالو (كونزالو) بحكم منطقة سوبرابي وسارجارسيا في أواسط جبال البرتات •

---

(١) : انظر : Jan Read : Op cit., p 101-102.

وبذلك تصدعت الوحدة التى حققها هو نفسه لاسبانيا النصرانية بعد جهد جهيد ، فقد نشبت بين الاخوة الاربعة المطاحنات والحروب ، وحاول كل منهم التوسع على حساب اراضى اخيه المجاورة بمساعدة حلفاء من المسلمين من الممالك الاسلامية المجاورة . وكانت الممالك الاسلامية التى تلامس حدودها حدود هذه الممالك النصرانية أو القريبة منها هى : مملكة سرقسطة فى الشمال الشرقى ، ومملكة طليطلة فى وسط البلاد ، ومملكة بطليوس فى الوسط الغربى ، واخيرا مملكة اشبيلية .

وقد اصطدمت هذه الممالك فى عهد المعتضد بالله بأبناء سانشو العظيم ، واضطر بعضها الى دفع الجزية لهم منفردين ، والى فرديناند وحده أخيرا بعد لمه شمل بنى جلدته ، واعادة بعض الوحدة لهم .

مملكة سرقسطة وعلاقتها مع النصارى :-

أشرنا فى حديثنا عن قيام ممالك الطوائف أن مملكة سرقسطة شهدت حكم أسرتين عربيتين هما بنى تجيب ، وبنى هود الجذاميين . وقد اصطدمت كل من هاتين الاسرتين بالنصارى وكانت لهما معهم مواقف وأحداث :

فقد أسس يحيى بن عبد الرحمن التجيبى فى منطقة سرقسطة أو الثغر الاعلى فى ابان سقوط الدولة الاموية لنفسه ولأسرته مملكة مستقلة تماما . وعندما توفى خلفه ابنه المنذر بن يحيى الذى لعب دورا هاما ابان ضعف الخلافة الاموية وظهور بنى حمود . فقد وقف مع بنى عصبته العرب الذين رشحوا للخلافة المرتضى المذكور سابقا ضد البربر وخليفتهم على بن حمود كما مر بنا سابقا . وقد استعان المنذر بفرقة من النصارى بقيادة راموين بوريل أمير برشلونة . ولكن تلك الاحداث انتهت بهزيمة الفريق الاندلسى على يد البربر فى عهد الخليفة القاسم بن حمود كما ذكرنا (١) .

---

(١) : انظر قبل الباب الأول ، ص ٧٤

وفي الواقع فان حركة الاسترداد لم تكن قد تبلورت في ذلك الوقت كحركة رسمية منظمة ، الا أنها كانت أمنية غالية عند ملوك النصارى لاسترجاع أراضيهم من يد المسلمين .

ومملكة سرقسطة ذات موقع استراتيجي مهم. فقد كانت تحيط بها امارة برشلونة من الشمال الشرقي ، ومملكة نبره من الشمال ، وكونتية قشتالة من الغرب . ولذا فقد كان على حاكمها أن يسير في سياسته مع هذه الممالك بسياسة حذرة واقعية . ولقد استطاع المنذر بن يحيى بالفعل أن يحقق هذا . فقد عقد مع ريمند الجليقي (رامون بوريل) أمير برشلونة ، وشانجه القشتلي (سانشو العظيم) ملك نبره محالفة ومواد عة جنى ثمارها رغم معارضة أهل سرقسطة لذلك . وقد اثبت المنذر بذلك أنه كان سياسيا محنكا حقا ، اذ أن هذه المعاهدة كانت غير الزامية له تفرض عليه تقديم أراضي أو حصون أو غير ذلك . فضلا عن أنه كان ذا نظرة واقعية ، اذ لمس أنه لن يستطيع أن يفعل شيئا اذا ما داهمته قوى النصارى ولاسيما وأن سانشو العظيم قد استطاع أن يوسع مملكته في ذلك الوقت . وغدا الشخصية الرئيسية في أسبانيا النصرانية ، ويشاركه في الزعامة رامون بوريل أمير برشلونه . ويحمد المؤرخون للمنذر سياسته هذه ويثنون عليه ، اذ حققت له حفظ أطرافه ، واستفاد أيضا هو نفسه منها . فقد اطلقت هذه المعاهدة يده في مهاجمة بعض الكونتات (القومسات) الأسبان دون أن يخشى من ملكي المملكتين النصرانيتين القويتين اللتين مر ذكرهما . وقد عمل المنذر على أن يعقد في بلاطه معاهدة بين البيتين المالكين في اسبانيا[1] ، وان كان هذا قد أغضب مواطنيه فانطلقت ألسنتهم تعيب عليه ذلك وتقدحه . ولكنهم لم يتبينوا فائدة هذه المساعي الحميدة الا عندما خيم الهدوء على المملكة . فالتفت الناس الى البنيان الداخلي يشيدون ويبنون . وقد استمرت الهدنة بين الفريقين الى أن مات منذر (وقد اعترف الناس لرأيه ، وأقروا لسياسته ، ولم يأت بعد من يسد مسده .)[2] اذ خلفه ابنه يحيى في عام ٤١٤هـ/١٠٢٣م ، فتنكب سياسة والده

---

(١) : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الاول ـ المجلد الاول ، ص ١٥٣ ـ ١٥٤ .

(٢) : نفس المصدر والقسم والمجلد والصفحات .

مع النصارى ، الا أنه قد تراجع عنها بعد أن لمس خطورة ذلك . ولم يفده عدوله عن سياسته الجديدة شيئا . فقد هاجم رامون بوريل حليف والده أراضيه ، واضطر يحيى الى أن يتنازل له عن بعض القلاع والحصون . على أن يحيى توفى بعد ست سنوات من حكمه ، فخلفه ابنه المنذر وهو الذى قتل على يد عبد الله بن حكيم كما مر بنا . غير أن اهالى سرقسطة لم يرضو به ، واخيرا استقر رأى الاهالى على استدعاء سليمان بن هود حاكم مدينة لاردة التابعة لسرقسطة ، وعهدوا اليه بحكم المملكة . وكان ذلك فى عام ٤٣١ هـ/١٠٣٩ م.(٢)

وباستيلاء سليمان على سرقسطة يبدأ عهد اسرة بنى هود الجذاميين . وفى عهده بدأت حركات الاسترداد تثقل كاهله وكاهل رفاقه من ملوك الطوائف . وأسهم هو نفسه بسبب رعونته السياسية وأهدافه الشخصية فى تلك الاحداث . وأتاح للنصارى تحقيق بعض أغراضهم . وقد خاض مع مملكة طليطلة حربا لمدة ثلاث سنوات جر فيها هو وملك طليطلة الكثير من المصائب على المسلمين ، وهو ما سنراه فى حديثنا عن علاقة مملكة طليطلة بالنصارى . وقد توفى سليمان بن هود فى عام ٤٣٨هـ/١٠٤٦م مخلفا خمسة أبناء قسم بينهم مملكته . وكان هذا خطأ سياسيا فى سلسلة اخطاء ملوك تلك العصور الوسطى . يستوى فى ذلك ملوك الطوائف المسلمين ، وملوك النصارى على فداحته وخطورته وضآلة نتائجه .

فقد قسم سليمان أعمال مملكته بين أولاده الخمسة . ونشب بين الاخوة ما كان متوقعا أن يحصل من الحروب الدامية التى يقع السكان فى هذه المناطق فى مغبتها قتلا وتخريبا وتنكيلا . وقد استطالت الحروب الأهلية

---

(١) : محمد عبدالله عنان : دول الطوائف ، ص ٢٦٨ .

(٢) : انظر قبل ، ص ٥٦

بين الاخوة وبالذات بين أحمد بن سليمان حاكم سرقسطة ، وأخيه يوسف (١) حاكم لاردة (٢).

ويحمل المؤرخون القدامى على أحمد بن سليمان الملقب بالمقتدر كثيرا - وحق لهم - ويعيبون عليه انتهازيته ووصوليته . فقد اتهم بسوء سياسته وتغليبه المصلحة الذاتية على المصلحة الدينية والقومية . ويهمنا هنا أن نتناول بالحديث الاحداث التي وقعت بين المسلمين والنصارى ، ومواقف ملوك الممالك الاسلامية منها كل فيما يخصه . فقد كان من جراء التنازع بين الشقيقين أن انضمت مدينة تطيله وهي تابعة لمملكة سرقسطة الى يوسف بن سليمان دون أخيه أحمد . وقد أوغر هذا نفس احمد على اهالي المدينة . وصدف أن داهم داهم الغلاء والمجاعة المدينة ، فعمل يوسف على أن يرسل لها من قاعدته مدينة لاردة مؤونة غذائية عاجلة . وأرسل يوسف الى ابن ريمند (غارسيا ملك نافار) يطلب منه أن يسمح للقوافل بعبور بلاده الى مدينة تطيلة مقابل مبلغ من المال . ووافق ابن ريمند على ذلك . وكان السبب في ذلك أن يوسف اضطر الى هذا اضطرارا لصعوبة مرور القوافل في اراضي أخيه للنزاع الناشب بينهما . غير أن احقاد احمد ومطامعه جعلته يتنكر حتى لابسط المبادئ الانسانية ، فراسل غارسيا يطلب منه أن يسمح له بمهاجمة القوافل والفتك بها مقابل مضاعفة المبلغ الذي كان اخوه قد عاقده عليه .

ولسنا هنا في حاجة الى التذكير بما حدث ، فهو وصمة عار في تاريخ المقتدر ونقطة سوداء في صفحته . رغم أنها حققت على المستوى المنظور ما طمع اليه من تفتيت قوى أخيه ، واستعادة هيبته ومكانته . وقد أتاح أحمد بفعله

---

(١) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٢٢ - ٢٢٣ .

(٢) : (لاردة Lerida : مدينة قديمة مرتفعة حصينة على وادي شقر Segre شرقي سرقسطة ، وفي منتصف الطريق بينها وبين برشلونة . ولاردة الآن مديرية قائمة بذاتها . أما في العصر الاسلامي فكانت القاعدة الثانية بعد سرقسطة في منطقة الثغر الأعلى .)

انظر ، ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ح ١ ، ص ٩٨ .

هـذا وبدخـوله فى مشـكلات وخـلافات مع اخوته للنصـارى التطلع الى مهاجمتهم وهم عن وحدتهم لاهـون ، وفى أهـوائهم سـادرون(١).

فقد حدث فى عام ٤٥٦ هـ/١٠٦٤ م حادثة شـنيعة ترددت أصـداؤها فى كل الاندلس الاسلامية . ولم يخـف أمرها عن اسبانية النصرانية ايضا . فقد تكون جيـش فى مقاطعة نورماند يـا الفرنسـية من الاردمانيين (النورمان) قـدر عـدده بعشـرة آلاف فارس بقيادة البيطبين(٢) (جيوم دى مونترى) قائد جيوش البابوية والدولة الرومانية المقدسـة . فقد تكون هذا الجيش بناءا على دعوة صليبية رفعها البابا اسكندر الثانى لمهاجمة المسلمين . وتحركت هذه الحمـلة من فرنسـا وعبرت الى اسبانيا النصرانية عن طريق امارة برشـلونة واتجهـوا الى مهاجمة أعمـال أول مملكة اسـلاميـة فى طريقـهم وهى مملكة سـرقسطـة فى هدف غير واضـح . ولن ندخل فى تفاصـيل

---

(١) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤ .

(٢) : البيطـبين كما يقـول ابن عذارى ، والبكرى أو البسـطين كما يقول ابن الكردبوس أو البيطـش كما يقول الحميرى من الكلمات الغامضة فى التاريخ الاندلسـى . ولقد كتب احمد مختار العبادى فى تحقيقه لكتاب ابن الكردبوس السالف الذكـر ، ح ٢ ، مادة تاريخية مهمة حول هذه الكلمة ، وحول اسم قائدها . نسمح لأنفسنا هنا أن نجتزئ نقاطا مهمة منها . فأحمد مختار العبادى يميل الى الاخذ بترجيح رأى المؤرخ الهولندى دوزى من أن البيطبين هو القائد النورماندى جيوم دى مونترى Guillaume de Montreuil الذى كان قائدا لفرسان البابا الكسندر الثانى فى رومـا Alexander II ١٠٦١ ـ ١٠٧٣م والذى قاد باسم البابا حملة عسكرية لاخضـاع ثورة مونت كاسين فى ايطاليا . وقد نفى دوزى بهذا الترجيح أن يكون قائد حمـلة برشـتر هو القائد روبرت كارسـبين Robert Crespin كما رددته بعض المصادر المسيحيـة . وقد ناقش العبادى كذلك خطأ اعتقـاد المؤرخ الاسبانى باسكوال دى جاينجـوس من أن قائد تلك الحملة هو صاحـب قشـتالة ، وأن البيطين هو تحريف لكلمـة بطـير أو البيطـر أى بيـدرو Pedro بالاسـبانية . كما ناقـش العبادى كذلك خطـأ رأى المستشـرق الفرنسـى ليفى بروفنسـال من أن المقصود بالبيطـبين هو أسـقف مدينـة ليون الاسبانية آنذاك والذى كان يسمى فى ذلك الوقت البيطـس Alvitus .

وعقـب ايـراده لكـل هذه الآراء يعقـب العبادى بقوله (أما الروايـات المسيحية الاخرى ، فهى كلهـا تشـير ألى أن هذه الحملة على بربشـتر وان كانت فرنسـية نورماند يـة فى معظمهـا ، الا أنها صليبيـة مسيحية عامـة بشـر لهـا البابا اسـكندر الثانى فى ايطاليا وفرنسـا واسـبانيا .

ماحدث وما يعنينا هنا هو التذكير بما آل اليه أمر المسلمين فى ذلك الوقت .
فقد جاء هذا الجيش الجرار الضخم ، فحاصر مدينة وشقة التابعة لمملكة سرقسطه ، غير أنه عدل عن محاصرتها بعد قليل لمناعتها . فساروا الى مدينة بربشتر . وكانت تابعة ليوسف المظفر شقيق احمد المذكور . وضرب هؤلاء الحصار على المدينة وضيقوا عليها الخناق . كل ذلك تحت سمع ونظر أحمد المقتدر بن سليمان الذى لم يحرك ساكنا ، وقد كان فى استطاعته لو شاء أن يصد هذا الجيش . كما أن اخاه يوسف لم يفعل شيئا لعدم قدرته على المواجهة ، فتركا المدينة لمصيرها .

= وكان الهدف منها هو الاسراع فى انقاذ دولتي أراجون ونافارا فى شمال اسبانيا من الخطر الاسلامى بمنطقة الثغر الاعلى ولاسيما بعد كارثة جرادوس Graus أو Grados التى قتل فيها ملك اراجون راميرو الاول سنة ١٠٦٣م . على يد المقتدر بن هود ملك سرقسطة . غير أن هذه المصادر المسيحية وان كانت قد اتفقت حول هدف هذه الحملة الا أنها قد اختلفت فيما بينها حول اسم قائدها العام ، فالبعض يرى أنه النبيل الفرنسى Elbes de Rouey ، والبعض الاخر يرى أنه الكونت بلدوين دى فلاندرز El Conde Balduino de الذى كان وصيا على فيليب الاول ملك فرنسا ، وأن قواد الفرق التى عملت تحت قيادته فى هذه الحملة هم : -

١ - جيوم دى مونتروي Guillaume de Montreuil حامل شعار البابوية الذى أرسله البابا على رأس فرقة من الفرسان الايطاليين .
٢ - سانشو راميرث Sancho Ramirez ملك أراجون الذى خلف أباه المقتول راميرو الاول .
٣ - الكونت أورخيل Conde Urgel ابن أخى ملك أراجون وقائد الجيوش القطلانية .
٤ - البارون روبرت كرسبين Robert Crespin قائد جيوش جنوب فرنسا مثل ولايتي نورماندیا واكتانيا .
٥ - جى جيوفروا Gui Geoffroi قائد جيوش بواتييه وبوردو وبقية تلك الجهات .

وسواء أكان قائد هذه الحملة الصليبية على بربشتر هو بلدوين أو خلافه ، فالذى يثير التساؤل فى هذا الصدد هو أنه اذا كان اسم بلدوين قد اشتهر فى الحروب الصليبية فى المشرق العربى وحرفه المشارقة الى بغدوين ، أفلا يجوز نفس هذا الاسم قد عرفه الاندلسيين أيضا فى المغرب العربى وحرفوه الى بيطين ؟ .)
انظر ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ح ٢ ، ص ٦٩ - ٧١

وسقطت بربشتر (١) بالفعل فى أيديهم بفضل عدة ظروف كالخيانة والجوع والعطش وانتشار الأوبئة ، ولقى أهلها مصيرا سيئا للغاية ، وأعمل فيهم هؤلاء قتلا وفتكا وتنكيلا ، وعما حدث لهذه المدينة وأهلها نورد صورة تدل على ابتعاد هؤلاء عن الانسانية . فقد أمر قائد هذا الجيش أهل المدينة بمغادرتها والخروج الى خارج أسوارها ، فتزاحم الناس على الخروج منها . وعندما خرجوا جميعا هالت كثرتهم جيوم دى مونترى وأفزعته ، وخشى أن تثور فى نفوسهم ثائرة النخوة والكرامة ، فأمر جنوده باطلاق السيف فيهم .

وأخيرا أمر رجاله بمهاجمة الدور واستلابها واستلاب أهلها .

ومن أبشع الأعمال التى بسطتها كتب المؤرخين القدامى هى حادثة انتهاك أعراض بنات ونساء المسلمين فى وحشية مقززة . يقول ابن عذارى فى روايته لاحداث هذه المدينة البائسة (وكانوا يومئذ يهتكون حريم أسراهم وبناتهم بحضرتهم ابلاغا فى نكايتهم ويعبثون فى الثيب ويفتضون البكر ، وزوج تلك وأبو هذه موثق فى الحديد ، ومن لم يرض منهم أن يفعل ذلك أعطاهن لغلمانه يعبثون فيهن . فبلغ الكفر يومئذ منهم مالا تلحقه الصفة والحول والقوة لله العظيم .) (٢)

---

(١) : بربشتر Barbastro مدينة ومركز ادارى فى مديرية وشقة (الاسبانية) تقع على نهر Cinca أحد نهيرات الابرة النابعة من جبال البرت وتقع على ستين كيلومترا فى شمالى شرقى سرقسطة .

انظر ، ابن الكردبوس ، المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٧٢ .

(٢) : عن احداث بربشتر يراجع :

- ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٢٤ - ٢٢٦ . - محمد عبدالله عنان دول الطوائف ، ص ٢٧٥ - ٢٧٩ .

- Jan Read : Op. Cit., p 103-104 -

ويروى البكرى الجغرافى المشهور عند وصفه لجغرافية بربشتر صورة مؤسية لتلك الأعمال التى ارتكبها النورمان فيقول (وكان فى عسكره[1] نحو أربعين ألف فارس ، فحصرها أربعين يوما حتى افتتحها وذلك فى سنة ست وخمسين وأربعمائة ، فقتلوا عامة رجالها وسبوا فيها من ذرارى المسلمين ونسائهم ما لا يحصى كثرة . ويذكر أنهم اختاروا من أبكار جوارى المسلمين وأهل الحسن منهن خمسة آلاف جارية وأهدوهن الى صاحب القسطنطينية ، وأصابوا فيها من الأموال والأمتعة ما يعجز عن وصفه .)[2]

وينقل ابن عذارى عن ابن حيان ما بسطه فى نقد مرير لاذع لأحداث هذه المدينة ويستشف برؤية المؤرخ النابه ما سيحدث بعدها ، فيلفت النظر الى تدارك هذا . ولكن صيحته هذه ذهبت ادراج الرياح . فيقول (وطرق الناعى بها قرطبة فى شهر رمضان ، فصك الأسماع وأطار الأفئدة ، وزلزل أرض الاندلس قاطبة ، وصار للناس شغلا تسكعوا فى التحدث به والسؤال عنه ، والتصور لحلول مثله أياما ، ولم يفارقوا ذلك عادتهم من استبعاد الوجل والاغترار بالأمل والاستناد الى أمراء الفرقة الهمّل الذين هم منهم ما بين فشل ووكل يصدونهم عن سواء السبيل ويلبسون عليهم واضح الدليل . ولم تزل آفة الناس منذ خلقوا صنفين منهم كالملح فيهم الأمراء والفقهاء ، فلما تتنافر أشكالهم بصلاحهم يصلحون وبفسادهم يردون ، فقد خص الله سبحانه هذا القرن الذى نحن فيه من اعوجاج هذين الصنفين لدينا بما لاكفاء له ولا مخلص منه فالأمراء القاسطون قد نكبوا بهم عن نهج الطريق ذيادا عن الجماعة وجريا الى الفرقة . والفقهاء أئمتهم صموت عنهم صدف عما أكده الله عليهم من التبيين لهم قد أصبحوا بين آكل من حلوائهم وخابط فى أهوائهم ، وبين مستشعر مخافتهم آخذ بالتقية فى صدقهم فما القول فى أرض فسد ملحها الذى هو المصلح لجميع أغذيتها . هل هى مشفية على بوارها واستئصالها ، ولقد طمّ العجب لهؤلاء الأمراء ان لم يكن عندهم لهذه الحادثة الشنعاء فى بربشتر الا الفزع الى حفر

---

(١) : يقصد البيطبين قائد الحملة .

(٢) : جغرافية الاندلس واوربا ، من كتاب (المسالك والممالك) ص ٩٤

الخنادق وتعلية الأسوار وسد الأركان وتوثيق البنيان كاشفين لعدوهم عن السوءة السوداء من القائهم يومئذ بأيديهم اليهم أمور قبيحات الصور ، مؤذنات الصدور ، بأعجاز تحل الغير ،

أمور لو تدبرها حكيم   اذن لنهى وسبّ بما استطاع

فدهرنا هذا قد غربل أهله أشد غربله وسفسف أخلاقهم ، وخبّث أعراقهم ، وسفه أحلامهم ، واحتوى عليهم الجهل فلبثوا في غير سبيل الرشد يعللون أنفسهم بالباطل وذلك من أدل الدلائل على فرط جهلهم ، واغترارهم بزمانهم ، وبعادهم عن طاعة خالقهم ، وغفلتهم عن سد ثغرهم ، حتى ظل عدوهم الساعي لاطفاء نورهم ، يتبجح عراص دورهم ، ويستقرى بسائط بقاعهم ، يقطع كل يوم منهم طرفا ويبيد أمه ، ومن لدينا وحوالينا صموت عن ذكرهم لهاة عن بثهم ، ما أن يسمع بمثله من مساجدنا أو محفل من محافلنا مذكر لهم أوداع لهم فضلا عن نافر اليهم أو مواس لهم حتى كأنهم ليسوا منا أو كأن فتقهم ليس بمفض الينا ، قد بخلنا عليهم بالدعاء فبؤنا بالعناء .)(١)

ولقد هزت هذه الحادثة ملوك الطوائف هزا وأيقظتهم من سباتهم ، وكان أكثر هؤلاء هلعا وخوفا أحمد بن سليمان المقتدر ، اذ رأى نذر الخطر تقترب منه وتحيطه . فسارع الى رفع نداء الجهاد في سائر بلاد المسلمين . وهب هولاء الى اجابة دعوته ، وتكون جيش كبير على وجه السرعة ، وتشكل من ممالك الطوائف الاخرى وحدها ستة آلاف من الفرسان وبعث ملك اشبيلية المعتضد بكتيبة من خمسمائة فارس(٢) . وتوجه هذا الجيش سراعا الى بربشتر التى كانت تقوم بها حامية من الاردمانيين تقدر بخمسة آلاف مقاتل. وقد أصدق هولاء ربهم النية فحاصروا بربشتر وضيقوا عليها وانتهى الامر بدخول المسلمين المدينة عنوة ، وانتصارهم انتصارا باهرا . (فاستولى المسلمون على المدينة وغسلوها من رجس الشرك وجلوها من صدأ الأفك .)(٣) وبذلك استطاع ابن هود أن يعيد الاعتبار لذاته ، وأن يسترد هيبته ومكانته المفقودة .

---

(١) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥ .

(٢) : ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ص ٦٧ ، وكذلك ح رقم ٣ ، ٤ ، ٥ من نفس الصفحة .

(٣) : ابن عذارى : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ٢٢٦ ـ ٢٢٨ .

ولم يقصر فرد يناند من جهته في مضايقة المقتدر احمد بن سليمان وابتزازه . يقول ابن عذارى (ثم ان الروم دمرهم الله استطالت أيديهم في مدة ابن هود على بلاد المسلمين بالثغر الاعلى فأخذ معهم ابن هود في اعطاء الجزية وصالحهم . فأخذ الطاغية كالذى رتبه عليه وقسمه على رعيته وعلى أهل عسكره .)(١)

وبعد ما توفى الملك فرديناند عام ٤٥٨ هـ/ ١٠٦٥ م قسم مملكته بين ابنائه الثلاثة ، فاعطى ابنه الاكبر سانشو قشتاله وحقوق الجزية على مملكة سرقسطة ، واعطى ابنه الثاني الفونسو ليون واستوريش وحقوق أخذ الجزية من مملكة طليطلة ، واعطى ابنه الثالث غارسيا جليقية والبرتغال وحق الجزية على مملكتي اشبيلية وبطليوس ، واعطى ابنته اوراكا مدينة سمورة ، واعطى ابنته الثانية البيرة مدينة تورو(٢) وقد عمل سانشو على أخذ الجزية من أحمد ابن سليمان المقتدر . ولم يجد هذا بدا من دفعها له بانتظام .

مملكة طليطلة وعلاقتها مع النصارى :-

كانت مملكة طليطلة تشكل هي وممالك سرقسطة وبطليوس واشبيلية أكبر ممالك الطوائف وأقواها في الاندلس كلها وكانت تخوض في نفس الوقت مع بعضها البعض حروبا ومطاحنات عسكرية للتوسع على حساب بعضها البعض للاستئثار بأكبر قدر من الاراضي وضمها اليها . وكان ذلك يتم كثيرا على حساب الممالك والامارات الاقل شأنا والاصغر حجما . ولم تكتف مملكة من هذه الممالك للوصول الى غاياتها بالتحالف مع مملكة اخرى ضد الثالثة فحسب ، بل وجهت انظارها للاستعانة بالنصارى ، واصبح شيئا مألوفا أن يمتضد كل فريق من المسلمين بفريق من النصارى ضد مناوئيه من اخصامه والنصارى المتحالفين معه . ورغم أن ممالك النصارى كانت تعاني

---

(١) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩ .

(٢) : انظر :
- J. B. Bury, op. cit., p 396
- Jan Read, op. cit., p 101 - 102

ـ محمد عبدالله عنان : دول الطوائف ، ص ٣٨٩ .

فى ذلك الوقت من الحروب الاهلية بين ابناء سانشو العظيم ، الا أنها كانت تسارع الى تقديم مساعداتها العسكرية اذا ما طلبت منها ذلك احدى ممالك الطوائف لانهاك قوى المسلمين من جهة ، ولابتزازهم والاستيلاء على ما بأيديهم من اموال وأراضى من جهة أخرى • ولم يتوقف هولاء النصارى عن العمل ضد المسلمين منفردين كل لحسابه الخاص ، غزاة مرات ، وطالبى جزية مرات أخرى • وبات غير مستغرب أن نجد فرد يناند ابن سانشو يقف مع فريق من المسلمين ضد فريق آخر يقف معه اخوه غارسيا • وكلاهما تحصّل على ثمن باهظ لتقديم نصرته •

وكان ذلك الخرق الذى فتح فى الكرامة الاسلامية الذى حدث ابان سقوط الدولة الاموية وقت أن استعان خلفاء الدولة الاموية الضعاف بالنصارى وهو ما أشرنا اليه سابقا وأوضحنا مدى خطورته وفداحة ثمنه • هذا الخرق ازداد اتساعا وشيوعا فى عهد ملوك الطوائف هؤلاء • اقتداءا لا يحمل الا سوء السياسة ووهن الايمان والخلق • حتى لقد بات ذلك الاذلال المتمثل بالاستعانة بالنصارى ، المحور الذى دارت عليه العلاقة بين المسلمين والنصارى طيلة فترة وجودهم فى الاندلس وحتى خروجهم النهائى فى عهدى فرد يناند وايزابيلا •

أشرنا فى حديثنا عن قيام ممالك الطوائف الى أن اسماعيل بن ذى النون استطاع أن يؤسس لنفسه ولأسرته ملكا مستقلا فى طليطلة وذواتها • وعندما توفى خلفه ابنه يحيى بن اسماعيل وتلقب بالمأمون وقد بلغت طليطلة فى عهده عصرها الزاهى ، الا أنه كان على علاقة سيئة مع جاريه سليمان بن هود ملك سرقسطة والمعتضد بن عباد ملك اشبيلية ، وكذلك مع مملكة بطليوس • ولكن الخلاف الأشد وقعا والأكثر عداءا كان مع جاره من الشمال الشرقى ابن هود • وكان الخلاف على الحدود بينهما أبرز مثار النزاع المسلح ، بل هو لبّه • فقد كان النزاع على الحدود والمناطق التى تمتد بين سرقسطة وطليطلة ، والمحصورة بين قلعة أيوب حتى مدينة وادى الحجارة (١) تمثل نقطة الاحتكاك بينهما •

---

(١) : (وادى الحجارة Guadalajara فى شمال شرق مدريد ، وكانت تعرف أيضا بمدينة الفرج •)
أنظر ، ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٧٢ •

وكانت مدينة وادى الحجارة بالذات ترنو ببصرها الى الانضواء تحت سيادة بنى هود ، رغم كونها تتبع جغرافيا لمملكة طليطلة[١] .

ومن هنا نشب النزاع المسلح بين يحيى بن اسماعيل بن ذى النون وبين سليمان بن هود . وهو النزاع الذى آثرنا التحدث عنه كما أشرنا سابقا هنا . وقد دارت رحى حرب قوية بينهما ، وبدأ المأمون نكاية بسليمان ابن هود بطلب المعونة العسكرية من فرد يناند ، على أن يقر له بالسيادة ويتعهد بدفع جزية سنوية له . ووافق فرد يناند على دعمه وتأييده ، فأرسل كتيبة من جيشه للاعتداء على أراضى ابن هود المتاخمة لأراضى قشتاله . ولم يعدم المأمون من جهته أى وسيلة لانهاك قوى عدوه اللدود ، فبعد أن استعدى النصارى عليه ، هاجم أراضى سليمان بن هود لانهاك قواه وتشتيتها[٢] . وفى نفس الوقت سعى الى محالفة المعتضد بن عباد والاعتراف بدعوة خليفته هشام المزعوم نكاية أيضا فى عدوه اللدود[٣] .

ولم يجد ابن هود هو الآخر بدا من أن يستعين بالنصارى ضد عدوه فطلب العون ... وممن ؟؟ من فرد يناند نفسه ، ووافق هذا على دعمه وتأييده ضد ابن ذى النون حليفه أى حليف فرد يناند الى وقت قريب . وقد رسخ هذا العمل المقولة القائلة بأنه ليس هناك فى السياسة عداوة دائمة ، ولا صداقة دائمة بين الدول ، بل هناك مصالح دائمة[٤] .

فكان أن أغار فرد يناند على أراضى ابن ذى النون ، وأثار هذا بطبيعة الحال غضب المأمون فطلب من غارسيا ملك نبره وشقيق فرد يناند المعونة ، فتفضل هذا وهاجم أراضى ابن هود . واستطاع أن يضع يده على مدينة قلهره[٥] فى عام ٤٣٧ هـ / ١٠٤٥ م . غير أن غارسيا بدلا من

---

(١) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨ .
(٢) : نفس المصدر السابق والجزء والصفحات .
(٣) : نفس المصدر السابق والجزء أيضا ، ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩ .
(٤) : مقولة مشهورة للسياسى البريطانى المشهور دزرائيلى .
(٥) : (قلهره Calahorra هى الآن مركز ادارى فى ولاية لكروى وتقع فى منتصف الطريق بين هذه المدينة الاخيرة وبين مدينة تطيلة Tudela فى شمال غرب سرقسطة .)
انظر ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ح ٦ ، ص ٧٤ .

أن يسلمها الى المأمون ، احتفظ بها لنفسه (١) .

وهكذا فقد لجأ كل واحد منهما الى طلب معونة النصارى ضد بعضهما البعض . وقد لج سليمان فى عتوه وظلمه ، فهاجم بمساعدة أعوانه من النصارى مدينة سالم (٢) التابعة لمملكة طليطلة ، وهاجم الاراضى التابعة لها . وقد أضرت هذه الغارات الوحشية بأراضى ومزارع أهل طليطلة وألحقت بهم الخسائر . وقد تمنى اهل طليطلة على فرديناند أن يكف عن اعماله ويشفق بهم كما سألوه الصلح والمهادنة . بيد أنه اشترط عليهم شروطا تعجيزية جعلت الاهالى يرفضونها ، وقالوا لرسله انه لو كانت لديهم الاموال التى طلبها لكانوا قد بعثوا الى البربر من وراء العدوة يستمدون عونه . فكان رد فرديناند ردا قاسيا واقعيا ، يحمل طابع السياسة التى حددها لاسترجاع مايقدر عليه من أراضى اسبانيا . فقد جاء فى رده عليهم (وأما استدعاؤكم البرابرة فأمر تكثرون به علينا وتتهددون به ، ولاتقدرون عليه مع عداوتهم لكم ونحن قد صمدنا اليكم ما نبالى من أتانا منكم . فانما نطلب بلادنا التى غلبتمونا عليها قديما فى أول أمركم ، وقد سكنتموها ما قضى لكم . وقد نصرنا الآن عليكم برداءتكم فارحلوا الى عدوتكم واتركوا لنا بلادنا فلاخير لكم فى سكناكم معنا بعد اليوم . ولن نرجع عنكم أو يحكم الله بيننا وبينكم .) (٣)

---

(١) : محمد عبدالله عنان : دول الطوائف ، ص ٩٩ .

(٢) : مدينة سالم Medinaceli تقع فى شمال مدريد بنحو ١٥٠ كم فى الطريق الذى بين مدريد وسرقسطة ، وهى الآن من أعمال مقاطعة سورية Soria . وقد كانت مدينة قديمة عرفت فى العصر الرومانى باسم Ocilis . وقد عمرها ابان الفتح الاسلامى لاسبانيا زعيم مغربى يعرف بسالم بن ورعال المصمودى . وقد عرفت منذ ذلك التاريخ باسمه . وقد خربت المدينة كما يعتقد فى عهد الامير عبدالله بن محمد الاموى ، غير أن الخليفة عبدالرحمن الناصر أعاد تمصيرها فى عام ٣٣٥ هـ .
انظر ، ابن الكردبوس ، المصدر السابق ، ح ١ ، ص ٦٠ .

(٣) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٨٠ ـ ٢٨١ .

وما لبث المأمون أن عاد وحليفه غارسيا يهاجمان أراضي ابن هود ويعيثان فيها . وقد شغلت هذه الحروب المدمرة بأعصاب نفوس المسلمين في المملكتين ردحا من الزمن ناهز ثلاث سنوات من عام ٤٣٥ حتى عام ٤٣٨هـ. فلم تنقطع الا بوفاة سليمان بن هود عام ٤٣٨ هـ / ١٠٤٦ م. وعندما توفي سليمان قسمت مملكته بين أبنائه الخمسة كما مر بنا ، وركن المأمون الى الدعة بعض الشيء .

وبعد أن استتب الامر لفرد يناند اثر انتهاء الحروب الاهلية بينه وبين أخويه غارسيا وراميرو ، تطلع الى العمل منفردا لحسابه الخاص هذه المرة . فهاجم سنة ٤٥٤ هـ/ ١٠٦٢ م اراضي مملكة طليطلة وألحق بها خسائر فادحة . واضطر المأمون الى طلب الهدنة ودفع الجزية صاغرا .

وكان المأمون رجلا أعمته الاهواء الشخصية والطمع في توسيع رقعة دولته . ولذا فقد اختلق مع عبد الملك بن عبد العزيز بن ابي عامر ملك بلنسية خلافا . وعمل من ثم على مهاجمة مملكته وضمها الى مملكة طليطلة . ولا يهمنا هنا من تفاصيل ذلك الا ماصنعه المأمون من طلب المساعدة والعون من الملك فرد يناند المستعد في كل الاوقاف لتلبية طلبات العون والنصرة . ينقل ابن عذاري عن ابن بسام شرحه لتفاصيل هذه المعونة فيقول :(وفي هذه السنة (١) كانت وقعة بطرنة من نظر بلنسية وذلك أن قطعة من الروم زلفت الى بلنسية ، فأناخت عليها وأهلها يومئذ جاهل غر أو مترف مغر قد خلوا بشهواتهم ، وانخدعوا باغفاء الدهر عن غراتهم ، مقفلين للتدبير ، غافلين عما يتعاور اطرافهم من التغيير ، فطار بهم الذعر كل مطار ، سارت عن زعمائهم في ذلك أعجب أخبار . ثم كايدهم العدو باظهار الاضطراب والاستتار عن عيونهم ببعض تلك الهضاب استدراجا لهم واستطرادا . وجدا في طلب مكروههم واجتهادا ، فماج رعاعهم وتنادى بالنفير مهنتهم وصناعهم .)(٢)

---

(١) : أي سنة ٤٥٥ هـ .

(٢) : ابن عذاري : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣ .

ثم يعود ابن عذاري فينقل عن ابن بسام ذمه لأمراء الاندلس في ظل عبد الملك فيقول: (وساعد أولئك الرعاع الحائنين أميرهم يومئذ المترف عبد العزيز بن أبي عامر [١] فخرج بالعير والنفير ، والجم الغفير يحسب الطعن كالقبل ، وبطن السيوف كالمقل ، ويتخيل صليل الحسام بين القصرتين والهام ، ما كان اتسع له ذرعه ومرن عليه سمعه ، من نغم الأوتار وترنم الاطيار فلم يرع العدو يومئذ الا خروج أهل بلنسية الاغمار والاغفال ، الى تلك المصارع والاجبال يمشين مشي قطا البطاح تأود اهيف الخصور رواجح الاكفال ، فظفر العدو يومئذ بهم ، فأتاهم من ظهورهم فحكم السيف في جمهورهم ولم يبق الا من أحرزهم أجله ، وخفي على سهم المنية مقتله .) [٢] وينقل لنا المقري [٣] عن ابن بسام قول بعض الشعراء في أهل بلنسية حين خرجوا في ثياب الزينة والترفه فيقول :

لبسوا الحديد الى الوغى ولبستم حلل الحرير عليكم ألوانا
ما كان أقبحهم وأحسنكم بها لو لم يكن ببطرنة ما كانا

مملكة بطليوس وعلاقاتها مع النصارى : —

بعد أن استطاع فرديناند ترتيب بيته وحل مشكلاته مع أخويه ، تفرغ لمهاجمة أراضي المسلمين تحقيقا لاهدافه في استعادة أراضي الآباء والأجداد ، فاصطدم بمملكة بطليوس التي تقع بين نهر التاجة ونهر دويره . وقد فضّل مهاجمة منطقة بعيدة في شمال غربي هذه المملكة وهي منطقة لاميجو الواقعة في البرتغال الحالية ، واستولى عليها بالفعل . ثم اتجه الى مدينة بازو Vizeu ، ولم تجد استماتة أهلها في الدفاع شيئا ، فسقطت بين يديه ولم يستطع ابن الافطس فعل أي شيء [٤] .

ورأي فرديناند أن ينتهز فرصة الخصومة المشتعلة بين ابن الافطس وخصمه ابن عباد في الشرق ، وابن ذي النون في الشمال . فحاول

---

(١) بل هو عبد الملك لأن أباه عبد العزيز توفي عام ٤٥٢ هـ والموقعة حدثت عام ٤٥٥ هـ . انظر ، محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ، ص ٢٢٣ .
(٢) : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٥٢ — ٢٥٣ .
(٣) :: نفح الطيب ، ج ٦ ، ص ١٩٠ — ١٩١ .
(٤) : انظر — J.B. Bury. Op. Cit., p. 395

ابتزازه بطلب الجزية ، الا أن ابن الافطس رفض طلبه . فجهز فرد يناند جيشا ضخما عين عليه أحد قادته ، وقصد هذا الجيش مدينة شنترين ، ولم يجد ابن الافطس امام هذه الهجمة النصرانية بدا من أن يعقد هدنة مع فرد يناند . وتعهد له بموجبها بدفع جزية سنوية مقدارها خمسة آلاف دينار[١] .

وكانت أنظار فرد يناند تذهب بعيدا نحو مدينة قلمرية الاستراتيجية أعظم مدن البرتغال التي فتحت في عهد المنصور ابن ابي عامر عام ٣٧٥ هـ / ٩٨٥ م وكان يليها من قبل ابن الافطس رجل يدعى راندده ، فتوجه فرد يناند نحوها في عام ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م وحاصرها محاصرة شديدة استطالت الى ستة شهور . واخيرا استطاع فرد يناند أن يشترى ذمة راندده وأمانته . وجرى الاتفاق بينهما على أن يخرج راندة بأهله وأمواله سالما من المدينة مقابل تسليمها له . وبدهي أن يفتّ غيابه عن المدينة في عضد أهلها ، فعرضوا على فرد يناند التسليم مقابل الأمان ، الا أنه رفض وضيق عليهم الخناق حتى استطاع بعدئذ أن يقتحم المدينة عنوة . وقد ارتكب جنوده من صنوف البذاءة والتنكيل بما يدرج في مصنفات الأعمال الوحشية[٢] . وقد ولى فرد يناند على المدينة حاكما من قبله هو الأسقف سسندو الذي نشأ وظهرت ألمعيته كرجل من المستعربين في بلاط المعتضد بالله . غير أنه ترك بلاط المعتضد فارا بنفسه والتحق بفرد يناند حيث دخل في خدمته . وقد ولاه أخيرا حكم مدينة قلمرية ومنحه لقب الكونت أو الوزير[٣] .

وبعد ذلك شرع فرد يناند من فوره في الاستيلاء على الاراضي الواقعة بين نهر دويرة ومينو (منديجو) وذلك تنفيذا لخطته المذكورة الهادفة الى اجلاء المسلمين عن حدود مملكته شيئا فشيئا[٤] .

---

(١) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٣٨ - ٢٣٩ .

(٢) : نفس المصدر السابق والجزء ، والصفحات .

(٣) : محمد عبدالله عنان : دول الطوائف ، ص ٨٦

(٤) : عن توسعات فرد يناند على حساب الممالك الاسلامية انظر :

- J. B. Bury : Op. cit., p. 395 - 396

مملكة اشبيلية وعلاقاتها مع النصارى :ـ

= لم تسلم مملكة اشبيلية من هجمات الملك فرد يناند الذى كان يفيض حماسة وانه فاطا دينيا عظيما • ففى عام ٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م وهو العام الذى هاجم فيه مملكة بطليموس هاجم أراضى المعتضد وغزاها • واضطر المعتضد الى التوجه لمعسكر الملك النصرانى ، فقدم له الهدايا الثمينة ودفع له الجزية التى فرضها عليه بعد أن اخذ بمشورة الفقهاء فى مملكته •

ويقول دوزى : ان فرد يناند عندما رأى رأس المعتضد وقد اشتعل شيبا وتجلله هاله من الوقار ـ رغم أنه لم يتعد السابعة والاربعين من عمره ـ أشفق عليه من تكدير خاطره بانتزاع شئ من أراضيه • ولكنه طلب اليه أن يسلمه رفات القديسة (جوستت) العذراء التى قتلت فى عصر الاضطهاد الرومانى • ووافق المعتضد على هذا ، وقفل فرد يناند عائدا الى ليون ، وبعث باثنين من الاساقفة لتسلم الجزية ، وتسلم رفات القديسة • على أن الاسقف (الفينوس) فشل فى العثور على رفات القديسة المذكورة ، على أنه نقل عوضا عن رفاتها ، رفات القديس (ازيدور) مشيعا باجلال المعتضد ورجاله (١) • واستمر المعتضد يدفع له الجزية السنوية وبانتظام • وبعد وفاة فرد يناند وحتى وفاة المعتضد فى عام ٤٦١ هـ/ ١٠٦٨ م كانت الجزية تدفع بانتظام الى سانشو ابن فرد يناند ملك جليقية الذى عهد اليه والده أيضا بأخذ الجزية من مملكة اشبيلية (٢) •

وفى الحقيقة لقد كانت سنوات ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ هـ / ١٠٦٣ ـ ١٠٦٥ م سنوات صعبة فى تاريخ المسلمين عموما فى الاندلس • فقد شهدت هذه السنوات الهجمة النصرانية الشرسة على معاقل المسلمين • فانتزعت منهم ما قدرت عليه من المدن والحصون ، وان كان بعضها قد استرد بعد قليل مثل بربشتر •

---

(١) : ملوك الطوائف ، ص ١٧٢ ـ ١٧٥ •

(٢) : محمد عبدالله عنان : دول الطوائف ، ص ٧٢ •

وقد أصاب الهلع والجزع ملوك الطوائف ، وغصوا بالهجوم المسيحي كثيرا . وعمت موجة من المرارة والتأسى المسلمين مما دفع بعض المفكرين والادباء والشعراء الى دعوة أمراء المسلمين الى التكاتف والتعاضد ونبذ الفرقة والخلاف .

واذا كانت لم تسلم مملكة من الممالك الثلاث وهى سرقسطة وطليطلة وبطليوس من فقد بعض أطرافها على يد ملوك النصارى ، فان مما يحمد للمعتضد أنه لم يحدث فى عهده النزول عن أى طرف من أطراف مملكته . كما أن مما يحمد له أنه لم ينساق كما انساق غيره من ملوك الطوائف الى الاستعانة بالنصارى فى سبيل أهداف ذاتية . فيكاد يكون الوحيد من بينهم الذي لم يطلب معاونة النصارى ضد خصومه المسلمين . على أن هذا لا يجنبه المؤاخذة ويعفيه من المعرة ، اذ لم يسلم شأنه شأن غيره من ملوك الطوائف من معرة دفع الجزية عن يد وهو صاغر . كما أن مما يعاب عليه أنه قد ترك أخوته من المسلمين يواجهون هجمات النصارى الشرسة دون أن يسارع الى تقديم نصرته ، وهو الذى كان فى ذلك الوقت أقوى ملوك الطوائف على الاطلاق ، وكانت مملكته أقوى وأكبر ممالك الطوائف تلك . فقد كان فى وسعه أن يقدم نصرته الى اخوته ، وكان فى وسعهم كلهم أيضا الوقوف أمام هذه الهجمة النصرانية .

ولكن كيف يحدث هذا ؟؟ . وأحد هؤلاء يحارب اخوته ، وثانيهم ينشغل بتوسيع مملكته على حساب جيرانه ، وثالثهم منشغل بتشييد القصور والمجالس منصرفا الى تذويقها وتأنيقها عن كل خطب وحدث .

ولقد حفظ لنا ابن بسام عن المأمون بن يحيى ملك طليطلة صورة تدل على فرط الاهمال وعدم المبالاة والاكتراث ، والانشغال بالمترفات والشهوات فى وقت كانت تهاجم فيه أراضى جيرانه سكان بطليوس على مسمع ومرآي منه . وكان جل اهتمامه منصبا حول انتهاء أعمال البناء والتذويق فى قصره الفخم المكرم الذى كان يشيده آنذاك .(١)

---

(١) : انظر ، المصدر السابق ، القسم الرابع - المجلد الاول ، ص ١١٤ - ١١٥ .

ولقد ندب كثير من الفقهاء والعلماء والأدباء والمفكرين أنفسهم لتنبيه ملوك الطوائف وتحذيرهم ولفت أنظارهم للأخطار المحدقة والقادمة . وتطوع بعضهم الى التجوال لدى ملوك الطوائف بهذا الخصوص. ومن هؤلاء الشاعر الأديب أبو حفص الهوزني - الذي سنعرض له قادما عند الحديث عن الحياة الادبية في اشبيلية ان شاء الله . فقد كان صادق الايمان والحس جريئا في الحق . فبعث الى المعتضد برسالة شرح له فيها حالة المسلمين السيئة مع النصارى ، حتى لقد خشى على الاسلام والايمان أن يصيبهما الاغتراب والانقضاض . وقال له ان الحكام في غفلتهم سادرون ، والناس ذهول وخنوع ، كما طلب من المعتضد وتوسل اليه مؤملا انقاذ الوضع واستدراك الأمر ، كما طلب منه أن يقود الجيوش ويترأس الطلائع والجنود لتخليص المسلمين من النصارى . وهي رسالة طويلة تمثل معاناة الشعب في ذلك الوقت . ولم يكن الوزير أبو حفص هو وغيره الا ضمير تلك الأمة وصوتها المسلم الواعي الذي تعالى لاستدراك ما يمكن استدراكه (١).

ونورد فيما يلي بعضا من تلك الأبيات التي نظمها (٢) الأديب الهوزني مستحثا الحكام للجهاد وداعيا للاجتماع والوحدة ومتأسفا على وضع المسلمين المزري :

أيا أسفا للدين اذ ظل نهبة	بأعيننا والمسلمون شهود
أفي حرم الرحمن يلحد جهرة	ويجعل اشراك الاله شهود
ويغلب بيت الله بين بيوتكم	وقادرة عن رد ذاك قعيد
ويوضع للدجال بيت بمكة	ويخفى عليكم منزع وقصود
أعيذكم أن تذهبوا فيمسّكم	عقاب كما ذاق العذاب ثمود
وأقبح بذكر يستطير بأرضكم	يؤم به أقصى البلاد وفود

وقال أيضا :

تبارك من تفرد بالبقاء	وأسلك خلقه سبل الفناء
وشتت شملهم بعد انتظام	وكدر وردهم اثر الصفاء

---

(١) : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثاني - المجلد الاول ، ص ٧٠-٧٥ .

(٢) : نفس المصدر والقسم والمجلد ، ص ٧٨ - ٧٩ .

وقد أيقظت هذه التحركات من قبل العلماء والفقهاء بعض ملوك وأمراء الطوائف ، ونبّهتهم الى ما يحدث . وقد بعث المعتضد برده الى الوزير أبى حفص بما يؤكد احساس المعتضد بخطورة الحالة السياسية فى الاندلس . ومن فصول رسالته لأبى حفص :(.... ما سمعت بصحة دينك وبرد يقينك حتى نظرت الى ما دهم المسلمين من كلب العدو عليهم ، يجوسون البسيطة من ديارهم ويستبيحون المحوط من ذمارهم . ليس الى الانقياد عن احكامهم دفاع ، ولا سوى الانحياز من امامهم امتناع ، قد تبين لهم أن تخاذلنا لهم علينا ناصر ، وتواكلنا مظاهر مؤازر ، فلا يعدمون من يتخلى لهم عن بلد ويعطيهم الجزية عن يد ولو شاء الله لأنتصر منهم ، ولكن ليبلو بعضكم ببعض .) (١)

ثم يقول أيضا (وأما ماندبت اليه ، وحضضت عليه من اجهاد السعى فيما يقمع المشركين بدّدهم الله ، ويجمع كلمة المسلمين . فيعلم الله أنى قد ناجيت بذلك ونا ديت ، وراوحت وغاديت ، وبثثت رسلى الى ذلك داعين ، ويصلون التفكرة ، ويؤكدون التبصرة ، ويتلون المواعظ ، ويستثيرون الحفائظ ، فصمّت المسامع ، واتّفقت فى التثاقل المنازع وخلج بالخذلان (٢) ، وتجاوزت الجمجمة فى ذلك الى الاعلان ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى (٣)) . غير أننا فى الحقيقة لم نجد ما يؤكد كلام وجهد المعتضد هذا الذى أشار به .

كما احتفظ لنا الفتح بن خاقان برسالة ابن طاهر صاحب مرسية الى المعتصم بن صمادح أمير المرية يبدى فيها القلق والتأسى لأحوال المسلمين ، وكيف ضيق عليهم أعداء الله الخناق ؟؟ ، ومن فصول هذه الرسالة (فليندب الاسلام نوادبه وليبك له شاهده وغائبه ، فقد طفى مصباحه ووطئ ساحته وهيض عضده وغيض غده . الى الله نفزع واليه فى

---

(١) : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثانى _ المجلد الاول ، ص ٩٩ _ ١٠١ .
(٢) : خلج يخلج من انتزع ينتزع .
انظر الفيروزابادى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٩٣ .
(٣) : ابن بسام : نفس المصدر والقسم والمجلد أعلاه ، ص ١٩٩ _ ١٠١ .

طارق الخطب ومنتابه ، ولا حول ولا قوة الا به . وهو فارج الكروب وناصر الحروب وعالم الغيوب ، لارب سواه ، ذلك أن فرد يناند وقمه الله نزل على قلعة أيوب محاصرا لمن فيها ومغيرا على نواحيها بجموع يضيق عنها الفضاء ، وتتساقط لملاحظاتها الأعضاء ، وأنه قد بنى على قصد جهاتنا ووطئ جنباتنا ، الا أن يدرأ الله فى نحره ، ويحمى من شره . وغرسيه دمره الله بسرقسطة ، ورذمير أهلكه الله بوشقه وما والاها ينكى بما يبكى ، والمسلمون بينهم سوام ترتع ، وأموالهم نهب توزع ، والقتل يأخذ منهم فوق ما يدع ، فأطل الفكر فى هذا الحزم الداخل والبلاء الشامل ، وأسبل الصبر وأطل العبرة والله المرجو لتلافى الأمة ، وكشف هذه الغمة بمنه .)(١)

أما الشاعر الأديب أبو القاسم خلف بن فرج الالبيرى المعروف بالسميسر ، أحد شعراء عصر ملوك الطوائف آنذاك وأحد أبرز أصوات المعارضة لملوك الطوائف ، فقد قال(٢) فى نقد مريو لاذع :

ناد الملوك وقل لهم ماذا الذى أحدثتم
أسلمتم الاسلام فى أسر العدا وقعدتم
لاتنكروا شق العصا فعصى النبى شققتم

وقال أيضا :

رجونا كم فما أنصفتمونا وأملناكم فخذ لتمونا
سنصبر والزمان له انقلاب وأنتم بالاشارة تفهمونا

كما انتدب القاضى أبى الوليد الباجى نفسه للدعوة للجهاد والحض عليه — وسنعرض له قادما ان شاء الله — فتطوف بممالك الطوائف يدعو الى الوحدة والتآلف ، غير أنه لم يوفق فى دعوته ، فقد قابلها ملوك الطوائف بفتور وبرود شديدين .

وهكذا فقد شهد عهد المعتضد بالله اشتداد نشاط حركة الاسترداد بشكل لم تسلم منه أى مملكة من الممالك اطلاقا ، اللهم الا مملكة اشبيلية التى سلمت لها أطرافها . ولكنها بالمقابل لم تسلم من دفع الاتاوة والجزية عن يد للنصارى كما ذكرنا .

---

(١) : قلائد العقيان ، ص ٦٥ — ٦٦
(٢) : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الاول — المجلد الثانى ، ص ٣٧٤ .
(٣) : انظر بعد : الباب الخامس ، ص

حياة المعتضد الخاصة ووفاته

تناولنا فى حديثنا عن شخصية المعتضد بالله وآراء المؤرخين به جوانب سلوكية منفرة أشرنا الى أنها قد حتمتها عليه خلال غريزية فى احيان، وظروف اضطرارية فى احيان اخرى ، ونهج لا يخرج عن روح العصر فى معظم الأحايين .

ونحن هنا نعود لاستكمال الحديث عن شخصية المعتضد بكل جوانبها وما لها أو عليها لنرسم صورة دقيقة لهذه الشخصية المميزة فى تاريخ الاندلس كله فى ذلك الوقت .

والجانب الاخر من شخصية المعتضد هو ذلك الذى يتعلق بالحياة الخاصة له فى بلاطه وخارجه . وسنقتصر فى حديثنا عن هذا الجانب على شيئ من اعماله فى دولته اضافة الى ما سنعرض له من وصف لحياته العائلية وشيئا من صفاته الشخصية كذلك .

ونحن لانعلم بالضبط وصفا مفصلا واضحا عن أعماله الداخلية والمشاريع العمرانية والمدنية فى مملكته . الا أننا لانتصور بأن دولة كانت اعظم ممالك الطوائف على الاطلاق فى ذلك الوقت مساحة وثروة وجاها الا ولابد أن تكون قد حققت الكثير الكثير بالنسبة للمرافق العامة فى البلاد فى كافة المجالات . بحيث غدت اشبيلية ازهى ممالك الطوائف وأوسعها ثراءا وأعرقها حضارة ورقى .

ويجمل ابن الابار وابن بسام فيما ينقلان عن ابن حيان اعماله الداخلية تلك بقولهما (ولم يقصّر عباد فى دولته التى مهدها فوق أطراف الأسنّة ، وصيّر أكثر شغله فيها ، شبّ الحروب وكياد الملوك واهراج البلاد واحراز النداء ، من توفر حظه الأوفر فى الامور الملوكية والعدد السلطانية والآلات الرياسية ، فابتنى القصور السامية ، واعمر العمارات المغلة ، واكتسب الملابس الفاخرة وغالى الأعلاق السنية ، وارتبط الخيول السابحة ، واقتنى الغلمان الرّوقة ، واتخذ الرجال الذادة ، تنقاهم من كل فرقة .

فساس طبقاتهم ما بين ادرار الأعطية وضمان الزيادة .)[١]

تلك هى أهم أعماله الانشائية . أما بالنسبة للسياسة الداخلية فيبدو أن المعتضد كان يتوجس خيفة من المحيطين به . وكان يعمد الى اضعافهم وتشتيت قواهم ونفوذهم . وقد مر بنا أنه قد قتل حبيب[٢] وزير أبيه ربما لانه قد شعر بأن نفوذه أخذ يتعاظم . كما أنه شرع يعمل على قطع دابر وزرائه . فمنهم من قتله صبرا ، ومنهم من نفاه عن البلاد ، ومنهم من أماته خمولا وفقرا[٣] . وربما يعود هذا الى أنه لم يكن يطيق سماع أصوات المعارضة بالاضافة الى أنه كان يأخذ بالظنة . كما أنه لم يكن مأمون الطوية ، فقد كان يوصف بالغدر والاخفار للذمة . وسنرى بعد فى حديثنا عن الحياة الادبية القادمة أنه قضى على عدد من وزرائه وأدباء بلاطه . وأن البعض منهم قد استطاع أن يتحاشاه ويفر من وجهه[٤] .

على أنه كان يتمتع بصفات أخرى حسنة . فقد اتفق رأى المؤرخين على أنه كان يتميز بالسخاء والجود والكرم . فابن عذارى وابن الابار ينقلان عن ابن حيان قوله (فجمع هذه الخلال الظاهرة والباطنة الى جود كف بارى بها السحاب .)[٥]، وابن القطان فيما ينقله عنه ابن عذارى يقول (وكان يغلب عليه الجود . فلا يعلم فى نظرائه أبذل منه بالمال .)[٦]

وقد نظم هو نفسه فى مناسبات عدة جملة من الاشعار يفخر فيها بكرمه وجوده وسخائه . وسنعرض قادما الى هذه الاشعار

---

(١) : الحلة السيراء ، ج ٢ ، ص ٤٠ - ٤١ . - الذخيرة ، القسم الثانى - المجلد الاول ، ص ١٦ .

(٢) : انظر قبل ، ص ١١٥ .

(٣) : عبد الواحد المراكشى : المصدر السابق ، ص ١٥١ - ١٥٢ .

(٤) : انظر بعد الباب الخامس ، ص

(٥) : البيان المغرب ، ج ٣ ، ص ٢٠٧ . - الحلة السيراء ، ج ٢ ، ص ٤٢ .

(٦) : البيان المغرب ، ص ٢٨٣ - ٢٨٥ .

ان شاء الله . ولسنا هنا فى حاجة الى كبير ذكاء لنستخلص من هذا الجود الفائق دوافع واهداف سياسية واضحة بجانب ذلك الميل الغريزى . فالمعتضد يتقن من تلك الحكمة القائلة : من جاد ساد ومن ساد قاد ومن قاد ملك البلاد الكثير الكثير .

وكان ذا اهتمام بالادب والشعر والمعرفة . وكانت سوق الادب كما يقول المؤرخون عادة عنده نافقة (١) . وكان هو نفسه ينظم الشعر ويتذوقه ويعطى عليه الاعطيات ، وسنعرض ايضا الى هذا عند حديثنا عن الحياة الادبية .

وبالاضافة الى تلك الخصال التى ذكرناها ، فقد كان حازما قويا فى ممارسة اعماله وشؤونه فقد (جرد نهاره لابرام التدبير ، واخلص ليله لتملى السرور ، فلا يزال تدار عليه كؤوس الراح ويحيا عليها بقبض الارواح التى لا تناسيه من اعدائه .) (٢) ويقول ابن القطان فيما ينقله ابن عذارى ايضا (وكان يغلب عليه الجد) (٣)

ويقول هو عن نفسه بأنه قد قسّم يومه ولياليه بين تصريف شؤون الدولة والاهتمام بوسائل المتعة والأنس . ولم يكن فى الحقيقة بدعا فى هذا الشأن عن غيره من ملوك الطوائف . وكان لا يصبر عن الخمر ويتعاطاها مع الخلص من رجاله وادبائه فى مجالس الأنس والسمر التى كانت تعقد فى قصره .

أما فيما يتعلق بحياته العائلية ، فقد كان المعتضد كما يقول ابن الابار (ذا كلف بالنساء فاستوسع فى اتخاذهن وخلّط فى أجناسهن . فانتهى فى ذلك الى مدى لم يبلغه أحد من نظرائه . فقيل انه خلّف من صنوف السريات منهن خاصة نحوا من سبعين جارية ، الى حرته المحظية لديه ، الفذّة فى حلائله بنت مجاهد العامرى أخت على بن مجاهد صاحب دانية والجزر الشرقية . ففشا نسل عباد

---

(١) : الضبى : المصدر السابق ، ص ٣٩٥ _ ٣٩٦ .

(٢) : ابن القطان فيما ينقله عنه ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٨٣ _ ٢٨٥ .

(٣) : نفس المصدر والجزء ، ص ٢٨٣ _ ٢٨٥ .

لتوسعه في النكاح وقوته عليه . فذكر أنه كان له من ذكور الولد نحو من عشرين ، ومن الاناث مثل ذلك)(١). ويعقب في مبالغة واضحة بقوله ان المعتضد قد افتض ثمانمائة بكر(٢).

ولا نملك تفاصيل واضحة عن العلاقة بينه وبين نسائه وأولاده . غير أننا نستطيع أن نستخلص فيما يتعلق بعلاقته مع ابنائه شيئا ذا قيمة . اذ يبدو أنه كان حازما شديدا معهم ، فقد رأيناه يغلظ في معاملته لابنه وولي عهده اسماعيل ، وأخيرا رأيناه يفتك به(٣). ورأينا شيئا من هذا عندما غضب على ابنيه محمدا وجابر غضبا شديدا ، توعدهما فيه بأشد العقوبات . ورأينا محمدا يرتعد خوفا وفرقا منه عندما فشل بالاحتفاظ باستقلال مدينة مالقة . ولم ينجه من غضب والده الا القصيدة الرائية التي نظمها مستعطفا مستصرخا عاطفة أبيه . ورأينا شيئا من هذا عندما فرق بين ابنه وولي عهده محمد ، وصديقه وأليف روحه آنذاك محمد بن عمار الشاعر المذكور سابقا . فقد انزعج المعتضد جدا للعلاقة التي نشأت بينهما وما أفضت الى انصراف ابنه عن مهام الأمور الى الانغماس في اقتناص فرص اللذة واللهو ، مما جعل المعتضد يعنف على ابنه . ويترجم هذا العنف بابعاد صديقه عنه ونفيه فالتجأ الى سرقسطة(٤). على أنه مع ذلك كان محبا لابنائه عطوفا عليهم ، حتى لقد كان سبب وفاته كما يقال هو جزعه الشديد على ابنة له ماتت صغيرة ، وكانت أثيرة لديه(٥).

وفي عام ٤٦١ هـ على الارجح(٦) توفي المعتضد بالله ، وكان يبلغ وقتها السابعة والخمسين من عمره . وقد أورد ابن حيان في رواية دقيقة فيما ينقله عنه ابن عذارى مدة حكم المعتضد فقال (وكانت سن عباد

---

(١) : الحلة السيراء ، ج ٢ ، ص ٤٣ .
(٢) : ابن الابار : المصدر السابق والجزء ، ص ٥٢ ـ ٥٣ .
(٣) : انظر قبل ، ص ١٣٦ - ١٣٩
(٤) : صلاح خالص : محمد بن عمار الاندلسي ، ص ٥٤ .
(٥) : ابن الابار : نفس المصدر والجزء أعلاه ، ص ٥٢ ـ ٥٣ .
(٦) : هذا هو قول ابن حيان المعاصر للمعتضد ، والذي نقل عنه من جاء بعده . ولذا فاننا نعتمد هذا التأريخ ،

سبعا وخمسين سنة وثلاث شهور ، وتسعة أيام تأقيتا من مولده يوم الثلاثاء لسبع بقين من صفر سنة سبع وأربعمائة الى وفاته يوم السبت لليلتين خلتا من جمادى الآخرة . ومدة امارته من يوم بيعته بوفاة والده يوم الاثنين غرة جمادى الاخر سنة ثلاث وثلاثين ـ ثمان وعشرون سنة ويومان (١)

وقد شيع جثمانه فى موكب مهيب على رأسه ابنه وولى عهده المعتمد الذى تولى الحكم بعده . ودفن فى يوم الاحد فى المقبرة الملكية (٢).

وقبل أن نختم حديثنا عن المعتضد ينبغى أن نشير الى أنه قد غدا فى سنواته الاخيرة كاسف البال ، شاحب الوجه كثير الهموم . فقد كان هناك شيئان يؤرقانه ويكدران عليه صفو حياته . أولهما نشاط حركة الاسترداد المسيحى ، واحساسه بالخطر مما يخبئه له القدر ، وثانيهما خشيته على دولته التى أقامها أبوه ونماها هو من السقوط بيد البربر (٣) .

ومن هنا رأيناه يشتد فى معاملته للبربر وأمراء الامارات البربرية كما ذكرنا حتى استطاع أن يقضى على نفوذهم ، ومع هذا فلم يسترح له خاطر ، بل زاد يقينه بأن الخطر على دولته انما سيأتى من المغرب على يد البربر . ولذلك كان دائم الاستطلاع لأحوال المغرب . وفى هذا الصدد يقول عبد الواحد المراكشى (وكان المعتضد فى كل وقت يستطلع أخبار العدوة . هل نزل البربر رحبة مراكش ؟ وذلك لما كان يراه فى ملحمة كانت عنده أن هؤلاء القوم خالعوه ، أو خالعوا ولده ومخرجوه من ملكه ،

= لأنه التاريخ الصحيح والمتفق عليه تقريبا . ولا يمكننا أن نصدق رواية عبد الواحد المراكشى وابن تغرى بردى صاحبي : المعجب ، والنجوم الزاهرة . من أن المعتضد توفى عام ٤٦٤ هـ . فهو قول بعيد عن الصواب .
أنظر ، المعجب ، ص ١٥٧ . ـ النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٩٠ .

(١) : ابن الابار : الحلة السيراء ، ج ٢ ، ص ٥٣ ـ ٥٤ .

(٢) : نفس المصدر والجزء ، ص ٥٢ ـ ٥٣ .

(٣) : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثانى ـ المجلد الاول ، ص ١٨ . ـ ابن الابار : الحلة السيراء ، ج ٢ ، ص ٥٠ ـ ٥٢ .

فلما بلغه نزولهم جمع ولده وجعل ينظر اليهم ، مصعدا ومصوبا ويقول ياليت شعرى من تناله معرّة هؤلاء القوم ، أنا أو أنتم . فقال ابو القاسم من بينهم جعلنى الله فداك وأنزل بى كل مكره يريد أن ينزله بك ، فكانت دعوة وافقت المقدار .)(١)

ومما يدل على شقل ذلك الاحساس لدى المعتضد هو ماروراه ابن بسام وابن الابار عن ابن حيان اذ قالا : (واتفق أن دخل عليه يوما بعض وزرائه وبين يديه كتاب قد أطال فيه النظر فاذا كتاب سقوت(٢) المنتزى يومئذ بسبتة . يذكر أن الملثمين المدعوّين بالمرابطين قد وصلت مقدمتهم رحبة مراكش ، فأخذ الوزير يهون أمرهم ، ويخبر أن دونهم اللجج والمهامة . فقال له المعتضد : هو والله الذى أتوقعه وأخشاه وان طالت بك حياة فستراه . اكتب الى فلان - يعنى عامله على الجزيرة(٣) بحفظ جبل طارق حتى يأتيه أمرى ، فقضى أن خلعوا ولده وقوضوا أمره .)(٤)

وبعيدا عن اسطورة الملحمة وغيرها . فان ما يعنينا هنا هو أن المعتضد وهو السياسى المحنك كان يعرف أن قدر العدوتين الاندلسية والمغربية مرتهن دائما بوجود القوة الفتية التى تفرزها الاوضاع السياسية والدينية فى هذه المنطقة دائما . وتتطلع الى ربط العدوتين أو معظمهما تحت ظل سلطة مركزية واحدة . كما أن المعتضد مثله مثل غيره من الاندلسيين الآخرين كان يستشعر خطر البربر سواء أكان ذلك خطر بربرى فى الاندلس ، أم خطر بربرى خارجى من المغرب ، اضافة الى دوافع الحقد التى يكنها للبربر عامة .

---

(١) : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٥٦ - ١٥٧ .

(٢) : ينتسب الى قبيلة برغواطة البربرية .

(٣) : المقصود بها الجزيرة الخضراء .

(٤) : الحلة السيراء ، ج ٢ ، ص ٥١ - ٥٢ . الذخيرة ، القسم الثانى - المجلد الاول ، ص ١٨ ، وص ٣٠ - ٣١ .

الباب الثالث

الدولة العبادية فى عهد المعتمد بالله

- تولى المعتمد السلطة بعد وفاة أبيه وآراء المؤرخين فيه .
- الموقف السياسى فى الأندلس غداة تولى المعتمد السلطة .
- جهود المعتمد فى توسيع رقعة دولته .
- خروج الوزير ابن عمار على المعتمد والقضاء عليه آخر الأمر .
- حياة المعتمد العائلية والسمات المميزة لشخصيته .

تولى المعتمد السلطة بعد وفاة أبيه المعتضد وآراء المؤرخين فيه

تولى المعتمد زمام الحكم فور اعلان وفاة أبيه المعتضد عام ٤٦١هـ/١٠٦٩م كما قلنا . وقد كانت سنه غداة توليه السلطة تسعة وعشرين عاما وشهرين وبضعة أيام(١). هذا ولم يلق ملك من ملوك الاندلس من الثناء والاشادة والاعجاب به أكثر من المعتمد بالله . فقد أسر هذا الملك بخلاله الباهرة وصفاته الحميده وأدبه وشعره لبّ مؤرخي الاندلس القدامى ، ثم جاءت مأساته المحزنة ، وخاتمته المفجعة التي سنعرض لها قادما ، وكأنها مسلسل روائي يروى قصة مأساة انسانية مثيرة لتضفي على المعتمد - زيادة على ما نساله من الثناء - فيضا من الاعجاب المشوب بالاشفاق والأسى .

وفي الحقيقة فان المعتمد بالله كان جديرا بهذا الثناء والاعجاب ، ولكن يجب ألا يذهب بنا الاعجاب الى الحد الذى ننسى أو نتناسى مسؤولية ما وقع فيه المعتمد من أخطاء عن قصد أو عن غير قصد عندما ترك لأهوائه العنان . واذا كان قد تدارك هذا أو بعضه ، فقد كان ذلك بعد فوات الأوان .

نعم ان نظرتنا للمعتمد تتناول الجوانب الايجابية والسلبية معا لشخصيته ، فنحن بقدر ما نعجب بخلاله وصفاته وشعره وأدبه ، يجب أن لا نغفل عن أخطائه السياسية أيضا ، وهو ما سنتناوله قادما . فعندما تولى المعتمد السلطة كانت الدولة قد شهدت في عهد أبيه عصرا زاهيا ، لحمته الاستقرار والهدوء ، وسداه الرقي والازدهار والثراء . فقد ترك المعتضد لابنه دولة مستقرة الأحوال بعيدة الأطراف ذات ازدهار ورفاء جعلها أعظم ممالك الطوائف .

وعندما خلف المعتمد أباه عاد للدولة اشراقها ووضاءتها ، كما لم يقصر المعتمد عن الارتقاء أكثر فأكثر بدولته حتى فاقت

---

(١) : انظر ابن الابار : المصدر السابق والجزء ، ص ٥٣ - ٥٤ .

ما كانت عليه فى أيام أبيه من استقرار وازدهار وأصبح بلاطه فى اشبيلية أعظم بلاطات ملوك الطوائف فى الاندلس ، بل أصبح يضاهى بلاطات بعض كبار خلفاء بنى العباس (١) . فاذا ما استعرضنا أقوال المؤرخين فى المعتمد يأتى ابن اللبانة صديقه ونديمه وشاعره فى مقدمة المعجبين به . فهو يقول فيما ينقله عنه المقرى (٢) (ملك مجيد ، وأديب على الحقيقة مجيد ، وهمام تحلى به للملك لبّه ، وللنظم جيد ، أفنى الطغاة بسيفه وآد ، وأنسى بسببه ذكر الحارث بن عباد ، فأطلع أيامه فى الزمان حجولا وغررا ، ونظّم معاليه فى أجيادها جواهر ودررا ، وشيد فى كل معلوة فناء ، وعمّر بكل نادرة مستغربة وبادرة مستظرفه أوقاته وآناء ، فنفقت به للمحاق سوق ، وبسقت ثمرات أحسانه أى بسوق .)

أما ابن بسام فيأتى أيضا فى مقدمة المعجبين بالمعتمد فهو يقول (ثم استوسق الأمر بعد المعتضد لابنه المعتمد ، وكان مع انشغاله بالحرب ، وسعة مجاله بين الطعن والضرب ، وعلى أن أباه عباد يدير عليه الرحى ، ويفزع اليه كلما قرعت عصا (٣) حتى صار أسوة لنجوم ليلها ، وحلسا (٤) لمنون حبلها :

لا يشرب الماء الا من قليب دم ولا يبيت له جار على وجل

---

(١) : يشبهه عبد الواحد المراكشى بالخليفة العباسى الواثق بالله .

(٢) : نفح الطيب ، ج ٥ ، ص ٣٧٦ .

(٣) : مأخوذ من المثل العربى القائل : ان العصا قرعت لذى الحلم . والمثل يضرب لمن اذا نبّه انتبه . وأول من قرعت له العصا هو : عمرو بن مالك الكنانى ، وقيل هو عامر بن الظّرب العدوانى من حكماء العرب ، وقيل غيرهما .
انظر الميدانى : مجمع الامثال ، ج ١ ، ص ٣٧ ـ ٣٩ .

(٤) : الحلس جمع احلاس ككتف ، والكبير من الناس وهو حلس بيته اذا لم يبرح مكانه .

أنظر الفيروز آبادى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢١٥ .

فقد كان متمسكا من الادب بسبب ، وضاربا فى العلم بسهم ، وله شعر كما انشق الكمام على الزهر ، لو صدر مثله عمن جعل الشعر صناعة ، واتخذه بضاعة ، لكان رائعا معجبا ونادرا مستغربا . فما ظنك برجل لا يجد الا راثيا ولا يجد الا عابثا . وهو مع ذلك يرمى فيصيب ويهمى فيصوب (١) . وشعره يوضح ما شرح ، ويعبر عما ذكر ، مع انه قد رويت أشعار أولى النباهة والاعيان على تقديم الزمان لشرف قائلها مع قلة طائلها (٢) . وكأن ابن بسام قد خشى من اللوم لاسرافه فى الاهتمام بالمعتمد فيقول مستدركا (وقد رأيت ابو بكر الصولى (٣) أثبت لملوك بنى أمية وبنى العباس ما لو صدر مثله لصغار الناس لاستهجن أو ظهر لضعفاء السوق لاستصغر ، فلنا فى الصولى أسوة فى اثبات هذا النوع من الشعر أن وقع فى كتابنا هذا ، والعجب من المعتمد أنه مرى سحابة (٤) فى كلتا حاليه ، فصاب ديما خاطره ، فأجاب وما تراجع له من طبع ولا بعد الخلع . بل يومه فى هذا الشأن دهر ، وحسنته فى هذا الديوان عشر ، فان أجاد فما أولى ، وان قصر فعذره أوضح وأجلى (٥)) . أما ابن الابار فيقول (وقد أفضى الأمر الى ولده ، وهو فى ريعان شبابه ، وكمال جماله ابن تسع وعشرين سنة وشهرين

---

(١) : همى : من الشيء يهمى هميا سقط .
أنظر الفيروزابادى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٥٧ .

(٢) : المصدر السابق ، القسم الثانى ـ المجلد الاول ، ص ٣٢ ـ ٣٣ .

(٣) : هو ابو بكر محمد بن محمد الصولى ، وكتابه الذى يذكره ابن بسام هو : اشعار اولاد الخلفاء . وله بالاضافة الى ذلك عدة كتب أخرى مثل : الاخبار المنثوره ، الاوراق ، الوزراء ، وبعضها مفقود .
أنظر فهرست أسماء الكتب الذى وضعه حسين مؤنس فى تحقيقه لكتاب الحلة السيراء ، ج ٢ ، ص ٤٦٩ ـ ٤٧١ .

(٤) : مرى الشيء استخرجه ، والمعنى استخرج الماء من السحاب .
أنظر الفيروزابادى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ٣٩٢ .

(٥) : ابن بسام : نفس المصدر والقسم والجلد اعلاه ، ص ٣٢ ـ ٣٣ .

وأيام زائده مولده فى العشر الآخر من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة . وقال أبو بكر ابن أبى الوليد بن زيدون (١) مولده سنة احدى وثلاثين ، وكذلك قال ابو بكر بن اللبانة ، وكان المعتمد من الملوك الفضلاء والشجعان العقلاء ، والأجواد الأسخياء المأمونين . عفيف السيف والذيل ، مخالفا لأبيه فى القهر والسفك والأخذ بأدنى سعايه ، ردّ جماعة ممن نفى أبوه ، وسكّن وما نفّر ، وأحسن السيرة ، وملك فأشجع . (٢)

أما عبدالواحد المراكشى (٣) فيكيل المديح للمعتمد كيلا حيث يقول (ثم قام بالأمر بعده ابنه ابو القاسم محمد بن عباد بن محمد اسماعيل بن عباد ، وزاد المعتمد على الله ، الظافر بحول الله ، وكان المعتمد هذا يشبّه بهارون الواثق بالله من ملوك بنى العباس ، ذكاء نفس وغزارة أدب ، وكان شعره كأنه الحلل المنشره ، اجتمع له من الشعراء وأهل الأدب ما لم يجتمع لملك قبله من ملوك الاندلس . وكان مقتصرا من العلوم على علم الأدب وما يتعلق به ، وينضم اليه ، وكان فيه مع هذا من الفضائل الذاتية ما لا يحصى كالشجاعة ، والسخاء ، والحياء ، والنزاهة الى ما يناسب هذه الأخلاق الشريفة .) ويسترسل فى مبالغة واضحة فى اشادته به فيقول (وفى الحقيقة فلا أعلم خصلة تحمد فى رجل الا وقد وهبه الله منها أوفر قسم وضرب له فيها بأوفى سهم ، واذا عدّت حسنات الأندلس من لدن فتحها الى هذا الوقت ، فالمعتمد هذا أحدها ، بل أكبرها .) (٤)

---

(١) : تولى الوزارة للمعتمد ابن عباد بعد وفاة أبيه الشاعر الوزير أبو الوليد ابن زيدون .

(٢) : المصدر السابق والجزء ، ص ٥٣ ـ ٥٤ .

(٣) : المصدر السابق ، ص ١٥٨ .

(٤) : عبدالواحد المراكشى : نفس المصدر والصفحة .

أما الفتح بن خاقان فقد أشاد به على طريقته المتكلفة المصطنعة فى الاسلوب ، فقال (ملك قمع العدا ، وجمع البأس والندا ، وطلع على الدنيا بدر هوى ، لم يتعطل يوما كفه ولا بنانه يراعه ، وآونة سنانه ، وكانت أيامه مواسم وثغور بره بواسم ، ولياليه كلها دررا ، وللزمان أحجالا لم يغفلها عن سمات عوارف ، ولم يضحها من ظل ايناس وارف ، ولا عطلها مأثرة بقى أثرها باديا . ولقى معتفيه⁽¹⁾ منها الى الفضل هاديا . وكانت حضرته مطمحا للهمم ومسرحا لآمال الأمم وموقفا لكل كمى⁽²⁾ ومقذفا لذو أنف حمى لم تخل من وفد ، ولم يصح جوها من انسجام رفده ، فاجتمع تحت لوائيه من جماهير الكماة ، ومشاهير الحماة أعداد يغص بها الفضاء ، وأنجاد يزهى بهم النفوس والمضار ، وطلع فى سمائه كل نجم متقد ، وكل ذى فهم منتقد ، فأصبحت حضرته ميدانا لرهان الأذهان ، وغاية لرمى هذا البيان ، ومضمارا لاحراز خصل فى كل معنى وفصل ، فلم يتسم فى ذمامه الا بطل نجد ولم ينسق فى نظامه الا ذكاء ومجد فأصبح عصره أجمل عصر ، وغدا مصره تسفح فيه ديم الكرم . ويفصح فيه لسانا سيف وقلم ، ويفضح الرضى⁽³⁾ فى وصفه أيام ذى سلم .⁽⁴⁾

وبنفس الطريقة المتكلفة هذه ساق الفتح مدحه للمعتمد فى كتابه الآخر مطمح الأنفس ومسرح التأنس⁽⁵⁾ .

أما ابن خلكان فيقول فيما ينقله عن أبى الحسن على بن القطاع

---

(١) : معتفيه من أعفى . ومعناها انفق العفو من ماله .
أنظر الفيروزآبادي : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٣٦٦ .
(٢) : الكمى كغنى الشجاع أو لابس السلاح كالمتكمى .
(٣) : المقصود به الشاعر العلوى الشريف الرضى الشاعر العباسى المشهور .
(٤) : الفتح بن خاقان : القلائد ، ص ٤ ـ ٥ .
(٥) : ص ١١ ـ ١٢ .

السعدى فى كتاب (لمح الملح) (أقوى ملوك الأندلس راحة وأرحبهم ساحة وأعظمهم تمادا ، وأرفعهم عمادا ، ولذلك فقد كانت حضرته ملقى الرجال ، وموسم الشعراء وقبلة الآمال ، والف العقلاء حتى لم يجتمع بباب أحد من ملوك عصره من أعيان الشعراء وأفاضل الادباء كما كان يجتمع ببابه وتشتمل عليه حاشيتا جنابه .)(١)

أما ابن الخطيب فيشيد بفروسيته وشجاعته وشاعريته كما يشيد بسيرته الحسنة السمعة أيضا .(٢)

وينقل المقرى(٣) عن ابن خميس صاحب كتاب أدباء مالقه ما نصه (وقال الفقيه القاضى أبو بكر بن خميس رحمه الله تعالى حين ذكر تاريخ بنى عباد وقد ذكر الناس من أوصافه ما لا يبلغ مع كثرته الى انصافه .)(٤) ويتأهب المقرى للتحدث عن المعتمد فيقول (وأنا الآن أذكر نبذا من أخباره وأردفها بما وقفت عليه من منظومات أشعاره ، فانه رحمه الله تعالى جم الأدب ، عالى النظم فائقه .)

وخلاصة الأمر أن معظم المؤرخين القدامى لم يتناولوا من شخصية المعتمد الا الجانب المشرق الوضاء فقط فلم يعنوا بمناقشة وانتقاد مسلكه السياسى الانتهازى الذى مالبث أن ظهرت نتائجه له وللمسلمين فى الاندلس من بعد . بل لم يعنوا أيضا بانتقاده على ما كان يقترف فى قصره وبلاطه من المجون والخلاعة والاسراف والتبذير الى حد كبير .

---

(١) : وفيات الاعيان ، مجلد ٥ ، ص ٢١ .

(٢) : الاحاطة فى اخبار غرناطه ، مجلد ٢ ، ص ١٠٨ ـ ١١٠ .

(٣) : المصدر السابق ، ج ٥ ، ٣٧٧ .

(٤) : نفس المصدر والجزء والصفحة .

الموقف السياسى فى الأندلس غداة تولى المعتمد السلطه

تولى المعتمد السلطة عام ٤٦١هـ / ١٠٦٩م عقب وفاة أبيه المعتضد ، وكانت الفترة التى سبقت تولى المعتمد السلطة والتى أعقبتها بعد ذلك تؤذن بأخطار جسام ، فقد بدأت نذرها تطفو الى السطح وتؤذن بأوخم النتائج بالنسبة للاندلس الاسلامية على وجه التخصص .

فقد كانت الأندلس الاسلامية تمر بمرحلة من أصعب فترات حياتها السياسة وأكثرها اضطرابا ، رغم مابلغته الممالك الاسلامية من رفاه ورقى اجتماعى وثقافى مجيد . أذ شهدت الأندلس آنذاك بعض تغييرات فى القوى السياسية المهيمنة على الممالك والامارات الاسلامية .

ففى قرطبة أتضحت الأمور وأنجلت عن تفرد عبد الملك بن ابى الوليد بن جهور بالسلطة وسحقه لكل أعدائه . وذلك بتخلصه من سيطرة ونفوذ ابن السقاء وزير أبيه ، ومالك البلاد غير المتوج والذى ذهب ضحية اطماعه وتطلعاته ، وبتخلصه أيضا من سيطرة ونفوذ شقيقه عبد الرحمن . ولقد لعب المعتضد والد المعتمد دورا مهما فى الوصول الى هذه النتيجة ، اذ أنتهز ظهور التنافس الشديد بين وزير الدولة الجهورية ، وعبد الملك ابن الوليد بن جهور الذى عز عليه انفراد ابن السقاء بكل النفوذ والسلطة الذين القاهما على كاهله الرئيس الشيخ ابو الوليد ابن جهور . فأستغل ذلك التنافس بين الرجلين ، وبدأ ينصب دسائسه عندهما ، حتى تمكن من ايقاع الوقيعة بينهما .

وعلى أية حال فقد اسفرت حبائل المعتضد ومؤامراته ضد الرجلين الى تمكن عبد الملك بن ابى الوليد من الظفر بعدوه ابن السقاء وقتله على يديه ، وبذلك أنفرد بالسلطة ، وتلقب بالظافر . على أن انفراد عبد الملك بالأمر أسفر داخليا وخارجيا عن نتيجتين رئيستين : فعلى الصعيد الداخلى استتب الأمر لعبد الملك بعد تخلصه

من نفوذ أخيه عبد الرحمن ، وأصبح صاحب السلطات المطلقة في الدولة الجهورية . أما على الصعيد الخارجي فقد أدى هذا الى تطلع ملوك الطوائف للاستيلاء على قرطبه . فقد غدت مهيضة الجناح ضعيفة الشأن (١) . بل يمكننا القول أنها أصبحت تدور في فلك مملكة اشبيليه .

وقد رأينا المأمون بن ذى النون يتمزق غضبا وغيظا وهو يرى المعتضد وقد خدعه عندما أغراه بأطلاق يده للاستيلاء على قرطبة شريطة أن يخلى له مدينة قرمونة (٢) . وها هو يشعر ثانية أن المعتضد تمكن بخديعته ودهائه أن يجعل من مملكة قرطبة تابعة له ، ولذلك فقد أعد العدة للتحرش بعبد الملك . وسنعرض قادما لأحداث سقوط قرطبة أخيرا بيد المعتمد عند حديثنا عن جهوده لتوسيع رقعة دولته . أما مملكة غرناطة ، فقد كانت لاتزال تنعم بحكم مليكها باديس بن حبوس . وقد خرج من محناته ومشكلاته الداخلية مع ابنه ووزرائه كأقوى مايكون بعد أن استكانت له الأمور واستقامت (٣) .

وأما مملكة بطليوس فقد توفى المظفر بن الأفطس في نفس العام الذى توفى فيه المعتضد بالله ، وتولى الحكم بعده ابنه يحيى . وتلقب بالمنصور ، على أنه مالبث أن دخل في خلاف مع أخيه عمر ، وأنتهى الامر بانتصار عمر وظفره بمملكة أبيه بعد وفاة أخيه المفاجىء عام ٤٦٤هـ/ ١٠٧٢م وتلقب بالمتوكل (٤) .

---

(١) : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الاول ـ المجلد الثانى ، ص ١٢٣ ـ ١٢٤ . ـ ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧ . ـ خالد الصوفى : المرجع السابق ، ص ٩٩ ـ ١٠٠ .

(٢) : انظر قبل الباب الثانى ، ص ١٤٠

(٣) : يراجع فى اخبار هذه الاحداث :
ـ عبد الله بن بلقين بن زيرى : المصدر السابق ، ص ٣٠ ـ ٦٩ .

(٤) : ابن الخطيب : اعمال الاعلام ، ص ١٨٤ ـ ١٨٥ .

وفيما يختص مملكة طليطلة فلم يحدث بها تغير يذكر فيما عدا فقدها لبعض اطرافها التي انتزعها النصارى . فالمأمون بن ذى النون كان لايزال يليها ، ويواصل تحقيق اطماعه في الاستيلاء على مايقدر عليه من اراضي وأصقاع جيرانه . فقد أستطاع أن يقضي على استقلال مملكة بلنسية ويعزل صاحبها صهره عبد الملك ابن عبد العزيز بن ابى عامر ، ويعهد بحكمها نيابة عنه الى واحد من بيوتاتها العريقة (١).

أما مملكة سرقسطه فقد استقر الامر لمليكها احمد بن سليمان بن المقتدر ، بعد أن ضم اليه أعمال اخوته ، ولم يبق هناك من منافس له سوى أخيه يوسف حاكم لاردة .

وأما بقية الممالك والامارات الأخرى ، فلم تشهد كبير تغير في القوة السياسة الحاكمة لها . فقد استمر بعض حكام تلك الامارات والممالك في حكمها ، كما شهد بعضها وفاة بعض من حكامها وتولى بعض من أبنائهم السلطة مكانهم .

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

أما الموقف السياسي في ممالك النصارى ، فقد كان مغايرا للموقف السياسي لدى الممالك الاسلامية ، اذا كانت تلك الممالك تعيش على فوهة بركان غداة وفاة الملك فرديناند الأول . ورغم أن فردناند قد توفي عام ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ م أى في عهد المعتضد الا أن اسبانيا النصرانية كانت تمر بفترة حالكة من تاريخها . فقد عادت الخلافات بين الأخوة من أبناء فرديناند الى اجواء الفترة التي عاشتها اسبانيا النصرانية بعد وفاة الملك سانشو العظيم من حروب أهلية بين الاخوة ، اذ قسم فرديناند مملكته بين أبنائه كما مر بنا . وكان المعتضد كما سبق أن ذكرنا يدفع الجزية بانتظام الى غرسية ملك جليقية (٢).

---

(١) : محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ، ص ١٢٤ ـ ١٢٥ .
(٢) : انظر قبل الباب الثاني ، ص ١٥٩

وقد أتخذت الحروب الاهلية بين الاخوة غداة تولى المعتمد السلطة وجهها السافر ، اذ بعد وفاة والدتهم الملكة سانشاه بعد عامين من وفاة زوجها فرديناند ، حاول سانشو التوسع على حساب اخوته . فقد طمع فى الاستيلاء على مملكة أخيه الفونسو ، وذلك بعد عام واحد من وفاة والدته ، ودارت رحى حرب أهلية بين الأخوه أنتهت بأستيلاء سانشو على مملكة أخيه الفونسو ، وبالقبض عليه(١) عام ٤٦٢هـ / ١٠٧١م . ثم سمحت شقيقته اوراكا بالافراج عنه مقابل أن يصرف الفونسو نظره عن الاشتغال بالسياسه ، وأن يلبس لباس الرهبان ، وأن يعيش فى أحد الاديره . على أن الفونسو أستطاع وبمساعدة أوراكا ايضا الفرار من ديره ، فالتجأ الى بلاط ملك طليطله ، ومليكها المأمون بن ذى النون . كما حاول سانشو الاعتداء على أراضى أخيه غارسيا ملك جليقيه ، واستطاع بعد حروب ومطاحنات عسكرية أن يقضى على نفوذه ويستولى على مملكته . مما جعل أخوه غارسيا يفر الى بلاط المعتمد . وبعد ذلك حاول سانشو الاستيلاء على أملاك شقيقتيه اوراكا والبيره . ولكنه قتل غيلة تحت أسوار عاصمة مملكة أخته أوراكا بعد عام واحد فقط من استيلائه على أملاك أخويه(٢) .

وعندما قتل أجمع اشراف وكونتات قشتاله على أستدعاء أخيه الفونسو ليتولى حكم مملكة اخيه المقتول . وبالفعل عاد الفونسو وأصبح الحاكم المطلق لمملكة قشتاله وليون وجليقيه فى نفس عام ٤٦٢هـ/ ١٠٧١م .

---

(١) : فى موقعة جلبيجرة Golpejerra
انظر : - Jan Read: Op. Cit., p 102

(٢) : انظر : - Jan Read: Op. Cit., p 396
- J. B. Bury: Op. Cit., p 395 - 396
- محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ، ص ٣٨٩ - ٣٩٢ .

أما غارسيا فلم ينعم بالمودة الى مملكته ، رغم أنه قد عاد من منفاه لدى المعتمد ، فقد قبض عليه شقيقه الفونسو • ويقول J.B.Bury (١) ، ان المعتمد زود غارسيا بكتيبة من جنده لمساعدته في كفاحه ضد أخيه مغتصب مملكته • بيد أننا لانعرف متى تم بعث تلك الكتيبة ؟؟ • كما أننا لم نعثر في الروايات العربية ا ما يشير الى شيء من هذا •

وهكذا فقد غدا الفونسو بعد مرور خمس سنوات من تولى المعتمد السلطة الحاكم المطلق لتلك المملكة الاسبانية الكبرى كما كانت في عهد والده الملك فرديناند • ولم يشذ عن ملكه سوى أمارة برشلونه التي كانت تحت حكم امرائها من آل برنجير الذين تولوا الحكم فيها من عام ٤٢٦ هـ/ ١٠٣٥م • بعد القضاء على اسرة بوريل • (٢)

---

(١) : Op.Cit., P 396

وانظر كذلك محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ، ص ٣٩٢ - ٣٩٤ •

(٢) : محمد عبد الله عنان : نفس المرجع ص ٤٠٧ •

جهود المعتمد فى توسيع رقعة دولتـــــه

استيلاء المعتمد بالله على قرطبة :ـ

رأينا عند حديثنا عن استيلاء المعتضد بالله على امارة قرمونة أنه قد استطاع خداع المأمون ابن ذى النون عندما طلب منه أن يكف عن مساعدة البرزالى اميرها ، على أن يطلق يده فى مهاجمة مملكة قرطبة . ورأينا المأمون يغلى حقدا وغيظا لخداع المعتضد له[1] وقد مر بنا أيضا كيف استطاع المعتضد بأحابيله وألاعيبه أن يغرر بعبدالملك بن محمد بن جهور ووزيره ابن السقاء معا ؟ . وكيف استطاع بدهائه أن يضرب الخصمين ببعضهما ؟ ، وما ترتب على ذلك من احداث مررنا بها من قبل[2] .

وقعت هذه الاحداث والمعتضد والمأمون بن ذى النون كانا يراقبان تطوراتها . ولكن يبدو أن انشغال المعتضد بالاوضاع الداخلية والحروب الخارجية لم يسعفه بفعل أى شيء لاستثمار نتائج خطته الماكرة بعكس المأمون بن ذى النون الذى ركز جهوده لاحتلال قرطبة التى كانت منتهى أمله وغاية مناه .

وتوالت الاحداث بسرعة وتوفى المعتضد عام ٤٦١هـ/١٠٦٩م وعندها شعر المأمون بأن الجو قد خلا له بوفاة عدوه القوى اللدود ، فشدد من ضغطه على المدينة وضرب عليها حصارا شديدا .

وكنا قد ذكرنا أيضا أن مملكة قرطبة قد غدت مهيضة الجناح ، ضعيفة الشأن تدور فى فلك مملكة اشبيلية وتحتمى بحماها . وعندما اشتد ضغط المأمون على المدينة بعث عبدالملك الى المعتمد بن عباد يستغيثه ويستنجد به . وقد لبى المعتمد هذا الطلب بسرعة ، وجهز جيشا قوامه

---

(١) : انظر قبل الباب الثانى ، ص ١٤٤ ، وص ١٨٥

١٣٠٠ فارس بقيادة خلف بن شجاع ، ومحمد بن مرتين ، وتوجه هذا الجيش الى قرطبة وعسكر بالجهة الشرقية منها ، ومن الطبيعي أن يستشعر المأمون الخطر ، اذ أدرك أنه سيقع بين فكي الرحى أي بين القوات القرطبية التي ستخرج لمهاجمته ، والقوات الاشبيلية المساندة له . ولهذا فقد اضطر الى رفع حصاره عن المدينة . وقد وقعت هذه الأحداث في السنة الثانية من وفاة المعتضد بالله (١) .

وأثر هذا الموقف النبيل من جانب المعتمد في نفس عبد الملك بن جهور ، مما جعله يلهث بالشكر والعرفان له . وتهيأ لتوديع الجيش توديعا يليق به . غير أنه لم يرع والا ورجال المعتمد يقتحمون أبواب قرطبة ويمتلكونها ، ويدخل على اثرهم الجيش . واستطاع رجال المعتمد أن يحكموا قبضتهم على المدينة ، وأن يحيطوا بقصر الحكم الذي اعتصم به عبد الملك مع جماعته من رجاله الخلص . كما احتمى الشيخ ابو الوليد بن جهور بالمسجد مع بناته وحريمه . وقد استبسل عبد الملك في الدفاع والمقاومة ، ولكن قوات الجيش وجماعة كبيرة من الرعاع والسوقة استطاعت اقتحام القصر وانتهابه . فاضطر أخيرا الى طلب الأمان . وهكذا سقطت قرطبة بيد العباديين واستتب الأمر لهم فيها .

واعتقل عبد الملك واخوه عبد الرحمن ، وأرسلا مخفورين الى اشبيلية . أما الشيخ ابو الوليد فلم تحفظ له كرامة ، ولم ترع له حرمة رغم مرضه الشديد . وقد أثرت فيه هذه الحادثة كثيرا فيقال (انه لما وسط به قنطرة قرطبة خارجا منها على مركب هجين ، وحاله تقر عيون الحاسدين ، ورفع يده الى السماء وأخذ يبتهل بالدعاء . فكان مما حفظ عنه قوله اللهم كما أجبت فينا الدعاء علينا فأجبه لنا ، ثم مات بعد أربعين يوما من نكبته بجزيرة شلطيش ، مزال النعمة ، مدال الحرمة (٢) .)

---

(١) : ابن عذارى : المصدر السابق ، الجزء ، ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨ . ـــ
ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، ص ١٤٩ ـ ١٥١ .

(٢) : نفس المصدرين السابقين ، ونفس الصفحات .

تلك هي خلاصة أحداث سقوط مملكة قرطبة على يد المعتمد ابن عباد . والان يحسن بنا أن نقلب هذا الامر على كافة الجوانب لعلنا نجد تفسيرا لما حدث . فقد اختلف في تفسير أسبابه ودوافع تلك الحملة ومتى وقعت ؟؟ فالبعض يقول ان هذا الامر كان مبيتا حسب خطة سرية وضعت في اشبيلية.(١) اما البعض الاخر فيقول ان ذلك لم يحدث الا عندما اقلع ابن ذي النون عن قرطبة (فاجتمع بعض اهلها في السر على ان يخلعوا ابن جهور ويولوا ابن عباد ، فأبرموا أمرهم وأحكموه وقاموا بأجمعهم لما ضجروا من جور ابن جهور وتعديه هو وحاشيته السفلة على الناس . وثاروا في صبيحة اليوم الذي اتفقوا فيه مع قواد ابن عباد .)(٢)

وفي الحقيقة أننا لانستطيع التصديق بأن ذلك التخطيط كان خبط عشواء ، وانه قد جاء ارتجاليا وبهذه السرعة . وهل يمكن أن يحدث هذا الامر الخطير الا بالتفهم والتنسيق المسبق ؟؟ .

اننا نجزم بأن للرأي الاول وجاهته وصوابه ، فقرطبة كانت أمل العباديين جميعا : القاضي ابو القاسم والمعتضد بعده ، ثم المعتمد . فقد كان هدف العباديين الاستيلاء على قرطبة مركز الخلافة الروحي ودائرة الاستقطاب الثقافي والعلمي . وخاصة وأن الخليفة هشام كما يدعون لازال بينهم، ويعتبرون اقامته في اشبيلية اقامة مؤقتة ، فمكانه الطبيعي هو في عاصمة آبائه وأجداده . ولذلك كان عليهم وهم المتبنون لدعوته والمنافحون والمدافعون عنه أن يعملوا على أن يعود الى عاصمته ليشرعوا من هناك في اعادة سلطته الخلافية على كافة بلاد الاندلس . نقول ان هذا الخاطر ، وهذا التفكير كان محور سياسة القاضي ابي القاسم الرئيسية طوال مدة حكمه ، وجزءا غير يسير من مدة حكم المعتضد بالله . وعندما توفي المعتضد واشتد ضغط المأمون ابن ذي النون على مملكة قرطبة ، رأى المعتمد أن ظروف مملكة قرطبة قد اصبحت سيئة للغاية ، وغدت مستهدفة من قبل مملكة قوية لا تروم

---

(١) : يميل الى الاخذ بهذا الرأي محمد عبدالله عنان في كتابه دول الطوائف ، ص٦١ .

(٢) : ابن عذاري المصدر السابق والجزء ، ٢٥٩ ــ ٢٦٠ .

الا القضاء عليها ، فبدت له بمثابة تفاحة قد نضجت واستوت وحان قطافها . ونعتقد أن عبد الملك بن ابي الوليد بن جهور كان يرى أن خطر مملكة اشبيلية على مملكته لا يقل بأي حال عن خطر مملكة طليطلة عليها ، رغم روح المودة التي تبديها مملكة اشبيلية . ومع ذلك فقد اختار أهون الشرين وهو الانضواء تحت سلطة مملكة اشبيلية . اما قضية الفئة المعارضة لعبد الملك بن جهور ، فنحن لا ننكر دورها في التأليب عليه ، ومن الجائز أن انصراف عبد الملك هو وخاصته الى اللهو والترف والمجون قد صرفه عن تركيز الجهد في تصريف امور الدولة بما تتطلبه مواصفات رجل الدولة الحقيقي ، اضافة الى هذا من الجائز أن حاشية عبد الملك وخاصته قد استغلت دالتها لديه . فأخذت تعربد في الدولة نهبا وسلبا وظلما . كل هذه العوامل ألبت عليه النفوس ، وجعلت المخلصين من ابناء البلد يتطلعون بأنظارهم نحو مملكة اشبيلية التي يشعرون بأنها اصبحت الجديرة بقيادة الاندلس كلها . فراسلوا المعتمد ونسقوا معه لمساعدته وتسليمه البلد اذا اقتضى الامر ذلك[(١)] . ويتراءى لنا انه لو لم يطلب عبد الملك المساعدة من المعتمد لكان ابناء قرطبة قد طلبوها منه . وأما ما قاله ابن الخطيب[(٢)] عن العامة ومساعدتهم لجيش المعتمد فهم في ما يبدو لا يعدون أن يكونوا من الافاقين الذين يستهويهم ركوب الموجة المنتصرة أيا كانت .

وأيا ما كان الأمر ، فقد دخلت قرطبة وأحوازها في طاعة مملكة اشبيلية . واستطاع المعتمد بذلك أن يوسع رقعة دولته بالاتجاه شرقا في الجزء الجنوبي من الاندلس الاسلامية . واستطاع ايضا أن يحقق حلما عجز عن تحقيقه ابوه وجده من قبل . وغدت دولته تثير خوف ورعب بقية دويلات الطوائف . وقد سر المعتمد بهذا الفتح المبين سرورا بالغا جعل شاعريته تهتز فنظم في ذلك ابياتا[(٣)] يمجد فيها فتحه لقرطبة .

---

(١) : ابن عذاري : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠ .

(٢) : اعمال الاعلام ، ص ١٤٩ ـ ١٥١ .

(٣) : ابن خاقان : قلائد العقيان ، ص ١٢ .

وقد ولّى المعتمد ابنه سراج الدولة عباد حكم مدينة قرطبة (١) ، على أن يساعده في تدبير أمورها قائده ابن مرتين .

وهكذا كانت الاندلس تعيش آنذاك وقتا عصيبا ، وظرفا دقيقا البقاء فيه للأقوى . تغيرت فيه المفاهيم وتبدلت الى درجة سحيقة من الانحلال الديني والتسيب الأخلاقي ، وباتت الشريعة التي تحكم تصرفات ملوك الطوائف آنذاك هي شريعة الغاب ، وشريعة السمك الذي يأكل فيه الكبير الصغير . وبات غير مستنكر أن تجتاح مملكة كبيرة مملكة اخرى ضعيفة موادعة مسالمة . ولقد شهد عصر المعتمد بالله بالذات ظاهرة سقوط أكثر من مملكة على يد مملكة اخرى ، ومن ثم زوالها عن الوجود . لقد سقطت مملكة مرسية بعد مملكة قرطبة ـ ذلك السقوط الذي سنعرض له قادما ـ وسقطت مملكة دانية التي اسسها مجاهد العامري على يد بني هود ملوك سرقسطة ، وكانت مملكة بلنسية قد سقطت قبل ذلك في عهد المعتضد بالله .

ومن أسف أن ذلك الاجتياح والاحتلال لتلك الامارات والممالك لم يكن نابعا عن شعور قومي أو ديني يهدف جمع الشمل . ونبذ الفرقة والتجزء . لو حدث هذا لكنا التمسنا عذرا لتلك الحروب المدمرة وما نتج وينتج عنها عادة من مضار وأذى لفئات الشعب في تلك الممالك . ولكن الخزي ... كل الخزي أن ذلك الاجتياح والاحتلال انما كان يتم لاسباب ذاتية ومطامع آنية ، يمكن أن نصفها بكل الاوصاف والنعوت ماعدا الحرص على المصلحتين القومية والدينية .

ومهما يكن من أمر فقد استقرت قرطبة لبني عباد وأسلمت لهم زمامها ، ولكن العباديين لم يستطيعوا الاحتفاظ بها طويلا . وتكرر هنا درس مدينة مالقة التي خرج منها الجيش العبادي بقيادة المعتمد نفسه آنذاك مضطرا مقهورا . وان كان هناك اختلاف في المدة التي لبث فيها العباديون في قرطبة هذه المرة . فقد طالت الى خمس سنوات ثم اخرجوا

---

(١) : عبدالواحد المراكشي : المصدر السابق ، ص ١٨٩ ـ ١٩٠ .

عنها ثم أعيدت ثانية لهم . والحقيقة ان مما يعاب على العباديين هو تفريطهم في استثمار نتائج جهودهم وأعمالهم التي اقيمت بالعرق والكد والقوة والخداع. لذلك نراهم يفرطون في تلك المكاسب بسياسة اللامبالاة وعدم الاكتراث ، والانصراف الى اللهو والمجون . وهذا ما حدث بالضبط في تلك الحادثتين اللتين تركتا في قوة وكرامة العباديين أثرا لا يمحى . أعني بها حادثتي مالقة المذكورة سابقا ، ثم حادثة قرطبة هذه .

خروج قرطبة عن سلطة بني عباد :-

فابن المعتمد الملقب بسراج الدولة كان وقتها فتا يافعا لم يتعد طور المراهقة بعد . وكان من الطبيعي أن يسعى الى استئناف حياة اللهو والدعة والرفاهية التي كان أبوه وأترابه يحيونها في بلاط اشبيلية . ولم يكن قائد الجيش الوزير ابن مرتين بأحسن حالا من أميره الفتى ، فانصرف الاثنان يعبان من رحيق اللهو والمجون ما شاء لهم وطاب دونما ادراك للمسئوليات والتبعات .

استمر احتلال بني عباد لقرطبة من عام ٤٦٢ هـ حتى عام ٤٦٧ هـ / ١٠٧٠ م حتى عام ١٠٧٥ م . وكانت هذه الفترة سانحة عظيمة للمأمون بن ذي النون لحبك المؤمرات وتدبير الحيل للانتقام من العباديين، والظفر بقرطبة التي كانت قاب قوسين أو ادنى منه . ولذا فقد استمال اليه رجلا يدعى حكيم ابن عكاشه ، وكان يلي بعض الحصون المجاورة لقرطبة من قبله أي من قبل المأمون . وابن عكاشه هذا كان رجلا من اتباع الوزير ابن السقاء ، وعندما قتل ابن السقاء كما مر بنا فر هذا الرجل الى طليطلة ولجأ الى مليكها المأمون ، فولاه هذا أحد الحصون القريبة من قرطبة (١). ولهذا فقد نسق المأمون معه على أن يعمل الى اجلاء العباديين عن قرطبة وضمها الى مملكته . وأباح له من المال ما يكفيه لتدبير أمر ذلك من سلاح وشراء للذمم والضمائر . واستطاع هذا أن يحكم اتفاقه مع عدد من الأعوان من الحراس وغيرهم في المدينة . وقد لفتت هذه الاستعدادات

---

(١) : ابن الابار : الحلة السيراء ، ج ٢ ، ص ١٧٦ ـ ١٧٧ .

والتحركات المشبوهة نظر بعض الحراس الموالين للدولة ، فأبلغوا ابن مرتين بأن هناك شيئا يدبر فى الخفاء ، بل يقال أنهم أبلغوا الامير عباد نفسه ، فلم يهتما بالأمر بل ان ابن مرتين كما يذكر ابن الخطيب قد كذب الخبر واستهان به (١) .

وعندما استكمل ابن عكاشة وضع الخطة ، وتحددت ساعة التنفيذ اقتحم برجاله المدينة ليلا بعد أن فتح له الاعوان بعضا من الأبواب . ولن نمضى فى تفاصيل تلك الاحداث ، فما يهمنا هنا هو أنها قد انتهت بمقتل الامير سراج الدولة عباد وقائده ابن مرتين . ونادى ابن عكاشه بالطاعة لابن ذى النون ، واستقرت له الأمور بعد هذا واستتبت . وبعث ابن عكاشه برأس ابن المعتمد الى المأمون فى بلنسية (٢) . ويقول ابن الخطيب (وخاطب ابن ذى النون ، فتلاحق بقرطبة فدخلها فى أبهة عظيمة ، وأخذ بيعة اهلها ، وكان وصوله اليها من بلنسية يوم الجمعة لخمس بقين من جمادى الاخرة سنة ٤٦٧ .) (٣) كل هذه الاحداث لانجد دافعا الى تكذيبها والشك فيها ، ولكن مانستغربه بشده هو أن لا يكون بالمدينة جيش يدافع عنها . أفيعقل ألا يكون هناك جيش للدفاع عنها ؟؟ . ان المؤرخين لم ينقلوا لنا من احداث تلك الاشتباكات الا مقتل عباد ابن المعتمد ووزيره ابن مرتين وعدد قليل من الانصار فقط . مما يدل على انه لم تكن هناك قوة عسكرية فى المدينة تحميها من عاديات المعتدين . حتى لو تحققنا من وجود قوة صغيرة فقط لتولى شئون الأمن الداخلية . فان هذا يعد خطأ سياسيا وعسكريا كبيرا يضاف الى جملة اخطاء المعتمد الاستراتيجية الأخرى . ومع هذا فمن المحتمل أن يكون هذا التقصير راجعا الى حياة اللهو التى انغمس فيها سراج الدولة هو ووزيره .

وقد نزلت هذه الاحداث على المعتمد نزول الصاعقة ، فأذهلته وأوجعته ، ولكنه تماسك واستجمع قواه .

---

(١) : اعمال الاعلام ، ص ١٥٨ .
(٢) : ابن الخطيب : اعمال الاعلام ، ص ١٥١ .
(٣) : نفس المصدر والصفحة .

عودة قرطبة الى حظيرة الدولة العبادية ثانية :ـ

يقول الفتح ابن خاقان فى وصفه لحالة المعتمد تلك (وشغل المعتمد عن رثائه بطلب ثاره ، ونصب الحبائل لوقوع ابن عكاشه وعثاره ، وعدل عن تأبينه الى البحث عن مفرقه وجبينه . فلم تحفظ له فيه قافية ولا كلمة للوعة شافية .)(١)

وهكذا فقد أخذ المعتمد يعد العدة لاسترجاع قرطبة والثأر لولده وكرامته فى نفس الوقت . أما المأمون ابن يحيى فلم ينعم طويلا بالتربع على عرش قرطبة اذ ما عتم أن (احتل بقرطبة وتوفى فيها لاثنتى عشر ليلة بقيت من ذى القعدة سنة ٤٦٧ .)(٢) ويقول ابن خلدون انه قد مات مسموما(٣) . ولانستبعد أن يكون ذلك قد تم بتدبير من ابن عكاشه . فالعلاقات بين الرجلين كان يسودها حالة من الفتور والجفوة . ولابد أن ابن عكاشة قد لمس اثر ذلك فى نفس المأمون ونظراته له(٤) ، فأعجل بالتدبير عليه ، ولانتصور فى أنه كان للمعتمد يد فى مقتله ، طالما لم يكن هناك دليل.(٥)

ومهما يكن من أمر فقد أعلن ابن عكاشه تبعيته ليحيى ابن اسماعيل بن المأمون الملقب بالقادر حفيد المأمون المذكور ، وخليفته من بعده(٦) .

---

(١) : قلائد العقيان ، ص١٢ ــ ١٣ .
(٢) : ابن الخطيب : اعمال الاعلام ، ص١٥٨ ــ ١٥٩ .
(٣) : العبر ، مجلد ٤ ، ص٣٤٣ ــ ٣٤٤ .
(٤) : يقول على ادهم ان المأمون (كان فى صميم نفسه يخشى هذا اللص المغامر المتمرس بالجرائم ، وكان يرى أن من تطاول على قتل الامراء وابناء الملوك لا يؤمن شره ، ولذلك شرع يتحين الفرص للخلاص منه ، ولم يستطع كتمان ذلك عن حاشيته . ففى ذات يوم دخل عليه ابن عكاشه فرحب به وادناه وهش له . فلما خرج تنفس الصعداء وأتبعه نظرة شوهاء ، وهينم بكلمات نال بها منه ، ولما سأله أحد رجال حاشيته عن سبب ذلك قال : من اجترأ على الملوك لا يصلح للملوك .)
انظر ، المرجع السابع ، ص١٤٥ .
(٥) : أشار ليفى بروفنسال الى امكانية ذلك .
انظر : الاسلام فى المغرب والاندلس ، ص ١٢٩ .
(٦) : ابن الابار : الحلة السيراء ، ج ٢ ، ص١٧٦ ــ ١٧٧ .

ويبدو أن أهواء أهل قرطبة كانت تميل الى الانضواء تحت سلطة العباديين رمز الأرستقراطية الأندلسية ، بل لنقل رمز العنصر العربى كله فى وجه البربر . فليس خفيا أن بنى ذى النون وان كانوا قد تعربوا الا أنهم يعودون الى أصل بربرى . بالاضافة الى أنه من الصعب على أهل قرطبة الاطمئنان الى جانب مغامر أفاق لاخلاق له تجرأ على قتل الملوك كما يقول المأمون بن ذى النون نفسه الذى ذهب ان صحت رواية ابن خلدون ضحية تدبيره . نقول من الصعب على أهل قرطبة الاطمئنان اليه ، لذلك فقد راسلوا المعتمد يعلنون له عن رغبتهم الصادقة فى عودة سيطرته على مدينتهم ، ويتعهدون بمساعدته وتقديم يد العون له (١). ولهذا فقد جهز المعتمد بعيد موت المأمون المفاجئ بفترة وجيزة جدا (٢) جيشا توجه الى قرطبة ، واستطاع بمساعدة أهلها أن يقتحم المدينة ويحتلها .

---

(١) : أورد صلاح خالص رسالة كتبها المعتمد يشرح فيها تفاصيل وظروف استعادة قرطبة ، توضح تماما ما ذهبنا اليه من أن أهل قرطبة كانوا يميلون الى عودة سلطة بنى عباد الى مدينتهم ويتعهدون بمساعدته ومعاونته . وتشير تلك الرسالة الى أن تلك الفئة التى ساعدت ابن عكاشه لم تكن الا فئة ضئيلة الشأن قليلة العدد ، مأجورة مسخرة لا يعتد بها .
أنظر : المعتمد ابن عباد الاشبيلى ، ص ١٢٨ – ١٢٩ .

(٢) : نميل الى تأييد ما ذهب اليه صلاح خالص من تصحيح لتأريخ استعادة المعتمد لقرطبة . وذلك فى تصحيحه لما أورده عبد الواحد المراكشى الذى قال بأن ذلك قد حدث عام ٤٧١ هـ / ١٠٧٨ م . وتبعه فى ذلك بعض المؤرخين المحدثين الذين تناولوا شرح احداث تلك الفترة ، كدوزى ، وعلى أدهم ، وعبد الوهاب عزام . وذلك لان ابن الخطيب فى كتابه اعمال الاعلام اشار الى أن استعادة قرطبة قد وقعت بالتحديد فى ٢٧ ذى القعده عام ٤٦٧ هـ (١٤ يوليو ١٠٧٥ م) لاتشير فى قليل أو كثير الى أن المعتمد ظل يحاصر قرطبة ثلاث سنوات قبل أن يقتحمها .
انظر : المعجب ، ص ١٨٩ – ١٩٠ . – اعمال الاعلام ، ص ١٥٩ . –
صلاح خالص : المعتمد ابن عباد الاشبيلى ، ص ١٢٨ – ١٢٩ . – دوزى ، المرجع السابق ، ص ٢٣٧ . – على أدهم ، المرجع السابق ، ص ١٤٦ . – عبد الوهاب عزام ، المرجع السابق ، ص ٩٤ .

وقد حاول ابن عكاشه الفرار ، الا أن رجال المعتمد قبضوا عليه وجيئ به الى المعتمد فقتل وصلب مع كلب امعانا فى التشفى والتنكيل . وبسط المعتمد اثر ذلك سيطرته على اجزاء مهمة من مملكة طليطلة تشمل جميع ممتلكاتها بين نهر الوادى الكبير ، ووادى آنه . وقد عهد المعتمد بأمر قرطبة لابنه المأمون الملقب بالفتح (١) والذى بقى حاكما لها حتى مجيئ المرابطين وقتله على يديهم كما سنتناوله قادما ان شاء الله .

كما امتدت حدود مملكة اشبيلية الى مدينة لورقة التابعة لمملكة ألمرية ، فقد انشق صاحبها عن المعتصم بن صمادح أمير ألمرية ، ثم اعترف بالطاعة للمعتمد ابن عباد . وبقيت المدينة فى حوزة مملكة اشبيلية حتى سقوط دولة بنى عباد على يد المرابطين كما سيأتى .

ظهور الوزير محمد بن عمار على المسرح السياسى ودوره فى توجيه جهود المعتمد نحو التوسع :-

كانت الاحداث التى عرضنا لها فى حديثنا عن جهود المعتمد بالله للاستيلاء على قرطبة وماتبعها بعد ذلك من احداث اخرى . نتيجة لسياسة وضعها المعتمد بمفرده كما رأينا . أما الجهود الاخرى للمعتمد فى توسيع رقعة دولته ، فقد كانت نتاج سياسة وضعها وزيره محمد بن عمار ، وأقره عليها المعتمد بعد ذلك .

وفى الحقيقة لقد ارتبطت سياسة اشبيلية الخارجية فى عهد المعتمد بمحمد بن عمار الذى طبعها بطابعه الخاص ردحا غير يسير من الزمن حتى لنكاد لانجد غضاضة من أن نوافق من يدعو سياسة المعتمد الخارجية بسياسة محمد بن عمار (٢) . اذ لعب دورا رئيسيا فى توجيه سياسة

---

(١) : ابن خلدون : المصدر السابق ، ص ٣٤٣ ـ ٣٤٤ .

هذا مايقوله ابن خلدون ، اما عبدالوهاب عزام ففى كتابه المذكور سابقا كثير من الخلط فى تحديد السنوات ، وتحديد من من أبناء المعتمد تولى شأن قرطبة أول مرة ، وكذلك بعد عودتها الى المعتمد ثانية .

انظر : المرجع السابق ، ص ٩٤ ، وص ٩٦ ـ ٩٧ .

(٢) : كصلاح خالص فى كتابه : محمد بن عمار الاندلسى ، ص ٨٥ .

المعتمد الخارجية ورسم خطوطها . واسم محمد بن عمار قد لامس أسماعنا في حديثنا عن المعتضد بالله ، ورأيناه يدبج القصائد في تمجيد المعتضد والاشادة بأعماله وفتوحه كما مر بنا سابقا ، لذا فنحن ملزمون باستجلاء بداية رحلته نحو السياسة الاشبيلية وبداية العلائق بملوكها .

ينتمي محمد بن عمار الى أسرة عادية من عامة الناس في المجتمع الاندلسي ، ولد في قرية من أعمال مدينة شلب تدعى شنبوس ، ويكنى بأبي بكر ، وقد شب في مدينة شلب الواقعة في غربي الاندلس وتلقى علومه في الدين والادب على يد رجالها وشعرائها . وقد بدأت مخايل الادب ، وبذور الموهبة الشعرية تصبغ حياته مذ رحل الى قرطبة حيث اختلط بالصفوة من ادبائها وعلمائها ، فصقل ذلك شاعريته وفجرها (١) . ومن قرطبة بدأ رحلته في التسيار في اقاليم الاندلس مادحا ، مشيدا متكسبا (لا يخص بمدحه الملوك دون غيرهم ، بل لا يبالي ممن أخذ ولا ممن استعطف من ملك او سوقة .(٢)

وقد أسر سحر بلاط المعتضد واشراقه لب ابن عمار . فألقى عصا التسيار في عاصمته بعد طول تجوال في ممالك الاندلس . وفي اشبيلية ألقى بين يدي المعتضد قصيدته الرائية المشهورة التي أشرنا اليها سابقا ، والتي لاقت من المعتضد الاعجاب والاستحسان . فأمر بأن يكتب في ديوان الشعراء وأن ينتظم فيه (٣) .

وفي بلاط المعتضد انعقدت أواصر صداقة متينة بين ابن عمار ، وبين ابن المعتضد وولي عهده الفتى محمد الملقب بالمعتمد فيما بعد . وكان توثق العلائق الوشائجية السريع جدا بين الاثنين مثار تساؤل واستعجاب . وفي الحقيقة فقد كانت هناك خلال وصفات جمعت بينهما . فكلاهما كان شابا يافعا وان كان ابن عمار يكبر المعتمد بتسع سنوات . اضافة

---

(١) : عبد الواحد المراكشي : المصدر السابق ، ص ١٧٢ ـ ١٧٣ .

(٢) : نفس المصدر ونفس الصفحات .

(٣) : نفس المصدر ، ص ١٧٣ ـ ١٧٦ .

الى هذا كانت تربط بين الاثنين صفة جامعة مشتركة هى نظم الشعر وتذوقه • ولا خفاء فى أنه كان للشعر فى العصور الاسلامية دور رئيسى لافى حياة الشعوب فحسب بل وفى حياة الدول والممالك ايضا • فالشعر عدا كونه أهم وسيلة للاعلام الرسمى والشعبى فى تلك العصور ، وهو ما تمثله اليوم الصحف والمجلات والاذاعة الصوتية والمرئية ، فانه كان الوسيلة الاكثر فاعلية فى التعبير عما يختلج فى النفس البشرية بكل حالاتها وتطلعاتها وآمالها وآلامها وأتراحها وأفراحها • ومن هنا نستطيع القول بأن نظم الشعر وتذوقه الذى يجمع بين ابن عمار والمعتمد كان الرابطة الأوثق فى الجمع بينهما • وعدا هذا وذاك كان الاستعداد الفطرى للهو والمجون والانسياق وراء اللذات الذى يجمع بين الاثنين صفة ثالثة تقربهما لبعضهما بعضا •

والواقع أننا نستطيع أن نلمس قواسم مشتركة بين الصديقين شدتهما ببعض ، ووثقت علائقهما بدرجة تذكرنا بالعلاقة التى كانت قائمة بين هارون الرشيد وجعفر البرمكى • وقد أفاض المؤرخون القدامى والمحدثون (١) فى وصف تلك العلاقة التى كانت بين المعتمد وابن عمار ما يعفينا عن الاسهاب فى التحدث عنها •

ويكفى أن نورد لعبد الواحد المراكشى وصفه لتلك العلاقة اذ يقول (ثم تعلق بالمعتمد على الله ، وهو اذ ذاك شاب ، فلم تزل حاله تتزيد ، وتوالت خدمته له تقوى وتتأكد الى أن صار ابن عمار اقرب اليه من شعيرات فصته ، وأدنى اليه من حبل وريده •) (٢)

وعندما استطاع المعتضد أن يبسط سيطرته على امارة شلب عام ٤٥٥هـ/١٠٦٣م ، ولى ابنه المعتمد ولايتها • وقد استدعى المعتمد اثر ذلك صديقه وأليف روحه محمد بن عمار اليه فى شلب ، وعهد اليه بالوزارة ، وشهدت أيامهما فيها الكثير من مغامرات الصبا وعبث الفتوة

---

(١) : من المؤرخين القدامى الذين افاضوا فى الحديث عن ابن عمار وعلاقته بالدولة العبادية : ابن بسام ، وابن الابار ، والمقرى • ومن المحدثين صلاح خالص الذى ألف مؤلفا سماه : محمد بن عمار الاندلسى ، وكذلك ثروت اباظه الذى ألف كتابا بهذا العنوان •

(٢) : المصدر السابق ، ص ١٧٦ •

واليفاعة ظلت ماثلة في ذهن المعتمد حتى بعد توليه الملك .(١)

على أننا ما نلبث أن نفاجأ بالمعتضد يأمر بالتفريق بين ابنه وصديقه ولصيق روحه كما يقول عبد الواحد المراكشي . ولا يهمنا هنا تتبع ما حدث هناك ، فالواضح أن ثمة مسلك مشين كان يسلكه الصديقان في شلب ، جعل المعتضد يتضايق جدا من الاشاعات والاقاويل التى تلوكها الألسن عنهما . فأمر بالتفريق بينهما ، يقول صاحب المعجب (وساءت السمعة عنهما فاقتضى نظر المعتضد التفريق بينهما ، ونفى ابن عمار عن بلاده حسبما تقدم الايماء اليه ، فلم يزل ابن عمار مغتربا في اقاصى بلاد الاندلس الى أن توفى المعتضد بالله .)(٢)

وعلى أية حال وكمتتبعي أحداث وتاريخ لا يهمنا من تفاصيل اغتراب ونفى ابن عمار الا القدر الذى يرتبط بموضوعنا فقط . وعلى هذا فنحن لانجد من تلك التفاصيل الا ما يشير الى القصائد التى بعثها ابن عمار من منفاه للمعتضد ، وابنه المعتمد مسترحما مستعطفا متبرما متأففا . وعندما توفى المعتضد تبسم فم الزمان لابن عمار ، فها هو صديقه ورفيق درب اللهو والاستمتاع باللذات يصبح الرجل الاول في الدولة . وبالفعل لم يخب المعتمد لصديقه رجاءا ، (فاستدعاه المعتمد وقربه أشد تقريب حتى كان يشاركه فيما لا يشارك فيه الرجل أخاه ولا أباه .)(٣)

---

(١) : بعث المعتمد الى صديقه محمد بن عمار واليه على شلب بقصيدة يتشوق فيها الى الايام السعيدة التى قضياها في تلك المدينة .
وفي هذه القصيدة يقول :

ألا حى أوطانى بشلب أبا بكر   وسلهن هل عهد الوصال كما أدرى

ويقول فيها ايضا :

لليال بسد النهر لهوا قطعتها   بذات سوار مثل منعطف البدر

أنظر ابن الابار : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٣٢ .

(٢) : عبد الواحد المراكشي ، ص ١٧٦ .

(٣) : عبد الواحد المراكشي ، نفس المصدر ، ص ١٧٦ .

وقد قيل في وصف صفات ابن عمار الكثير ... الكثير يعنينا منها ما اتفق عليه المؤرخون من أنه كان مغامرا انتهازيا وصوليا ذا اطماع ومطامح واسعة ، وذا شخصية قوية نافذة متسلطة . كما يهمنا من تلك الاوصاف ما اتفقت عليه الكلمة من أنه كان سياسيا داهية ، ودبلوماسيا محنكا [١] اتضحت معالم تلك الصفات وبرزت عند ما تمنى ابن عمار على مليكه وصديقه أن يعهد اليه بحكم ولاية شلب (وهي بلده ومنشأه كما تقدم ، فأجابه المعتمد الى ذلك وولاه اياها أنبه ولاية جعل اليه جميع أمورها ، خارجها وداخلها . [٢]

ويبدو أن افتقاد المعتمد لساعات الانس واللذة اللتين كان يحياهما الصديقان قد أذكت في نفس المعتمد شوقا مبرحا [٣] ، جعله يبعث الى صديقه ويستدعيه الى اشبيلية حيث هو ، فيعزله عن شلب ويعهد اليه بمنصب اهم ومركز اخطر وهو الوزارة [٤] .

وسنألف منذ الان فطالما التعامل مع لقب الوزير ابن عمار الذي غدا المهيمن الرئيسي على السياسية الخارجية الاشبيلية والموجه لها ، ولاندري في الحقيقة تماما ما كان عليه الامر وقتذاك في الدولة وفي منصب الوزارة بالذات . فنحن نعرف أنه كان هناك وزير ذو أهمية بالغة في دولة اشبيلية ، ونعني به الوزير الشاعر ابن زيدون . واذا كنا لم نشر للوزير ابن زيدون وأعماله في عهد المعتضد وهو الذي كان وزير دولته ، فذلك لاننا قد آثرنا التحدث عنه عند حديثنا عن الحياة الادبية قادما من جهة ، ولكون شخصية المعتضد النافذة المتسلطة لم تكن تسمح لبروز أي نفوذ أو سيطرة لأي من كان مهما بلغت مكانته من جهة أخرى . نقول اننا لم نستطع معرفة صلاحيات الوزير ابن زيدون ، كما لم نستطع معرفة ما يخص ابن عمار منها أيضا .

---

(١) : انظر ، صلاح خالص : محمد ابن عمار الاندلسي ، ص ٧٥ ــ ٨٢ .

(٢) : عبدالواحد المراكشي ، ص ١٧٦ .

(٣) : يرى صلاح خالص في كتابه المذكور اعلاه ، ص ٨٣ ــ ٨٤ أن عودة ابن عمار من شلب الى اشبيلية لم تكن تنم عن اسباب عاطفية وانما كانت لاسباب سياسية تخدم كليهما .

(٤) : عبدالواحد المراكشي : نفس المصدر السابق ، ص ١٧٦

ولكن ما نستطيع الجزم به هو التأكيد على المكانة العالية الرفيعة التى بلغها ابن عمار[(١)] (وأن المعتمد لم يزل يعده لكل أمر جليل ويؤهله لكل رتبة عالية ، وكان ابن عمار لا يناط به أمر الا اضطلع به وكان فيه كالسكة المحماه ٠)[(٢)]

على أن اخطر ما اضطلع به ابن عمار فى عهد المعتمد هو مداخلاته وصداقاته وسفاراته مع أمراء وملوك النصارى فى اسبانيا ٠ فقد اتفق على الاشادة بسياسته تلك وصداقاته ومداخلاته التى رسمها لتحقيق ما يطمع اليه هو أولا من صيت وشهرة ومجد ذائع - وهو مانجح فيه - ثم تحقيق رغبات المعتمد وتطلعاته فى التوسع ثانيا ٠[(٣)] وفى الحالتين كان هو المستفيد الاول ، ونستشهد هنا بعبد الواحد المراكشى فى وصفه لمكانة ابن عمار (وشهر امره ببلاد الاندلس حتى كان ملك الروم الاذفنش[(٤)] اذا ذكر عنده ابن عمار قال : هو رجل الجزيرة ٠)

وما دمنا بصدد الحديث عن دور ابن عمار فى رسم السياسة الاشبيلية تجاه الممالك النصرانية ، فلا يمكننا الا أن نقر بأن سياسة الوزير ابن عمار هذه كانت تقوم على مبدأ سياسى واضح هو توثيق الروابط

---

(١) : يرى بعض المحدثين كصلاح خالص وغيره أن ابن عمار استطاع بدهائه أن يتخلص من غريمه وشريكه فى الوزارة الاشبيلية ابن زيدون باقناع المعتمد بضرورة بعثه الى قرطبة لاخماد ثورة اليهود التى قامت هناك٠ وكان يقصد من ذلك ابعاده عن مليكه ليخلو له الجو ويحتكر صداقته ، الا أن الارادة الالهية شاءت أن تزيح ابن زيدون عن طريق ابن عمار ، اذ لم يلبث ابن زيدون أن توفى عام ٤٦٣هـ/١٠٧١م بعد قليل من بدء مهمته ٠

انظر ، محمد ابن عمار الاندلسى ، ص ٧١ - ٧٣ ٠ - دائرة المعارف الاسلامية ، ج ١ ، ص ١٨٦ - ١٨٧ ، وص ٢٤١ - ٢٤٢ (مادة ابن عمار ٠)

(٢) : عبد الواحد المراكشى : المصدر السابق ، ص ١٧٨ ٠

(٣) : نفس المصدر ، ص ١٧٨ - ١٧٩ ٠

(٤) : الاذفنش : الاسم المعرب لألفونسو السادس ابن فرناندو الاول الذى تدور الحوادث التى سبقت موقعة الزلاقة بينه وبين المرابطين ،

وتأكيدها مع ممالك النصارى وخاصة مملكة قشتاله ومليكها ألفونسو السادس الذى بلغ من خطره السياسى والعسكرى أن اصبح كما يقول صلاح خالص الوحيد القادر على فرض رأيه ووجهات نظره فى الصراع القائم بين ملوك وأمراء الممالك الاسلامية[١] . ولذا فقد كان ابن عمار يدرك أنه لكى يحقق مشاريع مليكه وما تعود عليه هو ثانيا من فوائد شخصية بعد هذا ، عليه أن يوثق علاقته مع الملك القشتالى وحده . فكان من الطبيعى أن تنعقد أواصر صداقة متينة بينه وبين ألفونسو السادس دفعت فى الواقع كثيرا من الاشكال والمصائب عن مملكة اشبيلية بفضل تلك الصداقة . ويروى لنا عبد الواحد المراكشى[٢] قصة رواية طريفة تقوم على خدعة ذكية خلاصتها أن ابن عمار استطاع فى وقت من الاوقات التى كان الفونسو يشدد فيها ضغطه على اشبيلية ، استطاع بفضل تلك الخدعة الذكية التى مارسها مع الفونسو أن يرد الهجوم الكاسح الذى كان الفونسو يبيته ضد اشبيلية . ولكنه لم يفعل ذلك الا مرغما وبعد أن ضاعف له ابن عمار الجزية السنوية المقررة على اشبيلية .

كما أن مما يشهد لابن عمار بالبراعة السياسية قول عبد الله ابن زيرى ملك غرناطة عنه (ولانه قد استمال النصارى وانداخل معهم بحيلة ، فمتى داهمه أمر من قبلهم وجهه[٣] اليهم فينجلى من أمرهم ما يضيق الصدر به .)[٤]

على أن مما يشهد لابن عمار بالبراعة السياسية الفائقة أيضا أنه كان فى مفاوضاته الشاقة مع النصارى لا ينساق اطلاقا فى التفريط لهم فى الاراضى . وانما كان يضحى لتفادى ذلك بأموال جسيمة باهظة[٥] . وهذا ما يؤكد ما ورد فى قصة عبد الواحد المراكشى .

= والحوادث التى أعقبتها بعد ذلك حول شخصه . وهو الذى تدور حوله أيضا علاقات ملوك الطوائف فى عهد المعتمد بالله مع مملكة قشتاله .

(١) : محمد ابن عمار الاندلسى ، ص ٧٦ .

(٢) : المصدر السابق ، ص ١٧٨ — ١٨٠ .

(٣) : المقصود به المعتمد .

(٤) : التبيان أو مذكرات الامير عبد الله بن بلقين بن زيرى ، ص ٧٦

(٥) : صلاح خالص : محمد ابن عمار الاندلسى ، ص ٨٦ .

سياسة الوزير ابن عمار تجاه مملكة غرناطه :

قبل أن نحدد طبيعة هذه السياسه وما نتج عنها من أحداث ، يجدر بنا أن نلم بنتف من أحوال مملكة غرناطه ، وشيء من طبيعة العلاقات بينها وبين مملكة أشبيليه حتى يكون تناولنا للأحداث طبيعيا وموضوعيا ..

قلنا أن مملكة غرناطه كان يحكمها غداة تولى المعتمد السلطة باديس بن حبوس الصنهاجي . وذكرنا أنه خرج من محناته ومشكلاته الداخليه كأقوى ما يكون ، الا أنه توفى بعد هذا فى عام ٤٦٥ هـ/١٠٧٣م ، بعد حكم استطال الى أكثر من ثلث قرن . ورغم أنه قد ترك أبنا يدعى ماكسن ، الا أنه لم يعهد اليه بولاية العهد لسوء سيرته ، ولخروجه عليه ، ولعدم أهليته لذلك . ولذا فقد عهد بمملكته الى حفيديه عبد الله بن بلقين وأخيه تميم بن بلقين ، على أن تكون العاصمه غرناطه وذواتها لعبد الله ، وما لقه الى أخيه الأكبر تميم الذى كان يتولاها منذ عهد جده .(١)

ولن ندخل فى تفاصيل أخبار مملكة غرناطه ، فما يهمنا هو الاشاره الى أن عبد الله بن بلقين الذى خلف جده على مملكة غرناطه كان يفتقد الى كثير من صفات جده التى أستطاع بها حفظ أطراف مملكته ، والمحافظة على دولته قوية مرهوبة الجانب داخليا وخارجيا . فلقد كان ضعيف الشخصيه متهالكا رغم ما حاول رسمه عن نفسه فى مذكراته الوثائقيه المعروفة بالتبيان والتى نشرها ليفى بروفنسال بعنوان : مذكرات الامير عبد الله . وكان بجانب ذلك صغير السن لم تحركه التجارب ، وتصقله السنون بعد .

وقد حاول المعتمد أن يستأنف معه الدور الذى مارسه أبوه وجده من قبل مع البربر عموما . ونحن هنا فى هذا الصدد لا نميل الى الاخذ بما ذهب اليه محمد عبد الله عنان

---

(١) : محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ، ص ١٣٩ ، ص ١٤٢ .

في تفسيره لسياسة العباديين مع البربر التي تقوم كما يقول على التوجس منهم والقضاء على سلطانهم . أذ أنه يعلل سبب هذا الصراع بأنه صراع حضاري بين العرب الذين يمثلهم العباديون ، والبربر في الأندلس عموما (١) . فنحن لا نميل الى أخذ هذا التعليل في الاعتبار ، ذلك لأن الصراع كان أبعد ما يكون عن أن نفسره بأنه صراع حضاري محض . كما أننا لا نزعم بأن العباديين قد نصبوا أنفسهم القوة العربيه المقابلة للقوة البربريه . وبمعنى آخر أن العباديون لم يكونوا ينظرون أطلاقا الى صراعهم مع البربر بمنظار عصري يبدو كمحور لسياسة رسميه . فبنو عباد سبق لهم أن تلوا عروش أمارات عربيه صميمه . ولا نزعم أيضا أنهم كانوا يتطلعون في فتوحاتهم وتوسعاتهم من منظار قومي يهدف الى تضييق الشقة ويدعو الى الوحدة وعدم التجزء حتى لو كان ذلك بالقوة المسلحة اذا أقتضى الامر ذلك . فسياستهم لم تكن الا سياسة أشبيلية محليه فقط تهدف الى بسط سيطرة مملكة أشبيليه على كل بلاد الاندلس بأعتبار أن حكامها مفوضين من قبل الخليفه هشام المزعوم كما يدعون لقيادة الاندلس كلها . وعندما مات الخليفة المزعوم عهد الى المعتضد كما يقولون أيضا لأن يكون أميرا على الاندلس كلها من بعده (٢) .

ولهذا كله أنطلق العباديون في جهودهم لتوسيع رقعة دولتهم لا يبالون بالاقدام على فعل أي شيء يوصلهم الى هدفهم المنشود . ومن حق النزاهة التاريخية علينا هنا أن نشير الى أن المعتمد رغم أنه كان يختلف عن جده وعن أبيه من حيث الغلظة والقسوة والجبروت ، الا أنه كان أكثرهم أنتهازية ووصولية . فقد سمح لنفسه بمداراة النصارى ، والامر منه الاستعانة بهم ضد أخوانه من المسلمين لتحقيق أغراضه . وهو أمر بالغ الخطوره والخزي خلت صحيفة أبيه وجده من معرتها .

---

(١) : المرجع السابق ، ص ٦٢ — ٦٣

(٢) : أنظر قبل ، ص ١٣١

وعلى أية حال فقد أستمد المعتمد لتوسيع رقعة دولته على حساب مملكة غرناطة جارته من الجنوب الشرقى • أذ رأى هو ووزيره ابن عمار أن مملكة غرناطه قد وصلت الى غاية من الضعف والخور مثلها مثل مملكة قرطبه • ورأيا فيها أيضا تفاحة قد نضجت وحان قطافها ، فجندا نفسيهما للعمل على الأجهاز عليها • ولكى تتضح معالم أحداث تلك الجهود لابد لنا من عودة على ذى بدء • ما تحدثنا عن الموقف السياسى فى الاندلس غداة تولى المعتمد السلطه • أذ كنا قد أشرنا الا أن الفونسو السادس أستطاع أن يصبح سيد اسبانيا النصرانيه شبه المطلق بعد تلك السلسله من الحروب الاهليه ، والأحداث الاخرى التى عرضنا لها • ولم يعد فى الاندلس بدأ من عام ٤٦٤هـ / ١٠٧٣م ، وهو العام الذى تربع فيه الفونسو السادس على معظم أسبانيا النصرانيه الى مملكته الواسعه ، وأمارة برشلونه فى الشمال الشرقى (١) •

وقد بدأ خطره يتعاظم شيئا فشيئا مذ أستتبت له الأمور ، وكان فى الحقيقة أشد خطرا من أبيه • وأكثر منه أنتهازيه ، وكانت سياسته فى الواقع أشد دهاء ومكرا من سياسة أبيه • فوالده فرديناند كان حاضرا متأهبا في كل الأوقات لتلبية أى دعوة من أى مملكه أو أمارة اسلاميه • وكان لا يجد حرجا من نقل ولائه ومساعدته لمن يدفع أكثر • أما أبنه الفونسو السادس فقد فاقه فى هذا وبزه • بل أنه أنتهج سياسة ماكره تهدف الى أنهاك قوى خصومه المسلمين الماليه والعسكريه بفضل الحصار الطويل والشديد الذى يضربه على معاقلهم • ثم يرفع ضغطه عن هذه المعاقل بعد أن يكون قد أستطاع أمتصاص قواهم العسكريه والماليه • ومن ثم يسهل عليه بعدئذ القضاء على استقلال تلك المعاقل (٢) •

وستتضح معالم هذه السياسه بعد قليل فى موضوعاتنا القادمه أن شاء الله وسيتضح معها أن حكام الممالك الاسلاميه فى الاندلس أنزلقوا فى تورط مفزع الى خدمة مشاريع الفونسو السادس والاسهام فيها بسوء سياستهم بقصد وبغير قصد •

---

(١) : أنظر قبل ، ص ١٨٧ - ١٨٨ -
(٢) : أنظر فى هذا : عبد الله بن بلقين بن زيرى : التبيان ، ص ٧٣

فكر المعتمد ووزيره ابن عمار فى مهاجمة مدينة جيان (١) ذات الاهمية العسكريه والتى تقع الى الشمال الشرقى من ولاية قرطبه . ومن ثم العمل على الاستيلاء عليها . وبالفعل أستطاع المعتمد أن يضم هذه المدينه الى مملكته وينتزعها من صاحبها عبد الله حفيد باديس عام ٤٦٦ هـ/ ١٠٧٤م (٢). ثم فكر بعد ذلك فى مهاجمة غرناطة نفسها ، الا أن وزير الدولة الغرناطيه النافذ المدعو سماجه الصنهاجى استطاع أن يبدى قدرا من الحزم عظيم . فحصن المدينه وأتخذ العدة للمقاومة ، مما جعل المعتمد ييأس ويرفع حصاره عنها (٣) . وفى تلك الاثناء شاء الفونسو السادس أن يوسع ضغوطه نحو مملكة غرناطه وأن يحاول أجبارها على الانسياق فى تنفيذ سياسته بأرغامها على دفع الجزية شأنها شأن غيرها من ممالك الطوائف الأخرى وكان هذا دليلا ساطعا على رغبته فى جر الممالك الاسلاميه نحو الغاية التى خططها بدقة . فقد بعث الى عبد الله بن زيرى يطلب منه أن يدفع له عشرين ألف دينار كجزية مفروضة مستغلا حرج موقف المملكه . وفى هذا الصدد يقول ابن زيرى نفسه (وأما الفونش لما تيقن هذه الفتن ، علم أن ذلك من أكبر سعادته ، ومن أعظم فرصة فى طلب الأموال . فأرسل الينا رسوله : أول مداخلة نشأت بيننا وبينه ، فأتى باطر شولش (٤) يطلب منا ضريبته ، فأبينا عليه وأجتمع رأينا على أن لا نفعل . وأن ضرر الفونش لا يخشى وغيرها أمامنا . نعنى بذلك أبن ذى النون . ولم نقس أن أحدا يعاقده على مسلم . فأنصرف عنا دون عمل .) (٥)

---

(١) : جيان مدينة وكورة فى التقسيم الادارى للاندلس الاسلامى . والبلد يقع على نهر الوادى الكبير الى شرق قرطبه ، أما البلد فيقع على السفح الشمالى الشرقى لجبل كوز Jabalcuz غربى وادى بلون Guadalbullon والبلد يقع على ارتفاع ٥٤٩ مترا ، ولهذا يصفه جغرافيو العرب بالحصانة والامتناع وخاصة قصبته . وجيان اليوم مديرية واسعة من مديريات منطقة الاندلس (فى جنوب اسبانيا) .

أنظر ، ابن الابار : الحلة السيراء ، ج ٢ ، ح ١ ، ص ١٢١ .

(٢) : محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ، ص ١٤٢ . رقم ٣

(٣) : ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، ص ٢٣٤ .

(٤) : سفير اسبانى نصرانى بعثه الفونسو السادس لأخذ الجزيه من مملكة غرناطه كما هو واضح .

(٥) : عبد الله بن بلقين بن زيرى : المصدر السابق ، ص ٦٩ .

ولكن ابن زيري كان واهما ، فالعصر الذى يعيش فيه عصر تغيرت فيه المفاهيم ، وقوضت فيه المثل ، واصبحت صفات الوصولية والانتهازية وغيرهما دلالة على ذكاء خارق وسياسة محنكة . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فهذا دليل على عدم أهلية عبدالله للحكم وقلة تجاربه ومحدودية ثقافته ، فالاندلس قد شهدت فى عهد جده نوعا من هذا التعاون الذى يستبعده .

وأيا ما كان الأمر فقد انصرف السفير النصرانى غاضبا ومتوعدا بأوخم النتائج . وفى طريقه الى بلاده التقى فى مدينة باغة (١) بوزير مملكة اشبيلية محمد بن عمار الذى كان يترصد مجيئه . ودخل الاثنان فى مفاوضات سياسية اتضح منها المدى الكبير الذى انزلق فيه المعتمد ووزيره ابن عمار على السواء فى تحقيق رغباتهما الشخصية .

ويروى عبدالله بن زيرى بكل امتعاض وحنق ماحدث بقوله (وان ابن عمار انتهز هذه الفرصة وكان منتظرا له بباغة مرتقبا لما يصنع معنا ، فلما رأى انه لم يتم له عمل ، ألقى يده فيه على المقام وقال له : ان كنتم منعتم عشرين ألف دينار " وهى التى سأل عن ضريبته " (٢) فنحن نعطيكم خمسين ألفا ، على أن نعاقدكم على غرناطة ، تعطونا القاعدة ولكم مافيها من الأموال ، فعاقده على ذلك .) (٣) ومعنى هذا أن ابن عمار كان يهدف الى أخذ الاذن من الفونسو باطلاق يده ويد مليكه بمهاجمة مملكة غرناطة والاستيلاء على عاصمتها مطمئني البال الا أن الفونسو سوف لن يعارض فى هذا ، أو بمعنى آخر لن يعارض فيما سيحدث من تغيير من توازن القوى آنذاك . وذلك على اعتبار أن الفونسو سوف لن يخسر شيئا بل على العكس فان المبلغ الباهظ الذى دفعه له ابن عمار سيساعده على تقوية جيشه استعدادا لجولات أخرى .

---

(١) : باغة مدينة صغيرة ، هى غير باجة Beja ، المذكورة سابقا ، واسم هذه البلدة فى القديم اياغنوم Epagnumm أو باغو ، وتسمى اليوم عند الاسبان بريغو Priego .

انظر : شكيب ارسلان : الحلل السندسية ، ج ١ ، ح ٦ ، ص ١٣٠ ، وح ٢ ، ص ١٨٩ .

(٢) : مابين القوسين هو من تحقيق ناشر كتاب البيان ومحققه ليفى بروفنسال .

(٣) : عبدالله بن بلقين بن زيرى : المصدر السابق ، ص ٦٩ ــ ٧٠ .

وكان لهذا العمل دلالته الخطيرة فمجرد الاحتكام الى العدو النصراني والاتفاق معه في شأن اسلامي بحت يعني انتقاصا للسيادة الوطنية الكاملة لأية دولة من دويلات الطوائف ، ويعطي بعد ئذ الحق والمبرر لملوك النصارى في التدخل في الشئون الداخلية للممالك الاسلامية ، ومحاولة دس أنوفهم في همومها للوصول الى غاياتهم .

وقد نصت المعاهدة أيضا على أن يسمح لمملكة اشبيلية ببناء حصن أو قلعة أمام مدينة غرناطة يقفل عليها السبل ويضيق عليها الانفاس — وهي وسيلة عسكرية كانت سائدة في العصور الوسطى — . وقد اهتدى ابن عمار الى انتقاء مكان مناسب لهذا الحصن هو حصن بليلش القريب من غرناطة بمساعدة بعض الخارجين على المملكة الغرناطية (١) . وقد استطاع أن يبني ذلك الحصن بسرعة مذهلة بمساعدة بعض من مفرزات الجيش النصراني . يقول ابن زيرى (وأكرى ابن عمار من عسكر الفونش ما قوى به البنيان بأعداد من الاموال جسيمة ، يسوفهم فيها تارات ، ويمدهم ويخادعهم ، حتى تم البنيان . وجعل المعتمد يحاول ذلك بنفسه ، ويبرز أبدا على مقربة من غرناطة مدة كونه ، طمعا في أن يقوم معه أهل البلدة ، فلما تم بنيانه ، قواه بالندب ، واتخذ فيه جميع الاقوات وأمرهم بالتضييق ، وكانت الحال شديدة ... .) (٢)

ومن الواضح والطبيعي أن يؤثر هذا التضييق ، وذلك الاقفال للسبل على مملكة غرناطة ، رغم أن المعتمد وألفونسو قد غادرا مسرح تلك الاحداث . وحاول عبد الله بن زيرى جاهدا أن يخضع ذلك الحصن لنفوذه ، ولكنه لم يستطع فعل أي شيء . وقد أثرت هذه الاحداث في الجبهة الغرناطية الداخلية المضعضعة أصلا ، وقد أخذ ضغط الاحداث يعبيء في الشعور الشعبي القنوط واليأس من استمرارية بقاء الدولة ، وندم ابن زيرى على تفريطه في عدم موافقة ألفونسو عندما طلب منه الجزية مقابل مداراته . (٣)

---

(١) : عبد الله بن بلقين بن زيرى : المصدر السابق ، ص ٧٠ .

(٢) : نفس المصدر ، ونفس الصفحة .

(٣) : نفس المصدر ، ونفس الصفحة .

ونحن هنا نستبعد ما أورده محمد عبدالله عنان (١) من أن عبدالله ابن زيري هو الذي بادر بطلب معونة الفونسو أسوة بمعظم أمراء الطوائف. وأن المعاهدة التي عقدت كانت معاهدة حلف وصداقة ، تعهد فيها ابن زيري بدفع جزية قدرها عشرين ألف دينار . كما يقول عنان أيضا أن ابن زيري ووزيره سماجه الصنهاجي المذكور سابقا قد خرجا ومعهما سرية من الجند النصارى التي أمدهما بها الفونسو . وقد أغار الجيش على أراضي اشبيلية. واستطاع أن يسترجع حصن قبره (٢) الذي يقع في جنوب غربي جيان . نستبعد هذا لأن ابن زيري نفسه لم يشر الى هذه الاحداث في كتابه السالف الذكر. بل يقول انه في أول اتصال تم بينه وبين الفونسو وذلك عندما رفض اداء الجزية : (فأرسل الينا رسوله أول مداخلة بيننا وبينه فأتى ...) (٣) . ولو أننا افترضنا أن ابن زيري قد فاته رصد بعض الاحداث والاتيان بها ، فاننا لم نعثر على رواية مساندة تؤيد هذا الرأي ، بل ان محمد عبدالله عنان لم يورد عند روايته لهذه الاحداث مصدره أو مصادره التي اعتمد عليها .

شغلت هذه الاحداث الفترة من عام ٤٦٦ ـ ٤٦٧ هـ / ١٠٧٤ ـ ١٠٧٥ م . وقد أجهدت مملكة غرناطة كثيرا . على أن حدثا جليلا وخطيرا حدث في عام ٤٦٧ هـ بدل المواقف وخلط الأوراق السياسية في الجزء الجنوبي من الاندلس وأزاح عن كاهل غرناطة كابوسا ثقيلا ، ذلكم هو خروج قرطبة عن طاعة بني عباد ، وما حدث من مقتل عباد ابن المعتمد كما مر بنا سابقا (٤) . فقد أربك هذا الحدث سياسة اشبيلية ، وجعلها تنسق جهودها سراعا وتدفع باهتمامها نحو المشكلة المستجدة والنقطة المتفجرة . ومن هنا فقد أرغم ابن عمار على تغيير استراتيجيته ، فاضطر الى سحب جنوده من حصن يليلش والتوجه نحو قرطبة . وأعطى هذا الحادث لابن زيري الفرصة ليقول (فلما انقضت بقرطبة هذه الدائرة ، وسمع بالخبر أهل يليلش أخلوها على المقام ، ودخلها رجالنا ، وصارت في ملكنا مستبدة

---

(١) : دول الطوائف ، ص ١٤٢ ـ ١٤٣ .

(٢) : حصن قبره هو اسم لكورة من كور جنوب الاندلس . وقبرة اليوم Cabra مركز اداري في مديرية قرطبة .
أنظر ابن الابار : المصدر السابق ، ج ٢ ، ح ١ ، ص ٣٦٥ .

(٣) : انظر عبدالله بن زيري : المصدر السابق ، ص ٦٩ .

(٤) : انظر قبل ، ص ١٩٤ - ١٩٦

مبنية ، فنظرنا منها بالذى نصنع بقصبة غرناطة ، وتروح مخنقها من حيث لم يحتسب •) (١)

عودة الوزير ابن عمار لمحاولات التوسع على حساب مملكة غرناطة :ـ

لم تستطع مملكة غرناطة أن تنعم بالهدوء الذى أسبغته أحداث قرطبة طويلا • اذ ما ان أستطاع المعتمد أن يستعيد قرطبة حتى توجه الوزير ابن عمار نحو الهدف الثانى فى سلم أولويات السياسة الاشبيلية ، ولكنه فضل هذه المرة أن يتجه نحو ألفونسو السادس مباشرة ليعقد معه اتفاقية على غرار الاتفاقية الاولى ، وبنفس المبلغ الذى تعاقدا عليه فى المرة الاولى • ويقول ابن زيرى هنا (وبقى ابن عمار مرتهنا بما جعل على نفسه للنصرانى من كراء بليلش فى تبعات كثيرة ، وجرايات جسيمة يقطعها له ويمده بها ، وأدخل سلطانه من ذلك فى تشغيب ، لانه كان لا يريد أن يجعله يخلد الى راحة لكى يحتاج اليه فى تلك الفتنة لا يقر عن ادخال ضرر على المسلمين • ومتى ما كان المعتمد يسعى فى تهدين الأمر ونروم معه الصلح ، أو تنشأ مهادنة لا ينام فى نقضها واشعال نار الفتنة • فعاد ثانية الى النصرانى الفونش ، وزين له أمر غرناطة ، وصورنا عنده فى صورة من لا يقدر على شيئ من أجل الضعف وسن الصبا وأنه ضامن له أموال غرناطة لتصير اليه بأسرها • على أن يعاقده اذ تمكن من البلدة أن يجعلها ملكه ، وله ما لقى من أموالنا ، وألقى يده فى الفونش عازما عليه فى الاقبال عليها ، وأعطى على ذلك أموالا جسيمة ، ووعده بخمسين ألف مثقال اذا تمت القضية ، سيعطيها زائدة على ما يجد لمساعدته على السير • } (٢)

وهنا تتضح مكيافيلية الفونسو ـ ان صح هذا التعبير ـ بأوضح ما تنجلى عليه الصورة ، اذ أنه عمد الى الاستفادة من الجانبين وابتزازهما معا • وهذا ما لاحظه ابن زيرى نفسه عندما قال (فأدرك الرومى من ذلك طمع كبير وقال : "هذه نصبة لست أخلو فيها من فائدة ، وان لم تحصل البلدة !

---

(١) : التبيان ، ص ٧١ •

(٢) : نفس المصدر ، ص ٧٢ •

وأي فائدة لي في اعطاء بلدة من واحد لآخر الا تقويته على نفسي ؟ وكلما أكثر الثوار ، ووقع بينهم التنافس ، كان لي أفيد ! " فأتى على نية أخذ مال الفريقين ، يكسر رؤوس بعضهم ببعض . ولا كان أيضا في أمله أن يأخذ البلد لنفسه ، فانه عمل في ذلك حسابا أن قال : " انا من غير الملة ، وكل الناس يشنأني ، فبأي وجه أطمع في اخذها ؟ ان كان من باب الطاعة فأمر لا يمكن ، وان كان من وجه القتال ، فيهلك فيها رجالي وتذهب اموالي ، وتكون الخسارة علي أكثر مما نرجوه ان صارت الي . ولو صارت ، لم تتمسك الا بأهلها ، ثم لا يؤمنون ! ولا من المملكن أن نستبيح أهلها ونعمّرها بأهل ملتي ! ولكن الرأي ، كل الرأي ، تهديد بعضهم ببعض ، وأخذ أموالهم أبدا ، حتى ترق وتضعف ، ثم هي تلقى بيدها اذا ضعفت وتأتي عفوا) .⁽¹⁾ ويضرب المؤلف مثلا لما حدث بعد ذلك من سقوط طليطلة بقوله (كالذي جرى بطليطلة انما كان من فقر أهلها وتشتتهم ، مع اندبار سلطانها ، وصارت الي بلا مشقة ؟)⁽²⁾

كما يتضح هنا ما سبق أن قلناه عن سياسة الفونسو الماكرة التي تهدف الى انهاك قوى الخصوم ، واضعافها ليسهل عليه بعد ذلك القضاء عليهم . ورد ذلك في اشارة أحد مستشاريه الذين بعثهم للتفاوض مع مملكة غرناطة ونصها (انما كانت الاندلس للروم في اول الامر حتى غلبهم العرب وألحقوهم بأنحس البقاع : جليقية ، فهم الان عند التمكن طامعين بأخذ ظلاماتهم !! فلا يصح ذلك الا بضعف الحال والمطاولة ، حتى اذا لم يبق مال ولا رجال ، أخذناها بلا تكلف !)

ومن أسف أن رد فعل ملوك الطوائف آنذاك كان سلبيا مخزيا متهالكا . ويشرح أحدهم وهو ابن زيري نفسه رد فعلهم ومواقفهم آنذاك بقوله (فكان الجميع يساير الأمور ، ويدافع الايام ، ويقول : من هنا الى أن تتم الاموال ، وتهلك الرعايا بزعمهم ، يأتي الله بالفرج وينصر المسلمين !)⁽³⁾

---

(١) : المصدر السابق ، ص ٧٢ ـ ٧٣ .

(٢) : نفس المصدر ، ص ٧٣ .

(٣) : نفس المصدر والصفحة .

ولقد قدم الفونسو الى غرناطه تحقيقا للهدف الذى قلناه قبل قليل ، وعسكر قرب غرناطه ثم طلب الاجتماع بالملك الغرناطى • وتداول عبد الله بن زيرى مع وزرائه ومستشاريه فى أمر هذا الطلب واستقر الرأى أخيرا الى مفاوضته فيما يريده • وتلاقى الملكان خارج العاصمه ، وأبدى عبد الله بن زيرى من ضروب الاكرام والحفاوة ما أوجب شكر الفونسو له ، وقد أوضح الفونسو له أنه قد سيق الى عقد المعاهدة مع ابن عمار سوقا لا اختيار له فيه كما يزعم • ولهذا فقد طلب منه أن يدفع له الجزيه • والا فهو حر فى العودة الى مصاقدة ابن عمار • وعلى هذا فقد طلب منه أن يدفع له خمسين ألف مثقال •

ولكن عبد الله بن زيرى رفض دفع هذا المبلغ وأشتكى له بأن أحوال البلاد الماليه تعجز عن الوفاء بذلك المبلغ الضخم • وأخيرا أتفق معه على دفع ثلاثين ألف مثقال بعد طول مشقة (١) •

وهكذا أستطاع الفونسو أن يستحصل على ما يريده من أنهاك قوى خصومه المسلمين واضعافهم ••• وقد بعث بعد ذلك الى ابن عمار يقول له (كذبت لى فى قولك أن غرناطه فى ضعف ، وأن صاحبها من صغر سنه لا يعقل ، ورأيت من رتبتها وأحوالها ما خالف قولك (٢)) • وأخيرا ، وبعد أن وصل الفونسو الى ما يريده ولو موقتا ، رأى أن يحل الاشكال بين المملكتين بمعرفته ووصايته • فقد أتفق مع المعتمد ومع عبد الله ابن زيرى على أن يعطى كل منهما بعضا من الحصون ذات الاهمية العسكرية لكليهما ، وأن يدفع الجزية السنوية التى قررت على كل منهما فى تلك المصالحة (٣) •

وتعتبر هذه الاحداث آخر شىء فى سياسة ابن عمار تجاه مملكة غرناطه ، أذ ما لبث أن رفع ظله عنها بعد ذلك • وصفت الأمور

---

(١) عبد الله بن زيرى : المصدر السابق ، ص ٧٤ ـ ٧٥ •

(٢) نفس المصدر ، ص ٧٥ •

(٣) نفس المصدر ، ص ٧٥ ـ ٧٦ •

لعبد الله بن زيرى ونترك له يروى غبطته تلك بقوله (ومما هيأه الله أن فقدنا وسائط السوء بعد ذلك بفقد ابن عمار وشغله فى مرسية ، وبزوال ساحتها وأتباعه ، وتوفى قبل ذلك ابن ذى النون عند بلوغه أمله بقرطبة ، وكانت الأندلس قد ارتجت له ، وخافه الرؤساء ، فلم يلبث بها يسيرا حتى مات ،) (١)

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

وما دمنا قد ختمنا حديثنا عن العلاقة السيئة المتفجرة بين مملكتى اشبيليه وغرناطه والتى وضع لها الفنسو حدا وحلا فرضه فرضا على الطرفين ، فاننا نشعر ربطا للموضوع واقتضاء للسياق أن ثمة ما يدعو الى ايضاح ما آلت اليه العلاقات بين المملكتين بعد ذلك ، وبعد أن رفع ابن عمار - الذى كان له الدور الاكبر فى تدهور العلاقات بين المملكتين - ظله عن غرناطه ، وانشغل فى أمر احتلال مرسية وما تبع ذلك فى النهاية من أحداث أدت الى مقتل ابن عمار كما سنرى بعد (٢) ، بعد هذا شهدت علاقات عبد الله بن زيرى ملك غرناطه المذكور بالمعتمد تحولا جذريا ، اذ سرت فى العلاقات السياسة بينهما موجة من المودة والتفاؤل والمحبة ، وفى الحقيقة أنه كان لغياب ابن عمار عن مسرح الأحداث وانشغاله بفتح مرسية ثم تعاقب الاحداث سراعا وما أفضت اليه بعد ذلك من مقتل ابن عمار ، الدور الرئيسى فى تحسن العلاقات بين المملكتين ، وقد أسر هذا التحول الايجابى فى العلاقات المشبع بروح التفاؤل والمودة عبد الله بن زيرى نفسه ، فنراه يعلن عن سروره هذا عندما يتحدث عن هذه الاحداث بقوله (ليس كل الناس علم سر الأمر كالذى نصفه نحن ، والدليل على ما قدمناه ذكره من ارتباط المعتمد الى الخير وايثاره للصلح بزوال هذا الفاسق ابن عمار عن دولته ، ولم ير بعد فتنة بيننا وبينه ، وحقق معنا

---

(١) عبد الله بن زيرى : المصدر السابق ، ص ٧٥ - ٧٦ .
(٢) أنظر بعد ، ص ٢٢٤ - ٢٣٢

في كل أمر الذى فعلنا نحن معه ، وجددنا العقد على ما أرتضيناه من معاوضات ، سوى ما كان قديما بيده ، مما خرج عنا في أيام المظفر وأخذت الفتنة عليه خفها ، ولم يوجد في طلبه ذلك خير ، ولا الى غير المصالحة سبيل (١) . كما يستطرد في تعبيره عن رضاه التام للتطور الايجابي للعلاقات بين المملكتين فيقول : فقرت الاحوال قرارها ، وتهنى كل واحد منا بملكه الا ما كان من سيف برانى يعترض بلادنا من الروم ، فكان الرزء فيه واحدا ، والمشاركة سواء ، وان كنا لا نقدر على ذلك بالامداد بعضنا لبعض لضعف الحال ، فكنا نتشارك بالمداخله وأعمال الرأى والتحذير من أمر عسى أن يكون خفى عن الآخر ، وما أشبه ذلك (٢) .

وبالفعل فقد ترجم المعتمد عن حسن نواياه تجاه مملكة غرناطه ، وعن صدق عزمه في نهج خط الوفاق الجديد بين المملكتين ، وذلك عندما ساءت الاحوال الداخليه في مملكة غرناطه ، وبدأ بعض الطامعين من حكام المدن والولايات يفكر في الخروج على عبد الله بن زيرى والاستقلال بما تحت أيديهم ، مستغلين ضغط الفونسو السادس على المملكة من جهة ، وتدهور العلاقة العائلية بين عبد الله بن زيرى وأخيه تميم ملك مالقه من جهة أخرى (٣) . فقد تطلع هؤلاء الطامعين من حكام المدن والاقاليم الى طلب مساعدة المعتمد بن عباد وعونه ، ولكن سياسة الوفاق الجديده التى رسمت بين المملكتين ، جعلت المعتمد يصم أذنيه عن أولئك الثائرين بالمساعدة التى طلبوها ، بل أن المعتمد عمد الى التوسط لمصالحتهم مع مليكهم ورأب ذلك الصدع بينه وبينهم ، وعندما أصر أولئك على الخروج لم يجدوا من المعتمد أية مساعدة أو عون على الاطلاق (٤) .

---

(١) التبيان ، ص ٨٢ .
(٢) نفس المصدر ، والصفحه .
(٣) أنظر نفس المصدر ، ص ٨٤ — ٩٥
(٤) نفس المصدر ، ص ٩٥ — ٩٩

خروج الوزير ابن عمار على المعتمد والقضاء عليه آخر الأمر

صور عن متانة العلاقة بين الصديقين :ـ

لم يكن يدر بخلد أحد من الناس لا في اشبيلية فقط بل وفي الاندلس عموما أن يوما سيأتي تسوء فيه العلاقة بين الصديقين ، وأن يحل الحقد والقدح محل المودة والخلة . لم يكن يدر بخلد أحد أن علاقة المعتمد مع صديقه ولزيق روحه ستتدهور وتسوء وتفضي أخيرا الى مقتل الوزير على يد مليكه وصديقه المعتمد نفسه . فالعلاقة لم تكن عبارة عن صداقة تقليدية بل هي علاقة أخوية حميمة ندر وصفها ، وعز شبهها . نقول لم يدر بخلد أحد أن تنجلي الأمور بعد كل تلك الصداقة والعشرة الى العداء والقتل أخيرا ، حتى المعتمد نفسه كان يرى أن اليوم الذي ستسوء علاقته بصديقه خارج عن حدود التاريخ والايام ، بل هو ضرب من الخيال . ومع هذا حدث ذلك بل وحدث الاخطر منه وهو مقتل ابن عمار على يد المعتمد نفسه . ويروى لنا عبدالواحد المراكشي في هذا المعنى قصة ذات طرافة ودلالة : (وله معه أيام كونهما بشلب خبر عجيب ، وذلك أن المعتمد استدعاه ليلة الى مجلس أنسه على ما كانت عليه العادة جارية ، الا أنه في تلك الليلة زاد في التحفي به والبر له على المعتاد . فلما جاء وقت النوم أقسم المعتمد عليه لتضعن رأسك معي على وساد واحد ، فكان ذلك : قال ابن عمار فهتف بي هاتف في النوم يقول : لا تغتر أيها المسكين انه سيقتلك ولو بعد حين ، قال فانتبهت من نومي فزعا ، وتعوذت ثم عدت فهتف بي الهاتف على حالته الاولى ، فانتبهت ثم عدت ، فسمعته ثالثا ، فانتبهت فتجردت من أثوابي ، والتففت في بعض الحصير ، وقصدت دهليز القصر مستخفيا به ، وقد ازمعت على أني اذا أصبحت خرجت مستخفيا حتى آتي البحر فأركبه وأقصد بلاد العدوة فأكون في بعض جبال البربر حتى أموت . فانتبه المعتمد فافتقدني فلم يجدني . فأمر بطلبي فطلبت له في نواحي القصر . وخرج هو بنفسه يتوكأ على سيفه والشمعة تحمل بين يديه . فكان هو الذي وقع علي ، وذلك أنه آتى دهليز القصر

يفتقد الباب هل فتح ؟ فوقف بازاء الحصير الذى كنت فيه ، فكانت منى حركة فأحس بى وقال ما هذا يتحرك فى هذا الحصير ؟ ثم أمر به فنفض فخرجت عريانا ليس علي الا السراويل ! فلما رآنى فاضت عيناه دموعا ، وقال يا أبا بكر ما الذى حملك على هذا ؟ فلم أر بدا من أن أصدقته فقصصت عليه قصتى من أولها لآخرها ، فضحك وقال يا أبا بكر أضغاث أحلام ، هذه آثار الخمار ، ثم قال لى : وكيف أقتلك ؟ أرأيت أحدا يقتل نفسه ؟ وهل أنت عندى الا كنفسى ؟ . فتشكر له ابن عمار ودعا له بطول البقاء ، وتناسى الأمر فنسيه ، ومرت على ذلك الايام والليالى الى أن كان من أمره ما سيأتى الايماء اليه . فصدقت رؤيا ابن عمار ، وقتل المعتمد نفسه كما قال .(١)

ولقد رأينا فى حديثنا فى الفقرة السابقة بعضا من الصور الدالة على متانة العلاقة وتوثقها بين الصديقين ، ونلمح الآن الى بعض منها أيضا لنرسم أكثر من علامة استفهام كبيرة عن المغزى الكبير الذى دفع بابن عمار بالخروج والتمرد على مليكه . فرغم الود الوجدانى الشديد الذى كان يبديه المعتمد تجاه صديقه وأليف روحه — على ما ينطوى عليه من تشريف وتقدير معنوى عظيم — الا أن هدايا المعتمد المادية لم تكن تقف عند حد . فلم يكن يبخل على صديقه بأغلى الهدايا وأثمنها مما يجعل ابن عمار يلهج شكرا وعرفانا . ويقول :(٢)

أفى كل يوم تحفة وتفقد بفضل نوال واهتبال يؤكد

ويقول أيضا :

تبرعت بالمعروف قبل سؤاله وعدت بما أوليت والعود أحمد

ولكنه مع هذا يعجز عن الوفاء لصديقه فيقول :

فان أنا لم أشكرك صادق نية تقوم عليها آية النصح تعضد

فلا صح لدين ولا بر مذهب ولا كرمت نفسى ولا طاب مولد

---

(١) : المصدر السابق ، ص ١٧٧ — ١٧٨ .

(٢) : ابن خاقان : قلائد العقيان ، ص ١٠٠ .

ويهدى الشاعر الوزير لصديقه هدية فى مناسبة من المناسبات ويوفقها بأبيات من الشعر . فيوجه اليه المعتمد بمكببة فضة فيها خمسمائة دينار . وقيل خمسة آلاف دينار ذهبا ، وكتب معها :

هبة أتتك من النضار ألوفها   فاغنم جزيل المال من وهابه
فلو أن بيت المال يحوى قبله   أضعافها لكسرته عن بابه
فالبحر يطفح جوده لك زاخرا   لما كسوت البحر بعض ثيابه (١) .

ويقول ابن الابار عنه (٢) (وتعلق فى أول أمره بالمعتمد محمد بن عباد حين وجهه أبوه المعتضد محاربا بشلب فنزع اليه وبلغ من المنزلة لديه ان غلب عليه ثم صحبه باشبيلية ، وكان يحضره فى مجالس أنسه ، ويستدعيه اليها ، ويؤثره على خاصته ويستريح اليه بسره ، ومن ذلك قوله وكتب به اليه :

قد زارنا النرجس الذكى   وحان من يومنا العشىّ
ونحن فى مجلس أنيق   وقد عطشنا ، وثمّ رىّ
ولى خليل غدا سمىّ   يا ليته ساعد السمىّ

فأجابه واصلا قائلا :

لبيك لبيك من مناد   له الندى الرحب والندىّ
ها أنا بالباب عبد قنّ   قبلته وجهك السنىّ
شرّفه والداه باسم (٣)   شرّفته أنت والنبىّ

بل ان ابن عمار بلغ من عظم منزلته لدى المعتمد أنه كان يعهد اليه بأجل الأعمال وأدقها . بل انه كان يشغل بالاضافة الى الوزارة ما يمكن أن نسميه اليوم برئيس المراسم . فلا يعقد مجلس مع المعتمد ولا ترتب مقابلة أو موعد الا عن طريقه . وفى هذا الصدد يقول ابن الابار (وسرى الى ابن عمار أن المعتمد كتب من قرطبة الى بعض كرائمه شعرا يعتذر فيه من اللحاق بها ، آخره " ان شاء ربى أو شاء ابن عمار " .) (٤) ، بل ويروى

---

(١) : ابن الابار : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٦٢ — ١٦٣ .
(٢) : نفس المصدر والجزء ، ص ١٣١ — ١٣٢ .
(٣) : من الواضح أن نشير الى أن اسمي كلاهما أى المعتمد وابن عمار ، محمد .
(٤) : ابن الابار : نفس المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٣٢ .

ابن الابار أيضا صورة لعظم مكانة وعلو درجة ابن عمار لدى المعتمد أذ يقول (وأتصل بالمعتمد فى بعض سفاراته عنه الى جليقيه أن الطاغية أذفونش ثقفه هنالك ، ثم ورد الخبر بعد بضد ذلك فلما قدم ابن عمار كتب اليه المعتمد :

لما نأيت نأى الكرى عن ناظرى وصرفته لما أنصرفت اليه
طلب البشير بشارة يحظى بها فوهبت قلبى واعتذرت اليه

الى غير ذلك ما أوردت من الدلائل على لطف المنزلة وتمكن الحظوة ، وتضاعف الاثرة وحب الرئاسة فى رأسه يدور الى أن نفذ بمصرعه على يديه المقدور ...)(١)

ونعتقد أن ما أوردناه من الصور فيه من الدلالة والمغزى ما يدل على عمق الصداقة ، وقوة ووثوق الآصرة التى جمعت بينهما ، والتى سمت وعلت الى مرحلة الخلة النادرة فى كل زمان ومكان .

أصرار الوزير ابن عمار على احتلال مرسيه وبداية الوحشة بين الصديقين :ـ

كانت مملكة مرسيه تأتى هى ومملكة دانية ، والمرية ، وبلنسية وغير ذلك من الامارات والممالك الأخرى فى المرتبة الثانية من الاهمية السياسيه والعسكرية للممالك الاسلامية فى الأندلس المعروفة بممالك الطوائف . وكانت تمثل مع تلك الممالك التى ذكرناها خطا سياسيا مخالفا للخط السياسى الذى سلكته الممالك الخمسة الكبرى فى الأندلس . وهى أشبيليه ، وغرناطه ، وطليطلة ، وبطليوس ، وسرقسطه . فقد نزعت هذه الممالك كما مر بنا نحو التوسع وبسط السيطرة والنفوذ . أما مرسية وغيرها من تلك الممالك المذكوره فقد تبنت محكومة بعوامل طبيعية وجغرافية وبشريه ، سياسة التعايش السلمى والعلاقات الودية المتوازنة مع تلك الممالك الخمسه . مع المحافظة فى نفس الوقت على العلاقة الخاصة والمميزة التى تربط كل مملكه من ممالك الصف الثانى هذه بمملكة أخرى قوية سواء أكان ذلك بسبب الجوار ، أو المصاهرة أو غير ذلك . ولسنا هنا فى وارد ذكر تفاصيل تلك السياسه وذلك النهج فما يمكن أن نستخلصه من كل تلك العلاقات والأحداث هو

(١) : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٣٢ .

شيء واضح وهو أن ممالك الصف الثاني كانت دائما تقع ضحية أطماع وتطلعات الممالك الكبرى الخمسة .

قلنا أن مملكة مرسية قد أسسها خيران العامري أحد فتيان المنصور ابن ابى عامر ، وعندما تركها خيران خلفه صديقه زهير العامري الآخر . ثم غادر زهير مرسية الى المرية ليلي حكمها بعد وفاة خيران . ولكنه عهد بحكمها الى أحد أعيانها ووجهائها ، وهو أبو بكر أحمد ابن اسحاق ابن طاهر . وعندما قتل زهير خلفه عبد العزيز بن عبد الرحمن بن المنصور بحكم الولاء على مملكته . فأقر ابن طاهر عليها (١) . وقد استمر ابن طاهر يحكم مرسية مستقلا حتى توفى عام ٤٥٥هـ / ١٠٦٣م . فخلفه في حكمها ولده ابو عبد الرحمن محمد ابن احمد بن طاهر . وقد أعترف ابو عبد الرحمن ابن طاهر بالسلطة الاسمية لعبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الرحمن ابن المنصور ملك بلنسيه . ولكن عبد الملك ذهب ضحية مؤامرة دبرها حماه المأمون بن ذى النون صاحب طليطله ، وأسفرت هذه المؤامره عن أقصائه عن الحكم ودخول بلنسيه فى طاعة مملكة طليطله . وهنا أنتهز ابو عبد الرحمن هذه السانحة ، فأعلن أستقلال مرسية التام الناجز عن مملكة بلنسية أو مملكة طليطله بمعنى أدق (٢) .

وقلنا أيضا أن ابن عمار رفع ظله الثقيل عن مملكة غرناطه وأراحها من دسائسه ومؤامراته بفضل تدخل الفونسو السادس ، ودعوته للصلح بين الأطراف المتنازعه . ورأينا أن الاتفاقية التى عقدت برعايته قد عادت ببعض المكاسب المادية على مملكة أشبيلية بفضل مساعي وزيرها . فهو وأن كان قد عجز عن تحقيق آماله بسقوط مملكة غرناطه على يديه ، فأنه لم يعد من الغنيمة بالاياب . فقد أستحصل على بعض الحصون والقلاع من مملكة غرناطه . وكان هذا كافيا لرفع أسهمه كثيرا لدى مليكه ، ولعلو درجته وسموها أكثر فأكثر عنده . كما أن مداخلاته وصداقاته للنصارى ولالفونسو بالذات ، والجهد

---

(١) : أنظر قبل ص ٦٣

(٢) : أنظر قبل ص ٥٧

الوطني المشرف الذي بذله لرد عاديات الفونسو بتلك الخدعة الذكية التي ذكرناها سابقاً (١)، قد عادت عليه بالشهرة والمجد الذائعين. ومن هنا فقد أحس في نفسه القدرة على ضم الأندلس جميعها تحت ابطيه. ولا نستبعد أن يكون رأى الفونسو فيه الذي قال ذات يوم عنه: انه رجل الجزيرة، قد نفخ في رأسه وصور له بأنه الرجل الذي خبأته الأقدار للمعتمد ليكون وسيلته في ضم الأندلس كلها لأمرته. ولذا فقد أخذ يتطلع الى مد نفوذ مملكة أشبيليه نحو الشرق، ونحو مملكة مرسية بالذات. ومهما تضاربت الأقوال في أسباب محاولة الاستيلاء على مرسية، فأن ثمة شيء واضح وأكيد كان قد قرره الصديقان وهو الأستعداد للاستيلاء عليها وضمها الى مملكة أشبيلية بعد أن أقنع ابن عمار مليكه بضرورة وأهمية ذلك الأستيلاء (٢). ورحب المعتمد بهذا المشروع الذي سيضيف الى مملكته منطقة واسعة كثيرة الخيرات، وما يضفي عليه ذلك من مجد وصيت. وتنفيذا لسياسة المحاور والأحلاف التي كانت سائدة آنذاك، رأى الأثنان أن يسيرا في مشروع الأستيلاء بخطة مدروسة تهدف الى عقد محالفة مع أمارة برشلونه الواقعة في الشمال الشرقي من أسبانيا، والقريبة من مملكة مرسية، خوفا من أن تسارع مرسية الى الأستنجاد بها فيما لو هاجمتها القوات الأشبيلية. ولذا فقد هدف ابن عمار الى عقد معاهدة مع أمير برشلونة ابن ريمند (٣). وفعلا توجه ابن عمار الى برشلونة، ومر في طريقه اليها بمرسية، ونزل ضيفا على صاحبها ابن طاهر (٤). ويقال أنه داخل بعضا من أعيانها في أمر التخلص من حكم آل طاهر.

---

(١) : أنظر قبل، ص ٢٠٤

(٢) : ابن الآبار: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٢٠ - ١٢٢

(٣) : ابن ريمند: هو أمير برشلونة الكونت رامون برنجير (أو الكونت — Raimundo (Ramón) Berenguer II el Fratrecid
كونت برشلونه من سنة ١٠٧٦ - سنة ١٠٩٦م، وهو ابن رايموند برنجير الاول الملقب بالعجوز المتوفى سنة ١٠٧٦م، ولهذا يسمى الاول منهما ابن ريمند.)
أنظر: ابن الابار: المصدر السابق، ج ٢، ح ١، ص ١٢٠.

(٤) : ابن الابار: نفس المصدر والجزء، ص ١٢٠ - ١٢٢.

وعندما وصل ابن عمار الى برشلونة ، عقدت بين الطرفين معاهدة تنص على أن تمد أمير برشلونة مملكة أشبيلية بجيش يساعدها على احكام حصارها على مرسية ، مقابل أن تتعهد مملكة أشبيلية بدفع عشرة آلاف مثقال أو دينار لبرشلونة . وللتأكد من صدق النوايا أتفق على أن يرهن كل واحد من الطرفين المتعاقدين رهينة - حسبما كان سائدا في العصور الوسطى وحتى وقت قريب - فرهن الكونت رامون أحد أبناء عمه لدى المعتمد ، ورهن ابن عمار الرشيد ابن المعتمد نفسه لدى الامير البرشلوني .

وحاصر الحليفان مرسية وضيقا عليها الحصار ، وشنا عليها الغارات ، الا أن ذلك لم يفت في عضدها . ويبدو أن أمير برشلونة قد أحس بنوع من الريبة من حلفائه ولا سيما وأن الأجل المضروب لدفع المبلغ المذكور آليه قد أنصرم . فعجل بالقبض على الرشيد ابن المعتمد مقدرا أن المعتمد سيتحرك حتما لخلاص آبنه . وبلغ الخبر المعتمد فأزعجه جدا وأغضبه . فعمل على الأسراع في دفع ما أتفق عليه . وقد كانت الميزانية تعاني وقتها من عجز مالي فأضطر الى سك نقود مزيفة وبعث بها الى أمير برشلونة الذي أطلق سراح الرشيد فورا (١) . وقد كانت هذه الحادثة أول مؤشر يصيب علاقات الصديقين بالفتور والجفوة . بل وتحولت الى مراسلات أدبية شعرية تحمل في طياتها التنصل من المسؤولية والعتاب من قبل ابن عمار ، والصفح والتطمين من قبل المعتمد بالله (٢) .

والواقع أننا لم نعثر على أشارات تدل على أن ابن عمار يتحمل تبعة فشل ذلك الاتفاق . ولكننا نعتقد أن المعتمد قد نقم عليه أن ينفرد بالأمر برهن آبنه الرشيد دون استشارته ، فوضعه بذلك أمام الأمر الواقع . ومن هنا سر غضبه وانزعاجه عندما علم بنبأ القبض على أبنه الرشيد . وقد وقعت هذه الأحداث في عام ٤٧١هـ / ١٠٧٨م .

---

(١) ابن الابار : المصدر السابق ، ج٢ ، ص١٢٠ - ١٢٢

(٢) أنظر صلاح خالص : محمد ابن عمار الاندلسي ، ص ١١٣ - ١١٨ .

احتلال مرسيــــة :ــ

وبعد أن مضى على تلك الاحداث ثلاث سنوات ، وفى عام ٤٧٤هـ/١٠٨١م عنّ لابن عمار أن يعاود الكرة مع مرسيـة ، فأهلها كما ادعى ناقمون ، غاضبون على حكامها ، وأظهر للمعتمد كتبا كثيرة زعم أنها وصلته تحث على افتتاح المدينة وضمها لمملكة اشبيلية (١) .

وسواء أكان المعتمد قد اقتنع بهذا أم لم يقتنع فقد أسال هذا المشروع لعابه ، فوافقه عليه ، وفوضه فى العمل على الاعداد له . وبدأ ابن عمار من فوره يعد العدة فجهز جيشا كبيرا توجه به نحو قرطبة حيث التقى بحاكمها الفتح بن المعتمد واجتاز منها الى حصن يدعى حصن بلج وكان تحت حكم رجل يدعى عبد الرحمن بن رشيق وقد رحب به هذا واحتفى بقدومه احتفاءا كبيرا ، جعل ابن عمار يعهد اليه بقيادة جيشه . وتوجه الاثنان نحو أراضى مملكة مرسية . واستوليا فى طريقهما اليها على بعض الحصون التابعة لها (٢) . وقبل الوصول الى مرسية توجه ابن عمار لسبب غير معروف الى اشبيلية ، وترك قيادة الجيش الى ابن رشيق . ووصل هذا الى المدينة ، وضرب عليها الحصار . وفى نفس الوقت بدأ مراسلاته ومداخلاته مع أهلها الموالين لابن عمار توطئة لتحديد ساعة الثورة معهم على بنى طاهر . وأخيرا سقطت المدينة بيد ابن رشيق ونودى بالبيعة للمعتمد ، ووقع صاحبها أبو عبد الرحمن ابن طاهر أسيرا فى يد ابن رشيق (٣) .

بلغت هذه الاخبار ابن عمار فى اشبيلية ، فسر سرورا عظيما ، وزاد فى تعاليه وغروره . وطلب من المعتمد أن يسمح له

---

(١) : ابن الابار : المصدر السابق والجزء ، ص ١٢٣ ـ ١٢٤ .

(٢) : ابن الابار : نفس المصدر والجزء والصفحات .

(٣) : نفس المصدر والجزء والصفحات .

باللحاق بمرسية وكأنه قد أتى بعز الدنيا وجاهها ، (وأشار على المعتمد بذلك ، فما خالفه فواقا فلم يترك ابن عمار باشبيلية في ملك سلطانه ولا ملك أحد من معارفه ، فرسا عتيقا ، ولا مطية ولا زاملة(١) الا استخرج ذلك من أيديهم رغبة ورهبة حتى لاجتمع له مائة جنبيه ، ومائة زاملة ، وأحضر له التجار ما بأيديهم على اختلاف بضائعه من الديباج والخز الى ما دون ذلك من نفيس الكسا ، ليعم بذلك أهل مرسية . على قدر منازلهم، ولم يخف عن ابن عباد وجهة مراده ، فلما سلم عليه مودعا قال له : (سر الى خيرة الله ولا تظن أني مخدوع ، فقال : لست بمخدوع ولكنك مضطر ، فحلم عنه.(٢)) والفقرة الأخيرة هذه ذات دلالة خطيرة في سير الحوادث ، اذ يستدل منها على أن ابن عمار كان يعمل على التدبير على فعل شيئ خطير مجهول ، وتدل على أن المعتمد بدأ يتوجس من نوايا صديقه ووزيره وأعماله المشبوهة . والمهم ان ابن عمار خرج من اشبيلية في موكب مهيب الى مرسية ، فدخلها في يوم مشهود ومشهور ، (وابن رشيق بين يديه ، وقد برز له وخرج يزفه الى القصر ، وجلس في اليوم الثاني مجلس التهنئة للخواص والعوام ، فجمعت الشعراء بأمداحه ، وقد تزى بزى ابن عباد في حمل الطويلة(٣) ، وحكاه في التصيير(٤) ، وكتب " ينفذ هذا ان شاء الله " في أسفل قرطاسه ، وتختم في كلتا يديه ... الخ)(٥) .

انهيار العلاقات بين ابن عمار والمعتمد وبينه وبين الممالك المجاورة له :

تولى ابن عمار حكم مرسية كما قلنا وانتزى كما يقول ابن بسام فيما ينقله عنه ابن الابار (... على مرسية وقعد بها مقعد الرؤساء وخاطب سلطانه مخاطبة الأكفاء مستظهرا

---

(١) : الزاملة التي يحمل عليها من الابل وغيرها .
انظر الفيروزآبادى : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٤٠١ .

(٢) : ابن الابار : المصدر السابق والجزء ، ص ١٤٠ .

(٣) : المقصود بها القلنسوة التي كان يرتديها المعتمد . فقد تشبه بها ابن عمار في لبسها

(٤) : التصيير: يراد به هنا التوقيع على الاوامر . كأن يكتب مثلا يصير هذا أى ينفذ .
انظر ابن الابار : المصدر السابق والجزء ، ح ١ ، ص ١٤١ .

(٥) : ابن الابار : نفس المصدر والجزء ، ص ١٤٠ ـ ١٤٢ .

بجر الاذيال ، وأفساد قلوب الرجال ...)(١) ولقد رأيناه يحاكي المعتمد محاكاة الند للند في زيه الرسمي . وفي تصريفه لامور الدولة . والواقع أننا قد مررنا بشيء يدل على ان ابن عمار كان يضمر الخروج والتمرد على المعتمد ، وأن تمرده هذا لم يكن ابن ساعته أي عندما استقر بمرسية . كما أننا في الوقت نفسه نميل الى تأمين صلاح خالص في أغلب ماذهب اليه من تعليل لدوافع ابن عمار للخروج والتمرد(٢). فهو يرى أن انتزاء واستئثار الفاتحين - ونرى معه هذا الرأى ونضيف والاصهار كذلك - بما لمقاطعات والمدن التي يفتحونها لحساب ساداتهم وأقربائهم كان شيئا مألوفا في الاندلس ويعد خاصية من خصائص عصر الطوائف كما يعبر عن روح العصر اصدق تعبير . فابن عمار كان ابن عصره ماقي ذلك شك ، زيادة على هذا فان ابن عمار كان يعتد بنفسه كثيرا ، وكانت ثقته الكبيره بحنكته السياسيه والدبلوماسيه، وتعاليه وغطرسته حتى على ابناء المعتمد نفسه كان دافعا له ليجرب حظه كما فعل الاخرون .. وكانت الصداقة المتينه التي تربطه بالفونسو السادس دافعا ثالثا له للانفراد بحكم مرسية مستقلا . بل أن هناك من كان يعتقد ان ابن عمار كان يعمل لحساب الفونسو وتحت امرته(٣) ، وان هناك من يقول بأن فتح مرسية تم بالاتفاق مع الفونسو(٤) . واخيرا فان ابن عمار كان

---

(١) المصدر السابق والجزء ، ص ١٣٤ - ١٣٥ .

(٢) محمد بن عمار الاندلسي ، ص ١٢٤ - ١٢٥ .

(٣) جاء في الرواية التي رواها ابن الابار والتي نقلناها في المتن ان ابن عمار تختم في يديه بخاتمين ، وكان هذا العمل هدفا للغمز عليه ، فقد كان ابن عبد العزيز صاحب بلنسيه يعتقد ان ابن عمار كان يعمل لحساب الفونسو والموتمن ابن هود معا ، ولذلك تساءل عندما بلغه هذا الخبر : أخاتم التامير ام خاتم التامين ؟ . وهي عبارة فكاهية ذات مغزى سياسي هام . ويقال ان الذي قال هذه الجملة هو ابن طاهر صاحب مرسية السابق .

انظر ابن الابار : المصدر السابق والجزء ، ص ١٤٠ - ١٤٢ . - ابن خاقان : القلائد ، ص ٧٢ .

(٤) من الذين يعتقدون هذا الاعتقاد حسين مؤنس في تحقيقه لكتاب الحلة السيراء الذي ننقل عنه كثيرا كما هو واضح .

انظر ابن الابار : المصدر السابق والجزء ، ص ١٤٢ - ١٤٤ .

يرى أن تلك الممالك كانت تفتقر الى السند الشرعي لوجودها . اذا ان شرعية وجود تلك الممالك كانت تعتمد كما يبدو على ركائز ثلاثة هي : القوة ، والمال ، والنفعيين والوصوليين والمرتزقة . وتحت يده من هذه الركائز الكثير .

وعلى هذا فقد ساءت العلاقة بين ابن عمار ومليكه ، ومضى ابن عمار بعيدا في الاستقلال بالامر ، والانفراد بالتدبير . والمعتمد مع هذا يحاول أن يوسط بعض اصدقاء الطرفين . يذكرون الوزير بالأذمة والآلاء ، ويدعونه الى نبذ الفرقة والتمرد . بل ان المعتمد كتب اليه قصيدة يعتب فيها عليه عتابا رقيقا ، فكان رد ابن عمار عليه يحمل من روح الصلف والمنادة - ان صح هذا التعبير - أكثر مما يحمل من روح التبعية والاعتذار (١) . وهكذا أوحت تلك الاعتبارات والدوافع لابن عمار ان ينسف كل محاولات الاصلاح وعودة المياه لمجاريها بينه وبين المعتمد .

وأقحم ابن عمار نفسه في سلسلة من الأخطاء السياسية مع جيرانه من ملوك الطوائف ، وكان لا يأبه بهذا أبدا طالما كان يعتقد ان الفونسو كان ضمانته الوحيده ، ولكن الفونسو لم ينفعه فعلا ، وسنرى بعد قليل اشارة الى هذا (٢) . نقول ان علاقاته مع جيرانه المسلمين كانت سيئة للغاية سواء أكان ذلك مع مملكة غرناطه ، ام اشبيليه بالطبع ، ام بلنسية وكانت علاقته بهذه الاخيره بالذات متوترة للغاية ، فقد نقم ابن عمار على صاحبها أبي بكر بن عبد العزيز غدره به . اذ توسط ابن عبد العزيز لديه لاطلاق سراح ابن طاهر حاكم مرسية السابق ، مقابل نزوله له عن أحد الحصون ، بيد ان ابن عبد العزيز لم يفعل ذلك ، فألهب هذا غضب ابن عمار وهياجه ، فنظم قصيدة يهجوه فيها ومن ضمنها ابيات

---

(١) انظر ابن الابار : المصدر السابق والجزء ، ص ١٤٢ - ١٤٣ . - صلاح خالص : محمد ابن عمار الاندلسي ، ١٢٧ - ١٣١ ؛

(٢) انظر بعد ، ص ٢٠٩

يمدح فيها نفسه (١) . وعندما بلغت القصيدة المعتمد ذيّلها بعدة أبيات يعرّض فيها بابن عمار ، ويزدرى به . وعندما بلغت هذه الأبيات ابن عمار اهتاج لها واستوحش (٢).

ورأى ابن عبدالعزيز أن يسير فى حقده على ابن عمار بعيدا ، فدبّر له مكيدة بأن دسّ له بعض أعوانه الذى توصل الى أن يكون أحد ندماء ابن عمار وجلسائه . واستطاع هذا أن يستحصل على قصيدة كان ابن عمار قد نظمها فى وقت من الاوقات يهجو فيها المعتمد وكانت هذه القصيدة مقذعة حقا، فقد أفرط ابن عمار فى القدح والهجو للمعتمد وزوجته اعتماد الرميكية وابنائه . ولاقت هذه القصيدة لخطورتها وأهميتها اهتمام كل من عالج هذه الفترة من عهد المعتمد بالدراسة الادبية والتاريخية ، بل وبلغ من خطورتها أنها كانت السبب المباشر فى مقتل ابن عمار بعدئذ (٣).

وعلى أية حال فان ابن عمار لم يوفق فى سياسته الخارجية لمملكته ، فدخل فى معارك كلامية مع جيرانه ، وظلل جبهته الخارجية بسياج من جدار الشك وفقدان الثقة . أما على الصعيد الداخلى فلم يوفق فيه ايضا مما يرسخ الاعتقاد بأن تولى المناصب القيادية أمر بالغ الخطورة ، وتحتاج أى القيادة من صاحبها مؤهلات ومواصفات أكثر من عادية ، وأن بروز قائد من القواد أو وزير من الوزراء فى قيادتهم للجيوش أو فتحهم للمدن والمعاقل لا يعنى بالضرورة أن يكونوا جديرين بتسنم مناصب قيادية عليا . نقول هذا لأن ابن عمار الذى نجح بفضل مهارته السياسية ودبلوماسيته الفائقة فى كثير من المهام ، لم يستطع أن يحافظ على استقلاله بمرسيه التى هان عليه فى سبيلها كل شيء . فأخفق فى اختيار نوابه ومساعديه ، وترك لهم الحبل على الغارب، وانصرف الى اللهو والمجون . وابن رشيق فى هذا يقتنص الفرص ويتحين السوانح لتعيين أهله وأقربائه وأتباعه فى تولى المناصب والوظائف . ولم تجد نصائح

---

(١) : ابن الابار : المصدر السابق والجزء ، ص ١٥٥ ـ ١٥٧ . ـ ابن خاقان : القلائد ، ص ٦٩ ـ ٧٠ .

(٢) : ابن الابار : نفس المصدر والجزء ، ص ١٥٥ ـ ١٥٧ .

(٣) : ابن الابار : نفس المصدر والجزء ، ص ١٥٧ ـ ١٥٨ ، ـ صلاح خالص : محمد ابن عمار الاندلسى ، ص ١٣٧ ـ ١٤٠ .

الخلى من ناصحيه فى لفت نظره وانتباهه شيئا(١) . ولانظن أن ابن عمار قد ترك مرسيه طوعا واختيارا فارا على وجهه منها الى جليقية كما جاء فى كتاب ابن الابار(٢) ، وذلك لان هذا أمر مستبعد ، ولكننا نعتقد أن ابن عمار فكر فى وقت من الاوقات أن يخرج الى مقابلة الفونسو السادس شاكيا له معاملة ابن رشيق له . وفى نفس الوقت ليضع نفسه تحت تصرفه (ليخدم أمر الانظار التى تجاوره فى الشرق ، وعسى يضعها فى يديه مثل شنت مرية ...)(٣) ولكنه لم يوفق فى مهمته ، فاتجه الى سرقسطة ومليكها المؤتمن الذى خلف اباه المقتدر فى الحكم عام ٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م . وبعد ذلك أعلن ابن رشيق استقلاله بالمدينة كما يقول ابن زيرى(٤) . على أنه يجوز أن يكون ابن عمار قد عاد قبل ذهابه لسرقسطة الى الفونسو طالبا عونه ضد ابن رشيق الذى استبد بالمدينة ، ولكنه لم يحصل على ما يريده من معونة ، فقد قابله بفتور ، بل وأعطاه رأيه فيما فعله صراحة اذ قال له (يا ابن عمار مثلك مثل السارق سرق السرقة فضيعها حتى سرقت منه .)(٥) ويعلق ابن بسام على موقف ابن عمار فيما ينقله عنه ابن الابار(٦) بالمثل الساخر الذى يقول صاحبه بعد فقدانه لما سعى من أجله "أنفقت مالى وحج الجمل" .

نهاية ابن عمار المفجعة :-

وأيا ما كان الأمر فقد استقر القرار لابن عمار فى سرقسطة لدى مليكها المؤتمن ، وقد احتفى به هذا احتفاءا كبيرا ، وأجرى عليه وعلى أصحابه من العطايا والأرزاق ما اعتقد أنه يكفيه ، ولكن حب المغامرة والمخاطرة دفعته نحو نهايته المفجعة . فقد خرج أحد عمال ابن هود عليه واستبد بأحد الحصون ، فرأى ابن عمار فى ذلك فرصته الذهبية ليثبت لابن هود وغيره من الرؤساء أنه لازال بمقدوره تحقيق الصعب بفضل حنكته ودهائه ، فتحصل على اذن المؤتمن للخروج لمقابلة ذلك الثائر الذى تربطه

(١) : ابن الآبار : المصدر السابق والجزء ، ص ١٤٢ ــ ١٤٤ ، وص ١٤٥ ــ ١٤٦ .
(٢) : نفس المصدر والجزء ، ص ١٤٥ ــ ١٤٦ .
(٣) : عبد الله بن زيرى : المصدر السابق ، ص ٨٠ .
(٤) : عبد الله بن زيرى : نفس المصدر والصفحة .
(٥) : ابن الابار : نفس المصدر والجزء ، ص ١٤٦ ــ ١٤٨ .
(٦) : نفس المصدر والجزء ، ص ١٣٤ ــ ١٣٥ .

واياه صداقة سابقة . وبالفعل استطاع بفضل خطة دنيئة وضعها أن يقضي على ذلك الثائر في عقر داره[1]، وأعاد الى ابن هود حصنه الخارج عنه ، والأهم منه أنه أعاد الاعتبار والثقة لنفسه . وسر ابن هود سرورا عظيما ، وبعث للمعتمد بن عباد يتمنى عليه السماح بتسريح أبناء ابن عمار وعياله اليه في سرقسطة ، فوافقه المعتمد ، ولكنه حذره في نفس الوقت من ابن عمار ومكره[2].

وهكذا عادت لابن عمار ثقته بنفسه ، وسعى ثانية الى أن يمارس نفس اللعبة مع حصن آخر خارج عن سلطة ابن هود . فقد سقطت مملكة دانية التي أشادها مجاهد العامري كما قلنا في يد المقتدر بن هود عام ٤٦٨هـ / ١٠٧٦م . وكان من جملة الحصون التابعة لها حصن يدعى شقورة ، تحصن فيه حفيد مجاهد ، وعندما مات هذا الحفيد خلفه عليه عبدان من عبيده هما ابراهيم وعبد الجبار ابنا سهيل ، ورأى هذان العبدان أن أحسن ما يمكن أن يفعلاه هو مساومة رؤساء الممالك المجاورة للحصن لشرائه ، وعند ذلك رأى ابن عمار ان يستولي على الحصن بنفس الطريقة التي استخدمها في الحادثة الأولى دون أن يخسر المؤتمن درهما واحدا . على أنه لم يوفق في هذا وانقلبت الدائرة عليه . وقبض عليه هذان العبدان وأحكما وثاقه ، وأعلنا لملوك الطوائف عن رغبتهما في بيعه . ولم يكن هناك بطبيعة الحال من متشوق لذلك أكثر من المعتمد فأرسل ابنه الى ابني سهيل هذين فاشترى منهما الحصن وابن عمار معا[3]، وعاد به الى قرطبة (ووافق ذلك كون المعتمد بها فدخلها ابن عمار أشنع دخول وأسوأه على بغل بين عدلي تبن ، وقيوده ظاهرة للناس . وقد كان المعتمد أمر باخراج الناس خاصة وعامة حتى ينظروا اليه في تلك الحال ، وقد كان قبل اذا دخل قرطبة اهتزت له وخرج اليه وجوه أهلها وأعيانهم ورؤسائهم ، والسعيد منهم من يصل الى تقبيل يديه أو يرد عليه ابن عمار السلام . وغيرهم لا يصل الا الى تقبيل ركابه ، أو طرف ثوبه ، ومنهم من ينظر اليه على بعد لا يستطيع

---

(١) : ابن الابار : المصدر السابق والجزء ، ص١٤٨ ـ ١٤٩ .
(٢) : نفس المصدر والجزء والصفحة .
(٣) : نفس المصدر والجزء ، ص ١٤٩ ـ ١٥١ .

الوصول اليه ، فسبحان محيل الأحوال • ومديل الدول • فدخل ابن عمار قرطبة كما ذكرنا بعد العزة القعساء ، والملك الشامخ والرياسة الفارعة ذليلا خائفا فقيرا لا يملك الا ثوبه الذى عليه ، فسبحان من سلبه ما وهبه ، ومنعه ماكان به أمتعه •)[1] • ثم أدخل على المعتمد فقرعه وأنبه ، وذكره بأفضاله عليه • فلم يحر ابن عمار جوابا ، ثم أخذ ابن عمار يعتذر له عن فعلته ويطلب منه الاقاله والصفح • فلم يسعفه المعتمد بهما ، وقد وقعت هذه الاحداث فى عام ٤٧٧ هـ/ ١٠٨٤ م • وبعث ابن عمار من سجنه بقصائد الى ولدى المعتمد : الرشيد والراضى يستعطفهما ويطلب منهما التوسط لدى أبيهما[2] • بل وأرسل للمعتمد نفسه قصائده (لو توسل بها الى الدهر لنزع عن جوره ، أو الى الفلك لكف عن دوره ، فكانت رقى لم تنجع ودعوات لم تسمع ، وتمائم لم تنفع ....)[3] كما بعث صاحب شاطبة الى المعتمد يشفع فى ابن عمار ويرجو العفو عنه ، فبعث له المعتمد برسالة يوضح فيها أخطاء وذنوب ابن عمار التى اقترفها ويوضح له أن عثرته لا يمكن أن تقال بسبب تلك الاخطاء وبسبب تعريضه بالمعتمد وأسرته • وكان يذكى هذا الشعور بالحقد والمؤاخذة اعتماد الرميكية زوج المعتمد وأم اولاده ، فقد ألحت عليه بالتخلص منه ومعاقبته على فعلته • وكان حقدها ينم عن عداء شخصي حتى قبل أن يهجوها[4] ابن عمار هجاء مرا فى قصيدته المشهورة التى أشرنا اليها •

ويروى عبد الواحد المراكشى[5] فى شيئ من التفصيل كيفية مقتل ابن عمار • وخلاصة هذه الرواية أن ابن عمار نظم فى آخر ما نظم للتوسل بالمعتمد قصيدته الحائية المشهورة التى يقول مطلعها :

سجاياك ان عافيت أندى وأسجح ... وعذرك ان عاقبت اجلى وأوضح ... الخ

وهى من غرر قصائده وأجودها ، فأثرت فى نفس المعتمد فأرسل اليه فأحضر ، فقرعه وأنبه كالعادة • ويظهر أن توسلات ابن عمار واستعطافه الصادق للمعتمد قد حرك كوامن الرأفة فى قلبه فقال له قولا

---

(١) : عبد الواحد المراكشى : المصدر السابق ، ص ١٨٣ - ١٨٤ •
(٢) : ابن الابار : المصدر السابق والجزء ، ص ١٥١ - ١٥٣
(٣) : عبد الواحد المراكشى : المصدر السابق ، ص ١٨٤ - ١٨٦ •
(٤) : محمد عبد الله عنان : تراجم اسلامية ، ص ٢٨٢ - ٢٨٨ •
(٥) : المصدر السابق ، ص ١٨٦ - ١٨٩ •

فهم منه ابن عمار أن العفو عنه سيحصل يوما . وكان ابن عمار فى أثناء سجنه يطلب أوراقا يكتب فيها قصائده ورسائله التى يبعثها للمعتمد وأبنائه. وكان قد طلب قبل هذه المقابلة مع المعتمد ورقتان سطر فى الاولى القصيدة الحائية التى ذكرناها . وعندما شعر بقرب عفو المعتمد عليه سطر فى الورقة الثانية رسالة وبعث بها الى ابن المعتمد الراضى كما يقول عبدالواحد المراكشى أو الرشيد (١) يخبره بما حدث بينه وبين المعتمد . وكان يحضر مجلس ابن المعتمد بعضا من وزرائه وجلسائه فلما سمعوا بهذا خرجوا وتناقلوا الخبر واضافوا عليه حقدا منهم عليه اضافات سيئة للغاية . وكان أكثر الحاقدين على ابن عمار الوزير ابو بكر بن ابى الوليد بن زيدون الذى يكن له عداءا شخصيا لما فعله مع أبيه . وقد حمل ابن زيدون وزر هذه الشائعات (٢) . وعندما بلغت الابيات المعتمد استشاط غيظا وبعث لابن عمار يستفسر منه عن حقيقة ما حدث . فأنكر أن يكون قد حدّث أحدا بما دار بينهما ، وعندما سأله عن مصير الورقة الاخرى التى طلبها تبين له كذب ابن عمار. فطار صوابه ، وفقد اتزانه ، وتوجه نحو سجن ابن عمار ، وهناك ضربه بآلة تشبه الفأس وتعرف بالطبرزين حتى مات . ثم أمر بغسله وتكفينه وصلى عليه ثم دفنه (٣). ويقال ان المعتمد ندم بعد ذلك على قتله (٤). وهكذا انتهت فصول حياة ابن عمار بهذه النهاية الفاجعة المؤسفة . وعلى كل حال فان ماحدث لابن عمار يؤكد لنا حقيقة هامة هى أن الملوك يمكن لهم أن يتساهلوا فى كل شيئ الا فى شيئ واحد فقط وهو منازعتهم ملكهم والرغبة فى سلطانهم .

---

(١) : رواية صلاح خالص عن هذه الاحداث تشير الى أن ابن عمار بعث بتلك الورقة الى الرشيد ابن المعتمد . ومهما يكن فان المسألة ليست بذات الاهمية ، فالمهم أن ابن عمار قد أخطأ فى استعجاله نشر خبر احتمال اطلاق سراحه . فأودى هذا الخطأ الى مقتله أخيرا .
انظر محمد ابن عمار الاندلسى ، ص ١٦٤ .

(٢) : صلاح خالص : نفس المرجع ، ص ١٦٤ ـ ١٦٥ .

(٣) : عبدالواحد المراكشى : المصدر السابق ، ص ١٨٦ ـ ١٨٩ .

(٤) : ابن خاقان : القلائد ، ص ١١٠ .

حياة المعتمد العائلية والسمات المميزة لشخصيته

يجدر بنا ونحن نأتي على ختام عهد المعتمد أن نتحدث عن الحياة الأسرية له ، وعلى السمات المميزة لشخصيته . أما فيما يتعلق بحياته العائلية ، فقد أطنب كثير من المؤرخين في اعجاب بذكر تفاصيل العلاقة العاطفية والحياة الهانئة التي كان يحياها المعتمد مع زوجه وأم أولاده اعتماد الملقبة بالريميكية . فقد التقى المعتمد باعتماد في أجواء ظلال رومانطيقية شاعرية عند مرج الفضة أحد مروج اشبيلية ومتنزهاتها . وعندما عرف أنها جارية لأحد رجالات اشبيلية يدعى حجاج بن رميك ، بادر الى شرائها ، ومن ثم تزوجها (١) ، رغم أنها احتفظت بلقب سيدها رميك فكانت لاتعرف الا به .

ولقد هام بها المعتمد حبا وكلف بها كلفا شديدا .
وكانت ذات خلال باهرة ، وروح مرحة ، وبديهية حاضرة ، ومعرفة لا بأس بها بالشعر وتذوقه (٢) . وقد شاطرت المعتمد أيام أنسه وساعات صفوه وهنائه . كما شاركته في أجل وأدق حياته المريضة حتى بعد خلعه ونفيه الى المغرب على يد المرابطين كما سنعرف بعد ئذ . وقد أحبها المعتمد حبا جما خالصا لم يطفئ أواره وجود حسناوات كثيرات من حظياته وجواريه اللائي كن يحمن حول بلاط المعتمد وقصره ، كما لم يطفئه زحف السنين وكر الأيام وكانت ذات دالة عظيمة عليه . فلم يكن يرفض طلبا لها مهما عز وغلا . وتحتفظ كتب الادب والتاريخ بقصص من هذا النوع (٣) . ولسنا معنيين هنا بذكر دقائق وتفاصيل

---

(١) : ابن الابار : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٦١ ـ ٦٣ . ـــ
صلاح خالص : المعتمد ابن عباد الاشبيلي ، ص ٣٠ ـ ٣٥ .
(٢) : المقري : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٨ ـ ٩ .
(٣) : انظر المقري : نفس المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٨ ـ ٩ . ـــ
صلاح خالص : نفس المرجع اعلاه ، ص ٦٢ ـ ٦٣ .

حياتها العاطفية والزوجية مع المعتمد ، ولكننا نجتزئ ببعض مواقف نبل وأخلاص من الطرفين معا ، فالمعتمد رغم أنه كان على علاقات عاطفية حميمة مع عدد كبير جدا من سراريه وامائه (١)، الا أنه كان يحتفظ لها بالمكانة المثلى والدرجة الأسمى في قصره وقلبه معا . ويكفي أن نشير الى أنه أي المعتمد لم يتلقب بهذا اللقب الا بعد أقترانه بها (٢). فقد كان يلقب بالظافر والمؤيد من قبل . كما يكفي أن نشير الى أن معظم أبنائه الذين خلدتهم كتب الأدب والتاريخ كانو أبناءها (٣). وكذلك يكفي أن نشير الى أنها بقدر ما شاركت المعتمد أيام أنسه وسعادته ، بقدر ما شاركته أيامه القاسية البائسة في منفاه بالمغرب الاقصى .

وقد أنجبت منه كما ذكرنا عدة أبناء شهروا في التاريخ . وكان بكر أبنائهما سراج الدولة عباد والمكنى بأبي عمرو ، الذي مر ذكره سابقا . وقد ولد للمعتمد في عام ٤٥١هـ / ١٠٥٩م في حياة أبيه المعتضد (٤). وعهد اليه بحكم ولاية قرطبة بعد سقوطها على يد مملكة اشبيلية . على أنه قتل بعد ذلك كما شاهدنا في أحداث خروج قرطبة عن طاعة العباديين . ولم يكن عمره وقت ذاك يتجاوز السابعة عشرة بعد (٥). وثاني هؤلاء الأبناء حسب الأهمية لا السن ، الرشيد وأسمه عبيد الله ويكنى بأبي الحسين ، ويصفه ابن اللبانه بقوله فيما ينقله عنه ابن الابار (وكان دمثا رقيق حاشية الطبع ، طالع شيئا من العلوم الرياضية ، وكشف له عن غيب الاغاني ، حتى قيل أنه يجيد ضرب العود ، وكان له أدب وشعر) (٦). ونضيف أيضا الى هذا انه كان سياسيا محنكا ، وكان ذا روية

(١) يقال أن المعتمد خلع عن ثمانمائة امرأة فيهن أم الولد ، والجارية ، والأمة . الا أن هذا أمر مبالغ فيه لاجدال .
أنظر صلاح خالص : المعتمد بن عباد الاشبيلي ، ص ٦٠ .

(٢) ابن الابار : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٦٠ ـ ٦٣ .

(٣) نفس المصدر والجزء والصفحات .

(٤) نفس المصدر والجزء ، ص ٧٠ ـ ٧١

(٥) أنظر قبل ، ص ١٩٤

(٦) ابن الابار : نفس المصدر والجزء ، ص ٦٨ ـ ٦٩ .

سياسة بعيدة ، فقد عارض أباه المعتمد فى أمر استدعاء المرابطين والاستنجاد بهم[(١)]. وقد نفى مع ابيه الى أغمات المدينة التى نفى اليها بعض ملوك الطوائف ، ومات فى حوالى عام ٥٣٠ هـ[(٢)].

وثالث هؤلاء الراضى ، واسمه يزيد ويكنى بأبى خالد ، وكان ذا اهتمام بالثقافة والمعرفة . وقال عنه ابن الأبار (وكان الراضى من أهل العلم والأدب ، كلفا بالمطالعة والدراسة ، قرأ كتب القاضى ابى بكر ابن الطيب ، وأشرف على مذهب أبى محمد بن حزم الظاهرى ، فمهر فى الأصول ، وذهب الى النظر والاختيار) . كما يضيف ابن الابار قوله عنه (وهو شاعر بنى عباد بعد أبيه ، على أنه أقوى عارضة منه ، وأبوه ألطف طبعا وأرق صنعا[(٣)]) وأطنب الفتح ابن خاقان فى المدح الرخيص المتكلف بذكر شمائله وأوصافه[(٤)] . ويبدو أن اشتغاله بالأدب والمعرفة والثقافة قد شغل وقته كثيرا ، حتى لقد أقعده هذا عن الاهتمام بالظروف الحرجة لدولة أبيه . وقعد به عن مشاركة أخوته أخطر الاحداث والمعارك . وأتضح هذا جليا عندما تباطأ فى تلبية دعوة أبيه له لخوض معركة ضد النصارى . مما جعل المعتمد يحنق عليه ويكتب له قصيدة يسخر فيها منه ومن تعلقه بالأدب دون المعارك والمواقع التى شهر بنو عباد . فبعث اليه الراضى بقصيدة يعلن فيها توبته ويقر بأخطائه ويستعطف أباه أن يعفو عنه ويصفح[(٥)] . وقد ولاه المعتمد حكم مدينة الجزيرة الخضراء . وعندما قدم المرابطون تلبية لدعوة المعتمد ، طلبوا الجزيرة الخضراء منه . فولاه على مدينة رنده التى استمر يحكمها حتى مقتله على يد المرابطين كما سنرى بعد[(٦)] .

(١) أنظر بعد ، ص ٢٧٤
(٢) صلاح خالص : المعتمد ابن عباد الاشبيلى ، ص ٨٣ ـ ٨٤ .
(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٧٠ ـ ٧١ .
(٤) قلائد العقيان ، ص ٣٥ ـ ٣٦ .
(٥) أنظر قلائد العقيان ، ص ٣٦ ـ ٤٠ . ـ صلاح خالص : نفس المرجع ، ص ٨٦ ـ ٩١ .
(٦) أنظر بعد ، ص ٢٥٦ - ٢٥٧ وص ٣٣١ - ٣٣٢ - ٣٣٣ .

ورابع هؤلاء الابناء ، المأمون وأسمه الفتح ويكنى بأبى نصر ، وقد تولى أمر ولاية قرطبة بعد عودتها ثانية الى سلطة العباديين عام ٤٦٧ هـ / ١٠٧٥م وقد استمر يحكمها حتى قتل على يد المرابطين عند خلعهم للمعتمد[١]. وبالاضافة الى هؤلاء فهناك عدة أبناء من أعتماد هذه هم : المعتد وأسمه عبد الله ، ويكنى بأبى بكر ، والربيع ويلقب بتاج الدوله ويكنى بأبى سليمان ، والمعتلى زين الدولة أبو هاشم ، ثم فخر الدولة ، وشرف الدولة . ثم أخيراً أبنته بثينة التى أخذت من الادب والعلم بسبب[٢] .

كما رصدت كتب الادب والتاريخ بعض أسماء لابناء المعتمد من بينهم المؤتمن ، سراج الدولة يحى ، وذخر الدولة حكم[٣]، وقد عثرنا على ذكر لابن آخر للمعتضد يدعى عبد الوهاب ويلقب بعز الدوله . وقد أخذ بطرف من الادب والفقه والطب وتوفى بالمغرب عام ٥٢٠ هـ /[٤] وسنتعرف لاحقا على ابن آخر كان له دور فى المقاومة العبادية ضد المرابطين ، وهو عبد الجبار بن المعتمد[٥] .

ومن الحق أن نشير الى أن علاقات المعتمد بأبنائه وزوجته أعتماد كان يسودها الألفه وروح المحبة والحنو ، فلم نعثر على موقف واحد يشبه موقف أبيه المعتضد مع أبنائه ونستطيع أن نسجل هذا الترابط العائلى فى سجل المعتمد الايجابى فعلاقات المعتمد بأبنائه كانت تقوم على ركائز من المحبة والعطف والحنو . وكانت علاقات الاولاد بأبيهم تقوم على ركائز من الاكبار والاجلال والتقدير ، وليس على التوجس والخوف والرهبة مثلما كان وضع أبناء المعتضد مع أبيهم القاسى ..

---

(١) ابن الابار : المصدر السابق ، والجزء ، ص ٦١ ـ ٦٣ .

(٢) صلاح خالص: المعتمد ابن عباد الاشبيلى ، ص ٨٤ ـ ٨٥ .

(٣) نفس المرجع ، ص ٨٥ .

(٤) عبد الملك المراكشى : الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة ، قسمان ـ القسم الاول ، ص ٩٧ .

(٥) أنظر الباب الرابع ، ص ٣٢٠ .

واخيرا فان كتب الأدب والتاريخ حفظت لنا ذكر زوجة ثانية حرة هي ابنة مجاهد العامري ملك دانية والجزائر الشرقية ، ولكن يبدو أنها لم تكن ذات دور خطير في حياة المعتمد ، ولذلك مر ذكرها في المصادر المعاصرة مرورا سريعا (١) ، كما نحب أن نشير الى أنه كان هناك من السراري والاماء اللائي كن في حوزته ، ولعبن دورا مميزا هاما في جلب المتعة والسرور للمعتمد ، وكن يشاركنه ساعات أنسه ولياليه العابقة بمجالس الأنس والطرب والموسيقى ، كما كن النموذج الأنثوى الصارخ الذى استلهم منه المعتمد قصائده في الغزل والنسيب مثل جوهرة التى قال فيها أعذب الأقوال والاوصاف ، وسحر ، ووداد ، وأم عبيده (٢)

السمات المميزة لشخصية المعتمد :

لعل أبرز الصفات التى كان يتحلى بها المعتمد هى الرأفة والاشفاق والحلم فلم يكن قاسيا غليظا مثل والده المعتضد ، وأنما كان حليما رؤوفا مع الناس عموما يستوى في هذا عائلته أو خاصته وحاشيته ، أو عامة الناس ، ولقد رأينا مايدل على هذا في معرض حديثنا عن علاقته بأبنائه ، فقد كان أقصى عقاب أتخذه ضد ابنه يزيد الراضى هو التندر والتهكم ، وهو في هذا يختلف عن أبيه المعتضد الذى قتل ابنه بيده ، وهدد المعتمد نفسه بالقتل أيضا كما مر بنا سابقا (٣).

وحتى في حياته العامه كان يسير وفقا لهذه الصفات الانسانية الحسنة ، فقد أمن الكثيرين من الذين قسى عليهم والده ، ورد لهم أموالهم وحقوقهم ، كما أنه امتاز بحسن الظن وسلامة الطوية ، ولم نعثر على صورة أو موقف واحد

(١) المقرى : المصدر السابق ،ج ٥ ، ص ١٤٦ ــ ١٤٨ .
(٢) انظر : ابن بسام : المصدر السابق ،القسم الثانى ــ المجلد الأول ، ص ٣٤ ــ ٣٥ ــ المقرى : المصدر السابق ،ج ٥ ، ص ٢٣٢ ــ ٢٣٣ . ــ صلاح خالص : المعتمد ابن عباد الاشبيلى ،ص ٧٣ ــ ٧٧
(٣) أنظر قبل الباب الثانى ،ص ١٧٤

بدا لنا فيه المعتمد قاسيا غليظا لا تعرف الرحمة سبيلا الى قلبه فيما عدا موقفه من خروج ابن عمار عليه • ومع هذا فانه يتراءى لنا بالنسبة لهذه القضية أنه بجانب الامور الشخصية • فان دواعى المحافظة على سلطانه هى التى دفعته الى قتل وزيره أكثر مما دعته كوامن القسوة والغلظة فى قلبه • وفى الواقع فأنه يجب علينا ونحن نرسم هذه الصورة الشخصية للمعتمد ومقارنتها بأبيه أن نأخذ فى الاعتبار أن شخصية أبيه وما عرف عنه من قسوة ربما كانت نتيجة لأن ظروف تكوين الدولة كانت تستدعى ذلك من أبيه • ولذلك أراد المعتمد عن طريق المعاملة الحسنة لكل خاصته ورعاياه أن يكسب محبتهم • وذلك بتغيير صورة بنى عباد فى نظرهم • كما أنه كان لشاعرية المعتمد ذاتها أثر فى تلك المعاملة الحسنة للناس • فما من شك أن شاعرية المعتمد أوجدت فى ذاته هذا الجانب الانسانى الذى كان يفتقر اليه أبوه •

ومن أبرز مميزات شخصية المعتمد أنه كان سليم الطوية - بالنسبة للناس والانصار فقط - حسن الظن والثقة • ولم يكن متشككا متوجسا قليل الثقة فى الانصار والناس مثلما كان أبوه • ولكنه كان شديد الثقة بالناس والانصار • ولم يصغ لدواعى التوجس والتشكك سواء أكانت تلك دواعى شخصية ذاتية • أو دسائس ومؤامرات يحيكها بعض المفرضين • ورأينا صورة واضحة تدل على سمو أخلاقيات المعتمد وذلك عندما بعث بعض المفرضين له عند تسلمه الحكم بقصيدة يحذرونه فيها من الوزير . ابى الوليد بن زيدون ومن خطره وأطماعه • فكتب لهم قصيدة طويلة يكذبهم فيها • ويعلن للملاء حسن ظنه وثقته بوزيره • ويحذرهم من الصيد فى المياه العكرة • وكان هذا الموقف كافيا للجم أفواه المفرضين والمفسدين (١) •

---

(١) عندما تولى المعتمد السلطة بعد ابيه • رفعت اليه رقعة فيها عدة ابيات من الشعر تعرض بالوزير ابى الوليد بن زيدون ويقول =

وبالاضافة الى هذا يعد التقدير والاحترام لرجاله من أبرز صفاته أيضا . فقد كان شديد التقدير والاحترام لوزرائه وخاصته . وكان يعاملهم معاملة الصديق للأصدقاء وليس معاملة الملك أو السيد لأتباعه . بل لقد كان يتباسط معهم . ويتفقد شؤونهم ، ويحادثهم ويشاركهم مجالس أنسهم ومرحهم . بل انه كان يتمنى الخروج لملاقاة بعضهم والترحيب بهم لولا أن ناموس الملك ومقتضيات الحكم كانت تحول دون ذلك(١)

واضافة الى هذا كان المعتمد كريما سخيا جوادا شأنه شأن والده ، وسنرى بعد صورة مثالية رائعة لهذا الكرم والجود وحتى وهو فى أعسر الأوقات وأحلك الظروف(٢) . ولعل من نافلة القول أن نشير الى أن المعتمد كان شاعرا متميزا ، طرق معظم مقاصد الشعر وأغراضه وبرز فيها وحلق . ومن الطبيعى جدا أن يكون للأدب عنده سوق رائجة وفرصا رحبة واسعة . وأن يؤم بلاطه العلماء والأدباء والشعراء والمفكرين(٣)

تلك هى بعض الجوانب المشرقة فى شخصية المعتمد ، وهى التى جعلت المؤرخين بالاضافة الى نهايته المفجعة يفيضون فى الاشادة به والثناء عليه ، دون أن يعنوا بالجانب السلبى من شخصيته . فلم يكلفوا

= مطلعها :

يا أيها الملك العلي الأعظم اقطع وريدى كل باغ ينأم

لاتتركن للناس موضع شبهة واحزم فمثلك فى العظائم يحزم ... الخ .

فلما قرأها المعتمد وعلم ما تحمل من الدسيسة وقع خلف تلك الرقعة بعدة أبيات يقول فيها :

كذبت مناكم صرحوا أو جمجموا الدين أمتن والمروءة أكرم

خنتم ورمتم أن أخون وانما حاولتم أن يستخف يلملم

— ويلملم هو ميقات أهل اليمن ويقع على بعد مرحلتين من مكة .

انظر ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثانى — المجلد الاول ، ص ٤٠ — ٤٢

ـ ابن خاقان : القلائد ، ص ١٧ — ٢٠ .

(١) انظر ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثانى — المجلد الاول ، ص ٣٦ — ٣٧ . ابن خاقان : القلائد ، ص ٧ — ٩ .

(٢) انظر عبد الواحد المراكشى : المصدر السابق ، ص ٢٠٥ — ٢٠٦ .

(٣) انظر فيما بعد ، الباب الخامس ، ص ٤١٣

أنفسهم عناء رصد تلك الجوانب القاتمة من شخصيته ، فقد نسوا ذلك أو تناسوه ، في خضم اهتماماتهم بمأساته المفجعة . ولكن التاريخ وكما هو معلوم لا مكان عنده للعواطف ومن ثم فلابد للمؤرخ المنصف أن يحكم بما له وبما عليه في موضوعية متجردة عن الهوى . فالمعتمد لم يكن ملاكا كما صورته لنا كتب التأريخ والادب ، ولكنه كان بشرا تختلج في نفسه جميع أحاسيس الانسان ومشاعره المتناقضة . ونستدرك فنقول ان هذا لا يعني التماسا للعذر والمبرر له ، فان تبعات المنصب ، وفداحة المسؤولية الملقاة على عاتقه تفرض عليه أن يكون في مستوى تلك المسؤولية فلا يترك لنزواته ورغباته وغرائزه الحسية والمعنوية العنان وينساق في لهاث محموم في ارضاء واشباع تلك الرغبات مما لا يليق بملك له مسؤوليات خطيره وعليه تبعات جسيمة .

هذه المقدمة التي استهللنا بها حديثنا عن الجانب السلبي من شخصية المعتمد ضرورية لنوضح نقطة هامة وهي أنه من الثابت والمسلم به عبر العصور ان عدم الاحساس بالمسؤولية والانغماس في اللهو واشباع النزعات والعيش الناعم هي أسباب غير مباشرة بطيئة شديدة المفعول في انحلال الدول وسقوطها يستوي في هذا ملوك الطوائف ومن كان قبلهم أو من جاء بعدهم على المستوى البشري عموما .

نقول هذا لأننا قد رأينا تبريرا واهيا لانصراف المعتمد الى اللهو والتمتع والأنس بحجة أن الموضوع ليس موضوع وجود هذا الاتجاه أو عدم وجوده ، بل بالقدرة على خلق نوع من التوافق والتوازن بين تلك الرغبات وبين التبعات والمسؤوليات ، بدعوى أن هذا الاتجاه يعدّ مظهرا أصيلا في حياة أمراء وملوك الطوائف في الاندلس علاوة على أنه كان المظهر المميز للأرستقراطية الاندلسية (١) ، ولكن هل كون هذا الاتجاه مظهرا أصيلا ومألوفا في المجتمع الاندلسي يعفي الأمراء والملوك من تبعة التفسخ الأخلاقي والتنكر للمثل الأخلاقية الاسلامية ؟؟ هل يعفيهم هذا وهم الذين يقفون الجزء الأكبر من حياتهم الخاصة في البحث عن اللذائذ ووسائل المتعة كما يقول صلاح خالص نفسه (٢) ؟؟ .

---

(١) : انظر ، صلاح خالص : المعتمد بن عباد الاشبيلي ، ص٥٦ ـ ٥٩ ، وص ٩١ ـ ٩٣ .

(٢) : نفس المرجع ، ص ٩١ .

أى انسجام وتوافق ذلك الذى استطاع المعتمد أن يكيف به حياته العملية والشخصية ؟؟ لم نجد فى حقيقة الامر عند استقرائنا لتاريخ المعتمد بالذات ما يدل على انه كان صاحب انجاز تاريخى عظيم لا فى حياة الاندلس عموما ولا فى حياة اشبيلية خاصة • فما هى اسهامات المعتمد البارزة على المستوى المحلى والقومى التى تفرضه على التاريخ فرضا كشخصية تاريخية ؟؟ حتى فى النواحى الانشائية العمرانية لم نعثر على اسهامات بارزة واضحة تسجل فى صفحته • نعم لقد فرض المعتمد نفسه كشاعر وكانسان وكملك مترف ، وكبائس فقير خاصمه الزمن وناهضه الدهر • أما فيما عدا هذا فلا • ولهذا فان اتهام بعض المؤرخين للمعتمد بأن انكبابه على اللهو الى درجات جاوزت الحد كان سببا من أسباب تدخل المرابطين لتدارك الوضع المتدهور • لا ينفيه نقض المستشرق الفرنسى بيريز له (١) أو غيره • فالقضية قضية عامة تنسحب على الدول فى أى مكان وزمان ، وملخصها أن عدم الاحساس بالمسؤولية والانغماس فى اللهو والمترفات الحضارية الى حدود غير معقولة هى أسباب جوهرية لسقوط الدول وانحدارها •

وهذا ما يفسر تحاملنا على المعتمد بالله فالظرف الذى كانت تمر به الاندلس وقتذاك كان حرجا ودقيقا اذ كان النصارى يشددون ضغطهم على الممالك الاسلامية • فكان الواجب عليه باعتباره اقوى ملوك الطوائف ، وأفسحهم ملكا • وأوسعهم ثراءا وجاها أن يصرف النظر عن اهتماماته الخاصة ويعطى الاهمية القصوى لتدارك الموقف العصيب الذى تعرضت له الاندلس وقتها • ولكن عدم المبالاة وعدم الاحساس بخطورة هذا الموقف العصيب كأن ما يدور فى الاندلس ليس بمفض اليه • كل هذا يجعلنا ننحى باللائمة عليه • ونعتقد اعتقادا راسخا أنه كان بمقدور مملكة اشبيلية تزعم ممالك الاندلس وقيادتها نحو شكل من أشكال الوحدة أو الاتحاد على الأقل فى أمر مواجهة النصارى •

---

(١) : يرى المستشرق هنرى بيريز Henri Peres فيما ينقله صلاح خالص عنه فى كتابه (عن الشعر الاندلسى) أن تهم الفسق والانحلال التى وجهت لملوك الطوائف هى من وضع مؤرخين عاشوا فى عصرى المرابطين والموحدين • ومن هنا جاء تفسيرهم لسلوك هؤلاء الملوك بتلك القسوة • وفى رأيه أن ملوك الطوائف لا يختلفون عن غيرهم ممن كان قبلهم أو من جاء بعدهم •
أنظر : صلاح خالص : المعتمد ابن عباد الاشبيلى ، ص ٩٢ ـ ٩٣ •

ومهما يكن من أمر فقد أسرف المعتمد اسرافا شديدا في تحقيق رغباته ولذائذه الحسية والمعنوية ، فقد كان يعبّ من تلك اللذائذ الحسية والمعنوية عبّا . اذ كان له في تلك اللذائذ الحسية كالخمر والشغف بالنساء ، أو اللذائذ المعنوية كمجالس الطرب والتغزل بالغلمان جولات وصولات لا يزيد بحثنا أهمية تبيانها وايضاحها . فقد أسرف في العبّ من هذه اللذائذ الى حد التهتك والخلاعة (١) . ويكفي أن نشير الى أن سلفيه قد عفّا مروءة وشهامة عن التغزل بالغلمان والتهتك في أوصافهم . كما يكفي أن نشير الى أننا لم نعثر في حياة سلفيه بالذات على موقف فقد أحدهما فيه وعيه تحت تأثير الخمرة ومرآى من أبنائه كما حدث للمعتمد (٢) .

ويؤسفنا أن نشير الى أن المعتمد استعان بالنصارى لتحقيق مآربه وأهدافه التوسعية . وهو أمر لم يقدم عليه أبوه وجده من قبل كما قلنا سابقا . كما يؤسفنا أن نشير الى أنه كان انتهازيا ومتقلبا . وظهر ذلك واضحا عندما داهم مملكة قرطبة ، وهو الذي جاء لنجدتها ونصرتها . كما ظهر ذلك واضحا أيضا عندما طلب من يوسف بن تاشفين أن يعهد اليه بمملكة غرناطة بعد خلع مليكها عنها كما سنرى بعد (٣) .

على أن الموقف الايجابي الواضح والحسنة المميزة الناصعة في سجله هي موقفه الاسلامي المشرف باستدعاء المرابطين لتدارك أمر الأندلس بعد تدهور الأوضاع واشتداد ضغط النصارى عليها كما سنرى بعد ان شاء الله (٤) . وكذلك موقفه في موقعة الزلاقة التي أبلى فيها بلاءا حسنا مخلصا النية لله ثم لبني قومه وأخوته من المسلمين .

---

(١) : انظر ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثاني ـ المجلد الاول ، ص ٣٥ ـ ٣٦ .
ـ عبد الواحد المراكشي : المصدر السابق ، ص ١٦٠ ـ ١٦١ . ـ
صلاح خالص : المعتمد بن عباد الاشبيلي : ص ٤٢ ـ ٤٣ ، وص ٥٥ ـ ٩١ .

(٢) : انظر صلاح خالص : نفس المرجع ، ص ٩٣ ـ ٩٥ .

(٣) : انظر بعد ، الباب الرابع ، ص ٣٢٢ .

(٤) : انظر بعد ، الباب الرابع ، ص ٢٧٠ ـ ٢٧١ .

الباب الرابع

تطور الأوضاع السياسية في الأندلس ونهاية دولة بنى عباد

ـ اشتداد حركة الاسترداد المسيحى وسقوط طليطله .

ـ تدهور العلاقات السياسية بين الفونسو والمعتمد وبقية ملوك الطوائف والتفكير فى الاستعانة بالمرابطين .

ـ موقعة الزلاقة .

ـ قضاء يوسف بن تاشفين على مملكة بنى عباد وعلى غيرها من ممالك الطوائف .

اشتداد حركة الاســترداد المسيحــى ، وسقوط طليطلة :

عـند حديثنـا عن الحرب الاهلية بين ابنـاء فرديناند الاول رأينـا أن الغلبة والنصر كانا من نصيب سانشو الأخ الاكبر الذى عهد له والده بحكم قشتالـة • ورأينـاه يرغـم أخاه الفونسو بالتزام أحد الاديرة ، وبارتداء مسوح الرهبان • ورأينا الفونسو يفرّ من الدير بمساعدة أختـه أوراكا ويلتحق لاجئا ببلاط الملك المسلم المأمون ابن ذى النون صاحـب طليطلة كما مر بنا سابقا(١) وماتركنا بسطه وتفصيله من تـلك الاحداث نعود هنا الى ذكره والتحدث عنـه لارتباط ذلك بهذه النقطة بالـذات• فالفونسو فـرّ الى المأمون بن ذى النون الذى استقبله احسن استقبال • فاكـرم وفادته وأحسن عشرته وعامله معاملة الضيف الملكى العزيز المبجّل لا معاملة اللاجئ السياسى أو الأمير المطرود المخلوع(٢)• ونحن هنا لا نملك تأكيـدا واضحا من أن وراء تلك المعاملة اللطيفة اهدافا سياسية رغب المأمون فى جنى جناها فيما لو تغيرت وتطورت الامور لصالح الفونسو • ولكـننا لا نستبعد ان يكون هذا الخاطر قد خـنّ للمأمون وهو يعامل الفونسو تلك المعاملة الكريمة المفرطة • ومما يحكى عن تلك الفترة التى اقام فيها الفونسو فى طليطلة •أنه سمع ذات يوم وهو فى مكان قصىّ حوارا دار فى مجلس المأمون عـن المدن وحصانتها ومناعتها والوسائل الكفيلة بالتغلب عليها ••• الخ • فكان مما سمعه ان مدينة طليطلة لا يمكن ان تسقط بسهولة فى يدى مهاجميها لمناعة موقعها وشدة تحصيناتها الدفاعية الطبيعية أو البشرية ، وأنه اذا اريد الاستيلاء عليها فان الامر يستوجب ارهاقها بالحصار الطويل ، وبتضييق السبل عليها بقطع المؤونـة عنها ، وبث الفزع والرعب فى نفوس أهلها ••• الخ • جرى هذا الحوار والفونســو يستمع اليه بانتباه بالغ ، فعلق ذلك فى ذهنـه وملك عليه خاطـره(٣)•

ومهما يكن من امر فان اقامة الفونسو ببلاط المأمون لم تطل كثيرا ، اذ تطورت

---

(١) : انظر قبل الباب الثالث ، ص ١٨٧•

(٢) : انظر :
- J.B. BuRy: Op cit., P 396
- Jan Read: Op cit., p102

ـ محمد عبد الله عـنان : دول الطوائف ، ص ٣٩٠ •

(٣) : محمد عبد الله عـنان : نفس المرجع ، ص ٣٩١ ، ص ٣٩٣ •

الأمور فى اسبانيا النصرانية وانجلت عن مقتل سانشو تحت اسوار قلعة أخته اوراكا . فبعث اشراف قشتالة وليون كما رأينا الى الفونسو يطلبون منه القدوم لتسليمه مملكة أخيه[(١)] . ويذكر أن الفونسو أخفى نبأ موت أخيه عن المأمون ، وتأهب لمغادرة المدينة خفية ، ولكن المأمون فطن الى هذه الحيلة فأمر باعتقاله ، غير أن الفونسو استطاع أن ينجو بنفسه . على ان هذه الرواية لا يعتد بها ، لانه ثبت ان الفونسوا ابلغ الخبر للمأمون الذى اظهر غبطته وسروره لذلك[(٢)] ، وسمح له بمغادرة المدينة ، ولم يطلب منه سوى أن يتعهد بعدم مهاجمة أراضيه ومساعدته ضد اعدائه من ملوك الطوائف . ثم قدم له من جليل النفائس وثمين التحف ما أوجب شكر الفونسو له . ولم يكتف بهذا بل خرج يودعه فى موكب ملوكى عظيم[(٣)] .

وعلى أية حال فقد تربع الفونسو على عرش مملكة أبيه أو أخيه - لا فرق - كما مر بنا ، ورأيناه يصبح سيد اسبانيا النصرانية النافذ ، وصاحب الكلمة الاولى والاخيرة فيها . كما مر بنا فى ثنايا تلك الاحداث ذكر شيء من خصائص سياسته ومعالم شخصيته مما لا حاجة له الآن هنا[(٤)] .

وباعتلاء الفونسو عرش قشتاله وليون وجليقية اخذت حركة الاسترداد (La Reconguista) مسارا ذا صبغة صليبية[(٥)] . اذ حاول الفونسو أن يوحد صفوف مملكتى ارغونة ونبرة التابعتين لابناء عميه سانشو وراميرو الأول . وبعث فى نفوس حكام تلك المملكتين روح الوحدة والتآلف ، ونبذ الفرقة والخصومات والتعاون ضد المسلمين . ثم أخذ يعمل لأول مرة فى تاريخ اسبانيا النصرانية على التقرب الى الكنيسة الرومانية . فبدل الطقوس الاسبانية القوطية بطقوس كنيسة روما ، وفتح قنوات للاتصال ببابا روما جريجورى السابع . وفتحت أبواب اسبانيا

---

(١) : حسين مؤنس : مقال بعنوان : السيد القمبيطور وعلاقته بالمسلمين ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثالث ، العدد الاول ، ص ٤٤ - ٤٥ . - محمد عبدالله عنان : دول الطوائف ، ص ٣٩١ - ٣٩٣ .

(٢) : محمد عبدالله عنان : نفس المرجع ، ص ٣٩٣ .

(٣) : نفس المرجع والصفحة .

(٤) : انظر قبل الباب الثالث ، ص ٢٠٧

(٥) : نذكر بهذه المناسبة بأن البابا اوربان الثانى حرم على الاسبان أن يشتركوا فى الحرب الصليبية فى المشرق لأن اعداء النصرانية (المسلمون) يهددونهم فى عقر دارهم وانه يكفى النصارى الاسبان فخرا أن يقاتلوا المسلمين فى الغرب (اسبانية) : انظر : يوسف اشباخ : نفس المرجع السابق ، ص ١٢٤ .

امام الرهبان الكيلونيين (١) • وانضوت بذلك الكنيسة القوطية القديمة تحت ظل كنيسة روما • ومن جهة اخرى وسع اتصالاته مع فرنسا جارته فى الشمال والمتزعمة للحروب الصليبية آنذاك • ولتأكيد الانفتاح على أوربا التى تدين بالولاء لكنيسة روما تزوج من الاميرة كونستانس ابنة احد امراء برجونيه الذين ينتمون الى اسرة كابيه التى تحكم فرنسا وقتها (٢) •

وبدا كما لو أن اسبانيا عادت الى المعسكر الاوربى الصليبى بعد طول انفصال وغربة • وبات فى امكاننا ان نعتبر ان اسبانيا النصرانية غدت تدور فى فلك الكنيسة الرومانية وتخضع لرغبات بابواتها • رغم ماقيل من أن الفونسو كان يعارض فى كثير من الاحيان رغبات الكنيسة والبابا معا (٣) •

وعندما تولى الفونسو تلك المملكة النصرانية شبه الموحدة ، كانت احوال المسلمين فى حالة سيئة من التفكك والتمزق ، وتبعث فى نفس الوقت على المزيد من الاسى والحزن كما تثير الشفقة والسخط معا • فمملكة طليطلة كانت تدخل آنذاك فى نزاع مميت مع جاراتها الممالك الاسلامية ، كما كانت ترنو ببصرها الى تحقيق حلم مليكها القديم الجديد وهو الاستيلاء على قرطبة وانتزاعها من يد مليكها

---

(١) : نسبة الى مدينة كلونى Cluny فى فرنسا ، حيث اسس فيها حركة اصلاح دينى مسيحى عرفت بحركة الاصلاح الكيلونية • وقد انبعثت منذ القرن العاشر الميلادى ، حيث اسس وليم الاول التقى دوق اوكيتين ديرا فى سنة ٩١٠م • وكانت هذه الحركة تهدف الى تصحيح مسار الكنيسة المسيحية الغربية ، وكذلك تفادى الاخطاء والمفاسد التى ترددت فيها بقية الاديرة المعاصرة الاخرى • وقد قام هذا النظام الديرى الجديد على ركيزتين اساسيتين هما التبعية المباشرة للبابوية فقط دون ان يكون للحكام العلمانيين او الاساقفة المحليين حق الاشراف على هذه الاديره الكلونية • وثانيهما قام هذا النظام على اساس الطاعة المطلقة ، وتقديم مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد •وقد انتشرت هذه الحركة الاصلاحية الديرية فى القرن الحادى عشر الميلادى وشملت معظم اوربا •

انظر : سعيد عاشور : اوربا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٣٢٨ — ٣٢٩ • ج ٢ ، ص ١٣ ، وح ١ من نفس الصفحة •

(٢) : انظر : حسن احمد محمود : قيام دولة المرابطين ، ص ٢٥٢ — ٢٥٣ • — يوسف اشباخ : تاريخ الاندلس فى عهد المرابطين والموحدين ، الجزء الاول ، ص ١٣٨ وما بعدها • — حسين مونس : السيد القمبيطور وعلاقته بالمسلمين ، ص ٤٧ — ٤٨ • — محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ، ص ٣٩٧ ، ص ٤٠١ — ٤٠٢ •

(٣) : محمد عبد الله عنان : نفس المرجع ، ص ٤٠٢ •

الجديد المعتمد ، وقد تحقق لهولذلك بفضل الظروف التي سنحت لهوقتذاك كما رأينا (١) . أما المعتمد بالله فقد كان يدبر مع وزيره ابن عمار مشاريع الاحتلال والتوسع على حساب الممالك المجاورة كغرناطة وغيرها (٢) . وبالنسبة لمملكة سرقسطه فانها كانت تمرّ آنسذاك بادوار سيئة فى نزاعاتها العائلية المستمرة بين الاخوة من ابناء سليمان المستعين ابن هود ، ولم يكن بعضهم يتورع من الاستعانة بأمراء الامارات النصرانية المجاورة كأرغونة ونبرة . بينما نرى البعض الآخر منهم ينشغلون فى احيان اخرى فى رد عاديات هؤلاء الامراء انفسهم ، وكذلك رد عاديات امارة برشلونة الجارة المسيحية الثالثة الواقعة فى الشمال الشرقى من سرقسطه (٣) . اما مملكة بطليوس فقد كان مليكها عمر المتوكل مشغولا فى نزاع مع اخيه يحيى المنصور ، وبخلافه مع ابن ذى النون (٤) . واما الممالك الاخرى فقد كانت اضعف وأبعد من أن تؤثر فى مجريات الامور السياسة والعسكرية .

وهكذا فما ان اعتلى الفونسو العرش سنة ٤٦٨ هـ / ١٠٧٢م حتى وجد أمامه عالما اسلاميا مفككا مضطربا متناحرا . وهيأ له هذا تشديد ضغطه على المسلمين وارهاق ملوكهم بطلب الاتاوات المضروبة عليهم سنويا منذ عهد ابيه فرديناند . ولم يستثن احدا من ذلك ، حتى حليفه ومضيفه المأمون بن ذى النون ، فقد فرض عليه جزية سنوية كان يؤديها له طوعا اوكرها (٥) . وتعتبر هذه الفترة من عهد الفونسو السادس التى تبدأ من سنة ٤٦٨ هـ / ١٠٧٢م التى تولى فيها عرش قشتالة وليون وجليقية ، وتنتهى فى عام ٤٨٤ هـ / ١٠٨٦م ازهى فترات حكمه وخاصة بعد استيلائه على طليطلة (٦) .

ولكى نزيد هذا الرأى توضيحا وتأكيدا ننقل عن ابن الكردبوس وصفه (٧) لتلك الفترة الحرجة من تاريخ المسلمين ، اذ يقول (وخلص الملك للفنش بن فردلند (٨) ، واستبد به واستفحل امره ، واستحكم فى المسلمين طمعه ، وصحّ فى قياسه الفاسد أن

---

(١) : انظر قبل ، الباب الثالث ، ص ، ١٩٤-١٩٦ .
(٢) : انظر قبل الباب الثالث ، ص ، ٢٠٥ وما بعدها
(٣) : محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ، ص ٢٧٩ ـ ٢٨١ .
(٤) : محمد عبد الله عنان : نفس المرجع ، ص ٨٨ .
(٥) : محمد عبد الله عنان : نفس المرجع ، ص ١٨٠ .
(٦) : ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٧٦ ـ ٧٧ .
(٧) : ابن الكردبوس : نفس المصدر ، ص ٧٦ ـ ٧٨ .
(٨) اى الفونسو السادس

يستخلص جزيرة الاندلس لنفسه . فلم ينم عن شن الغارات ومواصلة الغزوات ، وصادف ملكه نفاقا كثيرا بين المسلمين واختلافا غليظا . وضعف بعضهم عن بعض بأنجاد الرجال ، واللعين فى اثناء ذلك لما بينهم من الفتنة مسرورا . وهم مع ذلك مشتغلون بشرب الخمور واقتناء القيان ، وركوب المعاصى وسماع العيدان . وكل واحد منهم يتنافس فى شراء الذخائر الملوكية ، متى طرأت من المشرق كى يوجهها الى الفنش هدية ليتقرب بها اليه ويحظى دون مطالبه لديه الى ان ضعف من أولئك الثوار الطالب والمطلوب وذل الرئيس والمرؤس ، وافتقرت الرعية ، وفسدت احوال الجميع بالكلية ، وزالت من النفوس الانفة الاسلامية ، وأذعن من بقى منهم خارج الذمة الى أداء الجزية ، وصاروا للفنش عمالا يجبون له الاموال لا يخالف امره احد ، ولا يتجاوز له احد . ووكلوا امور المسلمين الى اليهود ، فعاثوا فيهم عيث الاسود ، وجعلوهم حجابا ووزراء وكتابا . وتطوف الروم فى كل عام على الاندلس يسبون ويغنمون ويحرقون ويهدمون ويأسرون) .

وقبل ان نختتم الحديث عن هذه النقطة المتعلقة باشتداد حركة الاسترداد المسيحى لابد ان نشير الى الاحداث التى سبقت سقوط طليطلة فى يد الفونسو . فقد توفى المأمون بن ذى النون بعد قليل من دخوله قرطبة ظافرا ، وخلفه فى حكم مملكته حفيده يحى الملقب بالقادر . اذ كان ابنه هشام قد توفى فى حياته (١) . فخلف يحى جده فى وسط هذا الجو المشحون المليء بالاطماع الشخصية للافتراس والتسلط . عدا عن كونه لم يكن على شاكلة جده قوة وحزما وحنكة ودهاء ، بل كان ضعيفا فاسقا . فكان من الطبيعى ان يستغل كل الاعداء والطامحين الفرصة لتحقيق مقاصدهم .

فأعلن ابو بكر بن عبد العزيز حاكم بلنسية وصاحبها استقلاله الكامل التام الناجز عن مملكة طليطلة . ومعنى هذا انها لم تعد ترتبط بها ذلك الارتباط الاسمى الذى كانت عليه فى عهد المأمون . وبدأ المقتدر ابن هود يعد العدة للانقضاض على معاقله ، واستطاع بالفعل الاستئثار بمدينة شنتبرية . ومن ناحية أخرى أخذ أمير ارغونة وابن عم الفونسو : سانشو راميرز يشدد الضغط على بعض اطرافها وكذلك فعل المعتمد بن عباد الذى استطاع ان يستأثر ببعض القلاع التابعة لمملكة طليطلة (٢) .

(١) : محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ، ص ١٠٦ .
(٢) : ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ص ٧٩ – ٨١ . – محمد عبد الله عنان : نفس المرجع ، ص ١٠٦ – ١٠٧ .

هذا بالنسبة للجبهة الخارجية ،أما الجبهة الداخلية فانه اى يحيى القادر لم يكن موفقا فيها ايضا ، اذ بدأ خطواته الاولى فى الحكم بالتخلص من وزير جده السياسى الحكيم المدعو بابن الحديدى وكان ذلك بمشورة بعض اعدائه الحاقدين عليه ، وشعر القادر وكأنه قد تخلص من حمل ثقيل . ولكنه كان واهما اذ مالبث أولئك الذين أشاروا عليه بقتل ابن الحديدى ان أثاروا فى وجهه المتاعب والمصاعب مع الخاصة والعامة من أهل المملكة . ولذلك فقد فقد بقتل ابن الحديدى النصير والموازر والمستشار . وأضافت هذه الأحداث هما ثقيلا الى صدره بجانب تلك الهموم التى ذكرناها . ولذلك فعندما تطلع حوله يلتمس العون والتأييد . لم يجد سوى الفونسو ليستمد منه العون ويطلب منه النصرة[١] .

ولبى الفونسو دعوته شريطة ان يتنازل له عن بعض الحصون والقلاع التى عينها له بالاضافة الى المبالغ الطائلة التى كان يرهقه بها . واستطالت تلك الاوضاع الحرجة المضطربة من حياة طليطلة حتى عام ٤٧٢هـ / ١٠٨٠م فتحرج فيها الموقف الداخلى والخارجى وتدهورت الامور فى البلاد الى الحد الذى نضبت فيه الخزائن ، وشحت الاقوات ،وغلت الاسعار . مما افضى اخيرا الى قيام ثورة شعبية ضده ،فأضطر الى الفرار من المدينة بأهله وولده الى احد الحصون التابعة له[٢] ورأى أهل طليطلة ان البلاد فى حاجة الى امير او حاكم قوى حازم يستطيع ان يفرج كربتها ويعيد لها عزتها ، وينقذها من تلك الضائقة التى حاقت بها . فاستقر رأيهم على ان يستغيثوا بالملك عمر المتوكل صاحب بطليوس جارهم القريب منهم . فلبى المتوكل دعوتهم وقدم الى طليطلة واستقر بها فى اعقاب سنة ٤٧٢ هـ / ١٠٨٠م واقام هناك نحوا من عشرة شهور[٣] .

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

وفى تلك الاثناء راسل القادر الفونسو السادس مستصرخا به طالبا نجدته وعونه ضد مناوئيه ،وضد عمر المتوكل مذكرا اياه بسالف المودة والصداقة بينه وبين جده . وبدهى ان يغتبط الفونسو لهذه الدعوة وان يظهر قلقه وجزعه على مصير حفيد المأمون، حليفه الراحل . ولكنه اشترط عليه مقابل ذلك ان يتنازل له عن بعض الحصون التى سماها له . (فأعطاها له ، فادخل فيها اللعين ثقاته فى الحين

(١) : محمد عبد الله عنان : تراجم اسلامية مشرقية واندلسية ، ص ٢٧٠ ـ ٢٧١ .

(٢) : انظر : J.B. Bury: Op. Cit., P 397 —

(٣) : ابن بسام : المصدر السابق ،القسم الرابع ـ المجلد الاول ، ص ١٢٤ ـ ١٢٥ .

وحصنها أشد تحصين) (١) • ثم أصطحب معه القادر نحو طليطلة (٢) • وضرب عليها الحصار ونازلها منازلة شديدة • ولم يجد المتوكل معها بدّا من الانسحاب تحت جنح الظلام مؤثرا السلامة تاركا المدينة تواجه قدرها المحتوم • ولن ندخل فى تفاصيل أحداث الحصار الذى ضربه الفونسو على المدينة ، فما يهمنا هو الاشارة الى ان القادر استطاع ان يعود الى مدينته تحت ظلال الحراب النصرانية عام ٤٧٤هـ/ ١٠٨١م ، وأن ينكّل بخصومه ومناوئيه أشد تنكيل • كما يهمنا ان نشير الى ان الفونسو قد استحصل على ثمن باهظ جدا من الاموال والتحف والهدايا التى قدّمها له القادر حتى شعر بالرضى ثم انصرف الى قشتالة ظافرا غانما (٣) •

أما القادر فقد نفرت منه النفوس ، اذ اجتمع على أهل طليطلة عسفه وعنته ، وعيث الفونسو وانتهاكه لاراضى ومزارع الاهالى • وجرى من صروف المصائب والمتاعب ما أثقل كاهل السكان وجعلهم يستصرخون من حولهم دونما مجيب أو سميع • ورأى الفونسو ان الوقت قد حان للاستيلاء على طليطلة ، وأنه ما من شيء يحول بينه وبينها ولا سيما وقد أعطته وفاة المأمون جد القادر التى أشرنا اليها سابقا الفرصة للتحلل من عهده له الذى كان قد وعده اياه وهو يغادر طليطلة متوجها الى ليون لتسلم الملك مكان اخيه • ويقوم هذا العهد على أساس احترام الفونسو لسيادة أراضى المأمون وعدم التعرض لها (٤) • أما الآن فالظروف التى تجتازها طليطلة على الصعيد الداخلى تتيح لالفونسو فرصة ذهبية لتشديد الضغط عليها ، ولا سيما وهو يعرف بأنها لن تسقط فى يده الا بعد ان ينهكها الحصار ويهدّها الجوع وقلة المؤن ، وجاء

---

(١) : هذان الحصنان هما حصن سرية ، وحصن قورية • ويعتقد احمد مختار العبادى فى تحقيقه لكتاب ابن الكردبوس ح ٤ ص ٨٣ أنهما كانا يقعان بالقرب من الحدود القشتالية ، وانهما هما المعروفان اليوم باسم Soria أو Coria أو Conoria •

(٢) : ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ص ٨٣ ـ ٨٤ •

(٣) : ابن الكردبوس : نفس المصدر والصفحات .

(٤) : انظر :
ـ ليفى بروفنسال : الاسلام فى المغرب والاندلس ، ص ١٢٨ • (نقلا عن المؤرخ الاسبانى منندث بيدال صاحب كتاب : اسبانيا فى عهد السيد •)
ـ محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ، ص ٣٩٥

استئناف ملوك الطوائف للدور الذى مارسوه مع القادر فى مهاجمة اراضيه وانتزاعها من يده ليضيف ورقة رابحة تضاف الى اوراقه الرابحة الأولى .(١)

ويهمنا هنا ان نذكر بموقف المعتمد بالله من تلك الاحداث اى أحداث مهاجمة طليطلة من قبل الطامعين فى خيراتها واراضيها ، وعلى رأسهم الفونسو . فالمعتمد عقد بوساطة وزيره ابن عمار مع الفونسو معاهدة يتعهد فيها بدفع الجزية له ،كما يتعهد فى الوقت نفسه ــ وهذا هو المؤسف ــ باطلاق يده لمهاجمة اى مملكة من ممالك الطوائف بما فيها طليطلة . فلم يعد يعترض مشاريعه التى يعدها للاستيلاء عليها .(٢) بل ان الموقف المؤسى الذى انحدر اليه بعض ملوك الطوائف انهم لم يكتفوا بمساعدة الفونسو فى حصاره لطليطلة فحسب ، بل امدوه بالميرة والمؤنة .(٣) كما أصم البعض الاخر آذانهم عن صيحات استغاثة اهالى طليطلة اثناء محاصرة الفونسو لها . وقد استمر الفونسو يشدد ضغطه على المدينة بكل تصميم وعزيمة . ويرى أن استمراره فى الحصار سيفضى بلا شك الى النتيجة التى يرجوها . ويكفى ان نشير الى ان حصار قرطبة قد استمر من عام ٤٧٤ الى عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨١ ـ ١٠٨٥ م .

ولم تجد محاولة الملك عمر المتوكل ملك بطليوس وهى المحاولة الوحيدة التى اتسمت بالشهامة والنخوة ، لم تجد شيئا فى انقاذ طليطلة ،وارتدت الكتيبة التى بعثها بقيادة ابنه مهزومة كسيفة .(٤)

__سقــوط طليطلـــة :__

لم يكن من المستطاع على اى قائد عسكرى افتتاح طليطلة عنوة لاستحالة ذلك ،فقد كانت [تتمتع] بموقع طبيعى حصين ، فهى تقع على المنحدر الصخرى الوعر لنهر التاجه ويحيط بها شبه جزيره تزيد من مناعتها منعة وتحصينا . وكانت فى الواقع شجا دائما فى حلوق الحكام والملوك ، ولم يكن من السهل الاستيلاء عليها ، وعندما وقعت فى يد المسلمين الفاتحين لم يهنأ الولاة الامويون ومن ثم الامراء فالخلفاء

(١) : ابن الكردبوس : المصدر السابق ،ص ٨٤ .
(٢) : محمد عبد الله عنان : تراجم اسلامية شرقية واندلسية ،ص ٢٧١ ــ ٢٧٢ .
(٣) : على ادهم : المرجع السابق ،ص ١٩٩ .
(٤) : محمد عبد الله عنان : نفس المرجع اعلاه ،ص ٢٧٢ .

من بني امية ايضا بحكمها ،فقد ظلت طيلة تلك الفترة مدينة ثائرة متمردة على السلطة المركزية وخاصة ايام حكم الحكام الضعاف • ومما كان يزيد من متاعب السلطة المركزية ان غالبية سكانها كانوا من المولدين الاسبان الذين ظلوا مصدر مضايقات ومشاغبات للحكام والخلفاء دائما (١)• ولهذا فان مدينة بهذه الاوضاع لا يمكن ان تسقط بسهولة الا اذا تعرضت للحصار الطويل واقفلت عليها السكك والدروب لكى لاتمد بالمؤن والميرة ويعشش الفزع والوهن فى نفوس سكانها ،وهو ما استطاع الفونسو ان يستغله احسن استغلال • وكان واثقا من أن المدينة ستضطر آجلا أو عاجلا خاضعة مستسلمة• وبالفعل فقد حدث ما خطط لاجله الفونسو ،اذ ما لبث أهل طليطلة ان ضاقوا ذرعا بذلك الحصار الرهيب الطويل وضاقت عليهم الارض بما رحبت ،فرأوا أن يداخلوا الفونسو ويستصرخونه ويستعطفونه ، فجاءه وفد منهم يرجون ذلك ويلوّحون له فى نفس الوقت بانهم سيطلبون مساعدة ملوك الطوائف ،غير ان الفونسو استهزأ بهم وسفّه آراءهم تلك واستسخفها وبعث بطلب رسل ملوك الطوائف اليه ، وعلى رأسهم رسل المعتمد ابن عباد الذين تسابقوا الى خطب مودته والحصول على رضائه فخاطبهم جميعا بكل عجرفة وكبرياء ،وطردهم من مجلسه بطريقة مخزية ذليلة • فاسقط فى يد الطليطليين ، وخاب كل امل فى نفوسهم لانفراج ذلك الكرب عنهم ،وشعروا وقتها ان لا مناص من التسليم او الاستسلام بمعنى أدق (٢)• واخيرا توصل اهل طليطلة الى عقد معاهدة مع الفونسو تنص على ان يسلموا المدينة له مقابل ان يتعهد بالحفاظ على ارواحهم وممتلكاتهم واماكن عباداتهم •

واخيرا دخل الفونسو السادس طليطلة مكللا بالغار فى ١٠ محرم ٤٧٨هـ / ٦ مايو ١٠٨٥م (٣) ظافرا منتصرا • وعادت طليطلة الى الاسبان مرة اخرى والى الابد (٤)•

---

(١) : عن المولدين ودورهم فى مضايقة السلطة المركزية الاسلامية واتعابها يمكن مراجعة :
عبادة كحيلة : الرسالة السابقة ، ص ١٨٩ ـ ١٩٣ ، و ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣ •

(٢) : ابن بسام : المصدر السابق ،ص ١٢٨ ـ ١٣٠ •

(٣) : اعتمدنا فى الاخذ بهذا التاريخ على المستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال ،الذى ينقل هذا التوقيت بالشهر الهجرى عن مؤرخ اندلسى بلنسى معاصر لاحداث سقوط طليطلة ويسمى ابن علقمة صاحب كتاب البيان الواضح فى الملم الفادح المفقود ، وقد توفى عام ٥٠٩هـ ،وقد بقيت منه اجزاء مهمة عثر عليها بروفنسال • اما التوقيت الميلادى لسقوط طليطلة فيقول بروفنسال ان يوم ٦ مايو ١٠٨٥ م هو الصحيح على خلاف ما يراه معظم المؤرخين المحدثين من ان سقوط طليطلة قد حدث فى ٢٥ مايو ١٠٨٥م •
انظر الاسلام فى المغرب والاندلس ،ص ١٤٦ ،وح ٢ من نفس الصفحة •

(٤) : للاطلاع على مزيد من اخبار سقوط طليطلة فى المراجع الاجنبية يراجع مثلا :

وقد عهد الفونسو بحكم المدينة الى احد رجاله المستعربين . ومما يؤسف له ان الفونسو لم يف بتعهداته لاهل طليطلة ،اذ لم يمض غير قليل من الوقت حتى تحول جامع طليطلة بايعاز من الرهبان وزوجة الفونسو الفرنسية الى كنيسة كبيرة ظلت كذلك حتى اليوم(١) ،واستولى الفونسو بعد ذلك على كافة الاراضى التابعة لمملكة طليطلة الواقعة فى شمال نهر التاجه(٢). وغادر القادر المسلوب الملك والارادة طليطلة تحت ظلال الحراب النصرانية التى ساندته فى الدخول اليها قبل ذلك . فاستقر بمعسكر الفونسو . ثم طلب القادر من الفونسو ان يساعده فى الاستيلاء على بلنسية ،وقيل بل تنازل له عن طليطلة مقابل ان يعهد له بملك بلنسية(٣) . وقد استطاع القادر بفضل مساعدة الفونسو ان يستولى على بلنسية ،وان يسلم له اهلها قيادها(٤) .

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

وبهذه الصورة المؤسية سقطت مدينة طليطلة المنيعة الحصينة. ونزل خبر سقوطها على المسلمين مدويا كالصاعقة ليس فى الاندلس وحدها بل وفى بقية العالم الاسلامى ،وترك سقوطها رنة اسى محزنة لدى المسلمين وخاصة الاندلسيين بالذات . وفاضت المشاعر الدينية والوطنية فى نفوسهم . وعمت الاندلس وقتها موجة من الاستنكار والتنديد ، وانبرى الشعراء والفقهاء والمفكرون يحذرون من مغبة ذلك وينبهون ويلفتون الانظار الى الخطر الحقيقى الماحق القادم . وتنقلوا بين اصقاع الاندلس يبثون فى نفوس الاهالى روح المقاومة والجهاد . وذهب بعضهم الى ملوك الطوائف يبثونهم

- Joseph F. O'Callaghan: A History of MEDIEVAL SPAIN. p 204 - 206
- J. B. Bury. op. cit., 397
- Jan Read: Op. cit., p. 103،122-123

(١) : جامع طليطلة : هو جامع باب مردوم نسبة الى باب مجاور له يعرف بالباب المردوم، وقد بنى عام ٣٩٠ هـ . وقد اقام عليه الاسبان بعد استرداد طليطلة بوقت يسير كنيسة سانتا كروث . وهو المعروف اليوم باسم كنيسة الكريستودى لا لوث .
انظر : مانويل جوميث مورينو : الفن الاسلامى فى اسبانيا ،ص ٢٢٧ . ـ عبد العزيز سالم : المساجد والقصور فى اسبانيا ،ص ٥٠ ـ ٥١ .

(٢) : محمد عبد الله عنان : تراجم اسلامية شرقية واندلسية ،ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦ .

(٣) : ابن الكردبوس : المصدر السابق ،ص ٨٤ .

(٤) : محمد عبد الله عنان : نفس المرجع اعلاه ،٢٧٦ .

مخاوف الأمة من الاخطار المترتبة على سقوط طليطلة واسطة عقد الاندلس ودرّة جيدها • وسفح الشعر ضمير الأمم وصوتها العالي ووسيلة اعلامها في أفراحها وأتراحها وخطوبها مدادا باكيا فيه حرقة الأسى والتفجع، وفيه لوعة الحزن والاسف لحال المسلمين وتخاذلهم واستسلامهم للهوان والذل • وتناقلت الألسن قصيدة رائية باكية لشاعر مجهول تنضح وتفيض أسى وحزنا ، وهي في حوالي السبعين بيتا ويقول مطلعها (١) :

لثكلك كيف تبتسم الثغور　　سرورا بعد ما يئست ثغور

وطفى في البلاد تيار تشاؤمي يعبر أصدق تعبير عن مخاوف المسلمين الاندلسيين ويدعو الى الهروب والهجرة خوفا من المستقبل القاتم • وقد عبّر عن هذا التيار الشاعر المشهور المعروف بابن العسال وهو عبد الله بن فرج اليحصبي عندما قال (٢) :

يا أهل أندلس حثوا مطيكم　　فما المقام بها الا من الغلط

الثوب ينسل من اطرافه وأرى　　ثوب الجزيرة منسولا من الوسط

ونحن بين عدو لا يفارقنا　　كيف الحياة مع الحيات في سفط

أما عن الموقف الذي ساد الاندلس في اعقاب سقوط طليطلة مباشرة ، فينقله لنا ابن الكردبوس في شيئ من المرارة والاسى عندما يقول (ولما حصل الطاغية الفنش لعنه الله بطليطلة ، شمخ بأنفه ورأى أن زمام الاندلس قد حصل في كفه ، فشن غاراته على جميع اعمالها ، حتى فاز باستخلاص جميع أقطار ابن ذي النون واستئصالها ، وذلك ثمانون منبرا سوى البنيات (٣) والقرى المعمورة • وحاز وادي الحجارة الى طلبيرة (٤)

---

(١) : للاطلاع على هذه القصيدة يراجع :
المقري : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص٩٣ ومابعدها •

(٢) : المقري : نفس المصدر السابق ، ص ٨٤ ــ ٨٦ •

(٣) : يرى أحمد مختار العبادي نقلا عن المستشرق الهولندي دوزي أن المدن الكبرى كانت تسمى أمهات ، في حين كانت المدن الصغرى التابعة لها تسمى بنيات•

أنظر ، ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ح ١ ، ص ٨٧ •

(٤) : طلبيرة هي المعروفة باسم Talavera de la Reina في مديرية طليطلة ، وتقع على نهر تاجه على ١٥٠ كيلو مترا غربي طليطلة على مجرى النهر • وهي اليوم مركز اداري في مديرية طليطلة ، وعلى بعد ٣٠ كيلومترا منها توجد اليوم مدينة اصغر تسمى طلبيرة القديمة Talavera la vieja وهذه تابعة لمديرية قصرش

وفحص اللج (١) وأعمال شنتمرية كلها ، فلم يكن بالجزيرة من يلقى أقل كلب من كلابه ، فمنذ ذلك وجّه كل رئيس بالاندلس رسله الى الفنش مهنئين ، وبأنفسهم وأموالهم مفتدين ، وفى أن يشركهم فى بلاد هم له عاملين ، ولأموالهم اليه جابين ، حتى أن صاحب شنتمرية حسام الدولة ابن رزين (٢) نهض اليه بنفسه وتحمل هدية عظيمة القدر سنية متقربا اليه ، وراغبا أن يقره فى بلده عاملا بين يديه ، فجازاه على هديته بقرد وهبه اياه ، فجعل ابن رزين يفخر به على سائر الرؤساء ، ويعتقد أنه جُنّته (٣) مما كان يحذر من الفنش من وقوع البأساء . وانتحى الفنش انتحاء الجبابرة ، وأنزل نفسه منازل القياصرة ، وداخله من الاعجاب ما أحتقر به كل ماش على التراب ، وتسمى بالانبراطور ، وهو بلغتهم أمير المؤمنين ، وجعل يكتب فى كتبه الصادرة عنه من الانبراطور ذى الملتين ، وأقسم لارسال (٤) الرؤساء أنه لايترك فى الجزيرة من الثوار أحدا ولا يبقى لهم ملتحدا ، سوى من اكتنفته رعايته ، وشملته عنايته .) (٥)

ويضيف ابن الكردبوس قائلا (وكان رسول ابن عباد اليه يهود يا يعرف بابن مشعل فقال له : كيف أترك قوما مجانين تسمى كل واحد

⟸ وقد سقطت طلبيرة فى يد الفونسو السادس سنة ٤٧٥/١٠٨٢م ، أى قبل سقوط طليطلة بثلاث سنوات .
انظر ، ابن الابار : المصدر السابق والجزء ، ح ٢ ، ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨ .

(١) : الفحص Al}oz اسم يطلق على عدة مواضع بالاندلس وهو يعنى كل موضع يسكن سواء كان سهلا او جبلا بشرط أن يزرع . وهو فى اللغة شدة الطلب . أما فحص اللج فقد اختلفت المصادر العربية فى تسميته وتحديد مكانه ، فتارة يسمى بحصن اللج وتارة يسمى بحصن الثلج ، وتارة يسمى بالبسيط . وابن الكردبوس يجعله فى منطقة طليطلة .
انظر ، ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ح ٤ ، ص ٨٧ ـ ٨٨ .

(٢) : حسام الدولة ابن رزين : هو يحيى بن عبد الملك بن هزيل بن خلف بن رزين صاحب شنتمرية الشرق أو سهلة بنى رزين كما كانت تعرف فى الجغرافية الاسلامية . وقد تولى حكم شنتمرية الشرق سنة ٤٩٦ هـ ، غير أنه مالبث أن خلع على يد المرابطين بعد ذلك بوقت قصير .
أنظر ، ابن الابار : المصدر السابق والجزء ، ص ١٠٩ ، وح ١ ، ص ١١٠ .

(٣) : الجنة بالضم كل ماوقى .
أنظر ، الفيروزابادى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢١٢ .

(٤) : أى رسل الرؤساء .

(٥) : تاريخ الاكتفاء ، ص ٨٧ ـ ٨٩ .

منهم باسم خلفائهم وملوكهم وأمرائهم المعتضد ، والمعتمد ، والمعتصم ، والمتوكل ، والمستعين ، والمقتدر ، والأمين ، والمأمون . وكل واحد منهم لا يسل فى الذب عن نفسه سيفا ، ولا يرفع عن رعيته ضيما ولا حيفا ، قد أظهروا الفسوق والعصيان ، واعتكفوا على المغانى والعيدان ؟ ! وكيف يحل ببشر أن يقر منهم على رعيته أحدا ، وأن يدعها بين أيديهم سدى ! » (١).

ورغم أن هذا الكلام الذى فاه به الفونسو يعبر عن وجهة نظره فى ملوك الطوائف ، ويعنى فى نفس الوقت أنه يجد لنفسه المبرر لمهاجمتهم والاستيلاء على أراضيهم . نقول رغم أن هذا الكلام صحيح للأسف الشديد ، فان المسلمين لم ينصبوه حكما ليقضى لهم حقوقهم من ملوك الطوائف ، ولم يكلفوه برفع الضرر والحيف عنهم ، بل ان رغباته الشخصية ، وحماسته القومية والدينية هى التى دفعته الى قول هذا .

---

(١) : تاريخ الاكتفاء ، ص ٨٩ .

تدهور العلاقات السياسية بين الفونسو والمعتمد وبقية ملوك الطوائف والتفكير في الاستعانة بالمرابطين

اعطى سقوط طليطلة لالفونسو زخما هائلا من الاعتداد والتعالى ، ونفخ فيه ذلك الانتصار الذى لم يكن ليتاح له لو لم يسهم المسلمون بسوء سياستهم فى التعجيل به . نقول نفخ فيه ذلك الانتصار دبيب مقيت من العظمة والكبرياء أوحى له بشعور زائف بأنه باعث امجاد النصرانية ومحى رسومها ، وأب وحدتها وقائدها الملهم . وصور له ذلك أنه الرجل المنتظر لاحياء ملك القوط القدامى (١) . ولذلك فقد مضى فى استفزاز المسلمين واستثارتهم شوطا بعيدا موقنا بعظم جدوى الورقة التى يلعب بها دائما وهى اختلاف كلمة المسلمين وتفرق وحدتهم . ولم يكن يخطر على باله بأن هناك خاصية من صميم خصائص المسلمين والعرب بصفة خاصة وهى ان المحن والمصائب الكبرى التى تحل بهم تفضى دائما الى جمع كلمتهم وتوحيد صفوفهم ، فسرعان ماينسى او يتناسى كل واحد منهم خلافاته ونزاعاته الشخصية فى سبيل الذب عن الهدف المشترك والمصير المشترك .

ولذا فان الفونسو ما ان استطاع الاستيلاء على طليطلة حتى بدأ يسيطر على بقية المناطق التابعة لها ، فاستولى باسم القادر ابن ذى النون على بلنسية وملكه أياها او بمعنى ادق جعله نائبا عنه فى حكمها ، وبعث الى المقاطعات التى استطاع السيطرة عليها من ينوب عنه فى حكمها يجبون له الجزية والاتاوات (٢) . ثم توجه نحو سرقسطه التى مزقتها الحروب الاهلية بين المؤتمن ابن المقتدر الذى خلف اباه وبين اخيه المنذر صاحب لاردة . وبعد ان توفى المؤتمن عام ٤٧٨هـ/١٠٥٨م استمرت الحروب والمنازعات بين المستعين ابن المؤتمن وبين عمه المنذر ايضا . فقد توجه الفونسو عقب استيلائه على طليطلة نحو سرقسطة وضرب حولها الحصار ، وأقسم بايمان مغلظة ان لا يبرح مكانه حتى يفتحها او يموت دونها . ولم تجد شيئا محاولات المستعين معه باغرائه بدفع الاتاوات والجزية وما شاء من الاموال والتحف والهدايا التى يرغب فيها شريطة ان يرفع حصاره عن المدينة (٣) . واخذ عيونه وجواسيسه يندسون فى

(١) : حسن احمد محمود : المرجع السابق ، ص ٢٤٥ - ٢٥٥ .
(٢) : حسن احمد محمود : نفس المرجع ، ص ٢٥٥
(٣) : انظر : -J.B. Bury: Op. Cit., P. 397-398
- حسن محمود : نفس المرجع ص ٢٥٥ .

صفوف سكان المدينة ويبثون اعلانات براقة زاهية ، ودعايات كاذبة مضللة من أن الفونسو سوف يحسن معاملتهم ويعدهم بالخير ويمنيهم بالاحسان والتجلة . ويذكرونهم بأيادى الفونسو البيضاء على اهل طليطلة عندما فرق على ضعفائها المساكين مائة الف دينار . وكان هذا بطبيعة الحال من قبيل ذر الرماد فى العيون لتطمينهم ليس الا ، والا فلم يمض غير وقت يسير حتى تنكر لمبادئه وتعهداته .(١)

وفى نفس الوقت تحركت قوات قشتالية نحو غرناطه وضربت حولها الحصار ، كما استولت بعض القوات ايضا على حصن لييط Aledo وهاجمت قوات أخرى بعض اطراف مملكة المرية .(٢) وتناقلت بعض كتب التأريخ رواية مفادها ان الفونسو ذهب به الاستعلاء والطمع والغرور حدا جعله يخترق نهر التاجه واتاح له هذا ان يجتاز بقواته القشتالية والليونية لأول مرة نهر التاجه جنوبا الذى كان يمثل وقتها حدا فاصلا بين الممالك الاسلامية والنصرانية . فقد ذهب به التمالى حدا جعله يخترق نهر التاجه جنوبا حتى وصل الى جزيرة طريف(٣) فى اقصى جنوب الاندلس ، فضرب بقوائم فرسه البحر ثم تبجح قائلا بأنه قد وطأ ارض الاندلس كلها رغم انوف المسلمين وملوكهم(٤) وفى الواقع ان وصول الفونسو الى جزيرة طريف حدث بعد ان ساءت العلاقات بينه وبين المعتمد ، وبعد حادثة الرسول اليهودى التى سنعرض لها بعد قليل . وقد بعث الفونسو وهو فى طريف بخطاب الى يوسف ابن تاشفين الذى سيستعين به المعتمد وبقية ملوك الطوائف كما سنرى بعد قليل ايضا .

تدهور العلاقات بين الفونسو وملوك الطوائف :-

ما نقلناه سابقا من ردود فعل تجاه سقوط طليطلة ، كان مجرد رد فعل شعبى فى جميع الاندلس . وكان من الطبيعى ان يأتى رد الفعل ذلك غويا قويا

(١) : ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ص ٩١ .
(٢) : حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٢٥٥
(٣) : جزيرة طريف هى عبارة عن رأس بارز فى الطرف الاقصى الجنوبى لشبه جزيرة ايبريا جنوب غربى الجزيرة الخضراء بقليل . وتنسب الى طريف بن زرعة الذى ارسله طارق بن زياد فى مهمة استطلاعية لاختبار احوال شبه الجزيرة قبل عبور المسلمين اليها . وهى اليوم مدينة صغيرة تسمى بنفس الاسم Tarifa .
انظر : ابن الابار : المصدر السابق والجزء ، ج ٣ ، ص ١٩٩ .
(٤) : حسن محمود : نفس المرجع السابق ، ص ٢٥٥ (نقلا عن ابن بسام) .
وانظر كذلك : MUHAMMAD BENABOUD Y ANGUS MACKAY : THE AUTHENTICITY OF ALFONSO VI'S LETTER TO YOSUF B. TASUFIN. in AL-ANDALUS, VOL, XLIII, 1978, P. 234

يترجم مخاوف الناس ، ويعبر عن قلقهم ثم لاشئ سواه - وهم معذورون فى ذلك - فلم يكن لديهم من الامكانات ما يغيرون به الوضع رغم تلويحهم بالثورة . وقد ترجم عن معاناة أولئك الناس الشاعر الاديب ابو القاسم خلف ابن فرج الالبيرى المعروف بالسميسر (١) عندما قال :

ناد الملوك وقل لهم	ماالذى احدثتم
اسلمتم الاسلام فى	اسر العدا وقعدتم
وجب القيام عليكم	اذ بالنصارى قمتم
لا تنكروا شق العصا	فعصا النبى شققتم

وقال ايضا :

سنصبر والزمان له انقلاب	وانتم بالاشارة تفهمونا

ومع هذا فلم يشق الناس عصا الطاعة ، ولم يثوروا على ملوكهم . ولكن ما جدّ من ظروف واحداث قلب الاوضاع وخلط الاوراق ، وجعل ملوك الطوائف يفكرون فى اتخاذ اجراء حاسم ، ومن ثم كان رد الفعل الرسمى الذى سنتحدث عنه هنا .

ويبدو ان ملوك الطوائف لم يستوعبوا الخطر الحقيقى من سقوط طليطلة فى يد الفونسو فى بادئ الامر . او انهم شعروا بأن ذلك الحادث انما هو خاص بمملكة طليطلة وحدها ، وانهم اذا ما وطدوا علاقاتهم مع الفونسو فانهم سيضمنون بقاء عروشهم . ومن المحتمل ان شيئا من هذا حدث وفكر فيه ملوك الطوائف . وربما يفسر لنا هذا الكلام ما جاء فى رواية صاحب الاكتفاء - ان صحت - من ان ملوك الطوائف ومن ضمنهم المعتمد بالله قد بعثوا برسلهم لألفونسو فى اعقاب سقوط طليطلة مباشرة مهنئين بذلك الفتح العظيم (٢) .

وعلى هذا فاننا نقول بكل اسف اننا لم نعثر على رد فعل رسمى تجاه سقوط طليطلة من ملوك الطوائف وخاصة من المعتمد . ولا يقلل من أهمية كلامنا ما رواه يوسف أشباخ عن رد فعل مزعوم للمعتمد تجاه سقوط طليطلة . فهو يقول ان المعتمد بعث بخطاب الى الفونسو الذى استكمل احتلال بقية أراضى طليطلة يحذره فيه من التمادى فى الهجوم على مملكة طليطلة . وطلب منه ان يحترم بنود المعاهدة

---

(١) : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الاول - المجلد الثانى ، ٣٧٤ .

(٢) : انظر قبل ص ٢٥٥ .

الموقعة بينهما والتي كنا قد أشرنا الى أن المعتمد عقدها بوساطة وزيره ابن عمار، فاذا لم يحترم الفونسو نصوص الاتفاقية ، فان ذلك يعتبر خرقا واضحا لها. ويعقب يوسف اشباخ بقوله : ان الفونسو بعث للمعتمد خطابا ينفي فيه خرقه لنصوص الاتفاقية ، ويشعره بأن ماحدث انما تم بالاتفاق مع صاحب طليطلة القادر نفسه ، ولكي يبرهن عن حسن نواياه بعث له بخمسمائة فارس ليساعدوه في حربه ضد ملك غرناطة. وبالفعل توجهت تلك القوة الى اشبيلية ، وان الفونسو عندما شعر بتصميم المعتمد على رأيه، يئس من أمر اشبيلية ، فتوجه نحو بلاد بني الأفطس يهاجم أراضيهم ويعيث فيها (١).

فنحن نستبعد هذا ، اذ هل كان المعتمد بتلك القوة التي يستطيع بها أن يناطح الفونسو ويهاجمه ؟؟ فكلنا نعرف أن المعتمد كان يتهالك في استجداء الفونسو لطلب مساعدته ؟؟ هذا من جهة ومن جهة أخرى فالنزاع بين مملكتي اشبيلية وغرناطة كان قد حسم بزوال ابن عمار وزوال سياسته ، وانشغاله بفتح مرسية ثم مقتله أخيرا بشهادة عبدالله بن زيري ملك غرناطة نفسه كما رأينا سابقا (٢). وكان هذا قبل سقوط طليطلة كما هو واضح.

وعلى أية حال فان أمامنا عدة روايات عن بداية تدهور العلاقة السياسية بين المعتمد وزملائه ملوك الطوائف ، وبين الفونسو السادس. بادئ ذي بدء لنصف فتور العلاقة بين الفونسو وعمر المتوكل صاحب بطليوس ، ثم نعرج على النقطة المهمة في موضوعنا وهي فتور العلاقة بين المعتمد والفونسو ، وما أفضت اليه بعد ذلك. فيروى ان الفونسو بعث في أعقاب سقوط طليطلة الى عمر المتوكل خطابا فيه من الصلف والعتو ما فيه ، اذ جرت كما يقول صاحب الحلل الموشية (بينه وبين ملك الجلاقة خطوب كثيرة آل حال المسلمين بعمالته الى الضعف ،والاستيلاء على بلادهم ، وخاطبه ملك الجلالقة بكتاب يرعد فيه ويبرق ويتشطط عليه في أداء وظيف من المال كل سنة.) (٣) ويقول صاحب الحلل الموشية أيضا أن عمر المتوكل أجابه بخطاب أورد نصه ويهمنا اشارته فيه الى أنه مستمد هو وزملاء ملوك الطوائف الى مقاومة الفونسو ومواجهته.

أما أسباب توتر العلاقة بين المعتمد والفونسو فقد قيل فيها الكثير ،

---

(١) : تاريخ الاندلس :في عهد المرابطين والموحدين ، ج ٢ ، ص ٧٣.

(٢) : انظر قبل ، الباب الثالث ، ص ٢١٥ ــ ٢١٦.

(٣) : مجهول ، ص ٢٢ ــ ٢٣.

واختلفت فيها الروايات اختلافا بينا ، فمن تلك الروايات مايعود بفتور العلاقات وتدهورها الى ماقبل سقوط طليطلة . اذ يروى ابن اللبانه معاصر المعتمد وصديقه وشاعره الاثير لديه فى كتابه الذى ألفه عن بنى عباد ، والمعروف بلقيط الدرر وسقيط الزهر المفقود فيما ينقله عنه المقرى انه فى عام ٤٧٥ هـ / ١٠٨٢ م جاء رسل الفونسو كالمعتاد لتسلم الجزية السنوية من المعتمد ، وكان على رأس البعثة سفير يهودى يدعى ابن شالب ، فوجه لهم المعتمد المبلغ المعتاد ، الا أن اليهودى رفض أخذه ، واحتج بأن الذهب على غير العيار المعتاد ، وهدد بأنه فى العام القادم سوف لن يأخذ مالا ، بل سيأخذ بدلا من ذلك الحصون والقرى . ويبدو أن السفير اليهودى قد تجاوز مهمته دون ان يكون عنده تفويضا من الفونسو نفسه ، ويبدو ان مادفعه الى هذا الموقف المتعجرف هو وثوقه من قوة سيده وتأكده من الحالة السيئة التى بلغها المسلمون وقتها . ولذلك جاء صلفه هذا من موقع قوة . وهنا نشعر برد فعل المعتمد عنيفا قويا حازما فيه من الانتصار للكرامة مايبعث على الاعجاب ، عندما امر بقتل السفير وصلبه (١). ومع هذا فنحن نتساءل هل كان رد فعل المعتمد الذى جابه به السفير اليهودى هو انتصار شخصى للمهانة التى الحقها به السفير ؟؟ ام انه كان رد فعل قومى ؟؟ .

يلوح لنا من هذه الرواية رأيان هما : اما ان يكون ابن اللبانه قد وهم فى تحديد التاريخ الذى ذكره وهو عام ٤٧٥هـ . وفى هذه الحالة يصعب علينا ان نعتبر هذه الحادثة سببا مباشرا لفتور العلاقات بين المعتمد ، وبين الفونسو وهى التى تشير معظم روايات المؤرخين على انها قد حدثت فى اعقاب سقوط طليطلة فى عام ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م . اما الرأى الثانى فهو ان هذا الحادث قد جرى فى التاريخ المحدد الذى اشار اليه ابن اللبانه الذى كان على اطلاع واسع على مجريات الامور فى اشبيلية آنذاك بحكم وجوده الدائم فى البلاط الاشبيلى . وفى هذه الحالة يمكن اعتبار هذه الحادثة مجرد سحابة قاتمة فى العلاقات بين الحليفين ساق السفير برعونته المعتمد اليها سوقا .

---

(١) : نفح الطيب : ج ٥ ، ص ٣٧٧ ـ ٣٧٨ .
وقد اشارت الى هذه الحادثة ايضا بعض المراجع الاوربية الحديثة التى طابقت روايتها رواية المؤرخين المسلمين .
انظر مثلا : - ANGUS MACKAY and MUHAMMAD BENABOUD : Alfonso VI of León and Castile BHS, LVI (1979) P. 97

وعلى أية حال فقد كان رد فعلها لدى الفونسو غاضبا ، فأقسم بأن يأتي بجنود كثيفة (بعدد شعر رأسه حتى يصل بحر الزقاق)(١) لينتقم منه جزاء فعلته تلك .

هذه الرواية رواها ابن اللبانة كما ذكرنا ، ورواها من بعده المقري الذي نقل عنه ، ومن المحدثين دوزي(٢) ، كما رواها في شيء من الاختلاف يسير صاحب الحلل الموشية الذي جعل تاريخ هذه الحادثة عام(٣) ٤٧٧هـ/ ١٠٨٤م .

على أن هناك من الروايات الاخرى ما تؤكد على أن الفتور الذي ساد العلاقات الاشبيلية النصرانية قد حدث في اعقاب سقوط طليطلة . وهذه الروايات تروي شأنها شأن ما سبق ذكره أسبابا مباشرة لهذا الفتور . فصاحب الحلل الموشية يقول(٤) في معرض حديثه عن هذه الواقعة : (وكان الطاغية ادفنش في سنة ٤٧٨هـ قد غلب على طليطلة ، واستولى على اعمالها ، وحازها لنفسه ، وكثر الروع على الاندلس واشتد الخوف وتطرف المعتمد على الله ابن عباد ، ولما ملك ادفنش اعمال طليطلة وطمع في الاستيلاء على الجزيرة كلها ، وهابت الملوك أمره لكون طليطلة نقطة دائرتها خاطب المعتمد على الله أبا القاسم ابن عباد يطلب منه تسليم اعماله الى رسله وعماله ، وتشطط عليه في الطلب وأظهر له السرور بالغلب ...) .

والواقع أن خطاب(٥) الفونسو للمعتمد يفيض تبجحا وتهكما وتقريعا ، فلما وصل كتابه الى المعتمد(٦) بعث له بخطاب شديد اللهجة ويعلن له بأن ما حصل

---

(١) : المقري : المصدر السابق ، ص ٣٧٧ ـ ٣٧٨ .
(٢) : المرجع السابع ، ص ٢٦٧ ـ ٢٧٠ .
(٣) : مجهول : ص ٢٨ ـ ٣٠ .
(٤) : مجهول : ص ٢٤ ـ ٢٦ .
(٥) : خطاب الفونسو للمعتمد ، ورد المعتمد عليه كان مثار شك لدى بعض المؤرخين الأوربيين . ومصدر الشك نشأ من أن الخطابات المتبادلة بين الفونسو والمعتمد ـ وبين الفونسو ويوسف بن تاشفين كما سنرى بعد ـ لم ترد في المصادر العربية سوى في كتاب الحلل الموشية المذكور سابقا . ومن هنا كان مصدر الشك ، غير أن آنجوس ماكاي ومحمد بن عبود كتبا مقالا في مجلة :
BHS, LVI (1979)
حاولا فيه اثبات صحة الخطابين المتبادلين بين الفونسو السادس والمعتمد ابن عباد .
أنظر : ANGUS MACKAY and MUHAMMAD BENABOUD ; op. cit., P. 96 .
(٦) : عن نص الخطابين المتبادلين بين الفونسو والمعتمد ، انظر بعد الملاحق ،

من تخاذل عن الجهاد واستكانة الى اللهو والمجون هو ما أتاح له تحقيق أغراضه ، ويبدى فى نفس الوقت استعداده هو وزملاؤه من ملوك الطوائف للقاء والفداء والجهاد .

أما رواية عبد المنعم الحميرى (١) فهى تروى ما حدث بشكل مغاير دون أن نعرف بالضبط متى حدث الفتور بين الملكين المسلم والنصرانى . ولكن ما يلوح فى رواية الحميرى يشير الى أن الاحداث تلك وقعت بعد سقوط طليطلة . المهم أن سبب فتور العلاقة بين الرجلين عند الحميرى تعود الى أن الفونسو طلب من المعتمد أن يسمح لأمرته القمبيطية (الكونتيسة) بأن تدخل جامع قرطبة ، وتلد فى الجانب الغربى منه . وكان فيما سبق موضع الكنيسة قبل تحويله الى جامع فى عهد الامويين . كما سأله أن تنزل زوجته فى مدينة الزهراء التى بناها عبد الرحمن الناصر لطيب هوائها . فجاء الرسول الى المعتمد وأبلغه تلك الرسالة . فوضح له المعتمد استحالة ذلك ، فما كان من اليهودى أى السفير من قبل الفونسو ، الا أن شرع يتبجح فى حديثه مع المعتمد ويهدد ويتوعد ، فاستشاط المعتمد غضبا وتناول محبره كانت فى يده ، فرمى بها رأسه ، ثم أمر به فصلب .

وحاول المعتمد أن يأخذ فتوى العلماء فيما فعله ، فأجابه بعضهم بأن ما فعله لاغبار عليه ، لأن الرسول تجاوز حدود مهمته فجاز قتله .

وبلغ هذا الخبر الفونسو فأغضبه ، وأقسم أن يغزو المعتمد فى اشبيلية ويحصره فيها . وحشد على وجه السرعة جيشين سيّر أولهما الى مدينة باجة فى غربي الاندلس ، وطلب منه أن يتقابل واياه عند قرية طريانة ، وحشد جيشا آخر تولى قيادته بنفسه ، واتجه به فى مسار آخر بمحاذاة النهر الأعظم أى الوادى الكبير الذى تقع عليه اشبيلية (٢) .

أما ابن الاثير فيروى رواية أخرى عن فتور العلاقات بين المعتمد والفونسو مفادها أن الفونسو بعد أن استولى على طليطلة ، بعث اليه المعتمد الضريبة المعتادة ، فلم يقبلها منه ، وأرسل يهدده ويتوعده بالمسير الى قرطبة ليفتحها ، أو يسلم اليه جميع الحصون المنيعة ، ويبقى

---

(١) : صفة جزيرة الاندلس ، منتخبة من كتاب الروض المعطار فى خبر الاقطار ، ص٨٣ـ٨٤ .
(٢) : نفس المصدر ، ص ٨٤ ـ ٨٦ .

له وللمسلمين السهل . وكان الرسول في نحو خمسمائة فارس . كما يروى ابن الاثير أن المعتمد قد بادر الى قتل اولئك الرسل ، ولم ينج الا عددا قليلا جدا منهم . فذهبوا الى الفونسو وأخبروه ذلك ، فطار صوابه . وكان الفونسو يعتزم محاصرة قرطبة ، فعدل عنها الى طليطلة ليجمع آلات الحصار .(١)

تلك خلاصة للروايات التي تناقلتها كتب التأريخ في شرح الاسباب المباشرة لتدهور العلاقات بين المعتمد وألفونسو . ومهما يكن من أمر ، ومهما تعددت تلك الآراء التي دفعت بالعلاقات بين الحليفين السابقين نحو الطريق المسدود ، فاننا نعتبرها أسبابا هامشية ثانوية ليست هي السبب الاساسي الجوهري الذي أدى الى هذا التأزم في العلاقات. أما الشيء الواضح والأكيد الذي جعل العلاقات تسوء بين الرجلين ، فانه بلا شك الخطر الذي استشعره ملوك الطوائف بعد سقوط طليطلة، وعندما (تيقين كل من ثار ورأس ولاسيما رؤساء غرب الاندلس كابن عباد وابن الافطس مذهب الفنش فيهم ، وأنه لا يقنع منهم بجزية ولا هدية، رأوا الرجوع الى الحق أحق)(٢). وشعر المعتمد وغيره من ملوك الطوائف لأول مرة بأن الموسى التي حلقت - ان جاز هذا التعبير - لغيره ستطاله هو نفسه لامحالة ، وأحسوا جميعا بخطورة الحالة السيئة التي بلغتها الاندلس آنذاك وأحسوا أكثر بأنهم قد أسهموا بسياستهم تلك بترك الحبل على الغارب لالفونسو ليحقق ما يشاء ويريد . وباتوا ينظرون بأسى بالغ بأن ميزان القوى بدأ يميل بشكل واضح الى جانب النصارى(٣) . وربما شعروا أيضا بأن بقاء الممالك الاسلامية في الاندلس أمر مشكوك فيه لاسيما وأن الفونسو يشدد ضغطه على تلك الممالك كلها . وكانت مملكتا أرغونة ونبرة في الوقت نفسه تشددان ضغطهما أيضا على مملكة سرقسطة . وكذلك كانت تفعل امارة برشلونة(٤) . وأفاق

---

(١) : الكامل ، ج ١٠ ، ص ١٥٠ - ١٥١ .

(٢) : ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ص ٨٩ .

(٣) : انظر : -ANGUS MACKAY and MUHAMMAD BENABOUD: Op. Cit., p. 96

(٤) : انظر : -J. B. BURY: Op. Cit., p. 398

ملوك الطوائف من سباتهم ، واستشعر المعتمد الخطر باعتباره أقوى ملوك الطوائف ، وباعتبار مملكته أوسع ممالك الطوائف مساحة وثراءا • وجاءت حادثة الرسول اليهودى لتضيف الى تلك الاسباب سببا آخرا مباشرا يمسّ هذه المرة كرامته وعزّته الشخصية • وجعلت كل هذه الامور المعتمد ينسف كل خطوط التلاقى مع الفونسو ، ويصل بالعلاقات بينهما نحو الطريق المسدود كما ذكرنا • وجاءت بعد ذلك الخطابات المتبادلة بينهما لتقضى على كل بارقة أمل فى تحسن العلاقات •

ونظر المعتمد حوله ، فوجد أنه أمام خطر نصرانى ماثل وضاغط ، وبين جبهة أندلسية مفككة ، وموقف عسكرى ضعيف لا يسمح بخوض معركة مع النصارى • وباتت مجالات الاختيار أمامه ضيقة محصورة فى اختيارين أو ثلاثة أحلاهما مر • ومع هذا فقد صمم على أن يختار أهون الاختيارين وقعا رغم خطورته ، وهو الاستعانة بالمرابطين • وهو ما سنتناوله بالحديث على التوّ ان شاء الله •

الاستعانة بالمرابطين :-

لسنا معنيّون هنا مباشرة ببسط الحديث عن المرابطين ، وتفاصيل نشأتهم وحياتهم ، وركائز دعوتهم • فما يهمنا الاشارة اليه كمدخل الى معرفة الجماعة التى أخرت بقاء الوجود الاسلامى فى الاندلس الى ما يزيد عن قرنين من الزمن هو معرفة الخطوط الرئيسية لهذه الدعوة وأصحابها معا • فالمرابطون جماعات من البربر ينتمون الى عدة قبائل منها : لمتونة ، وجدالة ، ولمطة ، وغيرها • وتنتمى هذه القبائل بدورها الى قبيلة صنهاجة القبيلة الأم التى ينتسب لها البربر البرانسة فى المغرب والاندلس • وقد تبنى هولاء دعوة سلفية تهدف الى نبذ الخرافات والشعوذات التى كانت قد سادت آنذاك فى المغرب • كما تهدف الى الزهد والتقشف والعودة بالاسلام الى ما كانت عليه فى زمن الرسول عليه السلام وخلفائه الراشدين من بعده نقيا صافيا • وقاد هذه الدعوة السلفية وعمل على نشرها بين البربر الأمير يحيى ابن ابراهيم أمير قبيلة جدالة التى هى صنو لمتونة شرفا ومحتدا • وكان هذا

الأمير قد أهمه ما آل اليه أمر البربر قومه وقتها من انتشار الجهل والشعوذة والخرافات فى صفوفهم . وعندما ذهب الى المشرق ليحج التقى فى طريق عودته فى القيروان بتونس بأحد العلماء البارزين فيها ، وأوضح له حالة قومه تلك فكان أن أشار عليه بمراجعة عالم فى المغرب الاوسط ليدله على رجل صالح يذهب معه لتفقيه قومه ، ونشر الدعوة السلفية بينهم . وبالفعل فقد دلوه على رجل يدعى عبدالله بن ياسين ، أبدى استعداده للذهاب الى مضارب الجداليين واللمتونيين والتى كانت تقوم فيما يعرف اليوم باسم (موريتانيا) . ومن هناك بدأ الشيخ عبدالله بن ياسين يبث دعوته ، وقد أثرت فيهم تلك الدعوة فتبنوها . وقد كانوا يعرفون أيضا بالملثمين ، لأن رجالهم كانوا يتلثمون ، فى حين كانت النساء سافرات الوجه . وفى هذا أقوال كثيرة لا مجال لها فى بحثنا . وقد سمى عبدالله بن ياسين أتباعه بالمرابطين(١) لكونهم قد وافقوه على المرابطة معه فى الرباط الذى أقامه للتعبد وللتدرب على حياة الجهاد .

وهناك تقاطرت أعداد كبيرة من اولئك الرجال على الرباط الذى رابط فيه عبدالله بن ياسين وأتباعه ، وازداد عددهم يوما بعد يوم. ثم اذن لهم عبدالله بن ياسين بنشر الدعوة والجهاد فى سبيل الله بين قبائل البربر الملثمين الاخرين الذين كانت قد تفشت فيهم الوثنية . وخاض ابن ياسين هو والامير يحيى بن ابراهيم الجدالى حروب الدعوة . وشغلت هذه الاحداث الفترة من بداية القرن الخامس الهجرى حتى الثلث الأخير منه . وبعد يحيى بن ابراهيم تعاقب على امارة المرابطين أبو بكر ابن ابراهيم أمير قبيلة لمتونة ، وخلفه بعد ذلك عدد آخر من أمراء المرابطين . وكان آخرهم الامير يوسف بن تاشفين اللمتونى الذى تنازل له ابن عمه الامير ابو بكر بن يحيى اللمتونى عن امارة المرابطين وملك المغرب ،

---

(١) : احمد مختار العبادى : دراسة حول كتاب الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية ، مجلة تطوان ، منشورات وزارة التربية الوطنية والشبيبة والرياضة ، مجلة للابحاث المغربية والاندلسية ، العدد الخامس ، سنة ١٩٥٦م ، ص ١٤٦ ـ ١٥١ .

وتوجه للصحراء بحيث تفرغ للعبادة ، ولم يكد يطل العقد السابع من القرن الخامس الهجرى / العقد الثامن من القرن الحادى عشر الميلادى حتى كان يوسف بن تاشفين قد بسط نفوذه على معظم أجزاء المغربين الأوسط والاقصى ، وأصبح سيد بلاد المغرب الفعلى (١) .

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

من الثابت والأكيد أن التفكير بالاستعانة بالمرابطين والاستصراخ بهم تم على مستويين اثنين : مستوى شعبي ، ومستوى رسمي . ومن الثابت أيضا أن المبادرة الشعبية قد سبقت المبادرة الرسمية ، كما أن بعض هذه المبادرات الشعبية قد سبقت سقوط طليطلة . فصاحب الحلل الموشية يذكر أنه فى عام ٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م وفدت على يوسف بن تاشفين وفود أندلسية فشكوا اليه ما حل ببلادهم من ضرر النصارى ، فوعدهم خيرا ، وصرفهم الى أوطانهم ، ثم بعث الى الاندلس رسلا لشراء آلات

---

(١) : عن دعوة المرابطين وقيام دولتهم أنظر المصادر والمراجع التالية :
- صالح ابن عبد الحليم : الانيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس . - ابو عبيد البكرى : المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، المستخرج من كتابه المسالك والممالك نشر البارون (دى سلان) . - ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، نشر ليفي بروفنسال ، تحقيق ومراجعة احسان عباس . - مجهول : الحلل الموشية . - ابن خلدون : العبر . - المقرى : المصدر السابق . - السلاوى الناصرى : الاستقصا فى اخبار دول المغرب الاقصى . وهناك بعض المصادر الاخرى وعلى رأسها مصدر مهم للغاية فى التأريخ لعصر المرابطين ودولتهم وعنوانه : الانوار الجليلة (الجلية) فى محاسن الدولة المرابطية لابى بكر بن الصيرفى ، وقد عثر عليه ليفي بروفنسال أخيرا الا أنه من حسن الحظ أن نقل ابن عذارى فى كتابه المذكور سابقا مادة مهمة من هذا الكتاب . وهناك المصادر المشرقية كالكامل لابن الاثير ، ووفيات الأعيان لابن خلكان وغيرها .

أما المراجع العربية والغربية فأهمها :
- حسن محمود : قيام دولة المرابطين . - محمد عبدالله عنان : دولة الاسلام فى الاندلس المرابطين والموحدين . - عبدالحق حموش : ابن تاشفين . - يوسف أشباخ : تاريخ المرابطين والموحدين . - وقد نشر حسين مؤنس ومحمود مكى فى مجلة معهد الدراسات المصرية بمدريد وثائق تلقى الضوء على فترة مهمة من تاريخ المرابطين . فنشر حسين مؤنس

الحرب والعدد والسلاح . وحتى بعد سقوط طليطلة توافدت على يوسف اعداد كبيرة من أهل الاندلس لما بلغهم عنه ما كان عليه من القوة والنفوذ ومن حب للجهاد ، فأخبروه بما حدث من تكالب العدو ، كما أخبروه عن الاحداث الجسيمة المتمثلة بسقوط طليطلة (١).

ويروى لنا الحميري (٢) أن فقهاء الاندلس كانوا يذهبون الى بلاط يوسف بن تاشفين ويروون أمامه وأمام رفاقه المرابطين ما يدور من فواجع وأحداث دامية تجرى فى بلادهم . ويوسف بن تاشفين نفسه يشير الى أنه قد جاز الى الاندلس بناءا على الحاح الاهالى الذين بعثوا اليه مستصرخين الكرة بعد الكرة ، بل انه لم يشر صراحة الى مراسلة ملوك الطوائف له مع ما يفهم من هذا ضمنا (٣) . وهكذا فان مسألة التفكير فى الاستعانة بالمرابطين كانت أملا وحلما راود الكثير من أهل الاندلس فقهاء وشعراء ومفكرين سعوا عند يوسف بن تاشفين الى تحقيقه ، وتحملوا من أجل ذلك مشاق الجواز ، وهم يعلمون أن المرابطين هم القوة الوحيدة القادرة على ردّ هجمات النصارى ، بل وعلى الأهم من هذا هو عرقلة السقوط الاسلامى الوشيك فى الاندلس ، بل وايقافه . كما لمس اولئك المفكرون أن ملوك الطوائف أبعد وأضعف من أن يتداركوا ذلك الخطر الماحق لما كانوا عليه من الاختلاف والفرقة والتناحر والتباغض .

أما مسألة الاستصراخ الرسمى فلا شك أن الفضل يعود فيه الى المعتمد ابن عباد . وفى الواقع ان قضية استدعاء المرابطين

= فى العدد ١ ـ ٢ ، المجلد الثانى ، سنة ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م بحثا بعنوان : سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأيامهم فى الاندلس . وكان قد نشر فى مجلة كلية الاداب بجامعة القاهرة ، مجلد ١١ ، جزء ٢ ، ١٩٤٩م أربع قطع تتعلق بتاريخ الثغر الاعلى الاندلسى فى عصر المرابطين . أما محمود مكى فنشر فى مجلة معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد ، المجلدان السابع والثامن ، ١٩٥٩م ـ ١٩٦٠م بحثا بعنوان : وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين . وغير ذلك من المراجع الاخرى .

(١) : مجهول : ص٢٢ ـ ٢٥ .

(٢) : المصدر السابق ، ص ٨٦ .

(٣) : محمد عبدالله عنان : دول الطوائف "نص رسالة يوسف بن تاشفين الى المعز ابن باديس صاحب افريقية" ، ص ٤٤٦ ـ ٤٤٨ .

احتلت مساحات واسعة من كتب المؤرخين القدامى ومع ذلك لم تستطع أن تشفى غلة ، كما لم تستطع تلك الروايات الكثر أن تقرر حقيقة تاريخية متفق عليها لا لبس فيها ولا غموض . ذلك لأننا لم نجد فى تلك الروايات رغم الحشد الهائل من التفاصيل ما يزيل الغموض عن طريق الباحث الثبت . على أننا نستطيع أن نقرر ونؤكد شيئ واحد هو : أن المعتمد ابن عباد هو الوحيد من ملوك الطوائف الذى أتاح بدعوته الرسمية للمرابطين أن ينقذوا الاندلس من خطر سقوط محقق .

وقبل أن نورد تلك الاقوال التى أشارت الى دعوة المعتمد للمرابطين وجهوده فيها ، يحسن بنا أن نلقى الضوء على موضوع هو من الاهمية بمكان . وهو هل كان المرابطون يهدفون الى مواصلة جهادهم فى الاندلس بعد أن استتبت لهم الامور فى المغرب ؟؟ . وهل لو لم يدعهم أهل الاندلس الى انقاذهم من الخطر النصرانى لكانوا أقدموا هم أنفسهم على ذلك ؟ ؟ .

بادئ ذى بدء نجد رواية لابن خلكان(١) - ان صحت - تؤيد ذلك الرأى الذى يقول بأن المرابطين كانوا يتمنون العبور الى الاندلس ومواصلة الجهاد هناك ، بل انهم عقدوا العزم على ذلك . وابن الابار(٢) يشير بما يفهم منه أن يوسف بن تاشفين صمم على الجواز الى الاندلس ، والجهاد فى سبيل الله رغبة واحتسابا ، بل وافتتح مدينة سبتة عنوة وقتل أميرها فى سبيل ذلك . وعندما علم ملوك الاندلس بذلك رأوا أن يتخذوا بادرة سريعة لتدارك ذلك . ونحن فى الحقيقة لانستبعد أن المرابطين كانت تحدوهم رغبة عارمة فى مواصلة الجهاد . ونتفق فى هذا مع القائلين(٣) بهذا الرأى ، فالواقع أنه ما كاد العقد السابع من القرن الخامس الهجرى يطل حتى كان يوسف بن تاشفين قد استطاع أن

---

(١) : وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان ، ٨ مجلدات ، المجلد ٧ ، ص١١٢-١١٤ .
(٢) : الحلة السيراء ، ج ٢ ، ص ٩٨ - ١٠٠ .
(٣) : انظر : حسن محمود : قيام دولة المرابطين ، ص٢٦٣-٢٦٥ ، وص ٢٦٧ - ٢٦٨ . - أحمد مختار العبادى : فى تاريخ المغرب والاندلس ، ص ٣٢٩ - ٣٣٠ . - عبد الحق حموش : ابن تاشفين ، ص٦٢ - ٦٣ .

يبسط دعوة المرابطين على معظم ارجاء المغربين الاوسط والاقصى • فمن الطبيعى ان يفكر المرابطون بمواصلة جهودهم نحو الاندلس التى تعانى فى ذلك الوقت بالذات من الانقسامات وهجمات النصارى الكثير • هذا من جهة ومن جهة أخرى فان التماثل التاريخى والجغرافى بين العدوتين الاندلسية والمغربية يفرض على المغرب وبمنطق الاحداث التاريخية والجغرافية ذاته أن يمارس دوره فى انقاذ الاندلس وانتشالها من هوة السقوط فى براثن النصارى • ومن المؤسف ان نرى هذا الامر مثار شك وسوء ظن من قبل بعض المؤرخين الاوربيين مثل : (١) الذى يفسر مجيء يوسف بن تاشفين الى المغرب على انه غزو سعى الى تحقيقه على وجه السرعة دونما انتظار الاذن من ملوك الطوائف ، وباكراه منه • وهو قول مغرض فسر به المؤلف مبدأ النجدة الاخوية الاسلامية بتفسير مادى دنيوى • ومهما يكن فاننا نتفق مع القائلين بانه لو لم يبادر الاندلسيين خاصة على المستوى الرسمى الذى ذكرناه الى طلب الاستنجاد بيوسف بن تاشفين ، لكان المرابطون هم السباقون الى التدخل الاسلامى المشروع لتدارك البلاد الاندلسية من الخطر النصرانى المذكور (٢) ، سيما وأن صرخات الفقهاء والمفكرين كانت قد توالت على يوسف بن تاشفين تستحثه على عون الاندلس ونصرتها •

أشرنا الى أن الفضل فى مسألة الطلب الرسمى للمرابطين بانقاذ اخوتهم المسلمين يعود للمعتمد ولا شك ، وحتى هذا الطلب الرسمى من المعتمد لاقى من التناقض فى الروايات حدا بعيدا • فصاحب كتاب الانيس المطرب بروض القرطاس فى اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس (٣) ، وتابعه فى ذلك صاحب كتاب

---

(١) : انظر :

(٢) : عبد الحق حموش : المرجع السابق ، ص ٦٢ ـ ٦٣ •

(٣) : صالح بن عبد الحليم : ص ٩٩ ـ ١٠٠ •

وصالح بن عبد الحليم : هو مؤلف كتاب : الانيس المطرب بروض القرطاس فى اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، المعروف اختصارا بكتاب روض القرطاس او القرطاس فقط بعد أن ظهر مؤلفا لمؤلف يدعى العلمى اسمه الانيس المطرب • فاسقط هذا الجزء من كتاب ابن عبد الحليم ، واصبح يطلق عليه القرطاس فقط • واشارتنا الى أن صالح بن عبد الحليم هو مؤلف كتاب القرطاس ، تضع حدا للملابسات التى وقع فيها كثير من المؤرخين القدامى ، وكذلك كثير من المستشرقين والمؤرخين المحدثين فى تحديد مؤلف هذا الكتاب • ومن الشائع أن الكثيرين ينسبون هذا الكتاب لابن ابى زرع ، وهو ابو العباس احمد ابن ابى زرع أحد علماء وفقهاء فاس فى القرن الثامن الهجرى ، ومصدر الخلط هذا الذى وقع هنا بسبب

الاستقصا للسلاوى الناصرى(١) يرويان انه فى عام ٤٧٥هـ/١٠٨٢م ورد كتاب من المعتمد الى يوسف يخبره بحال المسلمين وما آل اليه أمرهم ، فرد عليه يوسف بأنه سيعمد الى مساعدة الاندلسيين اذا استطاع أن يفتتح مدينة سبتة ، ولكن يبدو أن هناك خلطا عند هذين المؤرخين السابقين(٢) فى تاريخ هذه المراسلة بين المعتمد ويوسف ، فهما قد انفردا أولا بهذه الرواية دون غيرهما من المؤرخين ، وثانيا كان المعتمد فى تلك الفترة مشغولا بقضية تمرد ابن عمار وخروجه عليه كما ذكرنا سابقا . اضف الى ذلك ان الحس القومى والاحساس بالمسؤولية لم يتيقظا فى نفس المعتمد بعد . ومن جهة ثالثة فاننا نعرف بأن تحرك ملوك الطوائف لم يحدث الا بعد سقوط طليطلة .

وسبق أن ذكرنا أن العلاقة قد ساءت بين المعتمد والفونسو بعد سقوط طليطلة ، وبعد حادثة السفير اليهودى ، وان الفونسو حشد جيشين وجه احدهما نحو مدينة باجة ، ووجه الآخر نحو مدينة اشبيلية ، فضرب عليهما الحصار وهناك عنّ للمعتمد أن يلجأ الى وسيلة يوقع بها الخطر النصرانى الماحق .

لا يمكن أن نصدق بأن فكرة الاستعانة بالمرابطين هى فكرة طارئة لمعت فجأة فى خيال المعتمد وسرعان ما حققها ؟ فبنو عباد أنفسهم كانوا يشعرون بقوة المرابطين وأهميتها ، حتى ان المعتضد بالله والد المعتمد ، كان يرصد عيونه فى المغرب ليعرف المدى الذى بلغوه فى توسيع رقعة دولتهم فى المغرب ، وعندما علم

وجود شخصيتين ألفا كتابا فى تاريخ المغرب أطلقا عليه اسما واحدا هو الانيس المطرب بروض القرطاس فى اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس . كما أن منشأ الخلط وقع بحكم كون هذين المؤلفين عاشا فى عصر واحد . غير أن محمد الفاسى الاديب والمؤرخ المغربى المعروف اثبت بما لا يدع مجالا الى الشك أن كتاب الانيس المطرب ، أو القرطاس المطبوع والمنشور هو من تأليف ابى على صالح ابن ابى صالح عبد الحليم الذى توفى سنة ٧٢٦هـ . أما كتاب ابن ابى زرع فهو فى حكم الضائع .

أنظر : مقال بعنوان : المؤرخان ابن ابى زرع وابن عبد الحليم ، مجلة تطوان ، معهد مولاى الحسن للأبحاث المغربية الاندلسية ، العدد الخامس ، السنة ١٩٦٥ م ، ص ١٥٩ - ١٦٤ .

(١) : ص ٣١ - ٣٢ .

(٢) : من الواضح ان السلاوى ينقل فى كتابه الاستقصا كثيرا عن صاحب الانيس المطرب . وقد لقى مؤلف القرطاس انتقادا كثيرا من المؤرخين والمستشرقين حديثا للخلط الذى يقع فيه دائما .

أنظر : مقال بعنوان : دراسة حول كتاب الحلل الموشية ، مجلة تطوان ، نشر معهد مولاى الحسن ، العدد ٥ ، سنة ١٩٦٥م ، ص ١٣٩ - ١٥٨ مع الحواشى .

بسيطرتهم على معظم المغرب (١) ، أمر عماله ان يحصنوا مدينتى جبل طارق والجزيرة الخضراء اللتين كانتا تابعتين له ، كما ان المعتمد شعر بان المرابطين هم القوة الوحيدة القادرة والمهيئة للوقوف امام خطر النصارى وتدارك الاندلس قبل فوات الاوان ، كما أنه لابد ان يكون على اطلاع بالسفارات الشعبية التى كان بعض أهل الاندلس يقومون بها عند يوسف بن تاشفين لاقناعه بالتدخل فى الاندلس . ولهذا فان المعتمد عندما بعث له الفونسو وهو يحاصره فى أراضى اشبيلية خطابا يتهكم فيه ويزرى بموقفه ويقول له (كثر بطول مقامى فى مجلس الذبان ، واشتد على الحر ، فالقنى من قصرك بمروحة اروح بها عن نفسى واطرد بها الذباب عنى (٢) .) نقول ان المعتمد عندما ورد له هذا الخطاب فكر ان يطبق فكرته الجريئة وهى الاستعانة بالمرابطين ، فرد على الفونسو بخطاب قوى حازم يقول فيه (قرأت كتابك وفهمت خيلاءك واعجابك ، وسأنظر لك فى مراوح من الجلود اللمطية فى ايدى الجيوش المرابطية ، تروح منك لا تروح عليك ان شاء الله (٣)) وقد ذاع عزم المعتمد هذا فى ارجاء الاندلس لما له من الاهمية والخطورة ، ولقى بطبيعة الحال الكثير من التأييد والمعارضة .

ولعل أول المؤيدين هم العامة فى الاندلس بطبيعة الحال ، اذ ان هذا العمل - ان كتب له ان يحدث - فسيخفف حتما عن كاهلهم ثقل الحصار والخراب والفساد الذى يحل باراضيهم . وفى نفس الوقت سيريحهم من الضرائب الباهظة التى يدفعونها لملوك الطوائف ليدفعوها بدورهم الى الفونسو . ونستطيع أن نتفهم هذا الشعور عندما نطلع على المحاورة التى دارت بين المعتمد وابنه وولى عهده الرشيد الذى اعترض على مسألة الاستعانة بالمرابطين كما سنرى بعد قليل (٤) .

وأما الجانب الآخر من المؤيدين لهذا العزم فهم القضاة والمفكرون الذين كانو يتحرقون شوقا الى عمل اى شىء فى سبيل تجميع القوى الاسلامية ضد النصارى بعد ان استشرى خطرهم . ولذلك فما ان ذاع خبر تلك المراسلات بين المعتمد والفونسو وعلم الناس بان المعتمد سيطلب نجدة المرابطين ، حتى عقد الفقهاء فى مدينة قرطبة مؤتمرا عرضت فيه الحالة السيئة التى كانت عليها الاندلس آنذاك حتى لقد خشى أن تعود البلاد نصرانية كما كانت . ولقد اشار بعض الحاضرين من الفقهاء بالاستعانة

---

(١) : انظر قبل ، الباب الثانى ، ص ١٧٥ - ١٧٦ .
(٢) : الحميرى : المصدر السابق ، ص ٨٥ - ٨٦ .
(٣) : الحميرى نفس المصدر السابق والصفحات
(٤) : مجهول : الحلل الموشية ، ص ٣٠ - ٣١

بعـــرب افريقية وهم مجموعة من القبائل العربية التي رحلت الى افريقية وعاثت فيها (١) .

للاستعانة بهم ضد النصارى ، غير ان قاضي قرطبة عبد الله بن محمد بن أدهـــــم ، أبدى تخوفه من قدوم هـؤلاء ،وخشى ان يفعلوا بالاندلس مثلما فعلوا بافريقية ، ولكنه اقترح الاستعانة بالمرابطين . وقد اطلع المعتمد على ما دار فـــى هذا المؤتمر ،وأقــرّ مـا توصلوا له من نتائـــج ،بل وطلب من ابن أدهم ان يكون سفيره الى يوسف بن تاشفين وبالفعل ذهب الى المغرب وأخبره بذلك (٢) .

على اننا لا نعتقد بأن المعتمد اتخذ قراره هذا بسهولة ،فقد كان يقيس حساباته بدقة بالغة وكان يرى ان مجال الاختيارات امامه ضيقة . فمــا من سبيل امامه الا خيار واحد او خيارين . ولذا فقد اختار اهون الاختيارين وقعا كما ذكرنا . ولقد لقى تفكيره هذا من يؤيده ،كما لقى من يعارضه . واذا كـنا قـد عرفنا ردود الفعـل المؤيدة ، فان ردود الفعـل المعارضة تحتاج منا الى وقفة مهمـة .

فالمعتمد لقى معارضة قوية من ملوك الطوائف ومن مستشاريه ورجال دولته ايضا ، اذ جاءته كـتب ملوك الطوائف تحذر من خطوته تلك ،وتلفت نظره الى عاقبة ذلك (٣) . غير ان المعتمد رأى ان خطر المرابطين ــ ان وجد ــ سيكون ولا شك اقل ضررا من خطر

---

(١) : كتب حسين مؤنس فى تحقيقه لكتاب ابن الابار : الحلة السيراء حاشيـة مهمة بخصوص عرب افريقية هؤلاء رأينا من الفائدة ان نعتمد عليها هنـا . فالمقصود بعرب افريقية: العرب الهلالية وهم قبائل (الاثبج ،ورياح ، وزغبة ،وعدى .) . وكانت هذه القبائل تقطن فى صعيد مصر على الضفة الشرقية من نهر النيل،وكان يلى افريقية (تونس الحالية) من قبـل الدولة الفاطمية فى مصر وقتذاك البربر الصنهاجيين المعروفين ببنى زيـرى .

وعندما انقلب هؤلاء على الفاطميين وعادوا للمذهب السني وتركوا المذهب الشيعى ،ودعوا لبنى العباس فى بغداد . رأى الوزير الفاطمي الجرجرائي او البطائحى على الارجح ان يبعث بهذه القبائل العربية الى افريقية ، فوصلوا الى برقة وخربوها ثم خربوا بعد ذلك معظم ما صادفوه فى طريقهم . ثم اتصلوا بالامير المعز بن باديس الصنهاجي صاحب افريقية الذى صانعهم واستعان بهم على ابناء عمه بنى حماد اصحاب قلعة بنى حماد فى الجزائر الآن . كما استعان بهم على اعدائه من قبيلة زناتة المؤيدة للامويـين . فطلب المعز بن باديس من زعيم الهلاليين قدوم تلك القبائل من برقة ،وعندما جاء أولئك الى افريقية خربوا مدينة القيروان ،وانقلبوا عليه ،فاضطر الى اللجوء الى مدينة المهدية والاعتصام بها . وقد وقعت هذه الاحداث فى النصف الاول من القرن الخامس الهجرى .

انظر : ابن الابار ،المصدر السابق ،ج ٢ ،ح ١ ،ص ٢١

(٢) : ابن الاثير : المصدر السابق ،مجلد ١٠ ،ص ١٥١ ــ ١٥٢ .

(٣) : الحميرى : المصدر السابق ،ص ٦٥ ــ ٨٦ .

النصارى • وكان يدرك بان ملكه وملك ملوك الطوائف معه سيضيع سواء أكان ذلك على يد المرابطين أم على يد النصارى • ولذا فقد جاء جوابه لملوك الطوائف وغيرهم من المعارضين على مايدل على شعوره ذلك • وفي نفس الوقت يدل جوابه هذا على نظرة موضوعية واقعية للأمور • ويوضح هذا الجواب بما لا يدع مجالا الى الشك على الضرورة الحتمية للاستعانة بالمرابطين في ذلك الوقت بالذات• مهما تكن نتائج ذلك العمل (١) • ولم يصغ الى نصائح بعض المستشارين الذين أشاروا عليه بمداراة الفونسو ، وعقد السلم معه ، واعطائه مايريد ، بدلا من الاستعانة بالمرابطين (٢) • وعندما عارضه ابنه وولي عهده الرشيد أجابه بانه يدرك تماما مخاطر الاستعانة بالمرابطين • ولكنه تجاه تلك الاوضاع الخارجية السيئة ، وتجاه النقمة الشعبية العارمة على سياسة ملوك الطوائف عامة ، رأى ان لا مناص من طلب معونة المرابطين •

ولسنا في حاجة الى التذكير بان الدافع الاساسي لهذا الاستصراخ هو الخوف من درس سقوط مدينة طليطلة ، ولا نستبعد ايضا ان وخزات الضمير ، وتحرك الاحساس بالندم لديه عندما افسح المجال لالفونسو ليصل الى ماوصل اليه قد اذكى في نفسه ذلك الشعور القومي ، وسما به وقتها - على الاقل - الى ان يضحي اذا كان لا مناص من ذلك بملكه وامجاده مقابل ان يسعى لبقاء الاسلام والوجود الاسلامي في الاندلس • ولقد اجاب ابنه الرشيد بتلك الاقوال الخالدة :والله لا يسمع عني اني قد اعدت الاندلس دار كفر ، ولا يمكن لي ان اتركها للنصارى فتقوم عليّ اللعنة في المنابر الاسلامية : حرز الجمال والله عندي خير من حرز الخنازير (٣) أو رعي الجمال خير من رعي الخنازير •

(١) : اجاب المعتمد كل معارضيه بقوله : (ياقوم أنا من أمري على حالتين ، حالة يقين وحالة شك ، ولا بد لي من احداهما ، أما حالة الشك فاني ان استندت الى ابن تاشفين او الى ابن فرذلند ففي الممكن أن يفيا لي ويبقيا علي • ويمكن الا يفعلا ، فهذه حالة الشك • وأما حالة اليقين • فهي اني ان استندت الى ابن تاشفين فأنا ارضي الله ، وان استندت الى ابن فرذلند أسخطت الله ، فاذا كانت حالة الشك فيها عارضة فلأي شيء أدع مايرضي الله وآتي مايسخطه ، وحينئذ اقصر اصحابه عن لومه •)

(٢) : مجهول : الحلل الموشية ، ص ٣١ •

(٣) : مجهول : نفس المصدر ، ص ٣١ - ٣٢ •

(أى ان كونه مأكولا لابن تاشفين أسيرا . يرعى جماله فى الصحراء خيرا من كونه ممزقا لابن فرذلند أسيرا يرعى خنازيره فى قشتالة) (١) .

وهكذا وبعيدا عن التفاصيل الواسعة والجزئيات الدقيقة ، نستطيع أن نقول ان مسألة استدعاء المرابطين أصبحت محورا اساسيا لسياسة المعتمد الخارجية وقتذاك . فقد بعث من فوره بخطابات من انشائه هو نفسه ، ومن انشاء بعض كتابه ايضا الى يوسف يستحثه ويستصرخه (٢) .

ورغم اننا قد أفدنا حقا من رواية صاحب الحلل الموشية فى شرح أحداث تلك الفترة ، والخطابات المتداولة بين الفونسو والمعتمد ، وبين الفونسو ويوسف بن تاشفين . الا انه لم يتطرق الى كثير من الاحداث الاخرى المهمة . وكان لابن عبد المنعم الحميرى (٣) فضل كبير فيها ، فقد أشار الى ان المعتمد عندما عزم على رأيه وصمم على تنفيذه خاطب كلا من عمر المتوكل ملك بطليوس ، وعبد الله بن بلقين بن زيرى ملك غرناطة ، فأتفق رأيهم جميعا على ان يبعثوا قضاة مدنهم اليه . وقد ضم اليهم القاضى ابن أدهم قاضى قرطبة ، والوزير أبو بكر بن زيدون وزير المعتمد . وتوجهت هذه الهيئة مفوضة من ملوكها لمقابلة يوسف بن تاشفين ومواجهته على شروط لا يتعدونها كما يقول ابن زيرى نفسه (٤) ، وكذلك ابن الابار . وقد حدد ابن زيرى تلك الشروط بقوله (٥) (وقد كان رسلنا مضوا مع رسل المعتمد الى أمير المسلمين ، على اتفاق ضم بعضنا فيه بعضا الى حقيقة وعاقدنا امير المسلمين على ان تتصل الايدى على غزو الروم بمعونته ، والا يعرض لاحدنا فى بلده ولا يقبل عليه رعيته بمن يروم الفساد عليه .) .

قضية الاستيلاء على الجزيرة الخضراء :-

كثر خوض المؤرخين القدامى فى هذا الموضوع ، ولم نجد للاسف فيما اوردوه فى هذا الصدد اراء مقنعة موضوعية ، اذ تركو للخيال والتشكيك مكانا كبيرا ، مع انها قضية ليست بذى بال وهى قضية منتهية مبتوتة ، قوامها ان يوسف ابن تاشفين رأى هو ومستشاروه عندما جاءتهم دعوة الاندلسيين للانقاذ والنجدة ، رأوا وهم البعيدون

(١) : الحميرى : المصدر السابق ، ص ٨٥ - ٨٦ .
(٢) : مجهول : الحلل الموشية ، ص ٣٠ - ٣٦ .
(٣) : المصدر السابق ، ص ٨٦ - ٨٧ .
(٤) : التبيان : ، ص ١٠٣ . - الحلة السيراء ، ج ٢ ، ص ٩٨ - ٩٩ .
(٥) : نفس المصدر السابق ، ص ١٠٣ .

عن تلك البلاد وطبيعتها الحربية والجغرافية ان يتبصروا أمرهم قبل ان يجتازا الى بلاد لا يعرفونها ، فكان ان أشار عليه أحد كتابه ومستشاريه الاندلسيين بطلب مدينة الجزيرة الخضراء من المعتمد بن عباد وهى الثغر البحرى المطل على الضفة الاندلسية من بحر الزقاق أو المجاز ، والتابعة لابن عباد (١) ، كما رغب يوسف بن تاشفين أيضا ان يضع يده على ثغر سبتة المطل على الضفة المغربية الاخرى من بحر الزقاق ، ليسهل عليه الجواز الى الاندلس .

أما مدينة سبتة فقد انعقدت حولها الآراء ، وندر وجود تناقض فى الاقوال بشأنها (٢) ، فقد طلب يوسف بن تاشفين من صاحبها سقوت البرغواطى (٣) ان يسمح بالنزول فيها لأهميتها فى مواصلة الفتح والجهاد . فأبى صاحبها ذلك ، فأخبر يوسف بن تاشفين ابن عباد بذلك فسير اليه أسطولا بحريا ضرب عليها الحصار ، وسيّر يوسف بن تاشفين فى نفس الوقت جيشا بريّا حاصرها وعلى هذا فلم ينثن صاحبها عن رأيه ، فأفتى الفقهاء بقتاله ، فقوتل ودخل المرابطون البلد عنوة وقتلوا صاحبها (٤) . هذه الروايات لا خلاف فيها بين المؤرخين كثيرا كما قلنا .

أما مسألة الجزيرة الخضراء ، فيقال ان الوفد الذى ذهب برئاسة أبى بكر ابن زيدون وزير المعتمد اقترح على يوسف بن تاشفين أخذ مدينة جبل طارق بدلا من الجزيرة الخضراء ، غير ان يوسف بن تاشفين أصرّ على أخذ الجزيرة . ولما لم يكن مع الوفد صلاحية للتفاوض ، فقد طالت المدة التى تستلزم المراسلة بين الوفد ، وبين المعتمد حول هذا الموضوع مما أعطى الفرصة للشائعات المغرضة ان تظهر وتكبر . فتظهر المعتمد بمظهر المتقاعس عن التنازل عن الجزيرة الخضراء (٥) ، أو تظهره بمظهر المراوغ الذى يبيّت أمرا يعود فيه النفع له وحده . ومن هذه الروايات رواية عبد الله بن زيرى ملك غرناطة الذى اشار صراحة الى ان المعتمد راوغ فى اعطاء رأيه بسرعة حتى يتدبر أمره

---

(١) : مجهول : الحلل الموشية ، ص ٣٦ ـ ٣٨ .

(٢) : من الاقوال المتناقضة بشأن افتتاح سبتة ما ورد فى كتاب روض القرطاس لصالح ابن عبد الحليم ، وكتاب الاستقصا للسلاوى الناصرى الذين يجعلان المقتول فى سبتة ابن سقوت البرغواطى يحى الملقب بضياء الدولة وذلك فى سنة ٤٧٧هـ . أما أبوه سقوت فقد قتل فى حصار طنجة الذى ضربه المرابطون حولها قبل ذلك .
انظر : الروض القرطاس ، ص ٩٩ ـ ١٠٠ . ـ الاستقصا ، ص ٣١ ـ ٣٤ .

(٣) : سقوت البرغواطى اصله من قبيلة برغواطة الزناتية ومنازلها على ساحل المغرب الاقصى جنوبى طنجة الى أصيلا . وقد تولى سقوت حكم طنجة وسبتة من قبل الحموديين . وقد قتل فى سنة ٤٧٦هـ على يد المرابطين عندما عارض دعوة المرابطين
انظر : ابن الابار : المصدر السابق والجزء ، ج ١ ، ص ٥١ .

(٤) : ابن خلدون : المصدر السابق ، مجلد ٦ ، ص ٣٨١ ـ ٣٨٢ .

(٥) : ابن الابار : المصدر السابق والجزء ، ص ٩٨ ـ ١٠٠ .

مع الفونسو السادس ، مما يعني ان ابن زيرى كان يقصد بأن المعتمد كان يلعب بورقة الجزيرة الخضراء لثنى الفونسو عن رأيه في مهاجمة مملكته ، فاذا رأى ان الفونسو ماض في عزمه عاد الى يوسف ابن تاشفين واعطاه الجزيرة الخضراء (١) .

ومن الاقوال الاخرى ان الراضي بن المعتمد حاكم الجزيرة الخضراء كان مترددا في النزول عنها للمرابطين الذين عبروا البحر نحوها ، رغم انه قد امدهم بالمؤونة والميرة . فما كان من المرابطين الا ان احدقوا بالجزيرة وبعثوا له من يفهمه بأنه سيجد نفسه امام الامر الواقع ، ولذا فلا مناص امامه من التسليم . فبعث الى ابيه على وجه السرعة بذلك ، فأمره باخلاء الجزيرة والتوجه نحو مدينة رندة (٢) .

والواقع انه يخيل الينا ان المعتمد لم يكن مترددا في اخلاء الجزيرة الخضراء . واما تلك الاقوال التي تشير الى غير ذلك ، فاننا نعتقد انه لا يمكن أن يعتد بها كثيرا ، فعبد الله ابن زيرى خصم المعتمد وغريمه له الحق في ان يروى ما يروق له . والروايات الاخرى لم تعمل على ان تظهر للمسألة وجهتها الموضوعية .

صحيح ان طلب الجزيرة الخضراء قد فاجأ العباديين بدليل ما أورده صاحب الحلل الموشية من استنكار ابن المعتمد وولي عهده الرشيد الذي قال لابيه معترضا : الا تنظر الى ما يطلبه هذا الرجل ؟؟ . ولكن المعتمد الذي بات يشعر ان نهاية ملكه محققة سواء اكانت على يد الفونسو او على يد المرابطين اجاب ابنه بقوله : ان طلب الجزيرة قليل في حق النصرة والعون (٣) . هذا هو المعقول ، فالمعتمد الذي سلم للمرابطين ان يتحكموا في شؤون البلاد — على الاقل في فترة الاستنجاد — لا يضيره ان يتخلى عن الجزيرة لهم ليجتازوا منها الى الاندلس . كما انه اعقل من ان يخلق لنفسه ازمة مع هؤلاء الذين جاءوا لمساعدته وهو المحاصر بأكثر من جيش نصراني ، كما انه المعني اكثر من غيره من ملوك الطوائف بعداوة الفونسو .

ومهما يكن فقد اجتازت الجيوش المرابطية بقيادة يوسف بحر الزقاق من ثغر سبتة ، واتجهت نحو الجزيرة فدخلتها واستقرت فيها ، وجاء المعتمد بنفسه وتبعته وفود ملوك الطوائف ترحب بيوسف بن تاشفين ، وتقدم له واجبات الضيافة ومراسم التكريم .

---

(١) : انظر : المصدر السابق ، ص ١٠٢ — ١٠٣ .

(٢) : انظر : علي ادهم : المرجع السابق ، ص ٢١٨ .

(٣) : مجهول : الحلل الموشية ، ص ٣٨ .

ولم يتخلف عن المسير الى الترحيب به الا من أقعدته ظروف مرضية أو كبر سن كحاكم المرية (١)، أو ظروف أمنية كالمستعين ابن هود الذى كان محاصرا وقتها من قبل الفونسو (٢).

وأخيرا فهناك عدة نقاط بقيت جديرة بلفت الاهتمام اليها

وهى أولا : أن ما سقناه من احداث لجواز يوسف بن تاشفين الاول للاندلس هو خلاصة يتراءى لنا أنها موضوعية واقعية لكل ذلك الكم من الروايات الكثيرة المتناقضة (٣).

والأمر الثانى ان الفونسو كان على علم بتلك الاتصالات التى كانت تدور بين العدوتين ، بدليل أنه بعث الى يوسف بن تاشفين بخطاب مليئ بالتهديد والوعيد ، يدل على أن الفونسو السادس كان منزعجا جدا لتلك الاتصالات لخطورتها

---

(١) : عبدالله ابن زيرى : المصدر السابق ، ص ١٠٤ .

(٢) : ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ص ٩٢ .

(٣) : للاطلاع على ذلك الحشد الكثير من التفاصيل التى يظهر فيها التناقض بوضوح نحيل القراء الى الكتب التالية :
ــ عبدالله ابن زيرى : المصدر السابق ، ص ١٠١ وما بعدها . ــ ابن الابار : المصدر السابق والجزء ، ص ٩٨ ــ ١٠٠ . ــ عبدالواحد المراكشى : المصدر السابق ، ١٩٠ ــ ١٩٢ . ــ ابن الأثير : المصدر السابق ، مجلد ١٠ ، ص ١٥١ ــ ١٥٣ . ــ ابن خلكان : المصدر السابق ، مجلد ٧ ، ص ١١٤ ــ ١١٦ . ــ صالح بن عبدالحليم : روض القرطاس ، ص ٩٧ ومابعدها . ــ الحميرى : المصدر السابق ، ص ٨٣ ــ ٩٠ . ــ ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ص ٩٠ وما بعدها . ــ مجهول : الحلل الموشية ، ص ٣٢ ــ ٤٠ . ــ ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٣٨١ ــ ٣٨٤ . ــ السلاوى الناصرى : المصدر السابق ، ص ١٣ ومابعدها .

(٤) : خطاب الفونسو ليوسف بن تاشفين كان بعد توتر العلاقات بين المعتمد والفونسو ، وبعد أن وصل الفونسو الى جزيرة طريف . ومن المحتمل أن يكون الفونسو قد اطلع ساعتئذ على الاتصالات التى جرت بين المعتمد ويوسف بن تاشفين ، فبعث بخطابه المذكور فى المتن الى يوسف . وقد أورد صاحب الحلل الموشية أيضا دون غيره من المؤرخين المسلمين نص الخطابين المتبادلين بين الفونسو ويوسف بن تاشفين . وقد توصل محمد بن عبود و آنجوس ماكاى

الى صحة الخطابين المذكورين . وذلك فى المقالة التى كتباها فى مجلة : الأندلس ، وقد استند الكاتبان للدلالة على صحة

على موقفه رغم ما يبديه من عدم اكتراث ولا مبالاة(١)

والأمر الثالث وهو أنه اذا لم يكن للمعتمد ابن عباد فضل المبادرة الاولى بالاستعانة بالمرابطين ، فان له الفضل بلا شك فى تبنى تلك الرغبة الشعبية التي تتوق الى نصرة المرابطين ، أو لنقل انه كان له الفضل فى القيام بالمبادرة الرسمية لذلك . لذا فنحن لسنا مضطرين الى تبني وجهة نظر حسن محمود(٢) التى تغمض المعتمد حقه فى هذه النقطة بالذات وتنكر عليه سابقته ، والتى تصور أيضا دعوته ليوسف وكأنه قد اضطر اليها اضطرارا وسيق اليها سوقا عندما رأى المرابطين يدقون أبواب الاندلس(٣) . نحن لا نتفق مع وجهة النظر هذه . والا فأين هى المصادر الاندلسية التى تصور المرابطين كقوم يأتمرون بأمر أمراء أشبيلية ويلبون نداءهم للجهاد تلبية السيد التابع ؟؟ .

نحن لاننكر الرغبة الجامحة للمرابطين للتدخل فى الاندلس احتسابا ورغبة فى الجهاد التى اشرنا اليها سابقا ، الا أن المبادرة جاءت من الاندلسيين أولا ، وجاءت من المعتمد نفسه كضرورة ملحة نعم . وفى هذا ما نعتقد الكفاية للاشادة بصاحب المبادرة التى أخرجها من طى الأمانى والأحلام الى حيز الواقع والحقيقة .

= الخطابين على مؤرخ مصرى عاش فى القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى وهو شهاب الدين محمد بن سليمان الحلبى (توفى عام ٧٢٥هـ/ ١٣٢٤ـ١٣٢٥م) . والذى كان يشغل وظيفة ديوان رئيس الانشاء فى مصر المملوكية فى كتابه : حسن التوصل الى صناعة الترسل (القاهرة ، ١٨٨٠م، ص ٤) ومن الجائز جدا ان يكون المؤرخ المصرى قد نقله عن معاصره صاحب الحلل الموشية الذى عاش فى القرن الثامن الهجرى أيضا .

أنظر :

(١) : مجهول : الحلل الموشية ، ص ٢٨ ـ ٣١ . ـــ أحمد مختار العبادى : المرجع السابق ، ص ٣٣٠ ـ ٣٣١ .

(٢) : انظر ، قيام دولة المرابطين ، ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣ ، وص ٢٦٩ .

(٣) : انظر ، حسن محمود : نفس المرجع ، ص ٢٦٧ .

موقعــــة الزلاقــــة

يحمد للمؤرخين القدامى فى الواقع جهودهم العظيمة فى تتبع أحداث معركة الزلاقة ،والاحداث التى أعقبتهـا والالمام بمعظم جزئياتها وتفاصيلها رغم التباين والتناقض فى هذه الروايات بين مؤرخ وآخر ،ولذا فـان موقعة الزلاقـة خلدّت لحسن الحظ بمعظم أحداثها الجسام ،وما من شك فى أنه كان لأهمية المعركة السبب الاساسى لهذا الاهتمام البالغ .

واذ ذهبنا نتقصى أحداث معركة الزلاقة ذات النتائج البالغة الاهميـة والتى سنعرض لها بعدئذ نجد وسط ذلك الحشد من التفاصيل المتباينـة خطوط تلاقى أساسية بينها ،كما نجد مجموعة من الحقائق متناثرة نجمعها من هنا وهناك .

ولعل أول ما نستطيع استخلاصه من تلك الروايات السالفة ان جهود أمراء الاندلس للجهاد وقتها كانت صادقة وكانت عزائمهم لا تشوبها شائبة ،فقد وحّد المصير المشترك القائم الذى تبينوا خطره ، صفوفهم وقلوبهم ربما لاول مرة ،وشعروا بان الوقت يعمل لغير صالحهم ، فأصدقوا الله ثم الناس النيّة ،وتوجهوا بكل أحاسيسهم نحو انقاذ الوطن والنفس من ذلك المصير الذى ينتظرهم . ولذا فما ان وطئت أقدام يوسف بن تاشفين أرض الاندلس حتى جاءته وفود ملوك وامراء معظم بلاد الاندلس وعلى رأسهم المعتمد بن عباد ،فقابلوه بالترحاب الشديد ،وقدموا له الضيافات والهدايا كل بحسب طاقته حتى أنه (1) (لم يبق من ملوك الطوائف بالاندلس الا من بادر وأعان وخرج وأخرج .) (٢) ويروى عبد الله ابن زيرى مبتهجا حقيقة هذا الموقف الجماعى النادر فيقول (والعجب فى تلك السفرة من حسن النيات ،واخلاص الضمائر ،كأن القلوب انما جمعت على ذلك) (٣) . ويشير أيضا الى مواقف ملوك الطوائف التى كانت تتوق الى الجهاد ،وقد أعمل كل منهم جهده ،ووطن نفسه على الموت والفداء .

وقد سارت الجيوش المرابطية تحفها قلوب الاندلسيين ومهجهم نحو اشبيلية شمالا ،وهناك بقوا فى بطحائها مدة ثلاث أيام قدّم لهم المعتمد فيها من ضـروب

---

(١) : الحميرى : المصدر السابق ،ص ٨٦ ــ ٨٨ .ــ عبد الله بن زيرى : المصدر السابق ص ١٠٤

(٢) : حسن محمود : المرجع السابق ،ص ٢٧٠ . (نقلا عن الضبى صاحب بغية الملتمس .)

(٣) : عبد الله بن زيرى : نفس المصدر ،ص ١٠٤ .

الاكرام والاتحاف حدا عظيما ، جعل لسان يوسف بن تاشفين يلهج بالشكر ، كما سبب ذلك الاتحاف الزائد تصورات خاطئة لدى بعض المؤرخين ، اذ استشفوا من ذلك مواقف سياسية ليوسف بن تاشفين لسنا معنيون هنا بايرادها على الاقل فى هذه الفقره (١)

والمهم فى الامر ان الاستعدادات للقاء الفاصل قد أتخذت فى اشبيلية ، فهيأت أسبابها من مؤن وذخائر وعدد وكل ما يلزم للمعركة الفاصلة ، وتوافدت الكتائب الاندلسية من كل صوب نحو اشبيلية ، كما توافدت من المغرب بقية المتطوعين من قبائله ، فلم تتخلف قبيلة عن المشاركة فى هذه المعركة (٢) ، وكان تشوق المرابطين الى الجهاد والفداء عظيما الى الحد الذى أثروا فيه على يوسف بن تاشفين باجابة الاندلسيين ونصرتهم (٣) وبدا كما لو ان كل شيء قد أعد للمعركة المصيرية بين المسلمين والنصارى .

أما على الصعيد النصرانى ، فمن الطبيعى ان تزعج تلك الاخبار الفونسو وكان فى ذلك الوقت محاصرا للمستعين بن هود فى سرقسطة ، فما ان بلغه عبور المرابطين حتى أعد العدة للتوجه جنوبا ليتخذ من الاجراءات السريعة ما يواجه به الموقف العصيب ، وبعث لابن هود الذى بلغته أخبار قدوم المرابطين ، يطلب منه الاموال التى كان قد رفضها من قبل كشرط للارتحال عن عاصمته . ولكن المستعين ابى ذلك عليه ، فأضطر الفونسو الى الانسحاب سراعا نحو طليطلة (٤) .

واستشعر الفونسو لأول مرة خطورة الموقف ولم يعد فى مقدوره ان يلعب بورقة الخلافات والفرقة بين ملوك الطوائف ، بل ووجد امامه صفا موحدا وجيشا

---

(١) : من الذين شككوا فى هذا الاكرام الزائد عبد الواحد المراكشى ، وفى الواقع لا يمكن قبول رواياته على علاتها ، فهو قد كتب كتابه سالف الذكر فى عصر الموحدين . وكان بوقا من ابواقهم فى ذلك الوقت رغم انهم قد اساءوا اليه اخيرا . فهو يقول عندما اخذ يصف لقاء المعتمد بيوسف (... واظهر من بره واكرامه فوق ماقد يظنه امير المومنين ، وقدم اليه من الهدايا والتحف والذخائر الملوكية مالم يظنه يوسف عند ملك . وكان هذا اول ماأوقع فى نفس يوسف التشوف الى مملكة جزيرة الاندلس ... الخ)

انظر : المعجب ، ص ١٩٠ ـ ١٩١

(٢) : حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٢٦٩

(٣) : مجهول : الحلل الموشية ، ص ٣٢ ـ ٣٣

(٤) : ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ص ٩٢ .

اسلاميا كثيفا . وشعر أن المعركة القادمة ستكون معركة/عقيدة ومصير وليست معركة حصن أو اتاوات . ولذا فقد سارع الى ترميم علاقاته المتدهورة مع ممالك النصارى وأشعرهم بخطورة المعركة . فهى مواجهة حاسمة فاصلة بين الاسلام والنصرانية ، فبعث الى ابن عمه سانشو راميرز ملك أرغونة . يطلب منه الامداد ، كما جاءته امدادات من مملكة نبرة وبرشلونة ، وجند على وجه السرعة قوات من ليون وجليقية واستوريش وقشتالة ، وطلب النجدة من ولايات فرنسا فجاءته كتائب من الفرسان من لانجدوك وبروفانس وبرجنديه ، كما طلب من قائده المرمون البرهانس (١) الذى بعثه مع القادر بن ذى النون نحو بلنسية ليملكه اياها ، فاجتمعت له بذلك اعداد عظيمة أسلمت له قيادها بطبيعة الحال (٢) .

تحديد مكان المعركة :-

لم يأت تحديد مكان المعركة خبط عشواء . أو من قبيل الصدفة المحضة ، بل كان مبنيا على حسابات دقيقة اسلامية ونصرانية على السواء . فلقد كان المكان الذى شهد احداث تلك المعركة يتبع من الناحية الجغرافية مملكة بطليوس وغير بعيد منها ، وهو الذى تسميه المصادر الاسلامية الزلاقة ، بينما تسميه المراجع الاسبانية Sacralias وتعرف الآن باسم Sagrajas . ولم يكن يفصل هذا المكان عن المعسكرين سوى ثلاثة أميال هى القدر الذى يشكل عرض نهر وادى يانه والذى يعد شمالا

---

(١) : البرهانس أو البارهانش Alvar Fañez هو قائد قشتالى مسيحى ، ويقال انه كان ابن أخ للسيد القمبيطور الذى استولى على بلنسية . وقد قتل فى عام ٥٠٧ هـ / ١١١٤ م . ويعتبر من أكبر قواد الملك الفونسو السادس . انظر ، ابن القطان : نظم الجمان ، ج ٢ ، ص ٦ ، وج ١ ، ص ٧ .

(٢) : انظر : حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٢٧٢ . - سعيد عاشور : اوربا فى العصور الوسطى ، ص ٥٣٣ . - محمد عبدالله عنان : مواقف حاسمة ، ص ٢٨٠ - ٢٨٢ . - على أدهم : المرجع السابق ، ص ٢٢٠ .

في اتجاه نهر التاجة ويسمى اليوم جوبرد (١) ، وتقع الزلاقة بين بطليوس وقورية (٢) .

فعلى الصعيد الاسلامي كان يوسف بن تاشفين يميل على عادته الى التؤدة والحذر الشديد ، فخشي من التوغل شمالا نحو طليطلة وبقية أراضي الفونسو ، وكان يميل كما يفهم من رواية عبدالله بن زيري الى أن يكون اللقاء على أرض اسلامية حتى اذا تجلت المعركة لصالح المسلمين يكون قد ضمن السلامة وهو في أرض اسلامية ، أما اذا انجلت المعركة عن هزيمة المسلمين فتكون أراضي المسلمين مأوى يلجئون اليه . بل اننا نفهم من رواية ابن زيري أيضا أن يوسف بن تاشفين كان يؤثر عدم اللقاء أصلا . فلربما كان يتمنى أن يكون النصارى قد أخافهم وأرعبهم وصوله الى الاندلس ، فلا تحدث معركة ، وهو الغريب عن تلك البلاد التي لا يعرف لقصر المدة خباياها وجغرافيتها بعد (٣) . كما أن التحليل الحديث لدوافع ذلك التدبير الحربي الهادف الى اختيار بطاح بطليوس مكانا مناسبا للمعركة ، يلقي الضوء على فهم تلك الحسابات الدقيقة التي بني عليها ذلك الاختيار . وفي هذا فنحن نؤيد تحليل عبدالحق حموش (٤) لذلك التدبير الحربي . فالواقع أن يوسف بن تاشفين خرج من المغرب وهو يعلم أن أمامه أكثر من لقاء وأكثر من معركة ، فلو أنه فكر في شن سلسلة من الحروب الصغيرة الخاطفة مع الاسبان حتى ولو كان ذلك للمناوشة ، لكان قد حكم على جيشه بالتبدد والانهاك والتفريط في القوة فيما لا طائل منه . ولذا فقد فضل لقاءا رئيسيا حاسما تجتمع فيه زهرات شباب الجيش وفتوته المتأججة التي لم تهدها بعد تلك المعارك الصغيرة ، فكان أن رنا بنظرته العسكرية الفاحصة أن ينصرف الى الجانب الغربي من الاندلس اذ عرف أنه مركز الثقل في الممالك الاسلامية والاسبانية على السواء . فطليطلة عاصمة الفونسو غير بعيد عن بطليوس ، واشبيلية وأراضيها الواسعة ، فضلا عن أن

---

(١) : ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ح ١ ، ص ٩٣ . — محمد عبدالله عنان : دول الطوائف ، ح ٢ ، ص ٣٢١ .

(٢) : ابن الكردبوس : نفس المصدر السابق ، ص ١٠٥ .

(٣) : نفس المصدر والصفحة .

(٤) : ابن تاشفين ، ص ٦٧ — ٦٨ .

مملكة بطليوس تقع غير بعيد عن الجزيرة الخضراء جسر عبوره وامداداته . ولهذا فقد كان اختيار هذا المكان مبني على الحسابات الدقيقة ، وليس على الصدفة وحدها[١] . وبما يماثل هذا التحليل تقريبا رأينا تفسيرات أخرى مشابهة ، فالواقع أن يوسف بن تاشفين ومن معه لو فكروا في التوجه صوب طليطلة ومحاصرتها لكان قد ازداد توغلهم في بلاد النصارى ، ولطالت بذلك خطوط مواصلاتهم ولسهل من ثم على الفونسو أن يقضي عليهم وهم منهكين . ولذا فقد آثر يوسف بن تاشفين وأركان حربه أن يكون اللقاء - ان تم - في بطحاء بطليوس لا سيما وأنهم قد علموا بتحرك الفونسو نحو بطليوس[٢] .

أما على الصعيد النصراني فقد كان لالفونسو حساباته الدقيقة أيضا ، فهو قد رغب أن يكون اللقاء في أرض المسلمين ، فاذا أسفرت المعركة عن هزيمته انسحب الى بلاده وهو مطمئن الى أن المسلمين سوف لن يتبعوه الا بعد أن يتخذوا استعداداتهم لجولة أخرى تحتاج بطبيعة الحال لبعض الوقت ، هو نفسه الذي يمكّنه من النجاة بنفسه من الهزيمة ليستعد لجولة أخرى من جديد . وصان بلاده في نفس الوقت من آثار المعركة والقتال ، أما اذا كان النصر حليفه فهو بلا شك المستفيد . تلك كانت وجهة نظره[٣] ، والواقع أن حساباته هذه لها ما يبررها ، مما يعني أن النصارى لم يكونوا بأقل اضطرارا من المسلمين في أن تكون الحرب في بطحاء بطليوس وعلى أراضي المسلمين[٤] . ولكن رغم وجاهة هذه النظرية المسكرية النصرانية ، الا أنه كان عليه من الأولى أن يجر المسلمين الى الدخول معه في معركة يختار لها هو مكان اللقاء . فلو أنه استقر في طليطلة وتحصّن بها ، لكان أغرى المسلمين الى محاصرته ، ولقطعوا تلك المسافة بين بطليوس وطليطلة ، حتى اذا أنهكهم التعب وكدّهم الارهاق ، انقضّ عليهم فأثخن في صفوفهم[٥] .

---

(١) : عبد الحق حموش : المرجع السابق ، ص ٦٧ - ٦٨ .

(٢) : حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٢٧٣ - ٢٧٥ .

(٣) : الحميري : المصدر السابق ، ص ٨٧ - ٨٨ .

(٤) : حسن محمود : نفس المرجع أعلاه ، ص ٢٧٥ .

(٥) : نفس المرجع أيضا ، ص ٢٧٤ .

المعركة الفاصلة :ـ

كان على يوسف بن تاشفين أن ينظم صفوف القوات الاسلامية، وكانت قد بلغت من الكثرة ما تستوجب معه فصلها الى معسكرين . فارتأى أن يكون الاندلسيون فى جيش أو معسكر خاص، ويكون هو نفسه فى معسكر آخر من المرابطين . وولى كما يفهم من الروايات سالفة الذكر المعتمد قيادة المعسكر الاندلسى، فى حين تولى هو قيادة جيش قواته المرابطية ذات الثقل الحربى الكبير(١). وتلاقت الجيوش الاسلامية والنصرانية فى بطحاء الزلاقة وجها لوجه، وبدأت المراسلات بين الفريقين، فبعث يوسف الى الفونسو بخطاب يطلب منه على مقتضى السنة النبوية أن يختار واحدا من الأمور التى نصت عليها السنة عند لقاء الكفار وهى : الاسلام أو الجزية أو الحرب، غير أن الفونسو غضب من هذا الخطاب وبعث لملوك الطوائف يقرعهم ويؤنبهم(٢). وكان قد حصلت بينه وبين يوسف بن تاشفين من قبل خطابات متبادلة . تهجم فيها الفونسو على يوسف بن تاشفين كثيرا . فكان رد يوسف بن تاشفين عليه موجزا قويا حازما هو ذاته جواب هارون الرشيد لنقفور ملك البيزنطيين عندما قال له " الجواب ما تراه لا ما تسمعه "(٣).

وعلى أية حال فلم يبق الا أن تحدد ساعة اللقاء بين الفريقين كما كانت عليه العادة العسكرية وقتذاك . فجرت مراسلات بين الفريقين حدد فيها يوم المعركة، غير أن الفونسو كان يبيّت فى الواقع مكيدة للمسلمين، تنبّه لها المعتمد ابن عباد ولفت نظر يوسف بن تاشفين اليها . وبالفعل فلم يهاجم الفونسو قوات المسلمين فى اليوم المتفق عليه، ولكنه هاجمهم فى اليوم السابق له(٤). ونشبت فى ذلك

---

(١) : الحميرى : المصدر السابق، ص٨٩ ـ ٩٠ .

(٢) : الحميرى : نفس المصدر، ص ٩٠ ـ ٩١ .

(٣) : مجهول: الحلل الموشيه، ص ٢٨ ـ ٣٠ . ـ المقرى : المصدر السابق، ج ٦، ص٨٨ ـ ٩٩ .

(٤) : انظر، عبدالواحد المراكشى : المصدر السابق، ص١٩٣ ـ ١٩٦ . ـ ابن الاثير : المصدر السابق، مجلد ١٠، ص ١٥٣ ـ ١٥٤ . ـ المقرى : المصدر السابق، ج ٦، ص٩٧ ـ ١٠١ .

الوقت المعركة الهائلة بين المسلمين والنصارى ، وكانت فى الواقع معركة غير متكافئة فى العدد والعدّة . فصدم الاندلسيون صدمة شديدة وارتبكت صفوفهم وتمزقت . وفى الحقيقة ان ماحدث كان نتيجة لحدوث خلل فى تنفيذ الخطة . اذ كانت الخطة العسكرية التى وضعها يوسف بن تاشفين كما يتراءى لنا تقوم على أساس ان يتلقى الاندلسيونْ الصدمة أو الضربة الاولى حتى اذا تورط النصارى فى مهاجمتهم معتقدين بان هؤلاء هم الجيش كله ، بادر يوسف الى معسكر النصارى ، فاشعل فيه النار وقضى على الموجودين فيه ، فيعود الفونسو لتدارك ذلك ، فتصدمه قوات يوسف المستعدة والنشطة حتى ذلك الوقت . وفى نفس الوقت تطبق عليه القوات الاشبيلية الاخرى . غير أنه لم يكتب لهذه الخطة ان تطبق بحذافيرها ، اذ يبدو ان تدخل الفونسو بكل قواته وثقله قد أربك صفوف الاندلسيين (١) ، فبدأت صفوفهم تتمزق ، وكثرت الانسحابات فى صفوفهم ، وتحمل المعتمد ابن عباد وصحبه القليل عبء ذلك الموقف الحرج ، وأبلى فيه بلاءً حسنا ، فكان يرمى بنفسه فى النزال حتى أنه أصيب أصابات بالغة (٢) . كل ذلك وضغط النصارى يزداد على الاندلسيين ويزداد تحمل المعتمد لعبء ذلك ، حتى كاد الامل يذوى فى نفسه . وهنا طلعت عليه كتيبة مرابطية بقيادة القائد المرابطى المعروف داود بن عائشة . فنفّست الكثير عن الاندلسيين ، وفى نفس الوقت تحول يوسف لتنفيذ الشق الثانى من الخطة بكامل قواته وكامل قواه . وأعطت هذه الخطة ثمارها مباشرة ، وتحول النصارى من موقع الهجوم الى موقع الدفاع ، وتنفس الاندلسيون الصعداء ، والمعتمد بالذات . واخيرا انجلت المعركة عن انتصار المسلمين انتصارا باهرا خالدا . وقد وقعت هذه الموقعة على الارجح فى ١٢ رجب سنة ٤٧٩هـ/ ٢٣ أكتوبر ١٠٨٦م ، ونزل المعتمد وهنأ يوسف بن تاشفين على ذلك الفتح المبين ، كما هنأه أيضا بقية ملوك الطوائف ، وبعث المعتمد الى ابنه وولى عهده الرشيد يعلمه نبأ النصر العظيم ويطلب منه ان يزف ذلك النبأ للمسلمين فى المملكة (٣) .

وهكذا انتهت هذه المعركة بانتصار الاسلام على النصرانية فى لقاء تاريخى يضاف الى الايام الخالدة فى تاريخ المسلمين كبدر والقادسية واليرموك وغيرها .

---

(١) : عبد الحق حموش : المرجع السابق ، ص ٦٦ .

(٢) : الحميرى : المصدر السابق ، ص ٩١ ــ ٩٢ .

(٣) : الحميرى : نفس المصدر ، ص ٩٣ ــ ٩٤ .

ومن المفيد أخيرا أن نلم بالاسباب او العوامل الحربية التى ادت الى انتصار المسلمين فى هذه المعركة ، فقد استخدمت فيها خطط عسكرية جديدة • كما استخدمت فيها اسلحة جديدة من قبل المرابطين لم يعهدها النصارى من قبل •

وفى الحقيقة ان المسلمين كانوا أحكم وأزكى فى خططهم العسكرية التى وضعوها من النصارى • فالخطة التى اعتمدها النصارى وكانوا يعتقدون أنها مجدية تلاشت أمام الخطة التى وضعها يوسف وأركان حربه ، فالنصارى كانوا يعتمدون خطة الفارس الفرد ، فيما وضع المسلمون خطة تحتوى تلك الخطة النصرانية وهى خطة الجيش الكامل • فكما ان أبرز ما يميز خطة النصارى العسكرية عنف وقوة الفارس المثقل بالدروع والحديد ، كان أبرز ما يميز الخطة الاسلامية هو المواجهة بقطائع كاملة من الجيش تدك الخطة النصرانية دكا (١) كما أن خطة الكمائن القديمة الجديدة التى تلجأ لها الجيوش الاسلامية دائما كانت عاملا آخر من عوامل النصر •
واضافة الى هذا فقد أنزل المرابطون الى ميدان القتال فرقا يمكن أن نسميها مع شيئ من التجاوز فرق الصاعقة • وتتكون من كتائب مشاة كان عددها فى تلك المعركة أربعة آلاف مقاتل من السودان (٢)، متسلحين (بدرق اللمط (٣)، وسيوف الهند ، ومزاريق الزان •) (٤) وفى ايديهم السهام ، فأخذوا يطعنون الخيل التى فزعت بفرسانها وأحجمت عن التقدم ، فجمحت بأصحابها •

أما بالنسبة للاسلحة التى استخدمت لاول مرة فى تلك المعركة ، فقد كان لها دور رئيسى فى النصر ، اذ كان من عوامل النصر نزول الجمال لأول مرة فى تاريخ الحروب الاسلامية النصرانية فى اسبانيا ، فقد أمر يوسف كما يقول ابن خلكان (٥) (بعبور الجمال فعبر منها ما أغص الجزيرة ، فارتفع رغاؤها الى عنان السماء ، ولم يكن أهل الجزيرة (ولا خيلهم) (٦) رأوا جملا قط ، فصارت الخيل تجمح من رؤية الجمال ومن رغائها) ويضيف قائلا (وكان ليوسف رأى مصيب فكان يحدق بها عسكره

---

(١) : عبد الحق حموش : المرجع السابق ، ص ٦٥ ـ ٦٦ •
(٢) : المقرى : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ١٠٠ ـ ١٠١ (نقلا عن ابن خلكان) •
(٣) : نقل ابن خلكان عن ابن حوقل فى كتابه المسالك والممالك ، ان لمطه : بليدة عند السوس الاقصى (فى المغرب الاقصى) بينها وبين مدينة سجلماسة ١٠ يوما • انظر : وفيات الاعيان ، ص ١١٤ ـ ١١٥ •
(٤) : المقرى : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ١٠٠ ـ ١٠١ (نقلا عن ابن خلكان) •
(٥) : المقرى : نفس المصدر والجزء والصفحات •
(٦) : العبارة فى الاصل جاءت على هذا النحو (ولم يكن اهل الجزيرة رأوا جملا قط ولا خيلهم) وقد أعدت صياغتها على هذا النحو فى المتن زيادة فى الايضاح ومنعا لأى لبس •

ويحضرها للحرب ، فكانت خيل الفرنج تجمح منها ٠)

وبالاضافة الى الجمال فقد استخدم المرابطون الطبول الكبيرة التى كانت تشق بأصواتها الهائلة عنان السماء ،فكانت ترتعد لها قلوب النصارى وتصم آذانهم ٠ والواقع أن الشعوب الصحراوية التى كانت ولاتزال تعيش فى الصحراء فى افريقية تعرف أهمية ذلك النوع من الاسلحة المعنوية فى حروبها ٠ فقد عرف المرابطون من القبائل الزنجية التى كانت تعيش فى نواحى نهر السينغال والنيجر الطبل المعروف بطبل جنادة الذى ينسب الى غينيا GUINEE (١) ، كما يذكر أن المرابطين استخدموا سلاحا خفيفا كان له دور فى القتال شديد حتى لقد كاد أن يذهب ضحيته الفونسو نفسه ٠ هذا السلاح هو الخناجر المقوسة والتى يطلق عليها المرابطون الاطاس أو الطاس (٢) ٠

هذه العوامل المادية والمعنوية أدت الى كسب المسلمين لهذه المعركة الفاصلة ٠ ولكن هناك عامل قبل هذا وبعده هو سلاح الحمية والحماس الدينى أو لنقل سلاح العقيدة ، فقد كان لهذا السلاح الدور الاساسى فى الانتصار، فقد كانت النفوس صادقة فى اللقاء ، مخلصة فى الأداء مرابطين وأندلسيين على السواء رغم النكسة الأولى ٠ أخلصوا النية لله وصدقوا العزم ، وكان يذكى هذا العزم الفقهاء الذين انتشروا فى صفوف الجيش الاسلامى برمته يلهبون الحماس ويذكرونهم الغنائم الالهية ورياح الجنة ، ويذكرونهم الشهادة أو النصر المؤزر المشرف ٠ فأعطى هذا كله شحنات هائلة من القوة ، فاندفعوا الى القتال دفعا يرومون الفوز بأحد الحسنيين النصر أو الشهادة ٠ وهكذا تحقق لهم ذلك النصر العظيم المؤزر ٠

بقيت أخيرا عدة نقاط لم نشأ أن نتحدث عنها فى سياق حديثنا عن وصف معركة الزلاقة حفاظا على هذه الصورة الرائعة التى رسمناها لمعركة الزلاقة من أن تشوه ٠ باعتبار أن هذه المعركة من المعارك المهمة فى تاريخ الاسلام عامة ،وفى تاريخ الاندلس خاصة والتى تمثل ذروة حركة جهاد المرابطين والاندلسيين ضد النصارى والأسبان ٠ وأول هذه النقاط محاولات التشكيك فى ولاء المعتمد ويوسف لبعضهما البعض ،وبالتالى ولاء المرابطين والاندلسيين لبعضهم البعض قبل وأثناء وبعد المعركة ٠ وقد أشار الى هذه المواقف بعض المؤرخين القدامى وتابعهم بها

---

(١) : احمد مختار العبادى : المرجع السابق ، ص ٣٣١ ـ ٣٣٢ ٠

(٢) : احمد مختار العبادى : مقال بعنوان : دراسة حول كتاب الحلل الموشية فى ذكر الاخبار المراكشية ، مجلة تطوان ، العدد الخامس ، سنة ١٩٥٥ م ، ص ١٥٢ ٠

بعض المستشرقين . فمن مواقف التشكيك بموقف المعتمد قبل معركة الزلاقة ما رواه ابن الأثير(١) بدون روية من انه عندما تراءى الجمعان " المسلمون والنصارى " جاء من ينصح يوسف بأن يأمر المعتمد بأن يكون فى المقدمة خوفا من الا ينصح المعتمد يوسف ولا يبذل نفسه ، ففعل ذلك يوسف .) .

اما عبد الواحد المراكشي(٢) فيشكك كعادته فى صدق نيات يوسف وينظر اليه كأى طامع انتهازى . وليس كرجل عمت شهرته فى التمسك بأهداب الدين العالم الاسلامى فيقول فى معرض روايته لاحداث استنجاد المعتمد بيوسف انه لم يقدر العواقب تماما . ولا يدرك أنه قد سل سيفا عليه يحسبه له . وهو موقف تشكيكى ظالم بلا شك . وكان قد أشار فى مكان آخر الى ان يوسف كان حريصا على ان يظهر للاندلسيين وللمعتمد انه لم يأت الا للجهاد فقط ، وانه كان دائم الحرص على أن يظهر التعفف والتأفف من الاقامة فى الاندلس بل انه يروى ان يوسف كان يقول فى أكثر أوقاته (كان أمر هذه الجزيرة عندنا عظيما قبل أن نراها ، فلما رأيناها وقعت دون الوصف وهو فى ذلك كله يسر حسوا فى ارتغاء(٣) .)

اما اثناء معركة الزلاقة فيروى ابن الكردبوس(٤) رواية غريبة وهى انه عند احتدام المعركة وعند هزيمة الاندلسيين فى الصدمة الاولى أعلم يوسف بذلك (فقال اتركوهم قليلا للفناء فكلا الفريقين من الاعداء ، فلما تحقق ان اكثرهم قد أسر وقتل رأى انه قد آن أن يفترس العدو ، اذ قد تباعد عن محلته ...) .

أما دوزى(٥) فيقول فى معرض وصفه لاحداث معركة الزلاقة ان المعتمد بعث الى يوسف يستحثه أن يتقدم بجيوشه على عجل ، أو أن يوافيه على الأقل بالعدد الكبير الكافى ، وقد كان (يوسف قد وضع خطة لا يستطيع التحول عنها ، فلم يبادر الى تلبية طلبه ، وكان قليل الاهتمام بما يصيب الاندلسيين ، وقد صاح لهذه المناسبة قائلا : وماذا يهمنى اذا كان نصيب هؤلاء جميعا الهلاك ، انهم جميعا أعداء) .

---

(١) : انظر الكامل ، ج ١٠ ، ص ١٥٣ .
(٢) : انظر : المعجب ، ص ١٩٠ ـ ١٩٢ .
(٣) : يسر حسوا فى ارتغاء : مثل عربى مشهور يضرب لمن يريك أنه يعينك ، وانما يجر النفع الى نفسه .
انظر : الميدانى : مجمع الامثال ، ج ١ ، ص ٤١٧ .
(٤) : انظر : الاكتفاء ، ص ٩٤ .
(٥) : انظر : المرجع السابق ، ص ٣٠٢ .

وهذا ولاشك موقف مغرض لا يمكن ان يقدم عليه يوسف اطلاقا .

اما بعد معركة الزلاقة فقد رأينا عدة مواقف تشكيكية في موقف يوسف والمعتمد على السواء ، فمن هذه المواقف مارواه عبد الواحد المراكشي ايضا (١) ان يوسف بعد انتصار الزلاقة رغب في التجول في بلاد الاندلس للتنزه وهو يقصد غير ذلك ، اي للاطلاع على أحوال الاندلس والناس . فتحقق له ذلك اي الاطلاع على احوال البلاد . وكان في كل ذلك يظهر اجلال المعتمد وتأييده واعترافه بفضله ، وانه اي يوسف رهن اشارته . ويبدو لنا هذا مستحيلا ، اذا علمنا بأن يوسف قد اضطر الى الانسحاب الى المغرب مباشرة بعد معركة الزلاقة فاتجه الى اشبيلية فبقي فيها ثلاثة أيام ثم توجه نحو الجزيرة الخضراء ومنها الى المغرب (٢) .

وعلى نفس نغمة عبد الواحد المراكشي اي نغمة اعجاب يوسف بالاندلس ومناظرها وخيراتها ، ورغبته في امتلاكها على نفس هذه النغمة يضرب المستشرق الفرنسي ل . أ . سيديو (٣) . عندما يقول : بأن يوسف طمع في تملك الاندلس التي اعجبته خيراتها ومناظرها . وان اهل الاندلس عندما شعروا بنياته الخفية ، فكروا في احباط مارمى اليه .

وفي الحقيقة ان هذه المواقف التشكيكية لا يمكن الاعتداد بها ، ويكفي ان نشير للاستدلال على وجهة نظرنا الى تلك الرسالة التي بعثها يوسف بن تاشفين الى المعز بن باديس امير افريقية يشرح له ماحدث قبل واثناء وبعد معركة الزلاقة من احداث بالتفصيل (٤) فهي تدل دلالة واضحة على سلامة موقف الاندلسيين ، وموقف المعتمد بالذات — على الاقل في تلك الفترة فقط — .

كما ان من النقاط التي صرفنا النظر عن الاهتمام بها هي المبالغة المفوتة من جانب المؤرخين المسلمين في تقديراتهم الخاطئة لعدد المشتركين في القتال من النصارى ، وفي عدد القتلى وعدد الناجين ايضا . وهي تقديرات لاتمثل الحقيقة

---

(١) : انظر : المصدر السابق ، ص ١٩٤ .

(٢) : انظر : الحميري : المصدر السابق ، ص ٨٩ .

(٣) : انظر : تاريخ العرب العام امبراطورية العرب ، وحضارتهم ، ومدارسهم الفلسفية والعلمية والادبية ، ص ٢٨٥ .

(٤) : انظر نص رسالة يوسف لامير افريقية المنقولة من مخطوط رقم ٤٤٨ الغزيري بمكتبة الاسكوريال التي اوردها محمد عبد الله عنان في كتابه : دول الطوائف ، ص ٤٤٧ — ٤٤٩ .

كثيرا ، فكل ما يمكن أن نستخلصه من تلك الروايات المختلفة أن عدد الجيش النصرانى كان يفوق بلا شك عدد الجيش الاسلامى أندلسيين ومرابطين. وعلى هذا فنحن نستبعد ما أوردته الروايات الاسلامية من أرقام مبالغ فيها (١). حتى ماجاء فى رسالة يوسف لأمير افريقية السابقة لانستطيع أن نتقبلها بسهولة. اذ تقول الرسالة ان عدد الذين نجوا من النصارى بعد المعركة واستطاعوا الفرار بما فيهم الفونسو وحاشيته لا يزيد عن ألفى فارس، لانستطيع قبول هذه الرواية ، اذا علمنا بأن أقل تقديرات المؤرخين عن عدد جيش النصارى تصل الى ثمانية وأربعين ألف فارس ، بل ان بعض الروايات تجعل عدد الناجين من المعركة من النصارى لا يزيد عن عشرة فرسان فقط.

وأخيرا فاننا نقرر كما قلنا سابقا بان معركة الزلاقة قد وقعت على الأرجح فى يوم ١٢ رجب عام ٤٧٩ هـ / ٢٣ أكتوبر عام ١٠٨٦ م غاضين النظر عن الاقوال المتناقضة فى هذه النقطة بالذات (٢).

نتائج موقعة الزلاقة :-

نكاد نجزم بأن معركة الزلاقة - على عظم أهميتها - لا يمكن وبنظرة موضوعية فاحصة لسير الحوادث فى الاندلس فى تلك الفترة أن نستخلص منها وحدها أى المعركة النتائج والآثار البعيدة المدى

(١) : تصل اقصى تلك التقديرات المبالغ فيها حدا وصلت به رواية صاحب الحلل الموشية أن عدد القتلى ٣٠٠ ألف فارس، اما بقية التقديرات الاخرى فتعددت ، فمنها ما يقدر عدد جيش النصارى ٢٨٠ ألف فارس، ورواية اخرى تقول ان عدد الجيش النصرانى ٦٠ ألف فارس ، فى حين قالت رواية اخرى ١٥٠ الف فارس. اما عدد الفارين فتصل رواية الحميرى بهم الى تسعة اشخاص فقط ، وبعض الروايات الاخرى تصل بهم الى مائة فارس والبعض الاخر الى ٥٠٠ فارس.
وهكذا فهى تقديرات مبالغ فيها لا يمكن قبولها.

أنظر ، مجهول : الحلل الموشية ، ص ٤٩ ، وص ٥٠ . - الحميرى : المصدر السابق ، ص ٨٨ . - ابن الاثير : المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ١٥٣ - ١٥٤ . - محمد عبد الله عنان : مواقف حاسمة ، ص ٢٨٥ - ٢٨٦ . ودول الطوائف ، ص ٣٢٥ - ٣٢٨ ، وص ٤٤٩ .

(٢) : اختلف المؤرخون ايضا فى تحديد السنة والشهر الذين وقعت فيهما معركة الزلاقة ، فبصرف النظر عن رواية النويرى كما جاء فى كتاب حسن محمود : قيام دولة المرابطين ، التى تؤرخ لمعركة الزلاقة بأنها وقعت فى عام ٤٧٧ هـ ،

التى تركت بصماتها لردح من الزمن على الصعيدين الاسلامى والنصرانى معا . فالنظرة التاريخية الموضوعية للأحداث تجعلنا نقرر فى أن قوة المرابطين الفتية وحماسهم للجهاد منذ أن قامت دعوتهم فى غربى افريقية كان هو العامل الرئيسى فى تحقيق هذا الانتصار الحاسم على النصرانية فى موقعة الزلاقة ، وهو الانتصار الذى مدّ فى عمر الوجود الاسلامى فى الاندلس بمعنى أنه وكما أشرنا سابقا أن التدخل المرابطى ترتبت عليه نتيجة مهمة توازى فى أهميتها جميع ماترتب على موقعة الزلاقة من آثار . هذه النتيجة هى الفسحة الطويلة من الزمن التى بلغت أربعة قرون فى عمر الوجود الاسلامى فى الاندلس ، فبقاء الوجود الاسلامى لأربعة قرون أخرى كان نتيجة مباشرة كما يتراءى لنا للتدخل المرابطى . ونردد بهذه المناسبة مع القائلين بأننا لانستطيع أن نقرر على وجه التحقيق ما الذى كانت ستؤول اليه الأمور لو لم تتح للأندلسيين سانحة قدوم المرابطين ؟؟ . ولكن مانستطيع اقراره هو أن التدخل المرابطى قد أنقذ الاندلس وقتها من خطر السقوط ، فكان تدخلهم فى الوقت المطلوب سببا أساسيا فى شل تقدم حركة الاسترداد المسيحى وتعطيل مسيرتها (١) .

= وبغض النظر عن رواية ابن خلدون وابن الكردبوس اللذين يجعلا تاريخ وقوعها عام ٤٨١ هـ ، بغض النظر عن هذه الروايات فان الثابت أنها وقعت فى عام ٤٧٩ هـ ، وفى ١٢ من شهر رجب منها . أما بعض الروايات الأخرى كرواية ابن الاثير وعبدالواحد المراكشى فتجعل وقوعها فى شهر رمضان من نفس السنة ، فى حين كانت رواية صالح ابن عبدالحليم صاحب روض القرطاس هى الرواية العربية الصحيحة والدقيقة التى حددت تاريخ المعركة حتى بالتوقيت العجمى (الميلادى) .

أنظر ، ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ص ٩٨ ، وج ١ ، ص ٩٢ . — عبدالواحد المراكشى : المصدر السابق ، ص ١٩٣ — ١٩٤ . — ابن خلدون : المصدر السابق ، مجلد ٦ ، ص ٣٨١ . — ابن خلكان : المصدر السابق ، (فيما ينقله عنه المقرى فى ج ٦ ، ص ٩٤ — ٩٥ ، و ص ١٠٠ — ١٠١) . — الحميرى : المصدر السابق ، ص ٩٣ — ٩٤ — ابن الابار : المصدر السابق ، ص ٩٨ — ١٠٠ . — ابن الاثير : المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ١٥٣ . — صالح بن عبدالحليم : المصدر السابق ، ص ٩٦ . — حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٢٨١ . — محمد عبدالله عنان : دول الطوائف ، ص ٣٢٣ .

(١) : عبدالحق حموش : المرجع السابق ، ص ٦٨ .

وبعد هذا اذا ذهبنا نتقصى ما ترتب على معركة الزلاقة من نتائج وآثار بعيدة ، فاننا سنشعر بالغبطة لتلك النتائج . فلقد صححت المعركة في الواقع خللا حدث في توازن القوى في شبه الجزيرة الايبيرية . فبانتصار الزلاقة عاد لشبه الجزيرة توازن القوى – وان لم يعمر طويلا – وزالت على الاقل وقتها – فكرة قشتالة التي لاتقهر (١) . وتبين للمسلمين في الاندلس آنذاك أنه بحد أدنى من الترابط والتآلف والوحدة يمكن لهم الوقوف في وجه المؤامرات والمواجهات النصرانية الخطرة . وبنفس أهمية هذه النتيجة وفي موازاتها كان انتصار الزلاقة انتصارا للكرامة والعزة الاندلسية ، وعادت للأندلسيين الثقة بأنفسهم . وارتفعت روحهم المعنوية . وتخلصوا في ذروة الانتشاء بالانتصار من الآثار النفسية المتردية التي كانوا عليها قبل المعركة (٢) . وعاد لأسبانيا المسلمة وقتها شعاع هائل من روح الثقة والأمل ، وهبت فيها روح العزيمة والاصرار والثقة – وان كان هذا لم يعمر طويلا أيضا للأسف .

أما بالنسبة لأسبانيا النصرانية فقد تركت تلك المعركة بما ترتب عليها من نتائج بصماتها على الفكر والنفسية النصرانية . فالواقع أنه لم يكتب لحالة الشعور باليأس والأسى اللتين ترتبتا على هزيمة النصارى أن يستمرا طويلا . صحيح ان المعركة قلبت الموازين وعطلت حركة الاسترداد التي سار بها الفونسو الى الأوج . وأصيب النصارى بحالة من الذهول والتفجع ، الا أن ذلك لم يستمر طويلا – والتبعة في هذا تقع على الاندلسيين بالذات – فهب النصارى من عثارهم يجمعون القوى من جديد وأدت فورة المرابطين المتأججة بالحماسة الدينية الى رد فعل نصراني مواز لها في القوة ، فحل الاصرار والعزيمة على تدارك الأمور بسرعة مكان الذهول والأسى . وأذكت الكنيسة المسيحية في غربي أوروبا شعور النصارى بأن ماحدث لا يعدو أن يكون نكسة مؤقتة ، واندفعت تحثهم على تجاوز هذه النكسة والعمل بسرعة على صد شعور اليأس والذهول واحلال الحماس الديني والقومي مكانه استعدادا للقاء آخر .

---

(١) : صلاح خالص : المعتمد بن عباد الاشبيلي ، ص ٢٦٠ .

(٢) : حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٢٨٥ .

فالكنيسة اعتبرت الموقعة صفحة من صفحات الحروب الصليبية ظللها العثار والتخبط. ولذا فلا بد من طى هذه الصفحة سريعا . والاستعداد لصفحة أخرى مشرقة .(١)

أما على الصعيد المرابطى فقد تركت هذه الموقعة أكثر من أثر ونتيجة فبادئ ذى بدء قررت هذه المعركة ابتداء من ذلك الوقت ارتباط الاندلس بالفلك المغربى . فأصبحت لاكثر من قرن ونصف تدور حوله ، وتقتدى بهداه . وأصبحت العدوتان تكونان دولة واحدة قوية عاصمتها مراكش فى عهدى المرابطين وبعدهم الموحدين .(٢) ويأتى بعد ذلك النتيجة المهمة الثانية التى جعلت من المرابطين الامل والمنقذ والمعيل بعد الله . فقد زاد انتصار الزلاقة من تعلق قلوب الاندلسيين بالمرابطين وسط هذا الحب لهم ، والاعجاب بهم الى الذروة . والتفت حولهم قلوب المسلمين من الطبقات العامة والوسطى . وكان يذكى هذا الشعور ويوجه الفقهاء الذين اوحوا للناس ـ حتى ولو لم يكونوا فى حاجة الى ذلك ـ ان المرابطين هم املهم الوحيد بعد الله ، وهم المنقذ ين لهم من عسف وجور وظلم وتقاعس ملوكهم وامرائهم .(٣) وتحقق لديهم هذا الشعور ورسخ عندما طالب يوسف بن تاشفين الملوك بعد الموقعة برفع المكوس والضرائب عن كاهل السكان والتخفيف عنهم . فأشرأبت النفوس حبه هو وصحبه . ولم يعارض هذا الشعور الفياض بالمحبة والاعجاب والتقدير الا بعض المتزلفين والنفعيين من الادباء والشعراء والوزراء الذين خشوا على مكاسبهم من ان تتعرض للخطر . وعمّ الشعور بالاعجاب والثناء للمرابطين ويوسف ابن تاشفين بالذات بقية انحاء العالم الاسلامى ، حيث بلغت اصداء المعركة اسماع المسلمين فى المشرق . فاثنى عليه كثير من الفقهاء والادباء والمفكرين واعتبروه القائد الاسلامى الحكيم المثالى الذى تتمثل فيه معظم صفات الحاكم الاسلامى الحقيقى .(٤)

واخيرا فقد اسهمت هذه المعركة فى رفع شأن يوسف ابن تاشفين فى المغرب ذاته ، وساعدت على حل جميع مشكلاته الداخلية ، فاستكانت له القبائل الثائرة ، وخشى كثير من الحاقدين عليه ان يعرضوا به بعد ان احاطت به هالات المجد والفخار بوصفه علما من اعلام الجهاد .(٥)

(١) : حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٢٨٦ . ـ محمد عبد الله عنان : مواقف حاسمة ، ص ٢٨٥ ـ ٢٨٦ .

(٢) : احمد مختار العبادى : المرجع السابق ، ص ٣٣٤ .

(٣) : حسن محمود : نفس المرجع اعلاه . ، ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤ .

(٤) : نفس المرجع اعلاه ، ص ٢٨٤ .

(٥) : نفس المرجع ، ص ٢٨٥ .

قضاء يوسف ابن تاشفين على مملكة بنى عباد وعلى غيرها من ممالك الطوائف

الموقف السياسى بعد معركة الزلاقة :-

لم تكن معركة الزلاقة رغم الانتصار الباهر الذى حققه المسلمون فيها معركة حاسمة قاطعة ، فهى قد وضعت العلاج للمشكلة أو الداء ولكنها لم تستمر فى تقديمه أو بمعنى آخر هى قد عرفت الداء ولكنها لم تعالجه بكل الدواء ولذلك فقد جاء ذلك الانتصار ناقصا مبتورا ، حتى لقد بدا بعد بضعة شهور من انتصار الزلاقة وكأن الأمور قد عادت الى ما كانت عليه سابقا ، فلا أثر مادى لذلك الانتصار لا على الصعيد الاسلامى ولا على الصعيد النصرانى . فعلى الصعيد الاسلامى عادت الأمور لما كانت عليه سابقا من التفكك والانحلال والانصراف الى ما تمطل من حياة العبث والمجون . واتضح لكل ذى بصيرة أن الاندلسيين قد استمرأوا ذلك التفكك ونسوا فى غمار ذلك الاهتمام الاقليمى الضيق أو تناسوا بمعنى أوضح بأن وحدة الاندلس باتت شيئا من مخلفات الماضى غير ذات قيمة وتلاشت من أفكارهم أى فكرة أوطردوا منها بالأحرى أى فكرة تهدف الى الحفاظ على الوطن والحفاظ على وحدته ، بأى شكل من أشكال الوحدة أو الاتحاد - على الأقل فى تلك الظروف الحرجة التى اشتدت فيها الحملة النصرانية الشرسة - وبات الوطن فى نظر أولئك الملوك لا يتعدى تلك الرقعة الصغيرة التى يضعون أيديهم عليها ، وتلك التى سعوا الى توسيعها مع الزمن بشتى الطرق المشروعة وغير المشروعة . أما أن يتبادر الى أذهانهم أن العدو لا يفرق بينهم ولا يستثنى أحدا ، أما أن يفكروا بأنهم ليسوا قادرين على تحمل عبء القتال والدفاع عن وجودهم بتلك النظرة والسياسة الاقليمية الضيقة ، أما أن يتبادر الى أذهانهم بأن الوحدة ولا شيئ غيرها المنفذ الوحيد من الخطر الماثل ، أما كل هذا فقد نسوه أو تناسوه مدفوعين فى ذلك برغبات ذاتية آنية ضيقة ليست من الدين والقومية والوطنية فى شيئ اطلاقا[1] ، بل أننا افتقدنا ذلك الموقف الرسمى الموحد الذى ظهر على المسرح السياسى فى ابان

---

(١) : للاطلاع على مزيد من هذه المواقف المؤسية أنظر :

- على حبيبه مع المسلمين فى الاندلس ، ص ٢٣١ - ٢٤٠ ، وص ٢٥٢ - ٢٥٦ .

اشتداد حركة الاسترداد المسيحي في عهد فرديناند الأول — حتى وان كان ذلك الموقف لم يخرج عن حدود الاستنكار والشجب والتنديد — ولم نجد مثلا من يبادر الى عقد مؤتمر وطني تطرح فيه سلبيات وايجابيات ماحدث قبل وأثناء وبعد موقعة الزلاقة ، اذ كان حريا بهم عقد هذا المؤتمر لتدارس الأمر لاسيما وأن المرابطين قد أفسحوا المجال أمامهم لاتخاذ مايرونه من تدابير وبدائل عسكرية وسياسة أخرى . بل ان المرابطين أرهقوا أنفسهم بالاستعجال بالعودة الى المغرب تاركين بعض الحاميات لمساعدتهم وشد أزرهم . فعلوا ذلك لتطمين أولئك الملوك من أن تتبادر الى أذهانهم وساوس أو أي نيات سيئة تجيش بها صدور المغرضين (١) . وعندما انتهت المعركة أصر يوسف بن تاشفين على مغادرة الأندلس سراعا (٢) خوفا من أن يفسر تباطؤه في العودة بتفسيرات سيئة — وقد كان (٣) — والشيء الوحيد الذي أصر عليه يوسف بن تاشفين ومن منظار اسلامي بحت وليس من منظار فوقي استعلائي هو الرغبة في نبذ الخلافات والفرقة ونسيان الأحقاد والأضغان لاتناسيها فقط، وتوحيد الكلمة وجمع الصفوف (٤) . ولكن من يسمع ومن يعقل ؟؟ . حتى لو وجد المدرك لخطورة ذلك الموقف ولصدق وجهة نظر يوسف بن تاشفين وغيره من الداعين الى الوحدة والتجمع . حتى هذا خشي من ذلك المد أن يؤثر في مكاسبه وامتيازاته (٥) . نقول انه كان حريا بهم أن يتداعوا الى عقد مؤتمر وطني تطرح فيه سلبيات وايجابيات تلك الفترة ، ولكنهم لم يعوا الدرس أبدا . لأن ذلك كان في نظرهم يعد تفريطا في المكاسب والامتيازات رغم أن الكل خاسر . صحيح أن هذا التباين والتناقض

---

(١) : عبدالواحد المراكشي : المصدر السابق ، ص١٩٨ .

(٢) : انظر الحميري : المصدر السابق ، ص ٩٤ .

(٣) : انظر عبدالواحد المراكشي : المصدر السابق ، ص ١٩٤ وما بعدها .
وأنظر أيضا ، عبدالكريم التواتي : مأساة انهيار الوجود العربي بالاندلس بالأندلس ، ص ٢٩٩ — ٣٠٠ .

(٤) : عبدالله بن زيري : المصدر السابق ، ص١٠٦ .

(٥) : علي حبيبه : المرجع السابق ، ص ٣٣٨ .

فى المواقف والسياسة جاء وليد واقع اجتماعى مفكك الى طوائف واجناس واعراق وأديان مختلفة (١) . لكن المحنة الواحدة تسمو بالخلافات وتترفع عن الصغائر والاحن العرقية والطبقية والمذهبية . والمحن توحد القلوب والمواقف . وهذه خاصية من أبرز خصائص التاريخ البشرى عموما وهى عند العرب والمسلمين اظهر وأبرز .

نعم نحن لانظلم ملوك الطوائف، فقد اجتمعت كلمتهم لاول مرة فى معركة الزلاقة ،ولكن ما نؤاخذهم عليه هو عدم استغلال تلك الفرصة التى توحدوا فيها لاول مرة . فما ان انتهت الزلاقة حتى عادوا سيرتهم الاولى .

ولذا فأننا نعتبر نتائج انتصار الزلاقة المادية نتائج آنية فقط فيما يخص الاندلسيين بغض النظر عن الآراء التى تجعل فضل بقاء الوجود الاسلامى فى الاندلس أربعة قرون أخرى نتيجة رئيسية لمعركة الزلاقة (٢) . نقول بغض النظر عن هذا فالحقيقة ان رغبة المرابطين فى التدخل فى الاندلس رغبة واحتسابا ،واستدعاء الاندلسيين للمرابطين الذى جاء متوافقا مع تلك الرغبة يعتبر فى حد ذاته نتيجة لاشتداد حركة الاسترداد المسيحى والتى وافقت فى نفس الوقت تأجج روح الجهاد لدى المرابطين منذ قيام دولتهم. وليس نتيجة فورية لمعركة الزلاقة . ولا نتصور بأنه لو لم ينتصر المسلمون فى معركة الزلاقة لكان المرابطون قد انسحبوا مؤثرين السلامة وتركوا الاندلس لمصيرها المظلم . لا نتصور أن هذا كان سيحدث . فالمرابطون كان يحركهم فى تدخلهم فى الاندلس هدف وروح جهادية عازمة لايعطل سيرها ولا يوقف امتدادها الهزيمة فى معركة أو فى معركتين . اننا نعتقد أن الهزيمة لو وقعت سوف لن تثنيهم عن هدفهم الاستراتيجى القاضى الى ابقاء الوجود الاسلامى فى الاندلس . وبالتالى حماية الجناح الشمالى للدولة المرابطية من خطر النصارى (٣) . ولا سيما وقد رأينا الفونسو السادس يصل بقواته حتى جزيرة طريف على الساحل الاندلسى المقابلة للساحل المغربى ويبعث من هناك برسالة ليوسف ابن تاشفين يهدده فيها ويتوعد . أننا نعتقد ان المرابطين كانو مستعدين من أجل ذلك الى خوض معركة او عدة معارك لاتهمهم نتيجتها بقدر مايهمهم الوصول اخيرا الى تحقيق الهدف الاستراتيجى الذى اتضح لهم وقتها .

---

(١) : انظر قبل التمهيد ،ص ٤٣-٥٠ .

(٢) : من الذين تبنوا هذا الرأى كثير نذكر منهم على سبيل المثال :
- محمد عبد الله عنان : مواقف حاسمة ،ص ٢٩٠ -٢٩٢ . - عبد الكريم التواتى : مأساة انهيار الوجود العربى بالاندلس ،ص ٢٩٨ .

(٣) : محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والاندلس ص ٢٥ - ٣٠ .

اما لماذا لم يجعل المرابطون من موقعة الزلاقة موقعة حاسمة؟؟ ، وهم القادرون لو شاءوا ـ فان الامر يقتضى ان نشير الى انهم ربما قد فكروا بادى ذى بدء ان يتركوا قضية الوطن الجريح لملوك الطوائف ، لعلهم يكونوا قد تعلموا من الدرس القاسى الذى مرّ بهم . لا ندعى ان هذه هى سياسة المرابطين فى تلك الفترة . ولكننا نخمّن ان يوسف بن تاشفين فضل ان يكون منقذا وقت الشدة فقط أو بمعنى آخر ، يجوز ان المرابطين آثروا ان تكون المواجهة بين ملوك الطوائف الذين سيتحملون بالضرورة مسؤولياتهم وبين النصارى باعتبارهم أى ملوك الطوائف هم أصحاب الارض والحق . ويكونون هم ورائهم يمدّونهم بالتأييد السياسى والعسكرى والبشرى أيضا . ذلك لانه حتى تلك اللحظة لم يدر فى خلد المرابطين ان ملوك الطوائف سيتقاعسون عن انقاذ الوطن ، كما لم يدر بخلدهم ان يبادر أولئك الملوك الى خيانة قضيتهم الاولى وطعنها وطعن حلفائهم المرابطين فى الظهر بطلب المعونة من النصارى.(١)
لذا فاننا قد نخمّن بان المرابطين شاءوا ان يكونوا ردفاء للاندلسيين لا نوابا عنهم فى مقاتلة النصارى . ويبدو لنا ان هذا الهدف كان استراتيجيا فى تفكير المرابطين ثم جاءت بعد ذلك عوامل أخرى ، وجدّت ظروف أخرى جعلت المرابطين يتوقفون عند ذلك الحد من الانتصار الذى حققوه فى موقعة الزلاقة . من تلك العوامل أن المرابطين كانوا حريصين على تنفيذ الاتفاق الذى بموجبه جازوا الى الاندلس وهى الشروط المحددة التى اشترطها ملوك الطوائف للسماح للمرابطين بالجواز الى الاندلس والتى اشرنا اليها سابقا(٢) . والشىء الآخر انه لا يمكن ان يثق يوسف بن تاشفين ثقة عمياء بملوك الطوائف وهو الذى يعلم علما اكيدا بأنهم لولا الحاجة الاضطرارية الفائقة له لما طلبوا منه المساعدة . وصحيح أننا قلنا انه فى أبان معركة الزلاقة كانت نيات ملوك الطوائف صادقة مخلصة لله ، ثم لعباده . ولكن من يستطيع ان يضمن ليوسف بن تاشفين ان ذلك الموقف الموحد الذى اضطروا اليها اضطرارا سوف يستمر ويمتد اجله ؟؟
أما الشىء الثالث الذى يجب ان لا يغيب عن بالنا من تلك العوامل فهو ان المرابطين لهم التزاماتهم ذات الاولوية تجاه مملكتهم فى المغرب وهى التزامات مهمة جدا لا يمكن ان تنسيهم اياها التزاماتهم الجديدة فى الاندلس . بل انه قد حدثت دواعى واعتبارات مغربية فى تلك الفترة بالذات اى بعيد موقعة الزلاقة . ، فرضت على يوسف ان يعود

---

(١) : انظر بعد ، ص ٣١٨-٣١٩.
(٢) : عبد الله بن زيرى : المصدر السابق ، ص ١٠٣ . ـ ابن الابار : المصدر السابق والجزء ، ص ٩٨ ـ ٩٩ . ـ عبد الواحد المراكشى : المصدر السابق ص ١٩٨ .

سريعا الى بلاده • هذه الدواعي والاعتبارات هي وفاة ابن عمه ابوبكر بن عمر أمير المرابطين السابق على الارجح[1] • فاضطر الى القفول مباشرة الى المغرب ليأخذ البيعة لنفسه تحسبا لأي حادث يبادر فيه بعض أمراء المرابطين لاغتصاب الامارة مستغلا غيبة يوسف بن تاشفين وانشغاله بحركة الجهاد[2] • ونعتقد جازمين بأنه ليس في هذا الموقف ما يسبب الخجل ليوسف بن تاشفين أو يقدح في موقفه اطلاقا سواء أكان ذلك لتركه ساحة المعركة ، أو لاسراعه الى المغرب •

ويؤسف المرء ان يجد لدى بعض المؤرخين القدامى مواقف تشكيكية استخلصوها من تباين وجهات نظر كل من يوسف بن تاشفين والمعتمد بعد معركة الزلاقة ، فالحميري يقول في معرض وصفه لمعركة الزلاقة : (ولما انحاز الطاغية بشرذمته جعل ابن عباد يحرص على اتباع الطاغية وقطع دابره ، فأتى ابن تاشفين واعتذر بأن قال : لو اتبعناه اليوم لقي في طريقه اصحابنا المنهزمين راجعين الينا منصرفين ، فيهلكهم بل نصبر بقية يومنا حتى يوجع الينا اصحابنا ويحتموا بنا ثم نرجع اليه فنحسم داءه • وابن عباد يرغب في استعجال اهلاكه ويقول ان فر أمامنا لقيه اصحابنا المنهزمون فلا يعجزون عنه • ويوسف مصر على الامتناع من ذلك ، ولما جاء الليل تسلل ابن فرذلند وهو لا يلوى على شيء وأصحابه يتساقطون في الطريق واحدا بعد واحد من أثر جراحهم فلم يدخل طليطلة الا في دون المائة • وتكلم الناس في اختلاف ابن عباد وابن تاشفين ، فقال شيع ابن عباد : لم يخف

---

(١) : نخلط للاسف بعض من المؤرخين القدامى في تفسير استعجال يوسف بن تاشفين للذهاب للمغرب بعد أن بلغته اخبار وفاة ابن عمه ابي بكر بن عمر • فأكثر الروايات القديمة وتبعهم بعض المحدثين تقول انه رجع الى بلاده عندما بلغه خبر وفاة ابنه ابو بكر ، فيما يقول البعض الاخر ان السبب في رجوعه هو استياءه من الاحوال التي رأى عليها ملوك وامراء الطوائف • ولكن كل من هذين التفسيرين لا يبدو مقنعا • ولكن التفسير الصحيح لذلك هو وفاة ابن عمه ابي بكر ابن عمر عام ٤٨٠ هـ ، كما اشار الى ذلك حسن محمود ، واحمد مختار العبادي في تحقيقه لكتاب الاكتفاء •

أنظر : حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٢٨٦ ـ ٢٨٨ • ـ ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ح ٨ ، ص ٩٥ •

(٢) : حسن محمود : نفس المرجع ، ص ٢٨٧ •

على يوسف ان ابن عباد اصاب وجه الصواب والرأى فى معاجلته ،ولكن خاف أن يهلك العدو الذى من اجله استدعاه ،فيقع الاستغناء عنه ،وقالت شيع يوسف : انما أراد ابن عباد قطع حبال يوسف من العودة الى جزيرة الاندلس) (١) • ويبدو ان هذا القول غير مقنع ولا موضوعى ايضا ، فحتى تلك اللحظة لم تجد بوادر سوء تفاهم أو خلاف بين المعتمد ويوسف • بل ان يوسف أشاد فى رسالته التى بعثها للمعز بن باديس المشار اليها سابقا ،يشيد بالمعتمد ويثنى عليه ويشكره على كرمه الفائق وموقفه الوطنى هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى هل كان المعتمد بتلك السذاجة التى يعتقدها البعض من أن تتبع الفونسو وقتله ـ ان حدث ـ هل كان سيقضى على حركة الاسترداد التى دشنها النصارى من عهد فرديناند الاول منهاجا ودستور حياة ؟؟ • قد يقتل الفونسو ، وقد يؤثر ذلك على حركة الاسترداد نفسها • ولكن لن تقف حركة الاسترداد أبدا ،فهناك عدة ممالك نصرانية عدا قشتالة وليون وجليقية تتحرق شوقا الى شن حملات الاسترداد كمملكة نبرة وأرغونة وبرشلونه • كما ان الطابع الصليبى الذى اتخذته موقعة الزلاقة سوف يذكى تلك الحركة ويؤججها (٢) ، وسوف تدفع هذه العوامل خلفاء الفونسو نحو مواصلة سياسته تلك • لانجد تفسيرا واقعيا لرغبة المعتمد فى المتابعة سوى الرغبة الجامحة فى استغلال تلك الوحدة التى تحققت فى الاجهاز على العدو لانهاكه على الاقل أو لتعطيل حركة الاسترداد الى أمد يستطيع فيه المسلمون أن يحققوا شأوا بعيدا ،أما اذا نظرنا الى المسألة من ناحية اصرار يوسف على عدم المتابعة ،فاننا نرى ان ذلك التفسير الذى استخلصه المؤرخون تبسيطا ساذجا للأمور، وتحليلا سطحيا خاليا من الموضوعية والمنطق • فيوسف لديه أكثر من سبب وسبب لعدم المتابعة • هى التى ذكرناها سابقا ، فضلا عما عرف عن يوسف دائما من التحوط والحذر • فهل كان يسمح فى لحظة فرح عاطفى متأجج بتحمل مغبة التورط فى لقاء آخر مع النصارى وداخل اراضيهم هذه المره ؟؟ •

وعلى أية حال فقد انصرف يوسف الى المغرب مشيعا من قبل المعتمد وغيره من ملوك الطوائف بالاحترام والثناء (٣) • وطلب من ملوك الطوائف أو طلبوا منه هم ذلك ـ لا فرق ـ ان تظل بعض القوات المرابطية فى الاندلس للمساعدة على رد عاديات

---

(١) : انظر ،الروض المعطار ،ص ٩٣ ـ ٩٤ •

(٢) : حسن محمود : المرجع السابق ، ص٢٨٦ •

(٣) : الحميرى : المصدر السابق ،ص ٩٤ •

النصارى . وارهابهم فى نفس الوقت . لا لشئ آخر رغم ماتذهب اليه استنتاجات عبد الواحد المراكشى (١) .

ترى لو لم يضع يوسف تلك الاعتبارات فى مخيلته ، ولو لم تأت الاخبار من المغرب التى أزعجته الى هناك بسرعة ، هل كان يكتب بعد المشيئة الألهية لموقعة الزلاقة ان تكون حاسمة ؟؟ . نعم قد نخمن هذا ، ولكن جاءت تلك الظروف وأملت عليه تلك الاعتبارات ان يكتفى بذلك القدر من الانتصار ، فجاء نصر الزلاقة ناقصا ومبتورا .

الموقف العسكرى بعد معركة الزلاقة :-

قلنا ان الامور عادت الى ماكانت عليه قبل موقعة الزلاقة ، وانصرف كل أمير الى الاهتمام بقضاياه الاقليمية فقط ، وانعكس انسحاب المرابطين على الموقف العسكرى المسيحى ، فالفونسو الذى كان قد خاطب امراء النصارى والقوى النصرانية فى أوربا يناشدهم المساعدة الفورية عقب هزيمته فى معركة الزلاقة ، فقدم عليه من فرنسا كل من دوق برجنديا ولانجدوك وبعض فرسان مقاطعة نورماندى . رأى بعد انسحاب المرابطين ان يصرفهم الى بلادهم اذ ليس ثمة مايدعو الى وجودهم بعد هذا . ولكن هؤلاء فضلوا القيام باستعراض للقوى النصرانية الصليبيه . فارتدوا الى انحاء نهر الابرو شمالا وتوقفوا عنده (٢) وساعدوا من هناك سانشو راميرز ملك ارغونه فى حربه مع ابن هود ملك سرقسطه . وتعرضت مدن بمملكة بنى هود كتطيلة ، ووشقة ، وطرطوشة الى عيث هؤلاء وتخريبهم (٣) . وانصرف الفونسو الى تركيز هجماته وطلعاته العسكرية المتعددة ، فهاجم اراضى المسلمين حتى وصل الى اشبيلية فعاث فى اراضيها . وظهر فى الافق خطر نصرانى ماحق جاء هذه المرة من حصن لييط الذى كنا قد اشرنا اليه سابقا فقد بنى الفونسو هذا الحصن عقب استيلائه على طليطلة فى منطقة تقع بين مرسية ولورقه على رأس جبل شاهق ، وشحن وزود بالسلاح والعتاد

---

(١) : انظر المعجب ، ص ١٩٩ - ٢٠١ .

(٢) : انظر حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٢٨٨ - ٢٩٠ . - محمد عبد الله عنان : مواقف حاسمة ، ص ٢٩٠ - ٢٩١ .

(٣) : ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ص ٩٩ . - حسن محمود نفس المرجع ، ص ٢٩٠ .

وأسند الفونسو قيادته الى احد فرسانه النبلاء وهو الكونت غرسيه خيمنيس (١)، واتخذ الفونسو من هذا الحصن قاعدة للهجوم على اراضى المسلمين فى مرسية ولورقة وعموم شرقى الاندلس (٢)، وكان فى الواقع شوكة فى حلق المسلمين تخرج منه الغزوات الخاطفة مرة ناحية الشرق ، ومرة أخرى ناحية الغرب تعيث وتفسد (٣)، وتعرض شرق الاندلس ومدنه مرسية وشاطبة ودانية وغيرها من مدن الشرق الى خطر صليبى حقيقى كان يشنه ويغذيه القائد القشتالى المشهور القمبيطور أو الكنبيطور أو القنبيطور (٤) الذى كان قد انشق على سيده الفونسو السادس من قبل ، وبدأ يعرض خدماته على ملوك المسلمين وخاصة ملوك سرقسطة يحارب أعداءهم من المسلمين والنصارى على السواء . وعندما سحب الفونسو جيشه وقائده البرهانس المذكور سابقا من بلنسية للاستعداد لمعركة الزلاقة ، عرض القمبيطور خدماته على القادر ابن ذى النون صاحبها الذى ملكه اياها الفونسو كما ذكرنا سابقا .

والواقع انه لا يمكن أن يمر بنا ذكر القمبيطور أو السيد كما كان يطلق عليه دون أن نلم بنبذة قصيرة عن هذا الرجل الذى أفردت له كتب التاريخ والادب والملاحم الاسبانية مكانا قلما حظى به مواطن اسبانى حتى الآن . فقد قيل الكثير الكثير حول هذا الرجل ، وحول سيرته وخاصة بعد ما تحول الى بطل اسطورى قومى عند الاسبان ، رغم أن البحث العلمى الحديث قد أثبت انه لم يكن يوما من الايام بالفارس النبيل ، وبالوطنى المجيد ، بل ثبت انه كان أفاقا متجولا فى الاندلس يقدم خدماته لمن يدفع له أكثر .

الاسم الحقيقى للقمبيطور أو السيد هو رودريجو دياز دى بيبار Rodrigo Diaz de Vivar . وكان أبوه فصلا (٥) تابعا للملك فردناند الأول

---

(١) : غرسيه خيمنيس : GARCIA GIMENEZ ، أحد قواد الملك الفونسو السادس وهو الذى احتل قلعة لييط من قبله . ومن هناك اخذ يشن الغارات على المدينة ونواحيها .
انظر : ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٠٠ .

(٢) : محمد عبدالله عنان : دول الطوائف ، ص ٣٣٤ .

(٣) : محمد عبدالله عنان : نفس المرجع والصفحات .

(٤) : ابن الكردبوس : نفس المصدر السابق ، ص ٩٢ . — مجهول : الحلل الموشية ، ص ٥٤ — ٥٥ .

(٥) : نشأ نظام الافصال كنتيجة مباشرة لنشوء نظام الاقطاع فى أوربا فى القرن —

وقد ولد فى عام ٤٣٦هـ / ١٠٤٥م ، ودخل هو ابنه فى خدمة البيت المالك ، والتحق الابن خاصة بسانشو الابن الاكبر لفرديناند وأصبح تابعا له ، ثم رسمه هذا فارسا عام ٤٥٥هـ / ١٠٦٣م . وقد خاض رودريجو معاركه ضد شقيقيه غارسيا وراميرو ملكى نبرة وأرغونة ، ثم حارب فى معية الجيش القشتالى الذى استنجد به المقتدر بن هود ملك سرقسطة ضد اعتداءات ، راميرو الاول ملك أرغونة الذى قتل فى تلك المعركة . وعندما توفى فرديناند وقسمت مملكته بين ابنائه الثلاثة سانشو والفونسو وغارسيا ، وكذلك بين ابنتيه أوراكا والبيره كما قلنا سابقا قام نزاع بين الاخوة ، واستطاع سانشو ان يستولى على مملكتى أخويه الفونسو وغارسيا . ولعب رودريجو دورا رئيسيا فى المعركة التى انتصر فيها سانشو على اخيه الفونسو . وكان هذا اول نفور بين الرجلين . وقد كافأ سانشو ردريق بأن عينه القائد العام للجيش ، فعلا صيته وتنامى مجده . ومن ذلك الحين اخذ لقب القمبيطور ــ الكمبيطور (الكمبيادور) يلصق به . وقد قيل الكثير حول معنى هذا اللقب ، وكان يعتقد انه يعنى الفارس البطل ، ولكن التفسير

=======ـ فى القرن الثامن الميلادى . وقد جاء نظام الاقطاع كحتمية ضرورية عسكرية وسياسية نشأت فى دولة الفرنجة عندما تعرضت فى ذلك الوقت لغارات الفيكنج والمسلمين والمجريين . ولذلك وجد الفرد العادى فى ظل تلك الاوضاع الامنية المتدهورة نفسه امام خيارين لتأمين السلامة لذاته : اما أن يكون عبد قن تكون حمايته من واجبات السيد ، او ان يصبح جنديا لدى الملوك والامراء الذين ازدادت حاجتهم الى الاتباع المسلحين آنذاك لدرجة ملحة شديدة . ونظام الافصال يعنى بابسط التفسيرات ان يسلم مالك الارض ذات المساحة المحدودة ارضه لسيد او نبيل قوى ، ثم يعود فيتسلمها منه كأقطاع ، وبذلك يصبح فصلا او تابعا اقطاعيا له . او هو بمعنى آخر تعاقد بين السيد او النبيل ومالك الارض ذات المساحة المحدودة يقوم على اساس من الحقوق والواجبات المتبادلة .

اما حقوق السادة على اتباعهم (افصالهم) فهى حقوق مالية واجتماعية وحربية ، ملزمة تجب عليهم تأديتها والوفاء بها فى حدود مايقضى به العرف الاقطاعى . اما اهم الحقوق والالتزامات التى القاها النظام الاقطاعى على السيد فهى حماية افصاله ورعايته وتحقيق العدالة لهم .

ويجب ان نلاحظ اخيرا ان نظام الافصال يتخذ شكلا هرميا يأتى الملك فى قمته والفارس العادى فى اسفله .

انظر : سعيد عاشور : اوربا فى العصور الوسطى ، ج ٢ ، ص ٢٥٥ ــ ٢٦٨ .

الصحيح الذى استقرت عليه معظم الآراء للمستشرقين المهتمين بالدراسات الاسبانية تقول ان معناه القائد صاحب الغارات فى السهول والفحوص (١). وعندما قتل سانشو تحت اسوار سمورة قلعة اخته اوراكا ، استدعى اشراف قشتالة وليون شقيقه الفونسو من بلاط المأمون ليلى العرش مكانه كما ذكرنا آنفا . ويحكى هنا الكثير عن بداية النفور والكراهية بين الرجلين ، فرد ريق باعتباره القائد العام للجيش وابرز كونتات الدولة ورجالاتها هو الذى استبعد بحكم العرف الفونسو ليتولى عرش اخيه . وقد أرتأى رد ريق هو والاشراف الاخرين ان يحلف الفونسو قسما يعلن فيه براءته من مقتل اخيه . وتولى رد ريق نفسه مهمة تلاوة القسم ، وكان هذا مما اوغر صدر الفونسو عليه . ولذا فما كاد يستقر فى عرشه عام ٤٦٢هـ / ١٠٧٢م حتى عزل رد ريق عن قيادة الجيش ، وولى مكانه احد الفرسان الاخرين المناوئين له وهو غرسيه اوردنيث (٢) . ولكنه مع هذا لم يصرفه عن خدمته ، بل ظل تابعا له ثم زوجه من احدى فتيات الاسرة الحاكمة وهى قريبة الفونسو وتدعى خمينا او شمينا Jimena . وعندما بدأ الفونسو يطالب مملكة اشبيلية بالجزية باعتباره وارث حق اخيه غرسيا (الذى قبض عليه) فى أخذ الجزية من ملوك بنى عباد بعث برسل من جملتهم رود ريجو (أورذريق) لأخذ الجزية فبقوا هناك . وعندما ساءت العلاقات بين مملكتى اشبيلية وغرناطة على النحو الذى رأيناه سابقا تطلع عبد الله بن زيرى ملك غرناطه الى طلب مساعدة الفونسو وبعث له بجملة رسل من بينهم قائد الجيش العام غرسيه اوردنيث عدو السيد ومنافسه . وحدث ان تلاقت كتائب اشبيلية وغرناطية فى تلك الفترة فخرج كلا من رد ريق وغرسيه لمساندة حليفى الفونسو : المعتمد وعبد الله بن زيرى . وتلاقى الخصمان وجها لوجه لحساب المسلمين ، وانتصر فى هذا اللقاء رد ريق على خصمه غرسيه فقبض عليه ، ولكنه اطلق سراحه فيما بعد . وقد ذهب القائد العام للجيش القشتالى الليونى غرسيه اوردنيث الى مليكه الفونسو وشكيا له ماحدث فاغضبه ذلك . ويبدو ان مهمة رد ريق (رد ريجو) لم تكن محدودة بزمن معين ، فقد مكث فى اشبيلية لدى المعتمد فترة ، ثم عاد عام ٤٧٣هـ / ١٠٨٠م الى عاصمة مليكه ، فاغلظ عليه الفونسو وانبّه لما فعل . على انه لم يمض بعد ذلك وقت قصير حتى ضاق الفونسو من تابعه للاخطاء التى كان يرتكبها ، فطرده ونفاه عن مملكته وكان نظام الانفصال يحفظ للتابع المنفى حقوقه التى كانت له كاملة

---

(١) : عن الفحص انظر قبل ، ص ع ١ ، ص ٣٥ ، ٢

(٢) : غرسيه اوردنيث Garcia Ordoñez او غارسيا ردونس قائد قشتالى من فرسان سانجه (الثانى) ملك ليون ، ثم اصبح من اتباع الفونسو السادس ملك قشتاله ، وهو الذى يسمى فى المصادر العربية (غرسيه ذا الفم المنبوز او الفم المعوج) .
انظر : ابن القطان : المصدر السابق ، ح ١ ، ص ٧

وخرج رد ريق من قشتالة ، واتجه نحو مملكة سرقسطة . وهناك تدخل فى نـــزاع الاخوة من ابناء سليمان المستعين ثم بين احفادهم . وبدأت من تلك الفترة اسطورة السيد الكمبيـادور بطل الملاحم والاساطير .

وكانت احوال ممالك الطوائف وقتها تبعث على الاسى والحزن فقد خـــل رد ريق ليعمل لحساب هذا مرة ولحساب ذاك مرة اخرى ،وحارب فى احايين اخـــرى بنى قومه النصارى امراء نبرة وارغونـــة وبرشلونة . وغدا فى ذلك الوقت رجل شرقـــى الاندلس القوى يعيث هنا وهناك ،ويعرض خدماته لمن يدفع له اكثر ،واصبح حرا طليقا بعد انفصاله عن سيده الفونسو ليعمل ما يريد . واضطر حكام منطقة شرقى الاندلـــس الى مداراته ومهادنته فى احايين كثيرة .

وعـندما اعلن ابو بكر بن عـبد العزيز حاكم بلنسية الفعلى استقلالـه الكامل عـن طليطلة فى اعقاب وفاة المأمون بن ذى النون تطلع امراء سرقسطة الـــى ضمها الى مملكتهم . وأوحوا الى قائدهم المرتزق رد ريق بذلك ، فبدأ يعد العدة لهذا . غير ان الامور تطورت فى وسط الاندلس عن احداث خطيرة اسفرت عن سقـوط طليطلة وخروج يحى القادر حفيد المأمون بن ذى النون كما ذكرنا (١) سابقا . ثم رأينا الفونسو يرضى القادر بتسهيل احتلاله لبلنسية التى اسلمت له قيادها بالفعل ، ثم رأينا رد فعل سقوط طليطلة وهو استدعاء المرابطين ،وما أدى الى حشد الحشـــود ، فاضطر الفونسو ان يستدعى قائده البرهانس لمشاركته الحرب ضد المسلمين . وهنا يعلن رود ريجو عـن خطته المفاجئة التى استغل فيها ذلك الظرف القيـق ، فاتفق مع المستعين ابن هود ملك سرقسطة على ان يهاجم بلنسية فى ذلك الوقت الذى كان فيه الفريقـان : المسلم والنصرانى يستعدان لخوض معركتهما الفاصلة . وجرى الاتفاق ايضا انـــه اذا استولى رود ريجو (القمبيطور) على المدينة تكون الغنائم له ،والمدينة ذاتهـا تكون من نصيب ابن هود . وعـندما اسفرت معركة الزلاقة عن انتصار المسلـمين تيقظ الحس الوطنى عـند رود ريجو (السيد) وهو اللقب الذى اطلقه عليه المسلمون عـندما كان فى سرقسطة . فـبادر الى سيده القديم فصالحه عام ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م . وقد عهد اليه الفونسو لخبرته الطويلة بمشاكسة منطقة شرقى الاندلس ،وهى الاحداث التى عرضنا لها من قبل . ومن هنا فقد اخذت اعماله تستمد الطابع الشرعـــى

---

(١) : انظر قبل ، ص ٢٥١ وما بعدها

فى نظر النصارى بطبيعة الحال . ولكن روح المغامرة والانتهازية جعلته سرعان ما يتنكر لمليكه ، فيعود ليعمل لحسابه الخاص . اذ مضى يعاود اعماله العدوانية فى اراضى المسلمين وشرقى الاندلس كلها ، ولم يكتف بهذا بل هاجم الممالك النصرانية ايضا كمملكة برشلونة ، وشدد ضغطه على امارة بنى رزين ، والبونت ، ومربيطر وغيرها من الحصون ، كما شدد من تضييقه على اهل بلنسية وارهاقهم بطلب الاتاوة والهدايا والتحف . ووافقت هذه الاحداث الفترة التى افاق منها الفونسو بعد معركة الزلاقة ، وبعد انسحاب المرابطين الى المغرب . فبدأ يستفيق من هول الفاجعة ، وتنامى الى سمعه ما يحدث فى شرقى الاندلس فرغب ان يسبق رودريجو اليها ، واستعان لهذا الغرض بقوات بحرية من جنوة وبيزا . ولكن رودريجو هاجم اراضى مملكة سيده اى قشتالة نفسها ، فأضطر الفونسو الى العودة لبلاده .

وهكذا فقد غدا السيد القمبيطور يعمل لحسابه الخاص بعيدا عن مضايقات سيده الفونسو ، وبعيدا عن بنى هود الذين دهمتهم بعد موقعة الزلاقة القوات الفرنجية التى حشدها الفونسو فى اعقاب المعركة كما ذكرنا سابقا (١) ، والتى كانت قد توقفت عند سرقسطة بعد ان صرفها الفونسو الى بلادها .

كل هذه الامور كانت تحدث والقادر الضعيف يترامى على اعتاب السيد القمبيطور الذى غدا بعد انشغال الفونسو حاميه الوحيد . وكان السيد القمبيطور يشتط فى طلب الجزية ، فقد طلب من القادر فى ذلك الوقت ان يعطيه مائة الف مثقال من الذهب كضريبة سنوية ، مما جعل الاهالى يضيقون بتلك الاوضاع الصعبة والحرجة حتى تدخل المرابطون تدخلهم الثانى فى شؤون الاندلس ، وهو التدخل الذى آثرنا التحدث عنه بعد ان نلم بحياة السيد القمبيطور ، واعماله التى افضت هى واعمال الفونسو العدوانية الى التدخل المرابطى الذى سنتحدث عنه على التو (٢) .

---

(١) : انظر قبل ، ص ٣٠٢ .
(٢) : هذا العرض عن السيد ونشاطه الذى بدأ فى قشتالة ووصل الى اكثر اجزاء الاندلس ، استخلصناه من الكتب والدوريات العربية والمعربة التى تحدثت عن السيد وحياته . ولعل اهم ما يمكن الاشارة اليه من مراجع مهمة فى حياة السيد :
— ليفى بروفنسال : الاسلام فى المغرب والاندلس ، الفصل السادس ص ١٦٦ — ١٩٧ ، والفصل السابع ص ٢٠٠ — ٢٣٦ . — حسين مؤنس : السيد القمبيطور ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثالث ، العدد الاول ، مايو ١٩٥٠م ، ص ٣٧ — ٨٧ . — شكيب ارسلان : الحلل السندسية ، ج ٢ ٢٣٥ — ٢٣٦ مع الحواشى ، ج ٣ ، ص ٥٠ — ٧٢ مع الحواشى .

الجواز الثاني للمرابطين الى الاندلس وبداية الوحشة والنفور بين يوسف بن تاشفين وملوك الطوائف :

رسمنا في حديثنا عن الموقف العسكري بعد معركة الزلاقة ملامح عدة عن الحالة الضنكة التي عانى منها المسلمون في شرق الاندلس بعد الموقعة مباشرة ، ورأينا كيف أنه تعرض لعدوان نصراني صليبي مباشر من الفونسو ، ومن حامية حصن ليبط ، ومن السيد القمبيطور واذا كان غرب الاندلس قد ارتاح وقتها من غزوات النصارى واعتداءاتهم بفضل وجود الحامية المرابطية التي تركها يوسف بقيادة ابن عمه الامير سير بن أبي بكر لتساعد الاندلسيين في حروبهم مع النصارى هناك[1] ، فان شرق الاندلس بالذات كان يعاني من ضغط النصارى وهجومهم المركز . ولقد كانت صورة الوضع في شرق الاندلس تبدو آنذاك قاتمة حالكة ، فالتفتت الاسلامي هنا أوضح وأوكد . اذ كان شرق الاندلس بالذات يموج بعدة امارات صغيرة ، كشاطبة ، وشقورة ولورقة ، وطرطوشة ، وغير ذلك . وهي امارات ضعيفة تعجز امكاناتها المادية والعسكرية من ان تقاوم ممالك الطوائف الكبرى المجاورة فضلا عن النصارى . وكانت هناك ايضا مملكة بلنسية صاحبة الحظ العاثر وقتها والتي كتب لها ان تكون هدفا لمطامع وتطلعات الطامحين في خيراتها من المسلمين والنصارى على السواء فلقد كانت بلنسية أشهى أماني المستعين بن هود ، وهو من أجل الاستيلاء عليها لا يرى مانعا من الاستعانة حتى بالشيطان نفسه المتمثل بالسيد القمبيطور[2] . وهي في نفس الوقت هدفا للسيد القمبيطور نفسه الذي نصّب ذاته حاميا وحيدا لها بعد أن سحب الفونسو حاميته عنها عندما اقتضته دواعي الاستعداد لمعركة الزلاقة ان يفعل ذلك مضطرا . فرضي صاحبها القادر او لنقل ارغم على ان يكون السيد القمبيطور حاميه وحاميها معا .

وبالاضافة الى هذه الاوضاع الدقيقة الحرجة فقد كان هناك النزاع بين المعتمد ابن عباد وابن رشيق حاكم مرسية . وهو نزاع طويل وضع له يوسف ابن تاشفين اخيرا حدا جاء لصالح المعتمد . ولمعرفة شيء عن هذا النزاع يحسن بنا ان نعود قليلا الى الوراء عند حديثنا عن تمرد الوزير محمد ابن عمار على

---

(١) : انظر قبل ، ص ٣٠٠ .

(٢) : انظر قبل ، ص ٣٠٥ .

على مليكه المعتمد ، اذ رأينا وقتها ان ابن رشيق الذى ساعد الوزير بن عمار على احتلال مدينة مرسية قد استغل فرصة غياب محمد بن عمار عن حماية المدينة للأسباب التى ذكرناها سابقا . واستغل ايضا من قبل تقاعس ابن عمار عن حماية استقلاله بالمدينة وافتقاره الى مواصفات رجل الدولة أو مواصفات القيادة . استغل ابن رشيق هذا وأعلن استقلاله بالمدينة لحسابه الشخصى (١) ولقد ساءت العلاقات بين المعتمد وابن رشيق ، فالمعتمد كان يشعر وهو على حق أن المدينة فتحت باسمه وبجيشه ، وهى لذلك تعتبر حقا من حقوقه أو جزءا من مملكته . وابن رشيق يرى غير ذلك ويرى نفسه أنه أحق من المعتمد بالمدينة . وما الذى يميز غيره من المنتزين والمتسلطين عنه ؟ ؟ . لاشيئ فى رأيه اللهم الا التفاوت الزمنى . ولذا فقد استقل بالمدينة وأعلن للملأ ان أهلها قد اختاروه حاكما لها ، بل انه أعلن ان المعتمد لم يقدمه على مرسية وانما الذى قدمه عليها هو ابن عمار (٢) وبه هى أن تسود حالة من الفتور والنفور علاقة المعتمد بابن رشيق . وجاء ضغط الاحداث وما أفضى اليه من سقوط طليطلة ، فتدخل المرابطين ، فموقعة الزلاقة ليصرف نظر المعتمد عن حسم خلافه مع ابن رشيق .

ولقد أضرت هجمات النصارى سواء أكانت تلك التى يشنها الفونسو أم السيد القمبيطور أم حامية ليبط بالاهالى فى شرقى الاندلس ، وتعرضت أراضيهم وممتلكاتهم للنهب والسلب والتخريب والفساد ، وجأروا بالشكوى دونما مجيب أو سميع . فقر رأيهم أن يجتازوا البحر نحو يوسف بن تاشفين يشكون له ما حصل ببلادهم من عدوان النصارى ، ويستصرخون شهامته ودينه ومروءته . فأصغى اليهم ووعدهم خيرا ، وصرفهم الى بلادهم وكان ذلك فى عام ٤٨١هـ/١٠٨٩م (٣) ولقد ألقت هذه الاحداث الخطيرة تبعات كثيرة على المعتمد باعتبار مملكته اقوى الممالك ، وباعتباره أقوى ملوك الاندلس قاطبة وباعتباره المعنى أكثر من غيره بهجوم النصارى واعتداءاتهم المتكررة ، خاصة وأن اعتداءاتهم قد وصلت الى امارة المرية المجاورة التى تعرضت لهجوم القائد القشتالى غارسيا خيمنس ، وفى نفس الوقت تعرضت مرسية لاعتداءات القائد النصرانى

---

(١) : انظر قبل ، الباب الثالث ، ص ٢٢٨ .

(٢) : عبدالله بن زيرى : المصدر السابق ، ص ٨١ .

(٣) : مجهول : الحلل الموشية ، ص ٥٤ .

الآخر البرهانس • وتعرضت مدينة لورقة التابعة اسميا للمعتمد لاعتداءات بقية قواد الفونسو (١). فرأى المعتمد ان العبء قد ألقى عليه وحده أكثر من أى ملك آخر فعمل على اتخاذ اجراء سريع فجهز جيشا بقيادة ابنه المعتمد بعد ان تقاعس ابنه الآخر الراضى عن اداء المهمة مما أدى الى ان يعتب عليه والده ويتندر به كثيرا كما رأينا سابقا (٢) ولكن هذا الجيش هزم عند لقائه بالقوات القشتالية وعاد ادراجه نحو اشبيلية (٣) • وحاول المعتمد ان يوثق علاقاته مع المعتصم بن صمادح امير المرية والوقوف فى وجه الاعداء صفا واحدا • غير ان هذا لم يجد شيئا (٤) ورأى المعتمد وقتها ان لامناص من الاستعانة بيوسف بن تاشفين مرة أخرى •

وفى الواقع لم يكن عبور المعتمد الى المغرب ومقابلته ليوسف بن تاشفين خالصا لوجه الله ، رغم ما حاول تأكيده ليوسف من أنه لم يأته الا رغبة واحتسابا وانتصارا للاسلام وللمسلمين (٥) • قد يكون هذا أحد أسباب توجهه نحو المغرب والتمنى على يوسف بالجواز ، الا انا لانرى مانعا من قبول كلام الملك عبد الله بن زيرى الذى يقول (وان المعتمد بن عباد ، لما رأى من خلاف ابن رشيق عليه وأنه أراد ان يضع ابنه الراضى بمرسية عوضا عن الجزيرة (٦) صار بنفسه الى أمير المسلمين ، وجاز اليه البحر يريه الطمأنينة ويحكمه ماشاء من عمل مرسية وغيرها) • وفى نفس الوقت شرح له الحالة الحرجة التى يعانى منها المسلمون من جراء وجود الحامية النصرانية فى حصن ليبط • (وعظم له شأن ليّيط وأنه فى قلب البلد وان لاراحة للمسلمين الا بفقده) (٧)

وعلى أى الاحوال وحتى وان كان المعتمد قد صدر فى جوازه الى يوسف عن رغبة شخصية ، فان الاوضاع قد باتت لا تطاق • والواجب الدينى يفرض على يوسف

(١) : انظر ابن الكردبوس : المصدر السابق ص ١٠٠ ـ ١٠١
(٢) : انظر قبل الباب الثالث ، ص ٥ ٢٣
(٣) : يقول ابن الكردبوس ان الذى قاد الجيش هو الراضى وانه قد هزم وقتل اكثر جنوده ، ولكن هذا وهم من ابن الكردبوس ، فالمعتمد بعد ان شعر بعدم اهتمام ابنه الراضى وتقاعسه غضب عليه ، وبعث واحدا آخر من ابنائه وهو المعتد الى لورقة • وقد انهزم هذا الجيش فعلا وعاد ادراجه نحو اشبيلية • انظر : الاكتفاء ، ص ١٠١ • ـ الفتح ابن خاقان : القلائد ص ٣٤ •
(٤) : انظر ، عبد الواحد المراكشى : المصدر السابق ، ص ١٩٦ ـ ١٩٧ •
(٥) : انظر مجهول : الحلل الموشية ص ٥٤ ـ ٥٥ •
(٦) : المقصود بها طبعا الجزيرة الخضراء التى اخلاها المعتمد للمرابطين ، وطلب من ابنه الراضى ان يتوجه الى مدينة رنده •
(٧) : المصدر السابق ، ص ١٠٨ •

ان يبادر مرة ثانية الى التدخل . ويتراءى لنا انه من تلك اللحظة قد اتضح له عدم أهلية ملوك الطوائف وصلاحيتهم . وشعر فى هذا الوقت أكثر من أى وقت آخر ان وصيته لملوك الطوائف بعد موقعة الزلاقة بنبذ الفرقة والتناحر قد ذهبت أدراج الرياح(١) كما تحقق لديه ما كان قدراوده وهو منصرف الى المغرب بعد أن أطلع على خلافات ملوك الطوائف من عدم أهليتهم وصلاحيتهم (٢)

ومع ذلك فقد لبّى يوسف نداء المعتمد له وجاز الى الاندلس وبعث من هناك الى رؤساء الاندلس ليوافوه عند قدومه . وبالفعل وافاه معظم رؤساء الاندلس ورافقوه من الجزيرة الخضراء حتى حصن ليبط ، حيث ضرب عليه الحصار(٣) وقد تحصنت بداخله الحامية النصرانية واثقة من مناعة الحصن وقوة تحصيناته ، وواثقين أيضا من تحوطهم للأمر بتكديس الطعام والمؤن ، وفوق هذا كانوا واثقين من مجيء الفونسو لانقاذهم(٤)

وفى الحقيقة فعد" هذه الفترة التى كان الحصار مضروبا فيها على ليبط هى التى قررت مصائر ملوك الطوائف . فلقد صمد الحصن أمام الحصار الرهيب الذى ضربه يوسف والاندلسيون عليه ، ولم تجد شيئا كل الوسائل العسكرية التى لجأ الى وضعها وتنفيذها الجيش الاسلامى(٥) واستطالت بهذا مدة الحصار . وظهرت ليوسف وقتذاك حقيقة الوضع المؤلم فى الاندلس وقد رسم ابن زيرى نفسه صورة واضحة دقيقة لذلك الوضع الذى شهده وعاصره وشارك فيه أيضا . فيقول (وكانت تلك سفرة أخرج الله فيها أضغان سلاطين الاندلس ، ورعيتهم فى ذلك يأتون أفواجا ، شاكين لما وجدوا لمن اسندوا اليه ، فالراضى منهم يلتمس الزيادة ، والساخط يرجو الانتقام ، وجعلوا فى شكاويهم فقهاء وسائط يقصدون نحوهم : منهم الفقيه ابن القليعى(٦) قد صار خباؤه

---

(١) : عبد الله بن زيرى : المصدر السابق ، ص ١٠٦

(٢) : عبد الله بن زيرى : نفس المصدر ، ص ١٠٧

(٣) : مجهول : الحلل الموشية ، ص ٥٤ ـ ٥٥

(٤) : انظر : عبد الله بن زيرى : نفس المصدر اعلاه ، ص ١٠٨ .

(٥) : انظر : نفس المصدر ص ١٠٨ ـ ١٠٩ .

(٦) هو الفقيه يحى بن محمد بن حسين الغسانى المعروف بابن القلاعى (ت ٤٤٢هـ/ ١٠٥٠ ـ ١٠٥١ م) . وقد نأى به حبه للسياسة والوظائف عن سمت العلماء ووقارهم وقد قام بدور رئيسى لدى المرابطين فى خلع عبد الله ابن زيرى ملك غرناطة .

انظر : عبد الله ابن زيرى : المصدر السابق ، ص ١٠٩ ـ ١١٢ ، ص ١١٦ ـ ١١٨ ، ١٢٧ ـ ١٢٨ . ـ حسين مؤنس : شيوخ العصر ، ص ٨٥ ـ ٨٦ .

بتلك المحلة مغنطيسا لكلّ صادر ووارد ، يجد بهم السبيل الى الطلب للقدر الذى قدّره الله ، ورأى سلاطين الاندلس عند ذلك من تحامق رعاياهم وامتناعهم عن مغارم الاقطاع التى كانت عليهم ، مع احتياجهم الى الانفاق ، ماقلق به وساء الظنّ من أجله ، جيش يكلفونه كل عام ، ومجاملات تلزم المرابطين كثيرة ، وتحف متوالية ، لو فرط منها فى شئ لانخرمت عليهم الاحوال ، ثم رعايا تمتنع من تأدية ماتقوم به الحال الموصوفة ، فلا حيلة الا بين صبر يؤدى الى ملامة توجب عقوبة ، أو امتناع يؤدى الى استئصال كالذى جرى ، ونسمع فى هذا كله من أهل جهاتنا تهددا وعصيانا انكرناه ، لا تتم به مملكة ، ولا يتهيأ معه قضاء حاجة ، ولقد كان القليعى المذكور فى تلك المحلة يخاطب اخوانه بحضرتنا اللا يعطونا شيئا ، ويعدهم بما كان ، فلما كان يأتيهم الحفز منا ، يقصدون بنا ، ونحن احوج ماكنا اليه للانفاق ، لاسيما فى تلك المحلة التى عدّتنا فيها الاقوات الا بالشراء كل يوم ، فدخل علينا من ذلك ضرر شنيع ، وطالت تلك المحلة(١) الملعونة ، فكأنما شلق آبان الطيب من الخبيث ، وكشف العورات ، فلم يزدد الرؤساء الا توحشا ولا الرعية الا تبسطا ، ولا الداخلون على مثل هذه النصبة الا طمعا ، وحق لهم ، مع اختلاف كلمة الرؤساء ، وهم فى اسباب الفرق : فمن اغتر منهم طالب صاحبه ، وهو المطلوب وشغله ذلك مما هو فى سبيله ، ومن ميز انفرد ، لم يجد معينا حتى توغل فى اللجة واخذته الحملة ، وكانت مقدمات سوء ، وزمانا على السلاطين عسيرا ، وسمدا للمرابطين مقتبلا .)(٢)

هذا التصوير الدقيق للاوضاع يوضح لنا عدة حقائق منها : ان الرعية فى معظم ممالك الطوائف وصلت الى حد لا يمكن معه ان تستمر تدفع ثمن خلافات ونزوات الملوك والرؤساء فى تحقيق مجد ذاتى ، وتوسع تصب خيراته فى جيوبهم وحدهم ، ولذا فعندما لمحوا بريقا من عطف يوسف وشفقته عليهم(٣) ، تطلعوا نحوه راغبين اليه ان ينقذهم من عسف ملوكهم وأمرائهم الذين يفرضون عليهم الضرائب والمكوس الباهظة ، ورأوا فى قوة المرابطين الفتية مايمكن معه التفاؤل بانقشاع الخطر النصرانى الذى اسهم الرؤساء بسوء سياستهم فى اذكائه ، بل ولاح لهم بريق من الامل والتفاؤل بسحق ذلك الخطر الماثل .

والامر الثانى او الحقيقة الثانية ان الفقهاء تزعموا وقتها رفع راية الاستنكار والاحتجاج على الوضع المزرى الذى وصلت اليه الامور فى الاندلس ، بل انه تزعموا

---

(١) : المقصود به بداهة المعسكر الذى ضرب الحصار على الحصن .
(٢) : المصدر السابق ، ص ١٠٩ — ١١٠ .
(٣) : انظر قبل ، ص ٢٦٧ ومابعدها

التعبير عن رغبات الرعية ومتطلباتها ، ومضوا فى عداوتهم لملوك الطوائف حدا بعيدا جدا قطعوا فيه كل خطوط الرجعة وحبائل الود مع هؤلاء الملوك . وتعلقوا بيوسف يرجونه ويستعطفونه ان يضع حدا لتلك الاوضاع . وأصبح الفقهاء فى حقيقة الامر قوة خطيرة يحسب ملوك الطوائف حسابها . وسنرى بعد قليل صورا لهذه المكانة التى بلغوها . والتى يلوح لنا انهم ماكانوا ليبلغوها لو لم يشجعهم يوسف بن تاشفين على ذلك . وقد وصل الامر اخيرا الى ان ينتصر تيارهم الداعى الى خلع ملوك الطوائف وتسليم الاندلس جملة الى ابن تاشفين (١) .

اما الحقيقة الثالثة التى نستخلصها من كلام ابن زيرى ، فهى ان هناك بعضا من المتنفعين من امراء المرابطين كانوا يرهقون ملوك الطوائف وامرائها بطلباتهم التى لا تنتهى . ولا نستبعد ان يحدث هذا فهو شىء مألوف يقع دائما . ولقد كلف اغتصاب ابن زيرى لاحد هم كثيرا ، فقد كلفه ضيقه من طلبات احد قواد المرابطين ملكه وعرشه كما سنرى بعد ان شاء الله .

والمهم ان هذه الصورة هى التى كانت تسير الامور وفقها فى حصار لييط وأتضح ليوسف ان هناك هوة عميقة تفصل الرعية عن ملوكها ، كما ان هناك هوة عميقة ايضا تفصل بين الملوك والفقهاء والعلماء على النحو الذى رأيناه . بل ان هناك تباينا واضحا واختلافا مريعا بين الملوك انفسهم ، فقد طفت خلافاتهم الى السطح . وبدأوا ينشرون خلافاتهم واحقاد هم علانية وجهارا . واخذ كل واحد منهم يدس على الآخر ماشاء له من اشاعات ودعاوى مضللة . وبدأت المزايدات بين هؤلاء الملوك بعضهم البعض تقوى وتشتد . اذ اعلن ابن رشيق حاكم مرسية انه قائم بدعوة يوسف بن تاشفين ، بل افضى به الامر الى ان جعل الخطبة فى مملكته باسم يوسف بن تاشفين ، واستمال اليه الامير سير بن ابى بكر ودفع له الاموال والتحف (٢) . اما المعتمد فقد ساءه ذلك وعمل من ثم على استمالة احد قواد يوسف وهو المدعو قرور الحشمى (٣) ودفع

(١) : آنخيل جنثالث بالنثيا : تاريخ الفكر الاندلسى ، ترجمة حسين مؤنس ، ص ٩٨ .
(٢) : عبد الله بن زيرى : المصدر السابق ، ص ١١٠ .
(٣) : هذا القائد هو : قرور او جرور الحشمى كما كان يعرف فى بعض المصادر العربية ايضا هو احد ابرز قواد المرابطين فى الاندلس . وقد كان وصوليا انتهازيا هدف فى كثير من الاوقات الى خدمة مصالحه الخاصة . وقد اسهم بدور ملحوظ فى خلع عبد الله بن زيرى ملك غرناطة .
انظر : عبد الله بن زيرى : المصدر السابق ، ص ١١٠ ، وص ١١٤ — ١١٦ ، ص ١٥٥ — ١٦١ . — ابن الابار ، المصدر السابق والجزء ، ج ٢ ، ص ٦٢ .

لسنه الكثير كما يقول ابن زيرى (١) ، واشتكى ليوسف من ان ابن رشيق خارج عليه ، وان المدينة من الناحية الرسمية لا تزال تحت سلطته بدليل انه كان يدفع جزيتها السنوية لالفونسو (٢) . واستشار يوسف الفقهاء في ذلك فافتوه بان تعود السلطة في موسية للمعتمد . فسمح يوسف للمعتمد بالقبض على ابن رشيق ، ولكنه طلب منه ان لا يقتله . والظاهر ان يوسف رأى في ذلك الوقت الحرج ان مداراة المعتمد والتودد اليه اجدى من مداراة ابن رشيق حتى وان كان قد دعى باسمه . فلقد خبر في تلك الفترة الاعيب ملوك الطوائف وأحابيلهم . ورأى ان ابن رشيق لم يفعل ذلك الا من أجل الايقاع بينه وبين المعتمد وانه انما فعل ذلك ليتخلص من الملامة والمؤاخذة في مده يد العون والمساعدة للنصارى في حصن لييط (٣) . وفي الوقت الذى كان فيه يوسف يحاول تهدئة خواطر ملوك الطوائف ، كان البعض منهم يمارس هواية الصيد في الاوحال ، فيحكى ان المعتصم بن صمادح صاحب المرية أخذ يتودد لامير المسلمين يوسف بن تاشفين ويظهر له المودة والاخلاص والنصح حتى استطاع ان يتمكن من قلب يوسف . ومن ثم عمل على ان يوغر صدره على المعتمد ، ويلفق اقوالا سيئة على لسان المعتمد حتى تمكن بالفعل من ايغار صدره عليه (٤) . ويروى عبد الواحد المراكشي هنا ان حوارا دار بين المعتمد والمعتصم حول يوسف ، فقام هذا بنقله الى ابن تاشفين . ونحن لا نستبعد ان يكون المعتمد قد أفصح لزميله ملك المرية عما يدور في خلده وخلد غيره من ملوك الطوائف . ويخيل الينا انه لم يكن يتوقع ان يبادر المعتصم بنقل ما دار بينهما الى يوسف ومهما يكن فان عبد الواحد المراكشي يروى ان المعتصم قال للمعتمد في معرض حوارهما ان اقامة يوسف قد طالت في الجزيرة فاجابه المعتمد :

(لو عوجت له اصبعي ما اقام بها ليلة واحدة هو ولا اصحابه . كانك تخاف غائلته ، واى شيء هذا المسكين واصحابه ؟ ، وانما هم قوم كانوا في بلادهم في جهد من العيش ، وغلاء من السعر ، جئنا بهم الى هذه البلاد نطعمهم حسبة وائتجارا ، فاذا شبعوا اخرجناهم عنها الى بلادهم ... الى امثال هذا القول من تحقير امرهم ، وأعانه على ذلك قوم من وجوه الاندلس .) (٥)

(١) : عبد الله ابن زيرى : المصدر السابق ، ص ١١٠ .
(٢) : مجهول : الحلل الموشية ، ص ٥٥ — ٥٦ .
(٣) : عبد الله بن زيرى : نفس المصدر السابق ، ص ١١٠ — ١١١ .
(٤) : انظر : ابن الابار : المصدر السابق والجزء ، ص ٨٥ — ٨٧ . — عبد الواحد المراكشي : المصدر السابق ، ص ١٩٦ — ١٩٨ . — الفتح ابن خاقان القلائد ، ص ١٤ — ١٥ .
(٥) : نفس المصدر السابق ، ص ١٩٨ — ١٩٩ .

وعلى اية حال فمهما يكن في هذا الحوار من المكابرة والتحدى والضيق الذى جاش به صدر المعتمد في ساعة ضيق وغم ، فانها تعطينا المثل على انحطاط الاخلاق والمثل الى درجة سحيقة لدى ملوك الطوائف وقتها ، حتى بين الاخ واخيه . اذ يروى ابن زيرى ان اخاه تميم صاحب مالقة قد عاود تشكيه وتظلمه منه لدى يوسف ابن تاشفين ، وكان تميم الذى شكى اخاه عبد الله بعد موقعة الزلاقة مباشرة ، عاد مرة اخرى ليشكوه الى يوسف ويكرر ذلك، حتى ضاق يوسف ذرعا بهذا الاسفاف ولكنه مع هذا بعث لعبد الله يطمئنه ويهدئ من روعه ويعلمه (ان غرناطة آكد عليه من مالقة لاحتياجه الى الاجتياز عليها في غزواته ، وما اشبه ذلك من المرافق...) .(١)

استطالت مدة الحصار الى نحو بلغت فيه اربعة شهور .(٢) لم يجد معها كما ذكرنا كل الوسائل التى استخدمها الجيش الاسلامى في الحصار ، بل انه مما كان يزيد المعاناة الاسلامية حرجا ان مجموعات من هؤلاء المحاصرين النصارى كانت تتسلل خارج الاسوار وتفتك بمحلة المسلمين ، ثم تعود ادراجها نحو الحصن ثانية .(٣) وعندما حسم الخلاف بين المعتمد وابن رشيق على النحو الذى رأيناه ، غضب اتباعه واقاربه ، فانسحبوا من المعركة والتحقوا بمدينتهم . ومن هناك حصنوا المدينة وقفلوها في وجه المعتمد والمرابطين ، بل وقطعوا الميرة عن المعسكر الاسلامى .(٤) ومن الطبيعى ان يؤدى هذا الى اختلال الامور ، فانتشرت المجاعة في المعسكر وغلت الاسعار ، كما ادى هذا الى حدوث ارتباك داخل صفوف الامراء والملوك ، فخافوا ان يصيبهم ما حل بابن رشيق . وساء ظنهم بيوسف ، وساء ظن يوسف بهم اكثر .(٥) وشعر يوسف بعض طول هذه المدة ان من المستحيل الاستمرار في الحصار لا سيما في وسط ذلك الجو المحموم من الاقاويل والشائعات ، ووسط ذلك التفتت والتمزق مع استمرار المقاومة الشديدة من النصارى . وصدف ان نقلت عيون المسلمين وجواسيسهم المنبثة داخل المعسكر النصرانى عزم الفونسو للتقدم نحو الحصن وانقاذ حاميته المحاصرة .(٦)

---

(١) : عبد الله ابن زيرى : المصدر السابق ، ص ١١٣ .

(٢) : صالح بن عبد الحليم : المصدر السابق ، ص ١٠٦ .

(٣) : حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٢٩٣ .

(٤) : عبد الله بن زيرى : نفس المصدر السابق ، ص ١١٢ ـ ١١٣ . ـ مجهول : الحلل الموشية ، ص ٥٥ ـ ٧٧ .

(٥) : حسن محمود : نفس المرجع السابق ، ص ٢٩٤ .

(٦) : عبد الله بن زيرى : نفس المصدر ، ص ١١٤ .

وتبين ليوسف ان رفع الحصار والانسحاب عن الحصن الى اقرب مدينة اسلامية هو الحل الواجب عليه اتباعه . وبالفعل انسحب نحو مدينة لورقة ومكث فيها بعض الوقت ، ومن هناك اتجه نحو بلاده . وبالفعل ماكاد يوسف يتم الانسحاب حتى جاء الفونسو الى حصن ليبط (١) فانقذ حاميته ، ثم انسحب الى عاصمته طليطلة ، فجاء المعتمد فوضع يده عليه ، (٢) وفى قول آخر ان الفونسو احرقه وسحب الحامية القشتالية منه .

وهكذا فقد جاء جواز يوسف هذه المرة مخيبا لآماله ، كما تيقن تمام التيقن ان ملوك الطوائف لا يمكن الاعتماد عليهم فى هذه المرحلة الخطرة من تاريخ الصراع بين الاسلام والنصرانية ، وتلاشت من ذلك الوقت فكرة الجبهة الموحدة ، وبات على يوسف اذا ما أراد ان يعيد التوازن السياسى والعسكرى فى الاندلس بين المسلمين والنصارى ان يتخلى نهائيا (٣) عن ان يكون رديفا لملوك الطوائف . ومعنى هذا ان يتخلى تماما عن فكرة الجبهة الموحدة ، ليواجه ملوك النصارى مباشرة وجها لوجه . ومعنى هذا ايضا ان يعمل منذ الآن على ان يستعد للمواجهة بين القوة المرابطية الفتية المتأججة حماسا للجهاد ، وبين القوى النصرانية الصليبية المتأججة حماسا هى الاخرى الى مواصلة حركة الاسترداد . وشعر يوسف انه لا يمكن ان يحقق ما تبلور فى ذهنه بعد حصار ليبط الفاشل الا باتخاذ خطوة جريئة مع ملوك الطوائف ، هذه الخطوة هى ازاحتهم لمصلحة الجهاد الاسلامى ضد الزحف النصرانى فى الاندلس فقد فرضت عليه الظروف التزاما دينيا وادبيا تجاه الاسلام والوجود الاسلامى فى الاندلس . وبمقتضى هذا الالتزام تهيأت النفوس فى الاندلس والعالم الاسلامى الى قبول اى قرار او اى خطة يتخذها يوسف ابن تاشفين .

وكانت الفترة الاخيرة من حصار حصن ليبط والفترة التى اعقبتها بعد ذلك حالكة السواد فى حياة ملوك الطوائف ، فقد آذنت شمسهم بالمغيب ، ولم يعد الزمن يعمل لصالحهم ، فقد ابغضتهم العامة ، والخاصة ، وشمتت بهم ممالك النصارى وطمعت ونفر منهم المرابطون وبعدوا ، بل انهم فقدوا الثقة وحسن الظن فى بعضهم البعض . واخذوا هم انفسهم يحيكون الدسائس والاقاويل ضد بعضهم بعضا . وحمل الفقهاء

---

(١) : السلاوى الناصرى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٢ .
(٢) : مجهول : الحلل الموشية ، ص ٥٥ ـ ٥٧ .
(٣) : حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٢٩٦ .

لواء الدعوة للاطاحة بهم وصرحوا بذلك ، وسمحت لهم المكانة العالية التي تحققت لهم والتي فرضتها الاحداث على ملوك الطوائف فرضا أن تحكموا بموافقة يوسف وتأييده في مصائر هؤلاء الامراء والملوك كما حدث لابن رشيق ،ودفعهم هذا الى ان جاهروا ملوك الطوائف بأنهم سيكررون ذلك ويفعلوه (١) .

وفي هذا الصدد يؤسفنا ان نشير الى ان بعض الروايات الغربية فسرت رغبة الفقهاء هذه بتفسيرات بعيدة عن النزاهة والموضوعية ،اذ يقول ان فقهاء الاندلس سعوا لدى يوسف بن تاشفين الى خلع ملوك الطوائف لتبرمهم من الحرية الدينية الواسعة الممنوحة من قبل ملوك الطوائف انفسهم . ويخيل الينا ان هذا القول فيه الكثير من المغالطة والمجافاة لتعاليم الاسلام التي اثبتت رحابة افقها في منح جميع الطوائف الدينية حرياتها في ممارسة شعائرها الخاصة بها . والظاهر ان المؤلف الغربي كان يصدر في ذلك عن روح مسيحية متعصبة تبدو في ثنايا كتابه اذ يبدو انه كان حانقا من وقوع الاندلس تحت سلطة قوة اسلامية فتية ،بدلالة انه كان يستعمل عند الحديث عن دفاع المسلمين عن انفسهم عبارات الغزو والانتهاك INVASION . وكان يشدد على ان الصراع هو صراع ديني باستعماله دائما لفظي : المسيحية والاسلام في مواجهة عدائية (٢) .

وايا ماكان الامر فان تلك الفترة التي اعقبت حصار لييط حفلت بالكثير من الاخطاء السياسية الفادحة ،كما حفلت بانعدام الكثير من الاخلاق والقيم والمبادئ . ، فبات كل من تهيأ له قدر من المسؤولية ،او وضعته الظروف في مواجهة الاحداث يعمل لحسابه الخاص ،وسادت الاندلس وقتها اجواء محمومة من حالات الريبة والتشكك والابتزاز والانتهازية والخيانة . حتى أولئك الذين كانو يعملون تحت قيادة الامير المرابطي المسلم ،او الملك النصراني ،او ملك من ملوك الطوائف لم يتحرجوا من ان يعملوا لحسابهم الخاص ،وتجلت وقتها روح العصر بأبرز صورها . نقول حتى بعض قواد المرابطين انساق في لهاث محموم للاستفادة من ذلك الوضع كما رأينا سابقا ،وكما حدث لعبد الله بن زيرى مع القائد المرابطي قرور الذي مارس معه عملية ابتزاز واضحة (٣) .

---

(١) : انظر عبد الله بن زيرى : المصدر السابق ،ص ١١١

(٢) : انظر : J. B. Bury: Op. Cit., P 399

(٣) : انظر عبد الله بن زيرى : نفس المصدر السابق ،ص ١١٤ ــ ١١٦ .

ولسنا هنا نقف مدافعين عن ابن زيرى وغيره من ملوك الطوائف، ولن ننزلق فى الاخذ باقواله على علاتها ، كما لن ننزلق فى الحكم عليه دون أن نخضع ماحدث للتحليل الموضوعى • فلا ننظر الى ماحدث الا من خلال منطق العصر • ولن نأخذ من كلام عبدالله بن زيرى الا ما يتفق وسير الحوادث فقط • فالواقع أننا اذا نظرنا الى الامور نظرة تحليلية موضوعية كما ذكرنا نجد أن مافعله ابن زيرى لم يخرج عن منطق وروح العصر ابدا • واذا أردنا أن نقيم مافعله فى تلك الفترة يجب علينا أن ننظر اليها بالمقاييس التى كانت سائدة آنذاك ، وليس بالمقاييس المثالية والحالية أيضا • فابن زيرى كان يتعرض وقتها لضغوط داخلية وخارجية معا • ضغوط داخلية يشنها عليه الفقهاء وخاصة قاضى حضرته القليعى بدافع دينى ربما ، أو بدافع شخصى ربما (١) ، أو ربما بالاثنين معا ، كما كان يتعرض فى نفس الوقت لمضايقات القائد المرابطى قرور له ، ويعانى هو وغيره من ملوك الطوائف من تذمر السكان وسخطهم من جهة ثالثة • أما الضغوط الخارجية فقد بدأ الفونسو يشن غاراته على ممالك الطوائف وبالذات على مملكتى غرناطة واشبيلية (٢) •

وفوق هذا وذاك فقد سيطرت حالة من الشك على اذهان وعقول ملوك الطوائف من نوايا يوسف ، مثلما سيطرت عليه هو نفسه ، فالامراء وقد رأوا ماحل بابن رشيق قد انتابتهم حالة من الريبة والجزع • وفى نفس الوقت بلغ يوسف من التقزز حدا جعله يرفض ماطلبوه من بقاء مجموعات من الجيش المرابطى فى الاندلس ، بل وخاطبهم مؤنبا (اصلحوا نياتكم ، تكفوا عدوكم (٣)) •

اذا فنحن لا نحلل مواقف كل من الفريقين الا من هذا المنظار ، أى منظار فقدان الثقة وحسن الظن ، ومن منظار الريبة والتشكك المتبادل تبعا لذلك • وعلى هذا فنحن نتفهم دوافع ابن زيرى فيما فعله من وجهة نظرة الخاصة • فقد أوحت اليه كل تلك الاعتبارات التى اشرنا اليها بأن يحصن مملكته (٤) ويتخذ اسباب التحوط والحذر من النصارى والمرابطين على السواء رغم ما حاول أن ينفيه عن نفسه من أنه لم يفعل ذلك الا تحوطا من اعتداءات النصارى ، أو على أسوأ الأحوال فى تقديره

---

(١) : انظر: عبدالله بن زيرى :المصدر السابق ، ص١١٢ ، ص ١١٦ — ١١٩ •
(٢) : حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٢٨٩ •
(٣) : عبدالله بن زيرى : نفس المصدر السابق ، ص ١٢٢ •
(٤) : نفس المصدر ، ص ١١٩ — ١٢٠ •

أن يجد ما فعله تفهما من يوسف لما فى ذلك من النفع للمرابطين (فسيكون بذلك للمسلمين حماية وانجرار الى غد ...) (١) نقول رغم الدفاع المستميت الذى أظهره عبدالله ابن زيرى من انه لم يفعل ذلك الا للأسباب التى ذكرناها (٢) فانه قد قصد فى الواقع المرابطين أكثر مما قصد به النصارى .

أما قضية تعاقده مع الفونسو السادس ودفعه الجزية له ، فتحتاج الى وقفة متأنية . فعبدالله ابن زيرى شعر أكثر من غيره بتهديدات الفونسو وقواده له ، وعندما جاءه القائد القشتالى البرهانس المذكور سابقا يطلب منه مالا له خاصة ، أعطاه اياه (٣) . وتأكد هنا ما ذكرناه سابقا من أن الكل كان يعمل لحسابه بطريقة أو بأخرى . ثم لما جاء الفونسو وهدد ابن زيرى بالقتال ان لم يعطه الجزية ، عقد معه هذا مضطرا معاهدة ودفع له بموجبها جزية مقدارها ثلاثين ألف مثقال عن ثلاثة أعوام (٤) .

هذه هى المسألة التى أخذت على عبدالله بن زيرى ، وهى التى جعلت البعض يرميه بالخيانة ، مع اننا لو نظرنا الى الأمر بنفس النظرة الموضوعية التى عالجنا بها ماسبق لرأينا أنه لم يكن بدعا فى الأمر وحده ، فقد دفع ابن هود صاحب سرقسطة الجزية لالفونسو اتقاء لشره (٥) ثم ان منطق العصر وقتها كان يستسيغ ذلك ولا يستغربه ، فقد حصلت سابقات قبل موقعة الزلاقة وقبل حصار لييط من معاقدات مع النصارى لدفع شرهم ، بمعنى اننا لم نجد فى هذا الموقف وخاصة أن عبدالله ابن زيرى دفع الجزية من أمواله الخاصة ما يدل على خيانة للمرابطين (٦) ، فالأندلس لم تكن تقع وقتها من الناحية الرسمية الصرفة تحت سلطة المرابطين ، كما أن عبدالله ابن زيرى لم يكن نائبا عن نواب يوسف بن تاشفين فى الأندلس . هذا

---

(١) : عبدالله ابن زيرى : المصدر السابق ، ص ١٢٠ .
(٢) : نفس المصدر ، ص ١٢٠ ـ ١٢٢ .
(٣) : نفس المصدر ، ص ١٢٢ ـ ١٢٤ .
(٤) : نفس المصدر ، ص ١٢٤ ـ ١٢٥ .
وأنظر كذلك :

(٥) : عبدالله ابن زيرى : نفس المصدر ، ص ١٢٢ .
(٦) : نفس المصدر ، ص ١٢٦ .

من جهة ، ومن جهة اخرى لو ان المعاهدة نصت على كف يد مملكة غرناطة عن مساعدة المرابطين ، ولو ان المعاهدة نصت على ان تسمح مملكة غرناطة لالفونسو لمهاجمة الممالك الاخرى لكان ذلك طعنا للمرابطين ما في ذلك شك (١) . نعم هي استسلام ذليل وتغليب للمصلحة الخاصة على المصلحة العامة ، بل هي خيانة للقضية الاسلامية نفسها انزلق فيها عبد الله ابن زيرى هو وغيره من ملوك الطوائف .

اما غضب يوسف بن تاشفين على عبد الله بن زيرى ، وجوازه الى الاندلس للقضاء على استقلال مملكة غرناطة فانه في نظرنا يعود الى ان يوسف بن تاشفين فرضت عليه الاحداث والتبعات الدينية والقومية والادبية ان يتدارك امر الاندلس عموما لئلا ينزلق غير واحد من ملوك الطوائف الى نفض يده من القضية والعودة للاهتمام بالقضايا الاقليمية البحتة . ففرضت عليه هذه التبعات ان يتدارك الاندلس ويفرض عليها هيمنته وسلطته بعد ان اتضح له ان ممالك الطوائف لا يمكن الركون اليها . وفضلا عن ذلك فيوسف بن تاشفين هو الذى فرضت عليه جماهير الاندلسيين وفئات اخرى كالفقهاء وغيرهم ان يكون صاحب السلطة والنفوذ في الاندلس دون ملوكهم .

وهكذا فقد فرضت تلك الالتزامات والاعتبارات يوسف بن تاشفين لاتخاذ ما يراه من اجراء مع ملوك الطوائف ، حتى ولو افضى ذلك الى خلعهم وازاحتهم . ولذا فقد بادر الى بعث خطاب ذى لهجة حادة الى عبد الله بن زيرى يستنكر فيه ما اقدم عليه ويتهدده بالمعاقبة (٢) . والواقع ان عبد الله بن زيرى شعر بجزع شديد وشعر بانه مطلوب حتما ، فقد كان يعاني وقتها من تمزق داخلى وحركة عصيان يقودها الفقهاء وبعض قواد الدولة ورجالاتها الذين لما ان رأوا علاقاته تسوء مع يوسف بن تاشفين ، حتى بادروا الى الاستفادة من هذا لحسابهم الخاص ، فأخذوا يزايدون عند يوسف بن تاشفين على مليكهم ، ويرمونه بكل صفات الضعف والخيانة ، وبعدم قدرته على قيادة الدولة ... الخ (٣)

وساءت ايضا علاقة عبد الله بن زيرى بالمعتمد الذى شعر بأن المعاهدة التى عقدها مع الفونسو ستؤثر عليه وعلى مملكته ، ولذا فقد بدأ يظهر العداء له

---

(١) : عبد الله بن زيرى : المصدر السابق ، ص ١٢٥ ـ ١٢٧ .

(٢) : نفس المصدر ، ص ١٢٧ .

(٣) : نفس المصدر والصفحة .

رغم انه نفى فى دفاعه الحار عن نفسه كل ذلك نفيا قاطعا ، بل انه اشار الى انه قد صرف رسل الفونسو الذين جاءوا اليه يعتذرون عما سبب له تعاقده معهم من اللغط وسوء الظن ، فصرفهم منعا لاى التباس (١) •

على ان التردد الذى كان يطبع تصرفاته ، واصغائه الى آراء المستشارين المتناقضة والتى كان يطبقها دون تمييز جعله يدخل فى خلافات مع سكان مملكته من اليهود والبربر الزناتيين وغيرهم ، كما دخل فى نزاعات مع بعض قواده ورجال دولته ، وسابر هؤلاء الى الدس عليه عند يوسف بن تاشفين مما أوغر صدره عليه كثيرا ، ولم تجد شيئا محاولاته ارسال الرسل الى يوسف بن تاشفين كما تدهورت اخيرا علاقاته بالمعتمد كثيرا عندما اراد ان يستفيد من نزاع المعتمد مع أقارب ابن رشيق الذين استقلوا بالمدينة بعد قبض المعتمد على ابن رشيق كما قلنا (٢) • وقد أضطر عبد الله ابن زيرى لارسال الرسل مرارا الى يوسف بن تاشفين ليشرحوا له وجهة نظره • ولكن حتى هؤلاء الرسل رأوا ان دولة عبد الله بن زيرى قد دالت أو اوشكت على الزوال فدسوا عليه وهم المبعوثون من قبله عند يوسف بن تاشفين (٣) • ويقول احد رسل عبد الله ابن زيرى الذى ذهب مع أحد قضاة غرناطة الى يوسف بن تاشفين سفيرا (أرسلنا للخدمة له فى زعمه ، ولم نصنع غير أنى كفته هو القاضى ضرب عنقه (٤)) •

وجهز يوسف بن تاشفين جيشا وتوجه نحو سبتة ومن هناك عبر البحر الى الجزيرة الخضراء وتوجه منها الى قرطبة حيث اجتمع هناك بالمعتمد الذى شكى له ما فعله ابن زيرى مما أوغر صدره عليه أكثر • ولكن يوسف بن تاشفين أراد ان يهاجم النصارى قبل ان يصفى حسابه مع مملكة غرناطة • وكان يهدف من ذلك الى ان يفهم الفونسو انه صاحب النفوذ فى الاندلس ويفهمه ويحذره فى نفس الوقت من مد يد العون لمملكة غرناطة ، او ربما كان يهدف الى بث الذعر فى نفوس النصارى حتى لا يبادر الفونسو باستغلال تلك الفرصة وطمعه من الخلف (٥) •

---

(١) : عبد الله بن زيرى : المصدر السابق ، ص ١٢٨ ـ ١٢٩ •

(٢) : نفس المصدر ، ص ١٣٠ ـ ١٤٤ •

(٣) : نفس المصدر ، ص ١٤٤ ـ ١٤٥ •

(٤) : نفس المصدر ، ص ١٤٥ ـ ١٤٦ •

والقاضى الذى يقصده ابن زيرى فى المتن هو ابو الاصبغ عيسى بن سهل ابن عبد الله الاسدى • وكان عالما جليلا ولكنه تورط فى الاشتغال بالسياسة •

انظر : حسين مؤنس : شيوخ العصر ، ص ٨٥ •

(٥) : حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٣٠٣ •

والمهم ان المرابطين توجهوا نحو طليطلة وحاصروها وشنوا عليها هجمات مركزة ، ووصلوا في هجومهم الى اقصى حدود مملكة طليطلة سابقا . وعندما شعر المرابطون انهم قد حققوا ما أرادوا توجهوا نحو مملكة غرناطة حيث يقبع عبد الله ابن زيرى خائفا يترقب ، فبعث اليه يوسف بن تاشفين طالبا منه القدوم بسرعة . ولم يتردد يوسف بن تاشفين فبدأ يهاجم مدن وأراضي مملكة غرناطة فكانت تستسلم اليه بسرعة مذهلة [(١)] ، فالكل كان يطمع في ان يتبدل حاله نحو الاحسن ، حتى سكان غرناطة كلهم ، ابدوا فرحهم وسرورهم حتى الخدم من النساء والخصيان (كل طامع في اقبال الدنيا عليه ، والخروج عن ثقاف القصر الى راحة التسريح ... الخ) [(٢)] .

وأخيرا بعث يوسف بن تاشفين الى عبد الله ابن زيرى يؤمنه في نفسه دون امواله ، ولم يجد ابن زيرى بدا من التسليم ، فسلم نفسه الى امير المرابطين رغم أنه قد قلّب الامر على جميع الاوجه ووضع شتى الاحتمالات ومنها الاستعانة بالنصارى ولكنه لم يجد امامه الا ان يسلم نفسه له [(٣)] . وكان ذلك في ١٣ رجب ٤٨٣ هـ وقد نفي الى المغرب واستقر في مدينة اغمات اخيرا . ورأى يوسف بن تاشفين ان يضع حدا للجاج تميم شقيق عبد الله وتشكياته المتكررة ، فاطبق عليه واستصفى امواله ، وبعثه منفيا الى المغرب الاقصى شأنه شأن اخيه [(٤)] .

وهكذا فقد قضى يوسف بن تاشفين في جوازه الثالث على استقلال كل من مملكتي غرناطة ومالقة ، وبقي عليه ان يصفي بقية حساباته مع ممالك الطوائف الاخرى .

قضاء يوسف بن تاشفين على مملكة اشبيلية وعلى بقية ممالك الطوائف :-

كانت علاقة المعتمد بيوسف بن تاشفين والمرابطين عموما حتى اثناء حصار يوسف لمملكة غرناطة حسنة على وجه العموم ، ولكن خطأ المعتمد انه كان يرى نفسه صاحب الفضل في ذلك التحول الايجابي الذي جاء لصالح المسلمين في الاندلس . كما أنه اعتقد انه لم يعد للمرابطين غنى عنه في تحقيق سياستهم واهدافهم في الاندلس ، وجاءت مسألة تسليم ابن رشيق له لتعطيه رخصا يرسخ فيه ذلك الاعتقاد . وقد يكون في هذا

---

(١) : عبد الله بن زيرى : المصدر السابق ، ص ١٤٧ - ١٥١ .
(٢) : نفس المصدر ، ص ١٥١ .
(٣) : نفس المصدر ، ص ١٥٢ - ١٥٤ .
(٤) : نفس المصدر ، ص ١٦٢ - ١٦٣ .

شيء من الصحة ، ولكنه يبدو أنه قد أغرق كثيرا في ذلك الاعتقاد حتى لقد ظن ان يوسف بن تاشفين سوف يمهد اليه بمملكة غرناطة التي قضى على استقلالها ونفى مليكها الى المغرب على التو . ويقول عبدالله بن زيرى ان يوسف بن تاشفين قد ألمح للمعتمد بذلك صراحة ، وانه تلقف هذا الوعد بالابتهاج والسرور (١). ولكننا نرى المعتمد يشكك بينه وبين نفسه في ذلك الوعد (٢). ومع ذلك فانه مضى في تصوره لأهمية دوره الى حد بعيد جعله هو وزملاؤه ملوك الطوائف ينفضون أيديهم عن عبدالله ابن زيرى وقت محنته بل ويزايدون عليه عند يوسف بن تاشفين باطلاعه على ماكتبه لهم عبدالله بن زيرى يحذرهم من أن الأمر سيطالهم هم من بعده (٣). وكان المعتمد يتعجل سقوط غرناطة لتفضى اليه لقمة سائغة ، ولكن يوسف ابن تاشفين لم يكن بتلك السذاجة حتى يسلم المعتمد مملكة غرناطة . فهو قد كون عن ملوك الطوائف والمعتمد بالذات تصور واضح جلى وهو عدم أهلية هؤلاء في قيادة بلاد الاندلس ، كما رسخ لديه تصور واضح وهو أن انقاذ الاندلس من خطر الهجمات النصرانية الشرسة لن يتحقق الا باقصاء هؤلاء عن الاندلس. ولذا فعندما استنجز المعتمد يوسف وعده ، قابله هذا بكل فتور ولم يصغ له . ووقتها فقط أدرك المعتمد حقيقة نفسه وحقيقة الوضع السياسى في الاندلس .

والواقع أن رأى يوسف في المعتمد لم يكن بأحسن من رأيه في ابن زيرى وغيره من ملوك الطوائف ، فيوسف بن تاشفين قد لمس عيانا عند قفوله الى بلاده بعد موقعة الزلاقة المدى الكبير الذى بلغه المعتمد في الانصراف الى المترفات ووسائل المتعة والاهتمام الفائق بالتأنق بالقصور وتزيينها الى غير ذلك من الأمور التى تستنزف موارد الدولة . ولمس أيضا مقدار العنت والارهاق الذين تعانيهما العامة والطبقات الكادحة التى تدفع ثمن هذا الترف والبذخ المقوت (٤). كما أن الأمير سير بن أبى بكر الذى تركه يوسف في الاندلس لمساعدة ملوك الطوائف في رد عاديات النصارى ضج بالشكوى من حال ملوك الطوائف وخاطب يوسف بقوله (ان الجيوش بالثغور مقيمة على مكابدة العدو وملازمة الحرب والقتال في أضيق العيش وأنكده ، وملوك الاندلس في بلادهم وأهليهم في أرغد عيش وأطيبه (٥)) ولكن يوسف ابن تاشفين لم يظهر منه بعد ذلك ما يريب المعتمد ويجزعه ، ولما شعر بأن المعتمد ربما يعتقد أنه قادر على استغلاله كمخلب قط

---

(١) : عبدالله بن زيرى : المصدر السابق ، ص ١٦٤ ــ ١٦٥ .
(٢) : نفس المصدر ، ص ١٦٥ .
(٣) : نفس المصدر ، ص ١٦٦ .
(٤) : المقرى : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ١٠٨ ــ ١١٠ .
(٥) : المقرى : نفس المصدر ، ج ٦ ، ص ١٠٤ .

لخدمة مصالحه ومشاريعه ابدى نفوره منه عندما استنجزه وعده . وفى هذه اللحظة فقط بدأت علائق الرجلين ببعضهما تسوء وتفسد .

اذا فقد حدث هذا الاحتكاك والنفور الاول بين حليفى الامس فى بطحاء غرناطة بعد القضاء على استقلالها . وللتو نشط الوشاة والانتهازيون الى الاستفادة من هذا الوضع ، وكثرت بينهما السعايات والوقيعة (١) . واقترح بعض المرابطين القبض على المعتمد وثقافه ، ولكن يوسف بن تاشفين لم يشأ ان يفعل ذلك دونما ذنب ظاهر يبرر القبض عليه (٢) . ولذلك رفض مطلبهم .

وتهيأ المعتمد لمغادرة معسكر يوسف بن تاشفين وقد وضحت النهاية امام ناظريه وعرف حقيقة ذاته وحقيقة الوضع الذى وصل اليه ملوك الطوائف كما ذكرنا . ولذلك اتخذ اهبة المغادرة على وجه السرعة . وقد تفادى مقابلة يوسف بن تاشفين عندما طلب اليه ان يقابله فاعتذر عن مقابلته وقفل مسرعا الى بلاده والتقى فى طريقه بالمتوكل بن الافطس فحذره مما لمسه من المرابطين قائلا له (والله لابد له ان يسقينا من الكأس الذى اسقى به عبد الله بن بلقين (٣) .) ثم عاد الى بلاده وبدأ بالفعل يتخذ اجراءات التحصن والتحوط تحسبا لما تحمله الايام القادمة .

وأراد يوسف بن تاشفين قبل ان يتوجه الى بلاده مقابلة المعتمد بصفة رسمية للتفاوض فى شأن الاحداث الراهنة . غير ان المعتمد اجاب يوسف اجابة لبقة وواقعية فى نفس الوقت كان منها (ان ذلك كان وقت كنت ضيفا ، وتريد الغزو فلزمتنى معونتك بنفسى وجميع اموالى ، والآن انما انت جار لى مثل باديس وحفيده ، وانت اقدر منى على الشر بجنودك فلا يمكننى التغرير بنفسى ، عسى انك تريد اخذ بلدى ، اذ لاتصح لك غرناطة الا بما يضاف اليها من الاندلس (٤)) .

---

(١) : محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ، ص ٣٤٣ .

(٢) : عبد الله بن زيرى : المصدر السابق ، ص ١٦٨ .

(٣) : مجهول : الحلل الموشية ، ص ٥٧ ـ ٥٨ .

(٤) : عبد الله بن زيرى : نفس المصدر السابق ، ص ١٦٩ .

وبهذه المواجهة المكشوفة التى جابه بها المعتمد يوسف بن تاشفين لم تعد هناك اى خطوط التقاء بين الفريقين: الاندلسيين والمرابطين ، وحل العداء المكشوف والاستياء السافر الصريح محل المجاملات ودواعى الضيافة وغيرها . وبدأ المعتمد وغيره من ملوك الطوائف ينظرون الى المرابطين كفريق خصيم وليس كأخوان مشفقين ، وفى نفس الوقت أراد يوسف بن تاشفين بعد ان اتضح له موقف المعتمد ان يحذره من أى خطوة طائشة يفكر فيها، وكذلك طلب منه ان يطبق احكام الشرع ويلغى المظالم والمكوس. ويلتزم المرابطة ومدافعة النصارى (فامتنع ابن عباد جهده وبنى على الشر .)(١)

وعلى أية حال فقد غادر يوسف بن تاشفين الاندلس متوجها الى بلاده وقد اتضحت له معالم الصورة . والظاهر انه كان يخشى ان يتخذ اى اجراء فى حق ملوك الطوائف حتى لا يلام عليه . ولذلك فقد قبع فى بلاده هناك طيلة الشهور التى انقضت على مغادرته للاندلس بعد سقوط مملكة غرناطة فى شهر رجب ٤٨٣هـ .

والظاهر أنه كان مترددا ايضا فى اتخاذ أى اجراء لا يستند على الشريعة ولم يكن الفقهاء فى حاجة الى ان ينتظروا الاشارة منه ، فقد كانو متلهفين على ازاحة ملوكهم وتسليم البلاد الى المرابطين دفاعا عن العقيدة والوطن ولذلك فقد اجتمعوا على وجه السرعة واصدروا فتوى شرعية صريحة تجيز ليوسف بن تاشفين خلع ملوك الطوائف جزاءا لهم على ما اقترفوه فى حق الله والعباد والوطن وحللوا يوسف بن تاشفين من عهده لهم بعدم الاضرار بهم . وأفتوه بان خلعهم ليس حقا من حقوقه باعتباره مفوض شرعى من المسلمين فى الاندلس فحسب بل هو واجب دينى مسؤول عنه أمام الله . وقالوا له (هؤلاء الرؤساء لا تحل طاعتهم ولا تجوز امارتهم لانهم فساق فجرة ، فأخلعهم عنا ، فقال لهم وكيف يجوز لى ذلك وقد عاهدتهم وارتبطت معهم على ابقائهم ؟ ؟ فقالوا له ان كانوا عاهدوك فها هم قد ناقضوك ، وأرسلوا الى الفنش ان يكونوا معه عليك ، حتى يوقعوك بين يديه ، ويعود امرهم اليه ، فبادرهم بخلعهم بجمعهم ، ونحن بين يدى الله المحاسبون ، فان اذنبنا فنحن لا أنت المعاقبون ،

---

(١) : عبد الله ابن زيرى : المصدر السابق ، ص ١٦٩ .

فانك ان تركتهم وانت قادر عليهم ، اعادوا بقية بلاد المسلمين الى الروم وكنت انت المحاسب بين يدى الله تعالى .) (١)

ومع هذا التفويض الواضح الصريح ، فقد رأى يوسف بن تاشفين ان يحصل على تأييد علماء المشرق الاسلامي في خطوته تلك ، فبعث برسل الى المشرق لمقابلة الامام الغزالي وغيره من علماء الاسلام هناك لينقلوا اليهم رغبته في التخلص من ملوك الطوائف ورغبته في الحصول منهم على سند شرعي (٢) . ويبدو ان تطورات الاحداث في الاندلس قد دفعته الى المبادرة بتنفيذ خطته في القضاء على ملوك الطوائف دون الانتظار الى الحصول على فتوى الامام الغزالي وغيره من علماء الاسلام بالمشرق ، اذ ان من المعروف ان رد الامام الغزالي واعتراف الخليفة العباسي المقتدى بيوسف اميرا للمسلمين انما جاء بعد ذلك ، وبعد ان قرر يوسف القضاء على مملكة اشبيلية وغيرها من ممالك الطوائف في اعقاب قضائه على استقلال مملكتي غرناطة ومالقة (٣) .

---

(١) : ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ص ١٠٦ - ١٠٧ .

(٢) : محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ج ١ ، ص ٤١ - ٤٢ .

(٣) : بعث يوسف بن تاشفين للخليفة العباسي المقتدى بامر الله رسولين من قبله هما عبد الله بن محمد بن العربي المعافرى الاشبيلي وولده القاضي ابو بكر ، وذلك لاخذ التفويض الشرعي من الخليفة بخلع ملوك الطوائف ، ولاخذ مرسومه الخلافي بتولي العدوتين واليا عليهما من قبله . وقد وصل السفيران الى بغداد وقابلا الخليفة واستحصلا منه على المرسوم الخلافي بذلك . وقد قابل السفيران في بغداد الامام ابو حامد الغزالي حيث نقلا اليه رغبة يوسف في خلع ملوك الطوائف ، ورغبته في الحصول على سند شرعي من علماء وفقهاء المشرق بعد ان استحصل على تأييد فقهاء المغرب . وقد اصدر الامام الغزالي فتوى شرعية تبيح ليوسف خلعهم ، كما حملهما رسالة مؤيدة ليوسف بن تاشفين . وقد اتجه القاضي ابو بكر بن العربي بعد وفاة والده الى مصر حيث تقابل مع العلامة الاندلسي الاصل الاسكندرى السكنى ابا بكر بن الطرطوشي صاحب كتاب سراج الملوك ، وقد حصل منه على فتوى اخرى تبيح ليوسف خلع ملوك الطوائف ايضا .

واخيرا وبعد بضعة اعوام من خروج القاضي ابن العربي عن الاندلس عاد الى موطنه حاملا رسالتي الغزالي والطرطوشي ، ومرسوم الخليفة المقتدى ليوسف ابن تاشفين .

ويجب ان نلاحظ هنا ان يوسف بن تاشفين بعث رسوليه الى الخليفة المقتدى وليس المستظهر ابنه كما توهم البعض ، وذلك لان السيوطي صاحب كتاب تاريخ الخلفاء اشار الى ذلك ، بالاضافة الى ابن الاثير في كتابه : الكامل

ولقد رأى يوسف بن تاشفين أن يترك لقواده المشهورين آنذاك مهمة اقصاء ملوك الطوائف ، فاضطلع قائده العام الامير سير بن أبى بكر بالدور الرئيسى فى ذلك . ولقد تضاربت الاقوال فى وصف ما جرى فى ذلك الوقت ، فبعض الروايات تشير الى أن يوسف بن تاشفين أشار على الامير سير بأن يخلع ملوك الطوائف عموما الا المعتمد ، فقد أمره بأن لا يتعرض له أبدا الا عندما ينتهى من اقصاء بقية ملوك الطوائف فى حالة رفضهم لما عرضه عليهم من الانخلاع عن ممالكهم والرحيل الى العدوة ، اذ كان يوسف قد أمره بذلك وأمره أيضا بمقاتلتهم اذا رفضوا ذلك ، وعندما استطاع الأمير سير أن يقضى على استقلال ملوك الطوائف بعث ليوسف بن تاشفين يطلب منه رأيه تجاه المعتمد ، فكتب اليه يأمره بأن يعرض عليه ما عرضه على زملائه فاذا رفض قاتله شأنه شأنهم . ولكن المعتمد لم يرد على خطاب الأمير سير بن أبى بكر بشيء فنازله هذا وقاتله . هذه رواية (١) ، اما الرواية الأخرى فتقول أن يوسف بن تاشفين (لما انتهى الى مراكش ولى على الاندلس قائده الامير سير بن ابى بكر اللمتونى وفوض اليه جميع أمورها كلها ، ولم يأمره فى شأن ابن عباد بشيء ، فسار الأمير سير بن أبى بكر نحو اشبيلية وهو يظن أن بن عباد اذا سمع به فانه سيخرج اليه ويتلقاه على بعد ويحمل اليه الضيافات فلم يفعل ، وتحصن منه ولم يلتفت اليه فراسله سير بن ابى بكر أن يسلم اليه البلاد ويدخل فى طاعة أمير المسلمين ، فامتنع بن عباد فعند ذلك تقدم سير الى حصاره وقتاله .) (٢)

= ويبدو خلافا لكل ما قيل ان هذه السفارة بدأت بعد القضاء على مملكتى غرناطة ومالقة عام ٤٨٣هـ ، وبعد أن وقر فى ذهن يوسف من عدم صلاحية ملوك الطوائف . أما مسألة التلقب بأمرة أمير المسلمين فنحن نتفق مع حسين مؤنس فى انه لقب محلى اطلقه المرابطون على يوسف بعد أن رفض التلقب بامير المؤمنين كما نصح بذلك . ولذلك فقد تلقب بامير المسلمين وناصر الدين ولم يعترض الخليفة العباسى المقتدى وخاصة بعد بلاء يوسف الحسن فى موقعة الزلاقة ، وهذا خلافا لما اعتقده السيوطى وغيره من أن المقتدى هو الذى لقب يوسف بذلك اللقب ، اذ يذكر حسين مؤنس فى مقالته بمجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد : سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين ، ان الخليفة المستظهر بن المقتدى بعث لعلى بن يوسف بن تاشفين بخطاب اطلق عليه فيه لقب : مقيم الدولة العباسية وزعيم جيوشها المرابطية . مما يعنى أن لقب أمير المسلمين لقب محلى .

أنظر : ابن الاثير : المصدر السابق ، مجلد ٨ ، ص ١٤٣ . ــ مجهول : الحلل الموشية ، ص١٩ ــ ٢٠ . ــ السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص٤٢٤ ــ ٤٢٥ . ــ حسين مؤنس : سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين ، مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ، المجلد الثانى ، العدد ١ ، ٢ ، ص ٦٣ ــ ٦٤ . ــ محمد عبدالله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص٤١ ــ ٤٢ .

(١) : المقرى : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص١٠٤ ــ ١٠٥ .

(٢) : السلاوى الناصرى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٣ ــ ٥٤ .

ويخيل الينا ان هاتين الروايتين لا يمكن الركون اليهما ،فالمواجهة المكشوفة مع ملوك الطوائف بعد سقوط مملكة غرناطة كانت مع المعتمد بن عباد . وقد رأينا ابن زيرى يروى لنا جواب المعتمد ليوسف الذى سقناه ،وابن زيرى شاهد عيان واقرب للاحداث وتبدو روايته معقولة منطقية ،ولذلك فنحن نستبعد ان يكون يوسف قد آثر ترك المعتمد حتى تسقط ممالك الطوائف كما تقول رواية المقرى ،كما نستبعد ان يكون الامير سير قد تصرف من تلقاء نفسه كما تومئ اليه رواية السلاوى . ولكن الرواية الاقرب للمنطق والوجهة العسكرية البحتة هى رواية صاحب الحلل الموشية . اذ يذكر انه عندما استقر رأى يوسف بن تاشفين على اقصاء ملوك الطوائف ،واتجه نحو ثغر سبتة عام ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م كما ذكرنا . ومن هناك اتخذ الاستعدادات لمنازلة ملوك الطوائف ،وجهز قطائع او كتائب كل كتيبة عبارة عن جيش كامل وعين عليها اربعة من قواده عهد الى كل واحد منهم بمهمة معينة فى منطقة معينة ايضا . ويظهر من خلال هذه الخطة ان يوسف قد وضع خطة عسكرية استراتيجية تهدف الى الاطباق على كل نواحى مملكة اشبيلية وبقية ممالك الطوائف فى آن واحد . فعهد لابن عمه الامير سير بن ابى بكر بالتوجه نحو اشبيلية ،ثم اذا فرغ من امرها توجه نحو بطليوس حيث ابن الافطس .، وعهد لقائده الآخر ابى عبد الله بن الحاج بالتوجه نحو قرطبة ومنازلة الفتح ابن المعتمد فيها ،وعهد لقائده الثالث قرور او جرور الحشمى بالتوجه نحو مدينة رندة التى كان يتولاها يزيد الراضى بن المعتمد ، وعهد اخيرا الى قائده الرابع زكريا بن واسنو بالتوجه نحو المرية حيث المعتصم بن صمادح .(١)

وهكذا فقد تهيأت الجيوش المرابطية لممارسة دورها كل فيما يخصه ،فاتجه الامير سير بن ابى بكر نحو اراضى مملكة اشبيلية فنازل بعض المواقع وافتتح فى طريقه جزيرة طريف التابعة لها .(٢) وتوجهت كتيبة اخرى نحو مدينة جيان فحاصرتها ودخلتها صلحا كما فى رواية صاحب القرطاس .(٣) وهناك رواية لابن الخطيب تقول ان القوات المرابطية انهزمت امام القوات النصرانية التى استنجد بها المعتمد عندما بدأت مضايقة المرابطين له .(٤)

والواقع ان ما اشار اليه ابن الخطيب من مجيء النصارى لمساعدة المعتمد امر لم يقم عليه الدليل ،فلم يذكر احد غيره ذلك . ولكن هذا لا ينفى اطلاقا ان المعتمد

---

(١) : مجهول : الحلل الموشية : ،ص ٥٩ ــ ٦١ .
(٢) : عبد الواحد المراكشى : المصدر السابق ،ص ٢٠٠ ــ ٢٠١ .
(٣) : صالح بن عبد الحليم ،ص ١٠٠ .
(٤) : اعمال الاعلام ،ص ١٦٣ .

فكر فى الاستعانة بالنصارى وبالفونسو على وجه التحديد . وهو ما كان يتوقعه يوسف بن تاشفين ، ولذلك كان مترددا فى الاجهاز على مملكة ابن عباد حتى تتبين له علانية خطيئة اتصاله بالنصارى . والمعتمد نفسه لم ينكر ذلك، فعندما وجد نفسه محاصرا من قبل الجيوش المرابطية (وقامت عليه الرعايا بكل قطر ، فأرسل اذ ذاك الى الرومى يستغيث به فقعد عنه خيفة من التغرير ، وهى حجة أمير المسلمين على بن عباد ان قال له : ظفرت بكتبك الى الرومى ، وارسالك عنه)(١) . ولقد كانت اجابة المعتمد على خطاب يوسف بن تاشفين تدل دلالة قاطعة على انه غير مستعد اطلاقا الى تسليم مملكته الى المرابطين حتى لو أفضى به الامر الى مواجهة يوسف بن تاشفين . وفى الواقع ان هذا الاجراء من الناحية البشرية الصرفة ربما يتيح لنا أن نتفهم — من وجهة نظره — دوافعه الى الاستعانة بالنصارى .

وعلى أية حال فقد أتاح المعتمد بجوابه ليوسف ابن تاشفين المبرر لاقصائه وخلعه مستندا فى ذلك على سند شرعى ملموس . وتقول رسالة المعتمد ليوسف بن تاشفين التى دافع فيها عن نفسه فى طلب الاستعانة بالنصارى : (لو فعلته قبل أن تؤخذ بلادى بطرا واشرا ، كنت ألام ! ، وأما بعد أن رأيت طلبى فى الروح ، اضطرتنى الضرورة الى ذلك للمدافعة ولو يوما واحدا .)(٢)

ومن كلام عبد الله بن زيرى نتبين أن الفونسو قد تقاعس عن مد يد العون الى المعتمد خوفا من التغرير به فى أول الأمر ، ولكنه عاد الى تقديم نصرته بعد قليل كما سنرى بعد .

كانت جيان أول قاعدة عبادية تسقط فى يد المرابطين ، وقد توجهوا بعد ذلك نحو مدينة قرطبة عاصمة الخلافة القديمة وضرب عليها القائد المكلف بافتتاحها محمد بن الحاج(٣) حصارا شديدا طال لمدة شهور عدة ، مما اضطر حاكمها الفتح بن

---

(١) : عبد الله بن زيرى : المصدر السابق ، ص ١٦٩ .

(٢) : نفس المصدر والصفحة .

(٣) : وفى رواية اخرى لصالح بن عبد الحليم صاحب كتاب روض القرطاس تقول (ان الذى فتح قرطبة هو القائد : بطى بن اسماعيل) .

المعتمد الملقب بالمأمون الى أن يبعث بآله وولده الى حصن المدور الذى حصنه وشحنه بالاسلحة والعتاد (١) . ويقول ابن خاقان ان اهل قرطبة كانوا يتوقون الى أن تقع مدينتهم فى ايدى المرابطين ولذلك اخذوا يدعون داخل المدينة شمالهم . وعلى اية حال فان الفتح لم يستطع البقاء طويلا فى حصاره ، فقد استطاع المرابطون التسلل ناحية السور ومن ثم أطبقت جيوشهم على المدينة فى شهر صفر من عام ٤٨٤هـ/مارس ١٠٩١م . وافتتحت المدينة عنوة وقتل الفتح بن المعتمد وقطع رأسه وحز ، ثم طيف به على سن رمح (٢) .

واتجه المرابطون اثر ذلك الى الاستيلاء على بقية معاقل المملكة الاشبيلية فاستولوا على كل من مدينة ابدة ، وبياسة ، وشقورة ، ثم استولوا على حصن المدور وأخيرا قلعة رباح . مما يعنى أنهم قد استطاعوا احكام سيطرتهم على معظم اراضى الوادى الكبير (٣) ، ولم يبق من معاقل مملكة اشبيلية سوى رندة وقرمونة واشبيلية ومرتلة (٤) . على انه لم يمض وقت يسير حتى سقطت قرمونة بدورها فى ربيع الاول عام ٤٨٤هـ/مايو ١٠٩١م . ثم جاء الامير سير بن أبى بكر نحو اشبيلية فحاصرها بقوات ضخمة أوحت للمعتمد أنها قضية حياة أو موت ، وسقوطها تسقط مملكته كلها . ولذلك بعث مرة أخرى الى الفونسو السادس يستصرخه . وهنا تحرك الفونسو السادس عندما شعر بخطورة ما يجرى فى اسبانيا الاسلامية ، وبات ينظر للخطر المرابطى على انه ليس قاصرا على الممالك الاسلامية ، بل يتعداها الى شبه الجزيرة الاسبانية كلها . ولذا فقد بادر فورا الى تجهيز حملة على وجه السرعة بقيادة قائده البرهانس اختلف فى عددها ، وكذلك اختلف فى عدد الجيش المرابطى (٥) . والتقت الجيوش المرابطة والقشتالية بالقرب من اشبيلية ، وانتهى اللقاء بانتصار المرابطين انتصارا باهرا (٦) .

ويفهم من خلال الروايات المتعددة لاحداث حصار اشبيلية عدة أمور منها : أن حصار اشبيلية قد طال الى نحو أربعة شهور ، وان المدينة قد

---

(١) : ابن خاقان : قلائد العقيان ، ص ٢٢ .
(٢) : نفس المصدر والصفحة .
(٣) : محمد عبدالله عنان : دول الطوائف ، ص ٣٤٩ ــ ٣٥٠ .
(٤) : نفس المرجع والصفحة .
(٥) : نفس المرجع ، ص ٣٥٠ ــ ٣٥١ .
(٦) : نفس المرجع والصفحات .

استبسلت في الدفاع حتى لقد أثارت اعجاب واستغراب القائد المرابطي الامير سير بن ابى بكر كما يفهم من سياق تلك الروايات[١] أن ثورة شعبية داخلية قد نشبت في الايام الاخيرة من الحصار بالتواطؤ مع المرابطين وقد دعت بدعوتهم وهدفت الى اثارة جو من البلبلة والقلاقل في المدينة تتيح للمرابطين الدخول الى البلد في ذروة الانشغال بذلك • غير أن المعتمد الذي وقف على مخططهم هذا لم يشأ أن يعاقبهم بالقتل كما هو متوقع ولكنه آثر الصفح عنهم[٢]• كما يفهم أيضا أن ثورة اخرى قد نشبت وكاد المعتمد يذهب ضحيتها قتيلا على يد أحد الفرسان المرابطين الذين استطاعوا بمساعدة أولئك الثوار أن يتسللوا الى المدينة غير أن المعتمد بذل جهدا واضحا في الدفاع عن نفسه وعن مدينته • الا أن الامير سير وضع خطة عسكرية تهدف الى احراق السفن الراسية في شاطئ الوادي الكبير • فقد وضع هذه الخطة لتصادف في الوقت نفسه الثورة الداخلية بوساطة أعوانه هناك وبالفعل ما كاد يتنفس المعتمد الصعداء في ذلك اليوم الذي نشبت فيه الثورة الثانية حتى كانت القوات المرابطية قد أنهت مهمتها باحراق السفن في عصر ذلك اليوم نفسه وهو الثاني والعشرين من شهر رجب ٤٨٤ هـ/سبتمبر ١٠٩١م[٣]• وعم الفزع والرعب سكان المدينة وبذل المعتمد جهده في الدفاع واستمات في سبيل ذلك • وعندما يأس من المقاومة عنّ له أن ينتحر ويقتل نفسه بيده ولكنه عاد بعد ذلك (فصرفه تقاه عما كان نواه)[٤]• وسقطت المدينة أخيرا في يد المرابطين وقتل في أثناء ذلك عدد

---

(١) : عبدالله بن زيرى : المصدر السابق ، ص١٧٠ • — محمد عبدالله عنان : دول الطوائف ، ص ٣٥١ •

(٢) : عبدالواحد المراكشي : المصدر السابق ، ص ٢٠٠ — ٢٠٢ •

(٣) : هذا هو التاريخ الصحيح كما جاء في رواية عبدالله بن زيرى المعاصره ، وكما ورد في الروايات النصرانية التي تؤرخ ذلك بتاريخ ٧ سبتمبر الموافق تماما للتاريخ الهجرى المذكور كما يقول محمد عبدالله عنان •
أنظر : عبدالله بن زيرى : المصدر السابق ، ص١٧٠ — محمد عبدالله عنان : دول الطوائف ، ص ٣٥٢ • ح ١ من نفس الصفحة •

(٤) : ابن خاقان : قلائد العقيان ، ص ٢٢ — ٢٥ •

كبير من الجيش الاشبيلي وأفراد من الشعب • كما قتل ابن للمعتمد اسمه مالك • أما المعتمد فقد قبض عليه وقيد وكبل وانتهب الجنود القصور الفخمة وجميع ما قد زوا عليه (١)

وهكذا كانت نهاية هذا الملك الذى كان يعتبر وقتها أقوى ملوك الطوائف ، وتعتبر مملكته أكبر تلك الممالك وأقواها ، فسقطت سراعا فى مدة يسيرة • وهذا انما يدل على وهن الاساس الذى قامت عليه ، وعلى ما أصابها من تصدع داخلى اجتماعى خطير جعل السكان يتوقون الى استبدالها بعد أن مل الناس هذه الدولة ، (٢) وضجوا بالشكوى من تصرفات وسياسات ملوكها التى تستنزف الموارد والمحاصيل •

وقد أشرنا الى أن فرقة من الجيش المرابطى توجهت بقيادة قرور أو جرور الحشمى الى رندة لمحاصرة يزيد الراضى بن المعتمد وحاصره فعلا • وامتنع هذا بالقلعة وكانت رندة حصينة تماما بتحصيناتها الطبيعية والبشرية • ولذا فلم يكن فى امكان المرابطين الاستيلاء عليها بسرعة لانها كانت قادرة على مواصلة المقاومة طويلا بفضل ماكان لها من حصانة • وقد حاصرها المرابطون فى الوقت الذى كانوا يحاصرون

---

(١) : يرجع فى اخبار ثورة وسقوط اشبيلية الى :
ـ عبد الواحد المراكشى : المصدر السابق ، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٤ • ـ ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الرابع ـ المجلد الاول ، ص ٤٢ ، وص ٤٥ ـ ٤٦ • ـ عبد الله بن زيرى : المصدر السابق ، ص ١٧٠ ـ ١٧١ • ـ صالح بن عبد الحليم : المصدر السابق ، ص ١٠٠ ـ ١٠١ • ـ ابن خاقان : قلائد العقيان ، ص ٢٣ ـ ٢٥ • ـ المقرى : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣٧٨ ـ ٣٧٩ (نقلا عن ابن اللبانة معاصر تلك الاحداث) • ـ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ص ١٦٤ ـ ١٦٥ ، والاحاطة ، ج ٢ ، ص ١١١ ـ ١١٢ • ـ محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ، ص ٣٥٠ ـ ٣٥٥ •

(٢) : المقرى : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣٧٨ •

فيه اشبيلية ، وعندما سقط المعتمد أسيرا فى يد المرابطين امتنع يزيد الراضى فيها ولم يصغ لنداءات المرابطين له ، وصمم على المقاومة حتى النهاية ، غير أنه استجاب لنداء أبيه له واستعطافه اياه . ويبدو أن المعتمد تعرض لضغط مرابطى شديد ليطلب الى ابنه بالاستسلام، فاضطر الابن تحت الحاح والده وبعد تأكيدات من المرابطين بضمان حياته هو وأولاده وخاصته الى النزول عن المدينة وتسليمها الى القائد المرابطى . غير أن هذا القائد ما عتم أن غدر به فقتله (١). ويحمل ابن زيرى (٢) على عدوه قرور ويتهمه بالقيام بأعمال شنيعة فى رندة . ولكن ما يهمنا هنا هو أن رندة قد سقطت فى يد المرابطين ، وأنهم لم يفوا بتعهداتهم نحو الراضى فقتلوه .

أما مدينة مرتلة أو مردلة التى تحصن بها الابن الثالث للمعتمد وهو الملقب بالمعتد ، فقد حاصرته القوات المرابطية ، فامتنع بها وتحصن . وكانت مرتلة منيعة حصينة على غرار حصانة رندة . ولكنه استجاب لنداء أبيه ووالدته اعتماد الرميكية ، فنزل عن المدينة للمرابطين ، فقبضوا عليه ، وصادروا جميع أملاكه وأمواله (٣).

وبهذه النهاية زالت دولة بنى عباد فى عام ٤٨٤هـ/ ١٠٩١ م بعد حكم ناهز سبعين عاما . كانت فيه دولة بنى عباد درة الممالك الاسلامية فى الاندلس آنذاك وأقواها وأبرزها رونقة وبهاءا . وحمل المعتمد بآله وأهله الى المغرب الاقصى حيث استقر به المقام هناك فى مدينة أغمات ، حيث بقى هناك يتجرع المرارة والأسى ، ويجتر الذكريات السعيدة لملكه وهنائه .

ومن الضرورى أن نشير هنا الى أنه قد جرت محاولة فاشلة لاعادة سلطان دولة بنى عباد قام بها ابنه عبد الجبار الذى

---

(١) : انظر عبد الله بن زيرى : المصدر السابق ، ص ١٧١ . ـــ عبد الواحد المراكشى : المصدر السابق ، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤ . ـــ ابن خاقان : قلائد العقيان ، ص ٢٢ ـ ٢٣ .

(٢) : انظر المصدر السابق ، ص ١٧١ .

(٣) : عبد الواحد المراكشى : نفس المصدر السابق ، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤ .

استقر بمدينة آركش مدة من الزمن وتحصن بها ، غير أن هذه المحاولة باءت بالفشل والخذلان وقتل عبد الجبار على يد المرابطين وسحقت ثورته . وقد تركت ثورته هذه مضاعفاتها السيئة على أبيه فى منفاه ، فشدد المرابطون عليه الخناق . وخاف المرابطون من جراء ذلك أن تؤدى تلك الثورة الى احداث وردود فعل أخرى ، فاشتطوا فى معاملته وتقييده وتكبيله (١) .

ويبقى أخيرا فى قصة مأساة المعتمد ما أتهم به ظلما وعدوانا ، وما لحق بشخصه من فرية واختلاق ، أعنى بذلك قصة زايدة (ابنة المعتمد) التى عرضت قضيتها كتب المؤرخين النصارى قديما (٢) . ولقد عرضت قضية زايدة (ابنة المعتمد) كما يزعم اولئك المؤرخون وسط ستار من الشك والتضليل . وقد ظلت هذه القضية مثار جدل منذ القرن الثامن عشر الميلادى وحتى أوائل القرن العشرين (٣) عندما أثبت البحث العلمى خطأ ذلك الاعتقاد ، وأثبت أن زايدة ليست ابنة المعتمد ، كما أثبت البحث

---

(١) : أنظر ابن خاقان : قلائد العقيان ، ص٢٨ ـ ٢٩ . المقرى : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص٣٤٩ ـ ٣٥٠ .

(٢) : الواقع أن المؤلفات الاسبانية هى التى أشارت الى هذه القضية . ولم تشر أية رواية اسلامية لهذه الاحداث اطلاقا اللهم الا الروايتين اللتين اعتمد عليهما ليفى بروفنسال فى تحقيقه لشخصية زايدة ، وهى رواية ابن عذارى فى كتابه البيان المغرب فى اخبار سنة ٥٠١هـ (١١١٨م) ، وكذلك رواية الونشريشى صاحب كتاب المعيار المغرب والجامع المعرب من فتاوى أهل افريقية والاندلس والمغرب ، طبع فاس سنة ١٣١٤ هـ . نقول عدا هذين النصين فى المصادر الاسلامية لم تشر الى تلك الاحداث الا الروايات النصرانية : كمدونة الاسقف رودريج الطليطلى المؤرخ الرسمى فى عهد الملك فرديناند القديس والتى وضعها عام ١٢٤٣م وهى رواية بعيدة عن الاحداث تماما ، وكذلك رواية للمؤرخ بلايو أوفيدو معاصر الفونسو والتى رواها من بعده أسقف توى فى كتابه : Chronicon Murdi الذى يعود الى عام ١٢٣٦ م . حتى لقد نشأ فى ظل تلك الروايات النصرانية ما يعرف بملحمة زايدة المسلمة :

انظر ، ليفى بروفنسال : الاسلام فى المغرب والاندلس ، ص ١٥٥ .

(٣) : ليفى بروفنسال : نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ١٥٣ .

العلمى أن المعتمد لم يقدم زايدة ولا غيرها الى الفونسو كما تزعم الروايات النصرانية المذكورة .

وخلاصة تلك القضية أن الروايات النصرانية تشير الى أن المعتمد عندما رأى خطر المرابطين يحدق بمملكته اتصل بالفونسو وعرض عليه أن ينزل له عن قونقة ووبذة ، واقليش وأوكانيا وكونسويجرا ، وغيرها من الأماكن ، كما أنه قدم له - وهنا مكان التشكيك والتضليل - ابنته زايدة لتكون زوجة له . كل ذلك مقابل أن يساعده فى مواجهته للمرابطين . وبالفعل وافق الفونسو على ذلك وتزوج زايدة وأنجب منها ابنه الوحيد سانشو الذى قتل فى موقعة اقليش عام ٥٠١ هـ / ١١٠٨ م ، (١) بين المرابطين والنصارى والتى انتهت بانتصار المرابطين . (٢) ولقد أشارت تلك الروايات النصرانية أيضا الى أن المرابطين عبروا الى الاندلس لمحاربة المعتمد ومعاقبته لانه زوج ابنته لألفونسو . (٣)

وفى الحقيقة أن ليفى بروفنسال قد استوفى فى كتابه " الاسلام فى المغرب والأندلس " جميع ماورد حول هذه القضية . ووصل الى خلاصة منطقية وتاريخية قاطعة بأن المرأة التى أشارت اليها المراجع النصرانية قديما وحديثا ليست ابنة المعتمد . بل كنّته أى زوجة ابنه الفتح الملقب بالمأمون حاكم قرطبة الذى قتل كما قلنا على يد المرابطين . ولقد ذكرنا أن الفتح عندما رأى محاصرة المرابطين له بعث بزوجته وأبنائه الى حصن المدّور . وتدعى هذه الزوجة زايدة فعلا . ومن هنا ربما اختلط الأمر على المراجع النصرانية . فجعلتها ابنة المعتمد . وعندما رأت زايدة المرابطين يطبقون على حصن المدّور بعد مقتل زوجها الفتح ، توجهت فارة بنفسها وأولادها الى قشتالة فدخلت فى حماية الفونسو السادس . وهناك استطاع الفونسو اغراءها واقناعها بأن تكون خليلة له . وأثمر هذا اللقاء عن انجاب زايدة مولودا ذكرا

---

(١) : تسمى معركة اقليش فى كتب التاريخ المسيحية باسم : معركة القوامس السبعة لاشتراك سبعة من كبار قوامس قشتالة فيها .
انظر ، ابن القطان : نظم الجمان ، ح ١ ، ص ٧ .

(٢) : ليفى بروفنسال : الاسلام فى المغرب والاندلس ، ص ١٥٢ - ١٥٤ .

(٣) : نفس المرجع ، ص ١٥٦ .

سمى بسانشو ، وكان الابن الوحيد لألفونسو . وقد تنصرت زايدة ، وعمدت باسم ايزابيلا ، وفى رواية أخرى باسم ماريا . وقد توفيت زايدة عند ولادتها ابنها سانشو عام ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م . ثم مالبث ولدها سانشو أن توفى صبيا لما يتجاوز العاشرة من عمره فى موقعة اقليش كما أشرنا منذ قليل (١) .

وهكذا استطاع ليفى بروفنسال أن يثبت أن التى اتخذها الفونسو عشيقة وخليلة هى زايدة كنّة المعتمد وليست ابنته . ونفى بالأدلة المنطقية التى لاتجيز وقوع ذلك عقلا من أمير مسلم كان فى ذلك الوقت على خلاف مع فقهاء حضرته وفقهاء الاندلس عموما حدوث ذلك كما أثبت بالأدلة التاريخية الاسلامية حقيقة شخصية زايدة (٢) . كما أن من المفيد أن نذكّر هنا بالمرافعة المنطقية والتاريخية التى وردت فى كتاب دول الطوائف لمحمد عبدالله عنان (٣) .

غير أن هذه القضية رغم كونها قد بتّ فيها منذ العقد الثالث من القرن العشرين ، الا أن هناك من المؤرخين الأسبان المعاصرين من لم يقتنع بعد بحقيقة ذلك كالمؤرخ الاسبانى رامون مننديث بيدال صاحب كتاب أسبانيا فى عهد السيد (٤) ، كما وجد من المحدثين العرب أيضا من لم يقتنع بذلك أيضا (٥) .

---

(١) : أنظر ليفى بروفنسال : المرجع السابق ، ص ١٥٤ ، وص ١٥٧ ، و ص ١٦٠ .

(٢) : انظر النص فى المرجع السابق ، ص ١٥٢ ـ ١٦٢ . والحواشى .

(٣) : ص ٣٤٥ ـ ٣٤٨ والحواشى .

(٤) : أنظر ليفى بروفنسال : نفس المرجع ، ص ١٥٢ ـ ١٦٣ مع الحواشى فى نفس الصفحات أيضا .

(٥) : أنظر مثلا : حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٣٠٤ ، وح ١٠ من نفس الصفحة .

الأيام الأخيرة فى حياة المعتمد بالله :ـ

استولى المرابطون على اشبيلية ، واستولوا من قبل على قرطبة وبقية معاقل المملكة العبادية ، وقتل فى أثناء تلك المواجهة المسلحة بين المرابطين والعباديين بعض ابناء المعتمد ، فبكاهم أحر بكاء . وسيق هو وبقية عائلته الى المغرب الاقصى . وعبر البحر نحو طنجة . ثم استقر به المطاف أخيرا في مدينة أغمات (١) حيث عاش فى شظف من العيش مدة أربع سنوات تقريبا من عام ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م وهو العام الذى خلع فيه كما قلنا حتى عام ٤٨٨ هـ (٢) / ١٠٩٥م الذى توفى فيه وهو يتعد السادسة والخمسين من عمره على الأرجح (٣) .

وبهذه النهاية المأساوية أفل نجم ذلك الملك الفريد المترف الاديب السياسى الذى أثار بأعماله وسياسته من الاشفاق والعطف عليه أكثر مما أثار من النقض والقدح له . أفل نجمه وغابت شمسه التى كانت تسطع فى سماء الاندلس عطرا وشذا وألقا أدبيا رفيعا . وسيق الى منفاه فى مشهد حزين رقت له القلوب وسالت فيه العبرات . وأذكت مأساته هذه ومحنته التى اتخذت مسحة روائية كانسان طريق منفى فقير بعد العزة القعساء والملك الفسيح والمجد

---

(١) : أغمات بليدة وراء مراكش (فى المغرب الاقصى) بينهما مسير عشر ساعات ، وهى الان قرية صغيرة .
انظر ، عبد الواحد المراكشى : المصدر السابق ، ح ٢ ، ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨ .

(٢) : اتفقت أقوال معظم المؤرخين أن وفاة المعتمد كانت فى عام ٤٨٨هـ .
انظر مثلا : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثانى ـ المجلد الاول ، ص ٤٦ ، ، وكذلك ح ١ من نفس الصفحة . ـ ابن الخطيب : الاحاطة فى اخبار غرناطة ، مجلد ٢ ، ص ١١٩ . ـ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ١٦ جزءا ، ج ٥ ، ص ١٥٧ .

(٣) : ذلك لان البعض قال انه كان يبلغ عند وفاته الحادية والخمسين ، وقال البعض الاخر الخامسة والخمسين ، وقال عبد الواحد المراكشى الحادية والستين ، وكان قد قال قبل ذلك الحادية والخمسين . غير أن الثابت أنه ولد عام ٤٣١ هـ فى حياة جده القاضى أبى القاسم .
أنظر : عبد الواحد المراكشى : المصدر السابق ، ص ٢٠٧ ، وكذلك ح ٣ من نفس الصفحة .

الأثيل والذكر التالد . نقول أذكت مأساته ومحنته هذه عطف المؤرخين والادباء والناس قديما وحديثا ، واستدرّت لفترة طويلة من الزمن عطفهم وحبوهم عليه (١).

والحقيقة أن ما آلت اليه نهاية المعتمد تحز فى النفس وتؤثر فى الحشا . فلقد عومل للأسف بقسوة لامعنى لها من قبل يوسف بن تاشفين والمرابطين على السواء ، معاملة لاتليق بملك مخلوع أذلّه الزمن . ولم يراع يوسف بن تاشفين معاملته بما تستوجبه الشريعة من الرحمة بكبير أو عزيز فى القوم خاصمه الزمن وأذله . ويكفى أن نشير فى وسط ذلك الكم الكبير من العاطفة الجياشة نحو المعتمد الذى تناول فيه أولئك المورخون والادباء حياته فى المنفى ، يكفى أن نشير الى عدة حقائق مؤلمة مرة منها أن المعتمد عاش للأسف الشديد طوال مدة النفى تلك فى فاقة وعوز شديدين وضيق عليه المرابطون الخناق وكفوا عنه أسبابا من المعيشة لاتليق حتى بلغ (من حال المعتمد على الله بأغمات أن آثر حظيانه وأكبر بناته ألجئت الى أن تستدعى غزلا من الناس . تسد بأجرته بعض حالها وتصلح به ماظهر من اختلالها فأدخل عليها فيما أدخل غزل لبنت عريف شرطة أبيها ، كان بين يديه يبزع الناس يوم بروزه لم يكن يراه الا فى ذلك اليوم) (٢). هل كنا نصدق - لو لم يشر المعتمد نفسه لذلك (٣) - ان يبلغ ضيق ذات اليد والحال بالمعتمد وبناته ان يعملن فى الغزل والنسيج ؟؟ . وهل كنا نصدق أن تبلغ به وبأبنائه الفاقة الى أن يعمل أبناءه فى الحدادة أو الصياغة (٤) ؟؟ . هذا ما حدث فعلا ورواه المعتمد فى أشعار باكية حزينة .

والحقيقة المؤلمة الثانية فى نهاية المعتمد الفاجعة أن المعتمد عومل بقسوة شديدة من قبل يوسف بن تاشفين الذى كان يكن

---

(١) : ابن الابار : المصدر السابق والجزء ، ص ٥٨ - ٥٩ . - على أدهم : المرجع السابق ، ص ٣٣٥ - ٣٣٦ .

(٢) : عبدالواحد المراكشى : المصدر السابق ، ص ٢١٧ .

(٣) : انظر ابن خاقان : القلائد ، ص ٢٧ - ٢٨ . - عبدالواحد المراكشى : نفس المصدر السابق ، ص ٢١٨ .

(٤) : انظر المقرى : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣٣٦ - ٣٣٧ (نقلا عن ابن اللبانة)

يكن له حتى وقت قريب كل امارات الود والاعجاب (١) . ولكن هذا الاعجاب والود انقلب الى كره عميق وقسوة بالغة ليست مستساغة اطلاقا . اذ يذكر المعتمد نفسه ان يوسف بن تاشفين لم يكتف باذلاله بالعيشة الضنكة التي رتبها له وقبل ذلك نفيه واستيلائه على ملكه لم يكتف بذلك بل وكبّله بالاغلال والقيود ومعظم أيامه تلك زيادة فى اهانته وذله (٢) . وهو موقف غير محمود من أمير المسلمين . ومما يزيد الاستياء أكثر ان يوسف بن تاشفين قد صدر فى معاملته للمعتمد تلك عن تحيز وكره عنصرى . والا فما الفرق بين المعتمد وعبدالله وتميم ابنى زيرى البربريين ؟؟ فقد عامل يوسف بن تاشفين عبدالله وشقيقه معاملة حسنة وفك اسارهما وأطلق لهما بعض أموالهما وأجرى عليهما رزقا كفاهما معرّة السؤال والالحاف . حتى ان عبدالله بن زيرى عاش عيشة هنية كما يقول هو نفسه وأنجب أولادا وبناتا ومات وقد ترك لهم ثروة لابأس بها (٣) . أما المعتمد فقد عامله بغير ذلك كما رأينا وكذلك عامل أمراء بنى الافطس الذين قضى عليهم . مما جعل مسألة اتهامه بالتحيز والعنصرية مطروحة للتساؤل . بل وقد نقص اعجاب بعض المؤرخين بيوسف بن تاشفين لمعاملته الفظة للمعتمد ، حتى لقد حمل عليه بعضهم (٤) فى ذروة تعاطفه مع المعتمد بعبارات قاسية غير مستساغة . كما استغل المؤرخ الهولندى دوزى (٥) ذلك الموقف فاتهم يوسف بأنه كانت تنقصه فضيلة الشهامة ازاء المغلوبين .

على أنه يجب أن ننبه الى أن دوزى كان يصدر فى حكمه ذلك عن بغض يكاد يكون شخصيا ، لان اعجابه بالمعتمد بن عباد جعله يكره من خلعوه عن عرشه (٦) .

---

(١) : كما جاء فى رسالة يوسف بن تاشفين الى المعز بن باديس امير افريقية المذكورة سابقا التى يمدح فيها المعتمد ويثنى عليه .
انظر : محمد عبدالله عنان : دول الطوائف ، ص ٢٤٦ ـ ٢٤٨ .

(٢) : انظر ، ابن خاقان : القلائد ، ص ٣٣ ـ ٣٤ . ـ رضا الحبيب السويسى : ديوان المعتمد بن عباد ملك اشبيلية ، ص ١٧٦ .

(٣) : ابن الخطيب : الاحاطة فى اخبار غرناطة ، ح ؟ ، ص ٣٨١ .

(٤) : نعنى بذلك ابن الاثير .
انظر النص فى كتاب : المعتمد بن عباد لعلى أدهم ، ص ٣٣٣ ـ ٣٣٤ .

(٥) : ملوك الطوائف ، ص ٣٦٤ .

(٦) : حسين مؤنس : بحث بعنوان : سبع وثائق جديدة ، ص ٥٧ .

والحقيقة الثالثة المؤلمة أنه حتى وان كان للمعتمد أخطاء مميتة وقاتلة — وانها فى بعضها لكذلك — فان الأمر يقتضى من الناحية الانسانية البحتة حسن المعاملة والحفاظ على الكرامة والعزة من أن تداس وتمرغ . هذا فضلا عن الناحية الدينية التى تفرض كما قلنا على الغالب معاملة المغلوب بالحسنى وتفرض كذلك الرحمة والرأفة به . ثم اذا كان يوسف ابن تاشفين قد أخذ على المعتمد استعانته بالنصارى وتأليبهم على المسلمين فيجب عليه حينئذ أن لا يفرق فى المعاملة بين أمراء وملوك الطوائف الذين وقعوا فى الخطأ ذاته ومع ذلك وضع يوسف بن تاشفين يده فى أيديهم . ونعنى بنو هود فى سرقسطة فقد صانعهم أمير المسلمين وهادنهم وهم الذين لم يستعينوا بالفونسو فقط ، بل واستعانوا من قبل ومن بعد بممالك النصارى المجاورة كنبرة وأرغونة وبرشلونة ، كما استعانوا بالسيد القمبيطور لتحقيق أغراض ذاتية ضيقة كما قلنا . ومع هذا فقد صانعهم يوسف بن تاشفين وهادنهم وأبقى على مملكتهم بل وبعث للمستعين بن هود يطمئنه ويهدئ من روعه[(١)] . وألح على ابنه وولى عهده على أن يصانع أمراء سرقسطة ويهادنهم حتى يكونوا فيصلا وحاجزا بينه وبين النصارى[(٢)] . وفى هذا ما يثير التساؤل من أن يوسف بن تاشفين كانت تحركه أغراض أخرى غير الدوافع الدينية . والا ألم تكن قوة المرابطين الفتية بقادرة على مواجهة ممالك النصارى والوقوف أمامها وجها لوجه مطمئنة هذه المرة على نفسها من أن تطعن من الخلف أى من ملوك الطوائف الذين انمحى أثرهم وذهب رسمهم ؟؟ .

والحقيقة الرابعة أنه لم يكن هناك مبرر لتلك القسوة حتى من الناحية الأمنية المحضة . فالمعتمد لم يكن له ثقل سياسى أو عسكرى فى الاندلس يخشى منه . وبمعنى آخر لم يكن المعتمد حاكم عموم الاندلس الذى تجمعت القلوب حوله . فالمعتمد لم يزد على أن يكون

---

(١) : كما تشير الى ذلك الخطابات المتبادلة بين يوسف بن تاشفين والمستعين بن هود التى تطمئن المستعين ، وتظهر رضاء يوسف عليه .
انظر ، مجهول : الحلل الموشية ، ص ٥٩ — ٦١ .

(٢) : انظر ، محمد عبدالله عنان : دول الطوائف ، ص ٣٧٢ .

أحد ملوك تلك الممالك الكثيرة التي كانت تموج بها الاندلس وقتها ٠ نعم هو أعظم ملوك الطوائف ودولته كذلك ولكنه في كل الأحوال لم يكن الا حاكما إقليميا لمنطقة معينة من الاندلس لم تكن هي نفسها تكن المودة والمحبة للمعتمد وآله ٠ اذاً فليس هناك ثقل سياسي أو عسكري يخشى منه يوسف بن تاشفين فيضطر حذرا الى معاملته بتلك القسوة وافهام مؤيدي المعتمد بعقم جدوى التفكير بأي محاولة لاعادة سلطانة وسيطرته على أراضي مملكته الذاهبة ٠ بل ان الرعية رغم ما أظهرته من تعاطف مع المعتمد عند خلعه وخروجه من عاصمته كانت تتوق الى التخلص من العباديين ومن كل ملوك الطوائف جملة وتتوق أيضا الى الانضواء تحت السلطة الاسلامية العادلة الجديدة (١) ٠ حتى ثورة ابنه عبد الجبار في آركش لم يكن لها أي مضمون سياسي واسع ٠ صحيح ان عبد الجبار استطاع أن يجتذب اليه أعدادا كبيرة من المؤيدين والمنافحين ولكنه لم يدع يوما من الايام باسم أبيه ولم تكن ثورته على عنفها لتؤلب الاندلسيين جميعا ضد المرابطين وتفرض على يوسف كارها أن يطلق سراح المعتمد ويعيده الى عرشه مثلا ٠ فهي مجرد فقاعة وفورة غضب لم تلبث يسيرا حتى تلاشت بمقتل عبد الجبار ٠ ومع هذا فقد عومل المعتمد بعد ثورة ابنه معاملة اقسى كثيرا من سابقتها (٢) ٠

وعلى أي الأحوال فقد ظلت هذه المعاملة القاسية المهينة للمعتمد تاريخ يوسف بن تاشفين المشرق وسجله الناصع بظلال قاتم داكن ٠ وقد شقي المرابطون كما يقول عبد القادر زمامة "بقضية المعتمد وكيل لهم بالحق والباطل مانشاهده في آثار الاقلام الشرقية والغربية" (٣) وغدت مسألة تلك المعاملة جزء لا يتجزأ من تاريخ يوسف تواجه كل من تعرض لتاريخ يوسف بن تاشفين بالكتابة والقراءة ، أو تعرض للأحداث السياسية التي لازمت سقوط ممالك الطوائف ٠

---

(١) : مجهول : الحلل الموشية ، ص ٣١ ٠ ــ عبد الله بن زيرى : المصدر السابق ، ص ١٠٩ ٠

(٢) : على أدهم : المرجع السابق ، ص ٣٠٧ ٠

(٣) : عبد القادر زمامة : مقال بعنوان المعتمد بن عباد في المغرب ، مجلة تطوان ، العدد الخامس ، السنة ١٩٤٥م ، ص ٣٠

وقد حمل بعض من المؤرخين والادباء قديما وحديثا على يوسف بن تاشفين واتهموه بأوصاف نأبأ أن نضمنها رسالتنا ، ومن هولاء المؤرخين القدامى ابن الاثير[١] الذى أساء الى يوسف اساءة بالغة. ومن المستشرقين دوزى[٢]، أما من الأدباء المحدثين فقد كتب الشاعر المصرى احمد شوقى مسرحية شعرية عنوانها (غانية الاندلس) تتعرض لنكبة المعتمد ونفيه فى عبارات يشوبها التهكم والحقد على المرابطين ويوسف ابن تاشفين بالذات .

وقد انبرى بعض الادباء والمفكرون المغاربة حديثا الى الرد على اولئك الذين اتهموا يوسف بن تاشفين . فقد كتب مصطفى القصرى مقالا فى مجلة : البحث العلمى المغربية عنوانه : الشعر فى خدمة الحقيقة والتاريخ ، وقد انصب فى أساسه على الرد على أحمد شوقى الذى كتب مسرحية غانية الاندلس وعاب عليه أن يسخر الفن لخدمة الفن وحده بدلا من أن يسخّره لخدمة الحقيقة والحياة . وكانت مناسبة هذا المقال هو أنه أقد عرضت فى مدينة مراكش عام ١٩٣٣ م مسرحية غانية الاندلس على مسرحها الشعبى . فانبرى شاعر مراكش آنذاك محمد بن ابراهيم الى الرد على شوقى ، فكان من جملة مانظم متعرضا لمحنة المعتمد :

بنى العرب أوطانا بنى الشرق وحدة	بنى الضاد ، أبناء الحنيف بنى المجد
يعز علينا القصر يفقد مجده	ويمسى ابن عباد به نحس السعد
يعز علينا أن نراه مصفدا	يساق الى أغمات يوسف فى القيد
ولكن لنصر الدين دين محمد	وانقاذه من بؤرة الهلك والنكد
نضحى بعباد وآخر كابنه	ومثله ممن لا يفيد ولا يجدى[٣]

وقد أوحت هذه الأجواء لمصطفى القصرى كتابة مقاله المذكور وقد تناول مسألة معاملة يوسف للمعتمد بالتحليل والتعليل . وقد أورد

---

(١) : انظر النص فى الكامل ، ج ٨ ، ص ٢٣٦ .

(٢) : انظر قبل ، ٣٨٦ .

(٣) : مصطفى القصرى : مقال بعنوان الشعر فى خدمة الحقيقة والتاريخ ، مجلة البحث العلمى المغربية ، المركز الجامعى للبحث العلمى ، العدد الاول ، السنة الاولى ، ابريل ١٩٣٤ ، ص ١١٢ ـ ١٢٨ .

نقاطا مهمة جيدة كتساؤله في معرض حديثه عن نية يوسف في خلع ملوك الطوائف جملة بما فيهم المعتمد ، فقد قال (ولما تحقق المعتمد من نوايا يوسف لم يقل مرة ثانية بأنه يفضل : رعى الجمال عند أمير المسلمين على رعى الخنازير عند ملوك النصارى ، بل فضل رعى الخنازير واستنجد بالفونسو الذى ماكان أسرعه لتلبية طلبه[1] ، ومن هذه النقاط أيضا التى أخذها القصرى على المعتمد — وهو على حق فى هذا — ماتفاخر به المعتمد ذات مرة :

واغدو الى فعل المعاصى مهرولا وان أطلب الطاعات فالقيد فى رجلى[2]

ومع هذا فان القصرى لم يتخل عن مغربيته فى معرض تحليله لهذه القضية ، وكان عليه أن ينظر للأمر من كل جوانبه كما نزعم أننا قد فعلناه .

بقى أن نشير أخيرا الى حياته البائسة فى المنفى ، فقد رصدتها كتب الادب قديما وحديثا بدرجة أوسع ورصدتها كتب التاريخ بدرجة أقل ، كما أذكت حياته هذه شاعريته وأججتها ، وقد نفى كما ذكرنا الى أغمات وأقام فيها كما يقول على أدهم[3] (أسيرا قد ضيق عليه ، كاسف البال كسير القلب ، يسام سوء المعاملة ويتجرع مرّ الهوان وتزدحم على خواطره الهموم ، وتطوف به ذكريات ملكه السابق ومجده السالف ، وليس الى جانبه صاحب ولا خدين يفضى اليه بآلامه ومواجعه ، ويطارحه الحديث الذى يرفه به عن نفسه ، ويخفف من أساه ولوعته ، ولكنه مع ذلك كان يتجلد ويتماسك ، ويتذرع بالصبر) .

ومما كان يؤنس وحشته ووحدته زيارة بعض من شعراء دولته الأوفياء الذين أذهلتهم نهايته وأدهشتهم محنته ، فقدموا عليه فى ظل تلك الظروف الدقيقة الحرجة ، ووفدوا عليه (وفادة وفاء لا وفادة استجداء[4]) ، فمدحوه وشدوا من روحه المعنوية وعزيمته . وتكررت

---

(١) : انظر ، مصطفى القصري : المقال السابق ، ص ١١٤ ،

(٢) : انظر ، مصطفى القصرى : نفس المقال ، ص ١٢٨ .

(٣) : المرجع السابق ، ص ٢٩٢ .

(٤) : ابن خلكان : المصدر السابق ، ص ٣٤ — ٣٥ .

زيارات بعض منهم له . كالشاعر ابو بكر الدانى المعروف بابن اللبانة الذى ألف كتابا فى أيام بنى عباد والبكاء على انتثار نظامهم وضمنه مقطوعات شعرية فى رثائهم ومدحهم وسماه " نظم السلوك فى مواعظ الملوك " ، كما ألف كتابا آخر غيره هو كتاب " سقيط الدر ، ولقيط الزهر " وكلها كتب مفقودة للأسف تعرضت لتاريخ بنى عباد من نشأة دولتهم حتى نهايتها . وكانت زيارات هؤلاء الشعراء الاصفياء توقد ليله القاتم وتبعث فيه ضياءا متألقا لا يلبث أن يخبو سريعا بعد مفارقتهم اياه .

وعندما أحس بنهايته وشعر بدنو الاجل نظم قصيدة باكية أمر بكتابتها على قبره ويقول مطلعها :

قبر الغريب سقاك الرائح الغادى   حقا ظفرت بأشلاء ابن عباد (١)

ولن نمضى طويلا فى تتبع أيامه الاخيرة فقد رصدتها كتب الادب والتاريخ قديما وحديثا كما قلنا (٢) ، وكان فيها من المآسى والفاجعات مالاحتاج معه الى خيال ناثر ومبالغة شاعر .

وتوفى المعتمد اخيرا فى شهر شوال عام ٤٨٨هـ/١٠٩٥م

وكانت جنازته متواضعة مهيبة . وكان من المفارقات كما يقول ابن بسام أن (من النادر الغريب أنه نودى فى جنازته بالصلاة على الغريب بعد عظيم سلطانه وجلالة شأنه فبارك من له البقاء والعزة والكبرياء (٣) .) وقد ظل قبره لفترة من الزمن مزارا لعدد كبير من محبيه على مر العصور (٤) .

---

(١) : رضا الجبيب السويسى : المرجع السابق ، ص ١٨٧ .

(٢) : للاطلاع على مزيد من حياة المعتمد فى المنفى تراجع الكتب التالية :-
ـ ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثانى ـ المجلد الاول، ص٤٦ـ١٩٤ والقسم الرابع ، المجلد الاول ، ص ٤٦ ـ ٦٧ . ـ ابن الابار : المصدر السابق والجزء ، ص٥٨ ـ ٧٠ . ـ المقرى : المصدر السابق ، ج ٦ ص٢٠٣ ـ ٢٣٨ . ـ ابن الاثير : المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص٢٤٨ ـ ٢٥٠ . ـ ابن الخطيب : الاحاطة فى اخبار غرناطة ، ج ٢ ، ص١١٢ ـ ١٢٠ . ـ رضا الجبيب السويسى : المرجع السابق ، ص١٤٧ ـ ١٩٤ . ـ صلاح خالص : المعتمد بن عباد الاشبيلى ، ص١٨٢ ـ ٢٥٠ . ـ على أدهم : المرجع السابق ، ص٢٨٥ ـ ٣٢٧ . ـ عبدالوهاب عزام : المرجع السابق ، ص٧٢ ـ ٨٤ . ـ مصطفى الشكعة : الادب الاندلسى ، موضوعاته وفنونه ، ص٥٣٣ ـ ٥٤٠ .

(٣) : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثانى ـ المجلد الاول ، ص ٤٦ .

(٤) : المقرى : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨ ، وص٣٥٦ ـ ٣٥٧ .

القضاء على ممالك : ألمرية ، وبطليوس ، وسرقسطة ، وبلنسية وغيرها من ممالك الطوائف :-

وأخيرا فلن نمضي طويلا في تتبع مجريات سقوط بقية ممالك الطوائف الاخرى ، فلسنا معنيون بهذا من جهة ، ومن جهة أخرى لم تعن كتب المؤرخين القدامى في استقصاء ذلك ، فقد اكتفت في معظمها بتتبع سقوط مملكة اشبيلية بحكم عطفهم على المعتمد من جهة ، وحكم أهميتها القصوى دون هذه الممالك من جهة أخرى . ومع ذلك فاننا نشير في اقتضاب بالغ الى أن المرابطين استطاعوا القضاء على استقلال مملكة ألمرية في اعقاب سقوط اشبيلية مباشرة[1] ، كما استطاعوا أن يسقطوا الامارات الصغيرة في شرقي الاندلس ويضموها الى نفوذهم في عامي ٤٨٤ و ٤٨٥هـ/ ١٠٩١ – ١٠٩٢ م[2] . ثم سقطت مملكة بطليوس بيد المرابطين في عام ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م بعد أن حاول المتوكل بن الافطس الاستعانة بالفونسو شأنه شأن المعتمد فلم يفده ذلك . ولم يستطع الفونسو أن يقدم مساعدته له . وقد سقطت بطليوس بيد المرابطين وقبضوا على مليكها ثم مالبثوا أن قتلوه هو وولده . وبسقوط بطليوس بيد المرابطين انضوى كل غرب الاندلس تحت سيادة المرابطين[3] .

ولم يبق من ممالك الطوائف في الاندلس التي لم تقع تحت سلطة المرابطين سوى مملكتي بلنسية وسرقسطة . أما سرقسطة فقد أراد المرابطون الابقاء عليها كحاجز يفصل بينهم وبين النصارى كما أشرنا . وكان هذا من حظ أميرها الذى كان يهدد النصارى بالمرابطين ، ويهدد المرابطين بالنصارى[4] . ولم تسقط مملكة سرقسطة بيد المرابطين

---

(١) : ابن الابار : المصدر السابق ، ص ٨٨ – ٩٠ .

(٢) : انظر ، محمد عبدالله عنان ، ص ٣٦٦ .

(٣) : انظر ، عبدالله بن زيري : المصدر السابق ، ص١٧٢ – ١٧٤ . –
محمد عبدالله عنان : نفس المرجع اعلاه ، ص ٣٦٨ – ٣٧٠ .

(٤) : مجهول : الحلل الموشية ، ص ٦١ .

الا فى عام ٥٠٣ هـ/ ١١١٠ م ، وان بقى بعض أبناء المستعين بن هود يتولون (١) بعض حصون مملكتهم المنيعة حتى عام ٥٣٤ هـ/ ١١٣٩ م عندما أجبر النصارى هؤلاء على اخلاء ذلك المعقل ، وهو مدينة روطة (٢) فى الثغر الأعلى .

أما بلنسية فقد تعرضت وقتها لخطوب كثيرة ومحن شديدة أكثر من أى مملكة من ممالك الطوائف الأخرى . وجعلها السيد القمبيطور حلبة لممارساته العدوانية وهجماته المركزة . وقد ثارت ثورة ضد القادر حاكمها وذهب ضحيتها أخيرا ، ثم تولى ادارة شؤونها القاضى ابن جحاف أحد أعيان بيوتاتها وقاضيها آنذاك . غير أن السيد القمبيطور استطاع فى ذروة انشغال يوسف بن تاشفين بملوك الطوائف الاستيلاء على بلنسية والقبض على القاضى ابن جحاف ثم أحرقه بعد ذلك فى حادثة قل نظيرها فى التاريخ البشرى عموما . وأصبح هو حاكمها المطلق (٣).

ولسنا هنا فى صدد شرح الاحداث التى وقعت بعد ذلك .
فما يهمنا هو الاشارة الى أن يوسف بن تاشفين لم يستكن الى الدعة تاركا بلنسية تقع تحت يدى السيد القمبيطور . فلم يكن حال يوسف بن تاشفين كذلك ولكن انشغاله بتصفية ممالك الطوائف حال دون تقديمه العون لها . ومع هذا فقد بعث بقواته لمساعدة القاضى ابن جحاف حاكمها الجديد . وابتدأت محاولات المرابطين لنجدة بلنسية فى شكل كتائب وفرق قليلة العدد حتى توجه الجيش المرابطى برمته بعد أن انتهى من قضية اقصاء ملوك الطوائف واستطاع هذا الجيش بقيادة الأمير مزدلى الاستيلاء على بلنسية من يد زوجة السيد القمبيطور الذى كان قد توفى قبل ذلك . وكان تاريخ سقوط بلنسية فى يد المرابطين عام ٤٩٥هـ/١١٠٢م (٤) .

---

(١) : محمد عبدالله عنان : دول الطوائف ، ص ٢٩١ ـ ٢٩٣ .

(٢) : روطة Rueda : فى التقسيم الادارى الاندلس كانت تابعة لمدينة سرقسطة (الثغر الاعلى) وهى اليوم تابعة لمديرية وشقة Huesca .
انظر ، ابن الابار : المصدر السابق والجزء ، ح ٢ ، ص ٢٤٦ .

(٣) : حسين مؤنس : السيد القمبيطور وعلاقته بالمسلمين ، المجلة التاريخية المصرية ، ص ٥٦ ـ ٦١ .

(٤) : يراجع فى اخبار بلنسية واستيلاء السيد القمبيطور عليها :

وبهذا الاستيلاء على بلنسية دانت معظم الاندلس الاسلامية الى دولة المرابطين الفتية وأصبحت العدوتان المغربية والاندلسية دولة واحدة عاصمتها مراكش .

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

وهكذا سقطت ممالك الطوائف صريعة تصرفات ونزق ملوكها . وسقطت صريعة أهوائها الاقليمية الضيقة . ومطامعها التوسعية التي لاتهدف الا الى امتلاء جيوب ملوكها وأمرائها فقط .

والواقع أن القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى يعتبر من القرون الفاصلة فى تاريخ شبه الجزيرة الايبيرية بقسميها الاسلامى والمسيحى . ولقد شهد أحداثا جساما ، وترتب على كل حدث من هذه الاحداث نتائج خطيرة . فلقد شهد هذا القرن زوال الدولة الأموية التى بسطت سيطرتها المركزية على معظم أجزاء شبه الجزيرة الايبيرية فى معظم الأوقات وكانت النتيجة المباشرة لهذا أن تصدعت وحدة الاندلس ولم تعد قط حتى فى ظل المرابطين والموحدين الى سابق وحدتها وتماسكها . وكانت النتيجة التالية لسقوط الدولة الأموية هى ظهور ممالك الطوائف التى دخلت فى منازعات مع بعضها البعض ، وشغلت أحداثها ومشكلاتها بلاد الاندلس منذ سقوط الدولة نهائيا عام ٤٢٢ هـ / ١٠٣١ م وحتى نهاية القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى . وشهد هذا القرن أيضا اشتداد ساعد الممالك النصرانية وظهور معظمها كامارات مستقلة مارست كل واحدة منها سياسة الاسترداد منفردة فى أحيان كثيرة . ومجتمعة فى أحيان أخرى فى الأقل . وكان من جراء قيام ممالك النصارى كدول مستقلة أن وضعت هذه الممالك سياسة الاسترداد نصب عينها ودخلت فى نزاع مع ممالك الطوائف المتفككة المتنازعة وأدى هذا فى النهاية الى حدوث مضاعفات خطرة لهذا التدخل الذى أدى

= ـ ليفى بروفنسال : الاسلام فى المغرب والاندلس ، الفصل السادس ، والفصل السابع . مع الحواشى . ـ حسين مؤنس: نفس البحث اعلاه ، المجلة التاريخية المصرية ، ص ٣٧ ـ ٨٤ مع الحواشى . ـ محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ، ص ٢٣١ ـ ٢٥٢ مع الحواشى . ـ شكيب أرسلان : الحلل السندسية ، ج ٢ ، ص ٤٢٥-٤٢٦

بدوره فى النهاية الى تدخل المرابطين ، وكان هذا تحولا عظيما فى سير الحوادث أيضا . فقد أدى هذا الى أن تقع بلاد الاندلس لأول مرة تحت السيادة المغربية وأدت تبعيتها السياسية للمغرب هذه الى أن تدخل طرفا فى نزاع المرابطين مع خصومهم الموحدين فى المغرب، ولذا فعندما مالت الكفة لصالح الموحدين فى المغرب ، دخلت الاندلس فى تبعيتهم السياسية حتى سقوط دولتهم فى المغرب . وفى خلال ذلك كانت القوى السياسية النصرانية تعمل جاهدة على استرجاع الأراضى والاصقاع شيئا فشيئا من يد المسلمين حتى انتهى بهم الأمر أخيرا الى أن سقطت الاندلس الاسلامية فى أيديهم نهائيا فى نهاية القرن الثامن الهجرى / الخامس عشر الميلادى .

واذا ذهبنا نتقصى أخطاء ملوك الطوائف والأسباب التى أدت الى سقوط دولتهم ، فاننا نشير الى أن قدر الاندلس بحكم جغرافيته وبحكم وضعه الاجتماعى هو الوحدة . والوحدة المركزية المستندة على قوة حكم مركزى ، أما التفتت والتجزء فهو شيئ شاذ ، فالقاعدة هى الوحدة وماعداها هو الشاذ . أما عن اخطاء ملوك الطوائف التى أسهمت فى التعجيل بسقوط دولهم فهى عديدة ولن نجد فى هذا المقام أبلغ من عبارات مصطفى الشكعة فى وصف ملوك الطوائف اذ يقول (لقد اسقطوا أنفسهم بأيديهم وليس بأيدى أعدائهم ، لأن الذى يعطى عدوه وسائل الغلبة ويسلمه أدوات الانتصار بتصميمه على بث التفرقة وانماء التباعد وتوسيع شقة الخصام ، ومحاربة أخيه وابن عمه والاعتداء على بنى قومه فى عقر دارهم ، والتوسع على حسابهم فتحا وأرضا عوضا عن أن يبسط يده للاتحاد ويفتح قلبه للحب ويشد أزر أخيه ويؤلف قلبه ، وينطلق الجميع صفا واحدا لحرب العدو . أقول أن الذى يصنع ذلك باشعال نار الفرقة واشاعة روح البغضاء ، واثارة الحرب بين الاهل ، والانصراف عن مد جسور المودة والمحبة بينهم فضلا عن ايقاع الظلم والكبت بمواطنيه وفرض الجور والطغيان على محكوميه ومصادرة حرياتهم وسلب أموالهم وفرض الحرمان والفقر عليهم فرضا . نقول ان مثل هذا الحاكم يكون هو نفسه صانع الهزيمة بقومه ، ويكون هو نفسه مقدم النصر هدية لاعدائه

وأعداء قومه ، ولقد فعل بعض زعماء المسلمين ذلك في الاندلس ، فضاعت الاندلس بمجدها ، وباء المتقاعسون أو الطامعون من زعمائها بعار الهزيمة ولعنة التاريخ .)(١)

كما لن نجد في وصف حالة البذخ واللهو التي كان عليها ملوك الطوائف أفضل من عبارات السياسي الاديب الفقيه ابن حزم فيما ينقله عنه محمد كرد على عندما يصف انشغال هولاء في اللهو (وهمة أحدهم كأس يشربها ، وقينة تسمعه ، ولهو يقطع به أيامه)(٢)، كما لا نجد أفضل من كلام ابن بسام فيما ينقله عنه حسن محمود في شرح واقع ملوك الطوائف (ولم يزل ادبارهم على ماذكرت يستشرى ، وعقارب بعضهم على بعض تدبّ وتسرى حتى أذن الله لأمير المسلمين رحمه الله في افساد سعيهم وحسم أدواء بغيهم والانتصار لكواف المسلمين من فعلهم الذميم ورأيهم ، فجعلت البلاد عليه تنثال والمنابر باسمه تزهو وتختال واستمر ينشر نجومهم ويطمس رسومهم ...)(٣).

وفي الحقيقة ان كل شيء كان يؤذن بالخطر في شبه الجزيرة الايبيرية منذ زمن طويل وحتى قبل سقوط طليطلة وما أدى ذلك الى احداث متعاقبة انتهت بسقوط ممالك الطوائف . ذلك لاننا لو عدنا قليلا الى الوراء ، لهالنا أن نعرف بأن حادثة سقوط طليطلة وما تبعها من احداث جسام كانت ستحدث في عهد الملك فرديناند الأول والد الفونسو السادس .

فلقد رأينا هذا الملك يشدد ضغطه على ممالك الطوائف ولا سيما الكبرى منها ، ويلعب بورقة المساعدات والاستصراخ به للحصول على مايريده . وبدأ يترجم في كثير من أعماله وغزواته ضد المسلمين لما رسمه من سياسة واضحة تهدف الى استرداد أراضي الآباء

---

(١) : الادب الاندلسي ، موضوعاته وفنونه ، ص ٥٠٧ - ٥١٠ .

(٢) : الاسلام والحضارة العربية ، ط ٣ ، ج ١ ، ص ٢٦٦ .

(٣) : قيام دولة المرابطين ، ص ٢٩٧ .

والأجداد ، وكانت حراجة الوقت ودقة الظروف فى ذلك الوقت تنذر بالخطر الماثل المحدق ، ولكن العناية الالهية أخرت أو أجلت ذلك السقوط بوفاة فرديناند نفسه ، فتنفس المسلمون الصعداء .

وقد وقع فرديناند فى نفس الخطأ الذى وقع فيه أبوه سانشو العظيم من قبل وهو تقسيمه مملكته بين ابنائه كما ذكرنا سابقا . وقد استقر الأمر أخيرا بعد خطوب كثيرة لألفونسو السادس وغدا بعد ذلك الملك الأقوى والأكثر نفوذا فى اسبانيا كلها بعد أن انضوت تحت حكمه معظم مملكة أبيه ، وأصبح خطره يلاحق كل ملوك الطوائف . واختط لنفسه كما قلنا سياسة تقوم على تجويع أعدائه وامتصاص قواهم العسكرية والمالية حتى يسهل عليه بعدئذ الانقضاض عليهم وبذلك رأيناه يغدو بكل أسى الشخص الوحيد فى الاندلس القادر على فرض رأيه ، أو قل رغباته بمعنى أدق .

والواقع أن تلك الفترة من تاريخ اسبانيا كانت مضطربة شديدة الاضطراب ، فكما أن الاندلس الاسلامية كانت تعانى من الانقسام والتفتت والتجزء ، كانت ممالك النصارى تعانى من الحروب الاهلية العائلية ، ويعانى سكانها كثيرا من المصاعب والمتاعب التى جرتها عليهم هذه الحروب . فاذا كان ملوك الطوائف قد دخلوا فى نزاعات مسلحة مع بعضهم البعض للفوز بأكبر قدر من الأراضى والاصقاع فان الممالك النصرانية دخلت هى الاخرى فى احداث أخطر وهى الحروب الاهلية المدمرة بين الأخ وأخيه .

ونحن اذا أردنا أن نتقصى السياسة التى سار عليها الفريقان المتنازعان ، فلايمكننا أن نتغاضى عن أخطائهما السياسية . ولا يمكننا ألا أن نؤاخذ كلا الفريقين على سياستيهما تلك . فملوك الطوائف دخلوا فى حروب واقتتال على حساب أراضى بعضهم البعض . وكان هذا خطأ استراتيجيا صرف أنظارهم عن الحقيقة الكبرى وهى أن الوجود الاسلامى أصبح فى كل بقعة محاطا بالاعداء النصارى المتربصين بالمسلمين وللانقضاض على أراضيهم وانتزاعها منهم القطعة تلو القطعة .

وكان الخطأ الاستراتيجي الثاني الذى وقع فيه ملوك الطوائف هو الاستعانة بالنصارى ضد بعضهم البعض ، اذ انعدم عندهم كل شعور بالايمان والوطنية ، وندر لديهم كل احساس باستشعار الخطر الآتى من الشمال . واهتموا بالصغائر والترهات والرغبات الجامحة للتوسع على حساب بعضهم البعض . ونسوا فى غمار ذلك أو تناسوا كما قلنا عدوهم اللدود المتربص بهم . وكانوا لا ينظرون الى أبعد من أنوفهم ، فتفرقت كلمتهم وتمزق شملهم . وليت الأمر وقف عند هذا الحد ، بل سعوا بكل ابتذال الى الاستعانة بالنصارى كما قلنا فى سبيل الوصول الى هدف شخصي ضيق محدود ، وسمحوا لأنفسهم على موافقة النصارى على ما يطلبونه شريطة مد يد المساعدة لهم ، واستساغوا التفريط فى القلاع والحصون وتسليمها للنصارى فى سبيل تلك الاهواء والاغراض الشخصية . فعلوا ذلك دون أن يرف لهم جفن حياء أو دون أن يعقد لهم حاجب خجل انتصارا للاسلام والعزة الوطنية . وهانوا على أنفسهم فسهل على النصارى اهانتهم واذلالهم ، وانتهى بهم الانحطاط الى الترامى على أعتاب ملوك النصارى فاستحقوا قسوة ابن حزم الفقيه الاندلسى عليهم عندما قال فيما ينقله عنه محمد عبدالله عنان (والله لو علموا ان فى عبادة الصلبان تمشية أمورهم لبادروا اليها ، فنحن نراهم يستمدون النصارى فيمكنونهم من حرم المسلمين وأبنائهم ورجالهم يحملونهم أسارى الى بلادهم وربما يحمونهم عن حريم الأرض وحشرهم معهم آمنين ، وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعا ، فأخلوها من الاسلام ، وعمروها بالنواقيس ، لعن الله جميعهم وسلط عليهم سيفا من سيوفه)(١) .

ونعتقد أن فى رأى ابن حزم هذا وقسوته عليهم ما لا حاجة بعده الى الاسترسال فى ذكر اخطائهم السياسية والدينية والوطنية .

أما ممالك النصارى فكان من الممكن لها أن تحقق ما تريد لو لم يقع ملوكها فى اخطاء سياسية تماثل بعض الاخطاء التى ارتكبها

---

(١) : دول الطوائف ، ص ٤٢٢ .

ملوك الطوائف المسلمين . فان المترصد لاحداث تلك الفترة يلاحظ أن ممالك النصارى لم تكن بأحسن حالا من ممالك المسلمين ، فقد اضطرتهم الخلافات بينهم الى أن يطلبوا العون والمساعدة من المسلمين اعدائهم مما يعنى أنهم لم يكونوا أصدق حسا فى وطنيتهم من المسلمين . ومعنى هذا أيضا أنه لم تكن تحركهم الغيرة الوطنية فقط ، بل كانت الأثرة والأهواء الشخصية تلعب دورا مؤثرا . وكأمثلة على ذلك أن غارسيا وراميرو أبناء سانشو العظيم شقيقي فرديناند طلبا المساعدة والعون من المسلمين ، ورأينا الفونسو السادس كمثال آخر يلجأ الى بلاط المأمون ابن ذى النون ، ويلتجئ أخوه غارسيا الى بلاط المعتمد بالله .

ونحن هنا نتفق تماما مع على أدهم فى تحليله لأحداث تلك الفترة المضطربة من تاريخ أسبانيا كلها ، اذ يقول - ونحن معه فى أن الظرف السياسى فى الصراع الدائر بين أسبانيا الاسلامية وأسبانيا النصرانية كان متوقفا على من من الفريقين المتخاصمين يسبق الآخر الى لم الشعث وتوحيد الجهود ، ورص الصفوف ، وجمع القوى (١) .

ومع ذلك فاننا نعترف بأن ملوك النصارى كانوا أكثر وعيا وفهما لحقيقة الصراع بينهم وبين المسلمين . فقد كانوا يرون فيها مسألة حياة أو موت ، وقضية كرامة وعزة كما هى قضية أرض وتراث شرعى لهم وقع غصبا فى يد أجنبية وعليهم أن يرفعوا عنها تلك اليد (٢) . ولذلك فقد جاءت تحالفاتهم التى اضطروا اليها اضطرارا تخدم بلغة هذا العصر الناحية التاكتيكية وليست الاستراتيجية . ولا يقلل من قيمة هذا الجهد ظهور الرغبات الشخصية والأهواء الذاتية فى سلوكيات بعض من ملوكهم وأمرائهم . ولذا فعندما أتيحت لهم الفرصة لرص الصفوف وتوحيد القلوب بادروا مدفوعين بتلك الرغبات الجامحة الى الانقضاض على المسلمين وانتزاع أراضيهم . ولقيت حماستهم الدينية أصداء واسعة من الترحيب فى اوربا ، فانبرى هؤلاء يقدمون لهم العون للاسهام فى ذلك الواجب الدينى كما حدث فى أحداث بربشتر ، وعندما ساعدت مجموعة من الاوربيين الفونسو السادس فى حصاره لطليطلة . وعند حدوث موقعة الزلاقة وما بعدها .

(١) : المعتمد بن عباد ، ص ١٩٣ .

(٢) : نفس المرجع والصفحة .

(الباب الخامس)

أهم مظاهر التطور الحضارى فى اشبيلية فى عهد بنى عباد

- نظم الحكم .
- الحياة الاجتماعية .
- الحياة الاقتصادية .
- الحياة العلمية والأدبية .
- العمران .

نظـــم الحــــــكم

أولا : النظـم السـياسـية :ـ

لم تكـن النظـم السـياسـية فى مملكـة اشـبيلية تختــلف كثـيرا عن بقيـة النظـم السـياسـية فى ممـالك الطـوائف الأخـرى . فقـد كان يجمـع تـلك الممـالك التى بـلغ تعـدادها أزيـد من عشـرين دولة نظـم حـكم متطـابقـة ، وهـى النظـم التى كانت سـائدة بصـفة عامـة فى الدولـة الأمـوية فى الانـدلـــس (١) ، على أن مملكـة بنى عـباد تميـزت هى ومملكـة قرطـــبة فى مبـدأ نشـأتيهمـا بنظـم حـكم جـديدة لم تألفهـا الــدول الاسـلامية ليـس فى الانـدلـس فحـسب ، بل وفى المشرق الاسـلامى أيضا .

أ ـ نظـام الحـكم الـرئاسـى القائـم على الشـورى :

ان مما يشـد الانتبـاه ، أن نشـهد قيـام نظام متطور فى مملكـة اشـبيلية وقرطبـة . اذ قـام فيهمـا خاصـة نظـام حـكم رئاسـى يقـوم على الشـورى . وهى خطـوة سـياسـية حضـارية رائـدة نـالت وقتهـا الكثـير من الثنـاء والاعجاب وان لم يكـتب لها الاسـتمرار للأسـف ، كما لم يكـتب لها أن تعـم الممـالك الاسـلاميـة الأخـرى فى الانـدلـس .

ولقد أعطـى هذا النـوع المتطـور غـير المألـوف من نظـم الحـكم وقتهـا نتـائج بالغـة الأهميـة فى تـــلك المملكتين النـاشـئتين . وان كانت هـذه النتائـج أبـرز وأوضـح فى مملكـة قرطبـة منها فى مملكـة اشـبيليـة . اذ أحـــسّ السـكان تـلك النتائـج فى حيـاتهم المعاشـية اليومية كما تذكـر

(١) : عن نظم الحـكم فى الاندلـس فى عهد الدولة الأمـوية ، أنظــره هشام سـليم عبد الرحمن أبو رميـلة : نظم الحـكم فى الأندلـس فى عصـر الخـلافة ، رسـالة ماجستير قدمت الى كليـة الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٥ م (لم تطبـع) .

كتب التاريخ نقلا عن ابن حيان المعاصر وغيره من تبدل نحو الأحسن والأصلح (١) . ولم يكن انفراد رئيسي قرطبة واشبيلية بالسلطة العليا التنفيذية في ذلك النظام الرئاسي الشوري ليؤثر من بعيد أو قريب في الحياة المعيشية للسكان ، مع ما في ذلك من تكاسة لتلك الخطوة الحضارية الرائدة .

غير أن هذا النظام المتطور لم يكتب له الاستمرار كما أسلفنا . واذا كان قد ظل ينظر اليه طويلا في مملكة قرطبة على أنه حكم رئاسي شورى متميز ، الا أنه لم يكتب له الاستمرار في اشبيلية نفسها . اذ أنه استمر قائما في قرطبة منذ خلعت طاعة بني أمية نهائيا في عام ٤٢٢ هـ وحتى وفاة الرئيس أبي الحزم ابن جهور عام ٤٣٥ هـ . وعندما توفي الرئيس أبو الحزم لم يسم خليفة له . وفي هذا ما يعني أنه لم يكن ينظر الى الحكم وكأنه ارث شرعي . بيد أن الاهالي وقد رأوا ما تحقق لمملكتهم على يد رئيسهم الراحل من رخاء وبحبوحة ، فضلا عما يتمتع به ابنه ابو الوليد محمد بن جهور من صفات الصلاح والرشاد ، نادوا بتعيينه خلفا لأبيه (٢) . على أن ما تجدر الاشارة اليه أن هذه الظاهرة هي أول وآخر سابقة في حياة قرطبة ، اذا غدا نظام الحكم بعدها وراثيا عائليا شأن ممالك الطوائف الأخرى .

أما مملكة اشبيلية فلم يطل بها عمر ذلك النظام الشوري طويلا ، اذ سرعان ما ضاق القاضي محمد بن اسماعيل كما أسلفنا ذرعا بأعضاء المجلس الرئاسي ، فعمل من ثم على تقليص نفوذه شيئا فشيئا حتى اضمحل شأنه تماما ، فانفرد القاضي بالأمر وحده . ومع هذا لم يتخل (عن رسم القضاء ، ولم يتسم بسمة الملك) (٣) . على أنه كان من الواضح جدا رغم

---

(١) : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الاول ـ المجلد الثاني ، ص ١١٤ ـ ص ١١٧ . ـ ابن الابار : المصدر السابق والجزء ، ص ٣١ ـ ٣٢ . ـ ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ١٨٦ ـ ١٨٧ . ـ الضبي : المصدر السابق ، ص ٣٥ (نقلا عن الحميدي في جذوة المقتبس) .

(٢) : انظر خالد الصوفي : المرجع السابق ، ص ٧٢ .

(٣) : ابن خاقان : مطمح الانفس ، ص ١٢ .

هذه القناعة الشكلية المحضة أن القاضى كان يسير قدما فى تحويل الأمر الى نظام حكم ملكى وراثى . وظهر هذا جليا عندما سمى ابنه اسماعيل حاجبا للخليفة هشام المزعوم ، الأمر الذى يعنى أنه المؤهل من بعده لقيادة البلاد ، وعندما قتل اسماعيل فى اقتتاله مع البربر كما مر بنا (١) سمى القاضى ابنه الآخر عبادا حاجبا للخليفة مكان أخيه . ولما توفى القاضى خلفه ابنه عباد على التو فى تسلم أزمة الحكم بهدوء ودون الحاجة الى التشاور والتباحث كما حدث فى مملكة قرطبة ، ولم يعد يتملك المعتضد وابنه المعتمد من بعده ذلك الاستحياء والتعفف من التلقب بالملك واتخاذ الألقاب السلطانية .

ب ـ نظام التفويض الخلافى :ـ

أما نظام الحكم الثانى الذى ميز الحياة السياسية فى اشبيلية عن مثيلاتها فى ممالك الطوائف الأخرى ، فهو مسألة اعادة الخلافة الأموية فى ظل قضية ظهور الخليفة هشام المؤيد على النحو الذى رأيناه سابقا . فقد ادعى العباديون أنهم قائمون دونه ، وأنهم المفوضون من قبله فى حكم بلاد الاندلس عموما ، وليس فى اشبيلية فحسب . ومن هنا فقد اتخذ أولياء العهود فى هذه الدولة لقب حاجب الخليفة (٢) ، وهو لقب كان له فى قاموس الحكم آنذاك أهمية بالغة ويشبه منصب رئيس الوزراء الآن . وبهذه الصفة رأى العباديون فرض سلطانهم على ممالك الطوائف اذ أنهم يستمدون هذا السلطان من سلطان الخلافة صاحبة السلطة الشرعية فى الاندلس .

ولقد شغلت هذه المسألة بكل انعكاساتها السلبية والايجابية المملكة العبادية ردحا من الزمن . وأخيرا أسدل الستار عليها نهائيا عندما زعم المعتضد أن الخليفة هشاما قد توفى ، وأنه عهد

---

(١) : انظر قبل ، الباب الأول ، ص ١٠١ .

(٢) : انظر بعد ، (النظم الادارية) ، ص ٣٦١ ـ ٣٦٣ .

اليه أن يكون أميرا على الأندلس كلها (١) .

ولعل الأثر الحضارى الذى نستخلصه من هذه القضية السياسية بكل ما لها وما عليها ، هو أنه بصرف النظر عن أهمية الخلافة الشرعية فى نفوس السكان ، فان مملكة اشبيلية كانت تطمع من ذلك كله الى أن تسبغ على نظام حكمها الاستبدادى الصبغة الشرعية .

خصائص الحياة السياسية فى اشبيلية :-

وفيما عدا هذين النظامين ، فان الحياة السياسية فى اشبيلية فى عصر بنى عباد قد اتسمت بسمات خاصة لا غنى لنا عن الاشارة اليها ، لتتضح لنا - فى ظلها - صورة نظام الحكم بصفة عامة فى هذه الدولة . فلو أردنا فى الواقع أن نقيّم نظام الحكم العبادى فى عدة كلمات لقلنا بأنه نظام ملكى وراثى فردى استبدادى مطلق يضطلع فيه الملك بكل السلطات ، ما عدا السلطة القضائية بطبيعة الحال .

أما الخاصية السياسية الأخرى التى ميزت الحياة السياسية فى اشبيلية فهى كنه ما يعنيه اصطلاح الوزارة ، ومن ثم صلاحيات الوزراء المطلقة أو المقيدة فى الدولة العبادية . فالوزارة فى اشبيلية بل وفى معظم ممالك الطوائف هى وزارة تنفيذ وليست وزارة تفويض . ومع ذلك فاننا نلاحظ أن وزارة التنفيذ هذه لم يكن لها ذات المعنى الذى كانت تعنيه فى المشرق الاسلامى . فاستخدامنا لهذا الاصطلاح السياسى هو محض محاولة للفهم والتقريب ، اذ أن لقب الوزير كان شائعا جدا فى الاندلس ، وكان يطلق على كل من يتولى ادارة دائرة حكومية ، كما كان يطلق على كل من كان قريبا من بلاط أحد ملوك أو أمراء الطوائف فى الأندلس ، وهو ما سنراه لاحقا عند حديثنا عن النظم الادارية فى دولة بنى عباد .

---

(١) : أنظر قبل الباب الثانى ، ص ١٣١ .

أما الشخص الذي كان يساعد ملوك الطوائف بشكل رئيسي على جميع الأصعدة فقد كان يطلق عليه ذو الوزارتين ، أي وزارتي السيف والقلم .

أما في اشبيلية ، فلم يكن لذى الوزارتين ، فضلا عن الوزير أي أهمية بالغة في صناعة القرارات ، ووضع الخطط ، فلم يك الوزير الا موظفا لدى الملك العبادى ينفذ قراراته ويتلقى تعليماته . أما الخطة ، أما القرار ، أما تقرير السياسة الواجب اتباعها عند كل ظرف سياسي ناشئ فقد كانت في يد الملك العبادى وحده ، فلم يتمتع أحد من ذووى الوزارات ، أو الوزراء بسلطات واسعة وصلاحيات عريضة في تلك المملكة . والظاهرة الوحيدة التي خالفت هذه القاعدة هي حالة الوزير محمد بن عمار الذى شفعت له صداقته الأثيرة للمعتمد ، ودالته العظيمة عليه ، أن يتمتع بصلاحيات واسعة . ومع هذا فقد ذهب ضحية تجاوزه لصلاحياته على النحو الذى أسلفناه .

وتكاد مملكة بنى عباد تكون الوحيدة التي تميزت بهذه الخاصية السياسية . أما غيرها من ممالك الطوائف الأخرى ، فقد كان للوزير في بعضها أهمية بالغة في تقرير وتوجيه سياسة الدولة ، حتى لقد طغى نفوذ بعض الوزراء على نفوذ الملوك والأمراء أنفسهم كما حدث في مملكة قرطبة حيث طغى نفوذ الوزير ابن السقاء على حاكم البلاد نفسه (١) ، وكما حدث في مملكة ألمرية ابان حكم زهير العامرى ، حيث طغى نفوذ الوزير العربى أحمد بن عباس على نفوذ زهير نفسه (٢) . وكما وقع في مملكة غرناطة حيث استأثر بعض الوزراء فيها في عهد باديس ابن حبوس بمعظم النفوذ والسلطات . بل وقد تحولت الوزارة في عهد الوزير اليهودى ابن نغرالة الى ما يشبه وزارة التفويض (٣) .

---

(١) : خالد الصوفى : المرجع السابق ، ٧٥ ـ ٧٦ .

(٢) : ابن عذارى : المصدر السابق ، ص ١٦٩ ـ ١٧٢ .

(٣) : عبدالله بن زيرى : المصدر السابق ، ص ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٨ ، ٤٦ ، ٦٠ ـ ٦٣ .

ونخلص من هذا كله الى أن الوزارة افتقدت فى مملكة بنى عباد أى قيمة سياسية لها ، وقبع الوزير فى دائرته وخاصة فى عهدى القاضى محمد ابن عباد وولده المعتضد خائفا متوجسا من غضبهما عليه ، أو تعرضه لنزوة من نزواتهما . ويصدق هذا أكثر ما يصدق على عهد المعتضد بالله على الأخص .

وهناك خاصية سياسية أخرى تميزت بها الحياة السياسية فى المملكة العبادية أكثر من بقية ممالك الطوائف فى الاندلس آنذاك ، هذه الظاهرة هى أن بنى عباد لم يكونوا يطيقون سماع أصوات الانتقاد لهم ، وكانوا يعملون على الايقاع بخصومهم بالبطش والقوة آنا ، وبالحيلة والخديعة آنا آخر . فقد كان القاضى وولده المعتضد يسعيان من خلال وسائل البطش والتنكيل الى افهام خصومهما بأن الدور سيطالهم تاليا . فيضطر هؤلاء الى مغادرة مدينتهم والالتجاء الى الدويلات الاخرى ، أو يضطر بعضهم الى مبارحة الأندلس كلها . ونذكر فى هذا الصدد قصة الوزير أبى حفص عمر بن الحسن ابن عبد الرحمن الهوزنى الذى كان أحد علماء اشبيلية المرموقين . وكان صديقا أثيرا للمعتضد قبل افضاء الأمر اليه ، ولكن المعتضد توجس منه ، وأحس هذا أن المعتضد قد تضايق منه ، فاستأذنه فى السفر الى خارج اشبيلية ، فأذن له . وغادر بلاده واستقر بمرسية أخيرا .

وعندما هاجم النورمان بربشتر على النحو الذى رأيناه سابقا لم يستطع الهوزنى السكوت على ذلك الاغضاء المتعمد فى نصرة المسلمين الذى قابل به المعتضد الحادثة . فبعث له بخطاب يرجو منه اتخاذ الاجراءات اللازمة للدفاع عن الاسلام . وقد مر بنا تلك المراسلات بين الرجلين التى لم تسفر عن شيء . وقد عرفنا آنذاك موقف المعتضد وجوابه على رسالة الهوزنى . ولكن ما لم نذكره آنذاك هو الشق الثانى من جواب المعتضد له الذى يشير عليه بالعودة الى بلاده . وبالفعل عاد الهوزنى الى اشبيلية واسند له المعتضد بعض الأعمال الجليلة ، على أنه كان طوال فترة بقاء الهوزنى فى بلاطه يحيك له الحبائل حتى استطاع ذات يوم أن يقضى عليه ويقتله بنفسه (١) .

---

(١) : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثانى ، المجلد الأول ، ص ٦٨ ـ ٩ . ـ ابن بشكوال : الصلة ، قسمان ، القسم الاول ، ص ٤٠٢ .

والقصة الثانية تدل دلالة واضحة على أن المعتضد لم يكن يطيق سماع أصوات الناقدين له الحاقدين عليه حتى وان لم يكونوا ذووى أهمية سياسية واجتماعية فى اشبيلية . هذه القصة رواها عبد الواحد المراكشى (١) عند ذكره لقصص التحايل التى كان يتحايل بها المعتضد للقضاء على خصومه . وخلاصتها أنه اعتدى على اموال أحد رجال اشبيلية ، وكان ضريراء مما اضطره الى الارتحال عن الاندلس كلها . والتوجه الى مكة المكرمة . ومن هناك أخذ يدعو على المعتضد فبلغه ذلك فبعث له بدنانير غمسها فى السم . ورفض الرجل أخذها فى بادئ الأمر ، بل واستعجب لذلك ، ولكنه تحت الحاح رسول المعتضد تسلمها منه ، فتمكن السم فى جسمه . فمات من ليلته ، ومن هذه القصص ما يروى من أنه بعث لرجل من عامة اشبيلية من الذين نفاهم عنها من قتله وحمل رأسه له .

كما أن هناك خاصية سياسية طبعت الحياة السياسية فى اشبيلية بطابع خاص، وهى أن العباديين وخاصة فى عهدى القاضى وولده المعتضد ، حرصوا على أن يبعدوا بقية العائلات الأرستقراطية الاشبيلية عن المشاركة فى الحكم ، ودفعوهم قهرا الى اعتزال الحياة العامة . وكان ذلك يتم كثيرا بالترغيب والترهيب ، حتى اضطرت بعض عناصر من هذه الطبقة الى مبارحة الوطن والالتجاء الى الدويلات الأخرى . مثال ذلك ما حدث للفقيه والطبيب الاشبيلى محمد ابن مروان بن زهر جد الأسرة الطبية الاشبيلية المشهورة الذى اضطرته مضايقات القاضى محمد بن اسماعيل الى مغادرة وطنه ، فلحق بشرقى الاندلس وأقام بها بقية عمره (٢). أما البعض الآخر فقد اضطرته مضايقات العباديين وخاصة المعتضد الى الابتعاد عن الحياة السياسية والانغماس فى حياة اللهو والطرب والمتع الحسية ، مع الاهتمام بجمع الثروات من عقارات وأراض وبساتين (٣).

---

(١) : المصدر السابق ، ص ١٥٣ .

(٢) : ابن بسام : المصدر السابق، القسم الثانى_ المجلد الاول، ص١٨٧_١٨٨ .

(٣) : انظر صلاح خالص : اشبيلية فى القرن الخامس الهجرى ، ص ٤٦ ، و ص ١٥١ _ ١٥٤ ، و ص ١٦١ _ ١٦٥ .

كما تميزت الحياة السياسية فى اشبيلية شأن معظم ممالك الطوائف بانتهاج سياسة الاحلاف والمحاور التى شقيت بها معظم هذه الممالك • فعملت كل واحدة منها الى الدخول فى محالفات ثنائية وأحيانا ثلاثية ضد بعضها البعض كما مر بنا سابقا مما لا حاجة الى اعادة تكراره ثانية (١) •

ويخيل الينا أخيرا أن ملوك بنى عباد كانوا لا يشذون فى نظرتهم للحكم والسلطان عن غيرهم من ملوك الطوائف الآخرين • اذ كان بعض ملوك الطوائف يرى أنه جدير وحقيق بالدولة التى أقامها على ظلال الحراب والسيوف ، أو ربما كانوا يعتقدون أن العناية الالهية قد اختارتهم لذلك • ويحضرنا فى هذا المقام ما فاه به اسماعيل بن ذى النون مؤسس دولة بنى ذى النون فى طليطلة وهو ما يصوّر من وجهة نظره أحقيته وجدارته فى الاستئثار بحكم مملكته • وقد بلغ فى هذا القول حدا جعله يفتئت حتى على الصحابة الراشدين رضى الله عنهم • يقول ابن بسام (فقد كان اصحابه حفظوا عنه كلمات فى سبيل ذكر السلف الصالح زيادة الى مساوئه ، وذلك أنه نوظر فى شأن التأمير لبنى أمية ، فقال والله لو نازعنى سلطانى هذا الصديق لقاتلته ، ولما سلمت له ، فكيف أسلم سلطانى لمن يدعى اليه بنى أمية : ممن لا يوجب الله طاعتهم ، عترة مروان ، خبط باطل الذين لم يسبق لهم صحبة ولا أدخلهم السلف الصالح فى شورى الامامة (٢) •)

---

(١) : أنظر قبل الباب الاول ، ص ٨٥ وما بعدها ، والباب الثانى ، ص ١١٦ وما بعدها •

(٢) : المصدر السابق ، القسم الرابع ـ المجلد الاول ، ص ١١١ •

٢ ـ النظم الادارية :ـ

أما عن النظم الادارية فلم يستطع ملوك الطوائف بصفة عامة ولا بنو عباد بصفة خاصة أن يضيفوا شيئا جديدا اليها أو أن يقوموا بتطوير ما هو قائم منها • فقد اكتفوا بما وصل الى أيديهم من التنظيمات الادارية التى ورثوها عن الدولة الأموية والدولة العامرية اقتناعا منهم ربما بأن هذه التنظيمات ـ وقد بلغت أوجها فى عهد الدولة الأموية ـ كافية ووافية بمقتضيات الحكم فى عهدهم • فضلا عن أن الاهتمام الأكبر فى عصر ملوك الطوائف كان موجها الى الاشتغال بالعلم والأدب • والأخذ بمظاهر العمران وفخامة الملك •

وهكذا فاذا أردنا أن نعرف التنظيمات الادارية وغيرها من التنظيمات الحضارية الأخرى التى سارت وفقها ممالك الطوائف يجب أن لا تغيب عن بالنا هذه الحقيقة ، وهى أن هذه التنظيمات تعتبر استمرارا لما سبقها فى عصر الدولة الأموية أو بمعنى أنه اذا أردنا التحدث عن التنظيمات الادارية فى دولة بنى عباد ـ وهى موضوع فقرتنا هذه ـ فانما نتحدث عن التنظيمات الأموية بعينها مع الأخذ فى الاعتبار بأنه قد جرى فى عهد هذه الدولة بعض التحويل والتغيير الطفيف فى تلك التنظيمات •

المناصب الادارية العليا فى الدولة :ـ

الحجابة :ـ

نال منصب الحجابة فى الاندلس أهمية سياسية بالغة ، وكان يعتبر وخاصة فى خلال عهد الدولة الأموية ، والدولة العامرية ، وابان الفتنة أهم منصب سياسى ادارى تنفيذى بعد منصب الخليفة مباشرة •

ذلك لأن طبيعة وظيفة الحاجب فى الاندلس فى عهد الدولة الأموية اختلفت عن طبيعة وظيفة الحاجب فى الدولة العباسية بعض الشيئ •

اذ عدا عن أن وظيفة الحاجب فى الأندلس حجب الأمير أو الخليفة عن الخاصة والعامة كما هو الشأن أيضا فى الدولة العباسية ، فان من خصائص وظيفته أن يكون واسطة بينه وبين الوزراء ومن دونهم فى المسئوليات الوظيفية فى الدولة (١) .

وكان الحاجب يختار عادة من بين تلك الجماعة التى كان يختصها بنو أمية لاعانتهم والتشاور معهم فى مجريات الأمور الهامة في الدولة . فكان يختار من بين هذه الجماعة ، ويسمى بعدئذ بالحاجب (٢) .

ولسنا معنيين هنا ببسط الحديث لتتبع وتطور وظيفة الحجابة ، فما يهمنا الاشارة اليه هو أن الحاجب غدا فى عهد الدولة الاموية وخاصة فى عهدى الخليفة الحكم المستنصر وابنه الخليفة هشام المؤيد أهم شخصية سياسية بعد الخليفة مباشرة ، بل ان اهميته كسفت مكانة الخليفة هشام المؤيد . وكان الحاجب يضطلع بمعظم السلطات فى الدولة وكانت مهمته تعنى (القيام بممارسة سلطات الخليفة نيابة عنه ، فكان هو الرئيس المباشر للادارة المركزية والعسكرية والمدنية والمسؤول عن ولايات الدولة ، والأمن العام ، وكان له حق مقابلة الخليفة يوميا وتقديم تقريره له (٣) .)

وبمفهوم هذا العصر يمكن اعتبار الحاجب بمثابة رئيس للوزراء ، ويهمنا أن نشير الى أن منصب الحجابة فى الأندلس كان وراثيا فى أغلب الأحيان .

ولعل من نافلة القول أن نشير الى أن أعظم الحجاب ذكرا فى الاندلس وأبعدهم صيتا هو الحاجب المنصور محمد بن أبى عامر (٤) .

---

(١) : ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٠٠ .
(٢) : شكيب أرسلان : الحلل السندسية ، فى الاخبار والاثار الاندلسية ، ج ١ ، ص ٢٥٠ ـ ٢٥١ . (نقلا عن ابن سعيد صاحب كتاب المغرب فى حلى المغرب) .
(٣) : هشام سليم ابورميلة : رسالة عن نظم الحكم بالاندلس فى عصر الخلافة ، ص ١٢٨ـ١٢٩
(٤) : عن المفهوم الذى أضفاه الحاجب محمد ابن أبى عامر وبنيه لمنصب =

وفى عصر ملوك الطوائف حافظ هذا المنصب على نفس أهميته التى كان عليها فى تلك العهود دون أن يعنى ذلك وجوده فعليا . فكان الملك منهم كما يقول ابن سعيد فيما ينقله عن شكيب أرسلان (... لعظم اسم الحاجب فى الدولة المروانية ، وانه كان نائبا عن خليفتهم سمى بالحاجب ، ويرى أن هذه السمة أعظم ما تنوفس فيه وظفر به ، (١) وهى موجودة فى أمداح شعرائهم وتواريخهم) (٢).

وعلى هذا فقد استشرف كثير من ملوك الطوائف الى التلقب بلقب الحاجب . ومن هؤلاء الحاجب منذر بن يحيى التجيبى حاكم سرقسطة قبل سليمان بن هود (٣) والحاجب محمد بن عبدالله البرزالى أمير قرمونة وغيرهما (٤).

أما بنو عباد أنفسهم فمن الطبيعى أن يحرسوا على التمسك بنظم الدولة الاموية السياسية والادارية ، وخاصة بعد أن تبنوا قضية الخليفة هشام المزعوم . ولقد رأينا ملوكهم يعهدون بحجابة باب الخليفة لأبنائهم الكبار أولياء عهودهم . فقد سمى القاضى ابو القاسم ابن اسماعيل ابنه اسماعيل حاجبا للخليفة هشام. ولما قتل اسماعيل بن القاضي محمد سنة ٤٣١ هـ ولى القاضى ابنه الثانى عباد (المعتضد فيما بعد) مكانه . وحرص المعتضد عندما آل اليه الأمر أن يسير على نفس السياسة فولى ابنه اسماعيل الحجابة، ثم لما قتل اسماعيل على يد أبيه انتدب المعتضد ابنه المعتمد ليحل محله . واستمر ذلك التقليد حتى بعد أن انقطعت دعوة الخليفة هشام أيضا . وقد حرص المعتمد بدوره على أن يطلق هذا اللقب على غير واحد من أبنائه على سبيل التشريف (٥).

= الحجابة ، والدور المؤثر الذى مارسوه من خلال ذلك فى حياة الاندلس أنظر :
هشام سليم ابو رميلة : الرسلة السابقة ، ص ١٣٣ - ١٤٩ .

(١) : أى أحد ملوك الطوائف آنذاك .
(٢) : الحلل السندسية ، ج ١ ، ص ٢٥١ .
(٣) : أنظر ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الاول - المجلد الأول، =

عمالة الأقاليم :-

درج العباديون بعد موجة التوسع والسيطرة التى تهيأت لهم ، وخاصة فى عهدى المعتضد ، والمعتمد ، على أن يولوا أبناءهم عمالة أو ولاية الاقاليم المفتوحة • وقد مرّ بنا أن المعتضد ولى ابنه المعتمد حكم مدينة شلب بعد سقوطها فى يده ، كما أن المعتمد نفسه عهد لكثير من أبنائه بولاية المدن والأقاليم فى مملكته كسراج الدولة عباد الذى تولى حكم مدينة قرطبة بعد سقوطها بيد العباديين • وعندما قتل سراج الدولة على يد ابن عكاشة كما أسلفنا عهد المعتمد لابنه الفتح الملقب بالمأمون بحكم المدينة حتى سقطت على يد المرابطين كما ذكرنا ، وأسند لابنه الثالث يزيد الراضي حكم مدينة الجزيرة الخضراء ، ثم رنده • كما أسند للابن الآخر المعتد حكم مدينة شلب ثم آركش كما مرّ بنا • ومن المؤكد أنه كان لهذا التنظيم الادارى بعدا ومغزى سياسيا أكثر مما يعنى مجرد التشريف •

الـــوزارة :-

أشرنا فيما سبق الى أن ممالك الطوائف استمرت تطبق فى دولها الأنظمة السياسية والادارية التى كانت سائدة بصفة عامة فى الدولة الأموية ، ومن هذه الانظمة : نظام الوزارة • ولذا فنحن مضطرون هنا الى معرفة نظام الوزارة فى الدولة الأموية ليسهل علينا فهم طبيعة هذا النظام وأهميته فى الدولة العبادية موضوع الرسالة •

= ص ١٥٣ ـ ١٥٤ • ـ محمد كرد على : الاسلام والحضارة العربية ، جزءان ، ج ٢ ، ص ٣٦٦ ـ ٣٦٧ •

(٤) : انظر قبل الباب الاول ، ص ٨٢

(٥) : انظر قبل الباب الاول ، ص ٩١ ، والباب الثانى ، ص ١٤٧ والباب الثالث ، ص ٢٣٣ - ٢٣٨

والواقع أن الوزارة فى الأندلس مرت بأطوار متعددة ، فالأمراء الأمويون الأول اختاروا جماعة من الذين استرشدوا فيهم الصلاح والخير وأسندوا اليهم مهمة اعانتهم فى تصريف شؤون الدولة ، ثم أسندوا لهذه الجماعة أعمال ووظائف مختلفة يقوم كل واحد من هذه الجماعة بادارة جهاز ما . ويقول ابن خلدون (وأما دولة بنى أمية بالاندلس ، فأبقوا اسم الوزير فى مدلوله أول الدولة ، ثم قسموا خطته أصنافا ، وأفردوا لكل صنف وزير فجعلوا لحسبان المال وزيرا ، وللترسيل وزيرا ، وللنظر فى حوائج المتظلمين وزيرا ، وللنظر فى أحوال أهل الثغور وزيرا ، وجعل لهم بيت يجلسون فيه على فرش منضدة لهم ، وينفذون أمر السلطان هناك كل فيما جعل له وأفرد للتردد بينهم وبين الخليفة واحد منهم ارتفع عنهم بمباشرة السلطان فى كل وقت فارتفع مجلسه عن مجالسهم وخصوه باسم الحاجب ، ولم يزل الشأن هذا الى آخر دولتهم ، فارتفعت خطة الحاجب على سائر الخطط) .(١)

وقد تطور نظام الوزارة فى الدولة الأموية على مر الزمن الى أن أصبح يشكل ما يعرف اليوم بمجلس الوزراء .(٢) وكان الأندلسيون يستعملون كلمة خطة بمعنى وزارة .(٣)

على أن هذا المنصب فقد دلالته العملية شيئا فشيئا منذ دالت دولة بنى عامر ، وما تبع ذلك من أحداث أدت الى ظهور خلفاء أمويين ضعاف ثم الفتنة فقيام ممالك الطوائف . فأصبح لقب الوزارة يطلق على من كان قريبا من بلاط أحد ملوك أو أمراء الطوائف بحيث (صار اسم الوزارة عاما لكل من يجالس الملوك ويختص بهم) .(٤)

---

(١) : المقدمة ، ص ١٩٩ .

(٢) : عن الوزارة وتطور نظامها فى عهد الامارة فالخلافة الاموية انظر :
هشام سليم ابورميلة انظر ، الرسالة السابقة ، ص ١٤٩ ـ ١٥٢ .

(٣) : هشام سليم ابورميلة : نفس الرسالة السابقة ، ص ١٥٦ .

(٤) : ابن سعيد المغربى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٨١ .

على هذه الصورة كانت الوزارة في ممالك الطوائف وان لم تسعفنا المصادر الأندلسية وغيرها بذكر تفاصيل تنظيم الخطط أو الدوائر الحكومية التي كانت موجودة في ممالك الطوائف عامة وفي مملكة بني عباد خاصة ، فكلما حملته الينا من أسماء الوزراء في مملكة بني عباد لايعدو أن يكون لقبا تشريفيا حصل عليه ذلك الشخص من خلال مصاحبته لملوك بني عباد واختصاصه بهم . وقد عرفت دولة بني عباد كثير من الذين كان يطلق عليهم لقب وزير مثل : الوزير ابن اللبانة ، وابى الحسن بن ابى اليسع ، وابى بكر ابن القصيرة وغيرهم . أما المنصب الوزارى الذى كان له مدلول ادارى تنفيذى كبير فهو منصب ذى الوزارتين الذى يعني وزارتي السيف والقلم (١)، وكانت مهمة حامل هذا اللقب هى أن ينوب عن الملك كما يقول ابن سعيد (٢) في الشؤون المدنية والعسكرية معا (٣). ومن الذين اضطلعوا بهذا المنصب الرفيع في عهد المعتضد ابن عباد الشاعر القرطبي الأشهر ابو الوليد أحمد ابن زيدون الذى كان يطلق عليه دائما ذو الرياستين ، وذو الوزارتين (٤).

ومن الذين اضطلعوا بهذا المنصب في عهد المعتمد الشاعر المشهور محمد ابن عمار الذى سما بهذا المنصب الى مكانة سياسية بارزة قل نظيرها في ممالك الطوائف جميعها (٥) لدرجة أن المعتمد كان يفوضه في التحدث باسمه مع ملوك النصارى واطلاق يده في عقد المعاهدات معهم (٦).

---

(١) : ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٠٠ .

(٢) : شكيب أرسلان : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٥١ . (نقلا عن ابن سعيد) .

(٣) : انظر هشام سليم ابورميلة : الرسالة السابقة ، ص ١٥٩ــ ١٦٠ .

(٤) : انظر عبدالواحد المراكشي : المصدر السابق ، ص ١٦٢ . ــ
صلاح خالص : اشبيلية في القرن الخامس الهجرى ، ص ١٨١ .

(٥) : عن المكانة السياسية التى بلغها الوزير محمد ابن عمار انظر :
صلاح خالص : محمد ابن عمار الاندلسى ، ص ٧٠ ــ ١٠٣ .

(٦) : انظر قبل ، الباب الثالث ، ص ٤ - ٦

خطـة الكتـابة :ـ

تعتبر هذه الخطة أو الادارة الحكومية بالضبط من أجل مناصب الدولة الرفيعة فى الدولة الاموية ، ثم فى ممالك الطوائف أيضا وقد صنفت هذه الخطة الى ادارتين أو ديوانين هما : كاتب الرسائل ، وكاتب الزمام (كاتب الجهبذة أو كاتب الاشغال الخراجية) (١).

أما كاتب الرسائل فقد كان له أهمية مرموقة أكثر من الأهمية التى حظى بها كاتب الزمام ، وجاءت هذه الأهمية من كون صاحبها كان مكلفا بتحرير المراسلات الخلافية ، والقرارات السلطانية ، وانشاء الرسائل وبعثها للعمال والملوك والأمراء الأجانب . وقد شهدت خطة الكتابة تطورا متعاقبا فى الاندلس منذ الفتح حتى قيام الخلافة . فقد كان الكاتب فى عصر الولاة ثم الامارة الأموية وحتى عهد الامير عبدالرحمن الاوسط يضطلع بكتابة الرسائل الرسمية للدولة ويطلق عليه لقب كاتب الرسائل (٢).

أما فى عهد عبدالرحمن الاوسط فقد تطورت خطة الكتابة بحيث أصبح كتاب الرسائل بمثابة وزراء ، فكانوا يحملون لقب وزير بالاضافة الى لقب الكاتب ، ويقال للكاتب : الكاتب الوزير (٣). وكان الامير عبدالرحمن الاوسط أول من اتخذ كاتبا خاصا له ، وسار الأمراء والخلفاء من بعده على هذا النظام حتى سقوط الخلافة (٤).

والتطور الآخر الذى شهدته خطة الكتابة كان فى عهد الخليفة عبدالرحمن الناصر ، ذلك لأن تشعب مسؤوليات كاتب الرسائل

---

(١) : محمد كرد على : المرجع السابق ، ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧ .
(٢) : انظر هشام سليم ابورميلة : الرسالة السابقة ، ص ١٦٢ .
(٣) : انظر ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٠١ ـ ٢٠٢ .
(٤) : انظر هشام سليم ابورميلة : نفس الرسالة السابقة ، ص ١٦٢ .

وكثرتها جعلت الخليفة عبدالرحمن الناصر يبادر الى توزيع مسؤولياتها بين أربعة من كبار الموظفين ، يحمل كل واحد منهم لقب وزير ويختص فقط بالأمر الموكل اليه وحده (١) .

أما الخطة الادارية الأخرى بالنسبة للكتابة فهي ادارة كاتب الزمام أو الجهبذة أو الأشغال الخراجية . وكان مجال عمله الأساسي هو الاشراف على ادارة الأموال العامة واحصاء الجند وتقدير أرزاقهم وأعطياتهم (٢) .

وبالنسبة لممالك الطوائف عامة ومملكة بني عباد خاصة لم تسعفنا كتب التاريخ والأدب بشيئ ذي بال عن هاتين الخطتين ، وان كان الأمر يختلف بعض الشيئ بالنسبة لخطة كاتب الرسائل . اذ يبدو أن الأمر استمر على ما كان عليه في عهد الدولة الأموية ، بل يمكننا أن نخمّن بأن مكانة كاتب الرسائل قد ازدادت أهميتها آنذاك بسبب التنافس بين ملوك الطوائف في الاستئثار بالموهوبين من العلماء والادباء والكتاب .

ومن أشهر الكتاب في عهد المعتضد بالله ابن عبدالبر (٣) واسمه عبدالله بن يوسف . أما في عهد المعتمد فقد كان أشهر كتابه هما أبو بكر ابن القصيرة ، وأبو بكر ابن الجد (٤) .

---

(١) : أنظر هشام سليم ابورميلة : الرسالة السابقة ، ص ١٦٢ . (نقلا عن ابن عذاري) .

(٢) : هشام ابورميلة : نفس الرسالة السابقة ، (نقلا عن ابن خلدون) .

(٣) : هو ابن الحافظ الفقيه الاندلسي الشهير يوسف بن عبدالله المعروف بابن عبدالبر أيضا ، صاحب التصانيف الواسعة التي أشهرها كتاب : الاستيعاب في الفقه .
أنظر : ابن عذاري : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٤٥ ـ ٢٤٨ . ـ
ابن خلكان : المصدر السابق ، مجلد ٧ ، ص ٦٦ .

(٤) : أنظر مجهول : الحلل الموشية ، ص ٣٢ ـ ٣٦ .

خطة الشرطة :-

ومن أهم المناصب الادارية فى الأندلس فى عهد الدولة الأموية ، وفى عصر ملوك الطوائف خطة الشرطة .

وكان يطلق على من يليها لقب صاحب الشرطة ، ومن صلاحياته النظر فى الجرائم الجنائية وغيرها . ومن اختصاصاته أيضا حق اقامة الحدود على شاربى الخمور ، ومرتكبى الزنا . وقد يعهد اليه اذ كان ذا مكانة عظيمة فى الدولة بايقاع القتل شرعا بدون استئذان من السلطان . كما كان يطلق عليه أيضا صاحب الليل ، وتنقسم خطة الشرطة الى ثلاثة أقسام : الشرطة العليا ، والشرطة الوسطى ، والشرطة الصغرى .(١) وكانت هناك خطة أخرى تشبه خطة صاحب الشرطة ، ويطلق على القائمين عليها ، لقب الدرابين ، وتشبه خطة العسس أو الارباع فى المشرق .(٢)

وفى عهد بنى عباد رأينا من خلال محنة المعتمد بالله فى المنفى أنه كان هناك خطة من خطط الشرطة يطلق على متوليها لقب : عريف الشرطة . وأن مهمته الرئيسية كانت تنظيم خروج ودخول المعتمد من قصره واليه .(٣)

وهكذا فقد رأينا أنه كان لبنى عباد بعض التنظيمات الادارية الخاصة بهم التى ابتكروها ، أو طوروها ، كما شاهدناهم يستفيدون من بعض التنظيمات الادارية الأخرى فى تصريف شؤون دولتهم .

---

(١) : عن خطة الشرطة وتقسيماتها وصلاحيات صاحبها ، أنظر :
هشام سليم أبو رميلة : الرسالة السابقة ، ص ٢٨٧ - ٢٩٢ .

(٢) : محمد كرد على : الاسلام والحضارة العربية ، ج ٢ ، ص ٢٦٧ - ٢٦٨ .

(٣) : انظر قبل الباب الرابع ، ص ٣٣٧ .

٣ ـ النظام المالى :ـ

أولا : الموارد :ـ

لم تسعفنا المصادر الأندلسية بشيئ ذى بال عن هذا النظام الهام من أنظمة الحكم . ولعل السبب فى ذلك يعود لعدم وجود أنظمة عبادية مالية بحتة أصلا . وعلى ذلك فاننا نستطيع أن نخمن بأن النظام المالى سار فى هذه المملكة على نفس النظام الذى سارت عليه الدولة الاموية تقريبا .

أما الموارد المالية فى دولة بنى عباد فاننا نستطيع أن نؤكد بأنها هى نفسها الموارد التى كانت مطبقة فى بقية أنحاء الاندلس ، لابل فى الممالك الاسلامية انطلاقا من كون هذه الدولة دولة اسلامية بطبيعة الحال . مع ملاحظة وجود الاختلاف بين دولة وأخرى بحكم ظروفها وأوضاعها الخاصة .

وعلى هذا فان الموارد المالية فى مملكة بنى عباد لابد أن تكون على النحو التالى :ـ

أ ـ الموارد الثابتة :ـ

١ ـ زكاة العشور : وهى الزكاة المفروضة شرعا على الأراضى الزراعية ، وقطعان الماشية ، وكانت تستحصل من المسلمين بطبيعة الحال بحكم كونها أحد أركان الاسلام الخمس .

٢ ـ الخراج : ومن الموارد الثابتة لخزينة الدولة الخراج ، وكان على صنفين :ـ

الصنف الأول : هو ما كان الملاك يؤدونه عن أملاكهم مسلمين وذميين على السواء فيما كان يعرف بأرض الأخماس ، والأرض المقطعة ، وأرض الصلح . فكان المسلمون والذميون يدفعون خراج أرضهم حسبما

نصت عليه الشريعة الاسلامية (١) .

أما الصنف الآخر : فهو الذى كان يعرف بالمكوس . وهذه تحصل من التجار وتفرض على السلع والبضائع القادمة الى الدولة وخاصة عن طريق البحر . وكانت فى دولة بنى عباد تحصل على ضفة نهر الوادى الكبير الذى يشطر عاصمتها اشبيلية . وكان تحصيل المكوس على درجة من الأهمية للدولة العبادية اذ كانت عائداتها من أهم موارد الدولة بحكم اتساع الدولة العبادية وبحكم الحركة التجارية التى شهدتها . وكان للمكوس أنظمة وقوانين مرعية ، ينفذها ويشرف عليها شخص يدعى بالمتقبل (٢) . وتماثل المكوس ما يعرف اليوم بـ (الرسوم الجمركية) .

٣ - الجزية : وهى مورد أساسى لخزينة الممالك الاسلامية بصفة عامة . وكانت مملكة اشبيلية تزخر بعدد كبير من الذميين (أى النصارى واليهود) ، وهى جزية تستحصل من هؤلاء الذميين الذين لم يعتنقوا الاسلام ، وعلى هذا فيجب على (أولى الأمر أن يضعوا الجزية على رقاب من دخل الذمة من أهل الكتاب ليقروا بها فى دار الاسلام ، ويلتزم لهم ببذلها حقان ، أحدهما بالكف عنهم ، والثانى الحماية لهم ليكونوا بالكف آمنين ، وبالحماية محروسين) (٣) .

---

(١) : أنظر هشام سليم أبو رميلة : الرسالة السابقة ، ص ٢٢٠ - ٢٣١ . - محمد بركات البيلى : الرسالة السابقة ، ص ٤٧ - ٦٩ .

(٢) : للاطلاع على المزيد من هذه الفقرة ، أنظر : محمد بركات البيلى : الرسالة السابقة ، ص ٧١ - ٧٢ .

(٣) : هشام سليم أبو رميلة : الرسالة السابقة (نقلا عن الماوردى فى الأحكام السلطانية) ، ص ٢١٨ .

وتختلف الجزية المأخوذة من الذمى باختلاف وضعه المالى ، ولا تؤخذ الا من الرجال الأقوياء القادرين على القتال والحرب ، ومما يذكر أن هذه الجزية كانت تتناقص دائما بسبب اعتناق هؤلاء الذميين للاسلام (١).

ب ـ الموارد غير الثابتة :-

وبالاضافة الى الموارد المالية الثابتة فهناك موارد أخرى ، كانت الممالك الاسلامية فى الأندلس ، تستوفيها من السكان ، ومن هذه الموارد العائدات المالية التى كانت ترد عن طريق نظام المشاركة ، ونظام المشاركة يعنى أن يشارك الملاك الفلاحين فى المحصول الناتج عن أراضيهم ، أى أن يقدم الملاك أراضيهم للفلاحين يزرعونها لهم بالمشاركة ، فلهؤلاء حصة من المحصول ، ولأولئك حصة أخرى ، وكان هذا النظام يعرف أيضا بالمقاسمة والمناصفة (٢).

وعرفت الأندلس موردا ماليا آخر يعرف بالحشد ، وهو (ضريبة مالية كانت تفرض فى الأندلس على أصحاب الضياع فى الريف ، وعلى الناس فى المدن معونة للخليفة على شؤون الحرب ، وكان الناس أولا مكلفين بالخروج الى الحرب ، وكان عليهم أن يخرجوا الى الحشد عندما يجيئ أوان الصائفة ، ثم استبدلت بضريبة مالية أو عينية لمن لا يريد الخروج ، ثم أصبحت ضريبة مالية خالصة تؤدى للحاشد أو الحشاد فى كل منطقة) (٣).

---

(١) : أنظر محمد بركات البيلى : نفس الرسالة السابقة ، ص ٦٨ ـ ٦٩ .

(٢) : ابن الابار : المصدر السابق والجزء ، حاشية رقم ٤ ، ص ٣٦ .

(٣) : ابن الابار : نفس المصدر والجزء ، حاشية رقم ٢ ، ص ١٠ .

وأنظر كذلك هشام سليم ابورميلة : الرسالة السابقة ، ٢٣٥ .

وهناك مورد آخر يسمى ضريبة القطيع أو المشاهرة ، وتعنى فى مطلق الأحوال جزية على الرؤوس[١].

وهناك أيضا مغارم مفروضة على أموال السكان فى الاندلس واشبيلية بطبيعة الحال ، وكانت تفرض على الغنم والدواب وغير ذلك . وكذلك كانت هناك ضريبة تفرض على بعض المبيعات فى الأسواق فى بعض البلاد[٢].

وأخيرا كان هناك نوع آخر من الموارد المالية وهو ما كان يعرف بالقبالة . ومقتضى ذلك النظام كانت تمنح بعض القرى والمقاطعات لمتقبلين من حاشية الأمير أو المتعهدين بلغة هذا العصر ، تعطى لهم بقبالة معينة محددة ، فيأخذوها ويستخرجوا منها أقصى ما يمكن استخراجه ، كي يوفروا لأنفسهم ما يزيد على قيمة القبالة[٣].

ثانيا : النفقات :-

تلك هى أهم موارد الدولة العبادية ، وهى تنقص وتتزايد تبعا للظروف والأحوال فى الدولة . ومن الطبيعى أن تكون هناك نفقات عامة تصرف فيها الدولة الكثير من هذه العائدات المالية . ويأتى على رأس هذه النفقات العامة ، رواتب الجند والموظفين . ولقد مرّ بنا سابقا أن بنى عباد قد جندوا قوات نظامية وقوات أخرى من المرتزقة والعبيد[٤] ، ومن البدهى أن تدفع لهؤلاء أعطيات جزيلة لتنفذ مشروعاتها التوسعية دائما[٥]!

---

(١) : انظر محمد بركات البيلى : الرسالة السابقة ، ص ١٨ ــ ١٩ .

(٢) : انظر هشام سليم ابورميلة : نفس الرسالة السابقة ، ص ٢٣٣ ــ ٢٤٠ . ــ محمد بركات البيلى : نفس الرسالة السابقة ، ص ٧٠ .

(٣) : انظر احسان عباس : المرجع السابق ، ص ٤١ .

(٤) : انظر قبل الباب الاول ، ص ٨٣ .

(٥) : احسان عباس : نفس المرجع السابق ، ص ٤٠ . ــ محمد بركات البيلى : الرسالة السابقة ، ص ٧٤ ــ ٧٥ .

أما القناة الأخرى التي تصرف فيها موارد الدولة ، فهي الثغرة التي فتحها ملوك الطوائف على أنفسهم بالاستعانة بملوك النصارى وخاصة الفونسو السادس ، فقد كانت الجزية التي يستحصلها الفونسو من الدولة العبادية وخاصة في عهد المعتمد ثقيلة باهظة ، تستنزف قدرا هائلا من موارد الدولة .(١)

وأما القناة الثالثة التي كانت تستنزف موارد الدولة ، فهي النفقات الباهظة التي كان العباديون ينفقونها على بذخهم ومترفاتهم الخاصة ، كبناء القصور ، والدور ، واقتناء فاخر الأثاث والرياش ، وسائر صنوف المتعة والأبهة والفخامة ، وكذلك صلاتهم وأعطياتهم للشعراء والأدباء وغيرهم .(٢)

٤ - الجيش والبحرية :-

- الجيش :

لا نملك في الواقع تفاصيل واسعة عن الجيش العبادي سواء أكان ذلك في مسألة عدد أفراد قواته المسلحة ، أم عن كوادره ورتبه ... الخ . وكل ما نملكه من تفاصيل عنه هو ما يتعلق بالعناصر البشرية المكونة له . وقد سبق لنا أن رأينا القاضي محمد بن اسماعيل يكوّن على وجه السرعة جيشا تنوعت قواته من جنسيات مختلفة ، كالعرب ، والصقالبة ، والبربر ، والنصارى ... الخ .(٣)

والأمر الثاني الذي عرفناه عن الجيش الاشبيلي أنه كان يستعين في بعض الأحيان بقوات مرتزقة من النصارى ،

---

(١) : احسان عباس : المرجع السابق ، ص ٣٩ .

(٢) : أنظر احسان عباس : نفس المرجع السابق ، ص ٤١ - ٤٤ .

(٣) : أنظر قبل الباب الاول ، ص ٨٣ وما بعدها .

والبربر وغيرهم . ويبدو أن ذلك كان أمرا شائعا فى الأندلس آنذاك (١) .

والأمر الثالث أن العباديين حرصوا كثيرا على أن يعهدوا لأبنائهم فى معظم الأحايين بقيادة الجيش ، وكانت قيادة الجيش غالبا ماتكون لولى العهد الذى يجمع بين هذين المنصبين . وقد رأينا عند حديثنا عن دولة القاضى محمد ابن اسماعيل . أن ولده اسماعيل ولى العهد كان فى ذات الوقت القائد العام للجيش ، الذى يضطلع دائما بمهمتى المواجهة والتوسع . وما ينطبق على اسماعيل ابن القاضى محمد ينطبق على اسماعيل بن المعتضد . وقد رأينا هذا أيضا فى معرض حديثنا عن انشقاقه وتمرده على والده المعتضد . وعندما قتل اسماعيل عين المعتضد ابنه الآخر محمدا وليا للعهد ، وقائدا عاما للجيش ، واضطلع شأن غيره من قادة الجيش بمهمتى المواجهة والتوسع أيضا . وحتى فى دولة المعتمد ، فقد عهد لأبنائه بقيادة الجيوش . وقد رأيناه يغضب على ابنه يزيد الراضى الذى أظهر تقاعسا ملموسا ، فعهد لابنه الآخر المعتد بقيادة الجيش المتوجه لصد غارات النصارى عن مدينة لورقة (٢) .

ونادرا ما كان يتولى قيادة الجيش اناس آخرون من غير أبناء العباديين أنفسهم . وقد عثرنا على حالتين فقط ، قاد فيها أحد القادة من عامة الشعب ، الجيش العبادى : الحالة الاولى هى عندما شكلت القوات البربرية المتحالفة ضد القاضى محمد ابن اسماعيل جيشا توجه نحو أراضى اشبيلية . فعاث فى مزارعها

---

(١) : رأينا صورا عديدة لهذا كما حدث عندما استعان ملك سرقسطة وغيرهم . بالسيد القمبيطور وغيره من الذين كانوا يقدمون خدماتهم لمن يدفع لهم . أنظر : حسين مؤنس : السيد القمبيطور ، المجلة التاريخية المصرية .

(٢) : أنظر قبل الباب الاول ، ص ٨٨ ـ ٩٠ ، وص ٩٩ ـ ١٠٢ ، والباب الثانى ، ص ١١٩ ، وص ١٢٦ ـ ١٣٠ ، والباب الثالث ، ص ٢٣٧ .

وأراضيها . فتصدى لهم قائد احدى فرق الجيش العبادى : أيوب ابن عامر اليحصبى وفرق شملهم[١]. والحادثة الثانية هى عندما ولى المعتضد قائده عبدالله بن سلام قيادة الجيش الذى عهد له بفتح الجزيرة الخضراء . وقد تم له ذلك فعلا .

البحرية :-

أما بالنسبة للبحرية ، فلم يكن يضاهى الدولة العبادية فيها سوى مملكة دانية التى أسس فيها مليكها مجاهد العامرى أسطولا بحريا حربيا كبيرا استطاع به أن يفتح جزيرة سردانية وغيرها من الجزر الشرقية فى البحر المتوسط[٢]، ولذا فان دولة بنى عباد تعتبر الدولة الثانية من دول الطوائف التى اهتمت بالاسطول البحرى سواء أكان ذلك فى وقت السلم، أم فى وقت الحرب . وقد أفادتنا بعض كتب التاريخ والأدب فى ذكر بعض الاشارات عن ذلك الاسطول .

أما الاسطول البحرى الحربى ، فقد رأينا عدة اشارات له فى كتب التاريخ مررنا بها فى بعض الفصول السابقة . من هذه الاشارات مارواه المؤرخون من أن مدينة الجزيرة الخضراء التى كانت تابعة لأمراء بنى حمود قد حوصرت برا وبحرا الى أن سقطت نهائيا فى يد المعتضد عام ٤٤٦ هـ[٣]. ومن تلك الاشارات أيضا ما رويناه عن الحميرى عن الاسطول الحربى الذى بعثه المعتمد لمساعدة يوسف بن تاشفين عند افتتاحه لمدينة سبته[٤].

أما كتب الأدب[٥] فقد حفظت لنا فى أشعار الشعراء الذين مدحوا المعتمد بن عباد ما يلقى بعض الضوء عن ذلك الأسطول،

---

(١) : يوسف أشباخ : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٤١ .
(٢) : أنظر محمد عبدالله عنان : دول الطوائف ، ص ١٩٠ - ١٩٤ .
(٣) : ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٣١ .
(٤) : الروض المعطار ، ص ٨٧ .
(٥) : انظر محمد بركات البيلى : الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى اشبيلية فى عصر بنى عباد (رسالة ماجستير) ، ص ١٠٩ مع الحواشى .

ووصف قطعه ومنشآته . وقد أجمعت هذه الأشعار على أنه كان للعباديين اسطول حربى ساعدهم فى الكثير من مشاريعهم التوسعية وغيرها .

أما الاسطول التجارى البحرى ، فقد كان له أيضا مهمة اقتصادية رئيسية فى نقل صادرات وواردات الدولة العبادية (١) .

٥ - النظام القضائى :-

كانت خطة القضاء تعتبر أعظم الخطط الشرعية فى الاندلس بطبيعة الحال . وكان الاندلسيون يطلقون على من يتولى القضاء فى المدن الكبيرة والعواصم : اسم القاضى ، أما فى المدن الصغيرة وبقية القرى ، فقد كان يطلق على من يتولى القضاء فيها : مسدد الخاصة . ويطلق على الشخص الذى يشغل منصب قاضى القضاة فى الأندلس قاضى الجماعة (٢) .

ويلحق بخطة القضاء مجموعة من الخطط ، مثل خطة المواريث ، وخطة المظالم ، وخطة الأحباس (الأوقاف) ، وخطة السوق ، وخطة الشورى (٣) . وخطة السوق يطلق عليها أيضا وهو الشائع خطة الحسبة أو الاحتساب . وتشبه مهمة هذه الخطة أو الادارة ، مهمة البلديات فى العصر الحاضر كمراقبة الأسواق ، وعمليات البيع والشراء ، ومراقبة المكاييل والموازين ... الخ وكان لهذه الخطة أنظمة وقوانين مدونة يعمل بمقتضاها المسؤولون عن هذه الخطة (٤) .

أما خطة الشورى فقد كانت خطة أخرى لصيقة بخطة القضاء . ويقول حسين مؤنس (كان يقوم بأمر القضاء فى الاندلس هيئتان : الفقهاء المشاورون ، والقضاة ، فأما المشاورون فكانوا جماعة من كبار الفقهاء

---

(١) : الرسالة السابقة ، ص ٨٧ .

(٢) : عن خطة القضاء أنظر المادة الواسعة التى كتبها هشام سليم أبورميلة : الرسالة السابقة ، ص ٢٦١ - ٢٧٢ ، وكذلك ص ٢٨٠ - ٢٨٦ .

(٣) : محمد عبدالله عنان : الخلافة الاموية والدولة العامرية ، ص ٢٨٥ - ٢٨٦ .

(٤) : محمد كرد على : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٦٧ - ٢٦٨ .

والعلماء يختارهم الأمير أو الخليفة ليستشيرهم فى أمر القضاء والاحكام . ولم يكونوا هيئة بمعنى الكلمة تجتمع معا فى مجلس خاص كالوزراء ، بل كانوا فرادى يختار الأمير من يراه صالحا للشورى ، ثم يبعث اليه بما يريد ليفتى فيه ، وقد يستقدمه الى القصر .

وكان المشاورون أعلى من القضاة مرتبة ، بل كانوا فى مراتب الوزراء من حيث المكانة والجاه . وفى بعض العصور ، تميز بعض المشاورون ، حتى صار كالرئيس لهؤلاء المفتين ، ويسمى لهذا برأس الفتيا ، أو رأس المشيخة ، وقد يسمى شيخ المرأسين ، أو شيخ البلد . وكانت المشورة أو الفتيا أعلى المناصب التى يطمح اليها الفقيه ، وان لم تكن منصبا حكوميا محدد الوظيفة والراتب والسلطان . وكان المشاورون يبدون رأيهم فى القضاة فلا يعين كبارهم الا برأيهم . أما القضاة ، فهم المعروفون ، وأكبرهم قاضى قرطبة أو قاضى الجماعة ، وكانوا فى منزلة الفقهاء المشاورين ، وقد يمتاز عليهم اذا أهلته مكانته لذلك (١).

وقد تولى منصب قاضى الجماعة بقرطبة فى عهد المعتمد مجموعة من القضاة منهم القاضى محمد بن أحمد بن عيسى بن منظور القيسى ، ثم القاضى عبد الرحمن بن سوار بن أحمد بن سوار ، ثم عبد الله بن أدهم وغيرهم (٢). كما تولى خطة الشورى فى اشبيلية ، كما يفهم من رواية ابن الابار عبيد الله الرشيد بن المعتمد ، وكان يساعده فى المشاورة بعض الفقهاء منهم القاضى أحمد بن منظور القيسى (٣).

---

(١) : ابن الابار : المصدر السابق والجزء ، ح ١ ، ص ٢٠٢ .
وأنظر كذلك حسين مؤنس : شيوخ العصر ، ص ٢٧ ـ ٣٢ .

(٢) : ابن بشكوال : المصدر السابق ، القسم الاول ، ص ٣٠٤ . والقسم الثانى ، ص ٣٣٧ ، وص ٥٤٧ .

(٣) : المصدر السابق والجزء ، ص ٦٨ .

الحيـــاة الاجتمـــاعيـــة

تعمدنا بادئ ذى بدء أن نقسم الحياة الاجتماعية الى قسمين : مظاهر الحياة الاجتماعية لدى العامة ، ومظاهر الحياة الاجتماعية لدى الخاصة . ذلك لأن المؤرخين والأدباء القدامى لم يعنوا بالنسبة للنواحى الاجتماعية بالذات فى أحايين كثيرة الا بالاهتمام بحياة الأمراء والحكام والوجهاء والخاصة بدرجة أساسية . أما عن مظاهر الحياة الاجتماعية لدى عامة الناس فلم تنل من اهتمامهم الا اليسير وداخل نطاق المظاهر الأساسية للحياة الاجتماعية كالأعياد والمواسم والمتنزهات ... الخ . ومن هنا فقد رأينا أن نتحدث عن أهم مظاهر الحياة الاجتماعية لدى العامة أولا حسبما استخلصناه من كتب التاريخ والأدب ، ثم نثنى بعد بالحياة الاجتماعية لدى الخاصة .

أ - أهم مظاهر الحياة الاجتماعية لدى العامة :-

الأعياد والمواسم :-

من الطبيعى أن يكون على رأس الأعياد فى كل مجتمع اسلامى عيدى الأضحى و الفطر . والمجتمع الاشبيلى شأنه شأن غيره من المجتمعات الاسلامية كان يحتفل باستطلاع هلال شوال ، وكان العامة يتجمعون لرؤية الهلال حتى يفوز أحدهم بالسبق فى رؤيته لتحديد يوم عيد الفطر .

أما بالنسبة لعيد الأضحى ، فقد كان الاحتفاء به عظيما ، وكان من عادات أهل اشبيلية والاندلسيون عامة شأنهم فى ذلك شأن اخوانهم المسلمين أن يخرجوا الى الصلاة فى أبهى حللهم وأناقتهم ، ثم يعودون الى بيوتهم فيذبحون أضحياتهم ، وكان المعدم منهم

يكتفى بجمع رؤوس الخراف والقيام بتشييطها أى عرضها على النار حتى تنضج (١) .

وكانت الأعياد مواسم اقتصادية مزدهرة لبائعى الخراف والعطور وغيرهم . وكان العطارون يعرضون فى حوانيتهم أرقى العطور وأغلاها وأجودها (٢) .

ومن الأعياد الأخرى التى احتفل بها الاشبيليون :
عيد النيروز ، وهو حلول أول يوم من أيام فصل الربيع وهو عيد فارسى الأصل . كما احتفل الاشبيليون النصارى أيضا بأعيادهم الدينية وعلى رأسها عيد الفصح وغيره (٣) .

الأزياء والملابس :-

وكان للتقليد الاجتماعى الرفيع الذى أدخله المغنى المشرقى المشهور زرياب على الملابس الاندلسية دورا مؤثرا فى حياة الاندلسيين ، فقد شغفوا بذلك وطبقوه بسرعة ، وساعدتهم طبيعة الأندلس الخلابة أيضا فى أن ترق شمائلهم وترهف أحاسيسهم وانعكس ذلك على أزيائهم وعلى غيرها من مظاهر الحياة الاجتماعية .

فقد ألف الاندلسيون والاشبيليون بطبيعة الحال لبس الملابس الخفيفة البيضاء المنسوجة من الكتان والقطن فى فصل الصيف ، كما ألفوا لبس الملابس الصوفية الثقيلة ذات الألوان الداكنة فى فصل الشتاء (٤) .

وكان عامة السكان فى الاندلس يسيرون حاسرى الرأس من غير غطاء ، والوحيدون الذين كانوا يتعممون هم العلماء والفقهاء ،

---

(١) : محمد بركات البيلى : الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى اشبيلية ، رسالة ماجستير مقدمة الى كلية الآداب - جامعة القاهرة ، عام ١٩٧٨ ، ص ١٥١ .
(٢) : محمد بركات البيلى : الرسالة السابقة ، ص ١٥١ .
(٣) : الرسالة السابقة ، ص ١٥٣ .
(٤) : الرسالة السابقة ، ص ١٤٣ .

أما الطيلسان فقد كان شائعا فى الأندلس وكان الشيوخ يلقونه على رؤوسهم ، وكان الخضاب أى صبغ الشعر واللحية بالحناء شائعا أيضا (١) .

أما المرأة الاشبيلية فقد كانت ترتدى ثوبا يسمى " الاتب " وهو عبارة عن ثوب يلقى على عاتق المرأة من غير كم ولا جيب . وكانت الاشبيليات يرتدين اليمطاف وهو عبارة عن تاج صغير مرصع بالجواهر وأعلاه ريش الطواويس ، كما أكثرت المرأة الاشبيلية من استخدام الحناء والعطور والكحل (٢) .

وقد خالف الأندلسيون المشارقة فى التقيد بملابس معينة فى أفراحهم وأتراحهم . فقد كان الاندلسيون عموما يلبسون اللباس الأبيض فى الحزن على عكس المشارقة الذين يلبسون الملابس السوداء عند الموت (٣) .

الارتياد الى الاماكن العامة :ـ

المتنزهات :

تمتعت اشبيلية نفسها بالطبيعة الخلابة التى حفتها من كل الجوانب . وكان نهر اشبيلية أو الوادى الكبير الذى يشطر المدينة الى شطرين أحد معالم التنزه والسياحة فى المدينة ، فقد كانت المراكب والسفن الصغيرة تقطعه ليلا ونهارا (٤) .

ومن أهم الضواحى الجميلة التى كان يرتادها أهل اشبيلية ، ضاحية طريانة التى لاتبعد كثيرا عن العاصمة ، ثم جزيرة تيطل ووادى الطلح (٥) . كما كان مرج الفضة و متنزه السلطانية من أهم

---

(١) : محمد بركات البيلى : الرسالة السابقة ، ص ١٤٤ .

(٢) : الرسالة السابقة والصفحة .

(٣) : المقرى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٦٣ ، و ص ٣٩٩ .

(٤) : محمد بركات البيلى : الرسالة السابقة ، ص ١٥٤ .

(٥) : أنظر المقرى : نفس المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٨٥ .

المتنزهات الاشبيلية التى كانت متنفسا للأهالى يمارسون فيها هواياتهم فى السباق والطراد . وقد تميزت هذه المتنزهات بوجود الفساقى المائية الرائعة (١) .

الحمامات : (٢)

كانت الحمامات فى القرون الوسطى الاسلامية من أهم مظاهر الحياة الاجتماعية للمجتمع الاسلامى ، وقد تميزت مدينة اشبيلية بوجود أعداد كبيرة من الحمامات فيها . وكان للنساء حمامات خاصة بهن (٣) .

ويعتبر الذهاب للحمام فرصة عظيمة للرجال والنساء للتخلص من جهامة الحياة ، واغلال التقاليد ، وكانت الحمامات تزخر بوجود الخدم الذين يقومون بخدمة المستحمين ، كالحلاقين والطيابين . وكذلك كان الحمام يزخر بالخدم الذين كانوا يليفون ظهور وأجساد الرجال ويطلق عليهم الحكاكين (٤) .

ب ـ أهم مظاهر الحياة الاجتماعية لدى الخاصة :ـ

لكى نستطيع أن نتعرف على الحياة الاجتماعية للخاصة أو الطبقة الأرستقراطية ، ولكى نتعرف على أهم مظاهر التطور الاجتماعى فى المجتمع الاشبيلى ، لابد لنا من العودة الى التذكير بالتركيب الاجتماعى للمجتمع الاندلسى حتى يسهل علينا فهم تلك الحياة الاجتماعية الطبقية ، وفهم أهم مظاهر تطورها .

---

(١) : محمد بركات البيلى : الرسالة السابقة ، ص ١٥٤ .

(٢) : عن الحمامات الاسبانية الاسلامية أنظر :

ليوبولدو توريس بلباس : بحث بعنوان الأبنية الاسبانية الاسلامية . تعريب عليه ابراهيم العنانى ، مجلة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية ، العدد الاول ، ١٣٧٢/١٩٥٣م ، ص ١٠٨ ـ ١١٣ .

(٣) : محمد بركات البيلى : الرسالة السابقة ، ص ٤٨ .

(٤) : محمد بركات البيلى : نفس الرسالة ، ص ٥٣ .

فاشبيلية شأنها شأن غيرها من ممالك الطوائف كانت تضم أخلاطا بشرية عرقية ودينية مختلفة ، كالعرب والبربر والصقالبة ، والمستعربين ، والمولدين ، واليهود ... الخ . وكان المولدون يشكلون ثقلا سكانيا مهما فى المجتمع الأندلسى (١) . ومن الطبيعى جدا أن يكون لكل فئة أو مجموعة من هذه المجموعات العرقية والدينية عاداتها وتقاليدها وأعرافها التى تحرص على أن لا تذوب وتتلاشى فى وسط ذلك الخضم البشرى المتعدد الأجناس .

على أن هذا يجب أن لا يسوقنا الى المبالغة والتهويل كثيرا . فالمجتمع الاندلسى فى الواقع - والمجتمع الاشبيلى جزء منه - كان قد بلغ فى الفترة منذ الفتح وحتى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، من التآلف والانسجام والتزاوج الاجتماعى والاقتصادى والثقافى مرحلة أو تركيبا اجتماعيا بمعنى أدق يمكننا نعته بالمجتمع الاندلسى بكل خصائصه ومميزاته المعروفة فى كتب التاريخ والأدب (٢) .

وعندما نغفل أو نسقط من التوافق والتمازج السكانى لهذا المجتمع الاندلسى الناحية السياسية ، فاننا نؤكد على ظاهرة عامة مميزة فى هذا المجتمع . هذه الظاهرة هى أن العناصر المكونة لهذا المجتمع الاندلسى دخلت طوال تلك الفترة أى منذ الفتح وحتى القرن الخامس الهجرى موضوع بحثنا فى مطاحنات ومعارك حربية ضد بعضها البعض دفاعا عن كينونتها ووجودها ومصالحها . ولم تنس فئة من تلك الفئات السكانية من الناحية السياسية فقط حقيقة التركيب الاجتماعى لمجتمعها الذى تعيش فيه ، فلم تتحرج عن الأخذ بأسباب المناحى الأخرى للحياة ، الاجتماعية منها والثقافية والاقتصادية والعمرانية أيا كان مصدرها .

---

(١) : لطفى عبدالبديع : الاسلام فى اسبانيا ، ص ٢٤ - ٢٦ .

(٢) : انظر التمهيد ، ص ٤٣ - ٤٩ .

ويتوجب علينا ثانية التعرف على ميزة أخرى فى طبيعة تركيب المجتمع الاندلسى ليسهل علينا فهم أهم مظاهر التطور الاجتماعى فى حياة المجتمع الأرستقراطى الاشبيلى . فالمجتمع الاندلسى كما أسلفنا لم يكن مجتمعا طبقيا عنصريا ، وانما كان مجتمعا طبقيا ينقسم بكل عناصره العرقية والدينية الى طبقات ثلاث هى الطبقة الارستقراطية أو طبقة الخاصة ، والطبقة الوسطى ، والطبقة العامة . بمعنى أن كل طبقة من هذه الطبقات الثلاث تجمع فى رحابها كل أو معظم تلك العناصر العرقية والدينية الموجودة فى الأندلس (١) . وكان لكل طبقة من هذه الطبقات تطلعاتها وأوضاعها وهمومها الذاتية وفلسفتها ونظرتها الخاصة للحياة .

على أن ما نستطيع الخلوص اليه من ذكرنا لذلك الواقع الاجتماعى الطبقى ، هو أن الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، والعلمية ، والادبية ، فضلا عن الحياة السياسية ، كانت مرتبطة أولا وأخيرا بلاطات ملوك الطوائف ، والطبقة الخاصة التى تدور فى فلكها والتى تشارك أولئك الملوك فى ذلك الدفع الحضارى (٢) . وفضلا عن ذلك فان هذا التطور الحضارى الذى شهدته بلاطات ملوك الطوائف فى شتى مناحى الحياة ، انما تمّ بفضل العائدات المالية الضخمة التى تهيأت لهؤلاء الملوك والأمراء ، وبسبب التنافس الشديد بين ملوك الطوائف فى هذا العصر فى جعل بلاطاتهم مركزا من مراكز التقدم الحضارى طلبا للمجد والشهرة والصيت الذائع .

---

(١) : أنظر التمهيد ، ص ٤٣ – ٤٩ .

(٢) : عقد صلاح خالص فى كتابه : اشبيلية فى القرن الخامس الهجرى ، فصلا مهما جدا أوضح فيه ما أشرنا اليه فى المتن ، من أن الحياة الاندلسية فى شتى مناحيها قد ارتبطت بالطبقة الارستقراطية ، فهى الموجهة وهى المنفذة ، وهى المضطلعة بكل الأدوار بحكم ما تهيأ لها .

بقى أن نشير أخيرا الى أن المجتمع الاشبيلى الأرستقراطى في عهد بنى عباد وعلى الخصوص فى عهدى المعتضد والمعتمد غلبت عليه حياة المجون والخلاعة والتهتك (١). ويعد المعتمد بالذات أنموذجا حيا لهذا اللون من الحياة .

وقد يعزى شيوع تلك الجوانب الانحلالية داخل المجتمع الاشبيلى الأرستقراطى الى البيئة الاسبانية السهلة المرحة .

على أن هذا يجب ألا يقودنا الى قبول هذا القول على علاته . صحيح أن للبيئة تأثيرها فى حياة الفرد والجماعة، غير أنها لا يمكن أن تكون السبب الرئيسى الذى صرف طبقة الخاصة الى ذلك اللون من الحياة العابثة اللاهية ، ذلك لأن حياة المجون والانحلال والتهتك لا يمكن أن تسود فى مجتمع مسلم الا اذا ضعف الوازع الدينى فى النفوس .

---

(١) : أنظر فى هذا الخصوص :
ـ ابن حزم : طوق الحمامة فى الألفة والآلاف ، ص ١١٥ ـ ١١٦ ، ص ١١٩ .
ـ ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثانى ، المجلد الأول ، ص ٣٦ـ ٣٧ . ـ ابن الابار : المصدر السابق والجزء ، ص ٤٩ ، ص ٦٠ ، ص ٧٤ ، ص ١٧٢ . ـ ابن خاقان : القلائد ، ص ٦ ـ ١١ . ـ المقرى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٠٧ ، ص ٢٨٠ ، ص ٣٩٥ . ـ ابن دحية الكلبى : المطرب فى أشعار أهل المغرب ، ص ٧ ـ ٨ . ـ صلاح خالص : اشبيلية فى القرن الخامس الهجرى ، ص ٩٠ ـ ١٠١ . ـ والمعتمد بن عباد : ص ٦٠ ـ ٧٢ ، وص ٩٣ ـ ٩٦ . ـ ومحمد بن عمار الاندلسى : ص ٢٩٧ ـ ٣٠٠ . ـ جودت الركابى : فى الأدب الاندلسى ، ص ١٦٨ . ـ احسان عباس : تاريخ الادب الاندلسى ، ص ٥٢ . ـ أحمد هيكل : الأدب الاندلسى ، ص ٢٣٥ . ـ رضا الحبيب السويسى : ديوان المعتمد بن عباد ، ص ١٠٣ .

ونعتقد في أنه ليس ثمة ما يدعو الى رصد جوانب تلك الحياة اللاهية للمجتمع الاشبيلي الأرستقراطي ، ذلك لكونها لا تنطوي بطبيعة الحال على أي مضمون حضاري يتماشى مع ما أخذنا نفسنا عليه في هذا البحث .

وما يجب الاشارة والتأكيد عليه في هذا الصدد هو أن ذلك الانحلال ، وتلك المظاهر المجونية الخلاعية كانت عاملا من عوامل انهيار ممالك الطوائف أمام الزحف النصراني الذي أدى من ثم الى تدخل المرابطين وقضائهم على ممالك الطوائف وعلى رأسها مملكة بني عباد .

الصيد والسباق :-

فيما عدا تلك الاهتمامات المجونية لطبقة الخاصة التي عرضنا صفحا عن ذكرها ، فان هناك مظاهر اهتمام أخرى ميزت الحياة الاجتماعية للخاصة . ولم تخل منها حياة الأسرة العبادية المالكة ، وحياة الوزراء وطبقة الأرستقراطية .

ويأتي في مقدمة هذه الاهتمامات الصيد . فكون اشبيلية مدينة نهرية وبرية جعل أهلها يخرجون للصيد في نهر الوادي الكبير وفي البر . ولسنا في حاجة الى التذكير بأنه من الطبيعي أن تختلف نظرة الأهالي للصيد باختلاف وضعهم الاجتماعي والمادي ، فاذا كانت العامة تخرج للصيد ابتغاءا للمعيشة وطلبها للرزق ، فان طبقة الخاصة تطلبه للتسلية . وكان الاهتمام بالصيد البري أكثر من الصيد النهري للمتعة التي تضفيها مطاردة الظباء والغزلان والأرانب وغير ذلك ، وقد استعمل الاشبيليون في عملية الصيد الكلاب والبزاة كما هو الشائع في الصيد . وغالبا ما كانت تشهد رحلات الصيد هذه جلسات اخوانية قبل وأثناء وبعد تناول ذلك الصيد الشهي (١) .

---

(١) : أنظر محمد بركات البيلي : الرسالة السابقة ، ص ١٥٥ .

واهتمت الخاصة بالسباق أيضا . وكان العباديون أنفسهم يشاركون فى تلك السباقات . وأبرز من اهتم بالسباق المعتمد بطبيعة الحال . وكثيرا ما كان يتخلل هذه السباقات الفكاهات الأدبية والاستجازات الشعرية[1] .

الغناء والموسيقى :-

أما الغناء والموسيقى فقد اشتهر الاشبيليون بالمرح والدعابة والتهكم والتندر ، وأثر ذلك فى نفسياتهم وفى نظرتهم للأمور فبعدت حياتهم عن الجد والتجهم ومالت الى الهزل والرقة[2] ، فكانوا كما يقول ابن سعيد المغربى (أخف الناس أرواحا وأطبعهم نوادرا ، وأجملهم لمزاح بأقبح ما يكون من السب قد مرنوا على ذلك ، فصار لهم ديدنا حتى صار عندهم من لا يبتذل فيه ولا يتلاعن ممقوتا[3]) .

ونخلص من هذا الى أن هذه الحياة المرحة السهلة لأهل اشبيلية جعلتهم يتعلقون بالغناء والموسيقى ، وقد غدت اشبيلية فى عهد بنى عباد مركزا رئيسيا للغناء والموسيقى ، وكانت فى الوقت نفسه مركزا مهما لصناعة الآلات الموسيقية التى تصدرها الى بقية بلدان الأندلس . وأهم هذه الآلات هى : العود والكريج ، الخيال ، والروطة ، والرباب ، والقانون ، والمؤنس ، والزلامى ، والبوق ، ... الخ[4] .

---

(١) : أنظر المقرى : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ١٤٢ ـ ١٤٣ .

(٢) : أنظر : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٧ ـ ٣٨ .

(٣) : المقرى : نفس المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٥٠ .

(٤) : المقرى : نفس المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٥١ . ـــ محمد كرد على : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٣٧ .

ولقد استشهد كثير من المؤرخين والادباء قديما وحديثا للدلالة على الحياة المرحة الضاحكة التى تميزت بها اشبيلية بمقولة الفيلسوف الاندلسى المشهور ابن رشد فى مجلس للمناظرة بشأن فضائل مدينتى اشبيلية وقرطبة ، وكانت هذه المناظرة قد حصلت بينه وبين الطبيب الاشبيلى ابى بكر محمد بن زهر فى مجلس الخليفة الموحدى المنصور . وقد طال الجدل بين الرجلين الى أن ختمه الفيلسوف القرطبى بقوله (ما أدرى ما تقول ، غير أنه اذا مات عالم بأشبيلية فأريد بيع كتبه حملت الى قرطبة حتى تباع فيها ، وان مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت الى اشبيلية (١)) .

الألعاب الرياضية الذهنية :-

ومن الألعاب الرياضية الذهنية التى مارستها الخاصة كالوزراء والوجهاء وغيرهم الشطرنج ، وقد مر بنا سابقا الحيلة اللطيفة التى لجأ اليها الوزير محمد ابن عمار لرد غارات الفونسو السادس ، وكيف أنه قد استطاع الوصول الى ذلك عندما تغلب على الملك النصرانى فى لعبة الشطرنج . كما مارست الخاصة أيضا اللعب بالنرد ، كما عرف أهل اشبيلية لعبة اللطمة والمقرع ، وغير ذلك (٢) .

---

(١) : أنظر المقرى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٤٧ - ١٤٨ .

(٢) : أنظر محمد بركات البيلى : الرسالة السابقة ، ص ١٥٦ .

الحيـــــاة الاقتصـــــاديـة

أ ـ النشـاط الاقتصـادى :ـ

بقـى أن نشير أخيرا الى أهـم أوجـه النشـاط الاقتصادى فى الدولة العبـادية ، وهـى الزراعـة والتجـارة والصناعـة • ونجـد من الضرورى هنـا التأكيد على نقطـة هامـة فى هـذا الصدد ، وهـى أن معظم ما كتب عن هـذه الفاعليـات الاقتصـادية الثـلاث ، انما يركز على عموميـاتها الاشبيليـة الموروثـة • وذلك لأن بنى عباد لم يكن لهم جهد مذكـور فى سن أنظمـة وقوانين ، أو عمل مشاريع بارزة للارتقاء بهـذه الفاعليـات ، ربمـا لانشغالهم بالتوسع والسيطرة ، الذى أقحمهم فى نـزاع ومشـكلات مع جيرانهـم من ملوك الطوائف ، أو ربمـا اعتقـادا منهـم بـأن هـذه الفاعليـات كافيـة وافيـة لمسيرة الدولـة الاقتصاديـة • ولهـذا فان هـذه الفاعليـات أو الأوجـه الاقتصـادية فى دولة بنى عباد تعتبر امتدادا للعصـور الاسـلاميـة السـابقـة ، واستمرارا لأنظمـة وقـوانين موروثـة مرعيـة •

أما الزراعـة ، فقد كانت أبـرز أوجـه النشـاط الاقتصادى على الاطلاق ، بفضـل الطبيعـة الزراعيـة للاندلس عموما ، وبفضل الطبيعة الزراعيـة التى امتازت بها اشبيلية ، من حيث خصوبة التربة ، ووفـرة الميـاه ، وللقـوانين والانظمـة التى وضعهـا الاشبيليون للارتقـاء بالزراعـة • كنظـام الملكيـة العقـارية ، الذى يقوم على أسـاس تفتيت الملكيـة القـروية الكبيرة الى مجموعة متعددة من الملكيات الصـغيرة (١) ، وكنظام المشـاركة الذى مر بنا ذكـره (٢) • حيث يقاسم الفلاحون الملاك المحصول الزراعى ، وكان هـذا عـاملا مهمـا فى تحسين أوضـاع أولئـك المعوزين الذين لا يمتلكون الأرض ، فكـان المـلاك الأغنيـاء يشـاطرونهم الانتـاج الزراعى مقابل جهدهـم العضـلى •

---

(١) : أنظر محمد بركات البيلى : الرسالة السابقة ، ص ٨١ •

(٢) : أنظر الباب الخامس قبل ، ص ٣٧٢ •

وقد زرع بأشبيلية معظم الغلات الزراعية المعروفة ، ولكن أهم الغلات الاشبيلية على الاطلاق الزيتون ، والقطن [١] ، والتين ، ثم قصب السكر . وكان الفلاح الاشبيلي ذا خبرة ودراية عظيمة بالفلاحة وطرق الري ، وكان لطرق الري والسدود التي أنشأها المسلمون في الاندلس أثر كبير في تقدم الزراعة الأندلسية عموما . وقد عرف الاشبيليون أيضا طريقة تخصيص أنواع معينة من النباتات لكل نوع من أنواع التربة كما أدخلوا نباتات أخرى جديدة ، وأدخلوا السواقي والقنوات وغيرها [٢] .

ومما يدل على شدة اهتمام الاشبيليين بالزراعة ، أن ألف بعضهم كتبا مهمة عن الفلاحة وشؤونها ومن هؤلاء ، ابن بصال [٣] الذي عاش في عصر العباديين ، وألف عن الفلاحة كتابا مهما أسماه كتاب الفلاحة ، وقد عاش في عصر المعتمد وأنشأ بستانا زرع فيه جميع ما جمعه أثناء رحلاته خارج الاندلس وقد سمي هذا البستان : بستان السلطان ثم تبعه بعد ذلك بفترة غير بعيدة ، ابن العوام الاشبيلي الذي ألف كتابا عن الفلاحة أسماه كتاب الفلاحة أيضا [٤] .

---

(١) : أنظر محمد بن عبد المنعم الحميري : المصدر السابق ، ١٩ - ٢١ ؛

(٢) : محمد بركات البيلي ، الرسالة السابقة ، ص ٧٩ ، وص ٨٤ .

(٣) : هو ابو عبد الله محمد بن ابراهيم بن بصال ، أو ابن البصال الطليطلي ؛ عاش في اشبيلية في القرن الخامس الهجري ، وقد كان يخدم المعتمد ابن عباد - فيما يظن - في مجال الزراعة . وقد ألف كتابه : الفلاحة الذي يقع في ١٦ فصلا . وقد نشره وعلق عليه وترجمه كل من : خوسيه ماريا مياس بيكروسا الاستاذ بجامعة برشلونة ، ومحمد عزيمان السكرتير العام لوزارة التربية والثقافة للمنطقة الخليفية بالمغرب ، منشورات معهد مولاى الحسن - تطوان - ١٩٥٥ م ، وقد كتبت نبذة عن هذا الكتاب في مجلة معهد الدراسات الاسلامية منقولة من مقدمة مجلة تطوان التي قدمت لكتاب ابن بصال ؛

أنظر ابن بصال : كتاب الفلاحة . نشره وترجمه خوسيه ماريا مياس بيكروسا .

زاوية الكتب : نقد وعرض المجلد الخامس ، العدد ١ - ٢ ، ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٧ م (عدد خاص بمناسبة مرور خمس سنوات على انشاء الصحيفة) ص ٨ .

(٤) : محمد بركات البيلي : نفس الرسالة أعلاه ، ص ٧٩ - ٨١ .

الصناعة :

عرفت اشبيلية بحكم الطبيعة الرعوية والزراعية لها ، عدة صناعات قامت على الانتاج الزراعي والحيواني ، كصناعة النسيج ، وصناعة عصر الزيتون واخراج الزيت منه ، وصناعة السجاد وصناعة طحن الغلال وغير ذلك .

وبجانب هذه الصناعات ، توجد صناعات أخرى ، كصناعة آلات الحرب ، كالسيوف والدروع وغير ذلك ، وصناعة مواد البناء وما يتصل بها من صناعة المواد الخشبية ، كالشراجيب (١) ، والنوافذ والأحواض الخشبية ، وغيرها (٢) .

وقد اشتهرت اشبيلية بصناعة السفن بحكم كونها أول مدينة أندلسية تقام فيها دار لصناعة السفن ، وذلك في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط . كما اشتهرت اشبيلية بصناعة الآلات الموسيقية كما قلنا سابقا ، وكانت هذه الآلات تنقل منها الى مدن الاندلس والى خارج الأندلس أيضا (٣) .

التجارة :

ومن الطبيعي أن يهتم الاشبيليون بتصريف انتاجهم الزراعي والحيواني والذى يفيض عن حاجتهم ، كما أن من الطبيعي أن يحتاجوا الى استيراد ما ينقصهم من الضروريات والكماليات التي تزخر بها المدن الأخرى ، ولذلك فقد اهتموا بالاعتناء بشبكة الطرق البرية التي تربط مدينتهم ببقية مدن الأندلس . واهتموا أيضا بانشاء الاسطول بحكم كون مدينتهم تطل على الوادى الكبير أو نهر اشبيلية كما يعرف أيضا ، الذى يتصل بالمحيط الأطلسي .

(١) : لعلها الرواشين كما تعرف في الحجاز أو المشربيات كما تعرف في مصر .
(٢) : محمد بركات البيلي : الرسالة السابقة ، ص ٩١ ــ ١٠٤ .
(٣) : محمد بركات البيلي : نفس الرسالة ، ص ٩٨ ــ ١٠٣ .

وقد مر بنا في حديثنا عن البحرية العبادية ، أن العباديين أنشأوا أسطولين ، حربي وتجاري .

وقد شهدت اشبيلية في عهد بني عباد حركة تجارية كبيرة بفضل هذه العوامل ، وكانت لهم علاقات تجارية مع مدن الأندلس ، ومع المغرب ، وبلدان المشرق الاسلامي (١) .

ب ـ النقود :ـ

بقي أن نشير اتماما للحالة الاقتصادية في الدولة الى السكة العبادية ، فلقد ضرب العباديون عملة خاصة بهم تحمل أسماءهم ، ويبدو أن أبا القاسم ابن عباد كان أول من ضرب عملة عبادية من ملوك بني عباد ، ولكن يظهر أنه لم يضربها باسمه ، بل ضربها باسم خليفته المزعوم هشام ، وأضاف اليها لقب الحاجب عباد . وكان لهذا العمل ولاشك مغزى سياسي واضح . وقد وجدت عملة مؤرخة في سنة ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ هـ ، كتب عليها في الوجه الامام المؤيد بالله هشام ، اضافة الى اسم الحاجب عباد في الجهة الأخرى من العملة . وقد ضرب المعتضد نقودا باسمه ، مكتوب على الوجه الامامي منها عبارة : المعتضد بالله ، وعلى الوجه الاخر اسم أحد أبنائه ، كالحاجب اسماعيل ، أو الحاجب محمد ، أو الحاجب الظافر محمد ... الخ .

وكانت العملة تضرب حتى عام ٤٦٤ هـ تحت عبارة (دار الضرب بالأندلس) . أما في عام ٤٦٥ هـ ، فقد بدأت تضرب تحت عبارة (ضرب في اشبيلية) .

أما السكة في عهد المعتمد بالله ، فقد ضرب بعضها في اشبيلية ، والبعض الآخر في قرطبة ، وكذلك ضربت نقود أخرى

---

(١) : محمد بركات البيلي : الرسالة السابقة ، ص ١٠٣ ـ ١٠٧ .

في مدينة مرسيية ، وكانت تحمل عبارة المعتمد على الله في الوجه الأمامي وفي الوجه الآخر كتب اسم أحد أبناء المعتمد كالحاجب سراج الدولة ، وغيره .

ويبدو أن العملة العبادية قد استمرت تضرب حتى عام ٤٧٨ هـ ، وهو العام الذي وقعت فيه موقعة الزلاقة ، ثم انقطع أي ذكر لها بعد ذلك . وربما يعود ذلك الى أن ضغط الأحداث التي أعقبت موقعة الزلاقة قد عرقل سكها أو ربما ذهب بها تتابع الأحداث تلك فانعدم بعد ذلك العام أي ذكر النقود عبادية (١)

---

(١) : للاطلاع على مزيد من التفاصيل عن العملة العبادية يراجع : محمد بركات البيلي : الرسالة السابقة ، ص ١١٥ ــ ١١٧ .

الحياة العلمية والأدبية

الأثر الحضاري لقيام ممالك الطوائف :-

ذكرنا فيما مضى أنه رغم التفتت والانحلال والتمزق السياسي الذي ساد الاندلس في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي الا أن هذا القرن شهد اشراقا حضاريا وثقافيا كبيرا ، ولم تكن الثقافة الاندلسية كما يقول ليفي بروفنسال (في يوم من الايام أكثر ازدهارا وخصبا منها خلال هذا القرن)(١).

وفي حقيقة الأمر فان الازدهار العلمي والادبي الذي ساد الاندلس خلال عصر ملوك الطوائف كانت له ارهاصاته ومقدماته منذ عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر ، ثم عهد الحاجب المنصور بن أبي عامر . وهي الفترة الزمنية السابقة مباشرة لعصر ملوك الطوائف .

وقد سما هؤلاء بالاندلس سياسيا وعلميا وأدبيا وعمرانيا الى درجات رفيعة من السمو والرفعة . وتجلت مظاهر ذلك السمو في المنشآت العمرانية كعمارة جامع قرطبة ، وعمارة مدينتي الزهراء والزاهرة، كما تجلى ذلك التقدم في الجانب الادبي أيضا ، وشهد ذلك العصر بالاضافة الى ذلك تقدما علميا ليس أدل عليه من أن ملوك أسبانيا النصرانية كانوا يؤمون بلاطات خلفاء بني أمية طلبا للعلاج والشفاء(٢)

---

(١) : حضارة العرب في الاندلس ، ترجمة ذوقان قرقوط ، ص ١٩ .

(٢) : للاطلاع على النهضة العلمية والادبية والثقافية في عصر الخلافة والدولة العامرية أنظر :

ليفي بروفنسال : حضارة العرب في الاندلس ، ص١٩ - ٢٠ . —

مانويل جوميث مورينو : المرجع السابق ، ص ٧١ - ٢٠٠ . —

أحمد هيكل : الادب الاندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة : الفصل الرابع ، ص ١٩٥ الى نهاية الكتاب . — جودت الركابي : في الأدب الاندلسي ، ص ١٩ - ٢٠ . — عبد الرحمن علي الحجي : أندلسيات، ص ١٩ - ٢٠ .

ولذلك فان القرن الخامس الهجرى يعد متمما لتلك الاتجاهات الحضارية . وأسهم ملوك الطوائف فى اذكاء ذلك ودفعه حتى ليصدق القول بأن جوانب الحضارة والتمدن (قد اكتملت أو كادت حتى وصلت الى مرحلة لابد لها من جنوح أو هبوط)[(١)]

وقد أخذ ملوك الطوائف على عاتقهم مهمة ذلك الدفع الحضارى والثقافى لأغراض شخصية محضة لاضفاء هالات المجد والصيت على بلاطاتهم فى معظم الاحايين ، أو لارضاء نزعات علمية وأدبية وتاريخية ذاتية كما كان شأن بلاطات اشبيلية وبطليوس وسرقسطة . وكان تأثير عواصم ممالك الطوائف على الفن والعمران عظيما ، وذلك لأن كل عاصمة من هذه العواصم اندفعت جاهدة لتتفوق على العواصم الأخرى وتدل عليها بما حققته من تقدم عمرانى وأدبى وعلمى رفيع .[(٢)]

ولقد استوقفت هذه المفارقة التاريخية أى ظاهرة الاشراق الحضارى والثقافى فى قلب أزمنة الانحلال والتمزق السياسى الكثير من الادباء والمؤرخين فلفتوا النظر اليها فى دهشة واستغراب شديدين[(٣)] وان لم يفتهم أن يستدركوا أن هذه المفارقة التاريخية كانت تصدق دائما فى عصور الانحلال والتمزق . لأن تفتت أى نظام حكم مركزى الى ممالك وامارات متناثرة يفضى دائما الى ظهور تيارات من المنافسات والمشاحنات ، وتدفع هذه التيارات المتنافسة الممالك المتناحرة الى تشجيع العلم

---

(١) : احسان عباس : المرجع السابق ، ص ١٠٧ وما بعدها .

(٢) : أنظر محمد عبدالعزيز مرزوق : المرجع السابق ، ص٦٢ ــ ٦٣ .

(٣) : أنظر ليفى بروفنسال : حضارة العرب فى الاندلس، ص ١٩ ــ ٢٠ . وسلسلة محاضرات عامة فى أدب الاندلس وتاريخها ، ترجمة عبدالهادى شعيرة ، ومراجعة عبدالحميد العبادى ، ص١٣ــ١٤ .
ــــ محمد كرد على : غابر الاندلس وحاضرها ، ص٢١ ومابعدها .

والأدب . والحبو على رجالاتهما وتكريمهما ، لتدل بذلك على غيرها كما ذكرنا . ولتسبغ على شخصيات قادتها أكاليل المجد والفار .

ونحن هنا في هذا المقام لا يعنينا دراسة الأدب والعلوم والثقافة ، والتطور الذى رافق مسيرة الحضارة الاندلسية في عصر ملوك الطوائف ، فليس ذلك في منهاجنا . وانما ما يعنينا هو التأريخ لتلك الأوجه الحضارية لنخلص الى نتيجة ذات مساس ببحثنا الا وهى معرفة الحياة العلمية والادبية في مملكة بنى عباد موضوع بحثنا .

ومما نستطيع الخلوص اليه من كل ما قيل حول التطور الحضارى في القرن الخامس الهجرى ، هو التأكيد على حقيقة مفادها أن بلاطات ملوك الطوائف قد أصبحت مراكز أدبية حام حولها العلماء والادباء والشعراء يقدمون الى الملوك نتاج عقولهم وقرائحهم ، ومكنونات عواطفهم ومواهبهم ، وينالون على ذلك الأعطيات الجزيلة ، حتى لقد دفع هذا التشجيع بعض الشعراء الى رفع أسعار أشعارهم لدرجة جعلت أحدهم لكثرة المنافسات عليه يقسم أن لا يمدح أميرا من الأمراء بأقل من مائة دينار (١) .

كما أن مما نستطيع استخلاصه من أثر حضارى لقيام ممالك الطوائف ، تلك الملاحظة التى دأب كثير من الادباء والمؤرخين على ترديدها للاستدلال بها على النهضة الأدبية في عصر ممالك الطوائف . هذه الملاحظة هى التى وردت على لسان المؤرخ المشرقى القزوينى مفادها أنه (من احدى عجائب مدينة شلب ، أنه قل أن ترى من أهلها من لا يقول شعرا ، ولا يعانى الأدب ، ولو مررت بالفلاح خلف فدانه وسألته عن الشعر قرض من ساعته ما اقترحت عليه ، وأى معنى طلبته منه) (٢) .

---

(١) : اميليو غارسيا غومس : الشعر الاندلسى ، ترجمة حسين مؤنس ، ص٤٦ .

(٢) : كامل كيلانى : نظرات في تاريخ الادب الاندلسى ، ص٣٤٠ـ٣٤١ .

ومما نستطيع استخلاصه أيضا من أثر حضارى لقيام ممالك الطوائف ، هو أن المعرفة والتراث الاندلسى فى عصر هذه الممالك قد شهدا تطورا مطردا فى شتى المناحى . فزخر بوجود عدد كبير من الاعلام فى شتى نواحى المعرفة ، فكان هناك علماء فى الهندسة ، والفلك والرياضيات ، والرصد ، وحركات النجوم ، وكان هناك علماء فى الفلسفة والطب ، والمنطق والصيدلة ... الخ .

وفيما يتعلق بالعلوم النقلية كان هناك علماء فى الفقه والتفسير والفرائض ، والنحو والتاريخ والجغرافيا . ولسنا هنا فى وارد ذكر أسماء الأعلام الذين أسهموا فى هذه المجالات الحضارية المختلفة لأن ذلك ليس من منهجنا أولا ، ولأن كثيرا من كتب المحدثين قد كفتنا مؤونة ذلك من جهة أخرى(١).

وفيما يتصل بالحياة الادبية باعتبارها أهم مظهر حضارى فى عصر ملوك الطوائف ، فان المقام يضيق بذكر أعلامها الأفذاذ . وكانت أى الحياة الادبية فى الاندلس فى عهد ممالك الطوائف مجالا رحبا لمصنفات حديثة أوسعتها بحثا وتنقيبا(٢).

---

(١) : أنظر مثلا :

ـ محمد كرد على : غابر الاندلس وحاضرها ، ص ٥١ ـ ٩٣ . ـ عبدالمنعم ماجد : تاريخ الحضارة الاسلامية ، ط ٣ ، الفصل الثالث والفصل الرابع من الكتاب . ـ حسين مؤنس : شيوخ العصر ، ص ٨١ ـ ٨٤ .

(٢) : أنظر مثلا :

ـ احسان عباس : المرجع السابق . ـ مصطفى الشكعة : الأدب الاندلسى موضوعاته وفنونه . ـ آنخل جنثالث بالنثيا : تاريخ الفكر الاندلسى . ـ اميليو غارسيا غومس : المرجع السابق وغير ذلك .

على أننا نجد أنفسنا مضطرين الى أن نفسح لبعض الاعلام الأفذاذ في هذا المقام ذكرا ، لأن أولئك الأعلام الأفذاذ الذين تنوعت اهتماماتهم وتباينت اتجاهاتهم ومشاربهم قد فرضوا أنفسهم على كل من اضطلع بدراسة أو تاريخ الحياة العلمية والأدبية والفكرية بوجه عام.

فمن هؤلاء العلماء الأفذاذ : ابن حزم الفقيه والمفكر الاندلسي المشهور ، وفي هذا ما يكفي للتعريف به (١) . ومن هؤلاء أيضا الفقيه الاندلسي المشهور ابن عبد البر الذي كان يقال له حافظ أهل الغرب (٢) ومن الاعلام الذين خلدت أسماؤهم أيضا : الفقيه أبي الوليد سليمان بن خلف الباجي (٣).

أما أبرز شخصيات ذلك العصر الادبية ، فهم ابن شهيد (٤) ، وابن زيدون (٥) ، وابن عمار (٦) ، وابن اللبانة (٧) وغيرهم .

---

(١) : أنظر ترجمته في :-
- ابن خلكان : المصدر السابق ، مجلد ٢٨ ، ترجمة رقم ٤٤٨ .
- ابن كثير : البداية والنهاية ، ١٦ جزءا ، ج ١٢ ، ص ٩١-٩٢ .
- ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٧٥ .

(٢) : أنظر ترجمته في :-
ابن خلكان : نفس المصدر السابق ، مجلد ٧ ، ترجمة رقم ٨٣٧ .
- ابن بشكوال : المصدر السابق ، ص ٦٤ .

(٣) : أنظر ترجمته في :-
ابن خلكان : نفس المصدر السابق ، مجلد ٧ ، ترجمة رقم ٢٧٥ .
- ابن شاكر : فوات الوفيات ، ج ١ ، ص ٣٥٦ - ٣٥٧ .

(٤) : أنظر ترجمته في :-
ابن خلكان : نفس المصدر السابق ، مجلد ١ ، ترجمة رقم ٤٨ .
- احمد هيكل : المرجع السابق ، ص ٤١٠ - ٤١٩ . -
أميليو غارسيا غومس : نفس المرجع السابق ، ص ٣٩ .

(٥) : عن ابن زيدون أنظر :-
على عبد العظيم : ديوان ابن زيدون ورسائله .

(٦) : عن ابن عمار أنظر :-
صلاح خالص : محمد ابن عمار الاندلسي .

(٧) : أنظر بعد ، ص ٤١٢ .

بقي أن نشير الى أن ملوك الطوائف أنفسهم كانوا ذوي علم وأدب ومعرفة ، وكان لكل واحد منهم ميزة اختص بها دون جيرانه ، (فامتاز المتوكل صاحب بطليوس بالعلم الغزير[1] ، وامتاز ابن ذي النون صاحب طليطلة بالبذخ البالغ ، وفاق ابن رزين صاحب السهلة[2] أفذاذه في الموسيقى ، واختص المقتدر بن هود صاحب سرقسطة بالعلوم وبز ابن طاهر صاحب مرسية أقرانه بالنثر الجميل المسجوع ، أما الشعر فكان أمرا مشتركا بينهم جميعا ، يلقى منهم كل رعاية[3]) .

ان ذلك القرن الحادي عشر الاندلسي لعالم عجيب متدفع الحركة : عصر كانت الفاسلة فيه تنتقل من ضفة النهر الى العرش[4] ، وكان الملوك فيه ينزعون عن عروشهم ويسلمون الى أنياب المنية ، أو يلقى بهم في ظلمات المنفى ! ان اشارته الغالبة عليه هي الانهيار[5]) .

---

(١) : أنظر قبل الباب الرابع ، ص ٢٥٥

(٢) : هي سهلة بني رزين أو شنتمرية الشرق كما كانت تعرف في الجغرافيا الاسلامية أيضا .

(٣) : اميليو غارسيا غومس : المرجع السابق ، ص ٤٥ .

(٤) : المقصود بذلك اعتماد الرميكية زوج المعتمد بن عباد التي تعرف عليها لأول مرة على ضفة نهر الوادي ، ثم اشتراها من سيدها وتزوجها ، وأنجب منها كل أولاده المشهورين في كتب التاريخ والأدب .

(٥) : اميليو غارسيا غومس : نفس المرجع اعلاه ، ص ٤٥ .

الحياة العلمية والأدبية في مملكة بني عباد :-

من أسف أن المؤرخين والادباء القدامى رغم اهتمامهم الشديد ببني عباد ودولتهم لم يسعفونا بالمادة التاريخية اللازمة لمعرفة الحياة العلمية والادبية على وجه التخصيص. فكلما نشاهده من ذلك الحشد من الاشعار وأسماء عديدة لشعراء وأدباء وكتاب زخرت بهم دولة بني عباد لا يعدو نطاق أغراض الشعر والنثر التي كانت سائدة في الاندلس في هذه الفترة. كما لم تتح لنا سانحة العثور على أخبار عن المدارس والمعاهد والمكتبات التي أنشأها العباديون لخدمة العلم والمعرفة في المملكة.

فكل ما يمكننا الاشارة اليه - بالنسبة للحياة العلمية والادبية في اشبيلية في عهد بني عباد - هو ذلك الثبت الجم من الأسماء لأدباء وشعراء زخرت بهم بلاطات بني عباد. ومهمتنا في هذا الصدد تقتصر على رسم صورة واضحة المعالم للحياة الادبية والعلمية في اشبيلية في هذه الفترة موضوع الدراسة.

العباديون في دولة الأدب :-

بادئ ذي بدء نجد أن الاتجاه الشعري هو الغالب على ملوك بني عباد ، فقد كان ملوك هذه الدولة ابتداء من عهد القاضي أبي القاسم محمد بن اسماعيل بن عباد ، ومرورا بالمعتضد ابنه ، وانتهاء بالمعتمد وأبنائه يقرضون الشعر و ينظمونه على درجات متفاوتة في علو الكعب وسمو الدرجة.

وقد حفظت للقاضي أبي القاسم عدة أبيات يصف فيها الطبيعة بعناصرها المختلفة كالأزهار والرياحين(١).

---

(١) : أنظر المقري : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣٥٩ ، وص ٣٧٢-٣٧٣ (نقلا عن ابن اللبانة - والفتح بن خاقان في مطمح الأنفس).

ويبدو أن القاضي كان مقلا جدا في قول الشعر ونظمه ، فعدا ماذكرنا عن تلك الأبيات التي نظمها في وصف الطبيعة ، لم يحفظ له شيئ من الشعر سوى ما أثبته ابن بسام له من أبيات عارض فيها بعض شعراء بلاطه (١) .

والظاهر أن مشاغل تأسيس الدولة من جهة ، والاهتمامات السياسية للقاضي نفسه من جهة ثانية حالت دون اهتمامه بالأدب في عهده بصفة عامة . وان كان هذا لم يكن أمرا مطلقا دائما ، فبلاط القاضي شهد أكثر من شاعر بلاطي متخصص كما شهدت الحياة الادبية والعلمية صور من المعارضة الشعرية التي كانت تستهوي دائما ملوك تلك الفترة .

أما المعتضد فله شعر يضعه في مراتب الشعراء المبرزين ، وان كانت له أشعار تجعل المرء يشك كما يقول علي أدهم (٢) في شاعريته .

على أنه فاق أباه في نظم الشعر وقرضه ، والاجازة عليه وتشجيعه . وقد طرق معظم أغراض الشعر ، وأغرق كثيرا في مدح نفسه والتفاخر بأعماله (٣) ، ويقول آنخل جنثالث بالنثيا عنه (وقد كان ذا مزاج متناقض غريب ، يجمع بين الدهاء والقسوة ، وكانت له ـ الى ذلك ـ ذاكرة واعية ، وقريحة شاعرية طيبة جعلت معاصريه يضعونه في صفوف المبرزين من القراء ، وأحاط المعتضد

---

(١) : أنظر : الذخيرة ، القسم الثاني ، المجلد الاول ، ص ١٧٢ ـ ١٧٥ .

(٢) : المرجع السابق ، ص ٧٢

(٣) : عن شعر المعتضد بالله أنظر :

ابن الابار : المصدر السابق والجزء ، ص ٦٧ ـ ٨٠ .

نفسه بهالة من الشعراء جعلت همها مدحه ، وأفرغ عليهم الأموال فبدا في هيأة خلابة من العظمة (١) .

أما المعتمد فشهرته كشاعر أشهر منها كملك وكسياسي . ولم يبلغ الشعر من الانتشار والاشراق مثلما بلغه في أيامه . وقد أفردت لشاعريته وأدبه صفحات جمة وفيرة في كتب المؤرخين قديما وحديثا . ولم ينل ملك من ملوك بني عباد فضلا عن ملوك الطوائف ما ناله المعتمد من عناية واهتمام الدارسين للأدب .

وهو في الواقع حقيق بذلك . فالجانب العاطفي من شخصيته أسمى كثيرا وأرق من الجانب السياسي . وهو جانب (لا ينهض بحقه من غير شك) (٢) اذ أن هذا الجانب العاطفي أشد خلابة وأسرا كما يقول ليفي بروفنسال أيضا (٣) .

والمعتمد من أكبر شعراء الاندلس لا في عهد ممالك الطوائف فحسب ، بل في كافة العصور الاسلامية الأخرى في الاندلس ، لا بل هو من شعراء العربية الأفذاذ على مستوى العالم الاسلامي في العصور الوسطى .

ويحار المرء في اختيار العبارات التي يطرقها لوصف شاعرية المعتمد ، وتزداد المهمة صعوبة لكوننا بعيدين عن مجالات الأدب . ولكن يحسن بنا أن نشير الى أقوال القدامى والمحدثين في شاعرية هذا الملك الذى أسر بلاطه أولئك

---

(١) : تاريخ الفكر الاندلسي ، ص ٨٦ - ٨٧ . - الفتح بن خاقان : القلائد ، ص ١٣ - ١٤ .

(٢) : ليفي بروفنسال : سلسلة محاضرات عامة في أدب الاندلس وتاريخها ، ص ١٤ - ١٦ .

(٣) : نفس المرجع والصفحة .

المؤرخين والأدباء . يقول ابن الخطيب فيما ينقله عنه عبدالوهاب عزام (والمعتمد على الله محمد بن عباد نسيج وحده في الجود ، وأصلب نظرائه مكسر عود ، فذ في البلاغة ، طرف في الشعر والكتابة ، بارع النظم والنثر ، كثير الأدب ، جذل الألفاظ ، كثير المعاني ، حسن المآخذ ، له من معاطف الكلام ، رقيق الحاشية ، كثيف المتن ، كثير البديع ، رائق الديباجة ، لائق الاستعارة ، حسن الاشارة ، جم التوليد ، لم ينشده من الوزراء والشعراء أشعر منه على كثرة ما اجتلب اليه من أعلامه الثناء ، ونثر عليه من در الحمد ، ووضع في يديه من حر القريض)(١) .

ترى هل يكفي هذا الحكم النقدي في ايفاء المعتمد حقه ؟؟ نعتقد أنه لا يكفي فمازال في جعبتنا من أحكام الادباء والمؤرخين الكثير مما يؤيد ما جاء في المتن . غير أنه بحسبنا هنا أن نكتفي بذلك ، لننتقل الى العصر الحديث فننقل اعجاب المؤرخين المحدثين به . يقول آنخل جنثالث بالنثيا(٢) (وكان الحال في اشبيلية شبيها بما كان عليه في ألمرية ، اذ حظي الشعر فيها على ما عداه من أضرب الأدب في ظل بني عباد . ولقد كان المعتضد والمعتمد من أعلام الشعراء ، ومن ثم لا نستغرب أن يكون بلاطهما مدرسة تخرج فيها أهل الآداب . وقد وصلت الخمريات وشعر النسيب والغزل أعلى درجات الكمال في ذلك البلاط المصقول ، حيث عجز شعراء مجيدون من طبقة علي بن حصن وابن حمديس الصقلي ، وأبي بكر بن زيدون ، وأبي بكر بن اللبانة ، وغيرهم كثيرون عن ادراك ما وصل اليه ابن عمار ، وزير المعتمد النابه الذكر المنكود الحظ من تحليق بعيد في سماء الشعر ، وقصروا كذلك في ملاحقة اعتماد نفسها زوج المعتمد وجارية رميك التاجر الاشبيلي قبله ، فضلا عن مجاراة الملك الشاعر المعتمد فيما أبدعه من

---

(١) : المعتمد بن عباد الملك الجواد الشجاع الشاعر المرزأ ، ص١٧ـ١٨ .
(٢) : تاريخ الفكر الاندلسي ، ص ٨٨ ـ ٩٠ .

رائع القصيد . والحق أن المعتمد وفق في أيام سعوده ومجده، الى درجة من التجويد مكنت له أن يصل بشعره - في أبواب الغزل ، ووصف مجالس السرور ، ووصف الحرب والنصر - الى آفاق استدرت اعجاب البدو أنفسهم ، فلما تنكرت له الأيام ، وعانى أوصاب السجن والهوان ، أخذت نفسه الفتانة تجود بدرر من الشعر لازالت تثير في أنفسنا الى اليوم الاجلال لهذا الملك الفارس الشهم الكريم) .

أما اميليو غارسيا غومس(١) فيقول في معرض تقييمه لعصر ملوك الطوائف (واذا كان لابد من تصوير المحنة العامة التي شملت الشعر خلال ذلك العصر في صورة شخص واحد من أهله ، فليس أوفق لذلك من المعتمد ابن عباد صاحب اشبيلية (٤٦١هـ/١٠٦٨م - ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م) كان أبوه المعتضد (٤٣٤هـ / ١٠٤٢ م - ٤٦٢هـ / ١٠٦٩ م) - صاحب الأفاعيل الشنيعة - وأبناؤه جميعا ، وخاصة " الراضي " الرقيق صاحب رندة ، كلهم شعراء . ولكنه بزهم جميعا وفاق كل معاصريه في ذلك المضمار لأنه كان يمثل الشعر من ثلاثة وجوه : أولها أنه كان ينظم شعرا يثير الاعجاب ، وثانيها أن حياته نفسها كانت شعرا حيا ، وثالثها أنه كان راعي شعراء الاندلس أجمعين بل شعراء الغرب الاسلامي كله ، فالى بلاطه لجأ شعراء افريقية وصقلية ، عندما غزا النورمان بلادهم واستولوا على بعضها ، وتهددوا الباقي .)(٢)

بحسبنا هذه الأحكام لنستدل بها على علو درجة المعتمد الشاعرية وعلو كعبه الأدبي . وبالاضافة الى ذلك كان المعتمد ناقدا محللا . عرف عنه ذلك واشتهر حتى كان الشعراء يتحرجون عند القاء قصائدهم بين يديه وحتى كانوا يتحامونه لعلو كعبه في النقد الأدبي(٣)، وبالاضافة الى ذلك كان شديد الاهتمام بالعلم والمعرفة ، شغوفا الى فهم ما استشكل

---

(١) : المرجع السابق ، ص ١٥ - ١٦ .

(٢) : المرجع السابق ، ص ٤٦ - ٤٧ .

(٣) : أنظر المقري : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ١١٠ - ١١١ ، وص ٣٩٤ - ٣٩٥ .

منهـا • وخيـر دليل على ذلك السـؤال الذى وجهـه المعتمـد الى الاعـلم الشـنتمرى المذكور سابقا يستفسـر فيـه عن النطق الصحيـح لكلمة (المسـهب)[١] •

وقد بقيـت هذه الذكـرى العطـرة للمعتمـد حيـة مشـرقة ، تتناقلهـا الاجيـال حتى الوقت الحاضـر ، ودفـع هذا الاعجـاب للشاعر الكثير من القدامى والمحدثين الى تتبـع حيـاته وأدبـه وثقافـته الواسـعة العريضة • كما استهوت حيـاته البائسـة وأشـعاره الشـجيـة الرقيـقة الباحثين قديمـا وحـديثا[٢] • وظـلت أشـعاره تجتـذب أنظـار الأدبـاء والدارسـين والنقـاد وسـائر غـواة الأدب المحـض والثقـافة الحقـة كما يقـول على أدهم • وقـد جمـع شـعره فى ديـوان أطـلق عليـه اسـمه[٣] •

هذا غيـض من فيـض هذا الشاعـر وقليـل من كثير ألقـه وأمجـاده الأدبيـة • ولم يكـن أبنـاء المعتمـد ليشـذون عن النهـوض بالشـعر لا بـل تذوقـه وقرضـه عـن أبائهـم • ولعـل أبرزهـم ظهـورا فـى هذا الميـدان : يـزيـد الراضـى صاحب الاشـعار الرقيـقة الجـزلة[٤] •

---

(١) : أنظر المقـرى : نفس المصدر والمجلد ، ص ٢١٦ ـ ٢١٨ •

(٢) : من المؤلفات التى ألفت حول شخصية المعتمد الشعريـة أنظـر :
عبد الملك المراكشى : الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة ، ص ٦٤٤ •
ـ على أدهم : المرجع السابق • ـ عبد الوهاب عـزام : المرجـع السابق • ـ صلاح خالص : المرجـع السابق وغـيـرهم •
أما بالنسبة للدوريـات فهناك العديـد منها التى تناولت شخصيـة المعتمد الادبيـة نذكـر منها على سبيـل المثال : ابراهيم حركـات : شعر المعتمد باللـه فى المغرب ، مجلة البحث العلمى ، ١٩٦٥ م • ـ الصديق بن العربى : المعتمـد فى المغـرب ، مجلة تطوان ، العدد ١٠ ، ١٩٦٥ م • ـ عبد القادر زمامة : شعر المعتمـد فى المنفى ، مجلة البحث العلمى المغربى ، الربـاط ، ١٩٦٤ م •

(٣) : أنظر احمد احمد بدوى وحامد عبد المجيد : ديوان المعتمد بن عبـاد • ـ رضا الحبيـب السويسى : ديوان المعتمـد بن عبـاد أيضـا •

(٤) : أنظـر ابن الابـار : المصدر السابق والجـزء ، ص ٧٠ ـ ٧٦ •

أبرز شعراء الدولة العبادية :-

ذكرنا أن الحركة الادبية في عهد القاضي أبي القاسم محمد أول ملوك الدولة العبادية لم تبلغ من التمكين والانتشار ما يصدق القول معها بأن ثمة نهضة أدبية كانت تعيشها الدولة في عهده ، بيد أننا من خلال استطلاعنا لأحوال الدولة في عهد القاضي لا نعدم وجود حركة فكرية وأدبية محدودة . وكان على رأس شعراء الدولة أبو الحسن ابن الأستجي ، وابن القوطية ، وأبو الاصبغ ابن عيسى (١).

أما في عهد المعتضد بالله فقد بلغت دولة الأدب في عهده شأوا بعيدا بحكم عدة أسباب منها : اتساع رقعة الدولة واتساع خيراتها بالتالي ، ومنها ميول المعتضد نفسه الميالة الى الادب والمعرفة ، ثم التطور الطبيعي للأدب الذي شاهدته بلاطات ملوك الطوائف آنذاك الى حد قاربت فيه مدارج الكمال . وأخيرا الى شيوع ظاهرة التنافس بين ملوك وأمراء الطوائف في الاستئثار بالموهوبين من الشعراء والادباء لبلاطاتهم وحدهم .

والمتمعن للحركة الادبية في اشبيلية في عهد المعتضد يلحظ ثبتا كبيرا من الأسماء لأدباء كان لهم وقتها صيتا وذكرا ، أحاط المعتمد بهم بلاطه . وان لم يتخل عن ممارسة سياسته في الايقاع بهم والتخلص منهم .

ونذكر في اقتضاب بالغ بعضا من هؤلاء الشعراء والادباء . فمنهم أبو الوليد حبيب بن عامر الذي ألف كتابه المسمى ب: البديع في فصل الربيع . وقد توفى شابا في شرخ الصبا (٢) .

---

(١) : أنظر ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثاني - المجلد الاول ، ص ١٧٠ - ١٧٥ .

(٢) : ابن بسام : نفس المصدر والقسم والمجلد ، ص ١٧٠ - ١٧١ .

ومنهم أبو الوليد محمد بن عبد العزيز المعلم[١]، ثم أبو بكر الخولاني[٢]، ثم الشاعر المشهور ابن الابار وهو غير ابن الابار القضاعي صاحب الحلة السيراء ، واسمه الكامل أبو جعفر أحمد ابن الابار وهو أحد شعراء الخلاعة والمجون في دولة المعتضد بالله[٣]

ومن مشاهير شعراء المعتضد أيضا الأديب أبي الحسن علي بن حصن الاشبيلي . وكان شاعرا مفلقا ، غير أن مكانته الادبية كسفها ظهور الشاعر الأشهر ابن زيدون الذى التحق بالبلاط العبادى، فبدأت المنافسات بين الرجلين ويبدو أن ابن حصن كان يلي بالاضافة الى كونه أحد أبرز شعراء البلاط منصبا حكوميا هاما . ولذلك بدأ يعرض بالوزير الشاعر ابن زيدون ويتهكم عليه . وكان المعتضد نفسه يزكي هذه العداوة بين الشاعرين حتى ارتكب ابن حصن خطأ فادحا — لانعلم كنهه — فقتله المعتضد وتخلص منه[٤]

ومن شعراء دولة المعتضد بالله ابن جاخ البطليوسي . وقد تولى في عهده رياسة الشعراء . وقد استفدنا حق الاستفادة من ترجمة حياته في معرفة ناحية مهمة عن الشعر في عهد المعتضد بالله ، اذ يبدو أنه كانت هناك دار مخصصة للشعراء والأدباء أو قل ديوان للشعر يجتمعون فيه وينالون أعطياتهم من الملك جزاء أشعارهم ، بمعنى أنهم كانوا شعراء ملتزمون بخدمة السلطان برواتب معينة . كما عرفنا أن المعتضد كان يجتمع في ذلك الديوان بالشعراء في يوم معين من الاسبوع وهو يوم الاثنين ، فيستمع الى أمداحهم فيه[٥]

---

(١) : أنظر ترجمته في :
ابن بسام : نفس المصدر والقسم والمجلد ، ص ١٠١ — ١٠٢ .

(٢) : أنظر ترجمته في :
الحميدي : المصدر السابق ، ص ٣٩٢ .

(٣) : أنظر ترجمته في :
صلاح خالص : اشبيلية في القرن الخامس الهجري ، ص ١٦١ — ١٦٤ .

(٤) : أنظر ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثاني — المجلد الأول ، ص ١٣٣ —

(٥) : أنظر المقري : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٢٧٤ — ٢٧٦ .

أما أشهر كتاب النثر في عهده فهو الكاتب المعروف ابن عبد البر ، وهو الذى حرر ارتجالا خطاب المعتضد لملوك الطوائف الذى يشرح فيه أسباب فتكه بابنه اسماعيل كما ذكرنا . وكان كاتبا مغلقا ، الا أنه تعرض لنزوة غضب المعتضد فحاول الفتك به . وكاد أن يفعل ذلك لولا وصول والده العالم الفقيه المشهور ابن عبد البر الذى توسط له عند المعتضد فعفا عنه (١) .

ومن هؤلاء الشعراء أيضا ابن شرف القيروانى الذى تحاشى الوصول الى المعتضد بالله وكان يرسل له أمداحه من موطنه ، ورفض كل اغراءات المعتضد له للقدوم اليه خوفا على حياته من هذا الملك الذى لم يكن يؤمن له جانب (٢) .

أما أبرز شعراء الدولة في عهد المعتضد طرا وأبعدهم ذكرا ليس في بلاط المعتضد فحسب ، ولا في اشبيلية أيضا ، وانما في الاندلس عامة ، فهو أبو الوليد أحمد بن زيدون المخزومى القرطبى الذى ترك موطنه قرطبة لاجئا ببلاط المعتضد بالله . فأكرم وفادته هذا وبالغ في تكريمه وتشجيعه . وبادله ابن زيدون حبا بحب ، وكانت العلاقات بين الرجلين علاقة تفهم واكبار . وقد عهد المعتضد لأبى الوليد بن زيدون بمنصب ذى الوزارتين . وقد صاغ فيه ابن زيدون أجمل القصائد . وظل ابن زيدون موفور الكرامة ، عزيز الجانب - الا فيما ندر - حتى وفاة المعتضد ، وكان هذا شيئا غريبا ، اذ لم يسلم أحد من شرور المعتضد وأحابيله (٣) .

---

(١) : انظر ابن خاقان : القلائد ، ص ٢٠٦ .
وانظر كذلك ابن الابار : اعتاب الكتاب ، ط ١ ، ص ٢٢٠ - ٢٢٢ .

(٢) : انظر ترجمته في :
ابن بسام : نفس المصدر السابق ، القسم الرابع ، المجلد الاول ، ص ١٣٥ - ١٤١ .

(٣) : عن ابن زيدون أنظر :
على عبد العظيم : ديوان ابن زيدون ورسائله . جمع فيه كل ما قيل عن الشاعر وعن علاقته بدولة بنى عباد ومناصبه ... الخ .

كما ظلت علاقة ابن زيدون بالمعتمد فوق كل شبهة وشك ، وبذلك حافظ على مكانته في بلاطه .

ثم الشاعر محمد ابن عمار الذى ذكرنا سابقا أنه اتصل بالمعتضد بادئ ذى بدء فمدحه ووصله ، ثم توثقت علاقته بالمعتمد بعد ذلك ، الى أن كانت نهايته على يديه كما سبق أن ذكرنا (١).

أما في عهد المعتمد فقد كان شعراء البلاط العبادى أكثر من أن يحصيهم الفرد ، فقد أصبح بلاطه كعبة القصاد من كل مكان وصوب .

ولن نمضي طويلا في ذكر أسماء شعراء دولته .
وحسبنا أن نشير الى الاسماء اللامعة جدا في سماء اشبيلية وفي حياتها الادبية مثل الشاعر عبد الجليل بن وهبون (٢) ، والشاعر الصقلي ابن حمديس الذى كان من أبرز شعراء الدولة ، وقد زار المعتمد في منفاه ، ورثاه كثيرا (٣).

ثم الشاعر المشهور المعروف بابن اللبانة وهو محمد بن عيسى الدانى ، وكان ذا شعر جيد ، وكان المعتمد يميزه عن غيره ويعجب لما يأتى به من النادر الغريب ، وكانت علاقته بالمعتمد أقرب الى علاقات الأصدقاء منها الى علاقات المخدومين . وقد أوقف جل حياته في مدح العباديين والمعتمد بالذات ، وعندما خلع المعتمد زاره في منفاه بأغمات كثيرا ، ورثاه أحر رثاء دل على شديد وفائه وكريم أصله (٤).

---

(١) : انظر قبل الباب الثالث ، ص ٢٢٥ — ٢٣١ .

(٢) : انظر عبد الواحد المراكشي : المصدر السابق ، ص ١٥٩ .

(٣) : انظر المقرى : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ١٤١ — ١٤٣ . —
احسان عباس: ديوان ابن حمديس ، ص ٦ — ٧ .

(٤) : عن ابن اللبانة : انظر :
ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثانى ، المجلد الاول ، ص ٥ .
— ابن خاقان : القلائد ، ص ٢٨٢ . — عبد السلام الهراس : مقال بعنوان ابن اللبانة ، مجلة تطوان ، العدد الخامس ، السنة ١٩٦٥ م .

العمـــــران

لعل من المؤسف أن نجد العمران هو أقل أوجه الحياة الحضارية فى الدولة العبادية ذكرا ونصيبا فى كتب الادب والتاريخ والفنون . فما ورد فى هذه الكتب عن العمران فى عهد العباديين ، انما هو عبارة عن اشارات مقتضبة موجزة عن الانشاءات العمرانية التى تنسب لهم . وحتى القصور الملكية العبادية التى حرص المؤرخون على أن يذكروا لنا أسماءها لم تنل نصيبا من الوصف والتدقيق . ويشعر المرء بالاستغراب وهو يرى أن المؤرخين - على اهتمامهم الفائق بالدولة العبادية - لم يهتموا بذكر منشآتها العمرانية فى الوقت الذى استطعنا أن نعرف المقدار العظيم من التقدم العمرانى الذى بلغته بعض ممالك الطوائف الاخرى من خلال الوصف الدقيق لبعض منشآتها ، كقصر المأمون بن ذى النون ملك طليطلة ، وكقصر الجعفرية فى سرقسطة .

ومهما يكن ، فان الاشارات المقتضبة التى ورد ذكرها عن الناحية العمرانية فى دولة بنى عباد ، توضح أنه كان لبنى عباد دورا لابأس به فى الاسهام فى الناحية العمرانية فى اشبيلية ، وقد تركزت هذه الأعمال الانشائية فى القصور ، والمساجد بصفة خاصة ، ثم فى بقية المرافق الأخرى للمدينة .

المســاجد :-

بادئ ذى بدء يجب أن نشير الى أنه قد أنشئ فى اشبيلية ابان الفتح مسجد جامع ، ويسمى مسجد روبينة ، وكان جزءا من كنيسة سانتا روفينا ، وهو الذى قتل فيه والى الأندلس عبد العزيز ابن موسى بن نصير فى سنة ٩٧ هـ/ ٧١٦ م[1] ، وفى عهد الأمير عبد الرحمن ابن الحكم بنى قريبا من هذا المسجد ، مسجد آخر ، عرف بمسجد

---

(١) : عن هذا المسجد والمساجد الاندلسية الاخرى أنظر : مانويل جوميث مورنيو ، الفن الاسلامى فى اسبانيا . — ليوبولد و توريس بلباس : بحث بعنوان الابنية الاسبانية الاسلامية ، مجلة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية ، العدد الاول ، المجلد الاول ، السنة الاولى ، ١٣٧٢ / ١٩٥٣ م ، ص ٧ - ١٠ .

ابن عدبس ، وقد أصبح المسجد الجامع الكبير فى اشبيلية الذى تقام فيه الصلوات والجمع ، وظل كذلك حتى عهد الدولة العبادية ، وكانت البيوت تحيط به من جميع الجهات ، ويقع بالقرب منه قصر الامارة ، وقد سمى بمسجد ابن عدبس لأن الذى بناه هو عمر بن عدبس قاضى اشبيلية فى عام ٢١٤ هـ / ٨٢٩ ــ ٨٣٠ م بناءا على أمر الأمير عبد الرحمن ابن الحكم (الأوسط) وقد استخدم فى بنائه أحجار مأخوذة من أنقاض السور الرومانى القديم الذى بدأ يتهاوى بفعل الزمن من الفتح الاسلامى وكان مسجد ابن عدبس آية فى روعة الهندسة والبناء . أما صومعته فقد كانت تحفة فنية نادرة أيضا ، وبنيت كذلك من أحجار السور الرومانى المذكور(١).

وقد رممت هذه الصومعة فى عهد المعتمد ابن عباد ، ووجد الأثريون لوحة تذكارية تؤرخ لترميم المعتمد لهذه الصومعة مؤرخة فى سنة ٤٧٢ هـ . وهذه اللوحة الجصية التى عثر عليها عبارة عن لوحة رخامية محفوظة بكنيسة (سلفادور) التى أقامها الأسبان على أنقاض جامع ابن عدبس بعد استيلائهم على اشبيلية من يد المسلمين فى عهد فرناندو القديس . وهذه اللوحة مكتوبة بخط كوفى ونصها : (بسمله .... وصلى الله على محمد خاتم أنبيائه ، وخيرة أصفيائه وعلى آله الطيبين الابرار ، وسلم تسليما . أمر المعتمد على الله المؤيد بنصر الله أبو القاسم محمد ابن عباد أدام الله تأييد أمره ، ووصل اعزازه نصه أعلى هذا المنار ، ولازال عزيزا بدعوة الاسلام عند انهدامه لكثير الزلازل الكائنة ليلة الأحد مستهل ربيع الأول من سنة اثنين وسبعين وأربعمائة (١٠٧٠م) فتم بحول الله وتأييده فى عقب الشهر المؤرخ . قبل الله فيه مشغاله ، وبنى له بكل حجر فيه مقرا فى جنانه بمنه ولطفه) . كما توجد قطعة رخامية أخرى

---

(١) : انظر السيد عبد العزيز سالم : المساجد والقصور فى الاندلس ، كتيب فى سلسلة اقرأ ، عدد ١٩٠ ــ اكتوبر ١٩٥٨ م ، ص ٤٤ ــ ٤٦ . ــ محمد بركات البيلى : الرسالة السابقة ، ص ٢١ ــ ٢٥ ، مع الحواشى .

صغيرة مكتوب عليها (أبو القاسم محمد) (١) .

وقد ظل هذا المسجد ـ المسجد الجامع الكبير في اشبيلية حتى عصر الموحدين ، عندما ضاق بالمصلين ، لتكاثف السكان ونمو المدينة ، فبنى الموحدون مسجدهم المشهور بصومعته المعروفة بالجيرالدا في سنة ٥٦٧ هـ/ ١٠٧٢ م . والذى تحول بعد ذلك الى كنيسة عام ١٠٤٢م ، وهي الكاتدرائية العظيمة الموجودة في اشبيلية حتى اليوم (٢) .

وقد بنى العباديون عدة مساجد في اشبيلية ، مثل مسجد والدة المعتضد بالله الذى بنته في عهد ابنها (٣) ، ثم مسجد الأميرة اعتماد زوجة المعتمد ، وقد وجدت لوحة رخامية محفوظة في كنيسة سان خوان دى لا بالما مكتوبة بالخط الكوفي وتوجد الآن في متحف اشبيلية الاقليمى . ونصها : (بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على محمد خاتم النبيين ، أمرت السيدة الكبرى أم الرشيد أبى الحسين عبدالله ابن المعتمد على الله المؤيد بنصر الله أبى القاسم محمد بن عباد أدام الله تأييده ، وأمره واعزازه ، باقامة هذه الصومعة بمسجدها ، صانه الله ، طلبا لجزيل الأجر والثواب ، فتمت بعون الله على يدى الوزير الكاتب الأمير أبى القاسم بن حجاج وفقه الله ، وذلك في شعبان من عام ثمانية وسبعين وأربع مائة (٤) وبالاضافة الى هذين المسجدين ، فقد كان هناك عدد آخر من المساجد في عهد بني عباد ، مثل مسجد ابن خير ، ومسجد العريف ، وغيرهما (٥) .

---

(١) : محمد عبدالله عنان : الاثار الاندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال ، ط ٢ ، ١٣٨١ ـ ١٩٦١ ، ص ٦٦ ـ ٦٧ . ـ السيد عبدالعزيز سالم : المساجد والقصور في الاندلس ، ص ٤٦ .

(٢) : محمد عبدالله عنان : نفس المرجع اعلاه ، ص ٤٦ ـ ٤٧ . ـ السيد عبدالعزيز سالم : نفس المرجع اعلاه ، ص ٤٦ ـ ٤٩ .

(٣) : عبدالملك المراكشي : الذيل والتكملة لكتابى الصلة والموصول ، تحقيق احسان عباس ـ قسمان ـ القسم الثانى ، ص ٥٣٨ ـ ٥٣٩ .

(٤) : محمد عبدالله عنان : نفس المرجع اعلاه ، ص ٦٦ ـ ٦٧ .

(٥) : محمد بركات البيلي : الرسالة السابقة ، ص ٢٧ ـ ٢٩ .

سور اشبيلية فى عهد الدولة العبادية :ـ

أشرنا آنفا الى أن المسلمين استخدموا فى بناء مسجدهم الجامع المعروف بمسجد ابن عدبس أحجارا من السور الرومانى القديم المتداعى . وكان هذا السور الرومانى القديم الذى جدد بنيانه فى زمن القوط قد تداعى وتهاوى بفعل الاحداث التى شهدتها اشبيلية منذ عهد القوط وحتى الفتح الاسلامى (١).

وأول سور اسلامى بناه المسلمون هو ذلك السور الذى أنشأه الامير عبدالرحمن ابن الحكم (الاوسط) بعد غزوة النورمان الاولى على الاندلس (٢). ويعتقد السيد عبدالعزيز سالم أن استخدم فى بنائه هو الآخر أحجار من السور الرومانى القديم (٣) وقد تهدم هذا السور فى أعقاب قضاء عبدالرحمن الناصر على ثورة المولدين التى شهدتها اشبيلية طوال عهود الامراء الامويين الذين تعاقبوا على حكم الدولة الاموية بعد عبدالرحمن الاوسط وحتى عهد الناصر . وقد أمر الناصر قائده ابن السليم بهدم السور . فهدمه وألحق " اعاليه بأسافله " للحيلولة دون أى محاولة للشغب يقوم بها المولدون بعد ذلك . وقد بنى الناصر اثر ذاك قصر الحكم (وحصنه بسور صخرى وابراج منيعة) (٤).

وفى ابان الفتنة التى شهدتها الاندلس فى أعقاب انحلال الدولة الاموية فى بداية القرن الخامس الهجرى بنى حول اشبيلية سور ترابى لحمايتها من الغزو الخارجى. ويعتقد السيد عبدالعزيز سالم أن هذا السور قد بنى قبيل قيام دولة بنى عباد مباشرة . وهو السور الذى ظل يحيط بالمدينة طوال عهد الدولة العبادية وحتى الفتح المرابطى (٥).

وقد مر بنا من قبل ان المرابطين استطاعوا احداث فجوة فى سور اشبيلية عند مهاجمتهم للمعتمد ابن عباد الذى تحصن بالمدينة . وقد استطاع المرابطون اقتحام المدينة بسبب العيب الاساسى الذى كان عليه سور اشبيلية الذى بنى فى ابان الفتنة . اذ يقول السيد عبدالعزيز سالم وكان ارتفاع اسوار اشبيلية فى زمن الفتنة على ما يبدو متوسطا ، اذ كان من اليسير على الناس تسنمها والترامى من اعلاها .

---

(١) : السيد عبدالعزيز سالم: مقال بعنوان : تحقيق اسماء قصور بنى عباد باشبيلية الواردة فى شعر ابن زيدون ، نشر فى مجلة الاوراق التى يصدرها المعهد الاسبانى العربى للثقافة ، مدريد ، العدد الثانى ، ١٩٧٩م ، ص ٣٤ .

(٢) : انظر السيد عبدالعزيز سالم: نفس المقال اعلاه ونفس الصفحة .

ولعل من المهم هنا أن نذكر بأن غزوة النورمان الثانية على الاندلس كانت فى سنة ٤٥١ هـ كما ذكرنا سابقا .

(٣) : السيد عبدالعزيز سالم : نفس المقال ، ص ٣٢ ـ ٣٣ .

(٤) : السيد عبدالعزيز سالم : نفس المقال ، ص ٣٣ .

(٥) : السيد عبدالعزيز سالم : نفس المقال ، ص ٣٣ ـ ٣٤ .

(٦) : السيد عبدالعزيز سالم : نفس المقال ، ص ٣٤ .

وبعدما سقطت الدولة العبادية على يد المرابطين عام ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م . ظل السور العبادى يحيط باشبيلية حتى اضطر المرابطون تحت ضغط هجمات النصارى الى بناء سور جديد فى عام ٥٢٦ هـ . وقد جدد هذا السور على فترات متتالية من الزمن ورمم اكثر من مرة فى عهد الدولة الموحدية (١)

بقى أن نشير الى أن سور اشبيلية المعروف بسور اشبيلية . كان له فى عهد بنى عباد عدة ابواب منها : باب الفرج ، وهو الذى دخل منه المرابطون الى اشبيلية فى عهد المعتمد وسقطت المدينة على ايديهم من ثم ويعرف اليوم بباب شريش (Jerez) ، ثم باب جهور الذى عرف فيما بعد بباب اللحم Puerta de carne فى الجهة الشرقية من السور . ويقول السيد عبد العزيز سالم فى معرض ذكره لابواب اشبيلية الاخرى : (... ثم كان يليه باب قرمونة فى القطاع الشمالى الشرقى من السور . وكذلك وصل الينا باسم باب حميدة ، وكان ينفتح فى سور اشبيلية الغربى فى العصر الاموى . وكان هذا الباب يفضى الى مقبرة الفخارين ، كما وصلنا اسم باب آخر من ابواب سور اشبيلية زمن الفتنة هو باب الصباغين . وكان ينفتح فى السور من جهة القصر ، ولعله كان يقع فى الركن الجنوبى الشرقى من المدينة ما بين بابى الفرج وجهور . ونضيف الى هذه الابواب بابا يعرف بباب عبر . ثم باب أبى القليس وكان من الابواب الغربية ومنه كان يتم الخروج الى الشرق)(٢)

القصور :-

أشرنا من قبل الى أنه قد بنى فى بداية الفتح الاسلامى بجوار المسجد الجامع ، قصر الحكم المعروف بدار الامارة . وقد تم بناؤه على فترات متتابعة بدأت منذ الفتح الاسلامى لاشبيلية وقد وضع اساس هذا القصر عبد العزيز بن موسى بن نصير ، ثم قام ولاة اشبيلية بعد ذلك وعلى فترات متباعدة بتجديده وتوسيعه ، وقد عمل له سور صخرى وابراج منيعة حتى عهد العباديين .

---

(١) : عن الجهود المرابطية والموحدية فى ترميم سور اشبيلية ـ انظر : السيد عبد العزيز سالم : المقال السابق ، ص ٣٥ ـ ٣٦ .

(٢) : السيد عبد العزيز سالم : نفس المقال ، ص ٣٧ .

وقد سكن العباديون فى بداية نشأة دولتهم فى هذا القصر . واتخذه القاضى ابن عباد مقرا وسكنا له[١]. والواقع ان هذا القصر المعروف باللغة الاسبانية الكازار مازال كما يقول محمد عبدالعزيز مرزوق (فى حاجة ماسة الى ابحاث عميقة من الناحية الاثرية والفنية ، ومن الناحية التاريخية ايضا لاثبات ما اذا كان من انشاء العرب او الاسبان بعد خروج العرب من البلاد) .

فعبدالرحمن الحجى ومحمد عبدالله عنان يعتقدان أن هذا القصر هو ذاته قصر الامارة الذى اتخذه الذين قاموا بتجديده وتوسعته ، وأن المعتمد بن عباد عندما تولى الملك زاد فيه ووسعه وأنقه وفرشه بفاخر الاثاث والرياش ، وسماه المبارك وهو الذى ورثه بعد ذلك الموحدون فالمسيحيون بعد ما سقطت اشبيلية فى ايديهم[٢].

أما محمد عبدالعزيز مرزوق فيرجح أن هذا القصر المعروف بالكازار قد شيد فى عهد ملوك الطوائف فى عهد المعتمد بالله وأنه هو الذى شيده ، وهو الذى ورثه الموحدون بعد ذلك وجددوه و زينوه وزخرفوه ، ثم جاء المسيحيون فزادوا فيه وزخرفوه بالزخرفة الاندلسية المغربية فى عهد الملك بدرو القاسى .

---

(١) : عبدالرحمن على الحجى : أندلسيات ، نشر دار الارشاد للطباعة والنشر، ط ١ ، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م ، ص ١٦٥ - ١٦٦ .

(٢) : الفنون الزخرفية فى المغرب والاندلس : نشر دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، حاشية رقم "١" ، ص ٩٢ .

(٣) : عبدالرحمن على الحجى : نفس المرجع اعلاه ، ص ١٦٥ - ١٦٦ . — محمد عبدالله عنان : الاثار الاندلسية الباقية ، ص ٥٨ .

(٤) : الفنون الزخرفية الاسلامية فى المغرب والاندلس ، ص ٩٢ .

أما السيد عبد العزيز سالم فيرجح أن قصر المبارك هذا أنشأه المعتمد ابن عباد . ويرجح كذلك أنه قد اقامه لمحاكاة خلفاء بني أمية بقرطبة (١).

ويقول السيد عبد العزيز سالم عن هذا القصر (وكان القصر المبارك يشتمل على مجالس منها قصر الثريا الذي كان يتوسط المبارك توسط الخال في الوجه ، وقصر الوحيد الذي قرأناه في شعر ابن اللبانة . ونعتقد أن الوحيد مجلس من المجالس الرئيسية بالقصر المبارك . أما الروضة فكانت تشغل ركنا من بساتين القصر ، وفيها دفن المعتمد ابن عباد أباه المعتضد في نفس التربة التي دفن فيها القاضي ابو القاسم محمد بن اسماعيل . ويغلب على الظن انها كانت تقع لصق قصر الامارة القديم . وعلى نسق هذه الروضة اتخذ الموحدون لأنفسهم روضة خارج باب جهور خصصت للسادة ، وكان للقصر بركة نصب في جانبها تمثال فيل يمج الماء من فيه ، وقد وصف عبد الجليل وهبون هذا التمثال فقال :

ويقرع فيه مثل البصل بدع ... من الافيال لا يشكو ملالا
رعى رطب اللجين فجاء صلدا ... تراه قلما يخشى هزالا

وكثيرا ما كان المعتمد يجلس على حافة البركة في الامسيات ويأمر بايقاد الشموع ويمتع نظره برؤية المياه تنساب من الفيل الى البركة وضوء الشموع الباهت يمتد شاحبا شحيحا فيما حوله)(٢).

وقد تفنن الادباء والشعراء في وصف هذا المنظر ، وفي وصف ذلك القصر . ومنهم ابن زيدون الذي شبه قصر الثريا الذي يتوسط قصر المبارك كخال يتوسط وجنة فيقول (٣).

أما الثريا فالثريا نصبة ... وافادة واناقة وجمالا
وتمثل القصر المبارك وجنة ... قد وسطت فيها الثريا خالا

---

(١) : السيد عبد العزيز سالم : المقال السابق ، ص ٣٨ .
(٢) : السيد عبد العزيز سالم : نفس المقال ، ص ٣٩ .
(٣) : السيد عبد العزيز سالم : نفس المقال ، ص ٣٠ .

وأيا ما كان الأمر فقد كان قصر المبارك أحد القصور العبادية الرائعة ، وقد تألق المعتمد فى زخرفته وتأنيقه وفرشه ، وهو الذى كان يتذكره دائما فى منفاه بأغمات .

ومن القصور الاخرى التى أنشأها المعتمد بن عباد القصر الزاهر (أو قصر التاج . ويقع بتاج الشرف من اشبيلية على الضفة اليمنى من الوادى الكبير (١). ويعرف أيضا بحصن الزاهر أو الحصن الزاهر . وكان كما يقول ابن خاقان من أجمل المواضع لدى المعتمد ، ومن أحب قصوره اليه (لاطلاله على النهر واشراقه على القصر وجماله فى العيون واشتماله بالشجر والزيتون (٢).)

ومن القصور الاخرى التى كان يرتادها المعتمد القصر الزاهى وهو غير القصر الزاهر وهو الذى كان يتشوق اليه حنينا فى منفاه بأغمات . وكان له قبة تعرف بسعد السعود غاية الروعة والابداع (٣).

وبالاضافة الى هذا القصر كان للمعتمد عدة قصور أخرى فى اشبيلية منها : المؤيد ، والمكرم وغير ذلك . وقد وصف ابن بسام فيما ينقله عنه المقرى قصرا للمعتمد لم يذكر اسمه يقول عنه انه كان رائعا وانه قد أقيم فيه تمثال فيل من الفضة على حافة بركة وقد أوقد بجواريه شمعتين . وكان الفيل يقذف بالماء ، وقد تفنن الأدباء والشعراء فى وصف هذا المنظر ، وفى وصف ذلك القصر (٤).

---

(١) : السيد عبدالعزيز سالم : المقال السابق ، ص ٤٠ .

(٢) : ابن خاقان : قلائد العقيان ، ص ٢٧ .

(٣) : أنظر المقرى : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ١١ ، وكذلك حاشية رقم ٢ ، ص ١١ . — السيد عبدالعزيز سالم : المقال السابق ، ص ٤٠ .

(٤) : المقرى : نفح الطيب ، ج ٥ ، ص ٣٩٥ - ٣٩٦ .

ومن القصور الاخرى التى اتحفتنا كتب الادب بذكرها قصر الشراجيب فى مدينة شلب ، وقد رأينا المعتمد ينظم عدة أبيات يتغنى فيها بالأيام التى قضاها هو ووزيره ابن عمار فى ذلك القصر ، عندما ولاه أبوه حكم مدينة شلب بعد سقوطها فى يده (١)

أما المعتضد فلم تسعفنا كتب التاريخ والادب بذكر أوصاف القصور التى بناها ، فضلا عن أسمائها ، وكلما عرفناه عنه فى هذا الصدد أنه كان مولعا ببناء القصور السامية الفخمة .

هذا كل ما نعرفه عن جهود العباديين العمرانية على وجه التدقيق . أما بالنسبة للمنشآت المدنية فى الدولة ، فلا نعرف عنها شيئا البته ، وكلما نعرفه بهذا الصدد ما أورده ابن سعيد عن مدينة طريانة احدى المدن التابعة لمملكة اشبيلية ، فقد قال : (هذه مدينة ممتدة على شاطئ النهر الأعظم فى مقابلة النصف من حضرة اشبيلية ، وهى مسوّرة من جهة الصحراء ، وفيها الحمامات والأسواق الضخمة ، وقد بنيت على تاج مطل على النهر ، ومناظرها التى من جهة النهر ، سنّ فيها المعتمد بن عباد أن تبيض بالكلس لئلا تنبو العين عنها ومن لا ينهض الى ذلك ، فيبنى من جهة الصحراء ، ولا يترك يبنى من جهة النهر ، فجاءت بديعة فتانة المنظر أكثر شراجيبها منقوشة مذهبة تخطف الأبصار ، ويكون فيها من أصناف الطرب فى الليالى القمرية ما هو مشهور فى البلاد .) (٢)

---

(١) : أنظر محمد عبدالله عنان : الآثار الاندلسية الباقية ، ص٤٤ .
ـــ رضا الحبيب السويسى : ديوان المعتمد بن عباد ، ص١٥٩ .
(٢) : المغرب فى حلى المغرب ، ج ١ ، ص ٢٩٣ .

(((خاتمـــــــــة)))

كان القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى من القرون الفاصلة فى تاريخ أسبانيا الاسلامية والنصرانية معا . وقد شهد أحداثا جساما ، وترتب على هذه الأحداث نتائج خطيرة . ففيه سقطت الدولة الأموية التى كانت قد بلغت الأوج قوة وازدهارا ، صريعة أخطاء سياسية آنية ، وصريعة ظروف اجتماعية وعنصرية وجغرافية وسياسية أيضا . وترتب على سقوطها أن تصدعت والى الأبد وحدة الأندلس . وقام على أثر سقوطها أنظمة محلية اتخذت من كل مدينة أو معقل من المعاقل مكانا أسست فيه دولة لها ، مستغلة تفتت وحدة الدولة وانتثار عقدها . هذه الأنظمة هى التى عرفت تاريخيا بممالك الطوائف . وقد تأسست آنذاك من الفئات الاجتماعية المتناحرة : العرب والبربر والصقالبة . وبلغ تعدادها أزيد من بضع وعشرين دولة .

وانتهجت هذه الدويلات سياسة خاطئة ، وممارسات بعيدة عن مصلحة الوطن والرعية وقضت أوقاتها فى حبك المؤامرات ضد بعضها البعض . حتى لقد كانت سياسة هذه الممالك الاقليمية الضيقة أحد عوامل زوال الوجود الاسلامى فى الأندلس .

وكان من جراء سقوط الدولة الأموية ومن ثم قيام ممالك الطوائف وما مارسته من سياسة خاطئة أن اشتد ساعد المقاومة النصرانية . فعملت وقد أتاح لها المسلمون ذلك على ابعاد المسلمين من أرض الأندلس . وانتهجت كل مملكة من الممالك

النصرانية سياسة تهدف الى عودة سيادة الأسبان على أراضيهم فيما عرف تاريخيا بحركة الاسترداد النصرانية • حتى لقد صرح ملور حركة الاسترداد ومنظمها آنذاك فردينانـد الأول ملك قشتاله بهذا المطلب ، وخاطب ملوك الطوائف بقوله : انما نطلب بلادنا التى غلبتمونا عليها قديما فى أول أمركم ، وقد سكنتموها ما قضى لكم • وقد نصرنا الآن عليكم برداءتكم فارحلوا الى عدوتكم واتركوا لنا بلادنا ... الخ •

وترتب على ظهور حركة الاسترداد المسيحى عدة نتائج منها : أن ممالك الطوائف قعدت بها خلافاتها الاقليمية ، ومصالحها الذاتية الضيقة عن أن تقاوم تلك الحركة • فظلت واقفة لا تحير شيئا أمام الضربات النصرانية التى توالت عليها ، الى أن أدى بها تقاعسها وخلافاتها الى سقوط طليطلة واسطة عقد الأندلس ، كما ذكرنا مرارا • فهبت هذه الممالك متأخرة طالبة النجدة من قوة العدوة المغربية الفتية آنذاك وهى المرابطين •

فكان التدخل المرابطى الذى ترتب عليه تمديد أجل البقاء الاسلامى فى الاندلس أربعة قرون أخرى • وترتب على ذلك بالاضافة الى هذا أن غدت الاندلس بدءا من التدخل المرابطى وحتى زوال الوجود الاسلامى فى أسبانيا فى عهدى فرديناند وايزابيلا تدور فى الفلك المغربى • وبات المغرب مناط أحلامها فى كل خطب وملمة •

وبالاضافة الى ما استطعنا التوصل اليه فى عرضنا لاحداث ذلك القرن ، أى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى • توصلنا الى نتائج تاريخية منطقية • وهى أن الاندلس بحكم أوضاعها

الجغرافية والعنصرية كانت دائما في حاجة ماسة الى قوة مركزية حازمة ، تمد سلطانها على معظم أرض الاندلس مستندة على سواعد ملوك أقوياء ذوى همة وجأش غير عاديين . وهذا يقودنا بالضرورة الى القول بأن القاعدة في أسبانيا التفكك . وما عداها فهو الشاذ . ولذلك فهي في حاجة دائما الى قوة مركزية حازمة شديدة تحكم قبضتها على ذلك البلد المتشعب الأجناس والأعراق . الوعر المسالك والدروب .

وخلصنا كما خلص غيرنا أيضا الى حقيقة مؤلمة وهي أن أدوات السقوط لأى دولة قديما وحديثا واحدة ، تتمثل في الخيانة والانحلال ، والأثرة . والمصالح الذاتية الضيقة . وان هذه الصفات التى ذكرناها هي السبب المباشر في سقوط ممالك الطوائف . كما خلصنا الى نتيجة مؤسفة ، وهي أنه على الرغم من أن التاريخ يعيد نفسه الا أن ملوك الطوائف لم يأبهوا الى تدارك أخطاء أسلافهم وأخطاء بعضهم ، كما لم يعملوا على تحقيق الوحدة والتآلف فيما بينهم ازاء هذا الخطر النصرانى الموجه اليهم جميعا كان ما كان يحدث لاخوانهم من عنت وجور لا يفضى اليهم أو كأنهم في منأى عنه . !!!

وقد قادنا هذا الى التذكير دائما بأن قدر المسلمين هو الوحدة والتآلف وجمع الشمل ، ونبذ الفرقة والخلاف ، بها وحدها - بعد المشيئة الالهية - يتم لهم التمكين والنصرة والعزة ، وبدونها لاتقوم لهم قائمة ، ولا يعز لهم جانب .

ذلك هو قدر المسلمين ، وتلك هي مشيئة الله فيهم .

وقد نسى الاندلسيون هذا أو تناسوه فباؤا بالخسران ، وسقطت بلادهم أخيرا بيد النصارى ، وزال الوجود الاسلامى في الأندلس وأصبحنا ننعتها بالفردوس المفقود .

على أننا استطعنا وسط هذا الجو من التفكك والانحلال السياسي أن نركز على مفارقة تاريخية حضارية وهى أنه بالرغم من ذلك التفكك فقد شهد القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى أبرز صور الاشراق الحضارى والثقافى ، حتى أصبح – مع ما فى ذلك من الغرابة – نقطة مضيئة فى تاريخ الاندلس تغطى بألقها واشعاعها صفحات من التاريخ السياسى قاتمة داكنة .

وفيما يتعلق بأسبانيا النصرانية ، فقد استخلصنا عدة نتائج منها ، انها قد انتهجت سياسة الاسترداد المسيحى على مسمع ومرأى ، بل وفى بعض الأحيان مشاركة من المسلمين . بل أن أهم ما استخلصناه بالنسبة لممالك النصارى . هو أنها كانت محظوظة فما كانت لتحقق ما حققته لولا أن الاندلسيين أتاحوا بسياستهم الخاطئة لها الفرصة لتحقيق سياستها الهادفة الى انتزاع أراضى الآباء والأجداد ، كما كانوا يصرحون دائما .

ولاحظنا فى عجب أن ملوك الممالك النصرانية لم يكونوا أصدق حس فى وطنيتهم من المسلمين . فلم يكن يحكم تصرفاتهم الغيرة الوطنية والمصلحة القومية فحسب ، وانما كانت الأثرة و الأهواء الشخصية هى التى تحكم تصرفاتهم وأفعالهم غالبا ، فهذه هى روح العصر فى أسبانيا الاسلامية والنصرانية على السواء .

ومع ذلك فقد لاحظنا أن ملوك النصارى كانوا أكثر وعيا وفهما لحقيقة الصراع بينهم وبين المسلمين . فقد كانوا ينظرون الى الأمر وكأنه قضية حق وتراث شرعى لهم وقع قوة تحت يد أجنبية . وعليهم أن يرفعوا عنها تلك اليد .

لاحظنا ذلك من خلال تحليلنا لظروف قيام مملكة بني عباد . ولاحظناه من خلال سياسة هذه المملكة وغيرها من ممالك الطوائف .

وفيما يتعلق بمملكة بني عباد ، فقد أعطيناها حقها من البحث والدراسة ، ولم نقصر أو نتوان في مناقشة سلبياتها وايجابياتها . وناقشنا فيما يبدو لنا أنه ضرب من التحليل الموضوعي التاريخي مسألة ظهور الخليفة الأموي هشام الذي ادعى العباديون أنهم مفوضون في حكم الاندلس من قبله ووضعنا فيما يتراءى لنا ملوك الدولة العبادية وخاصة المعتمد بن عباد على المحك ، وناقشناه في سياسته وأعماله ، وأنحينا باللائمة عليه في مواطن استحقها . وان كان هذا لم يدفعنا الى اغفال الاشارة الى ايجابياته وحسناته .

وقد قادنا هذا الى مناقشة مسألة الاستعانة بالمرابطين . وشرحنا في تحليل واسع هذه القضية وخلصنا الى القول بأنه لو لم يبادر الاندلسيون عامة والمعتمد خاصة لاسيما بعد اشتداد حركة الاسترداد المسيحي باستدعاء المرابطين الى الاندلس لكان المرابطون أقدموا على ذلك من تلقاء أنفسهم تحت ضغط ظروف وأسباب دينية وسياسية وأمنية .

****

*****

***

*

ملحق رقم (١) (١)

خطاب الفونسو السادس للمعتمد بن عباد الذي يتهدده فيه ويتوعده ويطلب منه أداء الجزية له

من الانبيطور ذي الملتين الملك المفضل الادفنش بن شانجه الى المعتمد بالله سدد الله آراءه وبصره مقاصد الرشاد سلام عليك من مشيد ملك شرفته القنى ، ونبتت في رجعه المنى ، باهتزاز الرمح بعامله ، والسيف بساعد حامله ، وقد أبصرتم منازل بطليطلة وأقطارها وما حاق بأهلها حين حصارها ، فاسلمتم اخوانكم ، وعطلتم بالدعة زمانكم ، والحذر من أيقظ باله ، قبل الوقوع في الجهالة ، ولولا عهد بيننا تحفظ ذمامه ، ونسعى بنور الوفاء أمامه ، لنهض بنا نحوكم ناهض العزم ورائده ، ووصل رسول الغزو وارده ، لكن الانذار ، يقطع الاعذار ، ولا يعجل الا من خاف الفوت فيما يرومه ، وخشي الغلبة على ما يسومه ، وقد حملنا على الرسالة اليك القرمط البرهانس وعنده من التسديد الذي تلقى به أمثالك ، والعقل الذي تدبر به بلادك ورجالك ، ما أوجب استنابته فيما يدق ويجل ، وفيما يصلح لا فيما يخل ، وأنت عند ما تأتيه من آرائك ، والنظر بعد هذا من ورائك ، والسلام عليك ، يسعى بيمينك ، وبين يديك .

---

(١) : مجهول : الحلل الموشية ، ص ٢٥ ــ ٢٦ .

ملحق رقم (٢)

رد المعتمد بن عباد على خطاب الفونسو يعلن له فيه رفضه لمطالبه واستعداده هو وملوك الطوائف لمنازلته

من الملك المنصور بفضل الله ، المعتمد على الله ، محمد ابن المعتضد بالله ، ابى عمر بن عباد الى الطاغية الباغية اذفنش بن شانجه الذى لقب نفسه بملك الملوك وسماها بذى الملتين قطع الله بدعواه ، سلام على من اتبع الهدى أما بعد فانه أول ما نبدأ به من دعواه ، انه ذو الملتين والمسلمون أحق بهذا الاسم لأن الذى تملكوه من أمصار البلاد ، وعظيم الاستعداد ، وجبى المملكة لاتبلغه قدرتكم ، ولا تعرفه ملتكم ، وانما كانت سنة سعد أيقظ منها مناديك ، وأغفل عن النظر السديد جميل مباديك ، فركبنا مركب عجز نسخه الكيس ، وعاطيناك كؤوس دعة قلت فى أثنائها ليس ، ولاتستحى أن تأمر بتسليم البلاد لرجالك ، وانا لنعجب من استعجالك (١) برأى لم تحكم أنحاؤه ، ولا حسن انتحاؤه ، واعجابك بصنع وافقك فيه الاقدار ، واغتررت بنفسك أسوأ الاغترار ، أما تعلم أنا فى العدد والعديد ، والنظر السديد ، ولدينا من كماة الفرسان ، وحيل الانسان ، وحماة الشجعان ، يوم يلتقى الجمعان ، رجال تدرعوا الصبر ، وكرهوا القبر ، تسيل نفوسهم على حد الشفار ، وينعاهم البنام فى القفار ، يديرون رحى المنون بحركات العزائم ، ويشفون من خبط الجنون بخواتم العزائم ، قد أعدوا لك ولقومك جلادا رتبه الاتفاق ، وشفارا حدادا شحذها الاصفاق ، وقد يأتى المحبوب من المكروه ، والندم من عجلة الشروه ، نبهت من غفلة طال زمانها ، وأيقظت من نومة تجدد أمانها ، ومتى كانت لاسلافك الأقدمين يد صاعدة ، أو وقفة متساعدة ، الا ذل تعلم مقداره ، وتتحقق مثاره ، والذى جرك على طلبها لا تدركه قوم كالحمق لا يقاتلونكم جميعا الا فى قرى محصنة أو من وراء جدر (٢) ظنوا المعاقل تعقل ، والدول لاتنتقل ، وكان بيننا وبينك من المسالمة ما أوجب القعود عن نصرتهم ، وتدبير أمرهم ، ونسأل الله سبحانه المغفرة فيما أتيناه فى أنفسنا وفيهم ، من ترك الحزم واسلامهم لاعاديهم ، والحمد لله الذى جعل عقوبتنا توبيخك وتقريعك ، بما الموت دونه وبالله نستعين عليك ، ولا نستبطأ فى مسيرنا اليك ، والله بنصر دينه الكريم ولو كره الكافرون والسلام على من علم الحق فاتبعه ، واجتنب الباطل وخدعه •

---

(١) : العبارة فى الاصل : استجعالك ، فجعلتها استعجالك اقتضاء للسياق •

(٢) : الاية الكريمة (لا يقاتلونكم جميعا الا فى قرى محصنة أو من وراء جدر) ، وقد جاءت فى الاصل (جذر) ، سورة الحشر ، اية ١٤ •

ملحق رقم (٣) (١)

خطاب المعتمد الى يوسف بن تاشفين يطلب منه معاونة اخوانه المسلمين فى الاندلس

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما الى حضرة الامام أمير المسلمين وناصر الدين ، محيى دعوة الخلافة الامام أمير المؤمنين ، أبى يعقوب يوسف ابن تاشفين (من) القائم بعظيم اكبارها ، الشاكر لاجلالها ، المعظم لما عظم الله من كريم مقدارها ، الايد بحزمها ، المنقطع الى سمو مجدها ، المستجير بالله وبطولها ، محمد بن عباد سلام الله يخص الحضرة العلية ، المعظمة السامية ، ورحمة الله وبركاته وكتب المنقطع الى كريم سلطانها من اشبيلية غرة جمادى الاولى سنة ٤٧٩ وأنه أيد الله أمير المسلمين ، ونصر به الدين ، فانا نحن العرب فى هذه الاندلس قد تلفت قبائلنا ، وتفرق جمعنا ، وتغيرت أنسابنا ، بقطع المادة عنا من صنيعتنا ، فصرنا فيها شعوبا لا قبائل وأشتاتا لا قرابة ولا عشائر فقل ناصرنا ، وكثر شامتنا ، وتوالى علينا هذا العدو المجرم اللعين أذفنش وأناخ علينا بكلكله ووطئنا بقدمه ، وأسر المسلمين وأخذ البلاد والقلاع والحصون ونحن أهل هذه الاندلس ليس لأحد منا طاقة على نصرة جاره ولا أخيه ولو شاؤوا لفعلوا الا أن الهواء والماء منعهم عن ذلك وقد ساءت الاحوال ، وانقطعت الامال ، وأنت أيدك الله سيد حمير ومليكها الأكبر وأميرها وزعيمها نزعت بهمتى اليكم واستنصرت بالله وبكم ، واستعنت بحرمكم لتجوزوا لجهاد هذا العدو الكافر وتحيون شريعة الاسلام ، وتذبون عن دين محمد عليه الصلاة والسلام ، ولكم بذلك عند الله الثواب الكريم ، والأجر الجسيم ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ، والسلام الكريم على حضرتكم السامية ، ورحمة الله وبركاته .

وما كتب فى استدعائه من انشاء كتابه وينسب لابى بكر ابن الجد : الى الملك المؤيد بفضل الله أمير المسلمين ، وناصر الدين وزعيم المرابطين ، أبى يعقوب يوسف بن تاشفين ، نور الله به الآفاق ،

---

(١) : مجهول : الحلل الموشية ، ص ٣٢ ـ ٣٥ .

وجمل ببهائه الجيوش والوفاق ، من الملك المفضل بنعمة الله ، المستجير برحمة الله ، المعتمد على الله ، محمد بن عباد سلام على حضرة تجدد أيمانها ، واشتهر أمانها ، أما بعد فان الله سبحانه أيد دينه بالاتفاق والائتلاف ، وحرم مسالك الشتات ودواعي الاختلاف ، وأنعم على عباده بأمر جديد ، قوم أولى بأس شديد ، وتطول علينا بمعلوم جدك ، ومشهور جدك ، وقد جعلك رحمة يحيى غيثها ربوع الشريعة ، وخلقك سلما الى الخير وذريعة ، وقد طرأ على الاسلام حادث أنسى كل هم ، وهمت النكبات بوقوعه دهم ، وذلك عدو أطمعه في البلاد شتات وبين ، واختلاف سببه لم تطرق له في الدعة عين ، يقوى ونضعف ، ويتفق ونختلف ، وننام مطمئنين من آفات الزمان ، وتناسخ الأمان ، وقد جاءنا ابراقه وارعاده ، ووعده وايعاده ، لنسلم له المنابر والصوامع ، والمحارب والجوامع ، ليقيم بها الصلبان ، ويستنيب بها الرهبان ، وما يطمعه(١) استمالته ايهانا بالدعة ، واملاؤه في الرحب والسعة ، استجرارا لما أبطنه ، واهجاما علينا وطنه ، وقد وطد الله لك(٢) ملكا شكر الله عليه جهادك ، وقيامك بحقه واجتهادك ، ولك من نصر الله الخير باعث يبعثك الى نصر مناره ، واقتباس نوره ونأره ، وعندك من جنود الله من يشترى الجنة بحياته ، ويحضر الحرب بآلاته ، فان شئت الدنيا فقطوف دانية ، وجنات عاليه ، وعيون آتيه ، وان أردت الأخرى فجهاد لا يفتر ، وجلاد يجز الغلاصم ويبتر ، هذه الجنة ادخرها الله لظلال سيوفكم ، واجمال معروفكم ، تستعين بالله وملائكته ، على الكافرين ، كما قال الله سبحانه وهو أكرم القائلين : قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ، والله يجمعنا على كلمة التوحيد ننصرها ، ونعمة الاسلام نشكرها ، ورحمة الله نتحدث بها وننشرها ، والسلام الموصول الجزيل على أمير المسلمين ، وناصر الدين ، ورحمة الله وبركاته .

---

(١) : العبارة في الأصل : وما يطعمه ، فجعلتها يطمعه اقتضاء للسياق .

(٢) : العبارة في الأصل : وقد وطد الله له ، فجعلتها وطد الله لك اقتضاء للسياق .

ملحق رقم (٤) (١)

خطاب يوسف بن تاشفين الى المعتمد بن عباد يخبره بموافقته على طلبه لنصرته ونصرة المسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما ، من أمير المسلمين ، وناصر الدين ، معيد دعوة أمير المؤمنين ، الى الأمير الأكرم المؤيد بنصر الله ، المعتمد على الله ، أبي القاسم محمد بن عباد أدام الله كرامته بتقواه ، ووفقه لما يرضاه ، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته . أما بعد فانه وصل خطابكم المكرم فوقفنا على ما تضمنه من استدعائنا لنصرتك ، وما ذكرته من كربتك ، وما كان من قلة حماية جيرانك فنحن يمين لشمالك ومبادرون لنصرتك وحمايتك ، وواجب علينا ذلك من الشرع وكتاب الله تعالى وأنه لا يمكننا الجواز الا أن تسلم لنا الجزيرة الخضراء تكون لنا لكي يكون جوازنا اليك على أيدينا متى شئنا فان رأيت ذلك فاشهد به على نفسك وابعث الينا بعقودها ونحن في أثر خطابك ان شاء الله والسلام ورحمة الله تعالى وبركاته .

---

(١) : مجهول : الحلل الموشية ، ص ٣٧ ـ ٣٨ .

ملحق رقم (٥) (١)

خطاب الفونسو السادس ليوسف بن تاشفين الذى يتحداه ويتهدده هو وملوك الطوائف

من أمير الملتين أذفنش بن فرنداه الى الأمير يوسف بن تاشفين أما بعد فلا خفاء على ذى عينين أنك أمير المسلمين بل الملة المسلمية ، كما أنا أمير الملة النصرانية ، ولم يخف عليك ما عليه رؤساؤكم بالاندلس من التخاذل والتواكل والاهمال للرعية والاخلاد الى الراحة وأنا أسومهم الخسف فأخرب الديار ، وأهتك الاستار ، واقتل الشبان ، وآسر الولدان ، ولا عذر لك فى التخلف عن نصرهم ان أمكنتك فرصة هذا وأنتم تعتقدون أن الله تبارك وتعالى فرض على كل واحد منكم بعشرة منا وأن قتلاكم فى الجنة وقتلانا فى النار ونحن نعتقد أن الله أظفرنا بكم ، وأعاننا عليكم ، ولا تقدرون دفاعا ، ولا تستطيعون امتناعا ، وبلغنا عنك أنك فى الاحتفال ، عن نية الاقبال ، فلا أدرى أكان الجبن يبطئ بك ، أم التكذيب بما أنزل عليك ، فان كنت لا تستطيع الجواز فابعث الىّ ما عندك من المراكب تجوز اليك ، وأناصرك فى أحب البقاع اليك ، فان غلبتنى فتلك غنيمة جلبت اليك ، ونعمة مثلت بين يديك ، وان غلبتك كانت لى اليد العليا واستكملت الامارة والله يتم الارادة .

فأمر أمير المسلمين يوسف بن تاشفين أن يكتب اليه على ظهر كتابه جوابا يا أذفنش ما تراه لا ما تسمعه ان شاء الله وأردف الكتاب ببيت أبى الطيب المتنبى :

ولا كتب الا المشرفية والقنا ×××× ولا رسل الا الخميس العرموم

---

(١) : مجهول : الحلل الموشية ، ص ٢٩ ـ ٣٠ .

المصادر والمراجع والدوريات

المصادر :

ابن الآبار : (ت ٦٥٨ هـ) :

(١) الحلة السيراء ، جزءان ، حققه وعلق حواشيه حسين مؤنس ، الطبعة الاولى ، القاهرة ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٦٣ م .

(٢) أعتاب الكتاب ، حققه وعلق عليه وقدم له صالح الأشتر ، طبعة اولى ، دمشق ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، ١٣٨٠هـ - ١٩٦١ م .

ابن الاثير : عز الدين ابوالحسن على بن محمد الشيبانى الجزرى (ت ٦٣٠ هـ) :

(٣) : الكامل فى التاريخ ، ٩ أجزاء ، تحقيق نخبة من العلماء ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة .

ابن بسام : (ت ٥٤٢ هـ) :

(٤) : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة .
- القسم الأول : المجلد الثانى ، نشر وتحقيق لجنة من جامعة القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٣٦١هـ - ١٩٤٢ م .
- القسم الثانى : المجلد الاول ، تحقيق لطفى عبدالبديع ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مركز تحقيق التراث ، القاهرة ، ١٩٧٥ م .
- القسم الثالث : المجلد الاول ، نشر تحقيق لجنة من جامعة القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٣٦٤ هـ - ١٩٤٥ م .

ابن بشكوال : (ت ٥٧٨ هـ) :

(٥) الصلة فى تاريخ علماء الاندلس ، قسمان ، القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٦م .

البكرى : (ت ٤٨٧ هـ) :

(٦) جغرافية الاندلس وأوربا ، من كتاب المسالك ، تحقيق عبد الرحمن على الحجى ، طبعة أولى ، بيروت دار الارشاد ، ١٣٨٧ هـ ـ ١٩٦٨م .

ابن تغرى بردى : (ت ٨٧٤ هـ) :

(٧) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ١٦ جزءا ، القاهرة ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر ، ١٩٦٤م .

الحميدى : (ت ٤٨٨ هـ) :

(٨) جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس ، القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٦م .

الحميرى : (ت أواخر القرن الثامن الهجرى) :

(٩) صفة جزيرة الاندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار ، نشر وتصحيح وتعليق ليفى بروفنسال ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٣٧م .

ابن حزم : (ت ٤٥٦ هـ) :

(١٠) طوق الحمامة فى الألفة والآلاف ، حققه وصوبه وفهرس له حسن كامل الصيرفى ، قدم له ابراهيم الابيارى ، القاهرة ، مطبعة الاستقامة .

(١١) نقط العروس فى تواريخ الخلفاء ، بقلم شوقى ضيف ، فصلة من مجلة كلية الآداب ، المجلد الثالث عشر ، الجزء الثانى مطبعة جامعة فؤاد الأول ، ديسمبر ١٩٥١م .

ابن حيان : (ت ٤٦٩ هـ) :

(١٢) المقتبس من أنباء أهل الاندلس .
- قطعة تتناول عصر الحكم الربضي وجزءا من عصر عبد الرحمن الاوسط ، تحقيق ونشر وتعليق محمود علي مكي ، القاهرة ، منشورات المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية ، لجنة احياء التراث الاسلامي ، الكتاب ٢١ - ١٣٩٠ هـ - ١٩٧١ م .
- قطعة تتناول عصر الحكم المستنصر ، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي ، بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٦٥ م .

ابن خاقان : (ت ٥٢٨ أو ٥٢٩ هـ) :

(١٣) قلائد العقيان في محاسن الاعيان ، نسخة مصورة عن طبعة باريس، قدم له ووضع فهارسه محمد العنابي بدار الكتب الوطنية بتونس ، منشورات المكتبة العتيقة ، تونس ، سلسلة من تراثنا الاسلامي رقم ١ ، ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م .

(١٤) مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الاندلس ، طبعة اولى ، القسطنطينية ، مطبعة الجوائب ، ١٣٠٢ هـ .

ابن الخطيب :(ت ٧٧٦ هـ) :

(١٥) الاحاطة في اخبار غرناطة ، ٣ مجلدات ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، القاهرة ، دار المعارف بمصر ، ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٥ م .

(١٦) اعمال الاعلام ، تحقيق احمد مختار العبادي ، ومحمد ابراهيم الكتاني (تاريخ المغرب في العصر الوسيط) القسم الثالث من المخطوطة ، الدار البيضاء ، دار الكتاب ، ١٩٦٤ م .

(١٧) القسم الثاني من اعمال الاعلام ، نشر أ . ليفي بروفنسال تحت عنوان (تاريخ اسبانيا الاسلامية) بيروت ، دار المكشوف ، ١٩٥٦ م .

ابن خلدون : (ت ٨٠٨ هـ) :

(١٨) العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر ، ٣ مجلدات ، بيروت ، دار الكتاب اللبنانى ، ١٩٥٨ م .

(١٩) مقدمة ابن خلدون ، بيروت ، ١٨٦٥ م .

ابن خلكان : (ت ٦٨١ هـ) :

(٢٠) وفيات الاعيان وأنباء أهل الزمان ، جزءان ، القاهرة ، مطبعة بولاق ، ١٣٨٣ هـ .

ابن دحية : (ت ٦٣٣ هـ) :

(٢١) المطرب من أشعار أهل المغرب ، تحقيق ابراهيم الابيارى وحامد عبدالمجيد ، مراجعة طه حسين ، بيروت ، دار العلم للجميع للطباعة والنشر والتوزيع .

ابن زيرى : عبدالله بن بلقين بن زيرى (ت بعد ٤٨٣هـ) :

(٢٢) مذكرات الامير عبدالله آخر ملوك بنى زيرى بغرناطة المسماة بكتاب التبيان ، تحقيق ليفى بروفنسال ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٥ م .

ابن سعيد المغربى : (ت ٦٨٥ هـ) :

(٢٣) المغرب فى حلى المغرب . حقق شوقى ضيف فى جزئين منفصلين ، القسم الثانى تحت عنوان وشى الطرس فى حلى جزيرة الاندلس ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٤ م .

السلاوى الناصرى : (ت ١٣١٥هـ / ١٨٣٥ - ١٨٩٧م) :

(٢٤) الاستقصا لأخبار دول المغرب الاقصى ، تحقيق وتعليق جعفر الناصرى و محمد الناصرى ، ١٠ أجزاء ، الدار البيضاء ، مطبعة دار الكتب ، ١٩٥٤ م .

السيوطي : (ت ٩١١ هـ ـ ١٥٠٥ م) :

(٢٥) تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، مطبعة الفجالة الجديدة ، الطبعة الرابعة ، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م .

ابن الشباط التوزري : (ت ٦٨١ هـ) :

(٢٦) صلة السمط وسمة المرط . تحقيق احمد مختار العبادي ، مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ، المجلد الرابع عشر ، مدريد ١٩٦٧م .

ابن شاكر الكتبي : (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢ ـ ١٣٦٣ م) :

(٢٧) فوات الوفيات ، جزءان ، القاهرة ، بولاق ١٢٩٩هـ/١٩٠١م .

صالح بن عبد الحليم : (عاش في القرن الثامن الهجري) :

(٢٨) الانيس المطرب بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، الرباط ، ١٩٣٦ م .

الضبي : (ت ٥٩٨ هـ / ١٢٠٢ م) :

(٢٩) بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الاندلس ، القاهرة ، ١٩٥٥ م .

ابن عذاري : (ت ٦٩٥ هـ) :

(٣٠) البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب ، ٣ أجزاء ، تحقيق ج . س . كولان ، وليفي بروفنسال ، بيروت ، دار الثقافة .

ابن غالب الاندلسي : (محمد بن أيوب بن غالب الغرناطي ، عاش في القرن السادس الهجري) :

(٣١) كتاب فرحة الأنفس في تاريخ الاندلس . وهو قطعة من الكتاب تتعلق بجغرافية الاندلس ، نشر وتحقيق لطفي عبد البديع ، فصلة من مجلة معهد المخطوطات ، القاهرة ، ١٩٥٥ م .

الفيروز آبادى : (ت ٨١٧ هـ) :

(٣٢) القاموس المحيط ، ٤ أجزاء ، بيروت ، دار الجبل .

ابن القطان (ابو الحسن على بن محمد الكتامى الفاسى ، ت ٦٣٨ هـ ـ ١٢٣٠ م) :

(٣٣) نظم الجمان فى اخبار الزمان ، تحقيق محمود على مكى ، نشر كلية الاداب بجامعة محمد الخامس ، الرباط ، الجزء السادس ، ١٣٨٣ هـ ـ ١٩٦٤ م .

القلقشندى : (ت ٨٢١ هـ ـ ١٤١٨ م) :

(٣٤) صبح الاعشى فى صناعة الانشا ، ١٤ جزءا .

ابن كثير : (ت ٧٧٤ هـ) :

(٣٥) البداية والنهاية فى التاريخ ، ١٦ جزءا ، نشر مطبعة السعادة ، القاهرة .

ابن الكردبوس : (ت أواخر القرن السادس الهجرى) :

(٣٦) الاكتفاء فى اخبار الخلفاء ، تحقيق احمد مختار العبادى ، مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ، المجلد الثالث عشر ، ١٩٦٥ ـ ١٩٦٦ م .

مجهول : (عاش فى القرن الثامن الهجرى) :

(٣٧) الحلل الموشية فى ذكر الاخبار المراكشية ، نشر ى . س علوش ، الرباط ، مطبوعات معهد الدراسات العليا المغربية ، ١٩٣٦ م .

مجهــول :

(٣٨) ذيــل مضاف الى البيــان المغــرب ، يتعلق بأخبــار بعض مـــلوك الطــوائف بالاندلــس والمغــرب ، لمؤلــف مجهــول الاســم مبتـــــور الأول والاخــر ، تحقيــق ليفي بروفنســال ، بيروت ، دار الثقافــة .

مجهــول : (عــاش بعد سنة ٧١٢هـ "سنة تأليف الكتاب") :

(٣٩) نبــذ تاريخيــة جامعــة فى اخبــار البربــر فى القرون الوسطى ، منتخبة من المجمــوع المسمى بكتــاب مفاخــر البربــر ، نشــر ليفى بروفنســال ، الربــاط ، مطبــوعات معهد العلوم المغربية ، ١٣٥٢هـ - ١٩٣٤ م .

المراكشــى : أبو محمد عبدالواحد بن على التميمى (ت ٦٤٧هـ) :

(٤٠) المعجــب فى تلخيــص أخبــار المغــرب ، تحقيــق محمد سعيد العريــان ، منشــورات المجلس الاعــلى للشــؤون الاســلامية ، لجنة تحقيق الـــتراث الاســلامى ، الكتاب الثالــث ، القاهــرة ، ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م .

المراكشــى : محمد بن عبدالمــلك (ت ٧٠٣هـ - ١٣٠٤م) :

(٤١) الذيــل والتكمــلة لكتــابى الموصــول والصــلة ، قسمان ، قاموس عــام لرجــال الاندلــس ومن وصــل اليهــا من المغــاربــة والمشــارقــة فــى آخر القرن السابع الهجرى ، تحقيق احسان عباس ، بيروت ، دار الثقافة .

المقــرى : (ت ١٠٤١ هـ - ١٦٣١ م) :

(٤٢) نفــح الطــيــب من غـصــن الاندلــس الرطــيــب ، وذكــر وزيـــرهــا لســان بن الخطــيــب ، تحقيــق وتعــليق محمــد محى الدين عبدالحميد ١٠ أجــزاء ، مطبعــة السعــادة ، طبعــة أولــى ، القاهــرة ، ١٣٦٩هـ/ ١٩٤٩ م .

الميداني : (ت ٥١٨ هـ) :

(٤٣) مجمع الامثال ، جزءان ، تحقيق وتعليق محمد محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، مطبعة السنة المحمدية ، ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م .

النباهي : (كان حيا سنة ٧٩٣ هـ) :

(٤٤) تاريخ قضاة الاندلس (سماه المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ، بيروت ، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٩٣٧م .

المراجـــع :

احسـان عـباس :

١ ــ تاريخ الادب العربى ــ عصر الطوائف والمرابطين ، سلسلة المكتبة الاندلسية رقم ٣ ، بيروت ، دار الثقافة ، الطبعة الخامسة ، ١٩٧٨ .

٢ ــ ديوان ابن حمديس ، نشر دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٣٧٩ هـ ــ ١٩٦٠ م .

احمد ابراهيم الشعراوى :

٣ ــ الأمويون أمراء الأندلس الأول ، القاهرة ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٥ م .

أحمد هيكل :

٤ ــ الادب الاندلسى من الفتح الى سقوط الخلافة ، القاهرة ، مكتبة الشباب ، طبعة ثانية ، ١٩٦٣ م .

أحمد مختار العبادى :

٥ ــ فى تاريخ المغرب والاندلس ، الاسكندرية ، مؤسسة الثقافة الجامعية ،

أ . ليفى بروفنسال :

٦ ــ الاسلام فى المغرب والاندلس ، ترجمة السيد محمود عبدالعزيز سالم و محمد صلاح الدين حلمى ، مراجعة لطفى عبدالبديع ، القاهرة ، مكتبة نهضة مصر ، ١٩٥٦ م .

٧ ــ حضارة العرب فى الاندلس ، ترجمة ذوقان قرقوط ، بيروت ، مكتبة الحياة .

٨ ــ سلسلة محاضرات عامة فى أدب الاندلس وتاريخها ، ترجمة محمد عبدالهادى شعيرة ، و عبدالحميد العبادى ، القاهرة ، كلية الاداب ، جامعة فاروق الاول ، ١٩٥١ م .

أميليو غرسيه غومس :

٩ ــ الشعر الاندلسى ، بحث فى تطوره وخصائصه ، ترجمة حسين مؤنس ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٦ م .

آنخل جنثالث بالنثيا :

١٠ــ تاريخ الفكر الاندلسى ، ترجمة حسين مؤنس ، طبعة أولى ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٥ م .

جودت الركابى :

١١ــ فى الادب الاندلسى ، ط ٤ ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٥ م .

حسن ابراهيم حسن و على ابراهيم حسن :

١٢ــ النظم الاسلامية ، ط ٤ ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٧٠ م .

حسن محمود :

١٣ــ قيام دولة المرابطين ، القاهرة ، ١٩٥٧ م .

حسين مؤنس :

١٤ــ شيوخ العصر ، المكتبة الثقافية ، ١٤٦ ، القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٥ م .

خالد الصوفى :

١٥ ـ تاريخ العرب فى أسبانيا (جمهورية بنى جهور) ، دمشق ، المطبعة التعاونية ، ١٩٥٩ م .

رجب محمد عبدالحليم :

١٦ ـ دولة بنى حمود فى مالقة بالاندلس (رسالة ماجستير) ، مقدمة لكلية الاداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٦م . (لم تطبع) .

رضا الجيب السويسى :

١٧ ـ ديوان المعتمد بن عباد ملك اشبيلية ، تونس ، الدار التونسية ، ١٩٧٥ م .

رينهرت دوزى :

١٨ ـ ملوك الطوائف ، وهو الجزء الذى ترجمه كامل الكيلانى من كتاب تاريخ مسلمى أسبانيا ، الطبعة الاولى ، ١٣٥١هـ/ ١٩٣٣م .

سعيد عبدالفتاح عاشور :

١٩ ـ أوربا فى العصور الوسطى ، جزءان ، القاهرة ، ١٩٦١ م .

السيد عبدالعزيز سالم :

٢٠ ـ تاريخ المسلمين وآثارهم فى الاندلس من الفتح العربى حتى سقوط الخلافة بقرطبة ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٢ م .

٢١ ـ المساجد والقصور فى الاندلس ، سلسلة اقرأ ، عدد ١٨٠ ، اكتوبر ، ١٩٥٨ م .

شكيب أرسلان :

٢٢ ـ الحلل السندسية فى الاخبار والآثار الاندلسية ، ٣ أجزاء ، بيروت ، دار مكتبة الحياة .

صلاح خالص :

٢٣ ـ محمد بن عمار الاندلسى ، دراسة أدبية وتاريخية لألمع شخصية سياسية فى تاريخ دولة بنى عباد فى اشبيلية ، بغداد ، مطبعة الهدى ، ١٩٥٧ م .

٢٤ ـ المعتمد بن عباد الاشبيلى ، دراسة أدبية وتاريخية لقطب الحركة الادبية وأبرز سلاطين الاندلس فى عصر ملوك الطوائف. بغداد ، نشر شركة بغداد للطبع والنشر والتوزيع المحدودة ، ١٩٥٨ م .

٢٥ ـ اشبيلية فى القرن الخامس الهجرى ، دراسة أدبية وتاريخية لنشوء دولة بنى عباد فى اشبيلية وتطور الحياة الادبية فيها ، ٤١٤ ـ ٤٦١ هـ ، بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٦٥ م .

عبادة كحيلة :

٢٦ ـ المولدون فى التاريخ الاندلسى منذ الفتح العربى حتى نهاية عصر الامارة (رسالة ماجستير) مقدمة الى كلية الاداب ، جامعة القاهرة ، ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م . (لم تطبع) .

على أدهم :

٢٧ ـ المعتمد بن عباد ، سلسلة أعلام العرب رقم ٢ ، القاهرة ، مكتبة مصر ،

على حبيبه :

٢٨ ـ مع المسلمين فى الاندلس ، طبعة ثانية ، جده ، دار الشروق للنشر والطباعة ،

على عبد العظيم :

٢٩ ـ ديوان ابن زيدون ورسائله ، القاهرة ، مكتبة نهضة مصر بالفجالة ، ١٩٥٧ م .

عبدالحق حموش :

٣٠ ـ ابن تاشفين ، الدار البيضاء ، دار الكتاب .

عبدالرحمن على الحجى :

٣١ ـ أندلسيات ، الطبعة الاولى ، بيروت ، دار الارشاد للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٩ م .

عبدالسلام الطود :

٣٢ ـ بنو عباد بأشبيلية ، مطبعة كريمادس ، ١٣٦٥هـ/١٩٤٦م .

عبدالكريم التواتى :

٣٣ ـ مأساة انهيار الوجود العربى بالاندلس ، الطبعة الأولى ، الدار البيضاء ، مكتبة الارشاد ، ١٩٦٧ م .

عبدالمنعم ماجد :

٣٤ ـ تاريخ الحضارة الاسلامية فى العصور الوسطى ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٣ م .

٣٥ ـ العلاقات بين الشرق والغرب ، بيروت ، مكتبة الجامعة العربية ، ١٩٦٦ م .

عبدالوهاب عزام :

٣٦ ـ المعتمد بن عباد الملك الجواد الشجاع الشاعر المرزأ ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٩ م .

عمر رضا كحالة :

٣٧ ـ معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، ٥ مجلدات ، طبعة ثانية ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م .

كامل كيلاني :

٣٨ ـ نظرات فى تاريخ الادب الاندلسى ، الطبعة الاولى ، نشر المكتبة التجارية بأول شارع محمد على ، ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٤ م .

ل . أ . سيديو :

٣٩ ـ تاريخ العرب العام ، امبراطورية العرب ، حضارتهم ، مدارسهم الفلسفية والعلمية والادبية ، ترجمة محمد عادل زعيتر ، القاهرة ، دار احياء الكتب العربية ، ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م .

لطفى عبدالبديع :

٤٠ ـ الاسلام فى أسبانيا ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٨م .

محمد بركات البيلى :

٤١ ـ الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى اشبيلية فى عصر بنى عباد ، (رسالة ماجستير) مقدمة الى كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م . (لم تطبع) .

محمد عبدالله عنان :

٤٢ ـ دولة الاسلام فى الاندلس : من الفتح الى عهد الناصر ـ العصر الأول ، القسم الأول ، الطبعة الرابعة ، مكتبة الخانجى ، ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م .

٤٣ ـ دولة الاسلام فى الاندلس : الخلافة الأموية والدولة العامرية ، العصر الأول ، القسم الثانى ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ، مكتبة الخانجى ، ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م .

٤٤ _ دولة الاسلام فى الأندلس : الدولة العامرية وسقوط الخلافة الاندلسية ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية ، ١٣٧٨ هـ / ١٩٥٨ م ٠

٤٥ _ دولة الاسلام فى الاندلس : دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطى ، العصر الثانى ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، مكتبة الخانجى ، ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م ٠

٤٦ _ دولة الاسلام فى الأندلس : عصر المرابطين والموحدين ، العصر الثالث من كتاب دولة الاسلام فى الاندلس ، القاهرة ، مكتبة الخانجى ، ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م ٠

٤٧ _ الآثار الاندلسية الباقية ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، مكتبة الخانجى ، ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م ٠

٤٨ _ تراجم اسلامية شرقية وأندلسية ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، مكتبة الخانجى ، ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م ٠

٤٩ _ مواقف حاسمة : الطبعة الرابعة ، القاهرة ، مكتبة الخانجى ، ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٢ م ٠

محمد عبد العزيز مرزوق :

٥٠ _ الفنون الزخرفية الاسلامية فى المغرب والاندلس ، بيروت ، دار الثقافة ٠

محمد كرد علي :

٥١ _ الاسلام والحضارة العربية ، جزءان ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٨ م ٠

٥٢ _ غابر الأندلس وحاضرها ، القاهرة ، المطبعة الرحمانية ، ١٩٢٣ م ٠

٤٤ ـ دولة الاسلام فى الأندلس : الدولة العامرية وسقوط الخلافة الاندلسية ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية ، ١٣٧٨ هـ / ١٩٥٨ م ٠

٤٥ ـ دولة الاسلام فى الاندلس : دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطى ، العصر الثانى ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، مكتبة الخانجى ، ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م ٠

٤٦ ـ دولة الاسلام فى الأندلس : عصر المرابطين والموحدين ، العصر الثالث من كتاب دولة الاسلام فى الاندلس ، القاهرة ، مكتبة الخانجى ، ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م ٠

٤٧ ـ الآثار الاندلسية الباقية ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، مكتبة الخانجى ، ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م ٠

٤٨ ـ تراجم اسلامية شرقية وأندلسية ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، مكتبة الخانجى ، ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م ٠

٤٩ ـ مواقف حاسمة : الطبعة الرابعة ، القاهرة ، مكتبة الخانجى ، ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٢ م ٠

محمد عبدالعزيز مرزوق :

٥٠ ـ الفنون الزخرفية الاسلامية فى المغرب والاندلس ، بيروت ، دار الثقافة ٠

محمد كرد علي :

٥١ ـ الاسلام والحضارة العربية ، جزءان ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٨ م ٠

٥٢ ـ غابر الأندلس وحاضرها ، القاهرة ، المطبعة الرحمانية ، ١٩٢٣م ٠

مصطفى الشكعة :

٥٣ ـ الادب الاندلسي موضوعاته وفنونه ، الطبعة الثانية ، بيروت، دار العلم للملايين ، ١٩٧٣ م .

مانويل جوميث مورينو :

٥٤ ـ الفن الاسلامى فى أسبانيا ، ترجمة لطفى عبدالبديع والسيد محمود عبدالعزيز سالم ، مراجعة جمال محرز ، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر ، ١٩٧٧ م .

هشام سليم عبدالرحمن أبورميلة :

٥٥ ـ نظم الحكم فى الاندلس فى عصر الخلافة (رسالة ماجستير) ، مقدمة الى كلية الآداب جامعة القاهرة ، ١٩٧٥ م . (لم تطبع) .

يوسف أشباخ :

٥٦ ـ تاريخ الاندلس فى عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة محمد عبدالله عنان ، القاهرة ، مؤسسة الخانجى ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٣٧٧ هـ / ١٩٥٨ م .

- J. B. BURY, M.A., F.B.A. , : THE CAMBRIDGE MEDIEVAL -٥٧
HISTORY. , VOLUME VI, CAMBRIDGE AT THE UNIVERSITY ,
PRESS. 1929.

- JAN READ : THE MOORS IN SPAIN AND PORTUGAL , LONDON. -٥٨
1974 .

- JOSEPH. F. O'CALLAGHAN : A HISTORY OF MEDIEVAL -٥٩
SPAIN., CORNELL UNIVERSITY PRESS LONDON 1974 .

الدوريات :

ابراهيم حركات :

١ ـ حياة المعتمد بن عباد فى الاندلس كشاعر . مجلة البحث العلمى المغربى ، ١٩٦٥ م .

أحمد مختار العبادى :

٢ ـ دراسة حول كتاب الحلل الموشية فى ذكر الاخبار المراكشية . مجلة تطوان للأبحاث المغربية الأندلسية ، العدد الخامس ، السنة ١٩٦٠ م .

٣ ـ الصقالبة فى أسبانيا ، مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ، المجلد الثالث عشر ، السنة ١٩٥٣ م .

حسين مؤنس :

٤ ـ السيد القمبيطور وعلاقته بالمسلمين ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثالث ، العدد الاول ، سنة ١٩٥٠ م .

٥ ـ سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين ، مجلة معهد الدراسات الاسلامية المصرى بمدريد ، المجلد الثانى ، العدد ١ ـ ٢ ، سنة ١٩٥٤ م .

خليل ابراهيم صالح السامرائى :

٦ ـ الدعوة الى توحيد الاندلس فى أيام الطوائف ، مجلة زانكو العلمية الانسانيات ، نيسان ، ١٩٧٧ م .

خوسيه ماريا مياس بيكروسا :

٧ ـ ابن بصال ، مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ، زاوية نقد وعرض ، المجلد الخامس ، العدد ١ ـ ٢ ، ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م .

السيد عبدالعزيز سالم :

٨ ـ مقال بعنوان : تحقيق أسماء قصور بنى عباد باشبيلية الواردة فى شعر ابن زيدون مجلة ثقافية يصدرها المعهد الاسبانى العربى للثقافة ، العدد الثانى ، ١٩٧٩م .

الصديق بن العربى :

٩ ـ شعر المعتمد فى منفاه ، مجلة تطوان ، العدد الخامس ، ١٩٦٥ م .

عبد السلام الهراس :

١٠ ـ ابن اللبانة ، مجلة تطوان ، ١٩٥٥ م .

عبد القادر زمامة :

١١ ـ المعتمد بن عباد فى المغرب ، مجلة البحث العلمى المغربى ، ١٩٦٥ م .

ليبولدو توريس بلباس :

١٢ ـ الأبنية الاسبانية الاسلامية ، مجلة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية ، العدد الأول ، المجلد الاول ، السنة الأولى ، ١٣٧٢ هـ / ١٩٥٣ م .

محمود على مكى :

١٣ ـ وثائق تاريخية جديدة فى عصر المرابطين ، مجلة معهد الدراسات الاسلامية المصرى بمدريد ، المجلد السابع والثامن ، مدريد ، ١٩٥٩ ، ١٩٦٠ م .

محمد الفاسى :

١٤ ـ المؤرخان ابن أبى زرع وابن عبد الحليم ، مجلة تطوان ، العدد الخامس ، السنة ١٩٦٠ م .

مصطفى القصرى :

١٥ ـ الشعر فى خدمة الحقيقة والتاريخ . مجلة البحث العلمى (المركز الجامعى للبحث العلمى) العدد الأول ، السنة الأولى ، ابريل ، ١٩٣٤ م .

- ANGUS MACKAY AND MUHAMMAD BEN ABOUD : -١٦
AL FONSO VI OF LEON AND CASTILE., AL IMBRATUR DHU -L- MILLATAYN' in BHS, LVI, 1979, UNIVERSITY OF EDINBURGH .

- MUHAMMAD BENABOUD Y ANGUS MACKAY : -١٧
THE AUTHENTICITY OF AL FONSO VI's LETTER TO YUSUF B. TASUFIN, in AL-ANDALUS, VOL, XLIII, 1978, FASC, I .

(فهرســـــــت)

الموضوع		رقم الصفحة

رقم الصفحة	الخطأ	الصواب
١١	قنوات أخرى تابعة	قنوات أخرى تالية
٩٦	آمال وأماني	آمال وأمان
١٠٥	الدم في الأخلاق	الدمث الأخلاق
١٠٥	نسار	نصار
٢٢٦	تأميه صلاح خالص	تأبينه صلاح خالص
٢٢٧	هنالك عدد من	هناك عدد من
٢٦٥	لسنا منتجون	لسنا بمنتجين
٢٧٩	كضرورة محلة	كضرورة ملحّة
٣٣٧	آثر حظيانه	آثر حظياته
٣٣٨	وأجرى عليها	وأجرى عليهما
٣٤٢	فوق الأجسور	فوق الجسور
٣٦٥	بيت يدرسون فيه	بيت يجلسون فيه
٣٧٢	ضريبة مالية	ضريبة مالية